



مجلة

المؤرخ العربي

مجلة علمية محكمة

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الثامن والعشرون - أكتوبر ٢٠٢٠ م

- (المجلد الأول) -

جميع المراسلات ترسل باسم

الأستاذ الدكتور رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

مقر الأنشطة: مدينة نصر- الحى الثامن- ١٠ شارع فؤاد بدواني - خلف مدرسة الصديق

تليفون: ٢٢٨٧٠٠٩٠ - ٢٢٨٧٠٠٢ - ٠٠٢ - فاكس: ٢٢٨٧٠٠٩١ - ٢٢٨٧٠٠٢ - ٠٠٢

موقع المجلة على بنك المعرفة المصرى

<https://hja.journals.ekb.eg/>

Email : arabhistoryso@hotmail.com

مقر المؤتمرات: التجمع الأول - بعد سنترال التجمع - خلف مدرسة جرين هايتس

www.arabhistoryso.net

رقم الإيداع: (١٩٩٤/٦٥٤٩)

الترقيم الدولي: (ISSN) (2535-2288)



لا يسمح إطلاقاً بترجمة هذه الدورية إلى أي لغة أخرى،
أو إعادة إنتاج أو طبع أو نقل أو تخزين أي جزء منها على
أية أنظمة استرجاع بأي شكل أو وسيلة، سواء الإلكترونية أو
ميكانيكية أو غيرها من الوسائل دون الحصول على موافقة
كتابة خطية مسبقة من: إدارة اتحاد المؤرخين العرب.

شروط نشر البحوث في مجلة المؤرخ العربي

١. أن يكون عضواً باتحاد المؤرخين العرب.
٢. عدد صفحات البحث في حدود (٣٠ ورقة) وما يزيد يحاسب بالورقة.
٣. الخط: (Simplified Arabic) بنط (١٦) والهوامش السفلية بنط (١٤).
٤. يقدم البحث من نسختين ورقيتين + نسخة على سي دي CD، أو فلاشة.
٥. يكتب ملخص للبحث باللغتين (العربية والانجليزية) في حدود ورقتين.
٦. سداد رسوم التحكيم والنشر بالمجلة بإدارة الاتحاد.
٧. المجلة غير ملزمة بإعادة البحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

شروط الاشتراك في عضوية الاتحاد

١. الحصول على الدكتوراه (في التاريخ أو الآثار).
٢. عدد (٢) صورة شخصية - ملئ استمارة العضوية.
٣. سداد الرسوم المقررة.



مجلة
المؤرخ العربي
(مجلة علمية محكمة)
يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

رئيس مجلس الإدارة
أ.د. محمد عيسى الحريري
رئيس اتحاد المؤرخين العرب
الأستاذ بكلية الآداب - جامعة المنصورة

رئيس التحرير
أ.د. زبيدة محمد عطا
مسئولة النشاط الثقافي باتحاد المؤرخين العرب
أستاذ بكلية الآداب - جامعة حلوان

هيئة التحرير
أ.د. عفيفي محمود إبراهيم أمين عام الاتحاد
أ.د. حامد زيان غانم أمين الصندوق
أ.د. عفاف سيد صبرة مسئولة العلاقات العامة

سكرتارية التحرير
أ. عبدالعزيز همام
أ. محمود يحيى



الرؤية

السعي لتحقيق الريادة في النشر العلمي المتميز في المحتوي والمضمون والتأثير والمرجعية في مجالات الوطن العربي وأقطاره.

الرسالة

نشر البحوث العلمية الأصلية والرصينة والمبتكرة في مجالات الوطن العربي وأقطاره في مجالات اختصاص المجلة وفق المعايير والقواعد المهنية العالمية المعمول بها في المجالات المحكمة دولياً.

الأهداف

- نشر البحوث العلمية الأصيلة والرصينة والمبتكرة.
- إتاحة المجال أمام العلماء والباحثين في مجالات اختصاص المجلة في التاريخ، على المستوي المحلي والإقليمي والعالمي لنشر بحوثهم وإنتاجهم العلمي.
- نشر أبحاث كبار الأساتذة وأبحاث الترقية للسادة الأساتذة المساعدين والسادة المدرسين بمختلف الجامعات المصرية والعربية.
- تشجيع ونشر مختلف البحوث المتعلقة بالدراسات التاريخية للوطن العربي.
- الإسهام في تنمية مجتمع المعرفة في مجالات اختصاص المجلة من خلال نشر البحوث العلمية الرصينة والمتميزة.



الهيئة الاستشارية المصرية

م	الاسم	الوظيفة
١	أ.د. محمد عيسى الحريري	رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة الأستاذ بكلية الآداب - جامعة المنصورة
٢	أ.د. عفيفي محمود إبراهيم	أمين عام اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة أستاذ بكلية الآداب - جامعة بنها
٣	أ.د. حامد زيان غانم	أمين عام الصندوق باتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة
٤	أ.د. زبيدة محمد عطا	مسئولة النشاط الثقافي باتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة حلوان
٥	أ.د. عفاف سيد محمد صبرة	مسئولة العلاقات العامة باتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر
٦	أ.د. رأفت غنيمي الشيخ	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة الرقازيق
٧	أ.د. أشرف محمد مؤنس	مسئول المكتبات باتحاد المؤرخين العرب مدير مركز بحوث الشرق الأوسط - جامعة عين شمس
٨	أ.د. طارق منصور محمد	عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة أستاذ بكلية الآداب - جامعة عين شمس
٩	أ.د. حمدى عبدالمنعم محمد	عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة كلية الآداب جامعة اسكندرية
١٠	أ.د. إيمان محمد عبدالمنعم عامر	عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة أستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة



الهيئة الاستشارية الدولية

م	الاسم	الجنسية	الوظيفة
١	أ.د. إسماعيل محمد البشرى	سعودى	نائب رئيس اتحاد المؤرخين العرب مدير جامعة الجوف سابقا
٢	أ.د. أحمد عمر الزيلعي	سعودى	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية السياحة والآثار-جامعة الملك سعود
٣	أ.د. إبراهيم بن محمد المزيني	سعودى	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض
٤	أ.د. حياة ناصر سالم الحجي	كويتية	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة الكويت
٥	أ.د. على منصور آل شهاب	بحريني	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب نائب رئيس جامعة البحرين
٦	أ.د. محمد بهجت القبيسي	سورى	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ محاضر بجامعة حلب - سابقا
٧	أ.د. نبيلة عبدالشكور	جزائرية	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بجامعة الجزائر ٢.
٨	أ.د. عبدالله سعيد الغامدى	سعودى	عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة أستاذ العصور الوسطى- كلية الشريعة- جامعة أم القرى
٩	أ.د. عبدالرحمن محمد الانصارى	سعودى	عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة أستاذ بكلية الآداب - جامعة الملك سعود



هذه المجلة

١. مجلة المؤرخ العربي مجلة تاريخية بحثية، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة.
٢. تستهدف المجلة إظهار الحقيقة التاريخية لموضوع محدد صافية نقية، بعيدة عن أي تيارات سياسية أو عقائدية.
٣. البحوث التي تنشر فيها محكمة، تعبر عن وجهة نظر أصحابها، وهيئة التحرير غير مسنولة عما يرد من آراء علمية.
٤. تصدر مؤقتاً سنوياً في أكتوبر من كل عام، علي أن تصلها البحوث المقدمة للنشر في كل عدد في موعد غايته نهاية شهر فبراير من نفس العام.
٥. تعد الخرائط والرسوم وغيرها من الإيضاحات بالحبر الصيني علي ورق الرسم، قابلة للاستنساخ المباشر.
٦. يشترط ألا يكون العمل المقدم قد سبق نشره، أو قدم للنشر في أية جهة أخرى، ويكتب الباحث تعهداً بعدم تقديمه للنشر في أي جهة أخرى بعد قبوله للنشر بالمجلة.
٧. لا ترد أصول الأعمال المقدمة سواء قبلت للنشر أو لم تقبل.
٨. يرد عنوان البحث في رأس الصفحة الأولى، متبوعاً باسم المؤلف مقروناً بوظيفته وجهة عمله.
٩. ترتب الهوامش والتعقيبات التفصيلية بترقيم موحد في نهاية العمل.
١٠. يراعي في إعداد قائمة المراجع ما يلي:
 - (أ) تسجيل أسماء المؤلفين أو المحققين أو المترجمين أو المراجعين، متبوعة بعنوان الكتاب ثم مكان النشر ثم اسم الناشر، ثم تاريخ النشر، مع بيان الطبعة.
 - (ب) مقالات الدوريات تبدأ باسم صاحب المقال، ثم عنوان المقال، ثم اسم الدوريات، ثم رقم المجلد والعدد والمجلة وتاريخه، ثم أرقام الصفحات التي يقع فيها المقال.
 - (ج) الرسائل الجامعية يتم تسجيل اسم صاحب الرسالة، وعنوانها، والجامعة التي أجازتها، واسم المشرف، وتاريخ الإجازة.



المحتويات

م	الموضوع	الاسم	ص
أ	كلمة الافتتاح (رئيس اتحاد المؤرخين العرب)	أ.د. محمد عيسى الحريري	١٠
ب	كلمة التحرير (رئيس تحرير مجلة الاتحاد)	أ.د. زبيدة محمد عطا	١٢
ج	أسماء السادة أعضاء مجلس الإدارة	اتحاد المؤرخين العرب	١٤
د	أسماء السادة الأساتذة المحكمون	لهذا العدد	١٥
١	دور المرأة في مهنة السقاية عبر العصور التاريخية	د. جيهان سعيد الراجحي	١٦
٢	الأديرة المسيحية في عصر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله	د. محمد فهمي إمبابي	٣١
٣	ميناء الجار اضمحلاله وانهيائه في القرنين الخامس والسادس الهجريين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين	د. علاء محمد عبد الغني	٨٦
٤	مؤذنو الحرم المكي في العصرين الأيوبي والمملوكي	أ.د. شلبي إبراهيم إبراهيم الجعيدى	١٢٢
٥	حصن مخاضة يعقوب وأثره في الصراع الصليبي الإسلامي	د. حجازي عبد المنعم سليمان	١٦١
٦	خصائص الكتابة التاريخية المشتركة عند اثنين من مؤرخي البلاط الموحدى	د. عادل يحيى عبدالمنعم	٢٤٦
٧	الألقاب والكنى في العصر المملوكي من سمات النفوذ والسلطة في مصر	أ.د. نعمة علي مرسى	٢٩٦



٣٤١	د/ عبد الحليم علي رمضان دويم	موارد المياه في إفريقية من خلال رحلة التجاني في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي	٨
٣٧٨	د/ الشيماء سيد كامل محمد	ابن سباط مؤرخاً من خلال كتابه صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط	٩
٤٤١	أ.د. أحمد عبد الدايم محمد حسين	ورقة النيل والنهضة في مصر (المشروع البريطاني لتوطين اليهود في منابع النيل الاستوائية)	١٠
٥٠٣	د. هدى محمود نايل	الموقف الأمريكي من الحركة الوطنية الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي (١٩٥٤-١٩٦٢)	١١



كلمة الافتتاح

أ.د. محمد عيسى الحيري

رئيس اتحاد المؤرخين العرب

رغم تعدد مجالات الدراسات التاريخية وإصدار المجالات العلمية والثقافية على مستوى مصر والعالم العربي، إلا إن (مجلة المؤرخ العربي) التي يصدرها سنويًا اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة كانت ولا تزال في صدارة هذه المطبوعات والإصدارات التاريخية، حيث إنها تنصدر هذا المشهد بما لها من مكانة علمية عظيمة على مستوى الوطن العربي، وثقل تاريخي كبير يقوم على توثيق الأحداث التاريخية وحفظها، وذلك عن طريق الأبحاث التي تحتويها لكبار العلماء والمؤرخين ورواد دراسة التاريخ في العالم العربي، ومنذ أن صدر أول عدد لهذه المجلة عام ١٩٩٢م، وهي ملتزمة دائمًا بالعمق والجدية الواجبة، ورصدها للأحداث السياسية والتاريخية بدقة وإسهاب في شتى (العصور القديمة- والوسطى- والحديثة- والإسلامية).

يقول الله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) سورة فاطر ٢٨.

من هذا المنطلق، استشعر اتحاد المؤرخين العرب ضرورة الاهتمام بالدراسات التاريخية والحضارية، ودوره الكبير في هذه الفترة للقيام بواجبه نحو مواكبة الأحداث التاريخية والثقافية وتشجيع وتحديث الدراسات التاريخية والأثرية التي تسهم في دعم أواصر الوحدة العربية وتماسكها.

ويسعدني أن أقدم هذا العدد الثامن والعشرين من مجلة المؤرخ العربي لعام ٢٠٢٠م، متضمنًا عددًا من الأبحاث التاريخية المتنوعة لعدد من أساتذة التاريخ بشتى عصوره: العتيقة، والوسيطة، والحديثة، والمعاصرة. وكذلك في تخصصات متنوعة ما بين حضارة مصر والشرق القديم، أو التاريخ اليوناني الروماني، أو التاريخ والحضارة الإسلامية.



ولا شك إن جهود السادة الزملاء من أساتذة التاريخ في عدة جامعات مختلفة على مستوى الوطن العربي، وأيضاً جهود السادة الباحثين الأفاضل؛ توخت - بالقدر الممكن - أن تكشف وجه الحقيقة دون تحيز أو ميل مع أي غرض أو اتجاه يتنافى مع عدالة الرصد والتاريخ في المصادر التاريخية ليخرجوا بمجموعة من الأبحاث المتميزة بموضوعات مختلفة متنوعة، عبروا فيها عن فكر عميق، وإمام وافر، وسعة إطلاع، أبهرت كثيراً من أرباب الفكر ورواد دراسة التاريخ.

وفي النهاية يهمني أن أشكر جميع الزملاء والباحثين الذين شاركوا وقدموا ٦٥ بحثاً في هذا المؤتمر (الوطن العربي في كتابات الرحالة والجغرافيين) لعام ٢٠١٩م، كما أتوجه بالشكر أيضاً إلى جميع الزملاء والأعضاء الذين حضروا هذا المؤتمر العظيم وقد تجاوزوا أكثر من ٣٥٠ شخصاً من أعضاء الاتحاد والضيوف الأعرء .. شكري وتقديري لهم جميعاً.
نسأل الله العليّ القدير لكم المزيد من التوفيق والسداد، وأن ينفعنا جميعاً بهذا العلم.

أ.د. محمد عيسى الحريري

رئيس اتحاد المؤرخين العرب

نوفمبر ٢٠٢٠م



كلمة التحرير

يصدر العدد الجديد من مجلة المؤرخ العربي في ظل ظروف تسود العالم وأثرت على المجال الثقافي والعلمي، وخاصة الأنشطة الثقافية فلم نستطع هذا العام استكمال الندوات الشهرية، ولكننا سنقوم بإذن الله باستعادة النشاط لنشاط الندوات اعتباراً من شهر ديسمبر ٢٠٢٠م وذلك عبر الفيديو كونفرانس، وكذلك فإن المجلة نقلت في إطار بنك المعرفة المصري، وهذا يساعد على سرعة الإنجاز، كذلك، فإن ملخصات الندوات ستصدر بعد ذلك بنفس الطريقة.

والمجلة ستصدر في مجلدين وتطوف بنا عبر الفترات الزمنية وعن القادات في أبحاث تتناول تاريخ العراق القديم إلى التاريخ الإسلامي والوسيط عن الأديرة في العصر الفاطمي إلى دور المرأة إلى دراسة تاريخية عن كتب الرحلات، سواء ما تناول الحياة الاجتماعية وعن الطعام واللباس في عهد الأشرف قايتباي ومدارس دمشق من خلال وصف ابن بطوطة والسلع والأسواق في بلاد المغرب من خلال كتاب المسالك والممالك انتقالاً للتاريخ الحديث كرحلة المستشرق الإيطالي لودفيكو دي فارتينا بين القاهرة ودمشق، أسواق مدينة تونس في كتابات الرحالة الأوربيين في العصر العثماني إلى الأوضاع السياسية للمملكة المتوكلية اليمنية في رحلة أمين الريحاني، فالرحلات تعكس صورة واقعية لشاهد عيان عن أحداث الفترة ثم دراسات عن موقف أمريكا من الحركة الوطنية في الجزائر، وعن اليهود



وتوطينهم في منابع النيل الاستوائية، فهي موسوعة شاملة جديدة بالقراءة متنوعة المعلومة والفائدة، ونرجو أن تنتهي الجائحة لنعاود النشاط الثقافي المباشر، ويوفر الاتحاد جميع وسائل الاتصال الإلكترونية في نفس الوقت ليظل التواصل العلمي قائماً، ونرجو أن نكون قد قدمنا جهداً مقبولاً للقارئ.

وفي الختام نأمل أن نتلقى آرائكم ومقترحاتكم لإثراء هذه المجلة .

والله ولي التوفيق،،،

رئيس التحرير

أ.د. زبيدة محمد عطا

هيئة التحرير

أ.د. حامد زيان غانم

أ.د. عفاف سيد صبرة

أ.د. عفيفي محمود إبراهيم



السادة أعضاء مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب

م	الإسم	الجنسية	الوظيفة
١	أ.د. محمد عيسى الحريري	مصرى	رئيس اتحاد المؤرخين العرب - بالقاهرة الأستاذ بكلية الآداب - جامعة المنصورة
٢	أ.د. اسماعيل بن محمد البشرى	سعودى	نائب رئيس اتحاد المؤرخين العرب - بالقاهرة مدير جامعة الجوف سابقا
٣	أ.د. عفيفي محمود إبراهيم	مصرى	أمين عام اتحاد المؤرخين العرب - بالقاهرة أستاذ بكلية الآداب - جامعة بنها
٤	أ.د. حامد زيان غانم	مصرى	أمين الصندوق باتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة
٥	أ.د. زبيدة محمد عطيا	مصرى	مسئولة النشاط الثقافي باتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة حلوان
٦	أ.د. أحمد بن عمر الزيلعي	سعودى	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية السياحة والتجارة - جامعة الملك سعود
٧	أ.د. عفاف سيد محمد صبرة	مصرية	مسئولة العلاقات العامة باتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر
٨	أ.د. إبراهيم بن محمد المريني	سعودى	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض
٩	أ.د. رأفت غنيمي الشيخ	مصرى	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة الرقازيق
١٠	أ.د. على منصور آل شهاب	بحرينى	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب نائب رئيس جامعة البحرين
١١	أ.د. أشرف محمد مؤنس	مصرى	مسئول المكتبات باتحاد المؤرخين العرب مدير مركز بحوث الشرق الأوسط - جامعة عين شمس
١٢	أ.د. نبيلة عبدالشكور	جزائرية	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بجامعة الجزائر ٢
١٣	أ.د. حياة ناصر سالم الحجي	كويتية	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة الكويت
١٤	أ.د. محمد بهجت القبيسى	سورى	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ محاضر بجامعة حلب - سابقا



السادة الأساتذة المحكمون

م	الاسم	الوظيفة
١	أ.د. محمد عيسى الحريري	رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة الأستاذ بكلية الآداب - جامعة المنصورة
٢	أ.د. عفيفي محمود إبراهيم	أمين عام اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة أستاذ بكلية الآداب - جامعة بنها
٣	أ.د. حامد زيان غانم	أمين عام الصندوق باتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة
٤	أ.د. زبيدة محمد عطا	مسئولة النشاط الثقافي باتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة حلوان
٥	أ.د. عفاف سيد محمد صبرة	مسئولة العلاقات العامة باتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر
٦	أ.د. أشرف محمد مؤنس	مسئول المكتبات باتحاد المؤرخين العرب مدير مركز بحوث الشرق الأوسط - جامعة عين شمس
٧	أ.د. رأفت غنيمي الشيخ	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب - جامعة الرقازيق
٨	أ.د. إيمان محمد عبدالمنعم عامر	عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة أستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة
٩	أ.د. محمد أحمد بديوى	عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة أستاذ بكلية الآداب - جامعة أسيوط

دور المرأة في مهنة السقاية عبر العصور التاريخية

د. جيهان سعيد الراجحي

قسم العلوم الاجتماعية - كلية الآداب

جامعة الطائف

ملخص البحث:

كرم الإسلام المرأة وأعطى لها حرية الدين والملكية، والمال، والعلم حتى أصبحت تستفتى في أمور الدين، وشاركت الرجل في تحمل مسؤوليات المجتمع في حدود الشريعة عالمة، ومعلمة كما شاركته وناقسته في تأسيس الجوامع، والمدارس والأربطة والبيمارستانات، إذ كان لها دورها البارز في أعمال الخير والبر في جميع الأمكنة والأزمنة حتى تبوءت مرتبة عالية في مجتمعها خلال العصور التاريخية في التاريخ الإسلامي، وحصلت على ألقاب تشريفية أطلقت على كثير من النساء في كافة العصور منها: الواعظة، والشیخة، والعالمة، والفقیهة، والصالحة، والمباركة والأصيلة، والمحدثه، والمسندة، والخيرة الفاضلة.

وهذه الدراسة محاولة لتقديم فكرة واضحة عن جانب من جوانب الدور الحضاري للمرأة المكية خلال العصور التاريخية الإسلامية، إذ كانت إسهاماتها بارزة ونلحظ ذلك من خلال التغيرات السياسية، والاجتماعية التي أثرت في مكة وكان لها أثرها على النشاطات التي مارستها المرأة، تميزت المرأة بعبء ثري في النشاط الاجتماعي والعلمي في وقت كانت المرأة في أوروبا لا قيمة لها في المجتمع مقصيه عنه ولا حقوق لها.

كما نتناول الجانب الخيري والاجتماعي لدور المرأة في مهنة السقاية في كافة العصور التاريخية، ومن خلال نماذج لبعض النساء اللاتي كن لهن بصمتهن في هذا المجال تلقى الضوء على دور النساء الاجتماعي الذي من خلاله استطعن أن يكن لهن نشاطهن البارز في مهنة السقاية من خلال أوجه الإنفاق والتشييد، وأعمال البر، وبناء الأسبلة والسقايات، في مكة المكرمة والمشاعر المقدسة، وفي درب الحاج والأربطة والبيمارستانات، وأعمال البر الأخرى إذ كن أنموذجاً لنساء الحرمين ومشاركتهن الفعالة في المجتمع.

Summary

Islam honored the woman and gave her freedom of religion, property, money, and knowledge until she became a question in matters of religion, and the man participated in carrying out the responsibilities of society within the limits of the Sharia, a scholar and teacher, as it participated and compete with him in establishing mosques, schools, ligaments, and imams, as she had a prominent role in charitable work. Righteousness in all places and times until it assumed a high position in her society during the historical eras in Islamic history, and she obtained honorary titles given to many women of all ages, including: the preacher, the sheikh, the scholar, the jurist, the righteous, the blessed and the authentic, the modern, the musnad, and the good Virtuous.

This study is an attempt to provide a clear idea about one aspect of the civilizational role of the Meccan woman during the Islamic historical eras, as her contributions were prominent and we notice this through the political and social changes that affected Makkah and had an impact on the activities practiced by women. Social and scientific at a time when women in Europe had no value in society, excluded from it, and had no rights.

We also deal with the charitable and social aspect of the role of women in the watering profession in all historical eras, and through examples of some women who have had their mark in this field, we shed light on the social role of women through which they were able to have their prominent activity in the watering profession through aspects of spending and construction. , And the works of righteousness, and the building of basilicas and waterings, in Makkah Al-Mukarramah and the holy sites, and in the path of pilgrimage, ligaments, bimaristans, and other acts of righteousness as they were a model for the women of the Two Holy Mosques and their active participation in society.

المقدمة:

كرم الإسلام المرأة وأعطى لها حرية الدين والملكية، والمال، والعلم حتى أصبحت تستفتى في أمور الدين، وشاركت الرجل في تحمل مسؤوليات المجتمع في حدود الشريعة عالمة، ومعلمة كما شاركته وناقشته في تأسيس الجوامع، والمدارس والأربطة والبيمارستانات؛ إذ كان لها دورها البارز في أعمال الخير والبر في جميع الأمكنة والأزمنة حتى تبوأ مرتبة عالية في مجتمعها خلال العصور التاريخية في التاريخ الإسلامي، وحصلت على ألقاب تشريفية أطلقت على كثير من النساء في كافة العصور منها: الواظنة، والشيخة، والعالمة، والفقهاء، والصالحة، والمباركة والأصيلة، والمحدثة، والمسندة، والخيرة الفاضلة^(١).

وهذه الدراسة محاولة لتقديم فكرة واضحة عن جانب من جوانب الدور الحضاري للمرأة المكية خلال العصور التاريخية الإسلامية؛ إذ كانت إسهاماتها بارزة، ونلاحظ ذلك من خلال التغيرات السياسية، والاجتماعية التي أثرت في مكة، وكان لها أثرها على النشاطات التي مارستها المرأة، تميزت المرأة بعبء ثري في النشاط الاجتماعي والعلمي في وقت كانت المرأة في أوروبا لا قيمة لها في المجتمع مقصيه عنه ولا حقوق لها.

كما نتناول الجانب الخيري والاجتماعي لدور المرأة في مهنة السقاية في كافة العصور التاريخية، ومن خلال نماذج لبعض النساء اللاتي كن لهن بصمتهن في هذا المجال، تلقى الضوء على دور النساء الاجتماعي الذي من خلاله استطعن أن يكن لهن نشاطهن البارز في مهنة السقاية من خلال أوجه الإنفاق والتشييد وأعمال البر، وبناء الأسبلة والسقايات، في مكة المكرمة والمشاعر المقدسة، وفي درب الحاج والأربطة والبيمارستانات، وأعمال البر الأخرى؛ إذ كن أنموذجاً لنساء الحرمين وشاركنهن الفعالة في المجتمع.

(١) الفاسي، أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن الحسن (ت ٧٧٥هـ/٨٣٢م): العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد، بيروت، مؤسسة بيروت، ١٤٠٦، ج ٨، ص ٢٠٢، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٧٠، السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٣٥٥، ج ١٢، ص ٨٧-٨٨.

دور المرأة في مهنة السقاية :

كانت السقاية من تلك القيم السامية التي عرفها العرب لماجرت عليه العادة في الجزيرة العربية من سقاية الناس، وحجاج بيت الله الحرام، حيث إن شرف سقاية الناس وتسهيل حصولهم على مياه الشرب في المنطقة العربية عامة قديم ومعروف؛ لاسيما وأن طبوغرافية مكة بجوها الحار، وبيئتها المترية قد^(١) دفعت المحسنين إلى التباري في توفير المياه لأهل مكة، وكم تاهت قريش فخرًا قبل الإسلام لقيامها بدور سقاية الحجاج، ومن سقاية الحجاج في هجير مكة إلى سقاية المارة في طرقات المدن، وحولوها في ظل الإسلام من مجرد عادة يحكمها العرف إلى عمل منظم تحكمه قواعد مؤسسية وترعاها هيئات شرعية. عرفت بالأسبلة أو السقايات يقول الفاسي: (بمكة وحرمة عدة سقايات، تسمى أيضًا السبل بسين مهمله وباء موحدة مضمومتين جمع سبيل، وشهرتها عند الناس بالسبل أكثر، وهي كثيرة إلا إن بعضها صار لا يعرف لخرايه وبعضها معروف مع الخراب).

وتعتبر السقايات مظهرًا من مظاهر المسلمين، وعنايتهم بتوفير مياه الشرب لسقاية الحجاج بمكة المكرمة، والمشاعر المقدسة، والذي يعود لعصور ما قبل الإسلام منذ أن فجر الله سبحانه وتعالى زمزم لهاجر وابنها إسماعيل عليه السلام بجوار الكعبة المشرفة، فكانت أول سقاية انتفع بها حجاج بيت الله الحرام قال ابن عباس رضي الله عنهما، قال النبي "صلى الله عليه وسلم": (يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم أوقال: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيينًا معينًا)^(٢)

فقد خص الله سبحانه وتعالى هاجر بماء زمزم، وكانت تأذن لقبائل العرب، وكانت على الماء وبذلك يمكننا القول بأنها أول امرأة تعمل في مهنة السقاية، قال تعالى: (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير)^(٣) نماذج لنساء عملن في مهنة السقاية خلال العصور الإسلامية: تميزت المرأة المسلمة بإنسانيتها، فكانت محط أنظار، وإعجاب

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٤٣٨.

(٢) البخاري، محمد بن اسماعيل (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م):فتح الباري بشرح صحيح البخاري، بيروت، دار المعرفة (د.ت)

(٣) سورة الحج: آية ٢٧-٢٨

الدارسين والباحثين من الشرق والغرب، حتى إنه يمكننا القول بأن المرأة المسلمة كانت سبابة لكل ما يمت بقريب لمعاني التكافل الاجتماعي، ومساعدة المحتاجين، كانت السقاية من أبرز النشاطات الاجتماعية التي أسهمت بها المرأة وبشكل فعال، فالماء الذي جعل الله منه كل شيء حي كان موضع تقدير واعتبار، فقد جاءت أحاديث كثيرة في الحث على سقي الماء، منها حديث سعد بن عباد رضي الله عنه قال للنبي "صلى الله عليه وسلم": (أمي ماتت فأصدق عنها، قال: نعم، قال: فأبي الصدقة أفضل؟ قال: سقي الماء)^(١).

لنيل فضل إنشاء المشاريع والصرف عليها، وحفر الآبار وإجراء مائها، بل تعدى ذلك إلى إنشاء مجامع للماء سواء أكانت تلك المجامع ملاصقة للآبار، أم بعيدة عنها، وأينما يصل إليها الماء عن طريق القنوات، وذلك من أجل تيسير الحصول على الماء في كل وقت، وكانت وظيفتها واحدة هي تقديم الماء للمستقين، قال الفاكهي عن السقايات: (وبمكة وفي فجاجها ومن منطلق هذا الحديث تسابقت فضليات النساء من الصحابيات في سقي الماء وتوفيره، وأبلين بلاء حسناً في الخروج مع الرسول "صلى الله عليه وسلم" في المعارك، والمواقع الإسلامية، فكن يقاثلن ويسقين الجرحى، فقد كانت مرحلة فتوحات إسلاميه إضافة للعصر الأموي، الآن المعلومات التي حصلنا عليها معظمها تبدأ من العصر العباسي، وهذا متصل بأن تدوين التاريخ بدأ في العصر العباسي، وعدم وجود أسماء لنساء في العصر الأموي وعصر الرسول "صلى الله عليه وسلم" هذا لا يعني عدم وجود امرأة عملت في مهنة السقاية، وهذا لاحتمال الأرجح لفتح المجال أمام الباحثين لبذل الجهد في البحث في هذه المسألة. أما في العصر العباسي، ففي تلك الحقبة بسبب التطورات الاجتماعية المتسارعة آنذاك؛ فقد ازدادت مشاركة المرأة السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، حتى مارست المرأة القضاء.^(٢)

(١) ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م): سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي،

بيروت، المكتبة العلمية، كتاب الأدب، باب فضل صدقة الماء حديث رقم ٣٦٤٨.

(٢) شغب من النساء العباسيات من ربات النفوذ، والسلطان، والسياسية، والدهاء من النساء اللاتي لهن دور في العصر العباسي كانت أمماً للخليفة المقتدر تولت محكمة استئناف بغداد، وكانت تصرف دخل اموالها في تزويد الحجاج بالماء والطعام وتسهيل الطرقات ولموارد وأعمال البر، توفيت عام ٣٢١هـ/ ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي (٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م): المنتظم في تاريخ=

ومن نماذج النساء الرائعات اللاتي كانت لهن صدقات وأعمال بر الخيزران بنت عطا^(١) أم هارون الرشيد^(٢) أقامت بمكة شهراً، وتصدقت أموالاً كثيرة وعمرت دار الأرقم بن أبي الأرقم^(٣) ومسجدها عرفت هذه الدار زمن الخليفة المهدي العباسي بدار الخيزران نكر الكردي تحديدها أنها تقع بالصفة عند مبدأ السعي على يسار الصاعد إلى الصفا^(٤).

وكان دور النساء في المجال الاجتماعي ظاهراً ومميزاً، حيث قمن بتعبيد الطرق وبناء الدور وإقامة المستشفيات والأوقاف وأعمال الخير الكثيرة، إضافة إلى زيادة السكان المطرد في مكة المكرمة ولأهميتها ومكانتها الدينية المتميزة، دعى النساء يتسابقن لنيل فضل إنشاء المشاريع المائية والصرف عليها، وحفر الآبار وإجراء مائها، بل تعدى ذلك إلى إنشاء مجامع للماء سواء كانت تلك المجامع ملاصقة للآبار أو بعيدة عنها، وإنما يوصل إليها الماء عن طريق القنوات، وذلك من أجل تيسير

-
- =الملوك والأمم، حيدر آباد، الدكن، مطبعة المعارف العثمانية، ١٣٩٥هـ/١٩٤٠م، ج٧، ص٨٤. الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد (٧٤٨هـ/١٢٤٧م): تاريخ دول الإسلام، بتحقيق حسن إسماعيل وآخرون، بيروت، دار صادر، ١٩٩٩م. ج١، ص٣٣٣.
- (١) الخيزران أم الخليفتين موسى الهادي وهارون الرشيد (ت١٧٣هـ/٧٨٩م)، من مآثرها أنها جعلت الموضوع الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم مسجداً، وأخرجته من دار محمد بن يوسف الثقفي، وصفت بأنها كانت عاقلة لبيبة دينه، بجانب ذلك تنفق أموالاً طائلة في البر والصدقة (عمر رضا كحالة: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام بيروت، مؤسسة الرسالة، ج١، ص٣٩٩).
- (٢) الخليفة أبو جعفر هارون بن المهدي محمد بن المنصور أبي جعفر عبدالله بن محمد الهاشمي العباسي (١٨٩هـ/٨٠٥م) ولد بالري، ويوبع بالخلافة سنة ١٧٠هـ وصف بالصلاح وكثرة العبادة وبتعظيمه للعلماء بجانب كثرة الصدقات والحج، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل (ت١٣٤٠هـ/١٣٤٠م): المختصر في أخبار البشر، (د.ت)، مصر، ص٦٩-٧٢.
- (٣) هذه الدار عبارة عن عدة دور حول مخابر الرسول "صلى الله عليه وسلم" بالإضافة إلى إنها كانت إحدى الصروح والمنارات المهمة في تاريخ بدء الرسالة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فقد كانت مكان تجمع الصحابة في أول الأمر مع النبي "صلى الله عليه وسلم"، فقد كانت مكان تجمع الصحابة في أول الأمر مع النبي صلى الله عليه وسلم وبها أسلم عمر بن الخطاب وحمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم، فهي قد جمعت بين الدعوة سراً وعلانية (الطبري، أحمد بن عبدالله بن محمد الطبري (ت): القرى لقاصد أم القرى، قام باختصاره مصطفى السقا، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، بيروت، ص٦٦٤).
- (٤) محمد طاهر الكردي المكي: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، تحقيق عبدالملك بن دهيش، الطبعة الأولى ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، مكة، مكتبة النهضة الحديثة، ج٢، ص٥٤٨.

الحصول على الماء في كل وقت، وكانت وظيفتها واحدة هي تقديم الماء للمستقين^(١) قال الفاكهي عن السقايات: (وبمكة وفجاجها، وشعابها من باب المسجد الى منى ونواحيها، ومسجد التنعيم نحو مائة سقاية).^(٢)

أما أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور^(٣)، كان لها دور كبير في السقاية، قامت بإصلاح العيون وترميمها، وحفر الآبار، وبناء الأسبلة، والمطاهر، والمضيئات حين تهدمت العيون في مكة وخربت والتي كانت تصب في عين واحدة صنعها عبدالله بن عامر، وانقطع الماء عن أهل مكة بعد خراب تلك العيون التي كانت تسقي مكة، وذلك في أواخر بني أمية، جراء السيول والإهمال وأصاب الناس بعد قطعها شدة وقلة من الماء حتى رجعوا إلى الشرب من الآبار التي يجلبون منها الماء إلى مكة من خارجها، واستمروا كذلك إلى أوائل الدولة العباسية إلى أن أمر الخليفة هارون الرشيد بإصلاح بعض العيون التي خربت، ثم انقطعت هذه العيون، وكان أهل مكة في شدة من قلة الماء، وأصاب الحجاج مشقة عظيمة جراء ارتفاع الأسعار بلغت القرية الصغيرة عشرة دراهم وأكثر.^(٤) حينها أمرت أم جعفر بعمل برك، فأجرت لها عيناً من الحرم بماء قليل، ورأت أن الماء لا يكفي، وقد صرفت على ذلك أموالاً عظيمة، فأشار عليها المهندسون أن يجروا لها عيوناً من الحرم، وكانت الجبال عقبة أمامها إلا إنها أرسلت الأموال لنقب الجبال وإيصال الماء، فأخذ العمال يعملون حتى بلغوا الثنية^(٥) فإذا الماء يظهر في ذلك الجبل فأمرت بالجبل فضرب فيه، وأخذت تنقب أم جعفر الجبال إلى أن سلك الماء من أرض الحل إلى أرض الحرم، وأنفقت في

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ج ١، ص ٥٤١.

(٢) الفاكهي، أبو عبدالله محمد بن إسحاق (من علماء القرن الثالث الهجري): أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، دراسة وتحقيق عبدالملك ابن عبدالله بن دهيش، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، مكة، مكتبة ومطبعة النهضة، ج ٣، ص ٩٧.

(٣) زبيدة أم جعفر بنت جعفر المنصور وزوجة هارون الرشيد (ت ٢١٦هـ/٨٣١م) واسمها أمة العزيز كان جدها المنصور يرقصها، وهي صغيرة، ويقول أنت زبيدة، فاشتهرت بها، وكانت من أهل الخيرات ولها مآثر عظيمة (كحالة: أعلام النساء، ج ٤، ص ٣٥).

(٤) الفاكهي: أخبار مكة، ج ٣، ص ١٥٢ - ١٥٥، الكردي: التاريخ القويم، ج ٥، ص ٣٥٣.

(٥) هي ثنية خلّة، ويقال لها خل الصفاح عند منتهى الحرم من طريق العراق، وطريق السيل الطائف (الفاسي: شفاء الغرام، ج ١، ص ٥٥٢، ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ج ٢، ص ٨٦).

ذلك الأموال، وأجرت فيها عيوناً منها عين شماس^(١) واتخذت بركاً تتجمع فيها السيول، ثم أجرت لها عين حنين^(٢)، واشترت حائط حنين، وصرفت عينه إلى البرك، وجعلت حائطه سداً لتجميع مياه السيول.^(٣)

فلما تم عملها، اجتمع العمال والمباشرين لديها وأخرجوا دفاترهم لإخراج حساب ما صرفوه، وما استلموه من خزينة بيت المال، وكانت في قصر عال يشرف على دجله، فأخذت الدفاتر منهم والقتها في النهر، وقالت: (تركنا الحساب ليوم الحساب فمن بقي عنده شيء من بقية المال، فهو له، ومن بقي له شيء عندنا أعطيناها وألبستهم الخلع، والتشاريف، فخرجوا من عندها حامدين شاكرين).^(٤) ثم أمرت بإجراء عين وادي النعمان إلى عرفه وهي عين منبعها من ذيل جبل كرا، وجعلت أمنها الطرق إلى البرك التي في أرض عرفات لتمتلي ماء يشرب منه الحجاج في يوم عرفة، ثم استمرت في عمل قناة إلى أن خرجت من أرض عرفات، ثم تصل إلى المزدلفة ومنها إلى جبل خلف منى لتصب في بئر عظيمة طويت بأحجار كبار تسمى هذه البئر ببئر زبيدة، وإليها ينتهي ملء هذه القناة.^(٥)

ومن نساء العصر العباسي اللاتي عملن في سقاية أهل مكة شغب أم الخليفة المقتدر العباسي^(٦)، فقد عمرت السبيل المعروف بسبيل الجوحي والآبار التي وراءه^(٧)، وراءه^(٧)، وفي ٣١٥هـ/٩٢٧م عمرت خمس برك في عرفات لسقاية الحجاج^(٨).

(١) الفاسي: شفاء الغرام: ج ١، ص ٥٥٣.

(٢) عين مشاش بضم الميم، يتصل بجبال عرفات، جبال الطائف ومنها مياه كثيرة منها المشاش، وهو الذي يجري بعرفات ويصل إلى مكة (الأزرقي: أخبار مكة، ج ٢، ص ٢٣٠، ياقوت: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٣١).

(٣) الفاكهي: أخبار مكة، ج ٣، ص ١٥٢-١٥٥، الفاسي: شفاء الغرام، ج ١، ص ٥٥٢-٥٥٣، النجم عمر بن فهد: إتحاف الوري، ج ١، ص ٢٤٨.

(٤) ابن فهد: إتحاف الوري، ج ٢، ص ٢٤٨.

(٥) الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد (من علماء الثالث الهجري/ الرابع الميلادي): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار تحقيق رشدي الصالح ملخص، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، مكة المكرمة، دار الثقافة، ج ٢، ص ٢٣١-٢٣٢، الكردي التاريخ القديم، ج ٥، ص ٣٥٤-٣٥٦.

(٦) سبق تعريفها.

(٧) الفاسي: شفاء الغرام، ج ١، ص ٣٦٣، العقد الثمين، ج ١، ص ٥٥.

(٨) ابن فهد: إتحاف الوري، ج ٢، ص ٣٧٣.

ومن عرفت بمبرراتها الكثيرة وصدقاتها الوافرة في أرض الحرمين بنت ناصر الدولة صاحب الموصل^(١) حجت سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م، سقت جميع اهل الموسم السويق والسكر، والتلج، وأنفقت الأموال في سبيل ذلك، وكان يضرب بها المثل في أفعال الخير^(٢). وكان لأم الخليفة الناصر لدين الله زمرد خاتون^(٣) سقاية عملت في مؤخرة المسجد الحرام، وكانت تلك السقاية كبيرة فيها عدة من البيوت، وحفرت لها بئر، وفتحت لها باباً إلى المسجد في الحائط الذي يلي الشام، وهي تفتح في المواسم أيضاً^(٤) ومما لا شك فيه إن إنشاء أسبلة والسقايات وتوفير الماء لتلك السقايات كان أمراً شاقاً في مكة، لظروفها الطبيعية إذ تحيط بها الجبال القاحلة، لذلك كان سقاية الماء بها فيه من الأجر العظيم والثواب من عند الله، يتسابق عليه الحكام والسلطين والأعيان والوجهاء، وزوجاتهم فقد ازداد اهتمامهن بإنشاء أسبلة لسكان مكة والمجاورين بها وحجاج بيت الله الحرام، ففي العصر المملوكي ازدهرت المنشآت الاجتماعية والمرافق الخدمية العامة، خاصة الأسبلة التي أنشأها النساء، وأوقفن^(٥) عليها عقارات، ودوراً، وأراضي للصرف على هذه السقايات وما تحتاج إليه من تعمیر، وترميم، بالإضافة إلى تخصيص رواتب للأفراد العاملين في خدمتها، والفراشين المختصين بنظافتها، وذلك حسب ما تحدده من أوقفت السبيل، وتوفير الأدوات اللازمة لاستخدامها^(٦).

- (١) بنت ناصر الدولة ابن فهد: إتحاف الوري، ج ٢، ص ٤١٤-٤١٥.
- (٢) ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي (٥٩٧هـ/١٢٠٠م): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد، الدكن، مطبعة المعارف العثمانية، ١٣٩٥هـ/١٩٤٠م، ج ٧، ص ٨٤. الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن احمد (٧٤٨هـ/١٢٤٧م): تاريخ دول الإسلام، تحقيق حسن إسماعيل وآخرون، بيروت، دار صادر، ١٩٩٩م، ج ١، ص ٣٣٣.
- (٣) زمرد خاتون (٥٩٩هـ/١٢٠٢م).
- (٤) السمهودي، نور الدين علي بن أحمد: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ج ٢، ص ٦٧٨.
- (٥) الوقف هو الحبس، والمنع، أي التصرف في ريع العين، وما تدره من مال معب بقاء العين ذاتها، وجعل منفعتها لجهة من جهات البر، وهي تخرج من ملك صاحبها بيل منفعتها، يجعلها مبذولة على وجه القرى لله تعالى، والوقف من أنواع الخير والصدقات من أموال الواقف في حياته ويستمر بعد مماته (الطرابلسي برهان الدين: الإسعاف في أحكام الأوقاف، بيروت، دار الرائد العربي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ٧).
- (٦) استخدمت في الأسبلة آلات متنوعة منها الليف، والكتان، وأدليه جلدية، ويكر، وأسفنج لمسح أرض السبيل، وبخور لتبخير الأواني ومكانس، وأسطال نحاس، وكيزان وقلل فخار، (سعيد عاشور: المجتمع المصري عصر المماليك، ص ٩١).

ومن نماذج النساء في العصر المملوكي نذكر منهن زهراء بنت محمد بن قلاوون^(١)، وهي من أعيان القرن الثامن الهجري/الخامس الميلادي، عمرت زهراء سبيلاً في طريق منى ويعرف بسبيل الست^(٢)، حين قدمت للحج سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م، وفي القرن التاسع الهجري/السادس عشر الميلادي عرف بسبيل ابن مزنة^(٣). وفي أسفل مكة، يقع سبيل زينب^(٤)، بنت قاضي مكة شهاب الدين الطبري^(٥)، وقد أنشأته صدقة عن أخيها القاضي نجم الدين الطبري عام ٧٦٥هـ/١٣٦٣م^(٦).

ومن لهن السبق في أعمال البر والصدقات في العصر المملوكي أم الحسين بنت الإمام شهاب الدين الطبري^(٧)، ففي عام ٧٤٨هـ/١٣٨٢م، أوقفت سبيلها بالمسعى على يمين الذهاب إلى المروة عند موضع الجزارين، والخرازين، وقد ظل هذا السبيل

(١) زهراء.

(٢) الفاسي: الزهور المقتطفة، ص ١٩٦، ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة، ص ٩٥.

(٣) ابن الضياء المكي: تاريخ مكة المشرفة، ص ٩٥، ابن فهد: اتحاف الوري، ج ٣، ص ٢٨٦، ولم نعرف لابن مزنة تعريف.

(٤) زينب أم محمد المكية: كانت كثيرة المكارم زارت القدس، والخليل عام ٧٩٠هـ/١٣٩٣م بمكة، ودفنت بالمعلاة، (الفاسي: العقد الثمين، ج ٨، ص ٢٢٤).

(٥) شهاب الدين الطبري: هو شهاب الدين أحمد بنت قاضي مكة نجم الدين الطبري، ولي قضاء مكة بولاية من المجاهد صاحب اليمن، توفي عام ٧٦٠هـ/١٣٨٥م موثق بالمعلاة (الذهبي: العبر، تحقيق محمد سعيد، بيروت، دار الكتب العلمية، ج ٤، ص ١٨٣، الفاسي: العقد الثمين، ج ٣، ص ١٦١-١٦٦).

(٦) ابن الضياء المكي: تاريخ مكة المشرفة، ص ٩٦، الفاسي: شفاء الغرام، ج ١، ص ٥٤٠.

(٧) أم الحسين: هي فاطمة بنت شهاب الدين أحمد الطبري المكية، تزوجت الشيخ عبد المؤمن خليفة الدكالي نائب الإمام بمقام المالكية بالمسجد الحرام، سمعت عن والدها وعن جدها الرضي الطبري، وكانت محبة للخير وأعمال البر، وتوفيت عام ٧٨٦هـ/١٣٨٤م بمكة ودفنت بالمعلاة، (الفاسي: العقد الثمين، ج ٨، ص ٣٢٣).

قائماً حتى عام ١٤٧٩/هـ ١٨٨٤م، حيث أمر السلطان قايتباي^(١) وكيله بهدمه من أجل عمارة رباط وسبيل للسلطان^(٢).

وهناك عدة أسبلة وسقايات ورد ذكرها في المصادر دون تحديد تاريخ أو معلومات عنها سوى اسمها فقط، منها سبيل بنت القاضي عقبة المكي^(٣)، وسبيل أم سليمان المتصوفة^(٤)، كان لها بئر بالقرب من باب المعلاة، وفي سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م، عمرت مطهرة للنساء بسوق الليل^(٥).

تعتبر السقايات والأسبلة التي أنشأت من قبل نساء من أبرز النماذج التي تبرهن على دور وفعالية المرأة في مهنة السقاوية، ونساء الدولة العثمانية ومبرراتهن كن خير أنموذج يوضح ويبين دور وتفاعل المرأة مع مجتمعها، فكانت أوقافهن الضخمة، من أهم الموارد المالية التي تصرف على المدارس، والمساجد، والأربطة، والأسبلة، التي أدت دورها بفعالية في ازدهار الحياة العلمية، والاجتماعية في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، في تلك المرحلة.

فكن نساء القصر، وزوجات السلاطين وبناتهم، يتسابقن في أعمال الخير من سن السابعة حتى السبعين من أعمارهن حتى أصبحن في مقدمة مؤسسي الوقف في التاريخ العثماني^(٦).

(١) قايتباي: هو السلطان قايتباي الجركسي المحمودي، تولى السلطنة عام ١٤٩٥/هـ ١٥٠١م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص٢٠١).

(٢) ابن فهد: إتحاف الوري، ج٤، ص٦٤٩، عبدالله بن غازي: إفادة الأنام، ج٢، ص٤٣١.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٥٤٠.

(٤) أم سليمان المتصوفة صاحبة زاوية بسوق الليل بمكة أنشأتها عام ٧٧٢هـ/١٣٧٠م، كما أنشأت تربة لها بالمعلاة، جاورت في مكة سنين، وكان لها شهرة، توفيت عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م، ودفنت بتربتها بالمعلاة (الفاسي: العقد الثمين، ج٨، ص٣٤٣).

(٥) الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٥٣٩، ابن الضياء المكي: تاريخ مكة، ص٩٥، ابن فهد: إتحاف الوري، ج٢، ص٣٩١.

(٦) مداح، أميرة بنت علي مداح: خيرات ماه بيكر كوسام والدة السلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين صورة للتضامن الاجتماعي، والديني خلال العصر العثماني، المؤرخ المصري، ع ٢٤، يناير، ٢٠٠١، ص٢٩١.

ومن نساء العصر العثماني اللاتي كن لهن دور بارز في مهنة السقاية، وأوقفن أوقافاً للحرمين الشريفين كانت زوجة السلطان أحمد الأول ماه بيكر كوسم سلطان^(١) أوقفت أوقافاً لتوفير الماء في طريق الحجاج، وتوفير الإبل اللازمة لنقل تلك المياه^(٢).

أما السيدة مهرماه ابنة السلطان سليمان القانوني ٩٢٦هـ/١٦٠٢م^(٣)، فقد خصصت مبالغ ضخمة من مالها لإعادة بناء وترميم عين زبيدة، وخصصت لجنة لذلك، إذ قامت بإنشاء ثمانية عشر خزاناً ضخماً للمياه، وعين ماء لسد احتياجات أحياء مكة للماء، كما أنشئت عيون ماء في المنطقة المحيطة بالحرم وتزويدها بالصنابير، ليتوضأ الحجاج، إضافة لإيصالها للمياه إلى مستشفى الفقراء والمؤسسات الخيرية السلطانية^(٤).

ومن نساء العصر العثماني اللاتي أوقفن المال لتوفير المياه وسقاية الحجيج كانت خديجة طرخان والدة محمد الرابع، إنها في سنة ١٠٧٣هـ/١٦٦٣م، أوقفت لأرض الحرمين مبلغ ٧٥٠٠ أقة^(٥)، لتأجير ٦٥ جملاً، تحمل نصفها بالمياه لخدمة حجاج مكة وتوفير المياه لهم^(٦).

(١) ماه بيكر كوسم (١٦٠٢/١٠١٢هـ) زوجة السلطان أحمد الأول، وأم السلطانين مراد الرابع، وإبراهيم وهي ابنة قسيس قمت للسلطان أحمد الأول فتزوجها، وتوفيت عام ١٦٥١م (ماجدة مخلوف: الحريم في العصر العثماني ط١، القاهرة، دار الآفاق، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص ٥٠).

(٢) أميرة مداح: أوقاف النساء في مكة المكرمة في العصر العثماني ودور المرأة فيها، القاهرة، دار القاهرة، ٢٠١٠م، ص ١٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦.

(٤) ماجدة مخلوف: الخدمات والمرافق العامة في مكة المكرمة في العهد العثماني، مؤتمر مكة عاصمة الثقافة، ١٤٢٦هـ، ص ١٧٢.

(٥) أقة: أصلها مغولي معناها نقد أبيض، وهي قطعة صغيرة من الفضة ضربت لأول مرة في عهد السلطان أورخان، (سهيل صابان: موسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ط١، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٢هـ/٢٠٠٠م، ص ٢٠).

(٦) مخلوف: الخدمات والمرافق العامة، ص ١٧٢.

قائمة المصادر والمراجع :

المصادر المطبوعة:

- القرآن الكريم.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي (٥٩٧هـ/١٢٠٠م)
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر إباد، الدكن، مطبعة المعارف العثمانية، ١٣٩٥هـ/١٩٤٠م.
- ابن فهد، نجم الدين عمر بن محمد (ت٨١٢هـ/٨٨٥م).
- إتحاف الوري بأخبار أم القرى، تحقيق فهميم محمد شلتوت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٦م، مكة، مركز البحث والتراث العلمي.
- ابن الضياء، بهاء الدين محمد بن الضياء العمري القرشي (٨٤٥هـ/١٤٤١م).
- تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة المنورة والقبر الشريف، تحقيق عادل عبدالحميد العدوي، مكة، مكتبة مصطفى احمد الباز، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني (ت٢٧٥هـ/٨٨٨م).
- سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت، المكتبة العلمية.
- أبو الفداء عماد الدين إسماعيل (ت٧٤١هـ/١٣٤٠م)
- المختصر في أخبار البشر، مصر، (د.ت).
- الأزرقى، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد (من علماء الثالث الهجري/الرابع الميلادي).
- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح ملحس، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، مكة المكرمة، دار الثقافة.
- البخاري، محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م).
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، بيروت، دار المعرفة (د.ت).

- السخاوي، محمد بن عبدالرحمن السخاوي (٩٠٢هـ / ١٤٩٦م).
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٣٥٥.
- السمهودي، نور الدين علي بن أحمد (٩١١هـ / ١٥٠٥م).
- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد (٧٤٨هـ / ١٢٤٧م).
- تاريخ دول الإسلام، تحقق حسن إسماعيل وآخرون، بيروت، دار صادر، ١٩٩٩م.
- العبر، تحقيق محمد سعيد، بيروت، دار الكتب العلمية.
- الطبري، أحمد بن عبدالله بن محمد الطبري (٦٩٤هـ / ١٢٩٤م).
- القرى لقاصد أم القرى، قام باختصاره مصطفى السقا، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، بيروت.
- الفاسي، أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن الحسن (٧٧٥هـ / ٨٣٢م).
- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق مجموعة من كبار العلماء والأدباء، مكة، مكتبة الباز.
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد، بيروت، مؤسسة بيروت.
- الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
- الفاكهي، أبو عبدالله محمد بن إسحاق (من علماء القرن الثالث الهجري).
- أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، دراسة وتحقيق عبدالملك ابن عبدالله بن دهيش، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، مكة، مكتبة ومطبعة النهضة.
- الكردي، محمد طاهر الكردي المكي.
- التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، تحقيق عبدالملك بن دهيش، الطبعة الأولى ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م، مكة، مكتبة النهضة الحديثة.
- ياقوت، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي (٦٢٦هـ / ١٢٢٨م): معجم البلدان، بيروت، دار صادر.

المراجع:

- صابان، سهيل.
- موسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ط١، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٢هـ/٢٠٠٠م، ص ٢٠.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح.
- المجتمع المصري عصر المماليك، القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٦٢م.
- الطرابلسي، برهان الدين
- الإسعاف في أحكام الأوقاف، بيروت، دار الرائد العربي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- كحالة عمر رضا.
- اعلام النساء في عالمي العرب والإسلام بيروت، مؤسسة الرسالة .
- مخلوف، ماجدة .
- الحريم في العصر العثماني، ط١، القاهرة، دار الآفاق، ١٤١٨هـ/١٩٩٨.
- الخدمات والمرافق العامة في مكة المكرمة في العهد العثماني، مؤتمر مكة عاصمة الثقافة، ١٤٢٦هـ.
- مداح، أميرة بنت علي مداح.
- أوقاف النساء في مكة المكرمة في العصر العثماني ودور المرأة فيها، القاهرة، دار القاهرة، ٢٠١٠م.
- خيرات ماه بيكر كوسام والدة السلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين صورة للتضامن الاجتماعي، والديني خلال العصر العثماني، المؤرخ المصري، ٢٤٤، يناير ٢٠٠١م.

**الأديرة المسيحية في عصر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله
(٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٠ م)**

د. محمد فهمي إنبابي
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
كلية الآداب - جامعة طنطا

ملخص البحث :

اهتم المؤرخون القدماء والمحدثون بدراسة تاريخ أهل النمة في العصر الفاطمي، في عصره الأول (٣٥٨ - ٤٢٢ هـ / ٩٦٨ - ١٠٣٠ م)، أو في عصره الثاني (٤٢٢ - ٥٦٧ هـ / ١٠٣٠ - ١١٧١ م). فتعددت تلك الدراسات وتتنوعت، وشملت مختلف أحوالهم بشكل عام، أو دراسة أحوالهم في عصر كل خليفة من خلفاء الدولة الفاطمية علي حدا. ولكن لم تخصص دراسة قائمة بذاتها حول دراسة تاريخ الأديرة المسيحية في تلك الفترة بشكل عام، أو في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٠ م) بشكل خاص. ومن هنا، جاء اهتمام الباحث بدراسة أوضاع الأديرة، وأحوالها في هذه الفترة العصيبة التي مر بها المسيحيون بشكل عام، والأديرة بشكل خاص.

Abstract

Ancient historians and modernists were interested in studying the history of the dhimmis in the Fatimid era, in its first era (358 - 422 AH / 968-1030 AD), or in its second period (422 - 567 AH / 1030 - 1171 AD). So those studies multiplied and varied, and included their different conditions in general, or their conditions in the era of each of the successors of the Fatimid state, separately. However, no stand-alone study is devoted to studying the history of Christian monasteries in that period in general, or during the reign of the Fatimid Caliph Al-Hakim Bi Amr Allah (386-411 AH / 996-1020 AD) in particular. Hence, the researcher's interest in studying the conditions of monasteries and their conditions in this difficult period that Christians have been through in general, and monasteries in particular.



تعريف الأديرة :-

عرف ياقوت الحموي في معجمه الدير بأنه (... بيت يتعبد فيه الرهبان، ولا يكاد يكون في المصر الأعظم، إنما يكون في الصحاري ورؤوس الجبال، فإن كان في المصر كان كنيسة أو بيعة^(١)). في حين يذكر المقرئ في خطه أن الدير عند النصارى (... يختص بالنساك المقيمين به)^(٢). و فرقت المقرئ بين الدير وبين الكنيسة^(٣)، بأن الدير يختص بالنساك المقيمين فيه، في حين أن الكنيسة هي التي تجمع عامة النصارى للصلاة فيها^(٤). وذكر ابن سيده في المحكم الدير بقوله (... الدير خان النصارى)^(٥)، ويقال للراهب^(٦) الساكن في الدير المنتسب إليه

١ - ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٢، دار صادر، بيروت، دت، ص ٤٩٥ .

Rene- Geogres Coquin: The Coptic Encyclopedia, vol.4, Macmillan Publishing Company, New York, 1991, P.695.

٢ - المقرئ: المواظ والاعتبار بذكر الخط والآثار، المعروف بالخط المقرئ، ج ٤، سلسلة الذخائر، رقم ٥٤، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٩ م، ص ٥٠١ .

٣ - المقرئ: المصدر السابق، ج ٤، ص ٥٠١؛ الفيومي: المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧ م، ص ٢٠٧؛ وذكر ابن القيم الجوزية أن الكنائس جمع كنيسة، وهي لأهل الكتائب وهو بيت المدارس الذي يتدارسون فيه العلم، وأما الدير فللنصارى خاصة بينونه للرهبان خارج البلد، يجتمعون فيه للرهبانية والتفرد عن الناس . و فرقت بين الدير والقلاية، فالدير يجتمعون فيه، وأما القلاية لا تكون إلا لواحد ينفرد بنفسه، ولا يكون لها باب، بل فيها طاقة يتناول منها طعامه وشرايه وما يحتاج إليه ، وأما الصومع، فهي = كالقلاية تكون للراهب وحده . ابن قيم الجوزية: أحكام أهل النعمة، القسم الأول، تحقيق سيد عمران، دار الحديث، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٥ م، ص ٤٥٦ - ٤٥٧ .

Peter Grossman: The Coptic Encyclopedia, vol.1, 1991 , p.195 - 208, art churches .

٤ - المقرئ: نفسه، ج ٤، ص ٥٠١ .

٥ - حبيب زيات: الديارات النصرانية في الإسلام، مقال بمجلة المشرق، العدد ٣٦، تموز - يوليو، ١٩٣٨ م، بيروت، ص ٢٩٨ .

٦ - سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج ١، التاريخ السياسي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٨، القاهرة، ١٩٩٧ م، ص ١٧٥ - ١٨١؛ برياره واترسون: أقباط مصر، ترجمة إبراهيم سلامة إبراهيم، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٣، القاهرة، ٢٠١٥ م، ص ٩٤ - ١٢٤؛ حسين كفاي: المسيحية والإسلام في مصر، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨ م، ص ٤٥ - ٦٢؛ حكيم أمين: دراسات في تاريخ الرهبانية والديرية المصرية، طبع على نفقة المؤلف، القاهرة، دت، ص ٣-٣٠ هـ . أ. ر. جب: الموسوعة الإسلامية الميسرة، ج ١، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣ م، ص ٣٩٧ - ٣٩٨؛ مادة راهب، ومادة رهبانية، ص ٤٢١؛ كامل صالح نخله: تاريخ اثناثاسيوس الرسول، مكتبة المحبة، القاهرة، ط ١، ١٩٥٢ م، ص ٢٤٠



"ديار وديراني"، وللراهبية "ديرية وديرانية" ^(٧). والجمع أديار ^(٨). والديراني صاحب الدير، أي المقيم فيه. ويسمي الدير أيضاً بالعمُر وجمعه أعمار، مثلما جاء في قول الحسن بن هانئ ^(٩): قلباً اذتك الناقوس بالفجر
وغرد الراهب بالعمُر ^(١٠).

ونكر الزبيدي في تاج العروس العمُر بقوله (... العمُر بالضم المسجد والبيعة والكنيسة، سميت باسم المصدر؛ لأنه يعمر فيها أي يعبد) ^(١١). ونكر أحد الباحثين المحدثين أنه لم يعثر علي شاهد واحد يثبت استعمال العمُر بمعنى المسجد!، وبالتالي فهو يري أن معني العمُر هو بيت العبادة بالإطلاق لأهل الكتاب على السواء ^(١٢). ونكر أبو حنيفة الدينوري في كتاب النبات أن العمُر (... من قولهم عمرت ربي أي عبدته، وفلان عامر لربه أي عابده، وتركت فلاناً يعمر ربه أي يعبده، فيجوز أن يكون الموضع الذي يتعبد فيه يسمى العمُر ... فيجوز أن يكون العمُر الموقع الذي يخدم فيه الرب) ^(١٣).

ونكر البغدادي في مرصد الاطلاع ان الدير يسمى عمراً إذا كان مجاوراً للأماكن المعمورة، وذلك بقوله (... كذلك أعني من المواضع المتعبدات التي فيها مساكن الرهبان بقرب العمران فإنه

٧ - الزمخشري: أساس البلاغة، ج ١، دار الكتب المصرية، القاهرة، دت، ص ٢٩١.

٨ - ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٢، ص ٤٩٥؛ الفيومي: المصباح المنير، ص ٧٨.

٩ - الحسن بن هانئ: هو أبو علي الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن الصباح، المعروف بأبي نواس الحكمي الشاعر المشهور، ولد بالأهواز، ونشأ بالبصرة، ومدح الخلفاء والوزراء ومات سنة ١٩٥هـ/ ٨١٠م. عنه انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دت، ص ٩٥ - ١٠٤، ترجمة ١٠٧؛ ابن الأبار: الحلة السيرة، ج ١، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، ط ٢، مصر، ١٩٨٥ م، ص ٤٨، ١٣٨؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١، تحقيق إحسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، بيروت، ٢٠٠٤ م، ص ١٤٥٤، ترجمة ١٦٥٤.

١٠ - الشابشتي: الديارات، تحقيق كوركيس عواد، دار المدي، سوريا، ط ١، ٢٠٠٨ م، ص. ومن الأديرة التي اشتهرت بالعمُر، عمُر كسكر أو واسط، وعمُر الزعفران بنصيبين، وعمُر ماريونان بالأنتبار، وعمُر الزرنوق علي فرسخين من جزيرة ابن عمر، وإلى جانبه دير آخر يعرف بالعمُر الصغير. حبيب زيات: الديارات النصرانية في الإسلام، مقال بمجلة المشرق، السنة ٣٦، يوليو ١٩٣٨ م، بيروت، ص ٢٩٩.

١١ - الزبيدي: تاج العروس، ج ٣، ص

١٢ - حبيب زيات: الديارات النصرانية، ص ٢٩٩.

١٣ - ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٧٣٤.



يسمي العُمُر) ^(١٤). ويرى أحد الباحثين المحدثين أن كلمة العُمُر من أصل آرامي بمعنى البيت والمنزل ^(١٥). وقد اتجهت أنظار العديد من الأدباء، والشعراء، والجغرافيين، والمؤرخين منذ فجر الإسلام إلى تصنيف المؤلفات حول الأديرة، ووصف طيب مواقعها، ورقة هوائها، وعذوبة مائها، وتغنوا بمحاسنها، وبما وجده فيها من مجالس الأنس والطرب، ومواطن النزهة واللهو، وأشاروا أحياناً إلى بعض الأحداث التاريخية التي ألمت بها ^(١٦). ومن هذه المؤلفات كتاب "الحيرة وتسمية البيعة والديارات ونسب العباديين" للكلمي (ت. ١٩٠٤م/١٩٠٤م) وهو أقدم كتب الديارات بالعربية، وكتاب "الديارات" لأبي الفرج الأصفهاني (ت. ٣٥٦هـ/٩٦٦م)، وكتاب "الديرة" للسري الرفاء الموصلية (ت. ٣٢٦هـ/٩٧٢م)، وكتاب "الديارات" للخالديين، وكتاب "الأديرة والاعمار في البلدان والاقطار" للعدوي الشمشاطي (ت. القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي)، وكتاب "الديارات" للشابشتي (ت. ٣٨٨هـ/٩٩٨م) وغيرها من المؤلفات ^(١٧).

أديرة مصر - وصفها وعمرانها :-

تختلف الأديرة باختلاف مواضعها، فمنها ما يقع علي قمم الجبال، ومنها يتوسط ضفاف الأنهار، ومنها ما نُقِر في الصخر الأصم، ومنها ما اقترب من الأرياف، ومنها ما انفرد في البراري والقفار ^(١٨). وتختلف الأديرة من حيث السعة، فمنها ما هو كبير، ومنها ما هو صغير. وكبر الدير يدل علي كثرة الرهبان والمنتبئين فيه، والعكس صحيح ^(١٩). ولو نظرنا إلى الأديرة في مصر - مجال بحثنا - في العصر الفاطمي لوجدناها لم تبين في هذا العصر، بل إنها

- ١٤ - البغدادي: مراد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ج ٢، تحقيق علي محمد الجاوي، دار المعرفة، ط١، بيروت، ١٩٥٤ م، ص ٥٤٩ .
- ١٥ - حبيب زيات: الديارات النصرانية، ص ٣٠٠ .
- ١٦ - الشابشتي: الديارات، ص ٣٢ .
- ١٧ - الشابشتي: المصدر السابق، ص ٣٢ - ٤١ .
- ١٨ - الشابشتي: نفسه، ص ٤٢؛ حبيب زيات: الديارات، ص ٣٠١ م .
- ١٩ - وصف ياقوت الحموي كبير حجم دير متي شرقي الموصل بقوله (... وأكثر بيوته منقوره في الصخر، وفيه نحو مائة راهب لا يأكلون الطعام إلا جميعاً في بيت شتاء أو بيت الصيف، وهما منقوران في صخرة، كل بيت منهما يسع جميع الرهبان) . ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٦٩٤ . وانظر أيضاً العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج ١، تحقيق أحمد نكي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٤ م، ص ٢٩٩ .



سابقة عليه بفترات طويلة، فجزء كبير منها يعود إلى العصر الروماني، حيث بناها الرهبان خوفاً من بطش الرومان وأباطرتهم الذين اضطهدهم وقتلوهم حتى إن العصر سمي باسم عصر الشهداء^(٢٠). وعندما جاء المسلمون فاتحين لمصر وجدها ولم يتعرضوا لها بأذى، بل إنهم تركوا أصحابها من الرهبان يقومون بعبادتهم في أمن وسلام . وقد اختلفت مواقع هذه الأديرة في مصر، فمنها ما يقع في الصحراء، ومنها ما يقع علي رؤوس الجبال، ومنها ما يقع قريب من العمار. ومن الأديرة التي علقت في الجبال في مصر، دير مغارة شقلقييل تجاه منفلوط^(٢١). وقد وصف المقرئزي موقعه بقوله (... هو دير لطيف معلق في الجبل، وهو نقر في الحجر علي صخرة تحتها عقبة لا يتوصل إليه من أعلاه ولا من أسفله، ولا سلم له، وإنما جعلت له نقور في الجبل، فإذا أراد أحد أن يصعد إليه أرخيت له سلبه فأمسكها بيده وجعل رجله في تلك النقور وصعد به)^(٢٢).

٢٠ - عصر الشهداء: هو العصر الذي اعتبرت فيه الحكومة الرومانية اعتناق المسيحية جرماً في حق الدولة، فمُنعت اجتماعات المسيحيين، وأخذت تنظم حملات الاضطهاد ضدهم. وقد ازداد القمع من قبل الرومان في عهد الإمبراطور نقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) الذي وصلت فيه حملة الاضطهاد الي ذروتها، حتى أن الكنيسة القبطية الإرتونكسية تعتبر بداية عهده هو بداية التقويم القبطي لها . عنه انظر سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطي، ج١، التاريخ السياسي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٨، القاهرة، ١٩٩٧ م، ص ٥٣-٥٥؛ السيد الباز العريني: تاريخ أوروبا العصور الوسطي، دار النهضة العربية، ط١، بيروت، ١٩٦٨ م، ص ٤١-٤٤؛ ليلي عبد الجواد: تاريخ وحضارة مصر في الحقبة البيزنطية - القبطية، دار الثقافة العربية، ط١، القاهرة، ٢٠٠٧ م، ص ٣٧ - ٤٢، ٤٩ - ٥١؛ منسي يوحنا: تاريخ الكنيسة القبطية، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥ م، ص ١٨، ٨٠ - ٩١؛ حسين كفاقي: المسيحية والإسلام، ص ٦٣ - ٧٢؛ محمد زايد عبد الله: الرومان واضطهاد المسيحيين في كتابات يوسابيوس القيساري، مقالة في كتاب قطوف من التاريخ الإسلامي والوسيط، القاهرة، ط١، ٢٠١٢ م، ص ١٦٢ - ١٧٥ .

٢١ - منفلوط: بفتح الميم وسكون النون، ثم فاء مفتوحة ولام مضمومة، وآخره طاء مهملة: بلدة بالصعيد غربي النيل بينها وبين شاطئ النيل بعد . ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٥، ص ٢١٤ .

٢٢ - المقرئزي: الخطط، ج٤، ص ٥٠٣ .

وهناك أيضاً دير السبعة جبال بأخميم^(٢٣) وهذا الدير (... دير عال بين جبال شامخة، ولا تشرق عليه الشمس إلا بعد ساعتين من الشروق لعلو الجبل الذي هو في لطفه، وإذا بقي الغروب نحو ساعتين خيل لمن فيه أن الشمس قد غابت وأقبل الليل، فيشعلون حينئذ الضوء فيه)^(٢٤). وهناك أيضاً دير القصير، وهو علي جبل المقطم^(٢٥). وقد وصفه الشابشتي بقوله (... وهذا الدير في أعلى الجبل "المقطم" علي سطح قلته، وهو دير حسن البناء، محكم الصنعة نزه البقعة، فيه رهبان مقيمون به، وله بئر منقورة في الحجر يستقي الماء له منها)^(٢٦).

وكثيراً ما كانت الأديرة تحصن بالأسوار العالية الشاهقة والأبواب الحديدية خوفاً من اللصوص والذعار^(٢٧). وربما ارتفعت جدرانها مائة نراع^(٢٨) مثل دير مارحنه الواقع على شاطئ بركة

٢٣ - أخميم: بالكسر ثم السكون، وكسر الميم وياء ساكنة وميم أخرى: بلدة في الصعيد في الإقليم الثاني وهو بلد قديم على شاطئ النيل . عنها انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

٢٤ - المقرئزي: الخطط، ج٤، ص ٥٠٤.

٢٥ - الشابشتي: الديارات، ص ٢٨٤؛ العمري: مسالك الإبرار، ج١، ص ٣٦٣؛ المقرئزي: المصدر السابق، ج٤، ص ٥٠٢.

٢٦ - الشابشتي: المصدر السابق، ص ٢٨٤ . ووصفه أبو صالح الأرميني في تاريخه بقوله (... الدير المعروف بالقصير علي قرنه " قمة " الجبل الشرقي، وهذا الدير يشرف منه علي بحر النيل المبارك وطرا، أنشأه ارغاديوس " Arcadius " الكبير ابن تودوس " Theodosius " الكبير ملك الروم علي قبر معلمة القديس أرسانيوس " st. Arsenius " وسماه باسمه . وكان أرسانيوس هذا قد هرب منه وتبعد في برية القديس أبو مقار " St. Mararius " بوادي هيبب، ثم انتقل إلى هذا الجبل وتبعد فيه، وعرف هذا الدير بقصير). الشابشتي: نفسه، ص ٣٩٧ - ٣٩٨ نقلها عن ابو صالح الأرميني؛ الأنبا صموئيل: تاريخ أبو المكارم عن الكنائس والأديرة في القرن الـ ١٢ بالوجه القبلي، ج٢، معهد الدراسات القبطية، القاهرة، ١٩٩٥ م، ص ٦٠ .

٢٧ - الزعار: اصطلاح استخدمه المؤرخون للدلالة علي طائفة من العوام، وهي تعني لغوياً المقاتلة، الذين يظهرون ويخفون فجأة، أي ان ظهورهم مرتبط بظهور الازمات والفتن . عنهم انظر محمد رجب النجار: حكايات الشطار والعيارين، سلسلة ذاكرة الكتابة، رقم ٣٧، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط١، القاهرة، ٢٠٠٣ م، ص ١٨٩ - ٢٠١ .

٢٨ - الشابشتي: الديارات، ص ٤٢؛ حبيب زيات: الديارات، ص ٣٠٢ .



الحبش^(٢٩) علي مقربة من نهر النيل الذي كان (حسن البناء، مليح الصنعة، مسور)^(٣٠). ودير طور سينا الذي عرف بدير سينا، أو دير طور سينا، أو دير الطور^(٣١). ونكر الشابشتي أن اسمه الحقيقي هو دير القديسة كاترينه^(٣٢) لكونه أقيم علي اسمها^(٣٣). وهذا الدير مبني بحجر أسود، عرض حصنه سبع أذرع، وله ثلاثة أبواب من الحديد، وفي غريه باب لطيف، وقدمه حجر، إذا أرادوا رفعه رفعوه، وإذا قصدهم قاصد أرسلوه فانطبق على الموضع فلم يعرف مكان الباب^(٣٤). وعلى الرغم من كل هذه الأبواب الحديدية والحجرية، وكل هذه الأسوار الشاهقة إلا إنها لم تكن تحمي الرهبان - على كثرتهم أحياناً - من غارات اللصوص وفنكات الأعراب وغيرهم من قطاع الطرق!^(٣٥).

٢٩ - ذكر ياقوت أن بركة الحبش هي أرض واسعة طولها نحو ميل، مشرفة علي نيل مصر خلف الأرافة، وهي من أجل منزهات مصر، وعندها بساتين تعرف بالحبش، والبركة منسوبه إليها. **ياقوت الحموي**: معجم البلدان، ج ١، ص ٥٩١ - ٥٩٢. وذكر ابن دقماق أنها كانت تقع جنوب مدينة الفسطاط فيما بين النيل والجبل. **ابن دقماق**: الأئصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، دت، ص ٤. وانظر أيضاً **المقريزي**: الخطط، ج ٢، ص ١٥٢. وقد سمي بهذا؛ لأنه كان يوجد بجوارها من الجهة الجنوبية مكان لطائفة من الرهبان الحبش، فنسبت إليها البركة. وهي ليست بركة عميقة فيها ماء راكد بالمعني المفهوم الآن من لفظ بركة، وإنما كانت تطلق علي حوض من الأراضي الزراعية التي يغمرها ماء النيل وقت فيضانه سنوياً بواسطة خليج بني وائل الذي كان يستمد ماءه من النيل جنوبي الفسطاط. فكانت الأرض وقت أن يغمرها الماء تشبه البرك، ولهذا سميت ببركة. انظر **المقريزي**: مسودة كتاب المواعظ والاعتبار في نكر الخطط والاثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ١٩٩٥ م، ص ١٥، هامش ٦؛ **ابن تغري بردي**: النجوم الزاهرة في محاسن القاهرة، ج ٦، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨ م، ص ٣٨١ - ٣٨٢؛ عبد الرحمن زكي: القاهرة، تاريخها وأثارها، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ط١، القاهرة، ١٩٦٦ م، ص ١٧٣٠.

٣٠ - **الشابشتي**: الديارات، ص ٢٨٩؛ **المقريزي**: الخطط، ج ٤، ص ٥٠٣.

٣١ - **الشابشتي**: المصدر السابق، ص ٤٢٦. وهذا الدير للروم الارثوذكس، وقد بناه الامبراطور يوستانياس سنة ٥٤٥ م. **الشابشتي**: نفسه، ص ٤٢٧. وانظر ملحق رقم ٣ ص ٣٤، حول صورة هذا الدير

٣٢ - **القديسة سانت كاترين St. cathrine**: هي البتول العظيمة الشهيرة في الشرق والغرب، كان أبواها وثنيين من الإسكندرية، ثم اعتنقت النصرانية، فنالها من الجور والاضطهاد ألوان متعددة على يد الإمبراطور ماكسيميانس، وحكم عليها بالموت سنة ٣٠٧ م. وتروي القصة الموضوعه في سيرة حياتها أن جسدها نقلته الملائكة الي طور سينا. عنها انظر **الشابشتي**: الديارات، ص ٤٢٦؛ **احمد أبو كف**: دير القديسة كاترين، مقال بمجلة الهلال، عدد يونيو ١٩٧١، القاهرة، ص ٩٠ - ١٠٣.

٣٣ - **الشابشتي**: المصدر السابق، ص ٤٢٦.

٣٤ - **ياقوت**: معجم البلدان، ج ٣، ص ٦٤٥؛ **العمرى**: مسالك الابصار، ج ١، ص ٣٧٢؛ **المقريزي**: الخطط، ج ٤، ص ٥١٠.

٣٥ - **حبيب زيات**: الديارات، ص ٣٠٣.



وكانت القباب بشكلها البيزنطي^(٣٦) تغلو بعض الأديرة. ويتعجب أحد الباحثين المحدثين من أنه لم يتفق لأحد الشعراء أو مؤلفي الديارات^(٣٧) وصف شيء من أفانين الفسيفساء علي كثرتها وشيوعها في بلاد الشام ومصر والعراق^(٣٨). علي الرغم من أن ياقوت الحموي لاحظ أن النصاري كانوا يتبارون في البيعة وزينتها وأنهم كانوا (... يجعلون في حيطانها الفسافس " الفسيفساء " وفي سقفها الذهب والصور)^(٣٩). ولكن هذا الباحث أغفل أنه كان في دير القصير صورة - الغالب أنها من الفسيفساء - لمريم العذراء وفي حجرها المسيح عليه السلام، وكان الناس يقصدون هذا الموضع من الدير للنظر الي هذه الصورة^(٤٠). وكان الأمير أبو الجيش خمارويه^(٤١) بن أحمد بن طولون حاكم مصر الطولوني معجباً بهذه الصورة أيضاً^(٤٢).

٣٦ - القباب البيزنطية: يرى ألفريد . ج بتلر أن القباب البيزنطية تعود إلى أصل شرقي، ويرى أنه من المحتمل أن يكون الطراز البيزنطي قد استعارها من الإسكندرية وليس العكس. ويرى أن القبة أصلها من الهند ثم انتقلت إلى مصر ومنها الي بيزنطة. وكانت القبة المركزية من أبرز معالم الطراز البيزنطي، ثم تطورت القبة القبطية من القبة البيزنطية، حتى إنها تظهر من الخارج إما على شكل قرميد املس، أو سطح من الجص الأبيض . لمزيد من التفاصيل انظر: الفريد . ج بتلر: الكنائس القبطية القديمة، ج ١، ص ٢٢-٢٥ .

Peter Grossman: The Coptic Encyclopedia, vol.1,p.209- 210,art.dome.

٣٧ - عن هذه المصنفات التي قامت بدراسة الأديرة انظر حبيب زيات: الديارات، ص ٢٩٢ - ٢٩٥ .

٣٨ - حبيب زيات: الديارات، ص ٣٠٤ .

٣٩ - ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٣٨؛ الشابشتي: الديارات، ص ٢٨٤؛ المقرئ: الخطط، ج ٤، ص ٥٠٢ .

٤٠ - ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٧٠٣ .

٤١ - خمارويه: هو الأمير أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، صاحب مصر والشام، تولى الحكم سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م وعمره عشرون عاماً، واستمرت دولته حتى سنة ٢٨٢هـ/٨٩٥م. وكان بطلاً شجاعاً، جواداً، مسرفاً على نفسه. وتزوج الخليفة العباسي بابنته أسماء الملقبة بقطر الندي . وقتل سنة ٢٨٢هـ/٨٩٥م بدير مران. عنه انظر البلوي: سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي، سلسلة النخائر، رقم ٥٥، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط ١، القاهرة، ١٩٩٩ م، ص ٣٤٠ - ٣٤٥؛ ابن العربي: تاريخ مختصر الدول، تحقيق أنطوان اليسوعي، دار المشرق، ط ٣، بيروت، ١٩٩٣ م، ص ١٤٨؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٤٩ - ٢٥١، ترجمة ٢٢١؛ ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر، تحقيق زكي محمد حسن وآخرون، سلسلة النخائر، رقم ٨٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٣ م، ص ١٣٣ - ١٤٠؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ١٦٣٨، ترجمة ١٩٩٠؛ سيدة إسماعيل الكاشف: أحمد بن طولون، سلسلة أعلام العرب، رقم ٤٨، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، ط ١، القاهرة، ١٩٦٥ م، ص ١٥٢ - ١٥٤ .



وكان كل دير - سواء صغيراً أم كبيراً - يحتوى على كنيسة يصلي فيها الديرانيون، بل إن بعض الأديرة كان في الأصل كنيسة ثم تحولت إلى دير يحتوي على الكنيسة وباقي منشآت الدير، مثلما حدث في دير القصير، عندما هرب ارسانيوس St. Arsemius من الإمبراطور البيزنطي أركاديوس Arcadius في مصر، وترهب في جبل المقطم شرقي طرا، وأقام في مغارة ثلاث سنين ثم مات . فأرسل الإمبراطور اركاديوس إلى والي مصر ليطلب منه أن يبني على قبر ارسانيوس كنيسة، ثم تحولت إلى المكان المعروف باسم دير القصير^(٤٣).

وكان كل دير أيضاً يشتمل على صوامع تستوعب من فيه من الرهبان وهي تسمى قلاية، وقد نكرها الزبيدي صاحب تاج العروس بأنها (... بالكسر وشد اللام شبه الصومعة)^(٤٤). وتجمع القلاية على قلالي بالتشديد. ونكر الخافجي في شفاء الغليل أن (...معابد النصراني ومساكن الرهبان منها كنائس وهي ما يعدونه للعبادة، وهي معروفة الآن " القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد" ومنها دير وقلية وصومعة. فما كان خارج البلدان والقرى إن كان فيه حجرات ومرافق فهو دير . وأما القلاية وجمعها قلايا، فهي بناء مرتفع كالمنازة تكون لراهب ينفرد فيها . وقد لا يكون لها باب ظاهر . والصومعة دونها وهي معروفة)^(٤٥).

٤٢ - الشايشتي: النيارات، ص ٢٨٤؛ المقرئزي: الخطط، ج ٤، ص ٥٠٢؛ حبيب زيات: النيارات، ص ٣٠٥ . ونكر العمري أن الأمير خمارويه كان كثير العشيان لهذا الدير دون أن يذكر إعجابه بصورة السيدة العذراء وابنها السيد المسيح. انظر العمري: مسالك الأبصار، ج ١، ص ٣٦٣. وقد توفي أو قتل خمارويه علي يد غلمانه في دير مران كما يذكر الذهبي في سير الأعلام. الذهبي: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٦٣٨، ترجمة ١٩٩٠. وهذا الدير خرب حالياً، وهو بأعلى جبل طرا، وكان يقيم فيه رهبان طائفة النصراني الملكية الروم. الأنبا صموئيل: تاريخ أبو المكارم، ج ٢، ص ٦٠، هامش ٣ .

٤٣ - المقرئزي: الخطط، ج ٤، ص ٥٠٣. ونكر المقرئزي أن هذا الدير في عصره يعرف باسم " دير البغل "؛ لأنه كان به بغل يستقي عليه الماء، فإذا خرج من الدير أتى المورده وهناك من يملأ عليه، فإذا فرغ من الماء تركه فعاد إلى الدير . المقرئزي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٥٠٣.

٤٤ - الزبيدي: تاج العروس من شرح جواهر القاموس، ج ٨، المطبعة الخيرية، مصر، د.ت، ص ٨٦٠ .

٤٥ - الخافجي: شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، تصحيح نصر الهوريني، المطبعة الوهبية، مصر، ١٢٨٢ هـ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .

وذكر أحد الباحثين المحدثين أن القلاي كانت داخل الديارات أيضًا، تطلق على الحجرات فيها، وغرف الرهبان^(٤٦). وكانت القلاي - التي في الضواحي - تقام قديمًا في جوار الأديار، ولكل راهب من المنتسبين إليها قلية خاصة يفصلها عن الدير وعن ما جاورها بستان فيه أصناف الأشجار والثمار والبقول والرياحين، يهتم الراهب بزراعتها والقيام عليها ويرترق بيوع غلتها^(٤٧). وكان الرهبان يتبايعون هذه القلاي بينهم، ولا ريب أن الأثمان كانت تختلف باختلاف المواقع، واتقان البناء، واتساع البساتين، وارتفاع الغلال . فيما كان بعض هذه القلاي لا يخلو من النفاسه والتأنق والزخرفة^(٤٨) . والراهب الذي قلت أحواله المالية، ولم يستطع أن يحصل قلاية بهذا الشكل، كان يتخذ له بيتًا ضيقًا يقال له الكرح، ووصفه الزبيدي بقوله (... الكرح بالكسر بيت الراهب والجمع أكرح)^(٤٩). وذكر ياقوت الحموي في معجمه نقلًا عن الخالدي أن (... الاكيراح " تصغير كرح " بيوت صغار تسكنها الرهبان الذين لا قلاي لهم، يقال لواحدها كرح)^(٥٠). ويرى أحد الباحثين المحدثين أن لفظه كرح لفظة سريانية ومعناها الكوخ الصغير، وأن هذه البيوت والأكوخ كانت مختصة بديارات الحيرة والعراق وهدهما؛ لأننا لم نجد لها أي ذكر في ديارات الشام ومصر^(٥١).

ولم تقتصر الرهينة والعيش في الأديرة على الرجال فقط، بل امتدت لتشمل النساء أيضًا، ولذلك وجدنا عددًا من الأديرة تختص بالنساء فقط. وذكر أحد الباحثين المحدثين أن الذين اهتموا بالتأليف عن الأديرة لم يهتموا بتعداد ما كان منها للنسوة المتبتلات، وانهم إنما اشاروا الي قسم منها عرضًا!^(٥٢) . ويرى الباحث أن هذا الكلام غير صحيح

٤٦ - حبيب زيات: الديارات، ص ٣٠٨ .

٤٧ - حبيب زيات: المرجع السابق، ٣٠٨ .

٤٨ - حبيب زيات: نفسه، ص ٣٠٩ .

٤٩ - الزبيدي: تاج العروس، ج ٢، ص ٢١١ .

٥٠ - حبيب زيات: الديارات، ص ٣١٠ .

٥١ - حبيب زيات: المرجع السابق، ص ٣١٠ .

٥٢ - حبيب زيات: الديارات، ص ٣١٢ .



علي إطلاقه، والدليل علي ذلك ان المقريري في خطه تحدث عن أن (... للنساء ديارات تختص بهن) (٥٣). وسمي هذه الأديرة، وهي دير البنات بحارة الروم (٥٤) بالقاهرة، وذكر أنه عامر بالنساء المترهبات (٥٥). ودير الراهبات بحارة زويلة (٥٦) ووصفه بأنه (... دير عامر بالأبكار المترهبات وغيرهن من سيدات النصاري) (٥٧). ودير المعلقة في القاهرة، وذكر المقريري أنه أشهر ديارات النساء وأنه عامر بهن (٥٨). ودير برباره في مصر بجوار كنيسة بربارة (٥٩). وهو عامر بالبنات المترهبات (٦٠) ولم يذكر الشابشتي عند حديثه عن أديرة مصر أي ذكر لأديرة النساء المترهبات فيما ذكره

٥٣ - المقريري: الخطط، ج٤، ص ٥٠٩ .

٥٤ - حارة الروم: ذكر بن عبد الظاهر أن الروم اخنط حارتين حارة الروم الآن المشهورة، وحارة الروم الجوانية وهي التي تقرب من باب النصر [علي يسار الداخل منه] فلما سارت الناس يقولون حارة الروم البرانية، وحارة الروم الجوانية . ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق ايمن فؤاد سيد، الدار العربية للكتاب، ط١، القاهرة، ١٩٩٦ م، ص ٢١؛ المقريري: الخطط، ج٣، ص ٨؛ مسودة كتاب المواعظ والاعتبار: ص ٣٥٠؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٩ م، ص ١٨٠؛ عنها انظر ملحق رقم " ٥ "، ص " ٤٨ " .

٥٥ - المقريري: الخطط، ج٤، ص ٥٠٩ .

٥٦ - حارة زويلة: اختطها قبيلة عرفت بزويلة فعرفت الحارة بها، كذلك البئر التي عرفت ببئر زويلة، وهي في المكان الذي يعمل فيه الآن الروايا، واختطت زويلة ايضا البابين المعروفين ببابي زويلة، وهما البابين اللذان عند مسجد ابن البناء وعند الحجارين. عنها انظر ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، ص ١٦-١٧، ٥٨؛ الفلقشندي: صبح الأعشي، ج٣، ص ٣٩٧؛ المقريري: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٤؛ مسودة كتاب، ص ٣٥٧؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٨٠؛ عنها انظر ملحق رقم " ٥ "، ص " ٤٨ " .

٥٧ - المقريري: الخطط، ج٤، ص ٥٠٩ .

٥٨ - المقريري: المصدر السابق، ج٤، ص ٥٠٩ .؛ حبيب زيات: الديارات، ص ٣١٥ .

٥٩ - ذكر المقريري أن برباره التي أطلق اسمها علي الدير هي قديسة من زمن الإمبراطور البيزنطي نقلديانوس دخلت المسيحية فعزبها للعودة إلى الوثنية، ولكن رفضت وتحملت العذاب الشهير منه، وكانت عذراء . وعندما يأس منها نقلديانوس ضرب عنقها وعنق عدة من النساء معها . المقريري: الخطط، نفسه، ج٤، ص ٥٠٩ .

٦٠ - المقريري: نفسه، ج٤، ص ٥٠٩، ٥١١ .



من الأديرة! (٦١) وقد أضاف ابن دقماق إلى أديرة النساء، اسم دير جديد وهو دير أبي جرج، وهذا الدير بقصر الروم بزقاق الترمس (٦٢). ويعرف بدير البنات (٦٣). وكانت بعض الأديرة المسيحية في مصر مقصدًا لعدد من الأمراء والولاة، مثل دير القصير (٦٤) الذي كان الأمير أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) (٦٥) (... كثير الغشيان " الزيارة " لهذا الدير) (٦٦)؛ وذلك لأنه كان معجبًا بصورة في هيكله للسيدة العذراء وفي حجرها السيد المسيح عليه السلام، وكان يقيم في حجرة بناها في أعلى الدير لها أربع طاقات على الجهات الأربعة، وكان يقصد هذا الدير ليشرب فيه الخمر وهو ينظر إلى الصورة التي كان معجبًا بها !! (٦٧) وكان الأمير الفاطمي تميم بن المعز لدين الله (٣٣٧ - ٣٧٤ هـ / ٩٤٨ -

٦١ - انظر: أديرة مصر في الديارات للشابشتي، ص ٢٨٤ - ٢٩٩، ٣٩٧ - ٤٢٩ .

٦٢ - زقاق الترمس: لم يذكره المقرئ في ضمن أزقة القاهرة المختلفة . انظر المقرئ: الخطط، ج٣، ص ٤٤ . والغالب أنه على مقربة من حصن بابلون؛ لأن ابن دقماق ذكر أن هذا الدير بقصر الروم القريب من كنيسة تادورس، وهذه الكنيسة ذكر المقرئ أنها بجوار بابلون، نسبت للشهيد تادورس الاسفهلار . انظر المقرئ: الخطط، ج٤، ص ٥١٢؛ ابن دقماق: الانتصار، ص ١٠٨ .

٦٣ - ابن دقماق: المصدر السابق، ص ١٠٨ .

٦٤ - دير القصير: عنه راجع ما سبق، ص ٢٤، هامش ٤٣ .

٦٥ - عنه راجع ما سبق، ص ٢٤، هامش ٤١ .

٦٦ - الشابشتي: الديارات، ص ٣١٩؛ المقرئ: المواعظ والاعتبار، ج٤، ص ٥٠٢؛ حبيب زيات: الديارات النصرانية، ص ٣١٨ . وذكر ابن سعيد المغربي أن الأمير أحمد بن طولون كان يزور دير القصير أيضًا؛ لأنه (... كان يخلو فيه للرأي) إلى جانب أنه كان يحب أن يتحدث مع أحد رهبانه، الذي يدعي "أبا اندونه" وكان حسن العقل . انظر ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب، ص ١٣٠؛ عنه انظر ملحق رقم "٧"، ص "٥٠" .

٦٧ - الشابشتي: المصدر السابق، ص ٣١٩؛ أبو صالح الأرمني: تاريخ الشيخ ابي صالح الأرمني المعروف بكتاب كنائس وأديرة مصر، neighboring countries، نشر افيننس، أكسفورد، ١٨٩٥ م، ص ٦٢٠ .



٩٨٤م) (٦٨) من الأمراء الشعراء الذين كانوا لا يفارقون دير القصير . وقال فيه قصائد عدة منها قوله :

فصرت علي دير القصير مجون
ورحت ومالي فيه غير مصوني
وكان به للراح عندي وللصبا
ديون، فلم امطل قضاء ديوني
إذا بكر الناقوس باكرت شربها
وخالف أديان النواقيس ديني (٦٩)

وكان الخليفة الفاطمي الحاكم بأمرالله (٣٨٦ - ٤١١هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٠ م) يقصد أيضاً دير القصير، حيث نكر الأنطاكي في تاريخه ذلك بقوله (... وكان " الحاكم " في كثير من الأيام في نفوذه " رحلاته " إلى البرية يقصد ديرالقصير، ويشاهد عمارته) (٧٠) . بل إن الفاطميين عندما اختفى الخليفة الحاكم ولم يعثروا له على أثر، ذهبوا إلى دير القصير للبحث عنه فيه، حيث اعتاد

٦٨ - هو الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي، ولد بإفريقية سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨م في أعقاب انتصار الفاطميين علي أبي يزيد الخارجي، واهتم والده المعز به، فوكل إليه من يلقنه العلم والأدب، وكان منهم الشاعر الشهير ابن هانئ الأندلسي، ومن هنا بدأت موهبة الأمير تميم الشعرية . وقد غلبت عليه حياة المجون، فانصرف إلى الشعراء وإلى الملاهي والمعارف، الأمر الذي أغضب عليه والده المعز مما دفعه إلى خلعته من ولاية العهد وإسناده إلى ابنه الثاني العزيز بالله . عنه انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص ٣٠١ - ٣٠٣، ترجمة ١٢٥؛ ابن الأبار: الحلة السيرة، ج١، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، ط٢، القاهرة، ١٩٨٥ م، ص ٢٩١ - ٣٠١، ترجمة ١٠٨؛ السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار احياء الكتب العربية، ط١، القاهرة، ١٩٦٨ م، ٥٦٠ - ٥٦١ .

٦٩ - تميم بن المعز لدين الله: ديوان تميم بن المعز لدين الله، تقديم إبراهيم الدسوقي، سلسلة النخائر، رقم ٨٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ٢٠٠٢ م، ص ٤٤٣ . وذكر الشاعر محمد بن عاصم دير القصير في شعره بقوله:

ان دير القصير هاج انكاري
له أيامي الحسان القصار
وزماناً مضي حميداً سريعاً
وشباب مثل الرداء المعار .

الشابشتي: الديارات، ص ٣٢٠ .

٧٠ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتبخيا، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، مطبعة جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٩٠ م، ص ٣٦١؛ ابن ايّك النوادر: كنز الدرر وجامع الغرر، ج٦، بعنوان الدرّة المضية في تاريخ الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح الدين المنجد، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، ١٩٦٠ م، ص ٣٠٠ .



الذهاب و (... ففتشوه لئلا يكون مستنترًا فيه) ^(٧١) . وهذا أبرز دليل على أنه كان يرتاد هذا الدير كثيرًا. ولم يقتصر الخليفة الحاكم على زيارة دير القصير فقط، بل إنه كان (... يعدل أيضًا إلي ديارت جدها اليعاقبة ^(٧٢) في ناحية القرافة) ^(٧٣) ومنها دير شهران ^(٧٤) حيث نكر أبو صالح الأرمني زيارة الخليفة الحاكم له بقوله (... وكان الامام الحاكم ملازم البرية بهذا الدير، ولتنزه فيه، ومنه كان يخرج الي الجبل ويسبح في البرية) ^(٧٥) ونكر أبو صالح الأرمني أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ^(٧٦) - عند قدومه من المغرب إلى مصر - قد نزل تحت دير نهيا ^(٧٧) واقام سبعة

٧١ - الأبطاكي: تاريخ الأبطاكي، ص ٣٦١؛ المقرئزي: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ١٢٠ .
٧٢ - اليعاقبة: هم أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة، قد نسبهم المؤرخون اللاتين والأروام إلى يعقوب البرادعي، ولذلك عرفت الكنيسة القبطية بالكنيسة اليعقوبية. وهذا الرأي مردود عليه، فلم يعرف الأقباط منذ أول عهدهم بالمسيحية إلى اليوم الا بالأقباط الأرثوذكس، وكنيستهم بالكنيسة القبطية الارثوذكسية . عنهم انظر الناشئ الأكبر: مسائل الامامة ومقتطفات من الكتاب الأوسط في المقالات، تحقيق يوسف فان إيسل، منشورات المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، ط٢، بيروت، ٢٠٠٣ م، ص ٨٠٨١؛ المقرئزي: المواعظ والاعتبار، ج٤، ص ٤٨٦ - ٤٨٨؛ منسي يوحنا: تاريخ الكنيسة القبطية، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥ م، ص ٢٧٤ - ٢٧٥؛ الخافجي: شفاء العليل، ص ٢٤٠ .

٧٣ - الأبطاكي: تاريخ الأبطاكي، ص ٣٦٠ .
٧٤ - دير شهران: هذا الدير في ناحية طرا وهو مبني بالحجر واللبن، وبه نخيل وعدة رهبان . وشهران كان من حكماء النصاري، وقيل بل كان ملكاً، وكان هذا الدير يعرف قديماً بمرفوريوس، وله عيد في الجمعة الخامسة من الصوم الكبير . لمزيد من التفاصيل انظر أبو صالح الأرمني: تاريخ الشيخ، ص ٦٠؛ المقرئزي: المواعظ والاعتبار، ج٤، ص ٥٠١؛ الأتبا صموئيل: تاريخ أبو المكارم، ج٢، ص ٥٨ .
٧٥ - أبو صالح الأرمني: المصدر السابق، ص ٦٠؛ ونكر ساويرس بن المقفع زيارة الحاكم لهذا الدير بقوله " ... وكان الحاكم [بأمر الله] يجئ عندهم نفعات كثيرة، ويقيم هناك ويأكل من طعامهم الحقيق " . ساويرس بن المقفع: تاريخ البطارقة، ج٥، ص ٦٥٢ - ٦٥٣ ؛ وانظر أيضاً محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، مكتبة الخانجي، ط٣، القاهرة، ١٩٨٣ م، ص ١٤٢ .
٧٦ - المعز لدين الله الفاطمي: هو الخليفة أبو تميم معد بن المنصور إسماعيل بن القائم العبيدي المهدي، تولى الخلافة سنة ٣٤١هـ/٩٥٢م في إفريقية، وأرسل قائده جوهر الصقلي سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م لفتح مصر. وانتقل إليها سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م. وتوفي بالقاهرة سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥ م. عنه انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص ٢٢٤ - ٢٢٨، ترجمة ٧٢٧؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ١٦٩ - ١٧٠؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ص ١٢٤٠ - ١٢٧٩؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص ٣٩٠٠ - ٣٩٠١، ترجمة ٦١٨٩؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج١، ص ٩٣ - ٢٣٥؛ أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ص ٢٧٧ - ٢٧٩ .

De Lacy O'Leary: A short History of Fatimid Khalifate, Kagan Paul, London , 1923 , P. 93-114 .



شهور!، وإنشأ قبائله بستان وبئر ساقية تحت الكوم غربي الجميمة وحوض سبيل، ثم دخل مصر^(٧٨). وبالعودة إلى المصادر التاريخية التي أرخت لدخول الخليفة المعز الي مصر لم نجد لهذه المعلومة أصلاً في أي منها!، وكلها تجمع علي أن الخليفة المعز نزل إلى الجيزة ثم عبر الجسر منها إلى القاهرة مباشرة دون أن يتوقف بهذا الدير^(٧٩).

وذكر أحد الباحثين المحدثين أنه ندر أن يكون دير في الإسلام من الديارات المشهورة لم يعرج عليه الخلفاء والملوك في غزواتهم وتقلاتهم^(٨٠). وربما كان هذا الأمر ينطبق على اديرة العراق والشام، أما في مصر، فلم يرد في المصادر التاريخية زيارة الخلفاء والأمراء في العصر الفاطمي لها إلا النماذج التي ذكرها الباحث فيما سبق. وكان الأمراء والخلفاء يذهبون إلى الأديرة لشرب الخمر، حيث اشتهرت بعض الأديرة بجودة خمورها^(٨١). ويرى الباحث أن

٧٧ - وصف الشايشتي هذا الدير بقوله (... ونهيا بالجيزة، وديرها من أحسن الديارات وأتزهها وأطيبها، عامر بالرهبان وسكانه . وله في النيل منظر عليل؛ لأن الماء يحيط به من جميع جهاته، فإذا اتصرف الماء وزرع، ظهر أرضيه غرائب النوار وأصناف الزهر، فهو من المتنزهات الموصولة والبقاع المشهورة). الشايشتي: الديارات، ص ٣٣١؛ انظر أيضاً: المقرئبي: المواظ، ج٤، ص ٥٠٤ . وتقع أطلال هذا الدير الآن بجوار قرية أبو رواش التي تبعد كم شمال الأهرام، وترى الآن أطلالاً قليلة من بقايا الدير في جبل أبو رواش. وذكر مصلحة الآثار أنه قد تم اكتشاف مباني قبطية في أحد المحاجر بالمنطقة، ربما تكون لبقايا دير نهيا المشهور . انظر صموئيل السرياتي: الدليل للكنائس، ص ١٨، دير رقم ١؛ عنه انظر ملحق رقم " ٦ "، ص " ٤٩ " .

٧٨ - أبو صالح الأرمني: تاريخ أبو صالح، ص ٧٧ .

٧٩ - لمزيد من التفاصيل، انظر ابن ابي الهيجاء: تاريخ ابن أبي الهيجاء، تحقيق صبحي عبد المنعم محمد، دار رياض الصالحين، ط١، الفيوم، ١٩٩٣م، ص ٥٢؛ المقرئبي: اتعاط الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفاء، ج١، تحقيق جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط٣، القاهرة، ٢٠٠٥ م، ص ١٣٤؛ حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ط١، ١٩٣٢، ص ١١٤ .

٨٠ - حبيب زيات: الديارات النصرانية، ص ٣١٩، هامش ٧.

٨١ - وينكر حبيب زيات أن إلحاق الحانات بالديارات كان بعد الإسلام، حيث أنشأت كحانات للأديرة ، وكان ذلك على أثر اعتياد المسلمين ابتياح الخمر من الرهبان، وطرقهم القلافي حتى في ظلمات الليل، واختلاطهم بهم في أوقات العبادات والصلوات. ولذلك رأى الرهبان التحوط والتصون، وعزل مستودعات الشراب بمنأى عن الهياكل والمعابد . ويذكر أن بعض أديرة النساء كانت محفوفة بمثل هذه الحوانيت والخمارات بأخطارها وأضرارها مثل نير العذاري، بجانب العلت بين سامراء وبغداد . حبيب زيات: المرجع السابق، ص ٣٥٠ - ٣٥١ .



الحانات الملحقة بالأديرة ندر وجودها في مصر، بل إن هذا الأمر ينطبق على بلاد الشام والعراق أكثر من مصر، باستثناء الدير الأبيض^(٨٢) الذي ذكر أحد الباحثين المحدثين أنه من الديارات السبعة في مصر^(٨٣) وكان الشهاب العمري - صاحب مسالك الإبصار - قد زاره وشرب فيه الخمر، وأنشد فيه أبيات ذكر فيها أن ساقيته كانت من بنات القسوس، ومما قاله فيه:

ولم أنس بالدير يوماً لنا
وكاس المدام علينا تطوف
يعطوف بها من بنات القسو
مسيحية طلعت في المسوح
وعيش السرور به ينهب
بحمراء صافية كالذهب
س باحلة الكف ليست تهب
كصبح اطل وليل من ذهب^(٨٤)

ويري الباحث أن هذه هي حالة فريدة لم تنكر إلا في مصدر واحد!، ولم تنكر باقي المصادر أي امثلة أخرى له . وبالتالي لا نستطيع أن نقطع أن الأديرة في مصر كانت تقدم أو يباع الخمر فيها . ولكن بعض الزوار من كبار رجالات الدولة وأعيانها مثل الأمير خمارويه، والأمير تميم بن المعز الفاطمي كانا - كما يذكر أحد الباحثين المحدثين - يتغلبون بسطوتهم وجاهم علي كل قانون للكنائس والأديار، ويعاقرون الخمر ضمن أسوارها دون اكرتات بالرهبان^(٨٥).

٨٢ - لم يذكر الشهابستي ولا المقريري ولا ابن دقماق أي دير في مصر بهذا الاسم!.. انظر الشهابستي: الديارات، ص ٣١٩ - ٣٣٧؛ المقريري: المواعظ والاعتبار، ج٤، ص ٥٠١ - ٥١٠؛ ابن دقماق: الانتصار، ص ١٠٧ - ١٠٨. وربما هو دير من اديرة السبعة جبال باخميم. ومما يؤكد ذلك ما ذكره ياقوت الحموي في معجمه أن دير الأبيض في موضعين: الأول في الرها، والثاني (... بالصعيد، يقال له أيضاً دير الأبيض) ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٢، ص ٤٩٧.

Rene- Geogres Coquin: The Coptic Encyclopedia, vol.4, p.761-765.

٨٣ - حبيب زيات: الديارات النصرانية، ص ٣٥٤. وذكر المقريري أن دير السبعة جبال باخميم داخل سبعة أودية، وأنه يوجد بداخله دير يسمى الصفصافة، ودير القرقس . المقريري: المصدر السابق، ج٤، ص ٥٠٤ . وبالتالي يمكن أن يكون ما ذهب إليه حبيب زيات صحيحاً، ودير السبعة جبال يقع على مسافة سبعة كيلومترات شرق دير الملاك بقرية السلاموني بأخميم . وفي منطقة الدير توجد آثار لمبني صهريج مياه وبعض المباني الأخرى، وفي أعلى الجبل البحري على اليسار - ترى مباني مهمة من آثار الدير، بها فتحات شبابيك وأبواب لا تزال ترى من أسفل، ومبانيها من الطوب اللبن. لمزيد من التفاصيل انظر: صموئيل السرياني: الدليل إلى الكنائس والأديرة القديمة من الجيزة إلى أسوان، معهد الدراسات القبطية، القاهرة، دت، ص ٢٦١، دير رقم ١٣٥؛ عنه انظر الملحق رقم " ٧ "، ص " ٥١ "

Rene- Geogres Coquin: Op.cit, vol.4, p.796.

٨٤ - ابن فضل الله العمري: مسالك الإبصار، ج١، ص ٣٨٣ .

٨٥ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٣٦٠ .



الأديرة المسيحية في عصر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله :-

أولاً : المسيحيون في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله :-

قبل الحديث عن الأديرة المسيحية في عصر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله لا بد أن نتوقف سريعاً علي أحوال أهل النمة في العصر الفاطمي الأول (٣٥٨ - ٤٢٢ هـ / ٩٦٨ - ١٠٣٠ م) . فبشكل عام تمتع أهل النمة في هذا العصر بالتسامح الديني، الذي حرص الخلفاء الفاطميون على أن يسود مصر، باستثناء فترة الخليفة الحاكم بأمر الله - فترة دراستنا-، ولذلك لا يمكن أن نقول أن أهل النمة بصفة عامة، والمسيحيون بصفة خاصة قد تم اضطهادهم في العصر الفاطمي الأول، بل علي العكس تمثل فترة الحاكم بأمر الله استثناء من القاعدة . فالخليفة الفاطمي الأول في مصر، المعز لدين الله (٣٦٢-٣٦٥هـ/٩٧٢ - ٩٧٥م) كان متسامحاً في سياسته الدينية مع المسيحيين، فلم يتدخل في الشؤون الداخلية الخاصة بالكنيسة، علاوة على أنه أقام علاقات وطيدة مع رجالها^(٨٦) .

واستمر الحال في عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦هـ/

٩٧٥ - ٩٩٦م)^(٨٧) . الذي شمل أهل النمة بصفة عامة، والمسيحيين بصفة خاصة

٨٦ - سلام شافعي: أهل النمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ١٩٩٠ م، ٢١٣؛ وانظر أيضاً جاك تاجر: أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢، تقديم محمد عفيفي، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ٢٠١٥ م، ص ١٣٧ - ١٣٨؛ ناريمان عبد الكريم: معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ١٩٩٦ م، ص ٩٧ .

٨٧ - العزيز بالله: هو الخليفة أبو منصور نزار بن المعز بن إسماعيل العبيدي الفاطمي، ولد في سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥م ورحل مع أبيه المعز إلى مصر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م، وتولى الخلافة الفاطمية سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م. وكان كريماً شجاعاً حسن الأخلاق، قريباً من الرعية، مغرمًا بالصيد، ولا يؤثر سفك الدماء . ومات سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م. عنه انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص ٣٧١ - ٣٧٦، ترجمة ٧٥٩؛ ابن العربي: تاريخ مختصر الدول، ص ١٧١، ١٧٨؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ص ١٢٧٩ - ١٣٢١؛ الذهبي: سير اعلام، ج٣، ص ٤٠١١ - ٤٠١٢، ترجمة ٦٣٨٤؛ المقرئ: تعاظ الحنفا، ج١، تحقيق جمال الدين الشيبان، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط٣، القاهرة، ٢٠٠٥ م، ص ٢٣٦ - ٢٩٩؛ عماد الدين القرشي: عيون الأخبار وفنون الآثار، السبع السادس، تحقيق مصطفى غلاب، دار الانتلس، ط٢، بيروت، ١٩٨٤ م، ص ٢٠٥ - ٢٤٨؛ أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٢٨٠ - ٢٨١؛ علي حسني الخربوطلي: العزيز بالله، سلسلة أعلام العرب، رقم ٧٣، دار الكاتب العربي، ط١، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٢٦٠ - ٢٧٣ .



برعايته واهتمامه، فقد المناصب الكبرى في دولته لأهل الذمة، ولم يشترط عليهم التخلي عن دينهم واعتناق الإسلام لتوليها. وكانت علاقته برؤساء الطوائف الدينية، وخاصة المسيحية في أحسن حالاتها^(٨٨). وقد أرجع بعض المؤرخين ذلك إلى أن زوجته كانت مسيحية علي المذهب الملكاني^(٨٩)، أنجب منها ابنته المعروفة بست الملك^(٩٠) اللتان كان لهما نفوذ كبير علي الخليفة الفاطمي العزيز بالله . حتى أنه اصدر قراراً سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م بتعيين ارستيس - أخو زوجته - بطبركاً

٨٨ - سلام شافعي: أهل الذمة، ص ٢١٤ .

٨٩ - المذهب الملكاني: هو مذهب نشأ في مصر المسيحية قبل الإسلام، وهو مذهب نشأ عندما ظهر الخلاف في مصر حول طبيعة السيد المسيح . والمذهب الملكاني هو مذهب الطبيعة والمشيئين التي اعتنقتها كنيسة روما، وقرره مجمع خلقونونية سنة ٥٤١ م، الذي حضره الملك فسمي المذهب الملكاني . الأتطاكي: تاريخ الأتطاكي، ص ٢٥٣، هامش ٤؛ ولمزيد من التفاصيل انظر الناشئ الأكبر: مسائل الإمامة، ص ٧٩؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى، ج ١، ص ٥٩ - ٦٠؛ السيد الباز العربي: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص ١٥٤-١٦٣؛ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، ط ١، بيروت، ١٩٨٢ م، ص ٥٢-٥٣ .

٩٠ - ست الملك: هي ابنة الخليفة العزيز بالله واخت الخليفة الحاكم، ولدت سنة ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م، وتوفيت في سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م، ولدت بالمغرب وقدمت مع أبيها إلى مصر في ركاب جدها المعز سنة ٣٦٢هـ. وكانت أمها جارية رومية أو قبطية، وكانت ثرية للعزيز بالله . وكانت منذ نشأتها أميرة عاقلة حازمة، وافرقة التحفظ والجد. وقد ساعدت أخيها الخليفة الحاكم بأمر الله في أول أيام حكمه، وأمدته بالنصح والإرشاد، ثم ما لبث أن تبينت إنه لا يستمع إليها، فاعتزلت في القصر الفاطمي الغربي المسمي بالقصر الصغير . ونكر بعض المؤرخين أن لها دوراً في وفاة أخيها الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م . عنها انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ص ١٣٧٣ - ١٣٧٤؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، ص ٧١ - ٧٣ ، ١٤٨؛ المقرئ: تعاضد الحنفاء، ج ٢، ص ١١٥؛ مسودة كتاب، ص ١٢٧، ٣٧٧؛ محمد عبد الله غان: تراجم إسلامية شرقية وتلنسية، دار المعارف بمصر، ط ١، القاهرة، ١٩٤٧ م، ص ٣٤ - ٤١؛ ست الملك حسناء شغلتها السياسة عن الزواج، مقال بمجلة الهلال المصرية، العدد ٨، المجلد ٦٦، أغسطس ١٩٥٨ م، ص ٥٠ - ٥٤؛ الزركلي: الأعلام، ج ٣، ص ٧٧ - ٧٨؛ سمير فوزي جرجس: موسوعة من تراث الأقباط، ج ١، من تاريخ القبط، دار القديس يوحنا، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٤ م، ص ٢٠٧ .

De Lacy O'Leary: A short History of Fatimid, P. 185 .



للملكانيين علي بيت المقدس، وأخوه ارسانيوس مطراناً علي الملكانيين في القاهرة ومصر^(٩١). ويذكر احد الباحثين المحدثين ان ذلك أدى إلى استبداد أهل الطائفة الملكانية المسيحية بثئون المسيحيين في مصر . وقد عانى المسيحيون اليعاقبة، والكنيسة القبطية من هذا النفوذ، وخاصة بعدما حاول ارسانيوس الاستيلاء علي كنيسة المعلقة^(٩٢)، والسيدة العذراء^(٩٣) بالفسطاط^(٩٤). إلى جانب انشغال أهل النمة في عهد الخليفة العزيز بالله بالمنصب الإدارية بالدولة، حيث تولى الوزارة له عيسى بن نسطورس القبطي^(٩٥) مرتين، كما تولى الوزارة

- ٩١ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٢٠٣؛ ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطارقة، ج٥، تحقيق عبد العزيز جمال الدين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط١، القاهرة، ٢٠٠٢ م، ص ٤٩٩، ٥١١؛ فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل النمة في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي، ج١، سلسلة تاريخ المصريين، رقم ١٧٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ١٦٨ .
- ٩٢ - الكنيسة المعلقة: هي أقدم كنائس قصر الشمع، والكنيسة أخذت اسمها الشائع من حقيقة أنها معلقة بين اثنتين من البروزات في الحصن الروماني، ويتم الصعود إليها بواسطة سلم مبني بجوار أحد هذين البروزين. وهي مبنية على الطراز البازيليكي الذي يتميز بوجود ثلاثة محارب وهي تتميز أيضاً بعدم وجود قبة مثل باقي الكنائس في مصر القديمة . عنها انظر ابن دقماق: الانتصار، ص ١٠٧؛ المقريري: المواعظ والاعتبار، ج٤، ص ٥١١؛ الفريد ج بتلر: الكنائس القبطية القديمة في مصر، ج١، ترجمة إبراهيم سلامة إبراهيم، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ٢٠٠١ م، ص ١٨٠ - ١٩٤؛ الأنبا صموئيل: الكنائس والأديرة القديمة بالوجه البحري والقاهرة وسيناء، معهد الدراسات القبطية، ط١، القاهرة، ١٩٩٥ م، ص ٩٥؛ عبد الحميد نافع: نيل خطط المقريري، تحقيق خالد عزب، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦ م، ص ٣٤، هامش ٢١ .
- ٩٣ - كنيسة السيدة العذراء: توجد هذه الكنيسة في حارة زويلة وهي كنيسة عظيمة عند المسيحيين اليعاقبة . عنها انظر ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، ص ٥٧ - ٥٨، ١٠٩؛ المقريري: المواعظ والاعتبار، ج٤، ص ٥١١؛ سومرز كلارك: الآثار القبطية في وادي النيل، ترجمة إبراهيم سلامة، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ٢٠٠٠ م، ص ٣٠٥؛ الفريد ج بتلر: المرجع السابق، ج١، ص ٢٣٠ - ٢٣٣ .
- ٩٤ - ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطارقة، ج٥، ص ٥١١؛ سلام شافعي: أهل النمة، ص ٢١٥ .
- ٩٥ - كان أميناً علي أموال الحكومة الفاطمية وإيراداتها ومصروفاتها أيام الخليفة العزيز بالله، وعندما تولى الخليفة الحاكم بأمر الله الحكم أقره علي ديوانه الخاص وخلع عليه . ثم ما لبث أن انقلب عليه وقتله . عنه انظر الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٢٣٨؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٨، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ١٩٩٢ م، ص ١٦٨؛ يعقوب نخله روفيله: تاريخ الأمة القبطية، مطبعة متروبول، ط٢، القاهرة، ٢٠٠٠ م، ص ١٢٠ - ١٢٢ .



للخليفة الحاكم بأمر الله أيضًا، حتى قتله الحسن بن عمار الكتامي^(٩٦) سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م^(٩٧). وفي عهد الخلية الحاكم بأمر الله - الذي يتهمه المؤرخون بالتعصب الشديد ضد أهل النمة، وخاصة المسيحيين نلاحظ أن المسيحيين كانوا يلعبون دورًا مهمًا في إدارة الدولة الفاطمية وسياساتها، حتى إننا نجد - كما تذكر إحدى الباحثات المحدثات - من بينهم وزراء وعمال خراج، وغيرهم من المسيحيين العاملين في شئون الحكم والإدارة^(٩٨) ومن هؤلاء فهد بن إبراهيم^(٩٩)، الذي تولى الوزارة للخليفة الحاكم سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م، حتى انقلب عليه الخليفة وقتله سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م^(١٠٠). ومن الوزراء المسيحيين أيضًا في عهد الخليفة الحاكم بأمر

٩٦ - هو أمين الدولة أبو محمد الحسن بن عمار ابن ابي الحسين، قاد جيش الخليفة المعز لدين الله سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م وحاصر رمطه في جزيرة صقلية، وبهر بشكل بارز في عهد الخليفة العزيز بالله وكان من أجل كتابه، وهو كبير كتامه وشيخها وسيدها، ويلقب بأمين الدولة. وعندما أفضت الخلافة إلى الحاكم بأمر الله رد إليه الأمر والتبشير سنة ٣٨٦هـ/٩٦٦م. وكان الناس على اختلاف طبقاتهم يترجلون له . وهو الذي فتح الطريق لأبناء قبيلته لينتقلوا إلى الشام . وهو الجد الأعلى لبني عمار الذين استقلوا بحكم طرليس الشام عنه انظر ابن الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، ط١، القاهرة، ١٩٩٠ م، ص ٥٦؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص ٣٥٤؛ عماد الدين القرشي: عيون الأخبار، السبع الساس، ص ٢٥٣-٢٥٧ .

٩٧ - كان سبب مقتل ابن نسطورس أنه رسم رسومًا جائرة، وأحدث مكوسًا تزيد على ما جرى الرسم بأخذه، فالغي ابن عمار ذلك ورد الأمور إلى ما كانت عليه، وقبض على ابن نسطورس وقتله في صفر سنة ٣٨٧هـ/ فبراير ٩٩٧م لمزيد من التفاصيل انظر الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٢٣٨؛ فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل النمة، ج١، ص ١٨٤ .

٩٨ - فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل النمة، ج١، ص ١٨٤ .

٩٩ - كان أبو العلاء فهد بن إبراهيم كاتبًا لبرجوان - الوصي علي الحاكم - قبل أن ينقلب الحاكم على برجوان ويقتله . فتولى نصر بن إبراهيم الوزارة للحاكم . وطلب الخليفة إحضار جميع الكتاب والمستخدمين وأوصاهم بطاعة فهد واحترامه ورعاية الأعمال، والحرص على الأموال، فأجابوه بالسمع والطاعة وظل فهد يحظى بثقة الخليفة الحاكم حتى تأمر عليه اثنان من عمال الحاكم، ونجحا في الوشاية به عنده، فأمر بقتله والقبض علي أخيه أبي غالب . وأحسن الحاكم إلى أولاد فهد وخلص عليهم وكتب لهم سجلاً بالأمان وبحماية دورهم، وعدم التعرض لهم . لمزيد من التفاصيل انظر: الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٢٤٩، ٢٥٢؛ ابن الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٥٧؛ يعقوب نخله روفيله: تاريخ الأمم القبطية، ص ١١٤، ١١٦ - ١١٩؛ فاطمة مصطفى عامر: المرجع السابق، ج ١، ص ١٨٥ .

١٠٠ - ابن الصيرفي: المصدر السابق، ص ٥٨ .



الله الوزير منصور بن عبدون^(١٠١)، الذي كان يتميز بالمكر والشدة، وانقلب عليه الحاكم وقتله سنة ٤٠١ هـ / ١٠١٠ م^(١٠٢).

وكان الخليفة الحاكم بأمر الله حريصاً في بدايات حكمه على أن لا يتدخل في الشؤون الخاصة للكنيسة القبطية، ولذلك لم يتدخل سنة ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ م لانتخاب بطريك اليعاقبة، إلا إنه - كما يذكر أحد الباحثين المحدثين - اتخذ موقفاً متشدداً من الأنبا زخاريا - البطريق الرابع والستين - الذي أمر بحبسه واعتقاله لمدة ثلاثة شهور!^(١٠٣).

ومن هنا، بدأت الاضطرابات التي أصابت أهل النمة بصفة عامة، والمسيحيين بصفة خاصة، وكان سبب تحول الخليفة الحاكم بأمر الله من سياسة التسامح مع المسيحيين إلى الاضطهاد مرجعها كما ذكر الانطاكي إلى (... وكان سبب بغيه " الحاكم " في جميع ما يقصده من هذه الفعال العجيبة المتضادة التي تقوم في نفسه ويفعلها شيئاً بعد شيء، وإن كان ذلك خارجاً عن نحن بسبيله من التاريخ صنف من سوء المزاج المرضي في دماغه، أحدث له درياً من دروب المالنخوليا وفساد الفكر منه منذ حادثته)^(١٠٤) وذكر النويري مرض الخليفة الحاكم بأمر الله بقوله (... وفي سنة ثلاث وتسعين " وثلاثمائة " حصل للحاكم مرض

١٠١ - منصور بن عبدون: كان كاتباً نصرانياً في ديوان الخراج، انفرد برئاسة هذا الديوان سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م. ثم انفرد بتوقيع اسم الحاكم بأمر الله على الوثائق بمفرده سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م. ولقب بلقب القاضي، وكتب له سجل بذلك، وحمل على بغلنين، وأصبح يتولى الوساطة والسفارة. ثم ما لبث ان صُرف عنهما سنة ٤٠١ هـ / ١٠١٠ م، وكان ذلك بسبب سعاية حسين بن جوهر الصقلي، وصهره عبد العزيز بن النعمان به عند الحاكم، فصرفه الحاكم عن الوساطة والسفارة، وكتب له سجل بالأمان خطه الخليفة الحاكم بنفسه، ذكر فيه (... ما خدمني أحد ولا بلغ في خدمته ما بلغه ابن عبدون، ولقد جمع لي من الأموال ما هو خارج في أموال الدواوين ثلثمائة ألف دينار) . ورغم ذلك، انقلب عليه الحاكم !! وأمر باعتقاله، ويعمل حسابه، وضربت عنقه، وصودرت أمواله . عنه انظر المقرئزي: اتعاظ الحنفاً، ج٢، ص ٧٦، ٨١، ٨٤ - ٨٥ .

١٠٢ - ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٥٨ - ٥٩، هامش ٤ .

١٠٣ - ساويرس بن المقفع: تاريخ البطارقة، ج٥، ص ٦١٧ - ٦١٩، ٦٣٤؛ سلام شافعي: أهل النمة، ص ٢١٥ - ٢١٦ . وحول الأنبا زخاريا انظر: فاطمة مصطفى عامر: أهل النمة، ج١، ص ٥٤٧ .

١٠٤ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٣٣٠ - ٣٣١؛ عنان: الحاكم، ص ١٦٧ .



المانخوليا، فأخذ في قتل أرباب الدولة وذوي المناصب وغيرهم، وصدر عنه من الأفعال ما نذكره أن شاء الله تعالى بتواريخه على حكم السنين (١٠٥).

ووصف الأنطاكي تأثير هذا المرض (١٠٦) على تصرفات الخليفة الحاكم بقوله (... فإن من المتعارف في صناعة الطب أنه قد يكون فيمن يعتريه هذا المرض انه يكون في نفسه أوهام، وتخيل أمورًا وعجائب، ويكون كل واحد منهم لا يشك أنه علي غير الصواب فيما يتصوره في جميع أفعاله، ولا يثنيه ثان ولا يرضه راض، وأن يكون منهم من يظن بنفسه أنه نبي، ومنهم من يتوهم أنه هو الإله بنفسه) (١٠٧) ويرجع الأنطاكي سبب هذا المرض الذي أصاب الخليفة الحاكم بأمر الله إلى (... أنه كان قد عرض له في حادثته تشنج من سوء مزاج يابس في دماغه، وهو مزاج المرضي الذي يحدث في المانخوليات) (١٠٨).

ولهذا، نال المسيحيون منه ومن تصرفاته أذى كبيرًا، ومنه أنه أمر في يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٣هـ/عشرين ابريل ١٠٠٢م بإلقاء القبض على كتاب الدواوين من النصاري، واعتقلهم لمدة أسبوع ثم أمر بإطلاق سراحهم بعدما تشفع لهم عنده طبيبه المسيحي

١٠٥ - الثوري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٧٦؛ وانظر أيضًا: عنان: الحاكم، ص ١٦٨. ونكر ابن الراهب أن الحاكم كان (... ردئ السيرة، فاسد المخيلة، ناقص العقل، مضطربًا في جميع أموره). ابن الراهب: تاريخ ابن الراهب، نشر لويس شيخو اليسوعي، مطبعة الإباء اليسوعيين، بيروت، ط ١، ١٩٠٣م، ص ٨١.

١٠٦ - ذكر عنان أن النزعات والأهواء العنيفة التي كانت تضطرم بها شخصية الحاكم يمكن أن تفسرها النظرية الباثولوجية، وهي نظرية تختص بعلم الأمراض والأعراض الشاذة، والتي لا تعتبر عادة من الأمراض العادية؛ لأنها ترجع هذه النزعات الي أسباب مرضية وصحية. عنان: المرجع السابق، ص ١٦٧.

١٠٧ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٣٣١.

١٠٨ - الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٣٣٢. ووصف الأنطاكي علاج هذا المرض بأن المريض لا بد من جلوسه في دهن البنفسج وترطيبه به، ويرى أن شرب النبيذ وسماع الأغاني تساعد على تحسين حالة المريض، ويضرب المثل بذلك عندما نصح أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن انسطالس - طبيب الحاكم - الخليفة بشرب النبيذ وسماع الأغاني مما أدى إلى انصلاح أخلاقه، وترطب مزاج دماغه واستقام أمر جسمه. وعندما توقف الحاكم عن ذلك في أعقاب وفاة أبي يعقوب سنة ٣٩٦ هـ/ ١٠٠٥م رجع إلى ما كان فيه!. الأنطاكي: نفسه، ص ٢٣٢، ٢٦٩؛ عنان: الحاكم، ص ١٦٨.



أبي الفتح سهل بن مقشر^(١٠٩). وهدم المسلمون كنيسة للنصارى اليعاقبة في ظاهر مصر، في الموضع المعروف براشدة^(١١٠) وأنشأ الحاكم مكانها مسجداً عظيماً جامعاً^(١١١). وهدم حارة للمسيحيين الملكانيين - كانوا يسكنون فيها - مع كنيستين لهم بها، وأنشأ في المكان مسجداً!، ونقل الملكانيين إلى موضع عرف باسم الحمراء^(١١٢)، وأنشأ لهم بها حارة، وقاموا هم بإنشاء ثلاث كنائس بها عوضاً عن الكنائس التي هدمت لهم^(١١٣). وأمر سنة ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م أن يلبس كل المسيحيين واليهود الزنابير في أوساطهم، والعمائم السود على رؤوسهم^(١١٤). وفي عيد الشعانين^(١١٥) سنة ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م منع الخليفة الحاكم بأمر الله المسيحيين من تزيين كنائسهم بأغصان الزيتون وقلوب النخيل كما جرت العادة^(١١٦). وفي العاشر من رجب

١٠٩ - الأنطاكي: نفسه، ص ٢٥٢.

١١٠ - عرفت براشدة نسبة إلى راشدة بنت أودب بن جبيلة، من لحم بالفسطاط. وكانت بالجبل المطل علي بركة الحبش. وهو الجبل المعروف بالرصد، وقد نثرت هذه الخطة، ومنها أيضاً المقبرة المعروفة بمقبرة راشدة، ومسجد راشدة في أيام المقرئ بالقرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي. عنها انظر المقرئ: المواعظ والاعتبار، ج٤، ص ٢٨٢، ٢٨٦؛ مسودة كتاب المواعظ والاعتبار في نكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط١، لندن، ١٩٥٥م، ص ١٣٤، هامش ٢.

١١١ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٢٥٢. وذكر النويري أن ابتداء بناء هذا المسجد كان في ١٧ ربيع الآخر سنة ٣٩٣هـ / ٢٣ فبراير ١٠٠٢م، وذكر أن سبب بناء المسجد أن "أبو منصور الزييات" الكاتب ذكر أن في هذا الموضع كنيسة للمسيحيين، فرغ أمره للحاكم، فأمر بهدم الكنيسة، وأن يجعل موضعها مسجداً. النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص ١٧٦ - ١٧٧. وفي هذا المسجد سنة ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م صلى الخليفة الحاكم بالناس صلاة العيد وخطب فيهم. المقرئ: اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ٥٨.

١١٢ - المقرئ: مسودة كتاب، ص ٥٥.

١١٣ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٢٥٣.

١١٤ - الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٥٦؛ المقرئ: اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ٥٣؛ عنان: الحاكم، ص ١٣٦.

١١٥ - ذكر المقرئ عيد الشعانين بأنه يعرف بعيد الزيتون أو عيد الشعانين، ومعناه التسبيح، وموعده في سابع أحد من صوم المسيحيين، وجرت عادة المسيحيين فيه على أن يخرجوا سعف النخل من الكنيسة، ويرون أنه يوم ركوب المسيح الحمار في القدس ودخوله إلى صهيون، وهو راكب والناس بين يديه يسبحون، وهو يأمر بالمعروف ويحث على عمل الخير، وينهى عن المنكر. المقرئ: المواعظ، ج٢، ص ٢٦٤؛ المصدر السابق، ج٢، ص ٧١، هامش ٣.

١١٦ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٢٧٥ - ٢٧٦؛ المقرئ: نفسه، ج٢، ص ٧١ - ٧٥؛ عنان: الحاكم، ص ١٣٦؛ يعقوب نخله روفيله: تاريخ الأمة، ص ١٢٥.



السنة ٣٩٨ هـ / الحادي والعشرين من مارس سنة ١٠٠٧م أمر بوضع اليد على أوقاف الكنائس والديارات الحديثة والعتيقة في مصر دون غيرها من البلدان وجعلها باسمه!!^(١١٧). ويذكر المقريري أن الخليفة الحاكم أمر بهدم جميع ما في أعمال مملكته من البيع والكنائس!، ولكنه أمسك عن ذلك بعدما خوفه البعض من أن تهدم النصاري ما في بلادها من مساجد المسلمين.^(١١٨)

وفي نفس السنة (٣٩٨هـ/١٠٠٧م)، عاقب الخليفة الحاكم عدداً من كتاب الدوليين المصريين من المسيحيين خاصة وذلك؛ لأنهم "... طولوا بحساب ما كانوا يتولونه " ^(١١٩) فأمر الحاكم بمعاقتهم ف "... علق جماعة منهم بأيديهم، وأخذ جميع ما كان لهم، ولبثوا أياماً معلقين في برد الهواء وحر الشمس واهطال المطر، إلى ان مات عدة منهم تحت العذاب، ثم اسلم نفر منهم وأطلقوا وعفي عن باقيتهم بالإسلام " ^(١٢٠). وفي هذا العام أمر أيضاً بهدم كنيسة القيامة " قمامة " بالبيت المقدس ^(١٢١)!!.

١١٧ - الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٧٦؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، اعتني به أبو صهيب الكرمي، نشر بيت الأفكار الدولية، ط١، عمان، ٢٠٠٢ م، ص ١٣٤٦.

١١٨ - المقريري: اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ٧٥.

١١٩ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٢٧٧.

١٢٠ - الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٧٧. وهي رواية فريدة أفرد بنكرها الأنطاكي ولم ترد في المصادر التاريخية التي أرخت لعصر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله.

١٢١ - الأنطاكي: نفسه، ص ٢٧٩ - ٢٨٠؛ النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص ١٨٤؛ المقريري: اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ٧٤ - ٧٥؛ أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية تفسير جديد، الدار المصرية اللبنانية، ط١، القاهرة، ١٩٩٢ م، ص ١٠٢. ويذكر عنان أنه كان لهدم القبر المقدس وقع عظيم في الأمم النصرانية كلها، وكان له أثر فيما بعد في أنحاء الدعوة الصليبية لإتقاد القبر المقدس. واستمر موقع الكنيسة بعد هدمها أعوام طويله مزاراً يحج إليه النصاري، حتى أعيد بناؤها في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله بنحو ثلاثين سنة. عنان: الحاكم، ص ١٣٨. ويذكر ياقوت الحموي أن الكنيسة عرفت في المصادر باسم القمامة؛ لأن القبر المقدس بني على الموضع الذي كانت توضع به القمامة خارج سور بيت المقدس، وهو الموضع الذي يزعم ان المسيح صلب فيه. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٧، ص ١٥٨.



وفي سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م أمر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله " ... أن يتميز النصارى في الحمامات من المسلمين بصليب يعلقونه في رقابهم ... فلبثوا بذلك مدة ثم زال " (١٢٢). ودمرت عدة كنائس للمسيحيين في طريق المكس وكنيسة بحارة الروم (١٢٣) بالقاهرة ونهب ما فيها (١٢٤). وتشدد علي المسيحيين في سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م فمنعهم من إقامة احد احتفالات الدينية، علي الرغم من انه قد سبق له حضوره من قبل متكرراً!! (١٢٥). وتشدد علي النصارى في هذا العام بالزامهم لبس الغيار (١٢٦). وأمر الخليفة الحاكم سنة ٤٠١ هـ / ١٠١٠ م المسيحيين بتغيير الزنابير الملونة التي يلبسونها، والاقتصار علي لبس الزنابير السود فقط! (١٢٧). وفي سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م منع المسيحيين من الاجتماع في عيد الصليب (١٢٨) أو أن يذهبوا الي الكنائس! (١٢٩). وفي سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م بلغت شدة الخليفة الحاكم بأمر الله ضد المسيحيين غاياتها حيث صدرت عدة قرارات قاسية بحقهم، بدأها بإصداره مرسوماً يقضي " ... أن تلبس النصارى واليهود دون الخيابره " الحبابرة " طيالسه سود [حالكه]، وعمائم سود، ويعلقون في اعناقهم صلبان خشب مضافاً إلى الزنار " (١٣٠)، وأمر الحاكم بأن تكون زنه

١٢٢ - الأنطاكي: نفسه، ص ٣٧٨ . وذكر المقرئبي ذلك بقوله " ... ونودي أن لا يدخل أحد الحمام إلا

مبزر، ولا يمشي اليهود والنصارى إلا بالغيار، وضربوا على ترك ذلك". المقرئبي: المصدر السابق،

ج٢، ص٧٦؛ عنان: المرجع السابق، ص ١٣٨؛ أيمن فؤاد سيد: المرجع السابق، ص ١٠٢ .

١٢٣ - عنها راجع ما سبق، ص، هامش ٥٤ .

١٢٤ - المقرئبي: اتعاط الحنفا، ج٢، ص ٧٩ .

١٢٥ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٢٨١-٢٨٢ .

١٢٦ - المقرئبي: اتعاط الحنفا، ج٢، ص ٨١ .

١٢٧ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ٢٨٩؛ المقرئبي: المصدر السابق، ج٢، ص ٨٥ .

١٢٨ - عيد الصليب: عيد مستحدث للمسيحيين، يحتفل به في السابع عشر من شهر توت القبطي، وسبب

احتفالهم به أنه اليوم الذي ظهر فيه صليب الصليبوت - الذي صلب عليه المسيح - علي يد القديسة

هيلانه أم الاميراطور قسطنطين . عنه انظر المقرئبي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٦٦؛ نفسه،

ج٢، ص ٨٩، هامش ٢.

١٢٩ - المقرئبي: نفسه، ج٢، ص ٨٩؛ عنان: الحاكم، ص ١٣٩ .

١٣٠ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٢٩٥ . وأضاف المقرئبي أن " ... يكون ركب سروجهم من خشب،

ولا يركب أحد منهم خيلاً، وأنهم يركبون البغال والحمير، وألا يركبوا السروج واللجن محلاه، وأن تكون

سروجهم ولجامهم بسيور سود، وأنهم يشدون على أوساطهم ولا يستعملون مسلماً، ولا يشترتون

عبداً ولا أمة " . المقرئبي: نفسه، ج ٢، ص ٩٤؛ عنان: المرجع السابق، ص ١٣٩؛ فاطمة مصطفى:

تاريخ أهل النمة، ج ١، ص ٢٠٥ .



الصليب خمسة أرتال، وأن يكون فوق الثياب مكشوفاً^(١٣١). ولم يكتف الخليفة الحاكم بذلك، بل أمر بطرد المسيحيين من دواوينه وأعماله، وعض عنهم بأسماء سائر المسلمين المتعطلين والمنصرفين من الكتاب الذين يصلحون للخدمة^(١٣٢). وأدى ذلك إلى اجتماع " ... سائر من بمصر من [النصارى] الكتاب والعمال والأطباء وغيرهم مع اساقفتهم وكهنتهم، وتوجهوا إلى قصره في يوم الخميس ثاني عشر ربيع الآخر من السنة " ٤٠٣ هـ / العاشر من نوفمبر سنة ١٠١٢ م " (١٣٣). وكانوا يسيرون حفاة الأقدام باكين مستغيثين إليه يسألونه العفو والصفح، فأخذ منهم الورقة التي كتبوها بطلباتهم، وبدلاً من أن يستجيب لهم أصدر في يوم الأحد الخامس عشر من ربيع الآخر السنة " ٤٠٣ هـ / الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٠١٢ م " أمراً " ... بتعظيم الصلبان التي في اعناقهم، وان يجعل طولها زراع ملكي في عرض مثله، وأن يكون فتحها ثلثي شبر، وسمكها اصبع، وقصد بذلك اضجارهم^(١٣٤) .

١٣١ - المقرئبي: المصدر السابق، ج٢، ص ٩٤ . وتعجب الأتطاكي من تصرف الخليفة الحاكم هذا لانه في سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م أمر (... لا يظهر صليب ولا يقع عليه عين، ولا يضرب بناقوس، فنزعت الصلبان من الكنائس وطمس آثارها من ظاهر البيع والهياكل. ثم أمر في ذلك الوقت باظهار الصليب هذا الظهور). الأتطاكي: المصدر السابق، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

١٣٢ - الأتطاكي: نفسه، ص ٢٩٥ .

١٣٣ - الأتطاكي: نفسه، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

١٣٤ - الأتطاكي: نفسه، ص ٢٩٦ . وانظر أيضاً: المقرئبي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ٩٤ . ويرجع يعقوب نخله سبب هذه الأزمة بين المسيحيين والخليفة الحاكم إلى سعي بعض أصحاب الفتن وأهل الفساد الذين كانوا يطمعون في أموال أصحاب الدواوين من المسيحيين إلى جانب أن الحاكم كان يقبل كل ما يقال له في حقهم كقضية مسلمة بغير بحث ولا تزو ولا تحقيق . يعقوب نخلة روفيله: تاريخ الأمة، ص ١٢٦ . ولكنه ينكر أن قائد القواد الحسين بن جوهر هو الذي حمل رقعتهم إلى الحاكم، وعاد إليهم بعدما لطفه واستعطفه لهم، وسألهم العودة غداً لسماع أوامر الخليفة بالعفو عنهم. وفي الغد حصلوا علي سجل بالعفو. لكن الحاكم ما لبث ان انقلب عليهم عندما تخلص من الحسين بن جوهر. ويذكر الأتطاكي أن الذي حمل رسالة المسيحيين إلى الحاكم كان الحسين بن ظاهر الوزان، وأن الحاكم رد عليهم بعد ثلاثة أيام، وليس في اليوم التالي، وأنه لم يعطهم كتاب أمان، بل زاد في التشديد عليهم، فزاد في حجم الصليب ووزنه. ولم ينكر المقرئبي رسول الحاكم إلى المسيحيين، وإنما اكتفى بذكر التخليط عليهم في وزن وحجم الصليب. لمزيد من التفاصيل انظر الأتطاكي: نفسه، ص ٢٩٦؛ النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص ١٩١؛ المقرئبي: المصدر السابق، ج٢، ص ٩٤؛ يعقوب نخله روفيله: المرجع السابق، ص ١٢٦ .



الأمر الذي ادي بهم إلى أن " ... اسلم كثير من شيوخ الكتاب والمتصرفين وغيرهم من النصاري، وتبعهم خلق كثير من عوامهم ... وتزايدت الأراجيف فيمن بقي من النصاري ولم يسلم، ونودي عليهم بان تقطع اعضاءه وبياح للعبيد والاولياء ما له وعياله " (١٣٥) . مما ادي إلى نهب دورهم والاستيلاء علي املكهم، مما ادي إلى اسلام اكثرهم ظاهرياً، واختفوا عن الاعين، حتي ان الانطاكي يذكر أن الطرقات ظلت اياماً لم ير فيها نصراني! (١٣٦) . وذكر أيضاً أن المحنة كانت علي مسيحي القاهرة أكبر، في حين أن المسيحيين في باقي البلد " ... تمسكوا أيضاً بأديانهم، ولم يسلم في بقية اعمال المملكة " الدولة الفاطمية " إلا نفر يسير " (١٣٧) . وفي العشرين من شهر ربيع الاخر سنة ٤٠٣ هـ / الثامن عشر من نوفمبر ١٠١٢ م (١٣٨) أمر بهم الكنائس والديارات وتحويلها إلى مساجد!!، وكانت أوامره (... بأن تمحي معالم الكنائس من علي وجه الأرض وتزال اثارها، ففعل ذلك وقلعت اساساتها من الأرض) (١٣٩) . والغالب ان الامر كان يشتمل علي كل أراضي الدولة الفاطمية لان الانطاكي يذكر انه (... أتى علي جميع ما في اعمال مملكته منها) (١٤٠) . ولذلك هدمت ألوف الكنائس والأديرة - سنقدم تفاصيل عن الأديرة فيما بعد - وكان هذا تصرف يتم بهمجية ووحشية حتي ان الكنائس (... قلعت اساساتها من الأرض، وأخرج عظام الموتى من الكنائس في عدة بلدان ووقد بها الناس [في مواقد] الحمامات وأحرقت المصاحف !! " المقصود الانجيل " والكتب الموجودة في الكنائس) (١٤١) .

١٣٥ - الأنطاكي: نفسه، ص ٢٩٧ .

١٣٦ - الأنطاكي: نفسه، ص ٢٩٧ .

١٣٧ - الأنطاكي: نفسه، ص ٢٩٧؛ فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل النمة، ج ١، ص ٢٠٦ .

١٣٨ - وقد انفرد النويري بتحديد هذا التاريخ بالضبط عن سائر المؤرخين اللذين أرخوا لعملية الهدم. انظر النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٩١. وانظر الأنطاكي: نفسه، ص ٢٩٨؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٩٤. وينكر سلام شافعي أن تاريخ هدم الكنائس كان في شهر ربيع الأول سنة ٤٠٣ هـ/ سبتمبر ١٠١٢ م نقلاً عن المقرئزي في اتعاظ الحنفا. سلام شافعي: أهل النمة، ص ٢٢٩. والباحث بالعودة إلى المقرئزي في اتعاظ الحنفا وجد أنه ذكر الحادثة نون أن يحدد لها تاريخاً سواء بالشهر أو باليوم !.

١٣٩ - الأنطاكي: نفسه، ص ٢٩٨ .

١٤٠ - الأنطاكي: نفسه، ص ٢٩٨؛ المقرئزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٨٨ . وينكر عنان أن الأوامر صدرت إلى كل متصرف بأن يهدم ما في ولايته من الكنائس وأن بينها مساجد . عنان: الحاكم، ص ١٤٠ .

١٤١ - الأنطاكي: نفسه، ص ٢٩٨ .



الامر الذي أدى إلى غضب المسيحيين بشدة، فطلبوا من الحاكم بأمر الله أن يتولوا هم بأنفسهم هدم كنائسهم بأيديهم، وان بينها مساجد! (١٤٢). فوافق الحاكم علي ذلك . واقطعت الكنائس بجميع مبانيها وبمالها من رباغ وأراض لجماعة من الصقالبة والفراشيين والسعدية (١٤٣)، لدرجة أن الحاكم لم (... يرد من سأله منها " الكنائس والاديار " شيئاً) (١٤٤). وذكر أحد الباحثين المحدثين أنه هدمت آلاف الكنائس والبيع بسائر انحاء مصر، وان الهدم استمر ثلاثة أعوام (٤٠٣ - ٤٠٦ هـ / ١٠١٢ - ١٠١٥ م) وأنه كانت جملة ما هدم من الكنائس والاديار - في هذه الفترة - ذهاء ثلاثين ألفاً! (١٤٥). ويذكر ساويرس بن المقفع أن الحاكم أمر (... ان تهدم البيع وأن يحمل ما فيها من الاتية الذهب والفضة إلى قصره، وان يطالب الأساقفة في كل مكان [بالاموال]) (١٤٦). وذكر ابن الراهب ان الخليفة الحاكم . نكل بالمسيحيين وأخرب كنائسهم وقتل اكابره وعاقبهم، مما اضطر خلق كثير منهم إلى الإسلام (١٤٧). ثم اخذت المحنة تخف تدريجياً بإصدار الخليفة الحاكم بأمر الله مرسوماً في صفر سنة ٤٠٤ هـ/ أغسطس ١٠١٣ م يسمح للمسيحيين من خلاله بحرية الهجرة إلى بلاد الروم، أو الحبشة، أو النوبة، أو غيرها، وأن يحملوا أموالهم ويتصرفوا فيها أمنين مطمئنين (١٤٨).

وفي سنة ٤١١ هـ/ ١٠٢٠ م صدرت عدة سجلات من الخليفة الحاكم بإلغاء القيود والفروض المرهقة للمسيحيين وسمح لهم بتجديد ما تهدم من الكنائس والبيع والأديرة، ورد ما اخذ

- ١٤٢ - النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص ١٩١؛ عنان: الحاكم، ص ١٤٠ .
١٤٣ - النويري: المصدر السابق، ج٢٨، ص ١٩٢؛ المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٩٤، هامش ٣؛ عنان: المرجع السابق، ص ١٤٠؛ أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص ١٠٢ - ١٠٣ .
١٤٤ - النويري: نفسه، ج٢٨، ص ١٩٢؛ المقرئزي: المصدر السابق، ج٢، ص ٩٥
١٤٥ - عنان: الحاكم، ص ١٤١. نقلاً عن مخطوطة " سر البيعة المقدسة " (المخطوط الكنسي التي لم يتيسر للباحث الاطلاع عليها). وتنكر فاطمة مصطفى عامر أن الخليفة الحاكم لم يميز في قراراته هذه بين القبط اليعاقبة والملكانيين. فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل النمة، ج١، ص ٢٠٨ .
١٤٦ - ساويرس بن المقفع: تاريخ البطارقة، ج٥، ص ٦٢٢؛ فاطمة مصطفى عامر: المرجع السابق، ج١، ص ٢٠٨ . وذكر المقرئزي أنه وجد في الكنيسة المغلقة، وفي كنيسة بوشنودة مال جزيل من مصاغ وثياب وغيره . المقرئزي: اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ٩٤ - ٩٥
١٤٧ - ابن الراهب: تاريخ ابن الراهب، ص ٨٢ - ٨٣ .
١٤٨ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٣٠٥؛ عنان: الحاكم، ص ١٤١ .



منها من الذخائر والتحف، وأطلقت الحرية للمسيحيين في العودة إلى دينهم من جديد^(١٤٩). وقد وصف ساويرس بن المقفع هذا اليوم بقوله (... فيا له من فرح كان في ذلك اليوم لجميع النصاري الذي في كوره مصر)^(١٥٠). وكان السبب في هذا الانقلاب الذي حدث للخليفة الحاكم بأمر الله في سياسته ضد المسيحيين راجعاً - كما ينكر الأنطاكي - إلى الانبا سالمون رئيس دير طور سينا^(١٥١) وينكر الأنطاكي في موضع آخر أن الانبا سالمون كان يلقي الخليفة الحاكم كل يوم وهو في طريقه إلى الصحراء!^(١٥٢) ثم ينكر ان الخليفة الحاكم كان يمر بدير القصير وهو في طريقة إلى البرية^(١٥٣). ويرى الباحث أن الامر أختلط علي الأنطاكي فخلط بين الانبا سلمون رئيس دير سانت كاترين، وبين راهب آخر يسميه ساويرس بن المقفع باسم "بمين" [ينيامين]، الذي كان راهباً اسلم وقت الازمة ثم عاد إلى دينه، وعندما كان الحاكم يمر عليه في دير شهران ف (... يقيم هناك ويأكل من طعامهم "الرهبان" الحقيق)^(١٥٤). وقد انس اليه الخليفة الحاكم وكان لا يؤخر له طلباً، حتي أن (... كل من له حاجة عند الحاكم يمضي إلى بيمن [ينيامين] الراهب يخاطبه عليها وقت حضوره عنده فيقضيها له)^(١٥٥).

ثانياً: الأديرة المسيحية في الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله :-

- ١٤٩ - الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٣٥٨. وانظر أيضاً ابن الراهب: تاريخ ابن الراهب، ص ٨٣؛ ساويرس بن المقفع: تاريخ البطارقة، ج٥، ص ٦٥١ - ٦٥٢. وينكر الأنطاكي أن بواذر هذا التعبير من قبل الخليفة الحاكم على المسيحيين حدث عندما رفع إليه جماعة من المسلمين سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م أن المسيحيين يجتمعون في بيوتهم ويصلون، فلم ينكر الخليفة الحاكم ذلك ولم يستمع إليهم. الأنطاكي: نفسه، ص ٣٥٣؛ ساويرس بن المقفع: المصدر السابق، ج٥، ص ٦٥٠ - ٦٥٢ وانظر ملحق رقم ٢ حول كتاب الأمان للمسيحيين بحرية العبادة .
- ١٥٠ - ساويرس بن المقفع: نفسه، ج٥، ص ٦٥٩ - ٦٦٠ .
- ١٥١ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٣٥٧.
- ١٥٢ - الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٣٥٩ .
- ١٥٣ - الأنطاكي: نفسه، ص ٣٦٠ . ومن المعروف أن الديران القصير وشهران على مقربة من بعضهما البعض، ومن هنا جاء الالتباس بينهما .
- ١٥٤ - ساويرس بن المقفع: تاريخ البطارقة، ج٥، ص ٦٥٢ .
- ١٥٥ - ساويرس بن المقفع: المصدر السابق، ج٥، ص ٦٥٣ .
- ٥٩ -



كانت الأديرة المسيحية منتشرة في مصر الفاطمية انتشاراً واسعاً، وهذا الانتشار ليس جديداً؛ لأنها كانت سابقة علي الفتح الإسلامي لمصر، وحافظ عليها إمراء مصر وولاتها منذ الفتح وحتى عصر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٢١ - ٣٨٦هـ/٦٤١ - ٩٩٦م). وبالتالي، ظلت هذه الأديرة في أمان من عبث العابثين حتى عصر الخليفة الحاكم، فأصابها ما أصاب المسيحيين وكنائسهم من أضرار. وكانت الأديرة محل اهتمام ورعاية الفاطميين منذ استيلائهم على مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م، باستثناء ما قام به القائد الفاطمي جوهر الصقلي^(١٥٦) من هدم دير العظام^(١٥٧)، بالقرب من الجامع الأحمر^(١٥٨)؛ لأنه أنشأ على مقربة منه قصرًا لسيدته الخليفة المعز فكره (... أن يكون في القصر دير)^(١٥٩)، ولذلك أنشأ للمسيحيين ديرًا عوضًا عنه هو دير الخندق^(١٦٠) بظهر القاهرة، فنقل إليه عظام القديسين من دير العظام،

١٥٦ - جوهر الصقلي: هو أبو الحسن جوهر الرومي المعزي، من نجباء الموالي، قاد قوات سيده الخليفة الفاطمي المعز لدين الله سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م وفتح القاهرة، واستولى على الشام، وبنى لسيدته مدينة القاهرة، وبنى بها دار الملك. وكان عالي الهمة، نافذ الأمر، حسن السيرة في الرعية، عاقلًا أدبياً، شجاعاً. توفي سنة ٣٨١هـ/٩٩١م. عنه انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٧٥ - ٣٨٠، ترجمة ١٤٥؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١، ص ١٣٤١، ترجمة ١٤٠٥؛ الصفي: الوافي بالوفيات، ج ١١، تحقيق أحمد الأرنبوط، دار إحياء التراث العربي، ط ١، بيروت، ٢٠٠٠م، ص ١٧٢ - ١٧٣، ترجمة ٢٩٦٢؛ التويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٢٢ - ١٢٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢٩ - ٦٩؛ حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص ١١٧ - ١٦٢، ١٨٠ - ١٨٦.

١٥٧ - عنه انظر المقرئزي: المواعظ والاعتبار، ج ٤، ص ٥٠٧؛ مسودة كتاب، ص ٣٦٥؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٨٠.

١٥٨ - الجامع الأحمر: ابتدأ في بنائه الوزير المأمون البطاحي وزير الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله سنة ٥١٥هـ/١١٢١م، وافتتح للصلاة في سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م وقد نقش جدران المسجد ووجهته من الحجارة، وهي أول واجهة لمسجد قائم بالقاهرة عني بينائها وزخرفتها. عنه انظر ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، ص ٧٣٠؛ المقرئزي: المواعظ والاعتبار، ج ٤، ص ٢٩٠ - ٢٩٣؛ مسودة كتاب، ص ٣٤٢، هامش ٢؛ ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص ١٨٠؛ سعاد ماهر: مساجد القاهرة وأوليائها الصالحون، ج ١، المجلس الأعلى للثئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠١٤ م، ص ٣١٤ - ٣٢٠؛ عبدالرحمن زكي: القاهرة، ص ٥٦٠.

١٥٩ - سلام شافعي: أهل النمة، ص ٢٣٤.

١٦٠ - المقرئزي: المواعظ والاعتبار، ج ٤، ص ٥٠٧؛ سلام شافعي: المرجع السابق، ص ٢٣٤، وحول الخندق انظر المقرئزي: المصدر السابق، ص ٣٧٩.



وأُنشأ بدلاً من دير العظام مسجداً في موضعه^(١٦١). وذكر ساويرس بن المقفع أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله شمل برعايته واهتمامه بديارات المسيحيين ورهبانها، وأنه كان على علاقة طيبة بالأبنا إبراهيم السرياني^(١٦٢) حتى إن الخليفة المعز طلب منه أن يترك الإسكندرية ويقيم في مصر، وأنه كان (... يحضره إليه في كل وقت، ويأخذ رأيه فيما يعين له)^(١٦٣) الأمر الذي دفع بالأبنا إبراهيم إلى طلب ترميم الأديرة القديمة، وبناء عدد من الأديرة الجديدة في سائر الدولة^(١٦٤). دون أن يحدد لنا عدد أو أسماء هذه الأديرة التي أنشئت في عهده.

وتتميز عصر الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٦ - ٣٨٦هـ/٩٧٦ - ٩٩٦م) بالتسامح الديني لأهل الذمة بصفة عامة، وللمسيحيين بصفة خاصة. ولذلك نعم الرهبان في أديرتهم بالحماية من الدولة، والاطمئنان علي أديرتهم طوال عهده^(١٦٥)، حتى إنهم قاموا ببناء عدد من الأديرة - كما يذكر أحد الباحثين المحدثين - دون الاستئذان من الخليفة نفسه!^(١٦٦). وكان البطريق ارسانيوس - بطريق الإسكندرية - (... قد أحاط على الدير "القصير" سوراً منيعاً وعمره وجدده، وأنشأ فيه أبنية كثيرة)^(١٦٧).

- ١٦١ - ذكر المقرئ أن دير الخندق هدم في الرابع عشر من شوال في سنة ٦٧٨ هـ / السابع عشر من فبراير ١٢٧٩ م في عهد السلطان المملوكي المنصور قلاوون، ثم جدد بعد ذلك، وأنشأ مكانه كنيسةين عرفتا بكنيسة الخندق. لمزيد من التفاصيل انظر المقرئ: المصدر السابق، ج٤، ص ٥٠٧، ٥١١.
- ١٦٢ - عنه انظر ساويرس بن المقفع: تاريخ البطارقة، ج٥، ص ٤١٤ - ٤٥٤.
- ١٦٣ - ساويرس بن المقفع: المصدر السابق، ج٥، ص ٤١٧.
- ١٦٤ - سلام شافعي: أهل الذمة، ص ٤٣٢ نقلاً عن الأبنا ميخائيل في "سر البيعة المقدسة"، وهو مخطوط لم يتيسر للباحث الحصول عليه، في حين يذكر ساويرس أن الأبنا إبراهيم طلب من الخليفة المعز إعادة بناء بيعة أبو مرقورة، بمصر والكنيسة المعلقة بقصر الشمع فقط. ساويرس بن المقفع: نفسه، ج٥، ص ٤٣٨ - ٤٣٩.
- ١٦٥ - سلام شافعي: المرجع السابق، ص ٢٣٤.
- ١٦٦ - جاك تاجر: أقباط ومسلمون، ص ١٤٠؛ سلام شافعي: نفسه، ص ٢٣٥. ويعتمد جاك تاجر في هذا القول على ما نكره أبو صالح الأرمني حول قيام البطريك ببناء كنيسة القديس ماقاريوس. والباحث بالعودة إلى أبو صالح لم يجد أصلاً لهذه المعلومة!
- ١٦٧ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٢٨٨؛ سلام شافعي: نفسه، ص ٢٣٥.

وجاء عصر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١هـ/٩٩٦ - ١٠٢٠م) لتهدب العواصف الشديدة على المسيحيين، فلم تسلم منه كنائسهم ولا أديرتهم . ففي يوم السبت العاشر من رجب سنة ثلاثمائة وثمان وتسعين للهجرة / الحادي والعشرين من مارس سنة ١٠٠٧م، أمر بوضع يده على (... أوقاف الكنائس والديارات الحديثة والعتيقة بمصر خاصة دون غيرها من البلدان)^(١٦٨) ووضعا باسمه في الديوان، وهي معلومة انفرد بها الأنطاكي عن سائر المؤرخين الذين نكروا أنه أمر بهدم ما في أعمال مملكته من البيع والكنائس^(١٦٩). والباحث يأخذ برواية الإنطاكي - رغم تفردها -؛ لأن باقي المؤرخين ينكرون أنه أمر بهدم كل الديارات والكنائس، وبالتالي من يأمر بهذا كان من الطبيعي أن يضع يده علي كل أوقاف الأديرة والكنائس في نفس الوقت، إلى جانب أن هناك أديرة لم تخرب أو لم تدمر إلا بعد ذلك، مما يعني أن التدمير جاء بعد سنة ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م وليس فيها . ففي ثلاثة ذي الحجة سنة ٣٩٩ هـ / التاسع والعشرين من يونيو ١٠٠٨م، هدم دير مارقزما ونهب ما فيه^(١٧٠) وفي يوم الثلاثاء الثامن من رمضان سنة ٤٠٠ هـ / الخامس والعشرين من أبريل سنة ١٠٠٩م^(١٧١) أمر الخليفة الحاكم بهدم دير القصير بجبل المقطم^(١٧٢) ونهب ما فيه بعدما تم إخراج من كان فيه من الرهبان، وتم تخريبه بطريقة بشعة، لأن العبيد وعامة الناس قاموا

١٦٨ - الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٧٦ .

١٦٩ - ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١٥، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٢ م، ص ٦١؛ ابن الأثير: الكامل، ص ١٣٤٦؛ النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص ١٨٤؛ المقرئ: اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ٧٥؛ سلام شافعي: أهل النمة، ص ٢٣٥ .

١٧٠ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٢٧٩ .

١٧١ - ذكر أبو صالح الأرمني أن الهدم كان في شهر شعبان سنة ٤٠٠هـ/ مارس ١٠٠٩م وليس رمضان . أبو صالح: تاريخ أبو صالح، ص ٦٣ .

١٧٢ - وذكر أبو صالح الأرمني أن الدير كان يحتوي علي ثمانية كنائس ويحيطهم سور كبير إلى جانب أنه يحتوي على عدد من المدافن وتحتها مغارات كثيرة محفورة في الجبل . انظر أبو صالح: المصدر السابق، ص ٦٣ .



بنبش المقابر والمدافن الموجودة فيه و (... أخذوا أيضاً توليبتهم، وطرحوا أعضاءهم) ^(١٧٣) وكان هذا الأمر فظيلاً لم يشاهد مثله، ولا جري في السلف شبهه، علي حسب وصف الأنطاكي ^(١٧٤). الأمر الذي أغضب الخليفة الحاكم، فأمر بالكف عن نبش القبور، والتعرض للموتي، ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان!.

ويذكر أبو صالح الأرمني أن الدير لم يهدم كله، بل هدم منه كنيسة واحدة هي كنيسة الابسطليين ^(١٧٥). ويرى الباحث أن المؤرخين يجمعون علي تخريب الدير كله وليس كنيسة واحدة من كنائسه الثمانية، وهو يأخذ برواية الإنطاكي الذي انفرد بذكر تفصيلات الهدم والتخريب، وخاصة أن المقرئ يذكر أن الهدم استمر أياماً ^(١٧٦). ويذكر أحد الباحثين المحدثين أنه في سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م، ألغيت جميع الأحباس المرصودة على الكنائس والأديرة وضمت إلى الديوان ^(١٧٧). والباحث أثبت أن ذلك حدث قبل هذا التاريخ، وبالتحديد في سنة ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م وليس في سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م ^(١٧٨).

ونكر الأنطاكي أنه في صفر سنة ٤٠٢هـ / سبتمبر ١٠١١م نزلت الصلبان وطمست آثارها من ظاهر الأديرة ^(١٧٩) وكانت المحنة على الأديرة شديدة، ففي العشرين من ربيع الآخر ٤٠٣هـ / الثامن عشر من نوفمبر سنة ١٠١٢م ف (... اقطع "الحاكم" سار الكنائس والديارات

١٧٣ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٢٨٣. ونكر أبو صالح أن العوام حضروا إليه وأخذوا منه توليبت الموتى، وأخشاب من انقاضه. أبو صالح: نفسه، ص ٦٣ وانظر أيضاً فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل النمة، ج ١، ص ٢٠٨؛ سلام شافعي: أهل النمة، ص ٢٣٦.

١٧٤ - الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٨٣؛ عنان: الحاكم، ص ١٣٨. ونكر المقرئ أن الدير هدم ونهب فقط دون ذكر أية تفصيلات. المقرئ: اتعاط الحنفاء، ج ٢، ص ٨١.

١٧٥ - أبو صالح: تاريخ أبو صالح، ص ٦٣.

١٧٦ - المقرئ: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٥٠٣.

١٧٧ - عنان: الحاكم، ص ١٣٨. وعنه ينقل سلام شافعي المعلومة. انظر سلام شافعي: أهل النمة، ص ٢٣٦ رغم إنه في صفحة ٢٣٥ يذكر أن الخليفة الحاكم أمر بوضع يده على أوقاف الديارات الحديثة والعتيقة بمصر!.

١٧٨ - راجع ما سبق.

١٧٩ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٢٩٦؛ سلام شافعي: أهل النمة، ص ٢٣٦.

العتيقة والحديثة بمصر وسائر أعمال مملكته للعسكرية "جنوده" ووهبها لهم^(١٨٠). وذكر النويري أن الأمر كان بهدم الكنائس بالديار المصرية، ولم يذكر الأديرة باي كلمة!^(١٨١) في حين يذكر المقرئ أن الأمر كان بهدم الكنائس، وأقطعت بجميع مبانيها وبمالها من رباغ وأراض لجماعة من الصقالبة والفراشين والسعدية^(١٨٢). ثم يذكر (... وأقطعت الكناس والديارات بنواحي مصر لكل من التمسها)^(١٨٣) وذكر أبو صالح الأرمني أن الخليفة الحاكم أمر باحراق دير ناهيا إلى (... أن وصل بالأرض)^(١٨٤) وكتب إلى عماله في سائر مناطق الدولة بهدم الأديرة ونقضها ومحو آثارها^(١٨٥). ولذلك خربت أعداد كبيرة جداً من الأديرة عدا الانطاكي بأنها كانت (... ألوفاً كثيرة بجميع الاتها وصياغاتها)^(١٨٦). والمقصود هنا بالآلاف الكنائس والأديرة معاً. ومن هذه الأديرة من سكنها المسلمون دون أصحابها من الرهبان !!، فيذكر أبو صالح الأرمني أن للنساطرة^(١٨٧) دير باسم المرتوتي، نسبة إلى السيدة العذراء، ويقع في حارة زويلة^(١٨٨)

١٨٠ - الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٩٨؛ غنان: الحاكم، ص ١٤٠.

١٨١ - النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٩١.

١٨٢ - المقرئ: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٩٤، هامش ٣؛ غنان: الحاكم، ص ١٤١.

١٨٣ - المقرئ: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٥؛ سلام شافعي: أهل النمة، ص ٢٣٦.

١٨٤ - أبو صالح الأرمني: تاريخ أبو صالح، ص ٧٧.

١٨٥ - سلام شافعي: أهل النمة، ص ٢٣٧.

١٨٦ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٢٩٨.

١٨٧ - النساطرة: هم اتباع نسطوريوس Nestorius المولود بجرمانيقية في سورية - الذي ارتقى عرش اسقفية القسطنطينية سنة ٤٢٨ م، واطهر بدعته حول إنكار ألوهية السيد المسيح، وقد قاوم البابا كيرلس بدعته وقرر حرمانه ونفيه إلى اخميم بصعيد مصر حتى مات. وحاول اتباعه نشر بدعته بعد وفاته، فأسسوا له مدرسة في الرها، ومنها اتجهوا بعد طردهم إلى نصيبين وإلى اليوم يوجد لهم فريق في جبل سنجار بالعراق، وفي ملبار بالهند. عنه انظر الناشئ الأكبر: مسائل الإمامة، ص ٨١؛ رأفت عبد الحميد: الفكر المصري في العصر المسيحي، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٠ م، ص ٢٢٦ - ٢٣١؛ منسي يوحنا: تاريخ الكنيسة القبطية، ص ٢٥٦ - ٢٥٧؛ عزت زكي: كنائس المشرق، دار الثقافة، ط ١، القاهرة، ١٩٩١ م، ص ٩٧ - ١٥٠.

١٨٨ - عنها راجع ما سبق، ص ٥٦، هامش ٥٦.

بالقاهرة^(١٨٩). وذكر أبو صالح ان الدير كان به (... بيعة كبيرة مشخصة ظاهرة وجميع معالمها باقية ... ودائرة بيوت كانت للرهبان سكنها المسلمين وذلك في الخلافة الحاكمة)^(١٩٠) .
ولم ينج من هذه المنبحة إلا عدد قليل جداً من الأديرة مثل دير أبي مقار^(١٩١) بتربوط "مربوط"^(١٩٢) من أعمال الإسكندرية، وعدد من الأديرة الصغيرة المجاورة له^(١٩٣) ومنها أديرة وادي هيبب، الذي أقام فيه الأنبا زخارياس - الذي كان الخليفة الحاكم قد غضب عليه وحبسه - لأن البيع فيه كانت سالمه من الهد^(١٩٤) . وقد أرسل الخليفة الحاكم بأمر الله أميراً من مصر ومعه عدد من الفعلة ومساحي الأراضي وحاملي الفئوس في المراكب إلى الإسكندرية ليهدموا هذا الدير^(١٩٥) إلا إنهم عندما وصلوا إليه وجده في حراسه قبيلتي بني قره^(١٩٦)، وبني كلاب

- ١٨٩ - أبو صالح الارمني: تاريخ أبو صالح، ص ٥٦ - ٥٧؛ الأنبا صموئيل: الكنائس والأديرة، ص ١٠٧ .
١٩٠ - أبو صالح: المصدر السابق، ص ٥٨ .
١٩١ - دير ابي مقار: دير قديم له شأن كبير عند المسيحيين وبخارجه أديرة كثيرة خربت في أيام المقريري وكان يعرف قديماً بالأسقيط، وكان لا يعترف ببطركية البطريرك حتى يجلسوه في هذا الدير بعد جلوسه بكرسي الإسكندرية . وكان عدد الرهبان فيه حوالي ١٥٠٠ راهب، انخفضوا في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي . وبه رفات ثلاثة من أكبر الرهبان عند المسيحيين، وهم أبو مقار الأكبر، وأبو مقار الإسكندراني، وأبو مقار الاسقف . وهذا الدير محل اهتمام كثير من المسيحيين الذين يقومون بزيارته دوماً . عنه انظر المقريري: المواظ والاعتبار، ج ٤، ص ٥٠٨؛ ساويرس بن المقفع: تاريخ البطارقة، ج ٥، ص ٦٥٩ .
١٩٢ - تارنوت: بالفتح ثم السكون وضم النون وواو ساكنة، قرية بين مصر والإسكندرية كان بها واقعة بين عمرو بن العاص والروم أيام الفتوح، وبها كنيسة خراب خربت تماماً . عنها انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٢، ص ٢٧ . ومربوط: قرية من قري مصر قرب الإسكندرية ساحلية تضاف إليها كورة من كور الحوف الغربي . عنها انظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج ٥، ص ١١٩ .
١٩٣ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٢٩٨ .
١٩٤ - ساويرس بن المقفع: تاريخ البطارقة، ج ٥، ص ٦٣٨ .
١٩٥ - ساويرس بن المقفع: المصدر السابق، ج ٥، ص ٦٣٨ . وهي معلومة انفرد بها ابن المقفع عن سائر المؤرخين .
١٩٦ - بنوقرة: بطن من هلال بن عامر بن صعصعة من العنانية، ذكرهم الحمداني في عرب النيار المصرية، وقال بلادهم إخميم من صعيد مصر . عنهم انظر القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، د.ت، ص ٣٥٦



(١٩٧) العربيتين المعروفتين (١٩٨).، وان عرب هاتين القبيلتين يدافعون عن الدير، ولا يمكنون أحدًا من الوصول إليه، وذلك (... لمنافع لهم فيه) (١٩٩) وذكر ابن المقفع أن الفعلة قالوا لأميرهم عندما وصلوا إلى الدير (... نحن نخاف من العرب الذين في هذا الجبل لكثرتهم) (٢٠٠) الأمر الذي دفعهم إلى الرحيل دون إتمام هدمه، مما أتاح للرهبان المقيمين فيه حرية العبادة في السنوات التسع العجاف التي ازداد اضطهاد الحاكم للمسيحيين فيها، مما دفع الأنبا زخارياس إلى أن ينتقل إلى الدير ويقيم فيه، حتى أحضره الراهب بيمم [بنيامين] إلى دير شهران وعفا عنه الخليفة الحاكم (٢٠١). وذكر الأنطاكي أن الخليفة الحاكم بأمر الله توقف عن هدم دير أبو مقار علي كره منه، وذلك لخوفه من أن يثير عليه القبيلتين العربيتين!، ولولا ذلك لأقدم على هدم الدير (٢٠٢).

وأقطع الخليفة الحاكم بأمر الله دير رايه (٢٠٣)، ودير طور سينا (٢٠٤) لرجل من العرب يعرف بابن غياث ليقوم بهدمهما! (٢٠٥). فقام ابن غياث بهدم إحدى كنيسة دير راية، ورحل

١٩٧ - بنو كلاب: بطن من عامر بن صعصعة، وكانت ديارهم حمي ضرية، وهي حمي كلب والريزة في جهات المدينة، وفدك، والعوالي ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الشام. عنهم انظر القلقشندي: المصدر السابق، ص ٣٦٥؛ عبد الله خورشيد البري: القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة للهجرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٩٢ م، ص ٢٣٦.

١٩٨ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٢٩٨.

١٩٩ - الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٩٨.

٢٠٠ - ساويرس بن المقفع: تاريخ البطارقة، ج٥، ص ٦٣٩.

٢٠١ - ساويرس بن المقفع: المصدر السابق، ج٥، ص ٦٥٢ - ٦٥٣.

٢٠٢ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٢٩٨.

٢٠٣ - لم أعر على ترجمة له في الكتب التي ارخت للديارات. انظر الشابشتي: الديارات، ص ٣١٩ - ٣٣٧؛ المقرئ: المواعظ والاعتبار، ج٤، ص ٥٠١ - ٥١٠. ويغلب الظن أنه قريب من القلزم؛ لأن ابن غياث قام بهدم بعض كنائس القلزم، وهو في طريقة إلى دير طور سينا. انظر الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٩٩.

٢٠٤ - عنه راجع ما سبق، ص ٢٣، هامش ٣٢.

٢٠٥ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٢٩٨. ونكر المقرئ أن الخليفة الحاكم بأمر الله أقطع الكنائس والديارات بنواحي مصر لكل من التمسها!. المقرئ: اتعاط الحنفا، ج٢، ص ٩٥. وربما كان ابن غياث هذا هو الذي طلب من الحاكم أن يعطيه دير رايه، ودير طور سينا.



صوب دير طور سينا ليهدمه ويقم مكانه مسجداً كما أمره الخليفة الحاكم بأمر الله . وعندما وصل إلى الدير خرج له أحد رهبانه، ويدعي سلمون بن إبراهيم، الذي وصفه الأنطاكي بأنه كان (... نو شيخوخه، وحكمه، وعقل، وسياسة)^(٢٠٦). وذكر أن سلمون قال لابن غياث أنه وكل رهبان الدير سوف يساعدونه على هدم الدير، وأنهم لن يمنعوه من ذلك . وقدم اليه جميع مقتنيات الدير من ذهب وفضه، ثم ذكر له أن الهدم سيكون صعباً (... لحصانته "الدير ووثيقة " قوة "بنائه"، وإنه يحتاج في ذلك إلى أنفاق جملة كثيرة " من المال " تفوق ما يحصل له منه)^(٢٠٧) وعرض عليه ان يقدم له مبلغاً من المال عوضاً عن هدم الدير، الأمر الذي أعجب الرجل وانصرف عنه من غير أن يتعرض له بالهدم أو رهبانه بالأذي^(٢٠٨).

وبالتالي هناك عدد من الأديرة التي نجت من المذبحة التي أقامها بحقها الخليفة الحاكم بأمر الله، وذلك إما لوجود ما يدافع عنها كما في دير أبو مقار، أو للحيلة التي لجأ اليها بعض رهبانها للحيلولة دون هدمها، كما حدث في دير طور سينا . وبالتالي كانت المحنة شديدة علي المسيحيين في تخريب كنائسهم وأديرتهم، واستمرت المحنة تسع سنوات (٤٠٣ - ٤١١ هـ/ ١٠١٢ - ١٠٢٠ م) كما يذكر ساويرس بن المقفع. وكانت الثلاث سنوات الأولى منها هي الأشد (٤٠٣ - ٤٠٦ هـ / ١٠١٢ - ١٠١٥ م)؛ لأن الهدم والتخريب استمر فيهم . واعتبر ساويرس بن المقفع أن هذه السنوات التسع كانت أدب من الرب^(٢٠٩)، ويرى ابن المقفع أن الصلوات والعبادات توقفت في مصر باستثناء الأديرة التي كان المسيحيون يلجئون اليها في مناسبتين كل سنة، وهما عيد الغطاس^(٢١٠)

٢٠٦ - الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٢٩٩ .

٢٠٧ - الأنطاكي: نفسه، ص ٢٩٩ .

٢٠٨ - الأنطاكي: نفسه، ٢٩٩؛ سلام شافعي: أهل النمة، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

٢٠٩ - ساويرس بن المقفع: تاريخ البطارقة، ج ٥، ص ٦٤٩ .

٢١٠ - عيد الغطاس: يكون في اليوم الحادي عشر من شهر طوبة، وسبب الاحتفال به أن يحيي بن زكريا عمدا المسيح - أي غسله - في بحيرة الأردن، وعندما خرج المسيح عليه السلام من الماء اتصل به الروح القدس، ولذلك صار المسيحيون يغمسون في الماء في هذا اليوم . عنه انظر المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، مج ١، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط ٥، بيروت، ١٩٧٣ م، ص ٣٤٣ - ٣٤٤؛ المقرئ: المواظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٦٥ .



وعيد القيامة^(٢١١)؛ وذلك لأن المسيحيين كانوا (... يشتهون القربان كما يشتهي الطفل اللبن من ثديي امه)^(٢١٢).

وكانت بوادر انفراج الأزمة في سنة ٤١١هـ / ١٠٢٠م عندما تغاضي الخليفة الحاكم بأمر الله عما رفع إليه من بعض عيونه من قيام المسيحيين بالاجتماع والصلاة في بيوتهم خفيه، فأعرض عن هذا ولم ينكره^(٢١٣). ثم التقى الحاكم بالأنبا سالمون - رئيس دير طور سينا - الذي شكى إليه سوء حالة رهبان الدير، وما هم عليه من الضرر والفاقة، وتوسل إليه في أن يعيد إليهم الأوقاف الخاصة بهذا الدير، لكي يستعينوا بها في حياتهم، وسوف يدعون له ما عاشوا (... فأجابه إلى ذلك، وأعاد جميع أوقافهم إليه)^(٢١٤) وكتب إليه عهدهم بذلك، العهد الذي أشارت إليه المصادر، ولكنه لا يزال مفقوداً إلى اليوم^(٢١٥). وكان هذا أول انفراج في أزمة الأديرة في مصر في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله .

وشجع موقف الخليفة الحاكم بأمر الله هذا البطريق سلمون إلى معاودة لقاء الحاكم في ربيع الاخر السنة (٤١١ هـ / يوليو ١٠٢٠)، واشتكى إليه خراب الكنائس والاستيلاء على الوقاف الخاصة بها، وأن هذه الأوقاف قد خربت وساعت أحوالها بعدما أخذت من أصحابها. والغالب انه تحدث معه أيضاً عن أحوال الأديرة، لأنه سأله أن يأذن له بإعادة بناء دير القصير، وأن يسمح للرهبان بإعادة سكناه مرة أخرى، وإعادة الأوقاف الخاصة به. فوافق الخليفة الحاكم علي ذلك، بل أمر بأن يعفي الدير من سداد ما على أوقافه لبيت

٢١١ - عيد القيامة: هو العيد الكبير الذي يعرف بعيد الفصح وهو بعد عيد الصليبوت بثلاثة أيام . عنه انظر المقرئزي: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٦٤ .

٢١٢ - ساويرس بن المقفع : تاريخ البطارقة، ص ٦٤١ .

٢١٣ - عن ذلك راجع ما سبق، ص ١٢ .

٢١٤ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٣٥٣؛ أحمد رمضان أحمد: مخطوطة [عهد] الخليفة الحاكم بأمر الله، حوليات هيئة الآثار المصرية، رقم ١، مطبعة هيئة الآثار، ط١، القاهرة، ١٩٨٦ م، ص ١٦ .

٢١٥ - وذكر أحمد رمضان ان العهدة الموجودة باسم الخليفة الحاكم بأمر الله في المتحف القطبي لرهبان دير سانت كاترين لا ترجع اليه، بل إلى ابنه الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله؛ لأنها صدرت في سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م والخليفة الحاكم اختفى سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م. عنها انظر أحمد رمضان: المرجع السابق، ص ١٦ .



المال، وكتب سجلاً بذلك^(٢١٦). ويعطينا السجل - الذي انفرد به الأنطاكي - صورة للأوقاف التي كانت موقوفه علي الدير سواء في مصر أو في مناطق أخرى من الدولة. وقد طلب الحاكم أن ت... رد الأوقاف والأملاك التي كانت محدثة عليه ومنسوبة إليه، من ضيعة، ومزرعة، ومنية، وأرض، وحصنة، ودار، وقيسارية، وحمام، وعرصة، وحانوت، وفاخورة، ونخيل، وبستان، وشجرة مثمرة، وجنان بمصر وأعمالها من جميع بلاد المملكة، وأقطارها، وأطرافها^(٢١٧). ولذلك لنا أن نتخيل حجم الأوقاف الأخرى التي كانت موقوفة على باقي الأديرة في مصر، ولنا أن نتخيل أيضاً قيمة هذه الأوقاف بعدما أمر الخليفة الحاكم بالاستيلاء عليها، ووضعها باسمه في الديوان! . ومن هنا انفتح الباب لإعادة بناء الكنائس والأديرة وإعادتها لأصحابها ورد أوقافها إليها كما يذكر الأنطاكي^(٢١٨).

واستمر الأتبا سلمون وغيره من وجهاء المسيحيين في الاتصال بالخليفة الحاكم بأمر الله، وأخذوا يطلبون منه في كل مرة رد كنيسة أو دير إلى أصحابه مرة أخرى، وفي إعادة عمارتها ورد أوقافها. وقد ذكر الأنطاكي أن الأتبا سلمون كان يتولى هو كتابة رقاغ بأسماء الكنائس والأديرة التي رغب أصحابها في إعادتها ورد أوقافها إليها بأسمائهم وتقديمها إلى الخليفة الحاكم. وكان يحصل لهم على توقيع الحاكم الذي كان يجيب (... كل منهم إلى ملتسمه)^(٢١٩). واطلق الخليفة الحاكم عمارة كل (... الديارات التي يستدعي منه الأذن فيها وفي عمارتها بمصر وفي سائر بلاد مملكته، وكتب لكل منهم بذلك سجلاً في معني سجل دير التصير، وأعدت أوقافها إليها)^(٢٢٠). واستثنى الخليفة الحاكم من رد أوقاف الأديرة ما قد بيع وقت الاستيلاء عليها في

٢١٦ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٣٥٤؛ سلام شافعي: أهل النمة، ص ٢٣٨؛ جاك تاجر: أقباط ومسلمون، ص ١٤٧ .

٢١٧ - الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٣٥٤ - ٣٥٥، وانظر ملحق رقم "١"، ص "٤٤" .

٢١٨ - الأنطاكي: نفسه، ص ٣٥٧؛ جاك تاجر: أقباط ومسلمون، ص ١٤٧ .

٢١٩ - الأنطاكي: نفسه، ص ٣٥٧؛ حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص ٢٠٩؛ سلام شافعي: أهل النمة، ص ٢٣٩ .

٢٢٠ - الأنطاكي: نفسه، ص ٣٥٧ . وذكر ساويرس بن المقفع ذلك بقوله (... ثم ان الملك الحاكم بإمر الله] جا إليهم ومعه سجل عظيم لفتح الكنائس كلها التي في مملكته وعمارتها، وأن تعاد إليهم الأخشاب والعهد والطوب المأخوذ نها والأراضي والبساتين التي كانت لها في ككل كورة مصر) ساويرس بن المقفع: تاريخ البطارقة، ج ٥، ص ٦٥٨ - ٦٥٩ .



دمشق، وفي جميع بلاد الساحل، أو ما صرف ثمنه في النفقات الخاصة به ويقصره وذلك لقلّة الأموال عنده، أو ما صرف علي من (... يتوقون " يتقون " شره من المسلمين) (٢٢١).

ومن الذين توسطوا لدى الخليفة الحاكم الراهب بيمين [بنيامين] الذي طلب منه أن (... يمكنه من عمارة دير خارج مصر "القاهرة" علي اسم شهيد المسيح ماري مرقوريوس، وهو دير شهران فبناه وسكنه مع اخوه له رهبان) (٢٢٢). وكان الخليفة الحاكم بأمر الله يتردد علي الراهب بيمين [بنيامين] في دير شهران (... دفعات "مرات" كثيرة، ويقيم هناك، ويأكل من طعامهم الحقيق) (٢٢٣). حتى إن الراهب بيمين [بنيامين] انتهر فرصة لقائه بالخليفة في إحدى المرات، وطلب منه أن يعفو عن الأتبا زخرياس البطريك، فأخرج الراهب بيمين [بنيامين] البطريك الأتبا زخرياس من دير شهران - التي كان مختبأً فيه بعد فراره من دير أبو مقار، فسلم علي الخليفة الحاكم وعفي عنه الخليفة (٢٢٤). وخرج من عندهم في الدير مسروراً، وقال له وللاساقفة (... اقيموا ها هنا "دير شهران" حتي اقضي لكم حوائجكم) (٢٢٥).

وأتم الخليفة الحاكم بأمر الله أعماله مع المسيحيين سواء بإعادة بناء كنائسهم أو أديرتهم مرة أخرى - بأن أصدر في شعبان السنة (٤١١هـ/ نوفمبر ١٠٢٠م) عهد الأمان لكل مسيحي مصر، الذي ينص علي أن يكونوا آمنين علي أنفسهم، وأموالهم، وديارهم، وكنائسهم، وأديرتهم وألا يتعرض لهم أحد بأذى، والتوقف عن لبس الزنانيير والسواد وحمل الصليبان (٢٢٦).

٢٢١ - الأنطاكي: نفسه، ص ٣٥٧ .

٢٢٢ - ساويرس بن المقفع: تاريخ البطاكة، ج٥، ص ٦٥٢؛ عنان: الحاكم، ص ١٤٢؛ يعقوب نخلة روفيله: تاريخ الامة، ص ١٢٩؛ منسي يوحنا: تاريخ الكنيسة القبطية، ص ٤٠١ .

٢٢٣ - ساويرس بن المقفع: المصدر السابق، ج٥، ص ٦٥٢ - ٦٥٣؛ منسي يوحنا: المرجع السابق، ص ٤٠٤ .

٢٢٤ - ساويرس بن المقفع: نفسه، ج٥، ص ٦٥٣؛ يعقوب نخلة روفيله: تاريخ الامة، ص ١٢٩ . ودار حوار طويل بين الخليفة الحاكم وبين البطريك. عنه انظر ساويرس بن المقفع: نفسه، ج٥، ص ٦٥٣ - ٦٥٦ .

٢٢٥ - ساويرس بن المقفع: نفسه، ج٥، ص ٦٥٦ .

٢٢٦ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٣٥٧ - ٣٥٨؛ عنان: الحاكم، ص ١٤٢؛ فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل النمة، ج١، ص ٢١١ . وحول العهد انظر ملحق رقم (٢)، ص (٤٥). ونكر النويري أن سماح الحاكم للمسيحيين بالعودة إلى دينهم وإعادة بناء الكنائس مرة أخرى كان في شهر جمادي الآخرة سنة ٤١١هـ/سبتمبر - أكتوبر ١٠٢٠م. النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص ٢٠٠ .



ويذكر الأنطاكي أن الأتبا سلمون طلب من الخليفة الحاكم أن يكتب للمسيحيين هذا العهد بالأمان في العودة إلى دينهم بعدما تخوف عدد من كبار رجال الدين من العودة إلى دينهم (...). حنراً على نفوسهم من أن يكون إجابة الحاكم لمن فسح له في ذلك على سبيل الحيلة عليهم والخديعة لهم لاستكشافه ما في ضمائرهم، وظناً منهم أنه ينتبهم فيما بعد ويأتي عليهم) (٢٢٧) ولذلك سعي الخليفة الحاكم إلى كتابة هذا السجل بالأمان لهم .

ولم يكتب الخليفة الحاكم بذلك، بل إنه كان (... في كثير من الأيام في نفوذة إلى البرية يقصد دير القصير ويشاهد عمارته، ويستحث الصناع على الفراغ منه، وأطلق لهم دنانير تصرف في النفقة عليه، ودفع أيضاً إلى الرهبان المقيمين فيه دنانير، ورسم لهم مساعدة البنائين لتروج عمارته) (٢٢٨) . ونفهم من نص الأنطاكي أن الخليفة كان يقصد دير القصير، وكان يطلب من العمال سرعة الانتهاء من أعمارهم مرة أخرى، بالإضافة إلى تقديمه للأموال من أجل ذلك، بل وقدم أموالاً أيضاً إلى رهبانه، وأن الرهبان كانوا يشتركون في إعادة البناء بأنفسهم إلى جانب العمال. ولم يكن دير القصير فقط هو الذي يزوره الخليفة الحاكم، بل إنه (... كان يعدل أيضاً إلى ديارات جدها اليعاقبة في ناحية القرافة) (٢٢٩). وكان الخليفة يدخل هذه الأديرة بمفرده حيث كان يأمر الركابية (٢٣٠) أن تتأخر عنه في القرافة (٢٣١)، أو في الساقية القريبة من جبل

٢٢٧ - الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٣٥٨؛ فاطمة مصطفى عامر: المرجع السابق، ج ١، ص ٢١٢ .

٢٢٨ - الأنطاكي: نفسه، ص ٣٥٩ - ٣٦٠؛ جاك تاجر: أقباط ومسلمون، ص ١٤٨ .

٢٢٩ - الأنطاكي: نفسه، ص ٣٦٠ .

٢٣٠ - الركابية: يعرفون أيضاً باسم الركابدارية، وهم العاملون في بيت الركاب، الذي تكون به السروج واللجم ونحوها . عنهم انظر القلقشندي: صبح الأعشي في صناعة الإنشا، ج ٣، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٩٨٧ م، ص ٥٧٧ - ٥٨٢؛ المقرئزي: مسودة كتاب، ص ١٨٩ - ١٩٤ .

٢٣١ - القرافة: هي جبانة مصر الفسطاط التي تمتد من شرق المدينة وحتى سفح المقطم، وتشمل الأحياء المعروفة اليوم ببطن البقرة، والبساتين، وعقبة بن عامر، والتونسي . عنها انظر المقرئزي: المصدر السابق، ص ٢٣٣، هامش ٣؛ جاستون فييت: القاهرة ومدينة الفن والتجارة، ترجمة مصطفى العبادي، سلسلة كتاب اليوم، رقم ٣٠٨، القاهرة، مايو ١٩٩٠ م، ص ١٥٣-١٥٥ .



المقطم، ويمضي وحده^(٢٣٢). ولم تلق تصرفات الخليفة الحاكم هذه نحو المسيحيين رضا بعض عوام الناس، وخاصة علاقته بالأنبا سلمون الذي كان يلقاه كل يوم وهو في طريقه إلى الصحراء، وكان يستجيب لكل طلباته، الأمر الذي جعل بعض العوام يشنعون عليه (... أنه قد تتلمذ لأنبا سلمون)^(٢٣٣). وخاصة وأنهم كانوا يشاهدون الخليفة يرتدي لباس الصوف مثل الرهبان المسيحيين^(٢٣٤).

ولم يطل العمر بالخليفة الحاكم بأمر الله بعد هذه السجلات التي أصدرها بحق المسيحيين في إعادة الأمان إليهم، وإعادة بناء الكنائس والأديرة؛ إذ اختفى فجأة في الثامن والعشرين من شوال السنة (٤١١ هـ / الخامس عشر من فبراير سنة ١٠٢١ م) في أثناء رحلته اليومية بجبل المقطم؛ إذ دخل الجبل ولم يعثروا على جثته!^(٢٣٥). والذي يهمننا هنا في مجال بحثنا أن أخته الأميرة ست الملك وكبار رجال الدولة ذهبوا إلى (... دير القصير وفتشوه لئلا يكون مستترًا فيه)^(٢٣٦). في دلالة على كثرة غشيانه لهذا الدير .

٢٣٢ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٣٦٠ .

٢٣٣ - الأنطاكي: المصدر السابق، ص ٣٥٩ .

٢٣٤ - الأنطاكي: نفسه، ص ٣٥٩؛ جاك تاجر: أقباط ومسلمون، ص ١٤٨ .

٢٣٥ - حول وفاة الحاكم انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ص ١٣٧٣؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٣٩٦٢ - ٣٩٦٤، ترجمة ٦٢٨٩؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٩٤ - ١٩٦؛ المقرئ: المواعظ والاعتبار، ج ٤، ص ٢٨٩؛ اتعاط الحنفا، ج ٢، ص ١١٥ - ١١٦؛ سمير فوزي جرجس: موسوعة من تراث الأقباط، مج ١، ص ٢٠٧ .

٢٣٦ - الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٣٦١؛ ابن إبيك الدوادار: كنز الدرر، ج ٦، ص ٣٠٠؛ المقرئ: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٠ . ونكر أحد الباحثين أن البعض تصور أن الخليفة الحاكم بأمر الله قد اختلى بنفسه في أحد الأديرة المسيحية ! . سمير فوزي جرجس: المرجع السابق، مج ١، ص ٢٠٧ .

De Lacy O'Leary: A short History of Fatimid ,P .185 .



ملحق رقم (١) سجل من الخليفة الحاكم بإعادة بناء دير القصير

«بسم الله الرحمن الرحيم^(٦)، هذا كتاب من عبدالله وولّيه المنصور أبي عليّ الإمام الحاكم بأمر الله، أمير المؤمنين، لسليمان بن إبراهيم الراهب، بما رآه من إنعامه عليه، (وإسعافه بما رغب إليه من الإذن له)^(٧) في إعادة عمارة الدير المعروف (بالقُصير)^(٨) بطُرا من جبل فسطاط مصر، إلى^(٩) ما كان عليه قبل هدمه، وتمكين الرهبان سُكناه والمقام فيه على عاداتهم، والجري على ما سلف من (عبادتهم)^(١٠) وصلواتهم، وإقامة سنّة ديانتهم، والفسح في اجتماع من يَطْرُقُه من أهل ملّتهم^(١١)، وإزالة الاعتراضات عنهم، ومنع الأذى والتسلّط عليهم، وكفّ التَبَسُّط^(١٢) والحيف لهم، وردّ الأوقاف والأموال التي كانت محبّسة عليه ومنسوبة إليه، من ضيعة، ومزرعة، ومينة^(١)، وأرض، وحصّة، ودار، وقيسارية^(٢) وحمّام، وعَرَصَة، وحنوت، وفاخورة، ونخيل^(٣)، وبستان، وشجرة مثمرة، وجنان، بمصر وأعمالها من جميع بلاد المملكة، أقطارها^(٤) وأطرافها، وتسليم ذلك إلى هذا الراهب ليتولّى جدّاه ويحوز نفعه وجناه، ويصرفه في مصالح هذا الدير، والمقيمين فيه، والقاصدين إليه، ويبسط^(٥) يده في تدبيره، ومن يسببه^(٦) في جميعه، وصيانة حقوق بيت المال المسلمّين منه، ويظهره من دَرَنه والوزر عنه، والمسامحة^(٧) بما يجب على ذلك من خراج وعُشْر وعُرم، ورسم في سائر دواوين الحضرة المحلولة والمحبّسة، وإزالة التآوّل عنه والاضرار بسببه والتتبيع^(٨) له في هذا الوقت وما يأتي بعده من الأوقات على استقبال تاريخ هذا السجّل، وفاءً بالذمّة وجزاءً على مناصحتهم ومضامنتهم المملّة، لا يغيّره كَرَحِين، ولا يُحيله مَرّ الأحقاب^(٩) والسنين، فمن قرأه أو قرّء من الأولياء والوُلاة ومتولّي الدواوين والضُمّناء والمتصرفين في الأعمال والأحوال فليعلم ذلك من أمير المؤمنين ورسمه، وليعمل عليه ويحسبه. وكُتِب في شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة وأربعمائة /١١٣٢/ وليقرأ هذا المنشور في (يد)^(١٠) متّخذة^(١١) حجّة له بمضمونه. ويثبت بحيث مثله إن شاء الله. ووقّع الحاكم في أعلاه^(١٢)، عليه بخطّه. الحمد لله رب العالمين.». .

الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٣٥٤ - ٣٥٥ .

ملحق (٢) سجل الأمان من الخليفة الحاكم للمسيحيين

«بسم الله الرحمن الرحيم أمر أمير المؤمنين بكتابة^(٣) هذا المنشور لنيقيفور بطريرك بيت المقدس بما رآه من إجابة رغبته وإطلاق بُغيته من صيانته وحياطته والذَّب عنه وعن أهل الدِّمة من نُخلته وتمكينهم من صلواتهم على رسومهم في افتراقهم واجتماعهم، وترك الاعتراض لمن يصلي منهم في عرصة الكنيسة المعروفة بالقيامة وخربتها على اختلاف رأيه ومذهبه، ومفارقة دينه وعقيدته، وإقامة ما يلزمه في حدود ديانته، وحفظ المواضع الباقية في قبضته داخل البلد وخارجه والديارات، وبيت لحم، ولد، وما برسم هذه المواضع من الدور المنضوية إليها، والمنع من نقض المصلبات بها، والاعتراض لأحباسها المطلقة لها، ومن هدم جدرانها وسائر أبنيتها إحساناً من أمير المؤمنين إليهم، ودفع الأذى عنهم وعن كافتهم، وحفظاً لذمة الإسلام فيهم، فمن قرأه أو قرئ عليه من الأولياء، والولاء، ومتولي هذه النواحي، وكافة الحماة، وسائر المتصرفين في الأعمال، والمستخدمين، على سائر منازلهم، وتفاوت درجاتهم، واستمرار خدمتهم أو تعاقب نظرهم في هذا الوقت وما يليه، فليعلم ذلك من أمر أمير المؤمنين ورسمه، ويعمل عليه وبحسبه، وليحذر من تعدى حده ومخالفته حكمه، ويتجنب مباينة نصه ومجانبة شرحه، وليقر هذا المنشور في يده حجة لمودعه يستعين بها على نيل طلبته وإدراك بُغيته إن شاء الله تعالى . . .»

وكتب في جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وأربعمائة، وفي أعلاه بخط الحاكم توقيع . الحمد لله رب العالمين .

الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص ٣٥٦ - ٣٥٧ .

ملحق (٣)
صورة لدير سانت كاترين



[www.wikipedia.art.monasteries.](http://www.wikipedia.art.monasteries)

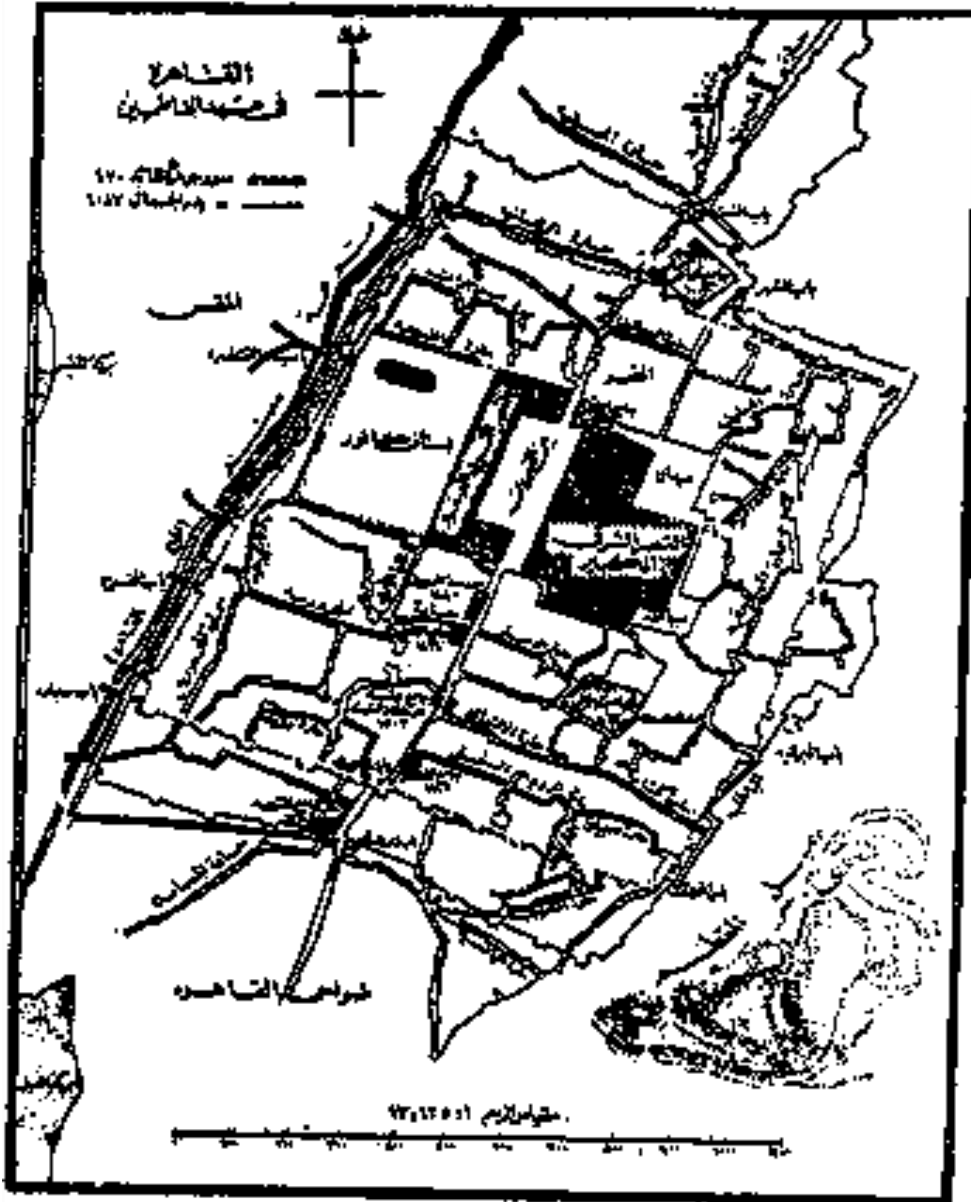
ملحق (٤)

صورة للحاكم بأمر الله كما تخيلها الفنان / جمال قطب نقلاً عن: عنان: ست الملك،
مقال بمجلة الهلال المصرية، العدد ٨، المجلد ٦٦، أغسطس ١٩٥٨ م .



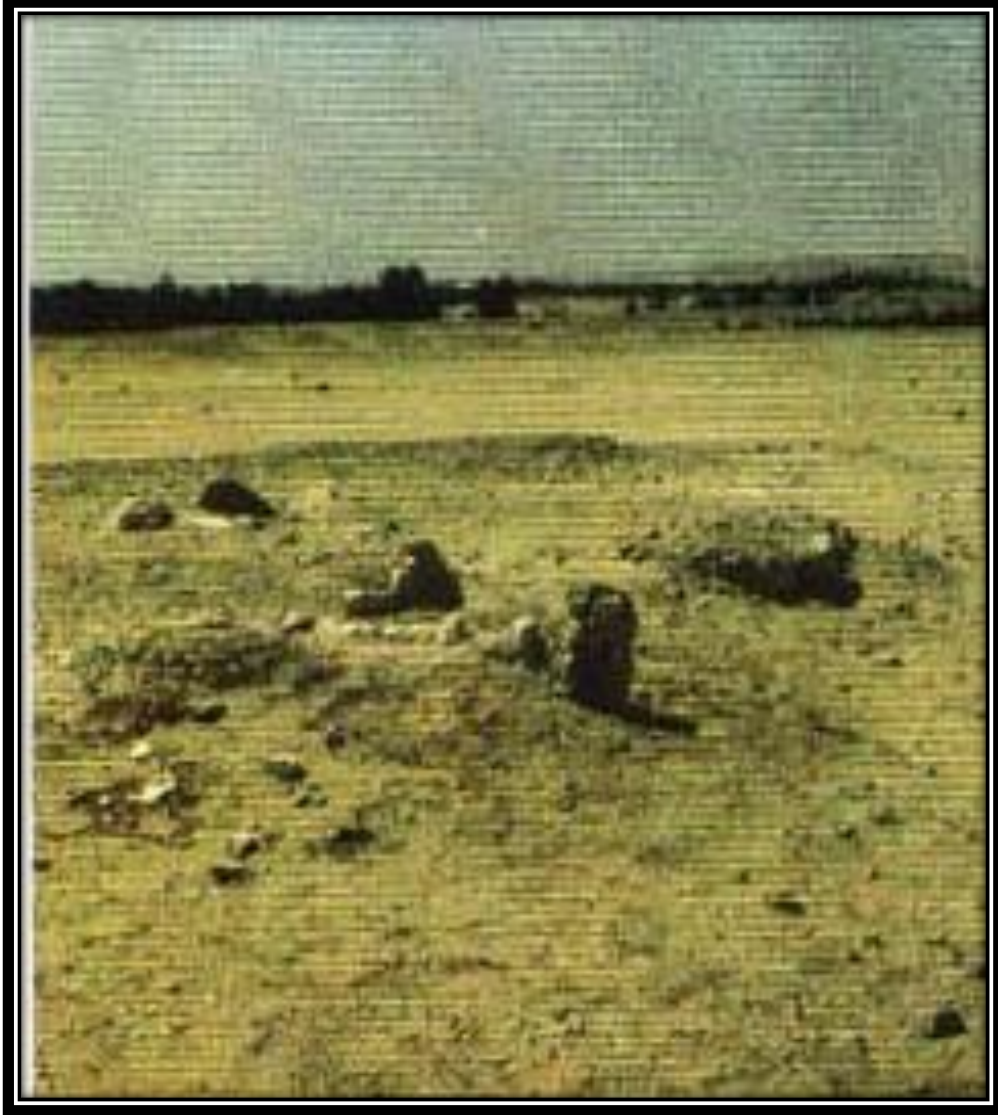
ملحق (٥)

عبد الرحمن زكي: القاهرة تاريخها وآثارها، ص ٥٧ .



ملحق (٦)

دير نهيا

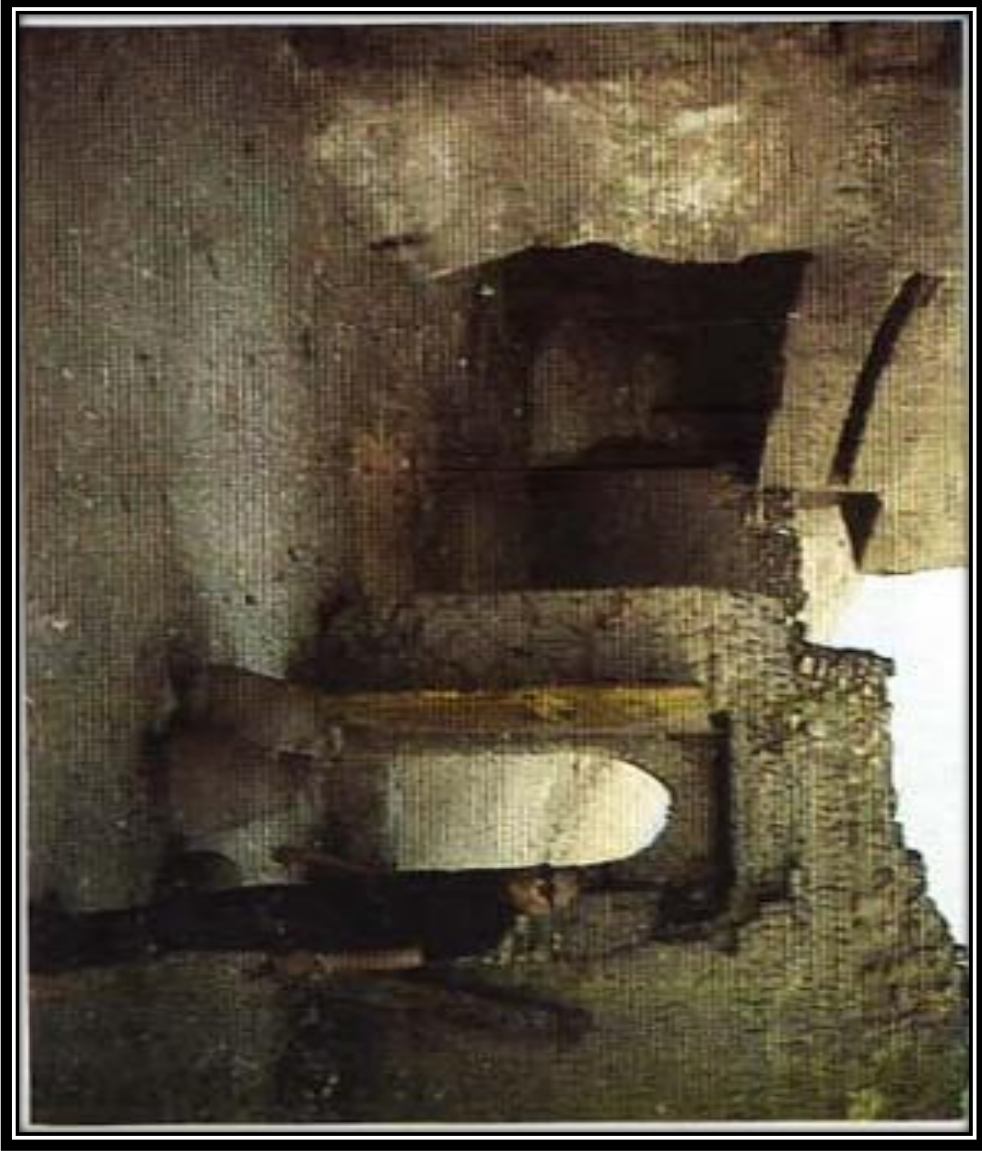


الأنبا صموئيل: الدليل إلى الكنائس والأديرة القديمة من الجيزة إلى أسوان،
الملحق المصور .

ملحق (٧)

دير القصير

الأنبا صموئيل: الدليل إلى الكنائس والأديرة القديمة من الجيزة إلى أسوان،
الملحق المصور .

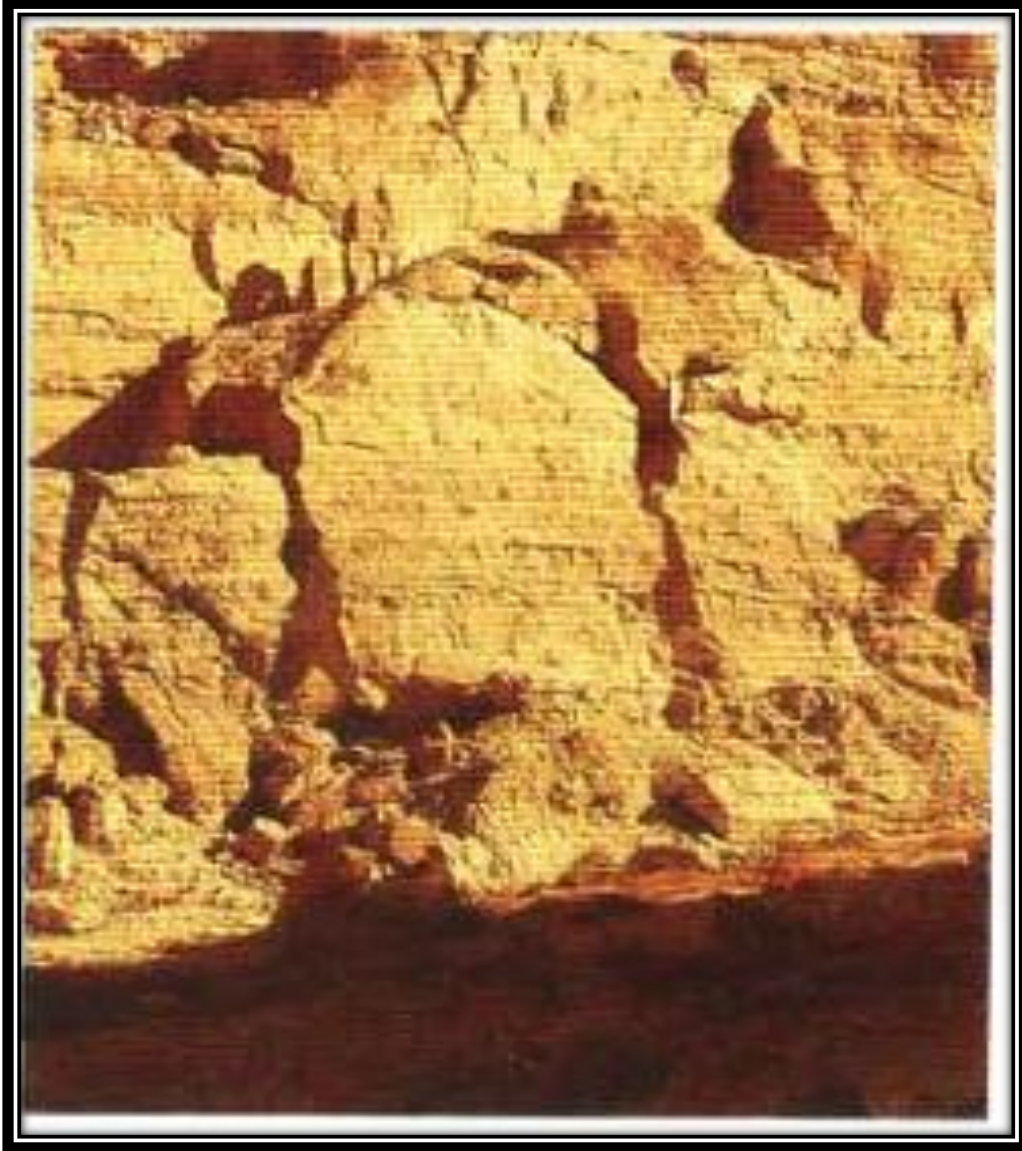


ملحق (٨)

دير السبعة جبال بأخميم

الأنبا صموئيل: الدليل إلى الكنائس والأديرة القديمة من الجيزة إلى أسوان،

الملحق المصور





قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:-

- ١- ابن الأبار: الحلة السبراء، ج١، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، ط٢، مصر، ١٩٨٥ م .
- ٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، نشر بيت الأفكار الدولية، ط١، عمان، ٢٠٠٢م.
- ٣- ابن أبي الهيجاء: تاريخ ابن أبي الهيجاء، تحقيق صبحي عبد المنعم محمد، دار رياض الصالحين، ط١، الفيوم، ١٩٩٣ م .
- ٤- ابن أبيك الدوادار: كنز الدرر وجامع الغرر، ج٦، بعنوان الدرر الماضية في تاريخ الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح الدين المنجد، المعهد الألماني للأثار، القاهرة، ١٩٦٠ م .
- ٥- البغدادي: مرصد الاطلاع علي أسماء الأمكنة والبقاع، ج٢، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، ط١، بيروت، ١٩٥٤م.
- ٦- البلوي: سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي، سلسلة النخائر، رقم ٥٥، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط١، القاهرة، ١٩٩٩ م .
- ٧- تميم بن المعز لدين الله: ديوان تميم بن المعز لدين الله، تقديم إبراهيم النسوقي، سلسلة النخائر، رقم ٨٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ٢٠٠٢ م .
- ٨- ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١٥، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٢ م .
- ٩- الخافجي: شفاء العليل فيما في كلام العرب من الدخيل، تصحيح نصر الهوريني، المطبعة الوهبية، مصر، ١٢٨٢ هـ .
- ١٠- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٢، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دت .
- ١١- ابن دقماق: الأنصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، دت .
- ١٢- الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١، تحقيق إحسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، بيروت، ٢٠٠٤ م .
- ١٣- ابن الراهب: تاريخ ابن الراهب، نشر لويس شيخو اليسوعي، مطبعة الإباء اليسوعيين، بيروت، ط١، ١٩٠٣م.
- ١٤- الزبيدي: تاج العروس من شرح جواهر القاموس، ج٨، المطبعة الخيرية، مصر، دت .
- ١٥- الزمخشري: أساس البلاغة، ج١، دار الكتب المصرية، القاهرة، دت .
- ١٦- ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطارقة، ج٥، تحقيق عبد العزيز جمال الدين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط١، القاهرة، ٢٠٠٢ م .



- ١٧ - ابن سعيد المغربي: المغرب في حُلِّي المغرب، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر، تحقيق زكي محمد حسن وآخرون، سلسلة النخائر، رقم ٨٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ٢٠٠٣ م .
- ١٨ - السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، القاهرة، ١٩٦٨ م .
- ١٩ - الشاشتي: الديارات، تحقيق كوركيس عواد، دار المدي، سوريا، ط١، ٢٠٠٨ م .
- ٢٠ - أبو صالح الأرمني: تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني المعروف بكتاب كنائس وأديرة مصر، the churches and monasteries of Egypt and some neighboring countries
نشر افينتنس، أكسفورد، ١٨٩٥م.
- ٢١ - الصفي: الوافي بالوفيات، ج١١، تحقيق أحمد الأرنبوط، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ٢٠٠٠م.
- ٢٢- ابن الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق أيمن فؤاد سيد، دار المصرية اللبنانية، ط١، القاهرة، ١٩٩٠ م .
- ٢٣- ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق أيمن فؤاد سيد، دار العربية للكتاب، ط١، القاهرة، ١٩٩٦ م .
- ٢٤ - ابن ظهير: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٩ م .
- ٢٥- ابن العربي: تاريخ مختصر الدول، تحقيق أنطوان اليسوعي، دار المشرق، ط٣، بيروت، ١٩٩٣ م .
- ٢٦ - عماد الدين القرشي: عيون الأخبار، السبع السادس .
- ٢٧ - العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج١، تحقيق أحمد نكي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٤م.
- ٢٨ - القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، د.ت
- ٢٩ - _____: صبح الأعشي في صناعة الإنشاء، ج٣، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٧م.
- ٣٠ - ابن قيم الجوزية: أحكام أهل النمة، القسم الأول، تحقيق سيد عمران، دار الحديث، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.
- ٣١ - المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، مج ١، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط٥، بيروت، ١٩٧٣ م .
- ٣٢ - المقرئ: تعاط الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفاء، ج١، تحقيق جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط٣، القاهرة، ٢٠٠٥ م .



- ٣٣ - _____ : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقرئية، ج٤، سلسلة الذخائر، رقم ٥٤، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٩ م، ص ٥٠١ .
- ٣٤ - _____ : مسودة كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ١٩٩٥ م .
- ٣٥ - الناشئ الأكبر : مسائل الامامة ومقتطفات من الكتاب الأوسط في المقالات، تحقيق يوسف فان إسل، منشورات المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، ط٢، بيروت، ٢٠٠٣ م .
- ٣٦- الأتطائي: تاريخ الأتطائي المعروف بصلة تاريخ أوتبخيا، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، مطبعة جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٩٠ م.
- ٣٧ - ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٢، دار صادر، بيروت، د.ت .

ثانياً: المراجع:-

- ١- أحمد أبو كف: دير القديسة كاترين، مقال بمجلة الهلال، عدد يونيو ١٩٧١، القاهرة .
- ٢- أحمد رمضان أحمد: مخطوطة [عهدة [الخليفة الحاكم بأمر الله، حوليات هيئة الآثار المصرية، رقم ١، مطبعة هيئة الآثار، ط١، القاهرة، ١٩٨٦ م.
- ٣- أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي،
- ٤- السيد الباز العربي: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، دار النهضة العربية، ط١، بيروت، ١٩٦٨ م.
- ٥ - _____ : الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، ط١، بيروت، ١٩٨٢ م.
- ٦- الفريد ج بتلر : الكنائس القبطية القديمة في مصر، ج١، ترجمة إبراهيم سلامة إبراهيم، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ٢٠٠١ م .
- ٧- أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية تفسير جديد، الدار المصرية اللبنانية، ط١، القاهرة، ١٩٩٢ م.
- ٨- برياره واترسون: أقباط مصر، ترجمة إبراهيم سلامة إبراهيم، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، القاهرة، ٢٠١٥ م.
- ٩- جاك تاجر: أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢، تقديم محمد عفيفي، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ٢٠١٥ م .
- ١٠- جاستون فييت: القاهرة ومدينة الفن والتجارة، ترجمة مصطفى العبادي، سلسلة كتاب اليوم، رقم ٣٠٨، القاهرة، مايو ١٩٩٠ م .
- ١١- ه. أ. ر. جب: الموسوعة الإسلامية الميسرة، ج١، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣ م .
- ١٢ - حبيب زيات: الديارات النصرانية في الإسلام، مقال بمجلة المشرق، العدد ٣٦ تموز - يوليو، ١٩٣٨ م .



- ١٣- حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ط١، ١٩٣٢ م .
- ١٤ - حسين كفاي: المسيحية والإسلام في مصر، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ١٥ - حكيم أمين: دراسات في تاريخ الرهبانية والديرية المصرية، طبع على نفقة المؤلف، القاهرة، د.ت .
- ١٦ - رأفت عبد الحميد: الفكر المصري في العصر المسيحي، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ٢٠٠٠ م .
- ١٧ - سعاد ماهر: مساجد القاهرة وأولياتها الصالحون، ج١، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠١٤ م .
- ١٨ - سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج١، التاريخ السياسي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٨، القاهرة، ١٩٩٧ م .
- ١٩ - سلام شافعي: أهل النمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ١٩٩٠ م .
- ٢٠- سمير فوزي جرجس: موسوعة من تراث الأقباط، ج١، من تاريخ القبط، دار القديس يوحنا، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- ٢١- سومرز كلارك: الآثار القبطية في وادي النيل، ترجمة إبراهيم سلامه، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ٢٠٠٠ م .
- ٢٢ - سيدة إسماعيل الكاشف: أحمد بن طولون، سلسلة أعلام العرب، رقم ٤٨، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، ط١، القاهرة، ١٩٦٥ م .
- ٢٣ - الاتنيا صموئيل: تاريخ أبو المكارم عن الكنائس والأديرة في القرن ١٢ بالوجه القبلي، ج٢، معهد الدراسات القبطية، القاهرة، ١٩٩٥م.
- ٢٤- صموئيل السرياني: الدليل إلى الكنائس والأديرة القديمة من الجيزة إلى أسوان، معهد الدراسات القبطية، القاهرة، د.ت .
- ٢٥- عبد الرحمن زكي: القاهرة، تاريخها وأثارها، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ط١، القاهرة، ١٩٦٦ م .
- ٢٦- عبد الحميد نافع: نيل خطط المقريري، تحقيق خالد عزب، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- ٢٧ - عبد الله خورشيد البري: القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة للهجرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٩٢ م .
- ٢٨ - عزت زكي: كنائس المشرق، دار الثقافة، ط١، القاهرة، ١٩٩١ م .



- ٢٩- علي حسني الخريوطي: العزيز بالله، سلسلة أعلام العرب، رقم ٧٣، دار الكاتب العربي، ط١، القاهرة، ١٩٦٨ م.
- ٣٠- فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل النمة في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي، ج١، سلسلة تاريخ المصريين، رقم ١٧٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ٢٠٠٠ م.
- ٣١- كامل صالح نخله: تاريخ اثناثاسيوس الرسول، مكتبة المحبة، القاهرة، ط١، ١٩٥٢ م.
- ٣٢- ليلي عبد الجواد: تاريخ وحضارة مصر في الحقبة البيزنطية - القبطية، دار الثقافة العربية، ط١، القاهرة، ٢٠٠٧ م.
- ٣٣- محمد رجب النجار: حكايات الشطار والعيارين، سلسلة ذاكرة الكتابة، رقم ٣٧، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط١، القاهرة، ٢٠٠٣ م.
- ٣٤- محمد زايد عبد الله: الرومان واضطهاد المسيحيين في كتابات بوسابيوس القيساري، مقالة في كتاب قطوف من التاريخ الإسلامي والوسيط، القاهرة، ط١، ٢٠١٢ م.
- ٣٥- محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، مكتبة الخانجي، ط٣، القاهرة، ١٩٨٣ م.
- ٣٦- _____: تراجم إسلامية شرقية واندلسية، دار المعارف بمصر، ط١، القاهرة، ١٩٤٧ م.
- ٣٧- _____: ست الملك حسناء شغلته السياسة عن الزواج، مقال بمجلة الهلال المصرية، العدد ٨، المجلد ٦٦، أغسطس ١٩٥٨ م.
- ٣٨- منسي يوحنا: تاريخ الكنيسة القبطية، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥ م.
- ٣٩- ناريمان عبد الكريم: معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ١٩٩٦ م.
- ٤٠- يعقوب نخله روفيله: تاريخ الأمة القبطية، مطبعة متروبول، ط٢، القاهرة، ٢٠٠٠ م.

ثالثاً: المراجع الأجنبية :-

- ١- De Lacy O'Leary: A short History of Fatimid Khalifate, Kagan Paul, London , 1923
- ٢- Peter Grossman: The Coptic Encyclopedia, vol.1, 1991 , p.195 – 208, art . churches .
- ٣- Rene- Geogres Coquin: The Coptic Encyclopedia, vol.4, Macmillan Publishing Company , New york, 1991



ميناء الجار اضمحلاله وانهيائه في القرنين الخامس والسادس الهجريين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين دراسة في الأسباب والنتائج

د. علاء محمد عبد الغنى حسن شعبان

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
الجامعة العربية المفتوحة- فرع الكويت

ملخص البحث:

ميناء الجار الميناء الأول للدولة الإسلامية والميناء الثاني في الحجاز، حيث يقوم بتغذية المدن والقرى التابعة لشمال الحجاز والمدينة المنورة بالسلع والبضائع التي تحتاج إليها، فهو المرفد الأساسي لتلك المنطقة بأكملها، حيث تميزت الجار بأن أغلب سكانها تجار، أما عن عمارة المدينة، فإنها كانت مبنية على شكل القصور، واتصفت أسواقها بأنها متعددة ونظيفة، لذا فكانت موضع جذب للتجار من جميع أنحاء العالم، فكان الميناء مزدهراً خلال الأربعة قرون الأوائل من الدولة الإسلامية، غير أنه في القرنين الخامس والسادس الهجريين بدأ الميناء في الانهيار بالتدريج؛ بسبب بعض الأمور والأحداث منها الصراعات السياسية، والقحط الذي كان يحدث في الحجاز على فترات متفاوتة، بالإضافة إلى المجاعة التي كانت تحدث في مصر، فكان لها الأثر الكبير على الجار تجارياً، ومن أهم الأسباب التهديدات التي كان يقوم بها الصليبيون بين الحين والآخر على المدينة المنورة عن طريق ميناء الجار بغرض الاستيلاء على تجارة البحر الأحمر، وإن كانت هذه التهديدات تفشل غير أنها كانت تؤثر على حركة التجارة في ميناء الجار، وكذلك ما قام به بعض القبائل العربية بالغارات على ميناء الجار لنهب ثرواته ونهب التجار، مما دفع التجار للتوقف عن الذهاب لميناء الجار، مما أثر على الميناء كلياً، وكان من نتائج ذلك توقف الحركة التجارية في الميناء الذي أصبح سراباً، وكذلك تحولت التجارة منه إلى ميناء ينبع ليصبح الجار بعد هذا التقدم والتطور في بداية القرن السابع الهجري كأن شيئاً لم يكن.

Abstract

Abstract Alger was the Islamic State's first sea port. The second seaport was in Hijaz. Alger supplied the towns and villages in northern Hijaz and Madina Munawara with the commodities and goods they needed. It was the main tributary to whole region. The inhabitants of Alger were mostly tradesmen. The architectural design of Madina was mainly palatial. Madina was famous for its several clean markets which attracted merchants from all over the world. It was home to major groups of merchants. The primary reason for that was its unique geographical location. Therefore, the Fatimiyaa State and later the Ayoubia State worked hard using all ways and means to ensure that Alger seaport was commercially prosperous. However, in the fifth and sixth Hijra centuries, this seaport went on a gradual decline as a result of certain events, political conflicts and drought which hit Al-Hijaz region intermittently. In addition to the famine that swept through Egypt, which had severe commercial impact on Alger. Of the main reasons for that were the threats of invasion frequently made by the Crusaders against Al-Madina to seize control of commercial activity throughout the Red Sea. Even though those threats were futile, but they still had an impact on commercial traffic in the Alger seaport. Similarly, the raids made by some Arab tribes against Alger seaport to pillage its resources and plunder the merchants. This made the merchants stop using the seaport, which brought life at the seaport to a standstill. Commercial traffic came to a stop. Thus merchants had to turn to Yanbu seaport instead. This marked the end of Alger, which enjoyed progress and prosperity in the early seventh century of Hijra, as if it had never existed

المقدمة:

كان ميناء الجار يعد من الموانئ المهمة على البحر الأحمر، ولأهميته سمي البحر الأحمر ببحر الجار، فهو يعتبر الميناء الأول في الإسلام، فقد اتسم الميناء بساحله الكبير، الذي يستطيع أن يستقبل العدد الكبير من السفن من مختلف أنحاء العالم، فكان ميناء متحضرًا، حيث اهتم به حكام المدينة وولاية الجار، وكانوا دائمًا يطورونه بكافة السبل، بالإضافة إلى أن نظام التعامل فيه كان راقياً، فعمل على جذب التجار إليه، من بداية الدولة الإسلامية إلى نهاية القرن الرابع الهجري، ولكن بعد ذلك بدأت تضعف الحركة التجارية في الميناء بالتدريج نتيجة لبعض العوامل منها القحط الذي كانت يصيب الحجاز ومصر في بعض السنوات مما يعمل على توقف الحركة التجارية في الميناء لفترات، غير أن الأهم من ذلك التوترات السياسية التي كانت تحصل بين الحكومة المصرية وولاية الحجاز، مما يدفع الحكومة المصرية لمعاقبة ولاية الحجاز بعدم إرسال المساعدات، وإيقاف القوافل التجارية إلى الجار، مما يعمل على توقف الحركة التجارية في الميناء، ولا يمكن تجاهل ما يقوم به الصليبيون من تهديدات للمدينة المنورة عن طريق الجار سواء للاستيلاء على تجارة البحر الأحمر أو تهديد المقدسات الإسلامية، مما يعمل على كساد الحركة التجارية في ميناء الجار، غير أن من أهم الأسباب التي عملت على انهيار الجار هجوم بعض القبائل العربية، وتعيدهم على ميناء الجار طمعاً في ثروات أهله وخيراتهم حتى خربوا الميناء تماماً، فكان من النتائج المترتبة على ذلك ظهور ميناء بديل، فقامت الدولة الأيوبية باختيار ميناء ينبع ليحل محل ميناء الجار في بداية القرن السابع الهجري .

ولهذه الدراسة أهمية لاعتبارات عدة منها كشف النقاب عن الأسباب الحقيقية التي كانت وراء انهيار ميناء الجار، والنتائج المترتبة على ذلك.

وتحاول هذه الدراسة الإجابة على بعض الأسئلة منها:

- أين تقع الجار؟
- ما العوامل التي عملت على انهيار الجار؟
- كيف أنهار ميناء الجار في بداية القرن السابع الهجري؟
- لماذا تحولت التجارة من ميناء الجار إلى ميناء ينبع؟

وتهدف الدراسة إلى تحقيق عدة أمور منها:

- التعرف على الموقع الجغرافي للجار قبل انهياره.
- إظهار العوامل التي عملت على انهيار ميناء الجار.
- توضيح النتائج المترتبة على انتهاء ميناء الجار.

أما عن المنهج المستخدم في الدراسة، فهو المنهج الوصفي والمنهج التحليلي من خلال وصف ميناء الجار والعوامل التي أدت إلى انهيار ميناء الجار ونتائج ذلك، وتحليل تلك العوامل والنتائج.

صعوبات الدراسة: تكمن صعوبة الدراسة في تناثر المعلومات في الكتب، وبخاصة في القرنين الخامس والسادس الهجريين.

أما عن الدراسات السابقة: من الدراسات السابقة سعيد بن عبد الله القحطاني، ميناء الجار من العهد الراشدي إلى نهاية القرن الرابع الهجري من حيث الاستمرارية والتحول في النشاط التجاري، الجمعية التاريخية السعودية، العدد العاشر، مجلد ٢، ٢٠٠٧ م.

تكمن إشكالية الدراسة في كيفية انهيار ميناء الجار، والنتائج المترتبة على ذلك. وتدور محاور الدراسة حول:

أولاً: التعريف بالجار.

ثانياً: عوامل انهيار ميناء الجار.

ثالثاً: النتائج المترتبة على انهيار ميناء الجار.

أولاً التعريف بالجار: (١) ميناء الجار من الموانئ القديمة والمهمة على البحر الأحمر، فهو الميناء الأول للدولة الإسلامية، حيث كان يخدم المدينة المنورة بخاصة،

(١) الجار: بتخفيف الراء، وهو الذي تجيره أن يضام. ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، ت: ٦٢٦هـ، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥ م، ٩٢/٢.

وشمال الحجاز عامة^(١)، ولأهمية الجار، فقد سمي البحر الأحمر كله ببحر الجار^(٢)، وقد صمم الميناء بشكل هندسي يمنعه من الغرق داخل أمواج البحر الأحمر^(٣)، وكان محصناً تحصيناً دقيقاً، حيث ذكر المقدسي واصفاً إياه قائلاً: " والجار على ساحل البحر محصنة بثلاثة حيطان والربع البحري مفوه، بها دور شاهقة وسوق عامر خزانة المدينة ومدنها حمل إليهم الماء من بدر والطعام من مصر، وليس لجامعهم صحن"^(٤)، فالمدقق في الوصف السابق يظهر له مدى ازدهار ميناء الجار اقتصادياً، خلال القرون الأربعة الأولى من الهجرة، فإن الجار كانت محاطة بالأسوار من جوانب ثلاثة، وهذا يدل على كثرة التحصينات التي كانت عليها المدينة، لما بها من كثرة المخازن التجارية، وكثرة البضائع الموجودة فيها وثرأ أهلها، فكانت تلك التحصينات حتى يأمن أهلها من السرقة، والحد الرابع كان البحر، ووصف بأنه مفوه، وهذا يدل على أن الرصيف التي كانت تحط به السفن كان كبيراً، مما يظهر كثرة السفن الواردة إليه، وأن الميناء يستطيع أن يستوعب عدداً كبيراً من السفن من جميع أنحاء العالم، أما عن وصف قصور الجار بأنها شاهقة، ففيه دلالة على ارتفاع البناء وارتفاع البناء

-
- (١) ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧م، صورة الأرض، بيروت، مكتبة الحياة، ١٩٧٥م، ص ٣٩؛ ياقوت، معجم البلدان، ٩٢/٢ - ٩٣.
- (٢) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني المعروف بابن الفقيه، ت ٣٦٥، البلدان، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦، ص ١٣٠.
- (٣) أغناطيوس يوليانوفتش كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين الهاشم، مراجعة ايغور باليايف، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣م، ص ١٢١.
- (٤) المقدسي، محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٠م، تحقيق، غازي طليمات، ص ٨٣؛ ياقوت، معجم البلدان، ٩٦/٢؛ الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري ت ٩٠٠ هـ، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت - ط ٢، ١٩٨٠م، ص ١٥٣؛ ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ٥٩٧ هـ، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك تحقيق، محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ط ١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، ١/١٤٣؛ الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ٢٠٠٣م، ١٥/١٠٠.



يدل على ثراء أهلها، ويقابلها من جهة مصر ميناء عيذاب^(١)، وبدأ ميناء الجار يذب فيه الضعف بداية من القرن الخامس الهجري، وظهر ذلك من خلال الوصف، فمنهم من ذكرها أنها مدينة على ساحل بحر القلزم^(٢)، وهي "قرضة المدينة"، واتفق الأغلبية

(١) عيذاب: مدينة في أعلى الصحراء المنسوبة إليها في ضفة البحر الأحمر، ومنها المجاز إلى جدة، وعرضه مجرى يوم وليمة، ومرسى عيذاب جزيرة ليست بكبيرة ومساحتها من حجارة، والماء العذب يجلب إليها على مسيرة يوم، وهي محط السفن من جدة من التجار وغيرها، وهي تقابل من الصعيد الأعلى مدينة قوص وقفت، وبينها وبين قفت في البر خمس مراحل لا ماء فيها إلا في موضعين، ومرسى عيذاب مأوى لجماعة بني يونس، والفجور فيهم فاش لا ينكره منهم منكر، ولا يكثر منه بيت إلا يشترط نفقة صاحبة البيت وإجراء الخلوة بها، وهم يأخذون من التجار عسورا، وفيها قبالة الكلب، وهو كلب كان هناك للأمير في القديم. ومن عيذاب تسير القوافل إلى مدينة سواكن. ياقوت، معجم البلدان، ٤ / ١٧١؛ محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله، ابن بطوطة، ت ٧٧٩هـ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المعروفة برحلة ابن بطوطة، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط ١٤١٧ هـ، ١ / ٣٩؛ ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسي، أبو الحسين، ت ٦١٤هـ، رحلة ابن جبير دار ومكتبة الهلال بيروت، ١ / ٤٤؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢٣.

(٢) بحر القلزم: وهو أيضا شعبة من بحر الهند، أوله من بلاد البربر والسودان في بحر الزنج وعدن ثم يمتد مغربا، وفي أقصاه مدينة القلزم قرب مصر، وبذلك سمي بحر القلزم، ويسمى في كل موضع يمر به باسم ذلك الموضع، فعلى ساحله الجنوبي بلاد البربر والحبش، وعلى ساحله الشرقي بلاد العرب، فالداخل إليه يكون على يساره أواخر بلاد البربر ثم الزيلع ثم الحبشة، ومنتهاه من هذه الجهة بلاد البجاء الذين قتمنا ذكرهم، وعلى يمينه عدن ثم المنذب، وهو مضيق في جبل كان في أرض اليمن يحول بين البحر وامتداده في أرض اليمن، صار بحرا عظيما، فهو يمر بساحله الشرقي على بلاد اليمن وجدة والجار وينبع ومدنين، ثم يدور تلقاء الجنوب إلى القصير، وهو مرسى للمراكب مقابل قوص، بينهما خمسة أيام، ثم يدور في شبه الدائرة إلى عيذاب وأرض البجاء ثم يتصل ببلاد الحبش، والقرم مينا أهل مصر إلى مكة والمدينة، وبينه وبين القسطنطينية سبعون يوما، في برية معطشة، يحمل من مصر إليه الغلال على الظهر، ثم تطرح في المراكب ويتوجه بها إلى الحرمين. ياقوت، معجم البلدان (٢ / ٩٢)؛ مجهول ت، بعد ٣٧٢هـ، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تحقيق وترجمة عن الفارسية السيد يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط ١٤٢٣ هـ، ص ١٧٤؛ أبو معين الدين ناصر خسرو الحكيم القبايني المروزي، ت ٤٨١هـ، سفرنامه، تحقيق د. يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد - بيروت، ط ٣، ١٩٨٣، ص ١٢٠؛ أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، ت ٤٨٧هـ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب، بيروت، ط ٣، ١٤٠٣ هـ، ١ / ٢٣١؛ علي بن عبد الله بن أحمد الحسني الشافعي، نور الدين أبو الحسن السهمودي، ت ٩١١هـ، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، دار الكتب العلمية - بيروت ط ١، ١٤١٩ هـ، ٤ / ٤٧.



على أنها: " قرية كثيرة القصور، كثيرة الأهل، على شاطئ البحر فيما يوازى المدينة مرسى قريب من جدة، وكانت قبل هذا مدينة تأتي إليها السفن من مصر محملة بالطعام وكذلك من الحبشة، ومن البحرين والصين، وسائر بلاد الهند وعدن وشرق أفريقيا"^(١)، وقد اختلفت الآراء بداية من القرن الخامس الهجري، فذكرها البعض بأنها مدينة والبعض الآخر ذكرها قرية، بالرغم أن الروايات اتفقت على أنه يوجد بها الكثير من القصور، وعادة، كثرة القصور والتطور المعماري يكون في المدن، وليس القرى، ولكن أغلب الظن أن الرحالة والمؤرخين الذين ذكروها بأنها قرية ربما بسبب ركود الحركة التجارية فيها عما كانت قبل ذلك، والرأي الثاني أن حجمها كان أصغر بداية من القرن الخامس الهجري عن القرون الأربعة الأولى، وهي من أعمال المدينة المنورة^(٢)، ووصفها بأنها قرية كثيرة القصور يدل على أن أهلها مازلوا أغنياء.^(٣)

أما عن مدينة الجار، فهي مقسومة إلى قسمين: نصفها في البحر، والنصف الثاني على الساحل، ويجاورها قرية في جزيرة من البحر، مساحتها تبلغ ميلاً في ميل، لا يدخل إليها غير السفن القادمة من الحبشة على وجه الخصوص، وتسمى جزيرة قراف^(٤)، ومن الملفت للنظر أن المدينة لا يوجد بها عيون للماء، فكان الماء

-
- (١) الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي، المعروف بالشريف الإدريسي، ت: ٥٦٠ هـ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٩ هـ، ١ / ١٤٤؛ ياقوت، معجم البلدان، ٢ / ٩٢؛ ابن الجوزي، المنتظم، ١ / ١٤٣؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٨ / ٢٥٧؛ الأندلسي، معجم ما استعجم، ٢ / ٣٥٥؛ ياقوت، معجم البلدان، ٣ / ٢١٩؛ السهودي، وفاء الوفاء، ٤ / ٤٦؛ الحميري، الروض المعطار، ص ١٥٣.
- (٢) الأندلسي، معجم ما استعجم، ١ / ١٠؛ ياقوت، معجم البلدان، ٢ / ٩٢.
- (٣) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني المعروف بابن الفقيه، ت ٣٦٥، البلدان، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦، ص ١٣٠.
- (٤) قراف: قرية في جزيرة من البحر، مساحتها عبارة عن ميل في ميل، ووسيلة الاتصال بينها وبين الجار السفن، ومخصصة لسفن الحبشة فقط، وسكانها تجار كسكان أهل الجار. الأندلسي، معجم ما استعجم، ٢ / ٣٥٥؛ ياقوت، معجم البلدان، ٣ / ٢١٩؛ السهودي، وفاء الوفاء، ٤ / ٤٦؛ الحميري، الروض المعطار، ص ١٥٣.



ينقل إليها من عين يلبل التي تبعد عن الجار بمقدار فرسخين^(١)، وتُكر أن الماء العذب ينقل إليها من بدر^(٢)، وبها مسجد جامع ولها أحساء خارج المدينة يسقون منها،^(٣) أما عن موقعها، فهي تقع غرب بدر على ساحل البحر الأحمر بينها بين بدر حوالي عشرين كيلو متر، وإلى الجنوب الشرقي من الجار قرية الرايس التي تسمى البريكة^(٤)، وكل ما يحتاج إليه سكان بدر يأتي إليهم من الجار، وكان يطلق عليها قبل الجار بولا^(٥)، وكانت الجار بما لها من مكانة عظيمة مؤثرة في الشعراء الذين كانوا دائمي الكتابة عنها في كتاباتهم وليست مقصورة فقط على النتاج الأدبي بل كانت أيضًا تتناول مختلف نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية^(٦)، فهي مدينة تاريخية ظلت ميناءً عامرًا للمدينة المنورة حتى نهاية القرن السادس الهجري، إلى أن انهارت تمامًا في بداية القرن السابع الهجري.^(٧)

وينسب إلى الجار الكثير من العلماء والمحدثين، منهم: سعد الجاري وفي حديثه اختلاف، وهو سعد بن نوفل مولى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان استعمله على

(١) الحميري، الروض المعطار، ص ١٥٣؛ ابن المجاور، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور الشيباني المشقي، ت ٦٩٠هـ، تاريخ المستبصر، ط ١، القاهرة ١٩٦٥م، ١/ ١٢٠.

(٢) محمد بن محمد حسن شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، دار القلم، الدار الشامية - دمشق - بيروت، ط ١، ١٤١١ هـ، ص ٨٥.

(٣) الحميري، الروض المعطار، ص ١٥١.

(٤) محمد حسن شراب، المعالم الأثيرة، ص ٨٥؛ سعيد بن عبد الله القحطاني، ميناء الجار من العهد الراشدي إلى نهاية القرن الرابع الهجري من حيث الاستمرارية والتحول في النشاط التجاري، الجمعية التاريخية السعودية، العدد العاشر، مجلد ٢، ٢٠٠٧ م، ص ٢٧٥.

(٥) محمد حسن شراب، المعالم الأثيرة، ١/ ٥٤؛ اغناطيوس كراتشكوفس، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٢١.

(٦) الحميري، الروض المعطار، ص ١٥٣.

(٧) حمد الجاسر، بلاد ينبع، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض ١٩٦٦م، ص ٤٨؛ عبد السلام بن محسن آل عيسى، دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية رضي الله عنه، الناشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ٢/ ١٠١٧.

الجار، روى عنه ابنه عبد الله. (١)، وأيضاً عبد الملك الجاري مولى مروان بن الحكم. (٢)
أهم القرى والمدن التابعة للجار: تقع الجار في الجزء الشمالي الحجاز، ويتبع
الجار بعض القرى والمدن منها:
حسنى: جبل بين الجار وودّان. (٣)
كففي: موضع بين الجار وودّان تقع، أسفل من الثنية وفوق شقراء. (٤)
البزواء: منطقة مرتفعة تقع بين الجار وودّان، يسكنها بنو ضمرة ابن بكر بن
عبد مناة بن كنان. (٥)
السريير: موضع بقرب الجار، وهي فرضة أهل السفن الواردة من مصر والحبشة
على المدينة، تقع على يسار الجار أسفل عين الغفاريين، وهي واد بخير. (٦)
ذات السليم: بئر قريب من الجار. (٧)
قراف: قرية في جزيرة من بحر اليمن بحذاء الجار سكانها تجار كنحو أهل
الجار يؤتون بالماء العذب من نحو فرسخين. (٨)
غيقة: تقع في ساحل بحر الجار فيه أودية ولها شعبتان إحداهما ترجع فيها
والأخرى في ليل وهو بوادي الصفراء. (٩)

-
- (١) ياقوت، معجم البلدان، ٢/ ٩٣؛ صفي الدين الحنبلي، عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفي الدين، ٧٣٩هـ، مرصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، ١/ ٣٠٥.
- (٢) السمهودي، وفاء الوفاء، ٤/ ٤٦.
- (٣) بفتح أوله وإسكان ثانيه، وبالنون، مقصورة. الإدريسي، معجم ما استعجم، ٢/ ٣٥٦.
- (٤) نفسه.
- (٥) نفسه.
- (٦) بضم أوله، على لفظ تصغير الذي قبله. الأندلسي، معجم ما استعجم، ٣/ ٧٣٧. معجم البلدان (٣ / ٢١٩)؛ صفي الدين الحنبلي، مرصد الاطلاع، ٧ / ٧١٢؛ السمهودي، وفاء الوفاء، ٤/ ٩١.
- (٧) الأندلسي، معجم ما استعجم، ٣/ ٧٣٧، ٣/ ٧٥٢.
- (٨) بالفتح، وآخره فاء. ياقوت، معجم البلدان، ٤/ ٣١٧.
- (٩) ياقوت، معجم البلدان، ٤/ ٢٢٢؛ صفي الدين الحنبلي، مرصد الاطلاع، ٣/ ١٠٧٢.

كتانتان: هضبتان مشرفتان على الجار تقع جانب الرمل. (١)
بحير: بلفظ تصغير بحر: عين غزيرة تقع في ليليل، ومنها يشرب أهل الجار. (٢)
سواكن: بلد مشهور على ساحل بحر الجار، مرفأ لسفن الذين يقدمون من جدة. (٣)
ليليل: واد بناحية ينبع والصفراء، يصب في البحر، وبه عين كبيرة تخرج من جوف
رمل من أغزر ما يكون من العيون، وتجري في الرمل فلا يستطيعون الزراعة عليها إلا
في أحياء الرمل، ويزرع بها النخل والبقول، وتسمى النجير، وينلوها الجار. (٤)

ثانيا عوامل انهيار ميناء الجار:

عملت مجموعة من العوامل على عرقلة الحركة التجارية في ميناء الجار وتسببت في
ركوده، وإن كانت تعود الحركة إلى طبيعتها بزوال تلك الأسباب غير أنها عملت على
انهيار ميناء الجار تماماً ومن هذه العوامل:

القحط في الحجاز: مرت الحجاز بالكثير من الأزمات خلال القرنين الخامس
والسادس الهجريين، ولعل أبرز هذه الأزمات القحط الذي أصاب الحجاز في الأعوام
التالية: ففي عام ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧م حصل قحط في بلاد الحجاز وكان على أثره موت
الكثير من سكان الحجاز، مما دفع سلطان مصر الخليفة المستنصر بالله الفاطمي
(٤٢٠ / ٤٨٧ هـ - ١٠٢٨ / ١٠٩٥م) (٥) بالإعلان في المساجد بتوقف الحج في
هذا العام، وذلك شفقة على المسلمين من القحط الموجود في الحجاز، وحتى لا يصيبهم
مكروه، غير إنه لم يقصر، فيما كان يتوجب عليه تجاه الأماكن المقدسة من إرسال

(١) ياقوت، معجم البلدان، ٤ / ٤٣٦.

(٢) صفي الدين الحنبلي، مراصد الاطلاع، ١ / ١٦٧.

(٣) صفي الدين الحنبلي، مراصد الاطلاع ٢ / ٧٥١.

(٤) السمهودي، وفاء الوفاء، ٤ / ١٦٥.

(٥) المستنصر بالله الفاطمي: أبو تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله علي بن الحاكم أبي علي
منصور بن العزيز بن المعز، العبيدي المصري، ولي الخلافة بعد أبيه، وله سبع سنين، سنة سبع
وعشرين، وأربعمئة ومكث في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر. الذهبي، سير أعلام النبلاء،
١١ / ٤٤١.



المعونة وكسوة الكعبة مرتين في كل عام، فوصلت كسوة الكعبة في الموعد المقرر، حيث وصلت لبلاد الحجاز عن طريق ميناء الجار، وأكد على ذلك ناصر خسرو الذي كان مسافراً برفقة الوفد لأداء فريضة الحج، فقال: " فَلَمَّا سَافَرَتِ الْكُسُوءُ مَعَ وَفْدِ السُّلْطَانِ عَنِ طَرِيقِ الْقَلْزَمِ سَافَرَتْ مَعَهُمْ، فَخَرَجَتْ مِنْ مِصْرَ أَوَّلِ ذِي الْقَعْدَةِ وَبَلَغَتْ الْقَلْزَمَ فِي الثَّامِنِ مِنْهُ، وَمِنْ هُنَاكَ أَقْلَعَتِ السَّيْفِيَّةَ قَبْلَ غَايَةِ بَعْدِ خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا مَدِينَةَ تَسْمَى الْجَارَ فِي الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ، وَقَمْنَا مِنْ هُنَاكَ، قَبْلَ غَايَةِ مَدِينَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ " (١)، وقد تكرر هذا القحط أيضاً في العام التالي سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨م، فقام السلطان بالنداء في الناس بعدم الذهاب للحج في هذا العام أيضاً، بسبب ما يمر به الحجاز من تلك المأساة، ونادى بهذا المرسوم في المساجد، ودعا الناس بأن ينفقوا على لأنفسهم، وما كانوا ينفقونه في الحج ينفقوه على إخوانهم من أهل الحجاز، كمساعدة لهم في تلك المحنة التي يمرون بها بالإضافة للتخفيف على الحجاز بسبب قلة الموارد خوفاً على أهله من الهلاك، حيث ترك الكثير من أهل الحجاز، وكذلك المجاورون ديارهم إلى مصر، فذكر أن عدد من ترك الحجاز بسبب القحط بلغ ٣٥ ألف، فمكثوا في مصر سنة كاملة، حيث خصص السلطان لهم من موارد الدولة ما يكفي حاجاتهم من مأكلاً ومشرباً وملبس، فلما زال القحط من الحجاز، ونزل المطر، أعادهم السلطان إلى الحجاز مرة ثانية بعد أن كساهم، وقام بإرسال كسوة الكعبة، وكذلك المساعدات للحجاز وامرائه عن طريق ميناء الجار حيث أكد على ذلك ناصر خسرو أيضاً الذي كان برفقة القافلة في السنة التالية على التوالي، فقال: " وَلَكِنَّ السُّلْطَانَ لَمْ يَقْصِرِ الْبَيْتَةَ فِي إِسْرَالِ مَا كَانَ يُرْسِلُهُ كُلَّ سَنَةٍ مِنَ الْكُسُوءِ وَأَجُورِ الْخَدْمِ وَالْحَاشِيَةِ وَأَمْرَاءِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَصَلَّةِ أَمِيرِ مَكَّةَ وَقَدْ كَانَتْ ثَلَاثَةَ آلَافٍ دِينَارٍ فِي الشَّهْرِ وَكَانَتْ تَرْسَلُ إِلَيْهِ الْخُبُولَ وَالْخَلْعَ مَرَّتَيْنِ فِي السَّنَةِ، وَعَهْدَ بِهِذَا فِي هَذِهِ السَّنَةِ إِلَى رَجُلٍ اسْمُهُ الْقَاضِي عَبْدِ اللَّهِ مِنْ قُضَاةِ الشَّامِ، وَقَدْ ذَهَبَتْ مَعَهُ مِنْ طَرِيقِ الْقَلْزَمِ وَقَدْ بَلَغَتْ السَّيْفِيَّةَ الْجَارَ فِي الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ، وَكَانَ مَوْعِدَ الْحَجِّ قَدْ قَرَّبَ كَثِيرًا، وَكَانَ الْجَمَلُ يُؤَجَّرُ بِخَمْسَةِ دَنَانِيرٍ، فَذَهَبْنَا مُسْرِعِينَ " (٢)

(١) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١١٠.

(٢) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١١٢.



وبسبب سوء الأحوال والقحط الذي كان موجوداً في الحجاز كانت بعض القبائل العربية تقوم بفرض الاتوات على الحجاج، ومن يرفض إعطاء القبائل ما يريدون كان مصيره القتل، حيث نكر أيضاً ناصر خسرو: " وَقَدْ حَدَّثَ أَنَّ قَافِلَةَ عَظِيمَةَ أَتَتْ لِلْحَجِّ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَفِي أَثْنَاءِ عَوْدَةِ حَجَّاجِهَا عِنْدَ بَابِ الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ طَلَبَ الْعَرَبُ الْخِفَارَةَ مِنْهُمْ، فَقَامَتِ الْحَرْبُ بَيْنَهُمْ وَقُتِلَ مِنَ الْمَغَارِبَةِ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفِي رَجُلٍ، وَلَمْ يَعِدْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِلَى الْمَغْرِبِ وَفِي هَذِهِ الْحِجَّةِ ".^(١)

إن المتأمل فيما سبق يلاحظ توقف الحركة التجارية في ميناء الجار في تلك الأوقات بسبب القحط سواء من التجار أو الحجاج، لدرجة أن الكثير من سكان الحجاز والمجاورون تركوا أماكنهم فارين من الحجاز إلى مصر، وذكر عددهم بخمسة وثلاثين ألفاً، وهذا العدد سواء كان فيه مبالغة، أو أقل أو أكثر يدل على حجم القحط الكبير الذي حل بالحجاز وأهله، فالعدد الأكبر هجر دياره وتركها، ومن بقي في الحجاز كان لا يأمن على نفسه مما يقوم به بعض الأعراب من السلب والنهب وقطع الطرق على الأمنين، ويبدو أن الميناء أصبح خاوياً، فلا يعمل إلا في الوقت التي تصل فيه الوفود من مصر بكسوة الكعبة، والمساعدات التي ترسلها الحكومة المصرية لولاية الحجاز، وكذلك احتياجات الحرمين الشريفين مرتين خلال العام.

توتر العلاقات السياسية بين الحجاز ومصر: العلاقات السياسية بين الدول هي أساس ازدهار الحركة التجارية، وحينما يحصل توتر في تلك العلاقات يأتي بالسلب على الحركة التجارية، ففي بداية القرن الخامس الهجري حصل توتر في العلاقات بين مصر، وأهل الحجاز عامة والجار بخاصة، حيث قام الحاكم بأمر الله الفاطمي ٣٧٥ / ٤١١ هـ - ٩٨٥ / ١٠٢١^(٢) بمعاينة أبي الفتوح^(٣)؛ لأنه حاول الخروج عليه، ودعا

(١) نفسه

(٢) الحاكم بأمر الله: منصور بن نزار، أبو علي، من خلفاء الدولة الفاطمية بوع بالخلافة وعمره احدى عشرة سنة، وقام بتتبع ملكه خادم أسبه بوحوان الخصم الأبيض، الذي كان قد قتلته سنة ٣٩٠ هـ / واستولى على أمواله، قتل الحاكم بطوان خارج القاهرة في ثامن عشر شوال سنة ٤١١ هـ وعمره ست وثلاثون سنة وخلافته خمس وعشرون سنة وشهراً. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١١ / ٤١٤؛ الزركلي، الأعلام، ٧ / ٣٠٦.

(٣) أبو الفتوح: هو الحسن بن جعفر بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب الحسني المكي، أمير مكة، بعد أخيه عيسى، سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، واستمرت ولايته لمدة ست وأربعين سنة. الفاسي، العقد الثمين، ٣ / ٣٣٨.

لنفسه بالخلافة، فلم يستطع الحاكم السيطرة عليه من الناحية العسكرية، فقام بالضغط عليه اقتصادياً، حيث قام بمنع السفر إلى الحجاز حتى لتأدية المناسك الدينية^(١)، وكذلك منع صادرات مصر إلى بلاد الحجاز، وكان الغرض من وراء ذلك أن يثور أهل الحجاز على حكاهم، فيكون هذا بمثابة ضغط عليهم، وكان هذا له تأثيره السلبي على ميناء الجار، فعمل على ركود الحركة التجارية في الميناء^(٢)، وبعد أن عاد أبو الفتوح إلى مكة طلب من الحاكم العفو، فعفا عنه، فقام الحاكم بعودة كل شيء سلب من الحجاز أثناء الحصار بعد أن قضى على الفتنة، فعادت الحركة التجارية في ميناء الجار إلى طبيعتها^(٣)، فبناءً على ما سبق من أراد أن يوقع عقوبات سياسية على الحجاز، فإنه يوقف المساعدات عن أهل الحجاز عن طريق عدم إرسال قوافل تجارية بحرية إلى ميناء الجار، وغيره من موانئ الحجاز.^(٤)

إن الملاحظ لما سبق يجد أن التوترات السياسية التي كانت تحصل بين حكام مصر وولاية بلاد الحجاز كان لها تأثيرها السلبي على ميناء الجار أكثر بكثير من تأثير وقت القحط، والذي كانت ترسل فيه كسوة الكعبة، وكذا المساعدات إلى بلاد الحجاز، أما في حال التوترات السياسية فإن الأمر كان أشد وأصعب، حيث لا كسوة للكعبة، ولا مساعدة بل كان يستعمل السلاح الأقوى والأمضى، وقتها وهو السلاح الاقتصادي، حتى ينفر الناس من الوالي ويلجئون لعزله، وبالتالي تقف القوافل التجارية المتجهة إلى الجار، فيعمل على كساد الميناء في تلك الفترة.

المجاعة في مصر: مرت مصر بكثير من الأزمات الاقتصادية خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، مما عمل على تأثر الحركة التجارية في ميناء الجار بسبب المجاعة، التي نتج عنها غلو الأسعار في مصر^(٥)، فلم يرسل

(١) الفاسي، العقد الثمين، ٤/ ٧٦؛ عمر بن فهد، اتحاف الوري، ٢/ ٤٤١؛ المقرئزي، اتعاط الحنفاء، ٩٠/٢.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/ ٢٦٩.

(٣) جمال سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٧.

(٤) القحطاني، ميناء الجار، ص ٢٧٣.

(٥) المسبحي، أخبار مصر، ص ١٨٧.



الخليفة المساعدات للحجاز، بل توقف الحج من مصر في هذه السنة^(١)، إلى أن زالت الشدة عن مصر، فأرسل الخليفة الفاطمي للحجاز ٤٠ ألف دينار لمكانته الدينية، فكانت أعطية الحجاز ضعف أعطية مصر^(٢).

وتكرر هذا الأمر في سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م، حيث حصل غلاء شديد بالمدينة وميناء الجار، فارتفعت الأسعار لدرجة أن الناس والحجاج، كادوا أن يهلكوا، والسبب في ذلك عدم زيادة نيل مصر، فلم يأت منها المعونات للمدينة المنورة، وبلاد الحجاز عامة.^(٣)

وكذلك في عام ٤٥٧هـ/١٠٦٥م، حيث حصلت مجاعة في مصر، واستمرت لمدة سبع سنوات متتالية، ونتيجة لذلك سادت الفوضى وعدم الأمان^(٤)، مما أثر على ميناء الجار، فاضطربت العلاقات مع مصر؛ لأن حكام مصر لم يتمكنوا من إرسال المساعدات التي كانوا يرسلونها إلى الحجاز، فاضطربت التجارة في ميناء الجار، وتأثرت بذلك.^(٥)

وحيثما حصل انخفاض في مياه النيل، توقف امداد المعونات للمدينة، مما كان يؤثر على السكان، فيؤثر بالسلب على التجارة^(٦) وفي سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م زالت أسعار الحبوب في الجار والمدينة لتأخر وصول الإمدادات من مصر، فلما وصلت تلك الامدادات ارجعت الأسعار إلى طبيعتها^(٧).

(١) المقرئزي، اتعاظ الحنفاء، ٢ / ١٦٤.

(٢) المقرئزي، اتعاظ الحنفاء، ٢ / ١٧٥.

(٣) الفاسي، شفاء الغرام، ٢ / ٢٧٠.

(٤) صبحي عبد المنعم محمد، العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين، دار العربي للنشر والتوزيع، بدون ذكر السنة، القاهرة، ص ١١٨.

(٥) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، ت ٧٤٨هـ، العبر في خبر من غير، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت ٥ / ٣٤٧؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ٤ / ٢٧٠.

(٦) المسبحي، أخبار مصر، ص ١٩٢.

(٧) الفاسي، شفاء الغرام، ٢ / ٢٧٠.



وفي سنة ١١٧٦/٥٧٢م ارتفع سعر القمح في بلاد الحجاز، ولما أرسل صلاح الدين الأيوبي معونة القمح من مصر انخفض السعر^(١). ويتضح مما سبق أن مصر كانت هي المنقذ للجار في وقت الأزمات، وكانت لها أكبر الأثر في تقدم، وازدهار اقتصاد الجار وشمال الحجاز، فلم تبخل بأي من منتجاتها الزراعية للجار، وبيبين المقدسي مكانة مصر الزراعية، حيث قال: "الفسطاط حسنة الأسواق والمعاش يطول الوصف بنعت أسواقه، وأنه اشترى به الخبز الحواري ثلاثين رطلاً بدرهم، والبيض ثمانية بدائق، والموز والرطب بها رخيص"^(٢)، وعلى الجانب الآخر، فإنه حينما كان يحدث انقطاع للأمطار في الجار، فتزداد الأسعار، مثلما حصل في سنة ١١٨٣/٥٧٩م في الجار، فعمل على زيادة الأسعار، فكان المنتفس الأساسي للجار والمدينة المنورة مصر، حيث قاموا باستيراد كل ما يحتاجون إليه من مصر عن طريق ميناء الجار^(٣).

إن الملاحظ لسير الأمور يجد أن ما يحصل في مصر من شدة، وضيق يكون انعكاسه بالسلب على الجار، حيث كانت تأتي إليه السفن محملة بالمساعدات بالإضافة إلى القوافل البحرية التي تأتي إلى الميناء، فالواضح من ذلك أن مصر كان لها الجزء الأكبر من التجارة سواء تلك الصادرة منها رأساً أو من الذين يمرون عن طريقها إلى الجار، غير أنه في أوقات الشدة التي أصابت مصر على مدار سبع سنوات جعلت التجار لا تأتي إليها؛ لأن السلع لم تكن موجودة، وهذا أثر بالسلب على الحركة في ميناء الجار بحكم أنه مرآة لما يحدث في مصر، فعمل ذلك على عرقلة الحركة التجارية في ميناء الجار، وعدم ذهاب التجار إليه، فكان من الأسباب التي عملت على اندثار ميناء الجار.

(١) ابن واصل، محمد بن سالم بن نصرالله بن سالم ابن واصل، أبو عبد الله المازني التميمي الحموي، جمال الدين، ت ٦٩٧هـ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيبان، دار الكتب والوثائق القومية - المطبعة الأميرية، القاهرة، سنة ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م، ٢/ ١٠١.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٩٧؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/ ٣٢٢.

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص ١٠٠؛ عمر بن فهد، اتحاف الوري، ٢/ ٥٤٧.



تهديد الصليبيين للمدينة المنورة: تعرضت المدينة المنورة للتهديد من قبل الصليبيين أكثر من مرة، فالمحاولة الأولى كانت في عهد نور الدين محمود سنة ٥٥٧هـ/١١٨١م، حيث حاول الصليبيون سرقة جسد الرسول صلى الله عليه وسلم الطاهر، وذكر بعض المؤرخين القصة الكاملة لتلك الحادثة، حيث إن نور الدين محمود رأى الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام ثلاث مرات يقول له: يا محمود أنقذني من رجلين أشقرين، فذهب نور الدين محمود إلى المدينة، وقبض عليهما^(١)، أما المحاولة الثانية، فكانت أيضًا في سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م، حيث قام أرناط حاكم إمارة الكرك^(٢) بحملة على بلاد الحجاز حتى يتحكموا في تجارة البحر الأحمر^(٣)، وكان وجهة هذه الحملة المدينة المنورة عن طريق ميناء الجار^(٤)، فلما انطلق من الكرك علم بذلك عز الدين فرخشاه^(٥) أمير بلاد الشام في ذلك الحين^(٦)، فذهب على الفور بجيشه، وهاجم الكرك، كي يجبر أرناط عن الرجوع عن مهاجمة المدينة المنورة، فرجع على الفور أرناط لحماية إمارته، وأثناء عودته هاجم قافلة الحجاج المتجهة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، واستولى عليها، وأسر بعض الحجاج، وأخذ أموالهم^(٧)،

(١) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، ت ٧٧٤هـ، البداية والنهاية، تحقيق، علي شبري، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م؛ أبو شامة، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة، ت ٦٦٥هـ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م؛ السمهودي، الوفا، ص ١٢٩.

(٢) الكرك: حصن مشهور بناحية الشام ومقل مشهور. ياقوت، معجم البلدان، ٤/ ٤٥٢؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٩٣.

(٣) ابن واصل، مفرج. الكروب؛ ٢/ ١٠١؛ المقرئ، السلوك، ١/ ٧٩؛ الذهبي، العبر، ٥/ ٣٤٩.

(٤) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية بيروت، تحقيق عبد الله القاضي، ط ٢، ١٤١٥هـ، ١٠/ ١٠٥.

(٥) عز الدين فرخشاه: ابن أخي صلاح الدين الأيوبي شاهان شاه. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٧/ ١٦٧.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢/ ١٠١.

(٧) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٠/ ١٠٥.



وردًا على ذلك قام صلاح الدين الأيوبي بأسر سفينة كبيرة كان على متنها أكثر من ٢٥٠٠ مسيحيًا في طريقهم لزيارة القدس^(١).

والمحاولة الثالثة كانت في عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٢م، فكرر الأمر حاكم الكرك المدعو أرناط^(٢) بتجديد مهاجمة بلاد الحجاز، ولكن هذه المرة كانت على طريقة قطاع الطرق، فبدأ بمهاجمة السفن المتوجهة إلى موانئ الحجاز، ومنها الجار، حيث وضع في طريقهم أسطولاً في البحر الأحمر لهذا الغرض^(٣)، فأكد ابن واصل على ما قاله: البير شاندر في وصف أحد مؤرخي الغرب لأرناط قائلاً: " إن الأفاق لم يتردد في تحويل فرسانه إلى قراصنة، وحملهم على مهاجمة السفن الإسلامية الماخرة عباب البحر الأحمر معرقلين تجارتهم، قاطعين طريق الحج بين أفريقيا وآسيا " ^(٤)، فتوجه أرناط بجيشه تجاه ميناء الجار حتى أصبح بينه وبين الجار مسيرة يوم وليلة^(٥)، في الوقت الذي كان صلاح الدين الأيوبي منشغلاً بحصار الموصل^(٦)، فأرسل إلى أخيه أخيه العادل أن ينقذ بلاد الحجاز، فتحرك على الفور، وأمر قائد الأسطول المصري حسام الدين لؤلؤ^(٧) بالتحرك تجاه الصليبيين، حيث بدأ بأسطول الفرنجة التي كان

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢ / ١٠١.

(٢) إرناط: قيل أبرنس الكرك أي حاكم الكرك، وصف في كتب التاريخ والتراجم بأنه أخطب الفرنج وأشدهم وأغدرهم ليس له عهد، ولا نمة غدر بالحجاج وهاجمهم وأسر وقتل منه الكثير وأخذ أموالهم. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٥ / ٤١٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٧ / ١٧٧؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ٦ / ١١٧.

(٣) صبحي عبد المنعم، العلاقات بين مصر والحجاز ص ٢٠٢.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢ / ١٢٨ - ١٢٩.

(٥) ابن جبير، الرحلة، ص ٣٥.

(٦) الموصل: بفتح أوله، وإسكان ثانيته، بعده صاد مهملة مكسورة، مدينة بالعراق سميت بذلك؛ لأنها وصلت بين الفرات ودجلة. الأندلسي، معجم ما استعجم، ٤ / ١٢٧٨.

(٧) حسام الدين لؤلؤ: حاجب الدولة الأيوبية. المقرئ، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقرئ، ت ٨٤٥هـ، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية لبنان/بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ١ / ٣٩٢.



يحااصر أيلة^(١)، فانتصر عليه، وتوجه بعدها إلى ساحل الحوراء^(٢)، فانتصر عليهم، وسرح التجار ورد لهم ما سلبوه منهم الفرنجة من الأموال والأمتعة^(٣)، فلما علم أرناط بذلك، وأدرك قوة الأسطول المصري عرف أن مصيره يكون كسابقه، فهرب ولم تذكر المصادر كيفية هروبه^(٤)، غير أن حسام الدين لؤلؤ قائد الأسطول أخذ اثنين من الأسرى ونحرهم في منى كما تنحر الأضاحي، والباقية أرسلهم إلى مصر حتى لا يجرؤ أحد مرة أخرى في التفكير في مداهمة الحرمين الشريفين^(٥).

وخلاصة القول، فإن كان حكام الدولة الإسلامية سواء نور الدين، أو صلاح الدين الأيوبي كانوا دائماً متيقظين لما يقوم به الصليبيين من تهديد للمدينة المنورة عن طريق ميناء الجار، وإحباط المحاولات التي يقومون بها سواء لسرقة جثمان النبي صلى الله عليه وسلم، أو ضرب المقدسات الإسلامية، أو محاولة الاستيلاء على تجارة البحر الأحمر بأكمله، وكذلك منع الصليبيين للوصول للاماكن المقدسة، غير إنه هذا لا يمنع من اضطراب الحركة التجارية في ميناء الجار، وخوف التجار على أرواحهم وأموالهم وتجاراتهم، وخصوصاً أن الصليبيين، كانت لهم طرق مختلفة، وصلت في بعض المرات إلى النظام الذي يقوم به القراصنة من قطع الطرق على السفن، فكان هذا من أهم الأسباب التي عملت على ضعف الحركة التجارية في ميناء الجار، وكانت من أولى المقدمات لانتهياره.

هجوم الأعراب على ميناء الجار: قامت إحدى القبائل العربية بالهجوم على

(١) أيلة: مدينة جلييلة على ساحل البحر الأحمر وبها يجتمع حاج الشام وحاج مصر. اليعقوبي، أحمد

بن إسحاق أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، ت بعد ٢٩٢هـ، البلدان، ط ١

١٤٢٢هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١/ ١٧٨.

(٢) الحوراء: فتح أوله، ممدود، تأنيث أحور: فرضة من فرض البحر تلقاء ينبع، ترقأ إليها السفن من

مصر. الأتلسي، معجم ما استعجم، ٢/ ٤٧٤.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢/ ١٢٨ - ١٢٩.

(٤) نفسه.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢/ ١٢٨ - ١٢٩.



ميناء الجار، وهي قبيلة بني سليم^(١)، حيث بدأ الأمر باللعب في الأسعار، والفساد في أسواق الجار، بكافة أنواعه، فالواضح أن هذا الأمر لم يحظ برضى بعض القبائل الأخرى مثل قبيلة بني كنانة^(٢)، وقبيلة باهلة^(٣)، مما دفع قبيلة بني سليم التعدي على ميناء الجار وتخريبه والاستيلاء على ممتلكات التجار، فقامت حرب بينها وبين بني كنانة وباهلة، حيث كان على رأس قبيلة بني سليم عذيرة بن قطاب السلمي^(٤)، فقتلوا وأصاب بعضهم، فأرسل الخليفة العباسي الواثق بالله (٢٠٠/٢٣٢هـ -

(١) بني سليم: قبيلة عربية عدنانية قيسية، كانوا وما زالوا يقيمون في الحجاز ونجد، وقد هاجرت بطون منهم إلى ليبيا وتونس، وبقيت بطون منهم من فرع بنو الحارث بن بهثة بن سليم في ديارهم الأصلية في الحجاز ما بين مكة المكرمة والمدينة المنورة خاصة في محافظة الكامل وفي وادي ستارة و وادي ساية و وادي قديد وفي حرة بني سليم على طريق الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة وهم أحوال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حيث إنه قال في حديثه الشهير: أنا ابن العوائك من سليم، وتنسب إلى سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان من نرية إسماعيل بن إبراهيم عليهم السلام. السمعاني، الأنساب، ١٣ / ١٨٣؛ القلقشندي، نهاية الأرب، ١ / ٣٤.

(٢) بني كنانة: بكسر الكاف وفتح النونين، فهي قبيلة خندقية مضرية عدنانية ينتمي إليها النبي صلى الله عليه وسلم، موطنها الأصلي في السعودية يتواجد معظم أفرادها اليوم في العراق والأردن ومصر والسودان والاحواز وفلسطين ويشكل أقل في تونس والمغرب وسوريا واليمن وتنسب إلى كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان والعدنانيون هم من بني النبي إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين، ت ٢١٣هـ، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة والسمهودي مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م، ٢ / ٣٩٧؛ السمعاني، الأنساب، ١ / ١٥؛ القلقشندي، نهاية الأرب، ١ / ١٥٢.

(٣) باهلة: هم بنو معد بن مالك بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن ادد بن قيدار بن نابت بن إسماعيل عليه السلام بن إبراهيم عليه السلام وأعصر له ولدان هما: مالك وعمرو، فمالك هو أبو قبيلة باهلة، وعمرو هو أبو قبيلة غنى، وأهم باهلة بنت صعب بن سعد العثيرة بن مخرج نسب إليها أولاد معد. ابن هشام، السيرة، ١ / ١٦٥؛ السمعاني، الأنساب، ٢ / ٧٠؛ القلقشندي، نهاية الأرب، ١ / ١٦٩.

(٤) عذيرة بنت قطاب السلمي: (٠٠٠ - ٢٣٠ هـ = ٠٠٠ - ٨٤٥ م) شاعر، بني سليم ومن أكابرهم. الزركلي الأعلام، ٤ / ٢٢٢.



٨١٥/٨٤٧م^(١) مدداً لوالي المدينة في ذلك الوقت محمد بن صالح بن العباس الهاشمي^(٢)، بقيادة حماد بن جرير الطبري^(٣)، بلغ عدده مائتي فارس أغلبهم من الشاكرية^(٤)، لكي يؤدب بني سليم على ما قاموا به من تخريب لميناء الجار، وتعطيل الحركة به، فخرج إليهم حماد، ومعه عدد من المجاهدين من أهل المدينة، فلقى طلائع بني سليم عند الرويثة^(٥)، وكانت بني سليم وقتها كارهين للقتال، غير أن حماد أمر بقتالهم على ما قاموا به من أفعال شنيعة في الجار، حتى لا تسول نفس أحد للعودة لهذا الأمر سواء منهم، أو من غيرهم، ولكن حماد فوجئ بأن عدد بني سليم أصبح كبيراً بعد أن جاء إليهم امدادات كبيرة، ففاقوا عدد جيش حماد، واستطاعوا النصر عليه، وقتل عدد كبير من جنوده، مما جعل بنو سليم يحس بزهوة النصر، وأحسوا ألا يستطيع أحد أن يقف في وجوههم، فعاودة الكرة مرة ثانية من خلال قطع الطرق والسلب والنهب، ومهاجمة القرى وتخريبها، فأصبحت الطرق غير آمنة، ولا يأمن التجار ولا غيرهم السير فيها، فبلغ ذلك الخليفة الواصل بالله (٢٠٠ / ٢٣٢ هـ - ٨١٥ / ٨٤٧م)، فاحس بالخطر؛ لأن هذا الأمر لم يصبح يهدد المنطقة فحسب، بل يهدد أرواح الحجاج من جميع أنحاء العالم الإسلامي القادمين إلى ميناء الجار، وكذلك التجارة في الجار بالإضافة إلى ما وقع على أهل

(١) الواصل: هارون الواصل بالله ابن محمد المعتصم بالله ابن هارون الرشيد العباسي، أبو جعفر: من خلفاء الدولة العباسية بالعراق. ولد ببغداد، وولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٢٢٧ هـ فامتحن الناس في خلق القرآن. وسجن جماعة، وقتل في ذلك أحمد بن نصر الخزاعي، بيده سنة ٢٣١ هـ. الزركلي، الأعلام، ٨ / ٦٢.

(٢) محمد بن صالح بن العباس الهاشمي: لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من كتب التراجم.

(٣) حماد بن جرير الطبري: لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من الكتب التراجم.

(٤) الشاكرية: عباره عن فرقة من جند الأتراك ظهرت في أيام المهدي واستفحل أمرها في أيام المستعين بالله. ابن الجوزي، المنتظم، ١٢ / ٣٥؛ ابن الأثير، الكامل، ٦ / ٢٣٥.

(٥) الرويثة: بالضم وفتح الـ وفتح الـ وسكون المثناة تحت وفتح المثلاثة آخره هاء، تصغير روثة، واحدة روث الدواب أو روثه الأنف وهو طرفه، موضع بين مكة والمدينة، وسميت بذلك حينما رجع تبع من قتال أهل المدينة نزل الرويثة وقد أبطأ في مسيره، فسماها الرويثة من راث إذا أبطأ. ياقوت، معجم البلدان، ٣ / ١٠٥؛ السهمودي، وفاء الوفا، ٤ / ٨٥.



الجار من خسارة، فأرسل إليهم بغا الكبير أبو موسى التركي^(١) في جيش ضم الشاكرية والأتراك والمغاربة، فوصل إليهم ولقيهم في حرة بني سليم^(٢)، وكانت الوقعة في شرق الحرة من وراء السوارقية^(٣)، وكان يتولى قيادة بني سليم عذيزة بن قطاب والاشهب، وهم من أكابر بني عوف، فاستطاع بغا أن يقتل منهم قرابة خمسين رجلاً، ويأسر مثلهم، فأنهزم بنو سليم، وفر الباقي من جنودهم غير أن بغا بعد الوقعة أقام بالسوارقية، ودعا بني سليم للأمان، فحضر إليه بعضهم، وهرب البعض الآخر، فقبض على الذين كانوا يقومون بالفساد، وقطع الطريق، حيث بلغ عددهم ألف رجل، وأخلى سبيل من علم بأنهم لا يقومون بأي أعمال تخريبية من فساد وقطع للطرق ورجع إلى المدينة بمن معه من الأسرى، وقام بحبسهم في الدار المخصصة لذلك، وهي الدار المعروفة بدار يزيد بن معاوية، ثم ذهب لإداء فريضة الحج، وبعد انتهاء الحج ذهب إلى ذات عرق^(٤)، المقيم بها بني هلال، وعرض عليهم نفس ما عرض

- (١) بغا الكبير: بغا الكبير أبو موسى التركي له فتوحات ووقعات، وكان مملوك الحسن بن سهل الوزير، دخل في العديد من الحروب، ولم يجرح أبداً، ووصف بحسن الأخلاق والتدين اختلف في سنة وفاته فقيل سنة ٢٥٠ للهجرة وقيل سنة ٢٤٨ للهجرة. الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٠٩٣/٥؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، ت ٧٦٤هـ، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث - بيروت، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، ١٠ / ١٠٩.
- (٢) حرة بني سليم: تبعد عن المدينة بمقدار عشرة فراسخ وتقع تحت قاع النقيع وتتصف أراضيها بأن بها رياض وقيعان. البغدادي، البلدان، ١ / ١٥١؛ السمهودي، وفاء الوفاء، ٤ / ٥٧.
- (٣) السوارقية: بفتح أوله وضمه، وبعد الراء قاف وياء النسبة، ويقال السويرقية لفظ التصغير، وصفت بأنها قرية غناء كبيرة، يسكنها الكثير من الناس، يوجد بها مسجد جامع، وسوقها عامر تأتيه التجار من مختلف الأماكن، وهذا السوق خاص ببني سليم، حيث إن كل فرد من أفراد بني سليم له فيه نصيب، أما عن الماء المحيط بها فهو مالح، لذا يأتون بالماء العذب، من آبار في واد سوارق، وواد الأبطن، ويوجد بها المزارع والنخيل الكثيرة، ويزرعون بها الموز والتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ، وفي مراعيهم يوجد، الإبل والخيل والأغنام. المقدسي، أحسن التقاسيم، ١ / ٧٩؛ ياقوت، معجم البلدان، ٣ / ٢٧٦.
- (٤) ذات عرق: يقع بقرب أوطاس وبينها وبين وجرة سبعة وعشرون ميلاً، وذات عرق ميقات أهل العراق، وهو مكان كثير السكان، ويحيط به الكثير من الأشجار، وأهله يأخذون الماء من البرك، ويتصف مسجدها بأنه كبير والمسافة من من ذات عرق إلى بستان ابن عامر اثنان وعشرون ميلاً، ومن بستان ابن عامر إلى مكة أربعة وعشرون ميلاً. الحميري، الروض المعطار ص ٢٥٦؛ السمهودي، وفاء الوفاء، ٣ / ١٨١.



على بني سليم، فأصلح أمرهم (١).

وبعد مرور عامين، وبالتحديد في سنة ٥٣٢هـ / ١٢٠٤م، عاد الأعراب مرة ثانية للفساد وقطع الطرق، فوصل الأمر إلى مسامع الولاة (٢٠٠/٢٣٢هـ - ٨١٥/٨٤٧م)، وكانت هذه المرة يقوم بها بني نمير (٢)، فأرسل إلى بغا يأمره بقتالهم، فخرج إليهم من المدينة، ومعه محمد بن يوسف الجعفري (٣) كدليل له في الطريق، فالتقى بجماعة منهم أثناء سيره، فاستطاع بغا أن يهزمهم وقتل منهم ما يقارب نيفاً وخمسين رجلاً، وأسر منهم حوالي أربعين رجلاً، ثم انطلق إلى اليمامة، ومكث بها، ثم أرسل إليهم يعرض عليهم الأمان، وعدم الرجوع مرة أخرى لتلك الأفعال مرات متعددة، فكان كلما يرسل إليهم رسول يعتدوا عليه بالسب والشتم، وأخيراً أرسل إليهم اثنين أحدهما من بني تميم (٤) والآخر من بني نمير، فقاموا بقتل التميمي، أما النميمي، فعاد جريحاً فيئس منهم، فذهب إليهم، فقامت الحرب بين الطرفين، فصعدا بني نمير جبال اليمامة، فقامت الحرب، فهزمهم بغا في البداية وأسر منهم ألف رجل، والتقى بهم

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٥ / ٢٧٨؛ سبط بن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن فرؤغلي بن عبد الله المعروف بسبط ابن الجوزي ت ٥٨١ - ٦٥٤ هـ، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق وتعليق محمد بركات، كامل محمد الخراط، عمار ربحاوي، محمد رضوان عرقسوسي، أنور طالب، فادي المغربي، رضوان مامو، محمد معتز كريم الدين، زاهر إسحاق، محمد أنس الخن، إبراهيم الزبيق، دار الرسالة العالمية، دمشق - سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م، ١٤ / ٣٩٣؛ ابن الجوزي جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ت ٥٩٧هـ، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، ١١ / ١٥٠؛ ابن الأثير، الكامل، ٦ / ٨٠.

(٢) بني نمير: بطن من عامر بن صعصعة، وهم أبناء نمير بن عامر بن صعصعة، وهم أحد القبائل العربية، كانوا لا يدخلون في تحالف مع أي قبيلة من قبائل العرب. السمعاني، الأنساب، ٥ / ٥٢٧

(٣) محمد بن يوسف الجعفري: لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من كتب التراجم.

(٤) بني تميم: قبيلة عربية تسكن في الدهناء واليمامة، وشمال إقليم نجد ويرجع نسبهم إلى تميم بن مر بن إدا بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان من ذرية نبي الله إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. البلاذري، أنساب الأشراف، ١٢ / ٢٢٠؛ القلقشندي، نهاية الأرب، ١ / ١٨٨.



مرة ثانية في مكان يعرف ببطن السر^(١)، ولكن النصر في هذه المرة كان حليف بني نمير، فقتلوا من عسكر بغا حوالي مائة، وغنموا من أبلهم حوالي ٧٠٠، ومائة دابة، فقرر بغا أن يذهب إليهم بنفسه، وكان الليل قد دخل، فأرسل إليهم الرسل أن يستسلموا، ولكنهم رفضوا تمامًا، فأشار محمد بن يوسف على بغا بعدم قتالهم ليلاً، حتى لا يرون قلة عددهم في النهار، غير أن بغا رفض وانتظر الصباح، فلما رأى بني نمير قلة عدد جنود بغا استهانوا بهم، فقاتلوهم حتى أدرك بغا بأنه وجيشه هالك لا محالة، ولحسن الحظ أن بغا أرسل حوالي مائتي فارس لنبي نمير، فحضروا في الوقت المناسب، فادركوه، فحملوا على بني نمير، فانهزموا، ولم يفلت من رجالهم أحد، أما فرسانهم، فقد هربوا إلى الجبال، وأقام بغا هناك ثلاثة أيام حتى استطاع القبض على أعيان بني نمير، وذهب بهم إلى المدينة غير أنهم في الطريق حاولوا الهروب واستطاعوا فك قيودهم، فقام بجلدهم، وأخذ الأسرى، وكذلك من في سجن المدينة إلى بغداد من الأعراب بعد أن قتل منهم حوالي الفي ومائتي رجلاً والباقي صالحهم، وهدأت الأمور^(٢).

خلاصة القول، فإن هجوم الأعراب على ميناء الجار كان بداية انهيار ميناء الجار، حيث بدأت بالحرب الاقتصادية التي قام بها بنو سليم من محاولة اللعب في الأسعار، فكان لهم أسواق في ديارهم، فكانت تأتيم السلع والبضائع، وأغلب احتياجاتهم عن طريق ميناء الجار بواسطة التجار الوسطاء، ولكن ربما دار في عقولهم أن يهيمنوا على التجارة، ويكونوا هم أصحاب التجارة في ميناء الجار بأكمله، فلم يرض هذا الأمر باقي القبائل، مما دفعهم للوقوع في حروب، فالذي لم يستطيعوا أن يأخذوه بالحيلة حاولوا أن يأخذوه بالقوة، فكانت نتيجة هذا أن قاموا بتخريب ميناء الجار وسلب ونهب أموال أهله، وكذلك التجار القادمين إليه، فهذا العمل البشع كان من نتيجته أن الحركة التجارية بدأت في الضعف، وبدأ التجار لا يأمنون على أنفسهم، ولم يكتفوا بذلك بل

(١) بَطْنُ السَّرِّ: واد ب يقع بين هجر ونجد. ياقوت، معجم البلدان، ١/ ٤٤٩.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٥/ ٢٧٩؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ١/ ٤٢٤.

قاموا بقطع الطرق، ولا حيلة لولاة الحجاز في صدّهم عما يقومون به من أعمال تخريبية تهدد التجار والحجاج، إلى أن وصل الأمر لمسامع الخليفة العباسي الواثق الذي قام بإرسال من قضى على تلك الفتنة التي قام بها بنو سليم، وإن كانت الخلافة العباسية لم تقف مكتوفة الأيدي أمام من حاول إثارة الشغب في الحجاز، غير إن تلك الأمور عملت على ضعف الحركة التجارية في ميناء الجار بداية من القرن الرابع الهجري، فلم يخرج من أذهان العامة والتجار هذا الأمر، فعلى التاجر أن يفكر ألف مرة قبل أن يأت إلى الجار، خوفاً من عودة بعض القبائل العربية لتلك الأفعال، فيخسر بذلك التجار تجارتهم أو يتعرضون للقتل، فكان لذلك تأثير سلبي على ميناء الجار، ومن الأسباب القوية على بداية اندثار ميناء الجار، وإن ظل العمل به أكثر من ثلاثة قرون، غير أن الحركة التجارية كانت فيه ضعيفة مقارنة بالقرون الأربعة الأوائل منذ بديّة الدولة الإسلامية، فكان طيلة هذا الوقت كان الحكام في مصر يفكرون في كيفية الخلاص من تلك التهديدات وعودة الحياة في تلك المنطقة لطبيعتها، وذلك من خلال غلق ميناء الجار مع وجود البديل.

خلاصة القول: إن ميناء الجار لم يتوقف العمل فيه مباشرة، ودون سابق إنذار، ولكن الحركة التجارية بدأت تضعف فيه منذ أواخر القرن الرابع الهجري، فظل على مدار ثلاثة قرون مفتوحاً أمام التجار والحجاج، غير أن الحركة التجارية أضحت فيه من سيء إلى أسوأ، لدرجة أنها كانت تتوقف أشهر عديدة، وحينما ترجع لطبيعتها تكون في غاية الضعف، ومما سبق تتكشف بعض العوامل التي عملت على اندثار الحركة التجارية في ميناء الجار خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين والتي كانت سبباً أساسياً في انتهاء ميناء الجار، أولها كان القحط الذي كان يصيب بلاد الحجاز، فإن كان هذا العامل يصيب الميناء بالشلل غير أن حركة الميناء كانت عادية، وإن قلّت عما سبق غير كانت تسير ببطء؛ بسبب ما كانت ترسله مصر من مساعدات، ولكن الأكبر من ذلك ما كان يحدث من شذائد تمر بها مصر، فهذا العامل كان أشد من سابقه، ولكن سرعان ما كانت ترجع الأمور إلى طبيعتها بعدما تزال الشدة التي

كانت تمر بها مصر، غير أن أشد العناصر صعوبة هو محاولات الصليبيين المتكررة من خلال مهاجمة ميناء الجار، والتي عملت على تهديد الحركة التجارية في البحر الأحمر بأكمله، وكذلك تهديد المقدسات الإسلامية من محاولة سرقة جسد الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان لهذا تأثيره على التجار الذين باتوا خائفين من الذهاب إلى ميناء الجار خوفاً على أرواحهم، وتجاراتهم مما نتج عنه كساد كبير في التجارة في الميناء الذي كان يعج بالحركة التجارية، ومما زاد الطين بلة ما قامت به بعض القبائل العربية بالهجوم على الجار، ونهب ثرواته وتخريبه، الأمر الذي كان يكلف الدولة نفقات باهظة، إضافة إلى تجهيز جيش يقف في وجوههم، مما دفع حكام الدولة الأيوبية إلى اللجوء إلى ميناء آخر يحل محل الجار، فعلى أثر ذلك أصبح ميناء الجار كأن لم يكن، فكانت تلك نهاية مأسوية لأول ميناء في الإسلام، وثاني ميناء في الحجاز بعد جدة على مدار ستة قرون خدم المدينة وشمال الحجاز بأكمله.

ثالثاً: النتائج المرتبة على انهيار ميناء الجار: كان لانهيار ميناء الجار نتائج

متعددة لعل من أبرزها:

غلق ميناء الجار تماماً: بدأ النظام يختل في الجار، منذ أواخر القرن الرابع الهجري، وذلك نتيجة لضعف الحكام، وما يقوم به قطاع الطرق من القبائل العربية تجاه الجار، فقد تسلطوا عليها بالسلب والنهب، وقتل أهله^(١)، ومن الأمور التي كان لها تأثير سلبي على رواج التجارة في ميناء الجار، خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، وكانت بداية في انهياره أمور متعددة ومختلفة ولعل منها تلك الحادثة التي حصلت في مكة عام ٤١٣ هـ / ١٠٢١م، والتي اتهم فيها أحد الحجاج المصريين بالتوجه إلى الحجر الأسود، وبيده سيف، فضرب الحجر في وسطه، فأنقض أحد الموجودين عليه وقتله^(٢)، غير أن أبا الفتوح والي مكة في ذلك الوقت دافع عن

(١) حمد الجاسر، بلاد ينبع، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٩٦٦م، ص ٤٧.

(٢) ابن فهد، عز الدين عبد العزيز بن عمر بن محمد بن فهد الهاشمي القرشي، غاية المراد بأخبار



الحجاج المصريين، ووأد تلك الفتنة المشتعلة^(١)، واتضح بعد ذلك أن تلك الفتنة كان وراءها أهل البصرة، ولكن الحجاج المصريين خافوا من الوقعة بهم، فلم يذهبوا في السنة التالية إلى الحج^(٢).

وأيضاً ما كان يقوم به القراصنة من الاعتداء على التجار، ومراكبهم في البحر الأحمر، فقامت الدولة الفاطمية ببناء أسطول قوي لحماية هؤلاء التجار من خطر القراصنة^(٣)، وصار الأيوبيون على نفس النمط من حماية التجار^(٤)، وأيضاً النزاع الذي كان يحصل بين ولاة الحجاز والدولة الفاطمية، ومن بعدها الدولة الأيوبية من خلال التسابق على ضم الحجاز والسيطرة عليه سياسياً^(٥).

وكذلك ما كانت تقوم به الحكومة في المدينة المنورة من فرض الضرائب على التجار، مما يؤدي إلى زيادة الأسعار في ميناء الجار، فينعكس ذلك بالسلب على المدينة المنورة، فلما رأى ذلك والي المدينة أحمد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد في تلك الفترة ذهب إلى الجار، ولغى الضرائب عن التجار، فاستقرت الأسعار، ولكن كان لهذا صدىً في الحركة التجارية في ميناء الجار فيما بعد^(٦).

أضف إلى ذلك ما كان يحصل في بعض الأعوام من وقف الحج من مصر، حيث

سلطنة البيت الحرام، دار المنني السعديّة، ط ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م / ١ / ٤٩٣.

(١) ابن تعري بردي، يوسف بن تعري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين، ت ٨٧٤هـ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر / ٤ / ٢٤٨.

(٢) المسبحي، محمد بن عبيد الله المسبحي، أخبار مصرفي سنتين ٤١٤ هـ / ٤١٥ هـ، تحقيق وليم ميلورد، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٤٤.

(٣) القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري، ت ٨٢١هـ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء - الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ٣ / ٥٢٠.

(٤) عطية القوصي، تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، دار النهضة العربية القاهرة، ص ١٧٦.

(٥) محمد جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العرب، ١٩٧٦ م، ص ٢٣.

(٦) الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري ت ٣١٠هـ، تاريخ الرسل والملوك، دار التراث - بيروت، ط ٢، ١٣٨٧ هـ، ٩ / ٥٥٣.

ذكر عمر بن فهد: "كان للحجاج المصريين الأثر الكبير في الحركة التجارية في ميناء الجار، فلو توقف الحجاج المصريين في أي عام من الأعوام كان يحدث كساد للتجارة في ميناء الجار، وتضعف الحركة التجارية في الميناء، وعلى ذلك الأمثلة المتعددة في بعض الأعوام، ومنها ما حصل سنة ٥٦٢ / ١١٦٦م، فلم يأت الحجاج بسبب القتال الذي حصل بين نور الدين، وشيركوه، وبين الفرنج والمصريين، فلم يبيع التجار في الجار على نفس عاداتهم القديمة" (١)

ومن الأمور المهمة ما كان يقوم به قطاع الطرق، حيث كانوا يهاجمون القوافل التجارية التي تذهب لميناء الجار، مما دفع صلاح الدين الأيوبي إلى محاولة تأمين التجارة مع ميناء الجار، فقام بفتح النوبة لتأمين الطرق، وبسبب ما كان يحصل في الحجاز من تجاوزات، قام بضمه من خلال الحملة العسكرية التي أرسلها بقيادة أخيه توران شاه، حيث عمل على حماية ميناء الجار، وتأمينه من خطر الصليبيين (٢). ومن الأخطاء العظيمة التي كانت موجودة في ميناء الجار فرض مكوس على التجار والحجاج القادمين إلى ميناء الجار، إلى أن رأى صلاح الدين الأيوبي أن في فرض مثل هذه المكوس يقلل من فرص التجارة في الميناء، ويرى عزوف كثير من التجار والحجاج الذهاب إلى الحجاز عن طريق الجار على أثر هذا قام بإلغاء تلك المكوس، وعوض أهل الجار عن ذلك بإرسال المساعدات إلى أهل الحجاز عن طريق ميناء الجار، حيث كان الكثير من الحجاج والتجار لا يستطيعون دفع تلك المكوس، مما يؤثر بالسلب على الحركة التجارية في ميناء الجار، واستمر الميناء على هذا إلى أن قام صلاح الدين بإلغاء تلك المكوس، وعوض أهل وأمرء الحجاز في مكة والمدينة بقيمة تلك المكوس التي بلغت ألفي دينار وألفي أرب من القمح (٣)، وبين ذلك ابن جبير

(١) عمر بن فهد، اتحاف الوري، ٢ / ٥٢٩ .

(٢) صبحي عبد المنعم محمد، العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين، دار العربي للنشر والتوزيع، بدون ذكر السنة، القاهرة، ص ١٤٣ .

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص ٥٥ .



بقوله: " فمحا هذا السلطان هذا الرسم للعين، ودفع عنه عوضاً ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها، وتكفل بتوصيل جميع تلك إلى الحجاز" ^(١)، ولكن بالرغم من ذلك كان أمراء الحجاز عند تأخر تلك المساعدات كان يقسون على الحجاج، ويعاملونهم معاملة سيئة، مما دفع صلاح الدين إلى تهديدهم ^(٢)، ويلاحظ أن ميناء الجار قد عين فيه بعض الموظفين ليقوموا بجمع المكوس والضرائب سواء على البضائع، حيث كان الموظفون يقدرون قيمة المكوس تبعاً لكل بضاعة ^(٣)، أو مكوس على الحجاج القادمين للميناء لإداء الشرائع المقدسة، وفرضت تلك المكوس أيام الدولة الفاطمية. ^(٤)

وكذلك ما كان يقوم به القراصنة من مهاجمة التجار، ووقع هذا الأمر على كبار الطوائف مثل تجار الكارم ^(٥)، الذين عرفوا منذ أيام الفاطميين، وكان تجار الكارم ينقلون على الأخص الفلفل والزنجبيل والقرفة والقرنفل والأصباغ وغيرها، وقد شاع استعمال هذه التوابل؛ بسبب رخص أسعارها، فكانوا قليلاً ما يذهبون إلى الجار؛ بسبب ذلك إلى أن قامت الدولة الفاطمية ببناء اسطول، لحماية السفن التجارية من تلك التهديدات ^(٦)، وبناء على ما سبق يظهر أن تلك الأمور حصلت خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، مما أثر على

(١) ابن جبير، الرحلة، ص ٣١.

(٢) الفلقشندي، صبح الاعشى، ٧ / ١١٠ .

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١ / ١٣٥ .

(٤) ابن جبير، الرحلة، ص ٣٠ .

(٥) تجار الكارم: هم فئة من التجار قاموا باحتكار التجارة المتجهة من وإلى الهند وكانت في البداية مقتصرة على المحيط الهندي. عطية القوصي، تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، دار النهضة العربية القاهرة، ص ٩١، أما عن سبب تسميتهم بالكارم فهذا الاسم عام، ولم يعرف السبب في تلك التسمية، عطية القوصي، تجارة مصر، ص ١٠١، غير أن هناك تفسير لهذه التسمية يمكن أن يقبله العقل حيث قيل: أن لفظ كارم ليس عربياً بل هندياً، فالكلمة مقسمة قسمان: الجزء الأول: منها كار وهو عين الحرفة أو العمل بالتجارة والجزء الثاني: منها يم ومعناها المحيط أو البحر وسقطت الياء لتسهيل النطق، فأصبح معناها حرفة التجارة في البحر (٥)، وكانت عدن مركز تجارة الكارم، ومن أهم السلع التي يتاجرون فيها الفلفل والبهار يجلبونها من الهند إلى عدن وبعدها إلى الجار، وكذلك كانت لهم بعض السلع الأخرى مثل الحرير والخشب والدقيق والسكر والتوابل . ابن جبير، الرحلة ص ٦٣ .

(٦) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقتها الخارجية، (٣٠١ - ٤٨٧ هـ)، دار العربية للموسوعات، ٢٠٠٥ م، ص ١٨٣ .

ميناء الجار، وبدأت الحركة التجارية تقل فيه بالتدريج إلى أن أصبح ميناء الجار خراباً، وتركه أهله، مما دفع الدولة الأيوبية في البحث عن بديل، وغلق ميناء الجار إلى أن انتهى أمر الجار نهائياً في سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م^(١)

وخلاصة القول: من أهم النتائج المترتبة على انهيار ميناء الجار، غلق الميناء تماماً، حيث لم يتم غلقه فجأة، بل ظل مفتوحاً قرابة ثلاثة قرون، حيث كانت تقل فيه الحركة التجارية بين الحين والآخر، فقد ظلت في الضعف باستمرار إلى أن انتهت تماماً، وأغلق الميناء على أثرها.

ظهور ميناء ينبع^(٢): بدأت بلاد ينبع البحر في أوائل القرن السابع الهجري ٧هـ/١٣م، تقوم بدورها في خدمة بلاد الحجاز، بعد أن انتهى ميناء الجار^(٣)، حيث كان لا بد من وجود ميناء حجازي يستقبل الحجاج القادمين إلى بلاد الحجاز من مصر وبلاد المغرب العربي، وأصبحت تحتل المرتبة الثانية بعد جدة في موانئ الحجاز^(٤)، حيث إن الأيوبيين ٥٦٧/٦٤٨هـ - ١٧١١/١٢٥٠م^(٥)، فكروا في ميناء بديل عن الجار لخدمة المنطقة، ويعمل نفس العمل الذي كان يقوم به الجار، فتوجهت أنظارهم تجاه ينبع، حيث جعلوها ميناءً رئيساً للمدينة المنورة سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م،

(١) حمد الجاسر، بلاد ينبع، ص ٤٧.

(٢) ينبع: بفتح أوله، وإسكان ثانيته، بعده باء معجمة بواحدة مضمومة، وعين مهمله، وهي بين مكة والمدينة، من بلاد بنى ضمرة قوم عزة كثير. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع، ٤/١٤٠٢.

(٣) العمارة، موانئ البحر الأحمر ص ٥١؛ البلاغ، السياحة في ينبع، ص ٢٠٦.

(٤) الجاسر، بلاد ينبع، ص ٤٩؛ العمارة، موانئ البحر الأحمر، ص ٥٢.

(٥) الدولة الأيوبية: ٥٦٧ - ٦٤٨ هـ / ١١٧١ - ١٢٥٠ م: يرجع أصل الأيوبيين إلى نجم الدين أيوب الكردي الأصل، وأبوه يدعى شادي من قبيلة الهذنبانية إحدى القبائل التي استقرت ببلدة دوين بأطراف أرمينية، اتصل شادي والد نجم الدين أيوب برجل اسمه بهروز كان مريباً لأبناء السلطان السلجوقي مسعود، ثم أصبح حاكماً لبغداد تحت سلطة السلاجقة سنة ٥٠٢ هـ / ١١٧٤ م، وكانت له مكانة سامية لدى السلطان السلجوقي، فأقطعته السلطان قلعة تكريت، فأسند بهروز حراستها إلى نجم الدين أيوب بن شادي؛ الذي ظل في حكمها وحراستها عدة سنوات اكتسب خلالها الخبرة بشئون الإدارة، وتمتع فيها بحب الأهالي دب خلاف بين بهروز و نجم الدين أيوب، فخرج نجم الدين وأخوه شيركوه، وأهلها من تكريت عقب هذا الخلاف سنة ٥٣٢ هـ / ١٢٠٤ م، فحزن الأهالي على ذلك حزناً شديداً؛ =



فقاموا بشراؤه بمبلغ من المال من أشرف بني الحسين^(١)، الذين كانوا يحكمون ينبع في

= لما كان يحظى به نجم الدين من محبة في قلوبهم، وقام نجم الدين أيوب بالاتصال بعماد الدين زنكي، فرحب بمقدم أيوب وأسرتنه إلى الموصل، واستقبلهم وأكرم وفانتهم، ثم أسند حكم بعلبك إلى أيوب سنة ٥٣٤هـ / ١٢٠٦م، وعين شيركوه قائد الجيش؛ فكانا عند حسن ظنه، وأصبح أيوب محبوباً من رعيته لعنله، واتصف شيركوه بالشجاعة والإقدام والمغامرة وحب القتال، وشاعت الأقدار أن يولد لأيوب ولد أسماه يوسف ليلة رحيله عن قلعة تكريت سنة ٥٣٢هـ / ١٢٠٤م، فنشأ يوسف في بلاط زنكي بالموصل، وعرف باسم صلاح الدين، فأصبح نجم الدين والد صلاح الدين وأخوه أسد الدين شيركوه من كبار أمراء نور الدين محمود الزنكي صاحب الشام، وأصبح أسد الدين نائباً لنور الدين على مصر، وبعد موت أسد الدين خلفه ابن أخيه صلاح الدين، فكان وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد، ونائباً عن نور الدين محمود، فاستقل بحكم مصر بعد قزرة، وبعد موت نور الدين أخذ دمشق، وكثير من بلاد الشام ٥٦٩ - ٥٧١هـ / ١١٧٣ - ١١٧٥م، وأرسل أخاد توران شاه فأخضع كل بلاد اليمن سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م، بذلك كون صلاح الدين جبهة إسلامية موحدة قوية بعد أن عانى المسلمون طويلاً من الفرقة والضعف، والتشتت فوقف بهذا الجيش في وجه الصليبيين، وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً في موقعة حطين المشهورة سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، فاسترجع بعدها بيت المقدس وطرد الصليبيين من معظم بلاد الشام بعد احتلال تجاوز التسعين عاماً، وبعد صلاح الدين من أعظم القواد المسلمين الذين وقفوا في وجه الصليبيين واستعادوا البلاد المغتصبة منهم، فانتسعت الدولة الأيوبية بالإضافة إلى مصر والشام خضعت له سواحل طرابلس وتونس وبلاد النوبة والسودان، والحجاز واليمن في عهد صلاح الدين وبعد وفاته، ولم يكن من جاء بعده مثله فأخذت الدولة في الانحدار، وانتهت بموت آخر ملوكها الملك الصالح نجم الدين، فتولت السلطة زوجته المملوكة شجر الدر بعد أن قتلت ابنه توران شاه عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م، وهكذا انتهت الدولة الأيوبية، وقامت على أنقاضها دولة المماليك. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٥ / ٣٧٤؛ أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة، ت ٧٣٢هـ، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ط١، ٣ / ٤٥؛ النويري، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري، ت ٧٣٣هـ، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٧ / ١١٥.

(١) الحسينيون: بطن من العلويين من بني هاشم من العنانية، وهم بنو الحسين السبط بن أمير المؤمنين علي بن أب يطالب رضي الله عنه، وعلي يأتي نسبه في الكلام على العلويين في الألف واللام مع العين المهملة. قال ابن حزم: وليس للحسين عقب إلا من ابنه زين العابدين، ومن عقبه العبيديون خلفاء مصر قبل الدولة الأيوبية، والجعافرة المنسوبون إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر، وبنو مسلم الذين منهم أمراء المدينة الآن، وبنو الاخضر القائمون باليمامة، وبنو صالح ملوك غانة من بلاد السودان، وبنو الرسمي أئمة الزيدية باليمن القائمون إلى الآن وياقيهم منتشر في أقطار المشرق والمغرب، وقد نكر الحمداني ان منهم جماعة على القرب من مدينة منفلوط منسوبة إليهم. أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، ت ٨٢١هـ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق، إبراهيم الإياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ص ١٢٨.



ذلك الوقت، فعملوا على تجديده وعماراته^(١)، فازدهر الميناء، وأصبحت الحركة التجارية تدب فيه، حيث كثُر الإقبال عليه سواء من التجار، أو الحجيج، مما جعل الأشراف يندمون على بيعهم للأيوبيين، فقاموا سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م بالاستيلاء عليه، غير أن الأيوبيين، لم يقفوا مكتوفي الأيدي، فقاموا بانتزاعه منهم بالقوة، وسيطروا عليه مرة ثانية، ولكي لا تسول للأشراف الحسنيين أنفسهم في معاودة الاستيلاء عليه مرة أخرى، قام الأيوبيون بتحصينه، ببناء قلعة حصينة، ووضعوا فيها الجنود، لحمايته، وتوفير الأمن والاستقرار لسكانه ضد أي اعتداءات، ورفعوا منزلته في التجارة، حيث كانوا يسبرون إليه القوافل التجارية، فذاع صيته وشهرته، ليصبح الميناء الثاني في الحجاز بعد جدة^(٢)

الملاحظ لما سبق يجد أن من أهم النتائج المترتبة على اندثار ميناء الجار ظهور ميناء ينبع، حيث خطط الأيوبيون لذلك، فقاموا بشرائه من الأشراف الحسينيين حكام ينبع في ذلك الوقت، وفكروا في كيفية تحصينه ضد أي معتد، مثلما حصل مع ميناء الجار سابقاً، حيث وضعوا في حسابهم أمرين أهمهما السيطرة على الحجاز، وذلك للتنافس بين الخلافة العباسية والدولة الأيوبية، حيث تظهر قوة الدولة من خلال السيطرة على الحجاز، فكان تخطيطهم بشرائه، حتى لا ينافسهم فيه ولاية المدينة وينبع، والأمر الثاني رواج التجارة، حيث سيصبح الشريان الرئوي لتلك المنطقة، فيعود بالمكاسب على الدولة الأيوبية، وكذلك على رواج التجارة وازدهارها، فعلم الأشراف بمدى الأهمية التي أصبح عليها ميناء ينبع والخطأ الذين قاموا به من خلال بيعه للدولة الأيوبية، فقاموا بالاستيلاء عليه، مما دفع الدولة الأيوبية، بإرجاعه بالقوة، ولكي لا يحصل له ما حصل مع ميناء الجار، قاموا بتحصينه تحصيناً دقيقاً، ووضعوا به حامية لحراسته، وتأمين التجارة والتجار، وكذلك الحجاج، من أي معتد سواء من الداخل أو من الخارج، لذا كل هذا عمل على ازدهار ميناء ينبع، وأصبح الميناء الثاني في الحجاز بعد ميناء جدة، ومن الدوافع القوية لاختيار ميناء ينبع بعده عن المدينة المنورة، فلا يستطيع أحد أن يهاجم المدينة عن طريق البحر، مثلما كان يخطط الصليبيون قبل ذلك.

(١) الجاسر، بلاد ينبع، ص ٤٩؛ مالكي، بلاد الحجاز، ص ١٤٠؛ الخطيب، ينبع ص ٣٥.

(٢) الجاسر، بلاد ينبع، ص ٤٩؛ مالكي، بلاد الحجاز، ص ١٤٠؛ الخطيب، ينبع ص ٣٥.

الخاتمة

خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج من أهمها:

- موقع ميناء الجار سهل على التجار الوصول إليه مما عمل على ازدهار التجار فيه خلال القرون الأربعة الأوائل من الهجرة.
- القحط الذي كان يصيب الحجاز ومصر من العوامل التي عملت على انهيار ميناء الجار.
- تهديدات الصليبيين المتكررة على المدينة بالرغم من تصدى الدولة الأيوبية لها كانت البداية في انهيار ميناء الجار.
- هجوم بعض القبائل العربية على الجار، ونهب ثرواته جعلت التجار لا يذهبون إليه، مما عمل على انهيار الجار.
- توتر العلاقات السياسية بين حكومة مصر، وولاية الحجاز كان من أسباب كساد ميناء الجار.
- كساد التجارة في ميناء الجار؛ بسبب لجوء الدولة الفاطمية إلى معاقبة ولاية الحجاز اقتصادياً بعدم إرسال المعونات، وإيقاف الحركة التجارية في الجار.
- غلق ميناء الجار تماماً من أهم النتائج المترتبة على انهيار ميناء الجار.
- حل ميناء ينبع محل ميناء الجار ليقدم المدينة، وشمال الحجاز بأكمله من النتائج المترتبة على انهيار ميناء الجار.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية بيروت، تحقيق عبد الله القاضي، ط٢، ١٤١٥ هـ.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك تحقيق، محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
- ابن الفقيه، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني المعروف بابن الفقيه، ت ٣٦٥، البلدان، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦.
- ابن المجاور، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور الشيباني الدمشقي، ت ٦٩٠ هـ، تاريخ المستنصر، ط١، القاهرة ١٩٦٥ م.
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله، ابن بطوطة، ت ٧٧٩ هـ، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط ١٤١٧ هـ، ١ / ٣٩.
- ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين، ت ٨٧٤ هـ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.
- ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكنايني الأندلسي، أبو الحسين، ت ٦١٤ هـ، رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلية، ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م، صورة الأرض، بيروت، مكتبة الحياة، ١٩٧٥ م.
- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة، ت ٢٨٠ هـ، دار صادر، بيروت
- ابن فهد، عز الدين عبد العزيز بن عمر بن محمد بن فهد الهاشمي القرشي، غاية المرام بأخبار سلطنة البيت الحرام، دار المندي السعديّة، ط١ ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م.
- ابن واصل، محمّد بن سالم بن نصرالله بن سالم ابن واصل، أبو عبد الله المازني التميمي الحموي، جمال الدين، ت ٦٩٧ هـ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيبان، دار الكتب والوثائق القومية - المطبعة الأميرية، القاهرة، سنة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م.
- الأندلسي، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، ت ٤٨٧ هـ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٣ هـ.



- بزرك بن شهريار، عجائب الهند، تحقيق عبد الله الحبشي، المجمع الثقافي أبو ظبي، سنة ٢٠٠٠م.
- الجزيري، عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد الجزيري، الدرر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ٢٠٠٢م.
- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري ت: ٩٠٠هـ، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت ط٢، ١٩٨٠م.
- الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف، أبو عبد الله، الكاتب البلخي الخوارزمي، ت ٣٨٧هـ، مفاتيح العلوم، تحقيق، إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي، ط٢، ص ٨٣؛ آدم متر، تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، ط٥، دار الكتاب العربي بيروت.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٣م.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، ت ٧٤٨هـ، العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت.
- زين الدين الهمداني، أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان الحازمي الهمداني، زين الدين، ت ٥٨٤هـ، الأماكن أو اتفق لفظه واقترب مسماه، تحقيق حمد بن محمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤١٥، ص ٧٣٦.
- السهمودي، علي بن عبد الله بن أحمد الحسني الشافعي، نور الدين أبو الحسن السهمودي، ت ٩١١هـ، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.
- السيرافي، أبو زيد حسن بن يزيد السيرافي، ت بعد ٣٣٠هـ، م رحلة السيرافي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٩م.
- صفي الدين الحنبلي، عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفي الدين، ٧٣٩هـ، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري ت ٣١٠هـ، تاريخ الرسل والملوك، دار التراث - بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.
- الفاسي، محمد بن أحمد بن علي تقي الدين، أبو الطيب المكي الحسني الفاسي، ت ٨٣٢هـ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ٢ / ١٩٨؛ ابن فهد، اتحاف الوري.
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود القزويني ت، ٦٨٢هـ، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر - بيروت.



- القفشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القفشندي ثم القاهري، ت ٨٢١هـ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت.
 - مجهول ت، بعد ٣٧٢هـ، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تحقيق وترجمة عن الفارسية السيد يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط ١٤٢٣ هـ.
 - المسبحي، محمد بن عبيد الله المسبحي، أخبار مصرفي سنتين ٤١٤ هـ / ٤١٥ هـ، تحقيق وليم ميلورد، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ١٩٨٠م.
 - المقدسي، محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، تحقيق، غازي طليمات، دمشق، ١٩٨٠ م.
 - المقرئزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقرئزي، ت ٨٤٥هـ، اتعاط الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخفاء، تحقيق جمال الدين الشبال، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ط ١.
 - المقرئزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقرئزي، ت ٨٤٥هـ، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية لبنان/بيروت، ط ١، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م.
 - المقرئزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر بيروت لبنان.
 - ناصر خسرو، أبو معين الدين ناصر خسرو الحكيم القبادياني المروزي، ت ٤٨١هـ، سفر نامه، تحقيق د. يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد - بيروت، ط ٣، ١٩٨٣.
 - اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م.
 - ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، ت: ٦٢٦هـ، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط ٢، ١٩٩٥ م.
 - اليعقوبي، أحمد بن إسحاق أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، ت بعد ٢٩٢هـ، ط ١ ١٤٢٢ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ثانياً: المراجع:**
- أحمد الزيلعي، مكة وعلاقتها الخارجية، (٣٠١ - ٤٨٧ هـ)، دار العربية للموسوعات، ٢٠٠٥ م.
 - أغناطيوس بوليانوفتش كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين الهاشم، مراجعة ايغور باليايف، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣ م، ص ١٢١.
 - أنطوان خليل، الدولة المملوكية، دار الحدائث للطباعة والنشر، ١٩٨٠ م.
 - أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، ط ١، ١٩٩٢م، دار المصرية اللبنانية.



- جورج فضلوا حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى، ترجمة السيد يعقوب بكر، القاهرة، مكتبة الأنجلوا المصرية، ١٩٥٨م.
- حمد الجاسر، بلاد ينبع، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض ١٩٦٦م.
- حمد الجاسر، بلاد ينبع، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٩٦٦م.
- صبحي عبد المنعم محمد، العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين، دار العربي للنشر والتوزيع، بدون ذكر السنة، القاهرة.
- عبد السلام بن محسن آل عيسى، دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية رضي الله عنه، الناشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- عبد الفتاح وهيبه، دراسات في جغرافية مصر التاريخية، ط١، ٢٠١٧م، بيت الجغرافية.
- عطية القوصي، تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، دار النهضة العربية القاهرة.
- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- غوستاف لويون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتز، مؤسسة هنداوي للنشر والثقافة القاهرة - مصر، ٢٠١٢م.
- محمد بن محمد حسن شُرَّاب، المعالم الأثرية في السنة والسيرة، دار القلم، الدار الشامية - دمشق - بيروت، ط١، ١٤١١هـ.
- محمد جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، ١٩٧٦م.
- محمد نصر عبد الرحمن، الوجود العربي في الهند في العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ٢٠١٤م.

ثالثاً: الدوريات:

- الزهراني، ضيف الله بن يحيى الجار ميناء ومدينة، القاهرة ندوة الحضارة الإسلامية وعالم البحار، اتحاد المؤرخين العرب، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- سعيد بن عبد الله القحطاني، ميناء الجار من العهد الراشدي إلى نهاية القرن الرابع الهجري من حيث الاستمرارية والتحول في النشاط التجاري، الجمعية التاريخية السعودية، العدد العاشر، مجلد ٢، ٢٠٠٧م.
- صالح العلي، مكيات الحجاز، في القرون الأولى، مجلة العرب الجزء ١١ السنة الثالثة، جمادى الأولى، عام ١٣٨٩هـ.
- يوسف السيد محمد، علاقات العرب التجارية بالهند منذ أقدم العصور إلى القرن الرابع الهجري، القاهرة، مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الأول، المجلد ١٥، ج١، ١٩٥٣م.

مؤذنو الحرم المكي

في العصرين الأيوبي والملوكي

(٥٦٧ - ٩٢٣ هـ / ١١٧١ - ١٥١٧ م)

أ.د. شلبي إبراهيم الجعيدى

أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة المنصورة

جمهورية مصر العربية

المؤذنون من الدعاة إلى الله المعلنين بدخول وقت الصلاة ، وهذه الوظيفة من أقدم الوظائف الدينية حيث شرعها الرسول صلى الله عليه وسلم فى السنة الأولى من الهجرة، وجعل للقائمين بها فضلا كبيرا، فجعلهم أطول الناس أعناقا يوم القيامة، ودعا لهم بالمغفرة، وكتب الله لهم بكل أذان ستون حسنة ولكل إقامة ثلاثون حسنة ، ويشهد الإنس والجن وكل شيء للمؤذن يوم القيامة. إذا كان هذا الفضل للمؤذن بصفة عامة، فما بالناس إذا كان المؤذنون يصدحون بصوت الحق فى بيت الله الحرام الذى فضلت الصلاة فيه عن مساجد الأرض ويقاعها ؛ فإنه شرف عظيم لمن يقوم بهذا العمل إذا ابتغى وجه الله . وتتبع أهمية عصر الدراسة كونه عصر سنى أتى بعد عصر شيعى فانعكس ذلك على نص الأذان. ويمكن معالجة هذا الموضوع فى النقاط التالية:

- الشروط الواجب توافرها فى المؤذن كحسن الهيئة، وطيب الصوت، ومعرفة المواقيت، وما كان يستلزم ذلك من اختبارات فى بعض الأوقات
- مهام المؤذن: الأذان: مكانه، صيغته، طريقة أداء المؤذنين.
- المهام الأخرى التى يقوم بها المؤذنون مثل أداء التسابيح، والتذكير، وقراءة القرآن، والدعاء للخليفة والأمير فى بداية كل شهر من الشهور العربية، وترقية الخطيب وتقليده السيف عند صعوده المنبر لأداء خطبة الجمعة، وحمل الراية، والقيام بوظيفة المسحراتى، وتلاوة مراسيم تولى الوظائف، والإعلان عن وفاة مشاهير الرجال .

- رئاسة المؤننين وتوريث الوظيفة .
- أجور المؤننين: مصادرها والعوامل التي تؤثر فيها.
- مكانة المؤننين العلمية من حيث العلوم التي درسوها، والإجازات التي حصلوا عليها.
- مذاهب المؤننين وجنسياتهم .
- ملابس المؤننين، وسكنهم ، والقاء الضوء على بيت المؤننين ، ومقابرهم في مكة
- ثم نرفد البحث بجدول نوضح فيه أسماء المؤننين التي وردت في المصادر التاريخية، وصفاتهم، وتاريخ وفاتهم ومكان دفنهم، وبعض الملاحظات الأخرى، ومحاولة رسم شجرة النسب لمعظم المؤننين للدلالة على توريث الوظيفة .

الشروط الواجب توافرها في المؤنن :

اشترط الرسول صلى الله عليه وسلم في الأذان السهولة والسماحة، حيث قال: "إن الأذان سهل سمح فإن كان أذناك سهلا سمحا وإلا فلا تؤنن" (١) . وقد وضعت عدة شروط للمؤننين من أهمها :

١. حسن الصوت والأداء، تكاد تجمع وثائق الوقف في العصر المملوكي على أن يكون المؤنن حسن الصوت (٢)، وفي تراجم المؤننين غالبا ما كان المؤلفون يوضحون توافر هذا الشرط فيهم (٣)، فيصفونهم بأوصاف تتل على ذلك كقولهم "عريض الصوت" (٤) "حسن

^١ القرطبي : تفسير القرطبي ، ج ٦ ، القاهرة ، دار الشعب ، ١٣٧٢ هـ ، ص ٢٣٠ .

الدار قطنى : سنن الدارقطنى : ج ٢ ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٦٦ ، ص ٨٦ .

^٢ محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٠ ، ص ١٩٠ . راشد سعد راشد القحطاني : أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين ، الرياض ، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٩٩٤ ، ص ٩٨ .

^٣ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ج ٥ ، ط ٢ ، تحقيق محمد عبد المعين خان ، حيدر أباد ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٧٢ ، ص ١٤٩ ، ١٩٩ . ابن حمزة الحسيني : نيل تنكرة الحفاظ ، ج ١ ، تحقيق حسام الدين القوسى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، د.ت ، ص ١٥ .

^٤ السخاوى: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ج٣، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، د.ت ص٢١١. والصوت العريض هو الذى يمكنه أن يغطى أعلى وأخفض درجات الصوت ، تبعا لفتحة الحنجرة وقوة دفع الهواء من البطن.

التأذين صيتاً" (٥)، "صوت طرى" (٦)، "على أذانه أنس" (٧)، "جلى الصوت" (٨) وهناك حالة وحيدة فى عصر الدراسة وصف صوت المؤذن فيها أنه "صوت مرضى" (٩) وقد يعود ذلك لكبر سنه .

٢. طول النفس ورقته، لأنه يترسل فى الأذان ويمد فيه قدر طاقته (١٠)

٣. معرفة الأوقات وتحريرها، اشترط بعض الفقهاء على المؤذن إتقان معرفة علم الميقات لتحقيق فن الهيئة وجهة القبلة (١١). ويبدو أن هذا الشرط كان مقصوراً على رؤساء المؤذنين فقط الذين يحددون وقت الأذان بدقة شديدة (١٢)،

وفى بعض الأحيان كان للمسجد مؤقت لتحديد وقت الصلاة وجهة القبلة ، وهى فى هذه الحالة وظيفة مستقلة غير وظيفة المؤذن . وقد اشتكى أحد الفقهاء من دخول بعض

^٥ السخاوى : الضوء اللامع، ج١، ص٣٤٧.

^٦ السخاوى : الضوء اللامع، ج١١، ص٩٣.

^٧ الدر الكمين، ص٢٨٥، ٤٢٦.

^٨ راشد القحطاني : أوقاف السلطان الأشرف ، ص ٩٨

^٩ السخاوى : الضوء اللامع، ج١١، ص٩٣.

^{١٠} روى أن عمر بن الخطاب قال لمؤذن بيت المقدس : " إذا أذنت فترسل وإذا أقممت فاحزم " ، يقال ترسل فى قراءته إذا أتاد فيها وتثبت فى طلاقه . أما الحزم فهو السرعة وقطع التطويل . الزمخشري : الفائق فى غريب الحديث ، ج٢، تحقيق على محمد البجاوى ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ٢ ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٧٨ ، ص ٥٦ .

^{١١} المقدسى: بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاية الأمور وسائر الرعية، مخطوط بمكتبة برلين، ورقة ٢٣

Berlin Preussischer Kulturbesitz , Orientabteilung , Zu staatsbibliothek

5618 . pet . 593

السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، بيروت ، دار الحداثة ، ١٩٨٣ ، ص ١١٥ .

^{١٢} الفاسى : العقد الثمين فى تاريخ البلاد الأمين ، ج٢، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٨ ، ص٢١٥. ابن فهد : الدر الكمين بذيل العقد الثمين فى تاريخ البلاد الأمين ، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش دت ، ص٧٥٧.



المنجمين والكهان فى هذه الوظيفة (١٣) . وقد ساعد على تحديد الوقت " المزولة " (١٤) الموجودة بصحن المسجد الحرام ، وكان يقال لها أيضا " ميزان الشمس " (١٥) .

٤. قوة الصوت ، فقد اشترط الفقهاء قدرة المؤذن على إبلاغ صوته لجمهور الناس فى أنحاء متفرقة (١٦) . وتضمنت الوثائق الصوت الجهورى فى المؤذن (١٧) ، وغالبا ما أوضح أصحاب التراجم للمؤذنين جهورية الصوت (١٨) .

وفى بعض الأحيان كان يعقد اختبار للمؤذنين حتى يتم التأكد من هذه الشروط ، وتتم المفاضلة بينهم ، فمن توافرت فيه الشروط تم اختياره (١٩) . وأوضح بعض الفقهاء أن المؤذن إذا خاف أن يمتحن على الأذان يتركه (٢٠) . ومن الوثائق ما تضيف شروطا أخرى للمؤذن مثل أن يكون " ذا عفة وأمانة وثقة وديانة " ، أو " حسن الهيئة " (٢١) .

ولم يكن شرط الإبصار لهذه الوظيفة ملزما ، إذ قام بها عدد من المكفوفين ، لم يمنعهم ذلك من صعود المنارات وأداء الأذان (٢٢) . ولم يشترط فى بعض الأحيان أيضا التفرغ التام للوظيفة ، إذ أن بعض المؤذنين كانوا يمتنون منها أخرى بجانب وظيفتهم (٢٣)

^{١٣} السبكي : معيد النعم ، ص ١١٥ .

^{١٤} آلة تعرف بها الساعات الشمسية بواسطة الظل المحنوف بشاخص على سطح ، ويقال أن الوزير جمال الدين المعروف بالوزير الجواد الأصفهاني ت ٥٥٩هـ / هو الذى وضع المزولة فى صحن المسجد الحرام . محمد طاهر الكردى المكى : التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ، مكة المكرمة ، مكتبة النهضة الحديثة ، ٢٠٠٠ ، ج ٥ ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

^{١٥} الفاسى : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، ج ١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٠ ، ص ٢٤٢ . والتوقيت فى المسجد الحرام وظيفة بيد آل الزبير المعروفين بـ " بيت الرئيس " ولقب الرئيس نسبة إلى رئاسة التوقيت . الأزرقى : أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٩٩ ، حاشية (٣) .

^{١٦} المقدسى : بذل النصائح ، ورقة ٢٣ . السبكي : معيد النعم ، ص ١١٥ .

^{١٧} محمد أمين : الأوقاف ، ص ١٩٠ .

^{١٨} ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٥١٨ . .

^{١٩} المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، د. ت . ص ٣٢٥ .

^{٢٠} أبو الحسين : طبقات الحنابلة ، ج ١ ، تحقيق محمد حامد الفقى ، بيروت ، دار المعرفة ، د. ت ، ص ١٧٦ .

^{٢١} محمد أمين : الأوقاف ، ص ١٩٠ .

^{٢٢} ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ١٩٩ .

^{٢٣} انظر أجور الموظفين .

مهام المؤذن :

الأذان : مكانه . صيغته . طريقة أدائه:

مكان الأذان :

كان المؤذنون فى المسجد الحرام يؤذنون على سطح المسجد دون حائل بينهم وبين أشعة الشمس أو سقوط المطر ، وأول من عمل مظلة للمؤذنين يؤذنون فيها عبد الله بن محمد بن عمران الطلى وهو أمير مكة فى خلافة أمير المؤمنين هارون الرشيد ، واستمرت هذه المظلة حتى عام ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م فغيرها عبد الله بن محمد بن داود وبناها بناء محكما، وجعلها بطاقات خمس (٢٤).

وكان الأذان يتم فى منارات المسجد الحرام المختلفة حتى يتمكن المؤذنون من تبليغ الأذان فى أنحاء مكة المشرفة (٢٥) .

وكان للمسجد الحرام فى العصر الأيوبى سبع منارات (٢٦) يؤذن المؤذنون فى ست منها فقط ، لأن إحداهن ضيقة لا يصعد عليها أحد ، وكانت تقع هذه المنارات فى زوايا المسجد ، أولها المنارة التى تلى باب بنى سهم تشرف على دار عمرو بن العاص ، وفيها يؤذن صاحب الوقت بمكة (٢٧) . ويقصد بصاحب الوقت رئيس المؤذنين (٢٨).

^{٢٤} الأزرقي : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، ج ٢ ، تحقيق رشدى الصالح ملحق ، بيروت ، دار الأندلس ، د. ت ، ص ٩٩ ، . الفاكهى : أخبار مكة فى قديم الدهر وحديثه ، ج ٢ ، ط ٢ ، تحقيق عبد الملك عبد الله دهيش ، بيروت ، دار خضر ، ١٤١٤ هـ ، ص ٢٠٥ . الفاسى : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، ج ١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٠ ، ص ٢٤٢ .

^{٢٥} ابن جبير : رحلة ابن جبير ، تحقيق محمد زينهم ، القاهرة ، دار المعارف ، ٢٠٠٠ ، ص ٩٦ . كان الأذان فى المسجد الحرام وحده ، فكان الناس تقوتهم الصلاة وخاصة فى المناطق النائية ، فأمر أحد الأمراء فى عهد هارون الرشيد أن يتخذ على رؤوس الجبال منارات يؤذن فيها للصلوات ، بعضها توقف عن الأذان ، وبقي البعض الآخر حتى العصر المملوكى . الفاسى : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٢٤١ .

^{٢٦} ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٠ .

^{٢٧} الفاكهى : أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ١٥٦ .

^{٢٨} الفاسى : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٢٤١ .



والمنارة الثانية تلى أحياد تشرف على الحزرة وسوق الخياطين^(٢٩)، وفيها يسحر المؤذن فى شهر رمضان . والمنارة الثالثة تشرف على دار ابن عباد ودار السفينيين ويقال لها منارة المكين^(٣٠) . والمنارة الرابعة بين المشرق والشام ، وهى مطلة على دار الإمارة^(٣١) . والمنارة الخامسة فى زيادة دار الندوة ، والسادسة على باب الصفا وهى أصغر المنارات ، ولا يصعد عليها أحد لضيقها . والمنارة السابعة على باب إبراهيم^(٣٢) .

وفى العصر المملوكى كان للمسجد الحرام خمس منائر يؤذن فيها فقط^(٣٣) ، منها أربعة فى أركانه ، وواحدة فى زيادة دار الندوة ، لذا رتبت وثيقة الأشرف شعبان بن حسين خمسة مؤذنين من جلى الصوت ، وحددت مكان عمل كل منهم بأربعة يعلنون بالأذان الشرعى فى المنارات التى بالحرم كل منهم فى منارة منها ، والخامس يعلن بالأذان على سطح زمزم^(٣٤) .

صيغة الأذان :

كان الأذان فى الحرم المكى فى العصر الفاطمى أذانا شيعيا ، يضاف " حى على خير العمل " بعد " حى على الفلاح " ، وعدم التنويب فى أذان الفجر^(٣٥) . كما كان يقوم

^{٢٩} سقطت هذه المنارة فى جمادى الأولى ١٣٧١هـ/١٣٧٠م ولما بلغ السلطان الأشرف شعبان ذلك أمر أمير الحاج المصرى علاء الدين على بن كلبك التركمانى أن يتخلف فى مكة المكرمة لعمارة المنذنة ، فأتم عمارتها فى المحرم ١٣٧٢هـ/١٣٧١م . الفاسى : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣١٨ .

^{٣٠} لعلها منارة باب السلام . الأزرقى : أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٩٨ ، حاشية (١) .

^{٣١} الفاكهى : أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ١٥٦ . ابن الضياء : تاريخ مكة المشرفة ، ج ١ ، ص ١٦٠ ، ١٥٩ .

^{٣٢} الفاسى : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

^{٣٣} لأن منارة باب الصفا لا يصعد عليها أحد لضيقها ، والمنارة التى كانت على باب إبراهيم هدمها أحد أمراء مكة لإشرافها على داره . الفاسى : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣١٨ .

^{٣٤} راشد القحطانى : أوقاف السلطان الأشرف ، ص ٩٨ .

^{٣٥} التنويب فى أذان الفجر أن يقول المؤذن الصلاة خير من النوم مرتين بعد الحيلتين ، أى حى على الصلاة وحى على الفلاح ، وفى حديث بلال " أمرنى رسول الله أن لا أتوب فى شيء من الصلاة إلا فى صلاة الفجر " الزمخشرى : الفائق فى غريب الحديث ، تحقيق على محمد البجاوى ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج ١ ، ط ٢ ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٧٨ ، ص ١٨١ . المناوى : التعاريف ، ج ١ ، تحقيق محمد رضوان الداية ، بيروت ، دار الفكر المعاصر ، ١٤١٠ ، ص ١٥٩ . ابن منظور : لسان العرب ، بيروت ، دار صادر ، دبت مادة توب .



المؤذنون بالسلام على الخليفة الفاطمي بعد أذان الفجر (٣٦) كقولهم " السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله " (٣٧) . وكذلك قولهم " أحيك الله يا مولانا حافظ نظام الدنيا والدين ، جامع شمل الإسلام والمسلمين ، وأعز بسلطانك جانب الموحدين ، وأباد بسيوفك كافة الملحدين ، وصلى عليك وعلى آباتك الطاهرين ، وأبنائك الأكرمين صلاة دائمة إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين " (٣٨).

وفى العصر الأيوبي نجد أن صلاح الدين الأيوبي كان حريصا على القضاء على أى معلم من معالم المذهب الشيعى الاسماعيلى فى مصر ، فألغى الأذان الشيعى وأقام الأذان السنى عام ٥٦٥هـ / ١١٦٩م أى قبل سقوط الخلافة الفاطمية بسنتين (٣٩)

أما فى مكة نجد أن صلاح الدين نهج نهجا مغايرا تجاه الأذان الشيعى ، وقد يرجع ذلك إلى أن نفوذه فى مكة كان فى مجمله نفوذا أدبيا (٤٠) . فرغم أن مكة خضعت لصلاح الدين بعد الحملة التى أرسلها إلى بلاد الحجاز بقيادة أخيه توران شاه عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٣م وأصبح يخطب لصلاح الدين بعد الخليفة العباسى (٤١) ، إلا أنه كان يوجد أذانان فى الحرم المكى أحدهما سنى لأئمة السنة الأربعة ، والآخر شيعى لإمام الزيدية ؛ لأن أشرف مكة على المذهب الزيدى (٤٢) ، ولم يتم إلغاء الأذان الشيعى إلا فى سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦م عندما أرسل صلاح الدين أخاه سيف الإسلام حاكما على اليمن ، فمر بمكة ومنع من الأذان

٣٦ المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٧١ .

٣٧ نفس المصدر والصفحة .

٣٨ ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبید وسيرتهم ، ج ١ ، تحقيق التهامى نقره ، عبد الحليم عويس ، القاهرة ، دار الصحوة ، ١٤٠١ هـ ، ص ٥٠ .

٣٩ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، بيروت ، مكتبة المعارف ، د.ت ، ص ٣٤٧ . المقرئى : اتعاض ، ج ٣ ، ص ٣١٧ .

٤٠ عبد المجيد أبو الفتوح : العلاقات المصرية الحجازية فى العصرين الفاطمى والأيوبي ، المنصورة ، مطبعة أورفو ، ١٩٧٧ ، ص ٩٥ .

٤١ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، بيروت ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٨٢ ، ص ٣٩٦ .

٤٢ ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٧ .

فى الحرم " حى على خير العمل " (٤٣). وذكر بدلا منها " الصلاة خير من النوم " فى أذان الفجر ، ثم أمر المؤذنين بالسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أذان الفجر فقط " فى كل ليلة بمصر والشام والحجاز " (٤٤) .

وفى العصر المملوكى يظهر لنا مما ذكره المقرئى أن الأذان الشيعى قد عاد مرة أخرى إلى الحرم المكى ، وعاد الإمام الزيدى يؤم المصلين فى الصلاة ، فقد أرسل الناصر محمد بن قلاون فى عام ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م إلى أمير مكة يطالبه بمنع الأذان بحى على خير العمل ، ولا يتقدم فى الحرم إمام زيدى ففعل ذلك (٤٥)

وفى عام ٧٦٠ هـ / ١٣٥٩م زيد فى الأذان بأمر المحتسب صلاح الدين عبد الله البرلسى ، الصلاة والسلام عليك يا رسول الله (٤٦)

وفى سلطنة الملك الظاهر برقوق حدثت زيادة أخرى فى صيغة الأذان ، إذ أمر محتسب القاهرة نجم الدين محمد الطنبدى عام ٧٩١ هـ / ١٣٨٩م المؤذنين أن يزيدوا فى كل أذان ما عدا أذان المغرب (وليس أذان الفجر فقط كما كان فى العصر الأيوبي) قولهم الصلاة والسلام عليك يا رسول الله ، بناء على زعم أحد المتصوفة أنه رأى الرسول صلى الله عليه وسلم فى المنام يأمره بذلك (٤٧). ويبدو أن هذه الزيادة لم تطبق فى الحرم المكى لإقرار

٤٣ أبو شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين، ج ٢ ، تحقيق إبراهيم الزبيق ، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧، ص ٧٤. ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٦، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، ١٩٦٣، ص ١٠٣.

٤٤ المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

٤٥ المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٧، ص ٩٤٠-٩٤١.

٤٦ المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ .

٤٧ سمع بعض المتصوفة سلام المؤذنين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة الجمعة، فقال أحدهم " أتحبون أن يكون هذا السلام فى كل أذان؟ قالوا: نعم. فبات تلك الليلة وأصبح متواجدا يزعم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه، وأنه أمره أن يذهب إلى المحتسب فيبلغه عنه أن يأمر المؤذنين بالسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل أذان، فمضى إلى محتسب القاهرة وهو يومئذ نجم الدين محمد الطنبدى ، وأوضح أن رسول الله يأمر أن تتقدم لسائر المؤذنين بأن يزيدوا فى كل أذان قولهم الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، كما يفعل فى ليالي الجمع، فأعجب المحتسب هذا القول، وجعل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأمر بعد وفاته إلا بما يوافق ما شرعه الله على لسانه فى حياته. المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ . ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ٨٥ .



المقریزی أن هذه البدعة استمرت إلى عهده " في جميع ديار مصر وبلاد الشام " (٤٨) دون الإشارة إلى بلاد الحجاز، إلا أن صاحب تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام أوضح أن ذلك استمر " في بلاد مصر والشام والحجاز ما عدا المغرب " (٤٩)

طريقة أداء الأذان :

اختلفت طريقة أداء أذان الفروض اليومية عن الأذان بين يدي الإمام يوم الجمعة ، ففي الأذان اليومي يبدأ المؤذن الزمزمي بالأذان أولاً ، ثم يتبعه المؤننون الآخرون يتناوبون الأذان على هيئة جوق كل جوقة ثلاثة أو أربعة مؤننين ، يختلف عدد الجوقة باختلاف أعداد المؤننين في المسجد . وطريقة الأذان في هذه الحالة أن يأتي كل واحد من المؤننين بأذان كامل ، ويبني على أذان نفسه ، فيبتدئ من حيث انتهى هو ، غير معتد بأذان غيره (٥٠) .

وفي صلاة الجمعة كان يقوم أحد المؤننين بترقية الخطيب ، والمرقى هو الذي يعلن عن ظهور الخطيب من خلوة الخطابة بالآية الكريمة " إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً " ، وعليه أيضاً رواية الحديث النبوي في معنى الإتيان " إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت " (٥١) .

وبعدما يلقى الخطيب السلام يرد الناس عليه ، ويبادر المؤننون بين يديه في المنبر بالأذان على لسان واحد. وفي أثناء الخطبة يمسك رجلان من المؤننين ريتين سوداوين في أول درجة من المنبر (٥٢). وإذا ما انتهت الخطبة ونزل الخطيب إلى الصلاة أخذ المؤذن السيف من يد الخطيب (٥٣).

٤٨ المقریزی : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ . ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٣٣١ .

٤٩ الغازي : تحصيل المرام ، ص ٣٩٦ .

٥٠ ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، ج ١ ، بيروت ، دار الشرق العربي ، دت ، ص ١٢٣ . محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٠ ، ص ١٨٩ .

٥١ صحيح البخاري ، كتاب الجمعة ، باب الإتيان يوم الجمعة ، حديث رقم ٩٠٦ . ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، ج ٣ ، ص ٤٧٠ . محمد أمين : الأوقاف ، ص ١٨٨ .

٥٢ ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٣ ، ٩٤ .

٥٣ ابن العمري : مسالك الأبصار ، ج ٣ ، ص ٤٧٠ .

كما كانوا يقومون بالتبليغ فى صلاة الجمعة من على سدة خصصت لهم (٥٤) ، فإذا كبر الإمام رفع المؤذنون أصواتهم خلفه بالتكبير حتى يسمع المصلون (٥٥) وبعد الانتهاء من الصلاة كانوا يقومون بختامها بقراءة سورة الإخلاص والمعونتين وبعض الأذكار ، والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتهليل والتسبيح والتكبير ، ويختتمون بالذكر والتأمين على الدعاء (٥٦).

كما كان يقوم المؤذنون بالتساييح (٥٧) والمدائح النبوية فى المنائر ليلا قبل الفجر فى بعض المناسبات مثل العشر الأخير من رمضان ، وليلة العيد ، وليلة هلال شهرى رجب وربيع الأول يدعون الله سبحانه وتعالى ويسبحونه ويطلبون منه العفو والغفران والرحمة والرضوان (٥٨) ويبدو أن الذكر والتساييح اعتاد المؤذنون بعد ذلك فعلها كل ليلة (٥٩)، إلى

^{٥٤} شفاء الغرام، ج٢، ص٤٧٩.

^{٥٥} المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨١ . ، المقرئى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، ج ٢ ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ١٩٩٩ ، ص ٩٨ .

^{٥٦} ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ٢ ، تحقيق محمد محمد أمين ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٢ ، ج ٢ ، ص ٤٠٩ . محمد أمين : الأوقاف ، ص ١٩٠ .

^{٥٧} ظهرت فكرة التساييح بمصر فى ولاية مسلمة بن مخلد ٤٧هـ / ٦٦٨م عندما سمع أصوات نواقيس الكنائس عالية ليلا ، فطلب من عريف المؤذنين ان يمدد فى الأذان من نصف الليل إلى قرب الفجر، حتى لا تضرب النواقيس وقت الأذان، واستمر ذلك فى العصر الطولونى ، ومن حينئذ اتخذ الناس قيام المؤذنين فى الليل على المآذن، وصار يعرف ذلك بالتسبيح. فلما ولي السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سلطنة مصر أمر المؤذنين أن يعلنوا فى وقت التسبيح على المآذن بالليل بذكر العقيدة التي تعرف بالمرشدة " وهى رسالة قصيرة فى علم التوحيد وأصول الدين من تأليف المهدي محمد بن تومرت الأشعرى مؤسس دولة الموحدين بالمغرب "، فواظب المؤذنون على نكرها فى كل ليلة بسائر جوامع مصر والقاهرة إلى العصر المملوكى . المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ .

^{٥٨} محمد ظاهر الكردي : التاريخ القويم ، ج ٦ ، ص ١٨٢ .

^{٥٩} الفاسى : العقد الثمين ، ج ٤ ص ٣٨٧.



أن قام تغرى برمش^(٦٠) عام ٨١٨هـ / ١٤١٦م بمنع المؤذنين من المدائح النبوية وغيرها فى المنائر ليلا بعد أن وافقه على ذلك جماعة من فقهاء مكة وعلماء القاهرة ، وغضب الناس من ذلك لاعتيادهم هذا الأمر فسعى بعض فقهاء مكة عند بعض الأمراء بعودة الأمور إلى حالتها الأولى فعاد المؤذنون ينشدون المدائح النبوية فى رجب عام ٨٢٠هـ / ١٤١٨م فى غيبة صاحب مكة الذى أنكر من أمر به ، إلا أن بعض المؤذنين ظلوا ينشدون المدائح النبوية فى غيبة تغرى برمش عن مكة^(٦١)

وقام المؤذنون فى الحرم المكى بوظيفة إعلانية ، فكان يفرض عليهم أحيانا الدعاء لأحد الأمراء إعلانا عن وجوده فى الحكم ، ففى عام ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م طلب الشريف حسن بن عجلان أمير مكة من السلطان المؤيد شيخ المحمودى سلطان مصر أن يتنازل عن الإمارة وتقويض إمارة مكة لولديه بركات وإبراهيم ، وجاءت موافقة السلطان عام ٨٢٤هـ / ١٤٢١م على أن تكون إمارة مكة للشريف حسن بن عجلان ولابنه بركات فقط ، ولم يسمح بها لإبراهيم ، فحصل خلاف بين الأخوين وخرج إبراهيم إلى اليمن ، ثم جاء ومعه عدد من الأشراف ودخل مكة ، " وألزموا المؤذن بالدعاء له " (٦٢). وكان هذا بمثابة إعلان للناس أنه شريك فى الإمارة مع والده وأخيه واستمر الأمر على ذلك حتى سنة ٨٢٦هـ / ١٤٢٣م إذ أمر الشريف حسن بن عجلان بترك الدعاء لابنه إبراهيم ، ولما توفى حسن بن عجلان تولى بركات إمارة مكة منفردا حتى عزله جقمق ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م وأسندها إلى أخيه

^{٦٠} تغرى برمش بن يوسف التركمانى الحنفى يلقب زين الدين ، ويكنى أبا المحاسن نزل القاهرة والحرمين كان ينم ابن عربى وأتباعه من المتصوفة كان له مكانة فى دولة الملك الظاهر وابنه الملك الناصر والملك المؤيد. توفى ٨٢٠هـ . ابن تغرى بردى : المنهل الصافى، ج٤ ، تحقيق محمد أمين، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ، دت ، ص٥٦ . الفاسى : العقد الثمين، ج٣ ، ص ٢٥٢-٢٥٣ .

^{٦١} ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج٩ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، د. ت ، ص ٢٣٣ . الفاسى : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٢٥٢

^{٦٢} الغازى: إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام ، ج٣، تحقيق عبد الملك بن عبد الله دهيش ، ص ٢٨٣ .



على بن حسن بن عجلان ، ثم عزله فى السنة التالية ، وعندما أتى الأمر السلطانى عام ١٤٤٣هـ / ١٤٤٣م بولاية أبو القاسم إمرة مكة عوضا عن بها ، " أمر الأمراء المؤذن أن يدعو له على زمزم كعادة أمراء مكة فدعى له " (٦٣)

كما كانوا يعلنون عن وفاة مشاهير الرجال وكبرائهم من على منارات الجوامع (٦٤) فعندما توفى الملك العادل فى شعبان ٧٨٠هـ / ١٣٧٩م صلى عليه بالحرم " بعد أن قال المؤذن على زمزم الصلاة على الملك العادل " (٦٥).

وفى أوقات السيول الجارفة . كما حدث بمكة عام ٨٠٢هـ / ١٣٩٩م وعام ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م . كان المؤذنون ينادون بالناس للصلاة فى بيوتهم للمشقة العظيمة فى المشى فى الطرقات إلى المسجد لأجل الوحل والطين ، وامتلاء المسجد بذلك أيضا (٦٦).

وكان هناك مهام يقوم بها المؤذن الزمزمى بمفرده باعتباره رئيس المؤذنين ، وفى صلاة الجمعة كان يسير أمام خطيب المسجد حتى يصل إلى المنبر، لابسا ثياب السواد (شعار العباسيين) وعلى عاتقه السيف يمسكه بيده دون تقلد له ، وعند صعود الخطيب فى أول درجة من درجات المنبر يقلده المؤذن الزمزمى السيف (٦٧) .

وإذا أهل شهر جديد ، اتجه أمير مكة إلى الحرم الشريف مع طلوع شمس اليوم الأول منه وصلى ركعتين، وقبّل الحجر الأسود، وشرع فى الطواف، صعد المؤذن الزمزمى قبة زمزم ، رافعا صوته بالدعاء قائلا : " صبح الله مولانا الأمير بسعادة دائمة ونعمة شاملة " ثم يهتفه بالشهر الجديد مرددا عددا من أبيات الشعر فى مدحه (٦٨) .

٦٣ الغازى : إفادة الأنام ، ج٣ ، ص ٣٠٤.

٦٤ ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج٣ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، د.ت ، ص ٨٥ .

٦٥ ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج١ ، ص ٣٩١. السخاوى : الضوء اللامع ، ج٢ ، ١٣٥ .

٦٦ الفاسى : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٢٦٨ ، ٣٢٣.

٦٧ ابن جببير : الرحلة ، ص ٩٣ .

٦٨ ابن جببير : الرحلة ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

كما كان يقوم المؤذن الزمزمي في العصر الأيوبي بالصعود على قبة زمزم إثر كل صلاة مغرب بالدعاء للخليفة العباسي ، ثم لأمير مكة ، ثم لصالح الدين ، ولسائر المسلمين والحجاج والمسافرين ، وترتفع أصوات الطائفين بالتأمين (٦٩) .

وفي عيد الفطر ، عندما يجلس الناس في الحرم الشريف استعدادا لصلاة العيد، يكبر المؤذنون ويهللون (٧٠)، ثم يصعد المؤذن الزمزمي فوق سطح قبة زمزم ، وعندما يصل أمير مكة للصلاة، يرفع المؤذن صوته بالثناء عليه والدعاء له (٧١). ويفعل المؤذن ذلك في السبعة أشواط (٧٢) .

ومن بين المهام أيضا وظيفة "المسحراتي" في شهر رمضان، فقد كان المؤذن الزمزمي إذا جاء وقت السحور يصعد إلى المنارة التي بالركن الشرقي من الحرم ويذكر الناس ويدعوهم إلى السحور فقد كان وحده المنوط بهذا العمل، أما في العصر المملوكي فأصبح كل المؤذنين في المنائر الخمس يسحرون الناس في شهر رمضان، يبدأ المؤذن الزمزمي ثم يتبعه المؤذنون في سائر المنارات، فإذا تكلم أحد منهم أجابه صاحبه (٧٣). كما كان يتجمع بعض المؤذنين تحت منارة المسجد، فإذا ما سمعوا الدعاء إلى السحور يتفرقون في فجاج مكة يؤذنون الناس بالسحور ويصيحون "السحور رحمكم الله ، اشربوا رحمكم الله " (٧٤). فإذا قرب الفجر أعلنوا الناس بالقطع مرة بعد مرة ، وقام المؤذن الزمزمي بإنزال القناديل المرفوعة على المنارة ليعلم من بعدت داره ولا يسمع الأذان وقت الإمساك ، وابتدأ المؤذنون بالأذان واحدا تلو الآخر في أعلى كل المنارات (٧٥).

٦٩ ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

٧٠ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ج١، تحقيق غازي طليمات، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٨٠، ص ١١١ .

٧١ ابن بطوطة : تحفة النظار ، ج١، ص ١٢٣ .

٧٢ ابن بطوطة : تحفة النظار ، ج١ ، ص ١٢٧ ، الغازي : إفادة الأنام ، ج٢ ، ص ٥١٣ .

٧٣ ابن بطوطة : اتحفة النظار ، ج١، ص١٢٦-١٢٧ . الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٢٤١ .

٧٤ الفاكهي : أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ١٥٦ .

٧٥ ابن جبير : الرحلة ص١٢٩ . ابن بطوطة : تحفة النظار ، ج١، ص ١٢٧ . وبعض المؤذنين كانوا يعتلون جبال مكة يسحرون الناس ويؤذنون في الجبل الذي يسحرون عليه حتى يسمع الأذان والسحور والإمساك عن الطعام القاطنون أطراف المدينة المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ١١٢ . الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٢٤١ .

رئاسة المؤننين :

رغم أن الحرم المديني تعدد رؤساء المؤننين فيه^(٧٦)، إلا أن ابن جبير لم يوضح أن الحرم المكي كان فيه عدد من رؤساء المؤننين ، وإنما أوضح أن رئاسة المؤننين فيه للمؤنن الزمزمي الذي كان يؤذن على قبة زمزم لأنه "أول المؤننين أذانا، به يقتدون وله يتبعون"^(٧٧). ومن خلال دراسة تراجم رؤساء المؤننين في الحرم المكي يتضح لنا أنهم كانوا يتميزون عن غيرهم من المؤننين ، بمعرفة علم الميقات ، ولهم دراية بالفلك وعلم الهيئة^(٧٨) ، وأنهم كانوا من فقهاء عصرهم يسمعون من كبار العلماء في أنحاء متفرقة من العالم الإسلامي^(٧٩)، ويسمع عنهم غيرهم في الحديث والفقہ والتاريخ^(٨٠) ، وأن بعضهم صنف كتباً^(٨١).

وعلى الرغم من أن ابن جبير لم يوضح وراثية رئاسة المؤننين في الحرم المكي في العصر الأيوبي، إلا أنه أورد نصاً يستنتج منه تخصص بعض البيوت في الأذان، ففي أول يوم من شهر جمادى الأولى اعلى قبة زمزم صبي في الحادية عشرة من عمره . هو أخو المؤنن الزمزمي رافعا صوته بالدعاء للأمير . ومن خلال وصفه لهذا الصبي من حسن أدائه وصوته الجميل، وحسن الكلام الذي يورده نثرا ونظما^(٨٢)، يتضح لنا أن أسر المؤننين كانوا يديرون أبنائهم على الأذان والدعاء خاصة إذا كانوا قد ورثوا موهبة حسن الصوت وقوته . وفي شهر رمضان يقوم المؤنن الزمزمي داعيا الناس للسحور ومعه أخوان صغيران يجاوبانه^(٨٣).

^{٧٦} لمزيد من التفصيل انظر السخاوي : التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ، ج١ بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٣ ، ص ٢٧ ، ٢٨٥ .

^{٧٧} ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٣ ، ٩٤ .

^{٧٨} انظر الجدول المرفق ، محمد أمين : الأوقاف ، ص ١٩١ .

^{٧٩} ابن حمزة : ذيل تنكرة الحفاظ ، ج ١ ، ص ١٤٣ .

^{٨٠} نفس المصدر ، ص ١١٠ . ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

^{٨١} ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ج ٦ ، ص ٤٣ .

^{٨٢} ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

^{٨٣} ابن جبير : الرحلة ، ص ١٢٩ .

ويتضح من خلال ما أورثته المصادر المملوكية أن رئاسة المؤننين في الحرم المكي كانت وراثية ، يتولاها الأبناء بعد وفاة الآباء أو تكون رئاسة مشتركة بين أحيان أو مشتركة بين والد وولده ، وأوضح مثال على ذلك أسرة الكازروني المكي التي كانت لهم رئاسة المؤننين فترة زمنية طويلة في العصرين الأيوبي والمملوكي ^(٨٤) فعبد الله بن علي بن عبد الله بن علي بن محمد بن عبد السلام الكازروني المعروف ببهاء الدين كان رئيسا للمؤننين في الحرم المكي ، وعندما غاب باشر الرئاسة أخوه محمد بن علي ت ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م ثم عاد عبد الله إلى الرئاسة وظل بها إلى أن توفي ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م ، ثم تولاها من أبناء عمومته محمد بن الحسين بن عبد المؤمن ت ٨٢٦هـ / ١٤٢٢م ، ثم تولاها من بعده ابنه عبد اللطيف بن محمد بن الحسين ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م ، ثم عادت رئاسة المؤننين إلى أسرة بهاء الدين فتولاها محمد بن أبي الخير محمد بن علي بن عبد الله بن علي بن محمد بن عبد السلام الذي ظل شاغلا لهذه الوظيفة ما يقرب من ثلاثين عاما إلى أن توفي ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م ، فأصبحت رئاسة المؤننين مشاركة بين ولديه عبد السلام بن محمد بن أبي الخير ، وأخيه محمد بن محمد بن أبي الخير والذي يعرف بابن أبي الخير ، وبعد وفاة عبد السلام ٨٦٥هـ / ١٤٦٠م ، وقيل ٨٦٨هـ / ١٤٦٣م، أصبحت رئاسة المؤننين مشاركة بين محمد بن محمد بن أبي الخير وبين ابنه أبو عبد الله ^(٨٥).

كما كانت رئاسة المؤننين في ذرية الشيخ علي بن محمد بن داود البيضاوي الذين غلب عليهم لقب " بيت الرئيس " لأن رئاسة المؤننين عندهم فلا يؤذن في المنارات حتى يسمعون أذان الرئيس في قبة زمزم ^(٨٦).

^{٨٤} انظر الجدول المرفق .

^{٨٥} انظر جدول رئاسة المؤننين .

^{٨٦} السخاوي : الضوء اللامع ، ج٢ ، ص ٣٠٢ ، ج٣ ، ص ٢١١ . ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر ، ج٨ ، ط ٢ ، تحقيق محمد عبد المعين خان ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٦م ، ص ٣٦٠ . ابن العماد الحنبلي : شذرات ، ج٩ ، ص ٣٢٩ . الغازي : إفادة الأنام ، ج٦ ، ص ٣٥٧ .

مذاهب المؤننين :

رغم أن المصادر التاريخية لم توضح لنا بشكل مفصل مذاهب المؤننين الفقهية إلا أنه من خلال وصف ابن بطوطة لصلاة الجماعة في الحرم المكي يتضح لنا تعدد مذاهبهم ، فبعد الفراغ من الأذان لم يكن كل الناس تصلى في جماعة واحدة ، وإنما كان يصلى إمام الشافعية أولاً لأنه المقدم من قبل أولى الأمر ، ومعظم أهل مكة شافعية^(٨٧) ، فإذا ما انتهى من صلاته صلى بعده إمام المالكية وإمام الحنبلية في وقت واحد كل في مكان ، ثم يصلى إمام الحنفية . وأما صلاة المغرب فإنهم يصلونها في وقت واحد كل إمام يصلى بطائفته ، فتختلط أصوات المؤننين الذين يبلغون ، لذا فكل مصل كان يصغى إلى صوت المؤنن الذي يسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو^(٨٨) . وليس معنى ذلك أن المؤننين الذين يرفعون الأذان على المنائر يمثلون المذاهب المختلفة في مكة ، وإنما المؤنن الذي يبلغ طائفته أثناء الصلاة يكون على مذهب طائفته ، أي أن الذي يبلغ في الصلاة وراء الإمام المالكي يكون مالكياً ، والذي يبلغ وراء الإمام الزيدي يكون زيدياً .

ويمكن القول أن معظم مؤنني الحرم المكي كانوا على المذهب الشافعي ، لأنه الأكثر اتباعاً في مكة المكرمة . وأقلهم أصحاب مذهب الإمام مالك^(٨٩) . هذا بالإضافة إلى أحد المؤننين على المذهب الزيدي لوجود إمام خاص بهم ولترديد الأذان الشيعي في فترات قصيرة من عصر الدراسة^(٩٠) .

^{٨٧} كان يصلى الشافعية خلف مقام إبراهيم ، والمالكية يصلون في محراب قبالة الركن اليماني ، ويصلى إمام الحنبلية معه في وقت واحد مقابلاً ما بين الحجر الأسود والركن اليماني ، ثم يصلى إمام الحنفية قبالة الميزاب . ابن بطوطة : تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٢٢ .

^{٨٨} ابن بطوطة : تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٢٢ .

^{٨٩} ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٨ .

^{٩٠} ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٧ .

وانتسب بعض المؤننين إلى الصوفية فعبد السلام بن أبي المعالي بن أبي الخير كان من شيوخها المعترين^(٩١)، وكان منهم أيضا أحمد بن عبد السلام بن عبد الله بن علي الذي سافر إلى القاهرة " لعمل مصالح صوفية سعيد السعداء لكونه منهم "^(٩٢)

أما بالنسبة لأصول المؤننين وأقطارهم ، فلم تعرف هذه الوظيفة الحدود الجغرافية فقد عمل بها مكيون^(٩٣)، ومصريون مثل أسرة الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن أبي الفتح العمرى المصرى ت ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م ، وابنه أحمد ت ٧٨٣هـ / ١٣٨١م الذين كانوا يؤننون بمئذنة دار الندوة^(٩٤)، وكذلك يوسف الدباغ المصرى ت ٨٢٩هـ / ١٤٢٥م^(٩٥)، ومحمد المصرى الشهير بابن الزيات ت ٨٦٩هـ / ١٤٦٤م الذى كان يؤذن بباب السلام^(٩٦)، وأسرة البيضاوى الفارسية^(٩٧)، وبعض المؤننين كانوا من أصل مغربى مثل سليمان بن أبى السعود بن عمر المغربى كان يؤذن بباب العمرة ت ٨٥٩هـ / ١٤٥٤م^(٩٨)، وآخرين من أصل يمنى مثل محمد بن عمر بن علي السحولى اليمنى ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م^(٩٩).

٩١ الفاسى : العقد الثمين ، ج٥ ، ص٧٤.

٩٢ السخاوى : الضوء اللامع ، ج١ ، ص٣٤٧.

٩٣ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج٨ ، ص٣٥ . الفاسى : العقد الثمين ، ج٢ ، ص١٦٥ . ابن فهد : الدر الكمين ، ص ٤٧١ ، ٥٣٩ . السخاوى : الضوء اللامع ، ج٣ ، ص٢٦٤.

٩٤ ابن فهد : الدر الكمين ، ص٥٣٩ .

٩٥ السخاوى : الضوء اللامع ، ج١ ، ص٣٤٧.

٩٦ السخاوى : الضوء اللامع ، ج١١ ، ص٢٥٠ . ابن فهد : الدر الكمين ، ص٢٦٤ .

٩٧ تنسب إلى بيضا قرية من قرى شيراز . الغازى : إفادة الأتنام ، ج٦ ، ص٣٥٧ .

٩٨ ابن فهد : الدر الكمين ، ص٧٥٦ . السخاوى : الضوء اللامع ، ج٣ ، ص٣٤٧ .

٩٩ ابن العماد : شذرات ، ج٩ ، ص١٠٨ .

أجور المؤننين (١٠٠):

كان لمؤننى المسجد الحرام جامكية (١٠١) تصل من مصر مع ما يصل للأئمة والخطباء وأرباب الوظائف بالحرم المكي (١٠٢). ولم تشر معظم المصادر التى تناولت فترة الدراسة إلى مقدارها المحدد ، إلا أن وثيقة أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين الشريفين ٧٧٧هـ / ١٣٧٦م أوضحت ما كان يتقاضاه مؤننو المسجد الحرام من مبالغ نقدية بلغت للمؤنن الواحد أربعمئة درهم نقرة سنويا بمعدل ثلاثة وثلاثين درهما وتلت الدرهم شهريا (١٠٣)، وهذا الأجر يزيد عما كان يتقاضاه المؤنن فى خانقاه ومدرسة برقوق بالقاهرة عام ٧٨٨هـ/١٣٨٧م الذى كان يحصل على خمسة عشر درهما شهريا (١٠٤) وفى نص نادر فى الدر الكمين نجد أن المؤلف يشير إلى أن محمد المصرى الشهير بالزيات ت ٨٧٧هـ المؤنن بباب السلام " قرر له على الأذان مائة فى الذخيرة (١٠٥)، ولما

^{١٠٠} يقال أن أول من رتب للمؤننين أجورا هو عثمان بن عفان . السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ج١، القاهرة ،

مطبعة السعادة ، ١٩٥٢ ، ص ٢٣ . المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٧٠

^{١٠١} الجامكية هى المرتب الشهرى الذى يصرف لأرباب الوظائف . ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ، لندن ، ١٩٣٨ ، ص ٢٠١ .

^{١٠٢} ناصر خسرو : سفرنامه ، ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٣ ، ص ١٢٥ . الفاسى : شفاء الغلام ، ج ١ ، ص ٢٤١ .

^{١٠٣} راشد سعد راشد القحطانى : أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص ٩٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ . أشارت وثيقة الوقف أيضا إلى أن مؤننى الجبال المحيطة بمكة كان يتقاضى المؤنن منهم مائة وعشرين درهما سنويا ، بمعدل عشرة دراهم شهريا . نفس الوثيقة ، ص ٩٨ ، ٢٣٧ . ومما يذكر أن مؤننى الجبال بمكة عندما قطعت عنهم أرزاقهم ترك عدد منهم الأذان على المنارات التى أنشئت على رؤوس الجبال . الفاسى : شفاء الغلام ، ج ١ ، ص ٢٤١

^{١٠٤} Fernandes ; The evolution of Asufi institution in Mamluk Egypt, the Khanqah, Berlin, 1988, p.74.

^{١٠٥} الذخيرة هى ممتلكات السلطان من المنقولات العامة . ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ج ١٠ ، ص ٥٨



ولى السلطان الأشرف إينال ٨٥٧-٨٦٥هـ صارت الذخيرة على النصف فهي الآن خمسون " (١٠٦) أى أنه حصل على مائة درهم نفرة، ثم خفضت إلى النصف لقلّة الممتلكات السلطانية.

وجدير بالذكر أن المؤننين لم يحصلوا على أجر أو معلوم موحد ، فجمال الدين بن أحمد الكازرونى رئيس المؤننين نزل عن وظيفته قبل سفره إلى بلاد الهند لولده عبد اللطيف ، وبعد عودته تولى الوظيفة بأمر من القاهرة " بمعلوم زائد عن معلوم ولده وإخوته " (١٠٧) ، وعبد اللطيف بن محمد بن حسين بن عبد المؤمن تولى رئاسة المؤننين بعد وفاة من سبقه " ببعض معلومه " (١٠٨) وليس معلومه كاملا.

وفى حالة أن يكون للمؤنن نصف أذان، أى أنه يشارك غيره فى الأذان على مئنة واحدة، فإنه يحصل على نصف أجر (١٠٩)، فسلیمان بن أبى السعود بن عمر المغربى "ولى نصف الأذان بمئنة باب العمرة " أى أنه كان يتتابوا الأذان مع آخر على مئنة واحدة (١١٠).

ولم تقتصر هذه الجامكية على مبالغ نقدية يحصل عليها المؤننون شهريا فقط ، بل كانوا يحصلون على مواد غذائية عينية ، فقد اشتملت الجامكيات على مقادير من القمح كانت ترسل من مصر لأرباب الوظائف فى الحرمين والمجاورين (١١١) . كما حصلوا على ملابس وكساوى كانت توزع عليهم مثلما يوزع على أهل الحرمين الشريفين (١١٢) .

١٠٦ ابن فهد : الدر الكمين بنيل العقد الثمين ، ص ٤٢٦ .

١٠٧ الفاسى : العقد الثمين ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

١٠٨ السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٣٣٤ .

١٠٩ السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٢٦٤ ، ج ١١ ، ص ١٠٦ .

١١٠ السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٢٦٤ . ابن فهد : الدر الكمين ، ص ٧٥٦ .

١١١ المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ . القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج ٧ ، القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، د. ت ، ص ١٠٩ - ١١٠ . ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٩٢ ، ٢٩٩ .

١١٢ المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٨١ .

كما استفاد المؤننون من الأوقاف التي رصدت للحرم المكي بصورة عامة ، والأوقاف التي رصدت لهم بصورة خاصة ، فقد قام أحمد البونى المغربى (١١٣) المتوفى ١٤٦٠هـ/١٤٦٠م بوقف جزء من ممتلكاته على المؤننين والزمزمة (١١٤) إلا أننا لا نعرف مقدار هذا الوقف ، أو ما يخص المؤننين منه .

وقد كان للمؤننين نصيب من الصدقات التي يوزعها السلاطين والأمراء وحجاج بيت الله الحرام ، وبذلك تكون هذه الصدقات روافد جديدة لدخول المؤننين ، فقد أنفق الأمير بكتمر الجوكندار الذي تولى إمرة الحج المصرى عام ١٣٠٠هـ/١٣٠٠م ثمانين ألف دينار ، وأنفق الناصر محمد بن قلاوون بمكة عشرين ألف دينار (١١٥). وفى عام ٩١٣هـ/١٥٠٧م قدم ناظر الخاص إلى مكة ووزع صدقة ، وحصل كل مؤنن على دينار أشرفى (١١٦)

ولكى تزداد دخول بعض مؤننى الحرم المكى ، جمع بعضهم بين وظيفة الأذان وبعض الوظائف الأخرى داخل الحرم أو خارجه ، فمن خلال وثيقة وقف الأشرف شعبان على الحرمين اتضح أن الفقيه حسين بن يوسف جمع بين وظيفة المادح (١١٧) فى الحرم المكى وكان يتقاضى عنها ٣٦٠ درهما سنويا ، بالإضافة إلى وظيفة المؤنن التي كان يتقاضى

١١٣ هو أحمد بن أحمد بن محمد البونى المغربى الأصل المكى ، كان على علاقة وطيدة بأمرء مكة وكان له دورا ومزارع كثيرة . ابن فهد : الدر الكمين ، ص ٤٣٤ .

١١٤ ابن فهد : الدر الكمين ، ص ٤٣٤ .

١١٥ أحمد هاشم : أوقاف الحرمين الشريفين فى العصر المملوكى ، رسالة دكتوراة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى ، ٢٠٠١م ، ص ٢٧٨ .

١١٦ أحمد هاشم أحمد بدرشيني : أوقاف الحرمين ، ص ٢٢٩ .

١١٧ كانت وظيفة المادح قراءة مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم من القصائد المشهورة بعد صلاة العصر يوم الاثنين والخميس والجمعة من كل أسبوع ، ويختم بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم ، ثم يدعو للسلطان ولوالديه ولزريته ولجميع المسلمين . محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية ، ص ١٩٢ . راشد القحطانى : أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص ٩٨

عنها ٤٠٠ درهما سنويا^(١١٨). أى أن راتبه بلغ فى العام ٧٦٠ درهما بما يعادل ثلاثة وستون درهما وثلاث درهم شهريا .

وجمع سليمان بن أبى السعود بن عمر بن على الريحى المغربى بين الأذان وأن يكون فراشا بالمسجد الحرام^(١١٩). وأحمد بن سالم بن ياقوت المكى ت ١٣٧٦/هـ/١٧٧٨م كان مؤننا وقائما بخدمة بئر زمزم^(١٢٠) ، أما عبد الله بن على بن عبد الله بن على بن محمد الكازرونى^(١٢١) فبالإضافة كونه رئيسا للمؤننين بمكة ناب أيضا فى الحسبة ، واستتيب فى القضاء وباشره حتى وفاته ٨٠٨ هـ ، ولم يكتف بذلك بل اشتغل بالتجارة وجمع منها ثروة كبيرة^(١٢٢) ، وكان يوسف الدباغ المصرى يؤدب الأبناء بمكة إلى جانب عمله مؤننا^(١٢٣). وبعض المؤننين تركوا وظيفة الأذان وسافروا خارج مكة طلبا للرزق^(١٢٤)

وقد تأثرت أجور المؤننين فى الحرم المكى ببعض الأحداث السياسية التى دارت فى البلاد التى كانت ترسل إلى بلاد الحجاز المؤننة ، ففى أثناء النزاع بين الملك العادل والأفضل الأيوبي ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م ، قام الأفضل بقطع الأحباس عن مكة والمدينة ليعطى رواتب للجند ، فتأثر بذلك الفقهاء وأرباب العمائم ومن بينهم المؤننون^(١٢٥) .

^{١١٨} راشد القحطاني : أوقاف السلطان الأشرف شعبان ، ص ٩٨ .

^{١١٩} ابن فهد : الدر الكمين ، ص ٧٥٦ . يفضل أيضا الرجوع إلى الضوء اللامع . ومعرفة أجر الفراش فى وقف الأشرف

^{١٢٠} ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١، ص١٣٥ . الغازى : إفادة الأنام ، ج٦، ص٣٥٧ . معرفة أجر القائم بخدمة البئر فى وقف الأشرف

^{١٢١} انظر الجدول

^{١٢٢} الفاسى : العقد الثمين ، ج٤، ص٣٨٧ . معرفة أجر نائب المحتسب أو نائب القاضى فى الوقفية

^{١٢٣} السخاوى : الضوء اللامع ، ج١٠، ص٣٤٠ .

^{١٢٤} مثل عبد اللطيف بن محمد بن حسين الكازرونى الذى سافر إلى سواكن . الفاسى : العقد الثمين ، ج٥ ، ص١١٣ .

^{١٢٥} المقرئى : السلوك ، ج١ ، ق ١ ، ص ١٥١ .

كما تأثرت أيضا أجور المؤننين وغيرهم من أرباب الوظائف فى الحرمين الشريفين بالأحوال الاقتصادية فى البلاد التى رصدت أوقافا لهما ، خاصة وأن عددا كبيرا من الأوقاف على الحرمين الشريفين كان مصدر تمويلها الأساسى من أراض زراعية (١٢٦) ، وعندما تحدث أزمة اقتصادية فى تلك البلاد أو ينخفض إنتاج هذه الأراضى ، فمن المتوقع أن ينخفض مصدر التمويل ، مما يعود بآثار سلبية على أرباب الجوامك . ومن بينهم المؤننين . المستفيدين من الوقف (١٢٧).

كما تأثرت أجور المؤننين بالآزمات الاقتصادية والأوبئة التى تعرضت لها مكة وتضاعلت القوة الشرائية لرواتبهم (١٢٨) . مما دعا بعض سلاطين مصر بزيادة مقادير القمح التى ترسل إليهم لتخفيف العبء عن كاهل المجاورين وأرباب الوظائف بسبب القحط الذى أصابهم " فحلت ربقة الجذب وفكّتها ، وجلّت هبوة القحط وكفّتها وهونت مصاعب المساعب " (١٢٩) ، إلا أن ذلك لم يكن سياسة ثابتة يتبعها كل السلاطين .

مكانة المؤننين العلمية :

لم يمتلك المؤننون حسن الصوت وجهوريته فقط ، بل نالوا مكانة علمية فى المجتمع المكى ، ساعدهم على ذلك البيئة العلمية المحيطة بهم فنهلوا من مختلف العلوم التى تدرس فى المسجد الحرام ، فحفظوا القرآن الكريم (١٣٠) ودرس عدد كبير منهم علم الحديث ، فعبد

١٢٦ ابن حبيب : تنكرة النبيه ، ج ٢ ، ص ٣٨٠ . ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٦٦ ، ٢٧٨ .

محمد أمين : الأوقاف ، ص ٦٠ ، ٦١ .

١٢٧ الفاسى : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٧١ .

١٢٨ لمزيد من التفصيل عن المجاعات والأوبئة التى تعرضت لها مكة . انظر الفاسى : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٧٠-٢٧٢ .

١٢٩ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٧٨ . القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ١٠٩-١١٠ .

١٣٠ السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٢٠٦ .



الله بن على بن محمد بن عبد السلام الكازرونى درس صحيح البخارى (١٣١) ، وسمع كل من على بن عبد المؤمن بن محمد بن ذاكراً (١٣٢) ومحمد بن عبد السلام أبى المعالى بن أبى الخير جامع الترمذى (١٣٣) ودرس إسماعيل بن على بن محمد بن داود مسند الإمام أحمد (١٣٤). وهم فى كل هذه الحالات يحصلون على إجازات ممن تعلموا منهم ، ويقومون بشرح ما تخصصوا فيه ، وتعلم غالب فقهاء مكة وفضلائها على أيديهم (١٣٥) من بينهم صاحب العقد الثمين (١٣٦) وصاحب الدر الكمين (١٣٧) كما تخصص بعضهم فى الفقه المالكى فقاموا بدراسة الموطأ للإمام مالك وحدثوا بذلك (١٣٨).

واشتغل بعض المؤننين بالفلك مثل عبد اللطيف بن محمد بن عبد الله بن على بن محمد بن عبد السلام (١٣٩) وكان للبعض الآخر أشعار يعتد بها (١٤٠) أما سكنى المؤننين ، فلا تلنا المصادر التى بين يدي الباحث على مقر إقامتهم هل فى داخل الحرم أم لهم بيوت خارج الحرم المكى إلا أن صاحب العقد الثمين أوضح أن الأمير زين الدين قرامرز الأفرزى الفارسى قد أوقف بيتا عام ٦١٧هـ / ١٢٢٠م أطلق عليه

-
- ١٣١ بامخرمة : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر ، ج٦ ، جدة ، دار المنهاج ، ٢٠٠٨ ،
ج٦ ، ص ٢٥٩ . الفاسى : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٣٨٨ .
- ١٣٢ الفاسى : العقد الثمين ، ج٥ ، ص ٢٧٩ .
- ١٣٣ الفاسى : العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٢٥٠ .
- ١٣٤ السخاوى : الضوء اللامع ، ج٢ ، ص ٣٠٢ .
- ١٣٥ السخاوى : الضوء اللامع ، ج٣ ، ص ٢٦٤ ، ج١٠ ، ص ٣٤٠ . الفاسى : العقد الثمين ، ج٢ ، ص ١٦٥ .
- ١٣٦ الفاسى : العقد الثمين ، ج٢ ، ص ١٦٥ .
- ١٣٧ ابن فهد : الدر الكمين ، ص ٢٨٥ .
- ١٣٨ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٥ ، ص ٤٥١ . بامخرمة : قلادة النحر ، ج٦ ، ص ٢٩٦ .
- ١٣٩ الفاسى : العقد الثمين ، ج٥ ، ص ١١٣ .
- ١٤٠ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج٨ ، ص ٣٦٠ . ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، ج٩ ، ص ٣٢٩ .

بيت المؤننين بسوق الليل على الصوفية الغرباء^(١٤١) ولا نعلم إذا كانت هذه الدار مخصصة لسكنى المؤننين أم لا .

ونال المؤننون كغيرهم من أرباب الوظائف فى الحرم المكى والمجاورين رعاية صحية من خلال البيمارستانات التى أنشئت لهذا الغرض، وتم رصد الكثير من الأوقاف عليها ، فقد أنشأ الخليفة العباسى المستنصر بيمارستانا فى الجانب الشمالى من المسجد الحرام عام ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م لعلاج أهل مكة والمجاورين بالحرم^(١٤٢).

وخصص للمؤننين تربة يدفنون بها يطلق عليها "تربة المؤننين " وهى معروفة بالمعلاة كان يكتب تاريخ وفاة المؤنن على حجر على القبر^(١٤٣)

ملابس المؤننين :

كانت ملابس خطباء المساجد والمؤننين بصفة عامة فى العصر الفاطمى تتكون من الجبة والبردة والطيلسان، ولذلك كان يطلق عليهم لقب "أرباب الطيلاس"^(١٤٤)، وتكون ملابس المؤننين بيضاء اللون، والعمائم خضراء اللون ، لأن الفاطميين ألغوا اللون الأسود شعار الدولة العباسية من جميع مظاهر الحياة الرسمية ، واعتبروا اللون الأسود لون شؤم^(١٤٥).
أما فى العصرين الأيوبرى والمملوكى، فقد اختلفت ألوان ملابس المؤننين، فقد كان يرسل إلى أئمة الحرمين الشريفين والمؤننين كساء سنويا، عبارة عن ثوب أسود مرسوما

^{١٤١} الفاسى : العقد الثمين ، ج١، ص ٢٨٢، ٢٨٤ . ابن فهد : الدر الكمين ، ص ١١٧٧ .

^{١٤٢} أحمد هاشم : أوقاف الحرمين ، ص ١٦ .

^{١٤٣} الفاسى : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٣٨٨ .

^{١٤٤} عبد المنعم سلطان : المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٥ ، ص ٢٨١ . الطيلسان هو أقرب الأرياء شيها بالطرحة التى كان يلبسها رجال الدين فوق العمامة . ماير : الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتى ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٢ ، ص ٩٤ .

^{١٤٥} عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، ج ٢ ، ط ٣ ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٨ ، ص ٥٠ . عبد المنعم سلطان : المجتمع المصرى ، ص ٢٧٤-٢٧٥ .

بذهب، وعمامة سوداء مرسومة أيضا (١٤٦) ، ويمثل هذا الثوب عباءة سوداء لها طرطور مناسب يوضع فوق العمامة السوداء، واللون الأسود يدل على الولاء للعباسيين (١٤٧) كما كان يلبس طيلسان شرب رقيق فوق العمامة (١٤٨). وكانت هذه الملابس توضع فى خزانة ملحقة بالحرم المكى تلبس فى ساعات الجمع والمناسبات ، فإذا خلعت أعيدت فى الخزنة ، وصرف لهم عوضها (١٤٩) ، كما كان صغار المؤذنين الذين يدعون لأمير مكة عند ظهور هلال الشهر العربى يلبسون أفخر الثياب ويتعممون (١٥٠). وعند أذان الفجر أو فى فصل الشتاء كان المؤذنون يلبسون ملابس ثقيلة للاستعانة بها على قيام الليل ، ولدفع البرد (١٥١).

١٤٦ ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٣ .

١٤٧ ماير : الملابس المملوكية ، ، ص ٩٦-٩٧ .

١٤٨ ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٣ .

١٤٩ ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ، ج٣ ، ص ٤٦٩. ٤٧٠ .

١٥٠ ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٤ .

١٥١ محمد أمين : الأوقاف ، ص ١٩١ .

خاتمة :

توصل البحث إلى عدد من النتائج أهمها :

- تعد وظيفة المؤذنين من أجل الوظائف في الحرم المكي، وضع لها شروط يجب توافرها في المؤذن، ولم تقتصر مهمتهم على الإعلان عن موعد الصلاة فقط ، بل امتدت للقيام بوظيفة المسحراتي ، وتلاوة مراسيم تولى الوظائف، والإعلان عن وفاة المشاهير .
- رغم أن مكة خضعت للدولة الأيوبية السنية ١١٧٣/هـ ١١٧٣م إلا أنه لم يتم إلغاء الأذان الشيعي إلا في سنة ١١٨٦/هـ ١١٨٦م ، ثم عاد الأذان الشيعي مرة أخرى في العصر المملوكي إلى أن ألغاه الناصر محمد بن قلاوون ١٣٠٢/هـ ١٣٠٢م
- إن الزيادات التي حدثت في صيغة الأذان في مصر بالصلاة والسلام على الرسول بعد الأذان لم تطبق في الحرم المكي .
- رصد الباحث أسماء ثلاثة وأربعين مؤذن بالحرم المكي في عصر الدراسة معظمهم من أسرة أبو المعالي بن أبي الخير الكازروني ، وقام الباحث برسم شجرة نسبهم التي توضح أنها كانت مهنة وراثية في المقام الأول .
- حدد الباحث أسماء ثمانية رؤساء للمؤذنين في الحرم المكي من عائلة واحدة عائلة "أبو المعالي الكازروني" ستة منهم من أسرة عبد السلام بن أبي المعالي، واثنان فقط من أسرة أخيه عبد المؤمن بن أبي المعالي، وتم تحديد سنوات رئاستهم للأذان.
- لم تعرف مهنة المؤذنين في الحرم المكي الحدود الجغرافية، فقد عمل بها مكيون، ومصريون، وفرنس، ومغاربة، ويمينيون. وكان معظمهم على المذهب الشافعي.
- تم تحديد أجور المؤذنين من خلال وثيقة أوقف السلطان الأشرف شعبان على الحرميين الشريفين، وأن المؤذنين جمعوا بين الأجر النقدي والأجر العيني، كما جمعوا بين وظيفة الأذان وبعض الوظائف الأخرى داخل الحرم وخارجه.
- نال المؤذنون مكانة علمية كبيرة في عصر الدراسة.

الملاحق :

جدول (١) مؤذنو الحرم المكى

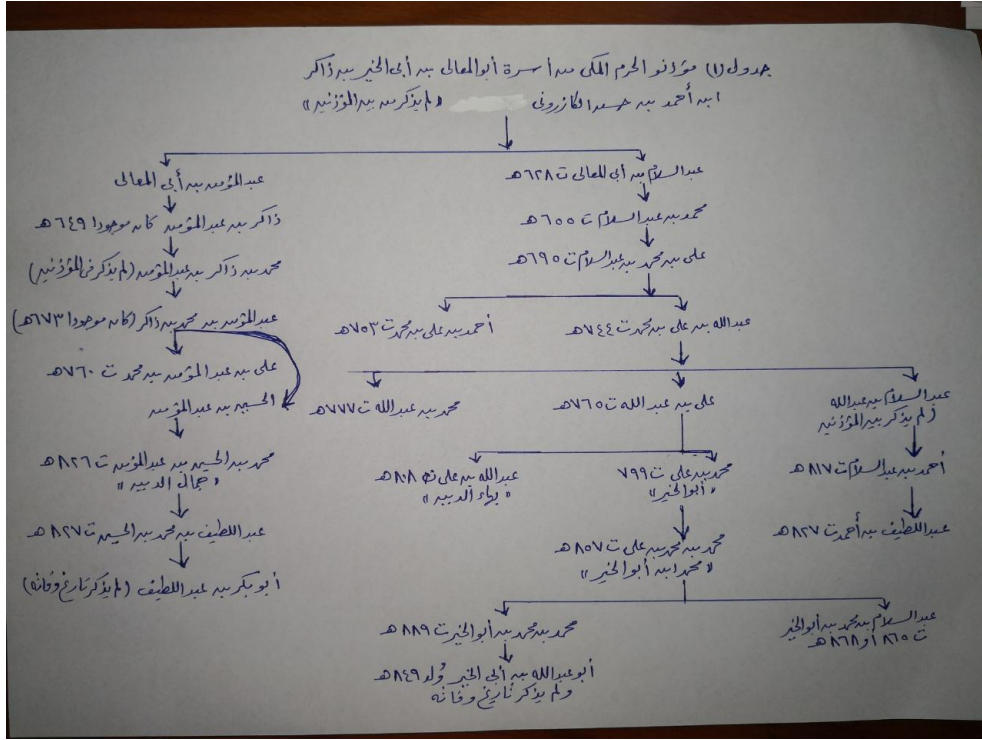
انظر الجدول المنفصل

جدول (٢) رئاسة المؤذنين فى الحرم المكى من أسرة أبى المعالى الكازرونى

م	الاسم	فترة الرئاسة	ملاحظات
١	عبد الله بن على بن عبد الله بن على بن محمد بن عبد السلام بن أبى المعالى الكازرونى (بهاء الدين)	لم يصل الباحث إلى تاريخ توليه الرئاسة	
٢	محمد بن على بن عبد الله بن على بن محمد بن عبد السلام بن أبى المعالى الكازرونى	توفى ٧٩٩هـ	تولى الرئاسة عندما سافر أخوه عبد الله إلى مصر واليمن للاستزراق من التجارة
٣	عبد الله بن على بن عبد الله بن على بن محمد بن عبد السلام بن أبى المعالى الكازرونى (بهاء الدين)	توفى ٨٠٨هـ	عاد لرئاسة المؤذنين حتى وفاته
٤	محمد بن الحسين بن عبد المؤمن (جمال الدين)	٨٠٨-٨٢٦هـ	أبناء عمومة الرؤساء السابقين انظر جدول مؤذنو الحرم المكى
٥	عبد اللطيف بن محمد بن الحسين عبد المؤمن	٨٢٦-٨٢٧هـ	
٦	محمد بن أبى الخير محمد بن على بن عبد الله بن على بن محمد بن عبد السلام	٨٢٧-٨٥٧هـ	عادت رئاسة المؤذنين إلى الفرع الأول من أسرة أبى المعالى الكازرونى
٧	عبد السلام بن محمد بن أبى الخير + محمد بن محمد بن أبى الخير	٨٥٧-٨٦٥هـ	رئاسة المؤذنين مشاركة بين الأخين
٨	محمد بن محمد بن أبى الخير + ابنه أبو عبد الله	٨٦٥-٨٨٩هـ	بعد وفاة عبد السلام أصبحت رئاسة المؤذنين مشتركة بين الوالد وابنه
٩	أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبى الخير	من ٨٨٩هـ إلى وفاته	استقل برئاسة المؤذنين بعد وفاة والده ولم يحصل الباحث على تاريخ وفاته

شكل (١) مؤننو الحرم المكي من أسرة أبي المعالي بن أبي الخير بن ذافر ابن أحمد بن حسن الكازروني

انظر شجرة النسب (بخط اليد)



المصادر والمراجع

أولا : المخطوطات :

١. المقدسي : بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاية الأمور وسائر الرعية ، مخطوط بمكتبة برلين الشرقية .

Berlin Preussischer Kulturbesitz, Zu staatsbibliothek

Orientabteilung , 5618 . pet . 593

ثانيا : المصادر

١. ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٨، ١١، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٢.
٢. الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج ٢ ، تحقيق رشدى الصالح ملحس، بيروت ، دار الأندلس ، د. ت .
٣. بامخرمة : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر، ج٦، جدة ، دار المنهاج، ٢٠٠٨.
٤. ابن بطوطة: تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج١، بيروت ، دار الشرق العربى، د.ت .
٥. ابن تغرى بردى: المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، تحقيق محمد أمين، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ، د.ت .
٦. ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ، لندن ، ١٩٣٨ .
٧. ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ٤ ، ٥ ، ٦ ، القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، ١٩٦٣ .
٨. ابن جبير : رحلة ابن جبير ، تحقيق محمد زينهم ، القاهرة ، دار المعارف ، ٢٠٠٠ .
٩. ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ٢ ، تحقيق محمد أمين ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٢ .
١٠. ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ج ١، ٢، ٥، ٦ ، ط ٢، تحقيق محمد عبد المعين خان ، حيدر أباد ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٧٢ .
١١. ابن حجر العسقلانى : إنباء الغمر بأبناء العمر، ط ٢ ، تحقيق محمد عبد المعين خان، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٦ .
١٢. ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ، تحقيق التهامى نقرة ، عبد الحلیم عويس ، القاهرة ، دار الصحوة ، ١٤٠١ هـ .

١٣. ابن حمزة الحسينى : ذيل تذكرة الحفاظ ، تحقيق حسام الدين القوسى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، د. ت .
١٤. الدارقطنى : سنن الدارقطنى ، ج ٢ ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٦٦
١٥. الزمخشري : الفائق فى غريب الحديث ، تحقيق على محمد البجاوى ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ٢ ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٧٨ .
١٦. السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، بيروت ، دار الحدائث ، ١٩٨٣ .
١٧. السخاوى : التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٣ .
١٨. السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، د.ت .
١٩. السيوطى : تاريخ الخلفاء ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٥٢ .
٢٠. أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ، ج ٢ ، تحقيق إبراهيم الزبيق ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٩٧ .
٢١. ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج ٣ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، د. ت .
٢٢. الفاسى ت ٨٣٢هـ : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، جزآن ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٠ .
٢٣. الفاسى : ذيل التقييد فى رواة السنن والأسانيد ، تحقيق كمال يوسف الحوت ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٠
٢٤. الفاسى : العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٨ .
٢٥. الفاكهى: أخبار مكة فى قديم الدهر وحديثه ، ط ٢ ، تحقيق عبد الملك عبد الله دهيش ، بيروت ، دار خضر ، ١٤١٤ هـ .

٢٦. ابن فهد (النجم عمر بن فهد ت ٨٨٥ هـ) : الدر الكمين بذيل العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش
٢٧. الغازى (عبد الله محمد الغازى المكى الحنفى ت ١٣٦٥ هـ) : إفادة الأتنام بذكر أخبار بلد الله الحرام ، تحقيق عبد الملك بن عبد الله دهيش
٢٨. القرطبى : تفسير القرطبى ، ج ٦ ، القاهرة ، دار الشعب ، ١٣٧٢ هـ
٢٩. القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج ٤ ، ج ٧ ، القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، د. ت .
٣٠. ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ١٣ ، بيروت ، مكتبة المعارف ، د. ت .
٣١. المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، تحقيق غازى طليمات ، دمشق ، وزارة الثقافة ، ١٩٨٠ .
٣٢. المقرئى : الخطط ، جزآن ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، د. ت .
٣٣. المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ج ١ ، ق ٣ تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ .
٣٤. المقرئى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، ج ٢ ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ١٩٩٩
٣٥. المناوى : التعاريف ، ج ١ ، تحقيق محمد رضوان الداية ، بيروت ، دار الفكر المعاصر ، ١٤١٠ هـ .
٣٦. ابن منظور : لسان العرب ، بيروت ، دار صادر ، د. ت .
٣٧. ناصر خسرو علوى : سفرنامه ، ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٣ .

ثالثا : المراجع العربية

١. أحمد هاشم بدرشيني : أوقاف الحرمين الشريفين فى العصر المملوكى ، رسالة دكتوراه ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى ، ٢٠٠١
٢. راشد سعد راشد القحطانى : أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين ، الرياض ، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٩٩٤ .
٣. عبد المجيد أبو الفتوح : العلاقات المصرية الحجازية فى العصرين الفاطمى والأيوبي ، المنصورة ، مطبعة أوفو ، ١٩٧٧ .
٤. عبد المنعم سلطان : المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٥ .
٥. عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، ج ٢ ، ط ٣ ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٨ .
٦. ماير : الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتى ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٢ .
٧. محمد طاهر الكردى المكى : التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ، ج ٥ ، مكة المكرمة ، مكتبة النهضة الحديثة ، ٢٠٠٠ .
٨. محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٠ .

رابعا : المراجع الأجنبية

Fernandes ; The evolution of Asufi institution in Mamluk Egypt,
the Khanqah, Berlin,1988.

--- جدول (١) مؤذنو الحرم المكى -

م	الاسم	الصفة	تاريخ الوفاة	المصدر	ملاحظات
١.	عبد السلام بن أبى المعالى بن أبى الخير بن ذاكِر بن أحمد بن الحسن الكازرونى أبى محمد المكى	مؤذن الحرم الشريف	٦٢٨هـ		مات عن عمر ٨٠ سنة تقريبا
٢.	أحمد بن عبد الله بن أبى الحسن الطفوطى المكى	مؤذن	٦٤٢هـ	ابن فهد : الدر الكمين ، ص ٤٧١	
٣.	ذاكر بن عبد المؤمن بن أبى المعالى بن أبى الحسن بن ذاكِر بن أحمد بن حسن الكازرونى المكى	مؤذن الحرم الشريف	كان حيا عام ٦٤٩هـ	الفاسى:العقد الثمين، ج ٤، ص ٧٣ الذهبى: سير أعلام النبلاء، ج ١٦، ص ١٩٤	
٤.	أبو بكر بن محمد العجمى	مؤذن	كان موجودا ٦٥٠هـ	الدر الكمين ، ص ١٢٩٨	
٥.	عبد المؤمن بن محمد بن ذاكِر بن عبد المؤمن أبى المعالى	مؤذن	كان موجودا ٦٧٣هـ	ابن فهد : الدر الكمين ، ص ٩٤٢	
٦.	محمد بن عبد السلام بن أبى المعالى الكازرونى	مؤذن الحرم الشريف	٥٩٠هـ - ٦٥٥هـ دفن بالمعلاة	الفاسى:العقد الثمين، ج ٢، ص ٢٥٠	
٧.	على بن محمد بن عبد السلام بن أبى المعالى الكازرونى المكى نجم الدين أبو المعالى يلقب بالنتاج	مؤذن الحرم الشريف	٦٩٥هـ وقعت ساعة على قبة زمزم فقتلته	الفاسى:العقد الثمين، ج ٥، ص ٢٩٧	
٨.	عبد الله بن على بن محمد بن عبد السلام بن أبى المعالى الكازرونى المكى	مؤذن الحرم الشريف	٧٤٤هـ ودفن بالمعلاة	الفاسى:العقد الثمين، ج ٤، ص ٣٨٨ بامخرمة بقلادة النحر، ج ٦، ص ٢٥٩	تاريخ وفاته مثبت على حجر قبره



٩.	أحمد بن علي بن محمد بن عبد السلام بن أبي المعالي الكازروني المكي نجم الدين أبو المعالي	مؤذن الحرم الشريف كان يؤذن بمنئنة باب العمرة	٧٥٣هـ	الفاسي :العقد الثمين، ج٣، ص ٦٩	ابن أخيه الرئيس بهاء الدين عبد الله بن علي بن عبد الله بن علي رئيس المؤننين ترك منئنة باب العمرة لابن عمه عبد السلام وزوجه ابنته
١٠.	علي بن عبد المؤمن بن محمد بن ذاكر بن عبد المؤمن أبي المعالي الكازروني المكي	مؤذن بمأئنة باب علي	٧٦٠هـ	الفاسي :العقد الثمين، ج٥، ص ٢٧٥	الإقامة على قبة زمزم ، وأصلح المؤننين بالحرم الشريف
١١.	محمد بن أبي الطاهر محمد بن عبد الرحيم العمري المالكي	مؤذن بمنارة الندوة	مات بعد ٧٦٠هـ		
١٢.	علي بن عبد الله بن علي بن محمد بن عبد السلام بن أبي المعالي الكازروني أبو الحسن المكي الملقب نور الدين	مؤذن الحرم الشريف	٧٠٨-٧٦٥هـ ودفن بالمعلاة	الفاسي :العقد الثمين، ج٥، ص ٢٦٦	ولده بهاء الدين عبد الله بن علي رئيس المؤننين
١٣.	محمد بن عبد الله بن علي بن محمد بن عبد السلام بن أبي المعالي الكازروني المكي، جمال الدين	رئيس المؤننين تولى رئاسة المؤننين بالحرم الشريف بمنئنة باب قبر شيبية بعد أخيه نور الدين علي	٧٧٧هـ دفن بالمعلاة	الفاسي :العقد الثمين ، ج٢، ص ٢١٥ ، ابن فهد: الدر الكمين، ص ١٨٣	كان له معرفة بعلم الميقات تنزل عن رئاسة المؤننين قبل سفره إلى بلاد العجم لولده عبد اللطيف وبعد وصوله من السفر استقر ولده ، ثم تولى جمال الدين الوظيفة مستقلا من القاهرة بمعلوم زائد عن معلوم ولده وإخوته



١٤	سالم بن ياقوت	مؤن	—	إفادة الأنام، ج ٦، ص ٣٥٧	كان مؤننا وقائما بخدمة بنر زمزم هـ ٧٣٠
١٥	أحمد بن سالم بن ياقوت المكي شهاب الدين	مؤن	٦٩٧- هـ ٧٧٨	ابن حجر : إنباء العمر،	كان إليه أمر زمزم وسقاية العباس
١٦	محمد بن علي بن عبد الله بن علي بن محمد بن عبد السلام بن أبي المعالى الكازرونى المكى أبو الخير	مؤن ، باشتر الرياسة في غيبة أخيه عبد الله بن علي	٧٩٩-٧٥٤ هـ دفن بالمعلاة	الفاسى : العقد الثمين، ج ٢، ص ٢٧٣ ابن حجر: الدرر، ج ٥، ص ٣٢١	
١٧	عبد الله بن علي بن عبد الله بن علي بن محمد بن عبد السلام بن أبي المعالى الكازرونى المكى، يلقب بهاء الدين	رئيس المؤننين	٧٥٢- هـ ٨٠٨ دفن بالمعلاة	السخاوى : الضوء ، ج ١١، ص ٢٥٠ الفاسى : العقد الثمين ، ج ٤، ص ٣٨٧	ناب فى الحسبة بمكة باشتر عمل القضاء ٨٠٦ هـ عمل بالتجارة فى اليمن
١٨	محمد بن عمر بن علي السحولى اليمنى ثم المكى أبو الطيب	مؤن	٧٣٢- هـ ٨٠٨ ودفن بمقابر الصوفية	ابن العماد : شذرات، ج ٩، ص ١٠٨	توفى بعلة السل
١٩	أحمد بن عبد السلام بن عبد الله بن علي بن محمد بن عبد السلام بن أبي المعالى الشهاب الكازرونى	مؤن	هـ ٨١٧	السخاوى : الضوء، ج ١، ص ٣٤٧	
٢٠	محمد بن الحسين بن عبد المؤمن الكازرونى جمال الدين أبو أحمد	كان يؤن أولا بمنارة باب على ثم صار رئيسا للمؤننين	هـ ٨٢٦	ابن حجر : إنباء الغمر ، ج ٨ ، ص ٣٥ الفاسى : ذيل التقييد، ج ١، ص ١١٨-١١٩	تولى رئاسة المؤننين بعد البهاء عبد الله بن علي الكازرونى هـ ٨٠٨
٢١	عبد اللطيف بن أحمد بن عبد السلام بن عبد الله بن علي بن محمد بن عبد السلام بن أبي المعالى بن أبي الخير بن داكر بن أحمد الكازرونى الشهير بالدب	مؤن باب العمره	هـ ٨٢٧ ودفن بالمعلاة	ابن فهد: الدر الكمين ص ٨٩٢، ٨٩٣ السخاوى: الضوء، ج ٤، ص ٣٢١	ناب فى رياسة المؤننين بقبة زمزم عن قريبه محمد بن حسين وولده عبد اللطيف



٢٢	عبد اللطيف بن محمد بن حسين بن عبد المؤمن بن محمد بن ذاكر بن عبد المؤمن بن أبي المعالي بن أبي الخير السراج الكازروني يلقب بسراج الدين	مؤنن بمنارة باب بني شيبية كان بعد موت عبد الله بن علي رئيس المؤننين	٨٢٧هـ دفن بالمعلاة توفي بالطاعون الذي كان بمكة	السخاوي: الضوء، ج ٤، ص ٣٣٤ الفاسي: العقد الثمين، ج ٥، ص ١١٣	كان معتنيا بحفظ الوقت، لم يبلغ الأربعين (الوباء)
٢٣	أبو بكر بن عبد اللطيف بن محمد بن حسين بن عبد المؤمن بن محمد بن ذاكر بن عبد المؤمن بن أبي المعالي بن أبي الخير السراج الكازروني	مؤنن	—	السخاوي : الضوء ، ج ٤، ص ٣٣٥	
٢٤	يوسف الدباغ المصري	مؤنن	٨٢٩هـ	السخاوي: الضوء، ج ١٠، ص ٣٤٠	كان يؤدب الأبناء بمكة، ثم أعرض عن كل ذلك وعمل طباً بالمسعى
٢٥	إسماعيل بن علي بن محمد بن داود بن شمس بن عبد الله بن رستم البيضاوي المكي يكنى أبا الطاهر ويلقب مجد الدين	رئيس المؤننين	٧٦٦هـ - ٨٣٨هـ دفن بالحجون	السخاوي: الضوء، ج ٢، ص ٣٠٢ ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٨، ص ٣٦٠ ابن العماد الحنبلي: شذرات، ج ٩، ص ٣٢٩	له نظم مقبول ومدائح نبوية أخو إبراهيم وحسين ووالد نائب أبي إسماعيل هل هم مؤننون؟
٢٦	أحمد بن يوسف بن حسين بن يوسف الحصنكي الشهير بابن المحتسب	مؤنن بمأنة العمرة	٧٩٥هـ - ٨٥٥هـ	انظر ابن فهد: الدر الكمين ج ١، ص ٥٧٤ السالمي: الحياة الدينية، ص ١٩٠	ناب في الحسبة
٢٧	أحمد بن عبد العزيز بن أحمد بن سالم بن ياقوت الشهاب المكي	مؤنن	٧٨٧هـ - ٨٥٦هـ	السخاوي: الضوء، ج ١، ص ٣٤٨	



٢٨	محمد بن أبى الخير محمد بن على بن عبد الله بن على بن عبد السلام أخو أبى الخير الكازرونى المكى (جمال الدين بن أحمد الكازرونى)	رئيس المؤننين	٧٩٤- ٨٥٧هـ	السخاوى: الضوء، ج ٩، ص ٢٦ ابن فهد: الدر الكمين ، ص ٢٨٥	تولى رئاسة المؤننين بعد وفاة قريبه عبد اللطيف بن محمد بن حسين ٨٢٧هـ والد عبد السلام الذى يليه ووالد أبو الخير واستقر بعده ابناه فى الرئاسة
٢٩	سليمان بن أبى السعود بن عمر المغربى ثم المكى	مؤنن وفراش ولى نصف الأذان بمأذنة باب العمرة بنزول من عبد اللطيف بن أحمد بن عبد السلام الكازرونى	٨٥٩هـ دفن بالمعلاة	السخاوى: الضوء، ج ٣، ص ٢٦٤ ابن فهد : الدر الكمين ، ص ٧٥٦	فراش بجانب الأذان ، كان ينوب عن الرئيس فى الأذان على زمزم
٣٠	عبد السلام بن محمد بن أبى الخير محمد بن على بن عبد الله بن على بن عبد السلام أخو أبى الخير الكازرونى المكى	رئيس المؤننين	٨٦٥ أو ٨٦٨هـ والأول أقرب	السخاوى: الضوء، ج ٤، ص ٢٠٦	
٣١	محمد المصرى الشهير بابن الزيات	مؤنن بباب السلام	٨٦٩هـ	السخاوى: الضوء، ج ١١، ص ٢٥٠ ابن فهد : الدر الكمين، ص ٤٢٦	قرر له على الأذان مائة فى النخيرة ولما ولى السلطان الأشرف إينال صارت النخيرة على النصف فهى الآن على حد قول صاحب العقد الثمين خمسون



٣٢	داود بن إسماعيل بن علي بن محمد بن داود بن شمس بن عبد الله البيضاوي المكي الزمزمي	مؤذن زمزمي	٨٨٢هـ	السخاوي: الضوء، ج ٣، ص ٢١١
٣٣	علي بن محمد بن إسماعيل البيضاوي الزمزمي	رئيس المؤننين	٨٨٥هـ	إفادة الأنام ، ج ٦، ص ٣٥٧ ، السالمي: الحياة الدينية ، ص ١٨٩
٣٤	أحمد بن محمد بن أبي الطاهر محمد بن عبد الرحمن بن أبي الفتح القرشي العمري المكي	مؤذن باب دار النودة		ابن فهد : الدر الكمين ، ص ٥٣٩
٣٥	محمد بن محمد بن محمد بن علي بن عبد الله أبو الخير	رئيس المؤننين		السخاوي: الضوء، ج ٩، ص ٢٤٦
٣٦	محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن علي بن عبد الله بن علي أبو عبد الله	رئيس المؤننين		السخاوي: الضوء، ج ٩، ص ٢٨٦
٣٧	أبو بكر بن أبي عبد الله محمد بن أبي الخير محمد بن محمد بن أبي الخير محمد المكي ويعرف بابن أبي الخير	كان يباشر مع أبيه رياسة المؤننين	ولد ٨٧٥هـ	السخاوي: الضوء ؟؟؟؟



٣٨	أبو الخير ويسمى محمد بن محمد بن أبي الخير محمد بن علي بن عبد الله بن علي بن محمد بن عبد السلام بن أبي المعالي بن أبي الخير بن ذاك بن محمد بن الحسن الفارسي الكازروني ويعرف بابن أبي الخير	رئيس المؤننين بعد والده شريكا لأخيه عبد السلام ثم لما مات أخوه شاركه ولده أبو عبد الله	٨٢٩- ٨٨٩هـ دفن بالمعلاة	السخاوي: الضوء، ج ١١، ص ١١٩ ابن فهد: الدر الكمين، ص ٢٨٥	وكان لهما (هو وأخوه) التسبيح بمنارة باب السلام ونصف أذان باب العمرة
٣٩	أبو عبد الله بن أبي الخير بن محمد بن أبي الخير بن علي بن عبد الله بن علي بن محمد بن عبد السلام ووالد أبي بكر	رئيس المؤننين شارك والده في الرئاسة ثم استقل بعد موته	ولد ٨٤٩هـ	السخاوي: الضوء، ج ١١، ص ١١٩	
٤٠	فخر الدين أبو بكر عبد الله بن أبي بكر المكي الحنبلي	شارك والده في رئاسة المؤننين	ت ٩٣٠هـ	عبد الحفيظ السالمي: الحياة الدينية، ص ١٨٨.	
٤١	إسماعيل بن عبد السلام	مؤنن		ابن فهد: الدر الكمين، ص ٦٢٥،	
٤٢	أبو محمد التيمي عبد الله بن عبيد الله بن أبي ملكية أبو محمد	مؤنن			
٤٣	عثمان بن عبد الملك هو مستقيم بن عبد الملك المكي	مؤنن		ابن حجر: لسان الميزان، ج ٧، ص ٣٠٢ الخزرجي: خلاصة تذهيب، ص ٢٦١	

حصن مخاضة يعقوب وأثره في الصراع الصليبي الإسلامي

(١١٧٨-١١٧٩م/٥٧٤-٥٧٥هـ)

د. حجازي عبد المنعم سليمان

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
(كلية الآداب - جامعة المنوفية)

لعب حصن مخاضة يعقوب دورًا مهمًا ومؤثرًا في الصراع الإسلامي الصليبي؛ لأنه في الوقت الذي سعى فيه الصليبيون إلى بناء الحصن لقلب موازين الصراع ضد المسلمين على الحدود الشرقية بعامة وعلى ممرات الأردن والجليل الأعلى بخاصة لصالحهم، فإن استيلاء المسلمين على الحصن وتدميره قلب الصراع لصالحهم.

ويُعالج هذا البحث حصن مخاضة يعقوب وأثره في الصراع الصليبي الإسلامي من خلال عدة محاور يتصدرها تعريف بحصن مخاضة يعقوب، وأسباب اختيار موضع بناء الحصن وأهميته في الصراع بين المسلمين والصليبيين، والدراسات السابقة في هذا الموضوع، ودراسة نقدية لأهم المؤرخين المعاصرين الذين عالجوا تاريخ الحصن، وعمليات بناء الحصن والمشاركين في عمليات البناء والتأمين، وأهم العناصر المعمارية في الحصن، والعقبات التي واجهها الصليبيون في بنائه، ناهيك عن المعارك التي خاضها المسلمون ضد الصليبيين تمهيدًا لحصاره، وملاسات حصار المسلمين للحصن وسقوطه، والنتائج التي ترتبت على سقوطه، وأهم النتائج التي وقف عليها الباحث من دراسته لهذا الموضوع على مستقبل الصراع بين الصليبيين والمسلمين.

تعريف بالحصن وأهميته والدراسات السابقة:

عُرف الحصن في المصادر العربية باسم بيت الأحزان وحصن مخاضة يعقوب والحصن اليعقوبي، وأطلق كل من الأصفهاني وأبي شامة "المشهد اليعقوبي" على موقع بناء الحصن^(١)، وأشار إليه ابن الأثير بأنه الحصن الذي شيده الصليبيون عند بيت يعقوب بمكان

(١) الأصفهاني (محمد بن صفى الدين بن محمد الأصفهاني، ت: ٥٩٧هـ): البرق الشامي، تحقيق: فالح حسين، ج٣، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، ١٩٨٧م، ص ١٥٧، ١٨٣؛ ابن واصل (محمد بن سالم جمال

يُعرف بمخاضة الأحزان^(١). ووصفه كل من ابن أبي طي وياقوت الحموي ببيت الأحزان، وأشار الأخير إلى وقوعه بين دمشق والساحل الشامي^(٢)، وأطلق وليم الصوري على الموقع اسم مخاضة يعقوب^(٣).
وعرف أرنول مخاضة يعقوب *Gués Jacob* بغموض شديد بوصفها الموضع الذي ناضل فيه يعقوب عليه السلام ضد الملائكة^(٤)، وحدد يوحنا فورزبورج مكان ذلك النضال

الدين، ت: ٦٩٧هـ/١٢٩٨م): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، ج٢، القاهرة، ١٩٥٣-١٩٦٠م، ص ٧٢.

(١) ابن الأثير (علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري، ت: ٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، ج١٠، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م، ص ٩٥.

(٢) أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي المشقي، ت: ٦٦٥هـ): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزبيق، ج٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م، ص ١٨؛ ياقوت الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، ت: ٦٢٢هـ/١٢٢٥م): معجم البلدان، ج١، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ص ٥١٩. وقد عُرف موقع الحصن ببيت الأحزان نسبة لأنه شهد أحزان يعقوب على ولده يوسف - عليهما السلام - بعدما علم بموته المُزيف، واعتاد بعض المسلمين التردد عليه فيما بعد خلال العصر المملوكي. وقد وقف إيلينلوم في كهف قريب من صفد يسمى "مغارة بنات يعقوب" على نص مؤرخ في يونه ١٤١٢م/ربيع أول ٨١٥هـ ويسرد استقبال يعقوب لقميص يوسف عليهما السلام. وقد ازداد الاهتمام بمخاضة يعقوب خلال القرن السابع عشر وعُرفت آنذاك بـ "جسر بنات يعقوب" *Ford of Jacob's Daughters*، واستمر هذا التقليد قائماً خلال القرن الثامن عشر. انظر:

Ellenblum, R. 'Frontier activities: the transformation of a Muslim sacred site into the Frankish castle of Vadum Iacob', *Crusades*, 2, (2003), pp. 85-6.

وأيضاً: مصعب حمادي نجم الزبيدي: "موقف تنظيمي الاستبائية والداوية من حروب الناصر صلاح الدين الأيوبي"، مجلة كلية العلوم الإسلامية، الموصل، المجلد الثالث، العدد السادس، ٢٠٠٩م، ص ٨٩.

(٣) William of Tyre, *A History of Deeds done beyond the Sea*, trans. and annotated by Babcock, E. A., and Krey, A.C., vol. 2, (New York, 1943), pp. 436-7.

(٤) Emoul, *Chronique d'Emoul et de Bernard Le Trésorier*, ed. M. de Mas Latrie. Société de l'Histoire de France (Paris, 1871), pp. 51-3.

بمخاضة يعقوب وليس مخاضة أيبوك *Vadum laboc*^(١) التي ورد ذكرها في الكتاب المقدس، حقاً لم يوضح فورزبورج، إذا كان الموضع الذي صحح تسميته، هو موقع مخاضة يعقوب التي نقدها أم لا^(٢)، ولكنه أكد التشابه الكبير بين مخاضة يعقوب ومخاضة أيبوك، وأن المكان كان قائماً بالفعل في حدود عام ١١٦٠م/٥٥٥هـ^(٣). بينما ورد الحصن في وثائق مملكة بيت المقدس باسم *Vadum Jacob* أي مخاضة يعقوب *Jacob's Ford* وعُرف أيضاً في القرن الثاني عشر باسمه العربي بيت الأحزان^(٤).

(١) حدد إيلينبلوم موقع *Vadom laboc* في وادي الزرقا Wadi az-Zarkah جنوب Gerasa على الطريق إلى عمان. وثمة مواقع أخرى يُشار إليها مرتبطة بأحزان يعقوب عليه السلام، من ذلك إشارة يوحنا فورزبورج إلى بئر يعقوب الذي يبعد عشرة أميال إلى الجنوب الشرقي من مخاضة يعقوب، أو بوقوعه في وادي دوسان Dothan على مسافة ٦٠ ميلاً إلى الشمال الشرقي من مخاضة يعقوب. بينما عين ياقوت الحموي موقع بئر يوسف بين طبرية وبانياس أو بين دمشق والساحل، وأكد آخرون أن يعقوب عليه السلام عاش حياته في نابلس، وبوقوع البئر في قرية بين سان جيلز ونابلس. ورجح إيلينبلوم بناء مزار مخاضة يعقوب عام ١١٥٧م ربما تخليداً لذكرى انتصار المسلمين على الصليبيين في معركة وقعت آنذاك. ولعله من المُثير للإهتمام أن الاسم الفرنجي *Vadum Jacob* نُكر أيضاً لأول مرة عام ١١٥٧م، ولذا أبدى المسلمون فرحة كبيرة ظهرت في أشعارهم حال استيلائهم على الحصن وتميرهم إياه. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٥١٩؛ الأصفهاني: البرق الشامى، ج٣، ص١٨١؛ ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٦-٩٧. وأيضاً:

John of Würzburg, *Description of the Holy Land*, (1160-1170 a.d.), In PPTS., trans.by: Aubrey Stewart, vol. V, (London, 1896), pp 8, 14. Cf. also: Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 84-5.

(٢) Würzburg, *Description of the Holy Land*, pp. 8, 14.

(٣) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 85.

(٤) أشار كيندي إلى اشتهار الموقع في القرن الثالث عشر باسم *Chastellet* و *Chastelez*، أما اليوم فيُعرف في الأدييات العبرية باسم *Ateret Metzad*، بمعنى قلعة الوفرة بعدما حُرّم من اسمه العربي قصر العطرة *Qasr al-Atara*. انظر:

Kennedy, H., *Crusader Castles*, (Cambridge, 1994), p. 57.

وتتبع أهمية هذه الدراسة من الآمال العريضة التي سعى الصليبيون إلى تحقيقها من بناء الحصن في ذلك الموقع المهم للغاية؛ إذ يقع الحصن إلى الغرب من مخاضة يعقوب^(١) على نهر الأردن على مسافة متقاربة من كل من هونين شمالاً وبحيرة طبرية جنوباً، كما يقع الحصن إلى الشمال الشرقي من صدف على مسافة ١٥ كم تقريباً، وإلى الجنوب الغربي من بانياس على مسافة ١٦ كم تقريباً، وبين الحصن وبيت المقدس في الجنوب ١٦٠ كم تقريباً^(٢)، ويقع على مسافة قريبة للغاية من الحولة^(٣). وهناك شيد الصليبيون حصنهم على تل يقع على مسافة ٥٠٠ متر جنوب غرب مخاضة يعقوب التي غدت واحدة من أكثر مخاضات عبور الأردن أماناً والمفتاح الرئيس لعبور الأردن إلى أحد أهم الطرق الرئيسة بين

(١) بلغ عدد مخاضات الأردن حوالي خمسين مخاضة استخدمها المارة في عبوره مثل مخاضة عبّرة شمال شرق بيسان، ومخاضة فحل ومخاضة دامية عند مصب نهر الزرقاء ومخاضة أريحا الأولى، وتقع عند التقاء نهر نمرين بالأردن، ومخاضة الزوار أو حجلا جنوب شرقي أريحا. وبات لتلك المخاضات أهمية كبيرة في التواصل بين ضفتي النهر نتيجة لصعوبة الملاحة في النهر لغلبة الوحل عليه أغلب فصول السنة، ولا يفيض النهر سوى حينما تنوب تلوج جبل الشيخ في أبريل، ناهيك عن كثرة تيارات النهر وتعرجاته وضحالة مياهه، وقد استخدمت أماكن ضحالة المياه كمخاضات عبور تصل بين ضفتيه شرقاً وغرباً، ومن بينها مخاضة يعقوب. وقد أنشأ صلاح الدين جسراً هناك وجدده الظاهر بيبرس فيما بعد، أما الجسر الراهن فأقيم على الجسر الذي تم تجديده في القرن السادس عشر. ومن أهم الجسور الأخرى التي أقيمت على النهر: جسر الصنيرة والجسر العادلي تحت عقبة فيق وجسر شامة المقارب لقرية المجامع، وجسر المجامع على مسيرة ٢١ كم جنوبي مدينة طبرية وعلى بضعة أميال شمال طبقة فحل، وجسر الشيخ حسين على مسافة ٧.٥ كم جنوبي بيسان، وجسر دامية على مسافة ٤٣ كم جنوبي جسر الشيخ حسين. انظر: مصطفى مراد الدباغ: بلاننا فلسطين، ج١، ق١، دار الهدى، ١٩٩١م، ص ٧٣-٧٦.

(٢) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 436-37.

بانياس: واحدة من أشهر مدن بلاد الشام بعمامة وفترة الحروب الصليبية بخاصة، وتقع على السفح الجنوبي الشرقي لجبل الشيخ، على الطريق الواصل بين داخل بلاد الشام شرقاً والساحل الجنوبي شمال بحيرة الحولة، ويتردد نكرها في المصادر كثيراً خلال هذه الفترة بسبب ما موقعها الحيوي وإشرافها على بعض ممرات الأردن. انظر: ابن جبير: رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص ٢٧٣-٢٧٤.

(٣) انظر موقع الحصن على الخريطة الملحقة بملاحق البحث.



عكا^(١) وطبرية^(٢) ودمشق، وبين دمشق والقاهرة^(٣). وبناء على ذلك، فإن بناء الحصن في تلك البقعة سيُشكل جبهة قوية مع حصن هونين أو كاستيلا نونفا *Chateau-neuf* بما يكفل إغلاق معابر الأردن إلى شمال مملكة بيت المقدس في المسلمين وانطلاقاتهم من دمشق ضد مدن شمال المملكة وموانئ الساحل^(٤).

وفضلاً عن ذلك، فإن تشييد الحصن في تلك المنطقة سيُمكن الصليبيين من السيطرة على ممرات الأردن والجليل الأعلى وممرات عبور الأردن^(٥). وقد أشار سمايل *Smail* إلى

(١) عكا: من المدن الحصينة الواقعة على ساحل البحر المتوسط وتُعد من أهم موانئ مملكة بيت المقدس ولعبت دوراً بارزاً في الصراع الإسلامي الصليبي. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص ١٤٢-١٤٢. وأيضاً: مولر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة: محمد وليد الجلا، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤م، ص ٩٤-٩٧.

(٢) طبرية: بلدة مُطلّة على بحيرة طبرية، وبينها وبين القدس حوالي اثنتي عشرة كيلو متراً، وبينها وبين عكا حوالي ثمانين كيلو متراً، وهي قريبة للغاية من حصن مخاضة يعقوب. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص ١٧-١٩.

(٣) نبيلة إبراهيم مقامي: فرق الفرسان الرهبان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ٩٢.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، ج٢، ط٩، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠١٠م، ص ٥٠. كانت دمشق مقراً للسلطة السياسية الإسلامية أكثر أهمية من حمص، وأصبح العبور من دمشق إلى الأردن والساحل أخطر من العبور من حمص إلى طرابلس، وبات من اليسير على قوة إسلامية أن تتوغل إلى شمال المملكة عبر الطريق الرئيس من دمشق إلى صور وصيدا، أو الانتفاع عبر الأردن إلى سهل عكا. وقد سعى الصليبيون إلى بناء قلاعهم للدفاع عن حدودهم في ظل افتقار الحدود الشرقية إلى الحماية الطبيعية مما سمح للمسلمين بالوصول إلى الموانئ الرئيسية في المملكة. بيد أن سمايل يرى أن الأمر لم يكن كذلك وبخاصة أن بانياس كانت في أيدي الصليبيين فقط من عام ١١٢٩ إلى ١١٣٢م، ومن ١١٤٠ إلى ١١٦٤م، إضافة إلى أن حصن مخاضة يعقوب تأسس عام ١١٧٨م وتم تدميره نهائياً عام ١١٧٩م. وكان الدخول إلى المملكة عن طريق معبر الأردن إلى الجنوب مباشرة من بحيرة طبرية في الصنيرة، والذي تم استخدامه خلال الغزوات الرئيسية لموبود وطغتكين عام ١١١٣م واستخدمه صلاح الدين في أعوام: ١١٨٢ و ١١٨٣ و ١١٨٧م ولم يكن وقتها مُحصناً. انظر:

Smail, Crusading Warfare, p. 207.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٨١.



مقدار الخطر الذي سيتعرض له المسلمون من جراء بناء الحصن في ذلك الموضع وبخاصة أن تجارب الصليبيين مع حصونهم في الفولة^(١) وكوكب الهوا^(٢) وتبنين^(٣) وصفد^(٤) على الخط الحدودي الشرقي الفاصل بينهم وبين دمشق لعبت دوراً مهماً في تهديد حركة المرور من شرق الأردن إلى غربه^(٥)، كما سعوا إلى منع المسلمين من حشد قواتهم بالسرعة التي

(١) الفولة: قلعة في فلسطين تقع على الطرق التي تربط بين بيت المقدس ونابلس وطبرية وكانت خاضعة للداوية ومن هنا نبعت خطورتها. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص ٢٨٠. وأيضاً: نبيلة مقامي: فرق الفرسان، ص ٩٥-٩٦.

(٢) كوكب *Belvoir*: قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية وتتسم بالحصانة وتشرف على الأردن، وتقع على ارتفاع ٥٠٠ متر فوق سطح البحر؛ وبسبب موقعها المطل على نهر الأردن وطبرية والجليل والجلولان في جنوب بيسان، فإنها سيطرت على غالبية الطرق المحلية في المنطقة. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص ٤٩٤. وأيضاً: نبيلة مقامي: فرق الفرسان الرهبان، ص ٧٩.

(٣) تبنين أو تورون *Toron*: تقع على بعد ثلاثة وعشرين كيلو متراً إلى الجنوب الشرقي من بانياس وعلى مسافة قريبة من ذلك من صور في الغرب. انظر: ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص ٢٧٤؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص ١٤.

(٤) صفد: قلعة قوية تقع في وادي الحولة ونهر الجليل، وتسيطر على طريق دمشق - طبرية، وكان من أهم أهداف الفرنج من إنشاء قلعة صفد التصدي لغارات المسلمين المنطلقة من دمشق على الجليل وطبرية وموتايء الساحل. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص ٤١٢. وأيضاً: نبيلة إبراهيم مقامي: فرق الفرسان، ص ٨٧.

(٥) يرى بروتس *Prutz* أن الصليبيين اعتمدوا في دفاعهم عن حدودهم على مجموعة الحصون والقلاع التي تكلفت بالمدافع عن حدودهم ضد غارات المسلمين عليها. ويرى سمايل أن مثل تلك الرؤية متأثرة بالتعميمات غير المدروسة التي أطلقها بعض المؤرخين المعاصرين وينبغي التعامل معها بحذر؛ لأن ما صح منها في مكان لم يصح كلياً في آخر. ويرى سمايل أن قلاع العصور الوسطى لم تكن للغرض الدفاعي وحده وإنما كانت أكثر من مجرد قلعة بالمعنى العسكري الحديث، لأنها مكنت سيدها من تلبية احتياجاته في الحماية الخارجية والشرطية في حفظ الأمن مثلما مكنته من الإفادة من المنطقة المحيطة بالقلعة واستغلال سكانها. ويدعم هذه الرؤية أن الغزو الصليبي وتوسعاته لم يتم بناء على مخطط عام تم تنفيذه بدقة ولم تأمر به سلطة موحدة وعامة، بل كثيراً ما توسع البارونات والأمراء على حساب جيرانهم بسبب جشعهم وشجاعتهم، وكان الجانب المادي للقلعة أكثر أهمية لديهم من الناحية العسكرية أو من رؤية المملكة والصالح العام. انظر:

Smail, R.C., *Crusading Warfare*, (1097-1193), (Cambridge, 1956), pp. 204-5. Cf.

also: Prutz, *Kulturgeschichte der Kreuzzüge*, (Berlin, 1883), pp. 195-6.

اعتادوا عليها في مهاجمة شمال المملكة وبعض مدن الساحل مثل عكا وصور^(١) وبيروت، وذلك ما منح حصن مخاضة يعقوب مكانته الاستراتيجية^(٢).

وتمتعت المنطقة المحيطة بالحصن بظهير زراعي متميز بحيث وصف وليم الصوري القرى والضياع المحيطة بالتل الذي شُيد عليه الحصن بكثرة بساتين الفاكهة والزراعات الأخرى بها^(٣)، ووصف أبو شامة الأرض المحيطة بالحصن بالخصوبة لقربها من نهر الأرن، ولذا كثرت الحقول

(١) صور: مدينة حصينة على ساحل البحر المتوسط، ويقع أغلبها في البحر وهي أشبه ما تكون بالكف داخل البحر والساحل في البر. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص ٤٣٣-٤٣٤؛ الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القنسي، دار المنار، ٢٠٠٤م، ص ٨٨. وأيضاً:

Richard of Holy Trinity, Itinerary of Richard I and others to the Holy Land (formerly ascribed to Geoffrey de Vinsauf), (Cambridge, Ontario, 2001), pp. 48-49.

(٢) Barber, M., 'Frontier Warfare in the Latin Kingdom of Jerusalem: The Campaign of Jacob's Ford, 1178-79', in *the Crusades and their Sources*, (eds.) John France and William G. Zajac, (Ashgate, 1998), p. 19. Cf. also: William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 436-7.

وقد ربط كل من بروتس وسمائل بين أهمية الحصن وخاصة وبين الأهمية الأشمل للحصون في تلك الفترة بعامه، واعتبر بروتس أن وجود قلاع بعينها من شأنه أن يُشكل نظاماً قوياً للدفاع عن الحدود الصليبية. ورأى سمائل أن من أهم أولويات الحاميات التي دافعت على تلك الحصون في زمن السلم قمع الاضطرابات والتصدي للغارات الصغيرة، ولكن حينما تقع الحروب الشاملة أو الكبيرة، فإنه لم يكن في مقدورها منع مرور القوى المهاجمة، بليل أن حامية حصن مخاضة يعقوب فشلت في منع غارات صلاح الدين على صفد وبيروت وصور والحصن نفسه طوال عام ١١٧٩م/٥٧٤-٥٧٥هـ. وأكد سمائل أن المسلمين نجحوا في اختراق حاجز الجبال والتلال - الذي وفر حماية مؤقتة للصليبيين - عبر مجموعة من الممرات الواسعة التي مكنتهم من اختراق العمق الصليبي من الشرق إلى الغرب، وكانت بعض الأماكن سيئة التحصين وبخاصة الطرق الرئيسية المؤدية إلى المملكة ولم تتوفر حماية طبيعية لبعضها، ولذا شيد الصليبيون بعض الحصون - ومنها مخاضة حصن يعقوب - بهدف اللجوء إليها وقت الخطر وللحصول على الدعم المادي والبشري. انظر:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 437-43. Cf. also: Prutz, *Kulturgeschichte der Kreuzzüge*, pp. 195-6. Cf. also: Smail, R.C., *Crusading Warfare*, (1097-1193), (Cambridge, 1956), pp. 204-8.

(٣) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 436-8.



والبساتين والمروج الخضراء^(١)، وفي هذا حرص من الصليبيين على الإفادة من البيئة المحيطة بالحصن لتوفير بعض احتياجات حاميته من الغلال والفاكهة. ولأجل هذا كان بناء الحصن مُرَجَّحًا للمسلمين وهدد حدودهم الغربية وخلق حالة من الجدل لدى صلاح الدين ومُستشاريه.

ولم يقف الباحث على أية دراسات سابقة مفردة ومستقلة في هذا الموضوع باللغة العربية، أما من تعرضوا له في إطار دراساتهم عن تاريخ مملكة بيت المقدس بعامه وعصر الملك بلدوين الرابع *Baldwin IV of Jerusalem* (١١٦١-١١٨٥م/٥٥٦-٥٨١هـ)^(٢) أو عصر صلاح الدين بخاصة، فقد غلب عليها التعميم والشمول والافتضاب بما لا يليق بالأثر الذي تركه هذا الحصن على مستقبل الصراع الإسلامي الصليبي. أما الدراسات الأجنبية، فقد وقف الباحث على عدة دراسات سابقة في هذا الموضوع يتصدرها الدراسة المهمة التي أعدها باربر *Barber* عن حصن مخاضة يعقوب والحدود الصليبية الإسلامية. وعالج باربر عدة إشكالات مهمة أفاد منها الباحث، ولكنه ركز على الأثر الذي تركه الحصن على الحدود الصليبية الإسلامية حينما نتبع نتائج استيلاء المسلمين على الحصن في تغير السياسة الحدودية برمتها لصالح المسلمين في الفترة التالية.

ولم يكن باربر مُوفقًا في بعض الإشكالات التي طرحها منها إشارته إلى مُعاصرة القاضي الفاضل بناء الحصن بصفته أحد شهود العيان، ووصف روايته بالأوفى خلافاً للحقيقة، وفي ظل حرصه على رصد الأثر الذي تركه بناء الحصن وهدمه على مستقبل الحدود بين الطرفين، فإنه لم يصف عمليات البناء أو تكاليف التشييد وتفاصيل عمارة الحصن وعمليات الحصار^(٣) وما إلى ذلك من القضايا التي يسعى الباحث إلى مُعالجتها.

(١) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص٢٥، ٢٩.

(٢) بلدوين الرابع: هو ابن الملك عموري الأول ووريثه، وقد أُصيب بالجذام ولم يتزوج، وتوفي عام ١١٨٥م/٥٨١هـ تاركًا ابن اخته بلدوين الخامس الطفل وليًا لعهدده. انظر: البنداري: سنا البرق، ص٢٨٨؛ مجهول: ذيل وليم الصوري، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٢٣٠، ص٢١. وأيضًا:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 397-509.

(٣) Barber, *Frontier Warfare*, pp. 9-10.

أما إيلينبلوم *Ellenblum* فله أكثر من دراسة اصطبغت بالطابع الأثري نتيجة لأعمال التنقيب التي قام بها في موقع حصن مخاضة يعقوب، وأفاد الباحث مما قدمه إيلينبلوم في بحوثه ودراساته، نظراً لكثير من الرؤى والتفسيرات المهمة التي طرحها^(١). وقد حرص الباحث على الإفادة من نتائج دراسات إيلينبلوم الأثرية وتوظيفها في هذا الموضوع من الناحية التاريخية. وعلاوة على ذلك، فإن إيلينبلوم لم يكن مؤمفاً في كثير من معالجاته بما في ذلك إشارته إلى مهاجمة صلاح الدين للحصن - في أبريل ١١٧٩م/شوال ٥٧٤هـ - بصحبة القاضي الفاضل ووصفه له بأنه كان مبعوث الخليفة^(٢)، وهذا مخالف للحقيقة؛ لأن صلاح الدين أغار على الحصن بصحبة الخادم فاضل مبعوث الخليفة وليس القاضي الفاضل^(٣)، فضلاً عن أن الأخير لم يكن في الشام آنذاك وإنما كان يؤدي فريضة الحج^(٤).

ونتيجة لتعصب إيلينبلوم ضد المسلمين، فإنه تبنى رؤية محددة مفادها عدم اكتمال بناء الحصن وقت مهاجمة المسلمين له، وسعى بكل وسيلة لإثبات تلك الفرضية ليقلل من شأن الانتصار الذي حققه صلاح الدين على الصليبيين بالاستيلاء على الحصن وتحويل مجرى الحوادث لصالح المسلمين بعدئذ^(٥). وأغفل إيلينبلوم في بحوثه الأثرية التي أجراها حول

(١) Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 83-97; Ellenblum, R., *Crusader Castles and modern histories*, (Cambridge University Press, 2007); pp. 258-74; Mitchell, D., Nagar, Y., Ellenblum, R., 'Weapon injuries in the 12th century Crusader garrison of Vadum Iacob Castle, Galilee', *International Journal of Osteoarchaeology*, Int. J. Osteoarchaeol, 16, March (2006), pp. 146-8.

(٢) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 89.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٤٧.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٤٧، ١٥٦-١٦٠، ١٨١-١٨٢.

(٥) Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 262-4.

الحصن الإشارة إلى واقعة همفري *Humphrey of Toron* ^(١) ومعركة مرج عيون وأثرهما في تغيير الموقف العسكري لصالح المسلمين وحثهم للاستيلاء على الحصن بالرغم من إصراره على تأكيد خوف صلاح الدين من مواجهة الصليبيين، بسبب هزيمته في معركة مونتجيسارد *Mont Gisard* في نوفمبر ١١٧٧م/ جمادى الأولى ٥٧٥هـ ^(٢).

دراسة نقدية لأهم المؤرخين الذين عالجوا تاريخ الحصن:

وقبل الخوض في بناء الحصن، فإنه ينبغي الوقوف على أهم المؤرخين الذين تناولوا بناء الحصن والاستيلاء عليه وتدميره. وينبغي حرص الباحث على معالجة هذه الإشكالية من وقوفه على كثير من المبالغات وأحياناً عدم الدقة لدى كل من باربر وإيلينبلوم بخصوص هذه الإشكالية. وقد انتقد باربر وصف ابن الأثير للحصن بالقوة والمنعة مُعتبراً ذلك مُبالغاً وعدها واحدة من صور التلميع التي أضفاها ابن الأثير على كيفية استيلاء المسلمين على الحصن وتدميرهم إياه. ولعله أصاب في اعتراضه على وصف ابن الأثير للحصن بالمنعة؛ لأن الأخير لم ير الحصن بالفعل، ولكن ابن الأثير لم يكن مُبالغاً، لأنه كان مُطلعاً على المصادر المُعاصرة وعلى اتصال بشهود عيان ولم يُقدم وصفاً لم يرد لدى المؤرخين المُعاصرين ^(٣).

(١) ورد ذكر الأجيال التي حملت اسم عائلة همفري مقروناً بتورون وتينين على مدى أربعة أجيال متتالية، وكانوا ممن شغلوا مكانة مرموقة في مملكة بيت المقدس. وورد اسم همفري في المصادر الإسلامية والصليبية بصور مُختلفة منها هنفري وهمفري وهنغري على ما ورد لدى المؤرخين المسلمين، بينما ورد بأشكال أخرى لدى المؤرخين الصليبيين على شاكله همفري وأونفرو *Onfori* وأمفرد *Amfrid* ورينفرو دي تورون *Reunfru du Toron*. انظر: الأصفهاني: الفتح القسي، ص ١١٣، ٣١٩؛ البنداري (الفتح البنداري): سنا البرق الشامي، تحقيق: فتحية النبراوي، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٣١٢؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٣، ص ١٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٧٢-٧٣. وأيضاً:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 452-453; Emoul, *Chronique d'Emoul*, pp. 31, 63, 311.

(٢) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 86.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٩٥.

ووقع باربر في تناقض آخر بخصوص المصادر حينما جعل رواية القاضي الفاضل الأكثر تفصيلاً من بين الروايات المعاصرة بحجة أن الفاضل كان أحد شهود العيان على بناء الحصن، وأنه حصل على روايته من صلاح الدين بحكم عمله كاتباً له وبخاصة أخبار الحوادث التي لم يكن شاهداً عليها^(١). ويرى الباحث أن التعويل على رواية الفاضل للأسباب المذكورة غير دقيق؛ لأن الفاضل لم يكن وقتها كاتباً لصلاح الدين بينما كان العماد الكاتب الأصفهاني كاتبه ومرافقه^(٢)، وكان الفاضل أقرب إلى صلاح الدين من الأصفهاني ذاته^(٣)، بيد إن الأخير كان أحد أهم شهود العيان على بناء الحصن، وشارك في العمليات الحربية

(١) Barber, *Frontier Warfare*, pp. 9–10.

(٢) لم يفارق الأصفهاني معسكر صلاح الدين منذ التحاقه بخدمته عام ١١٧٥م سوى مرات معدودة، واشترى بيتاً على مقربة من مقر إقامة صلاح الدين في دمشق عام ١١٨٦م/٥٨٢هـ ليكون قريباً منه في أي وقت، واستمر الأصفهاني كاتباً لصلاح الدين منذ التحاقه بخدمته حتى وفاة صلاح الدين عام ٥٨٩هـ/١١٩٣م. انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٨١؛ الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٦١-٦٢، ٧٤، ٩٩، ٢٣٧-٢٣٨؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ٢٨-٢٩، ٦٥-٦٦، ٣٢٣، ٣٤٥-٣٤٦، ٤٤، ٩-١٠، ٥٩، ٧٣، ٨٢، ٩٢، ٩٦، ٢٧٩، ٣٧٧. وأيضاً:

Lutz, R. B., 'Imād al-Dīn al-Isfahānī', *Medieval Muslim Historians and the Franks in the Levant*, (ed.) Alex Mallett, (Brill, 2014), pp. 29–36; Gibb, H. A. R., 'Al-Barq al-Shāmī: The History of Saladin by the Kātib 'Imād ad-Dīn al-Isfahānī', *Wiener Zeitschrift für Kunde des Morgenlandes*, vol. 52, (1953), pp. 93–115; Gibb, H. A. R., 'The Arabic Sources for the Life of Saladin', *Speculum*, vol. 25.1, (1950), pp. 58–72; Reynolds, D. F., ed., *Interpreting the Self: Autobiography in the Arabic Literary Tradition*, London, (2001), pp. 10, 146–55; Lutz, R. B., 'Funken aus dem kalten Flint: 'Imād ad-Dīn al-Kātib al-Isfahānī (II)', In: *Die Welt des Orients*. Bd. 22 (1991), pp. 119–21, 126–8, 130, 132.

(٣) عن دور القاضي الفاضل السياسي والعسكري انظر: حجازي عبد المنعم سليمان: «أصداء التخطيط السياسي والعسكري لدى صلاح الدين في رسائل القاضي الفاضل وديوانه»، مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية، العدد الثالث والثمانين، أكتوبر ٢٠١٠م، ص ٢٩٩-٣١٦.

التي أفضت إلى سقوطه بأيدي المسلمين وهدمه. وأما تأكيد باربر حصول الفاضل على مادته من صلاح الدين فلا يمكن الجدل فيه، بيد إن الأصفهاني ذاته كان يُوفي الفاضل في أثناء وجود الأخير في الحجاز - منذ مارس ١١٨٩م/أواخر شوال ٥٧٤هـ لتأدية فريضة الحج - برسائل أطلعت على مجريات الحوادث المتعلقة بالحصن^(١).

والشاهد، إن وصف باربر لرواية الفاضل بالأوفى لكونه أحد شهود العيان وبسبب مصادره المتعددة وصف غير دقيق؛ لأن الفاضل لم يكن موجوداً في بلاد الشام ليشهد بناء الحصن والغارات التمهيدية ومعركتا همفري ومرج عيون^(٢). ولم يكن الفاضل موجوداً في الشام ذلك العام سوى وقت سقوط الحصن في أغسطس ١١٧٩م/ربيع أول ٥٧٤هـ، ولكن لم يقف الباحث على ما يُفيد بمرافقة الفاضل للجيش وقت سقوط الحصن أم لا؛ وذلك خلافاً للأصفهاني الذي شارك في غالبية العمليات العسكرية التي خاضها الجيش الإسلامي ضد الصليبيين من بدايتها إلى نهايتها، وكان برفقة الجيش، حينما اقتحم الحصن في ٢٨ من أغسطس ١١٧٩م/٢٤ من ربيع أول ٥٧٥هـ^(٣). وعلى الرغم من اعتماد باربر على الأصفهاني، فإنه لم يعد إلى كتابه البرق الشامي الذي تعرض لتلك الإشكالية بالتفصيل، وإنما نقل رواية الأصفهاني من أبي شامة^(٤).

وتتبع قيمة رواية الأصفهاني عن الحصن من صفته الإدارية بالنسبة لصلاح الدين؛ لأنه كان كاتبه وكاتم أسراره ورافقه في غالبية تحركاته بعامة وتحركاته تجاه هذا الحصن بخاصة^(٥). ولا ريب في أن الأصفهاني أفاد من الأسرى الذين حررهم صلاح الدين من الحصن في استكمال

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٤٦-١٤٧، ١٤٩-١٥٢، ١٥٩-١٦٠، ١٨١-١٨١.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٤٥-١٤٦.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٨١.

(٤) Barber, *Frontier Warfare*, pp. 9-10.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٨١؛ الأصفهاني: الفتح القسي، ص٢٤٣؛ البنداري: سنا البرق،

ص٩٠؛ ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر، ت: ٦٨١هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق:

إحسان عباس، ج٤، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ص١٤٩؛ أبو شامة: الروضتين، ص٤٧٤. وأيضاً:

Lutz, *Imād al-Dīn al-ḡfahārī*, pp. 38-9; Lyons, M. C. & Jackson, D.E.P., *Saladin: The Politics of the Holy War*, (Cambridge, 1982), pp. 293-5; Gibb, H. A. R., *The Life of Saladin from the Works of Imād ad-Dīn and Bahā' ad-Dīn*, (Oxford, 1973), pp. 94-8.



الصورة التي قدمها عنه بحكم مشاركتهم في تشييده^(١)، مثلما أفاد من مرافقته للجيش وقت سقوط الحصن، وبذا يتفرد الأصفهاني عن معاصريه بأنه يكاد يكون المؤرخ الوحيد تقريباً الذي شهد عمليات بناء الحصن وحصاره وسقوطه وتدميره من بدايتها إلى نهايتها.

أما المؤرخون الآخرون فلم تضاهي روايتهم رواية الأصفهاني، وكان المؤرخ الصليبي المعاصر وليم الصوري موجوداً في أوروبا لحضور مجمع اللاتيران الثالث الذي عقد في روما في ٥ من مارس ١١٧٩م/٢٥ من رمضان ٥٧٤هـ، حينما شرع الصليبيون في بناء الحصن ولم يشهد غالبية الحوادث المتعلقة به^(٢)، وبالرغم من عودته إلى المملكة حينما شرع صلاح الدين في حصار أغسطس ١١٧٩م/ربيع أول ٥٧٥هـ الذي أسفر عن سقوط الحصن فقد جاءت روايته حينها قصيرة ومُبهمّة وغافلة عن تفاصيل عمارته^(٣)، وذلك خلافاً لعادة وليم الصوري في اهتمامه بالجوانب المعمارية والطبوغرافية؛ ربما لأنه كان متأثراً سلباً بتدمير الحصن.

ومما يُرجح عدم رؤية وليم الصوري للحصن أن الفترة التي عاد فيها من أوروبا إلى المملكة هي الفترة التي غلبت فيها كفة صلاح الدين وبات مُحاصراً للحصن تقريباً، وشهدت المنطقة حالة حرب دائمة، وانشغل الصليبيون بالتصدي للغارات التي شنّها صلاح الدين من بانياس وما حولها على مدنهم وضياعهم، ولذا لم يصف وليم عمارة الحصن بالرغم من روايته الطويلة عن المعارك والاشتباكات التي دارت حول الحصن وإن حاول تصويرها بمعزل عن محاولات المسلمين للاستيلاء على الحصن. ولعله لو رأى الحصن أو وصفه له أحد الصليبيين - وكان هذا من الأمور الصعبة؛ لأن الذين شهدوا آخر أعمال بناء الحصن، وكانوا فيه وقت الاستيلاء عليه سقطوا بين قتيل وأسير - لنقل لنا وصفاً فاق به وصفه للقسطنطينية بعد زيارته لها^(٤) أو وصفه للقاهرة الفاطمية

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٨٠.

(٢) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 436-8.

(٣) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 438-45

(٤) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 379-84. Cf. also: Runciman, S., 'The visit of King Amalric I to Constantinople in 1171', (eds.) Kedar, B. Z., Mayer, H., and Smal, R. C., *Outremer: Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem presented to Joshua Prawer*, (Jerusalem, 1983), pp. 153-8.

وغيرها^(١)، ولكن يبدو أن السرعة التي شُيِّد بها الحصن وهُدِمَ بها أيضًا أصابته بالإحباط وجعلته يحجم عن وصفه المعتاد، وقد رأى باربر أنه ونتيجة لتلك الظروف ربما لم يُحط وليم تمامًا بملاسات بناء الحصن^(٢).

بناء الحصن:

أولاً: المشاركون في البناء وتأمين الموقع:

بدأت عمليات البناء في أكتوبر ١١٧٨م/ربيع أول ٥٧٤هـ، وأكد وليم الصوري أن كافة قوى المملكة احتشدت للمساهمة في عمليات البناء وتأمينها، بيد إن ذلك لم يحدث طوال فترة الستة أشهر التي شُيِّد فيها الجانب الأكبر من الحصن؛ فقد شارك في بناء الحصن كل من الملك بلدوين الرابع وغالبية بارونات المملكة وكبار موظفيها وعلى رأسهم همفري أوف تورون الكونستابل الملكي ورينالد سيد صيدا *Reinaldus Sydoniensis* وغيرهما^(٣)، كما شارك كل من بوهمند الثالث أمير أنطاكية *Bohemond III of Antioch* (١١٤٤-١٢٠١م/٥٣٤-٥٩٧هـ) وريموند الثالث أمير طرابلس *Raymond III of Tripoli* (١١٤٠-١١٨٧م/٥٣٤-٥٩٧هـ).

(١) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 318-322. Cf. also: Schlumberger, G., *Campagnes du Roi Amaury I de Jérusalem en Egypte*, (Paris, 1906). pp. 116-24.

(٢) Barber, *Frontier Warfare*, p. 20. note. 3.

(٣) Delaville Le Roulx, (J.), *Cartulaire général de l'ordre des Hospitaliers de St Jean de Jérusalem*, vol. 1, (Paris, 1894-1906), pp. 379-80, no. 559, pp. 362-3, no. 530, pp. 363-4, no. 531; Mayer, H. E., *Die Urkunden der lateinischen Könige von Jerusalem*, vol. 2, (Hanover, 2010), pp. 647-8, 687-8, nos. 376, 404, pp. 688-91, no. 405, pp. 692-3, no. 406, pp. 697-8, no. 408; Müller, G., *Documenti sulle relazioni delle città toscane coll'Oriente cristiano e coi Turchi fino all'anno 1531*, (Florence, 1879), pp. 17-18, no. 15; Hiestand, R., *Papsturkunden für Templer und Johanniter*, vol. 2, (Göttingen, 1972-84), pp. 239-47.

٥٨٣هـ) ومقدم الداوية أودو أوف سانت أماند *Odo of St Amand* ومقدم الاسبتارية روجر أوف مولان *Roger de Moulins* وغيرهم كثير^(١). وبالرغم من مرض بلدوين الرابع وتدهور حالته الصحية، فإنه ظل معسكرًا في موقع البناء منذ أكتوبر ١١٧٨م/ربيع أول ٥٧٤هـ وحتى وقت رحيله عنه في ٢ من أبريل ١١٧٩م/٢٣ من شوال ٥٧٤هـ على ما تُفيد الوثائق الملكية التي حررها من موقع الحصن. وقد حرر من معسكره في مخاضة يعقوب الملك خلال تلك الفترة بعض وثائق المنح والهبات^(٢) وصادق على بعضها الآخر^(٣)، وفض نزاعًا بين الداوية والاسبتارية^(٤) وغير ذلك مما ورد في الوثائق التي حررها الملك في أثناء إقامته في موقع البناء. وفضلاً عن بلدوين الرابع، فقد أكدت قائمة شهود تلك الوثائق وجود كل من أمير أنطاكية وأمير طرابلس والكونت جوسلين الثالث *Joscelin III of Edessa* (١١٣٤-١٢٠٠م/٥٢٨هـ-٥٩٦هـ) ومقدم الداوية ومقدم الاسبتارية ورينالد سيد صيدا وأبراهام الناصري *Abraham de Nazareth* وغيرهم كثير من بارونات الصليبيين في الشرق في موقع البناء خصوصاً في الفترة من فبراير وحتى أبريل ١١٧٩م/شوال ٥٧٤هـ^(٥)، الأمر الذي يعكس تكاتف الصليبيين وتعاونهم للانتهاء من بناء الحصن في وقت قصير، وبخاصة أن صلاح

(١) Delaville Le Roux, *Cartulaire général*, vol. 1, pp. 379-80, no. 559; Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 692-3, no. 406, pp. 697-8, no. 408; Müller, *Documenti*, pp. 17-18, no. 15; Hiestand, *Papsturkunden*, vol. 2, pp. 239-47, no. 28.

(٢) Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 688-91, no. 405.

(٣) Delaville Le Roux, *Cartulaire general*, vol. 1, pp. 362-3, no. 530, pp. 363-4, no. 531; Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 647, 687, nos. 375, 403, pp. 647-8, 687-8, nos. 376, 404, pp. 692-3, no. 406.

(٤) Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 693-7, no. 407, pp. 697-8, no. 408, pp. 698-700, no. 409; Hiestand, *Papsturkunden*, vol. 2, pp. 239-47, no. 28.

(٥) Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 704-5, no. 412.

الدين كان قد انتهى من حصار بعلبك^(١) وعاد إلى دمشق في منتصف مارس مما جعل الصدام وشيكاً بين الطرفين^(٢). أما بعد الثاني من أبريل حيث حرر الملك آخر وثيقة ملكية له في موقع الحصن، فإنه حرر الوثائق التالية - وفقاً لما وقف عليه الباحث - ابتداءً من الأول من مايو ١١٧٩م/٢٣ من ذي القعدة ٥٧٤هـ في عكا^(٣)، ثم في عكا مرة أخرى في ٢٤ من نوفمبر ١١٧٩م/٢٣ من جمادى الآخرة ٥٧٥هـ^(٤)، وفي بيت المقدس أولاً في ٢٢ من أكتوبر/٢٠ من جمادى الأولى ٥٧٥هـ^(٥) ثم في ديسمبر ١١٧٩م/رجب ٥٧٥هـ^(٦)، كما تُشير وثائق المملكة والداوية والإسبتارية^(٧).

(١) عن قلعة بعلبك الواقعة في البقاع انظر: مولر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص ٦٧-٦٨.

(٢) تضمنت قائمة شهود الوثائق التي حررها الملك من موقع البناء عدداً كبيراً من أمراء الشرق الصليبي الذين شاركوا في بناء الحصن ومنهم: جوسلين كونت الرها، ورينالد سيد صيدا والنيل باليناس من أبلين، وبطرس دو كرايزيكا قسطنطين بيت المقدس، وجالتيروس دي بيرتو وغيرهم من وجوه المملكة. انظر:

Delaville Le Roulx, *Cartulaire general*, vol. 1, pp. 362-3, no. 530, pp. 363-4, no. 531; Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 647, 687, nos. 375, 403, pp. 647-8, 687-8, nos. 376, 404, pp. 688-91, no. 405, pp. 697-8, no. 408; Hiestand, *Papsturkunden*, vol. 2, pp. 239-47, no. 28.

(٣) Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 704-5, no. 412.

(٤) Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 708-10, no. 415.

(٥) Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 706-7, 848, nos. 413, 498.

(٦) Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 704-5, no. 412.

(٧) Prutz, H., *Malteser Urkunden und Regesten zur Geschichte der Tempelherren und der Johanniter*, (Munich, 1883), p. 115 no. 44.

وتاريخ هذه الوثيقة غير محدد على وجه اليقين، ويرجح بروتس صدورها في الفترة من ١٠ أبريل إلى ٢٤ ديسمبر ١١٧٩م، مما يعني أنه في أسوأ الفروض فإن الملك بلدوين رحل عن الحصن في العاشر من أبريل. وتؤكد بعض الوثائق أن آخر ظهور للملك في الحصن كان في الثاني من أبريل ١١٧٩م. انظر:

Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 700-3, no. 410.

وبالرغم من إشارة الوثائق إلى وجود كل من أمير طرابلس^(١) وأمير أنطاكية^(٢) في موقع البناء، فإنهما كانا يتركانه ويعودان إلى إمارتيهما من وقت لآخر، على ما فعل كل من بوهمند الثالث وريموند الثالث الذين عادا مرة وربما أكثر إلى إمارتيهما لقضاء بعض أشغالهما على ما تفيد الوثائق التي حرراها من أنطاكية وطرابلس قبل ٢ من أبريل ١١٧٩م/٢٣ من شوال ٥٧٤هـ، وتعلق بعضها بحسم بعض الخلافات أو الموافقة على إنهاء نزاع ما على ما حدث بين الداوية والاسبتارية^(٣). وقد شارك ريموند الثالث في معركة مرج عيون ونجا منها بصعوبة^(٤)، ولكن لم يقف الباحث على مشاركة أمير أنطاكية في تلك المعركة أو غيرها من المعارك التي وقعت في الفترة ما بين رحيل الملك عن موقع الحصن في الثاني من أبريل ١١٧٩م/٢٣ من شوال ٥٧٤هـ وحتى وقت استيلاء المسلمين على الحصن في ٢٨ من أغسطس ١١٧٩م/٢٤ من ربيع أول ٥٧٤هـ.

ويرجح الباحث في ضوء تلك الوثائق أن كل من ريموند الثالث وبوهمند الثالث لم يُشاركوا في العمليات العسكرية التي أفضت إلى سقوط الحصن في أغسطس ١١٧٩م/شوال ٥٧٤هـ، حيث صدرت وثيقة في أنطاكية بتأكيد من بوهمند الثالث في ٢٩ من أغسطس/٢٥ من ربيع أول وتُرجح ابتعاد بوهمند عن ما يحدث في حصن مخاضة يعقوب وقت حصاره

(١) Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 692-3, no. 406; Müller, *Documenti*, pp. 17-18, no. 15.

(٢) Hiestand, *Papsturkunden*, vol. 2, pp. 239-47, no. 28; Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 697-8, no. 408.

(٣) Delaville Le Roux, *Cartulaire general*, vol. 1, pp. 379-380, no. 559.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٨٠. وأيضاً:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 442.

وسقوطه^(١)، وكذا الحال بالنسبة لريموند الثالث^(٢)، ولم يقف الباحث سوى على قدوم رسول ريموند الثالث إلى معسكر صلاح الدين عقب استيلاء الأخير على الحصن^(٣).
وأما الداوية والاسبتارية، فلم يلتزما بالبقاء في الموقع طوال فترة البناء، وذلك على الرغم من أن بناء الحصن نتج عن ضغط الداوية على الملك لتشييد الحصن في هذا الموقع على وجه التحديد^(٤)، علاوة على تأثر السياسة الحدودية الجديدة للصليبيين برؤى كل من الداوية والاسبتارية في بناء - أو إعادة بناء - حصون الجبهة الشرقية في هونين في أعلى الجليل ومخاضة يعقوب في منطقة ممرات الأردن إلى قلب المملكة والساحل وكوكب الهواء في جنوب غرب طبرية للسيطرة على الغور^(٥)، ناهيك عن

(١) Delaville Le Roux, J, *Les Archives, la bibliothèque et le trésor de l'ordre de Saint-Jean de Jérusalem à Malte*, (Paris, 1883), pp. 142-4, no. 52; Cf. also: Prutz, *Malteser Urkunden*, p. 117, no. 47.

(٢) قام ريموند الثالث بتحرير وثيقة أقر فيها بعض المنهج والاقطاعات وذلك في التاسع والعشرين من أغسطس ١١٧٩م، وهذا يؤكد أنه لم يشارك الملك في التحرك لإتخاذ الحصن من حصار المسلمين. انظر: Delaville Le Roux, *Les Archives*, pp. 142-4, no. 52. Cf. also: Prutz, *Malteser Urkunden*, p. 117, no. 47.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامى، ج٣، ص ١٨٠.

(٤) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 436-8.

(٥) يُعرف الغور بأنه الانخفاض السهلي الكبير الواقع بين فلسطين وسورية والأردن، ويُسمى قسمه الشمالي بسهل الحولة، ولا يزيد عرضه عن ٨ كم، وتقدر مساحته بحوالي ٢٦٢ كم، ويُعرف القسم الواقع بين بحيرة طبرية في الشمال والبحر الميت في الجنوب باسم وادي الأردن أو غور الأردن، وكثيراً ما يُذكر تخفيفاً باسم الغور فقط، وتقدر مساحته بحوالي ٦٨١ كم. ويبلغ عرض الغور في الضفة الفلسطينية في جنوبي بحيرة طبرية نحو ٦.٥ كم، ثم يتسع حتى يبلغ ١٣ كم مقابل بيسان، ولكنه يضيق حينما يدخل بيسان ليصل عرضه إلى ٥ كم، ثم يتسع ثانية حتى يصل إلى ١٠ كم عند خربة مضابيل، أما أقصى عرض له فيصل مقابل أريحا إلى ٢٢.٥ كم. وفي الغور قرى ومزارع ومدن كثيرة منها أريحا وطبرية وبيسان وعمتا والعوجا وفحل والصنبرة وعين جالوت وغرببلا شرقي بيسان وغيرها كثير. انظر: مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين، ج١، ق١، ص ٩٢-١٠٣.

قلعتي الكرك^(١) والشوبك^(٢) في جنوب شرق المملكة بحيث يمكن السيطرة على إيقاع هذه الحدود وتحجيم قوة المسلمين في دمشق، وكثيراً ما كانوا يتركون موقع البناء من وقت لآخر وفق مصالحهم. وقد رصدت الوثائق نشوب خلاف بين مقدمي الداوية والإسبتارية في فترة بناء الحصن وتدخل بوهمند للصلح بينهما في أنطاكية وليس في موقع الحصن^(٣). وعليه، فإن الملك تولى منذ البداية مسؤولية بناء هذا الحصن وتأمينه ولم يرحل عن موقع البناء لمتابعة تطور العمل وتأهباً لأي رد فعل من جانب المسلمين، بينما كان أمراء أنطاكية وطرابلس، وكذا مقدمي الداوية والإسبتارية أقل التزاماً بالبقاء في موقع البناء.

ثانياً: عمليات البناء ووصف الحصن:

بدأت عمليات البناء في أكتوبر ١١٧٨م/ربيع الآخر ٥٧٤هـ لاعتبارات أمنية ومناخية، فأما الأمنية، فمردها انشغال صلاح الدين بحصار مدينة بعلبك لإخماد تمرد ابن المقدم بها، فاستغل الصليبيون هذا الموقف لصالحهم، وشرعوا في بناء الحصن^(٤)، ولم تنفرج أزمة حصار بعلبك سوى في منتصف مارس عام ١١٧٩م، ولذا استغل الداوية تلك الفرصة وشرعوا في بناء الحصن وبخاصة أن الصليبيين نقضوا هدنة عام ١١٧٧م/٥٧٢هـ منذ هجومهم على حماة في أغسطس ١١٨٧م/ربيع أول ٥٧٤هـ قبيل حصار صلاح الدين

(١) الكرك: قلعة حصينة تقع في جبال البلقاء وتتوسط ميناء أيلة والبحر الأحمر وبيت المقدس، وتقع على قمة جبل مرتفع وتحيط بها الأودية من ثلاث جهات. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٥٣.

(٢) الشوبك: تقع قلعة الشوبك الحصينة على يمين وادي عربة، بين عمان وأيلة والبحر الأحمر وبالقرب من الكرك، وشيدت بهدف مراقبة شرق مملكة بيت المقدس. انظر: فولشر أوف شارتر: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ترجمة وتعليق: قاسم عبده قاسم، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٢٥٧-٢٥٨؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٣٧٠.

(٣) Delaville Le Roux, *Cartulaire general*, vol. 1, pp. 879-80, no. 559.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٤٤-١٤٥؛ ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٢.

لبعلبك^(١). وأما الاعتبار المناخية فمرجعه أن الحرارة لا تُحتمل في الجزء العلوي من وادي الأردن في الفترة من يونيه إلى نهاية سبتمبر، ثم تتخفص درجات الحرارة بشكل كبير في شهر أكتوبر، وتبدأ مواسم الأمطار أيضاً بنهاية شهر أكتوبر وتصل نروتها في الفترة من ديسمبر إلى فبراير، ولذا لم يكن أمام الصليبيين سوى شهرين من أعمال البناء المكثف في الطقس المعتدل في أكتوبر ونوفمبر قبل بداية موسم الأمطار.

وأشار وليم الصوري إلى اختيار مكان الحصن على جاري عادة الصليبيين في بناء الحصون والقلاع على تل مسطح *Mediocriter Eminens* متوسط الارتفاع^(٢)، وأكد الأصفهاني أن الصليبيين قاموا بتسوية التل ليناسب بناء الحصن^(٣). ويرى كينيدي أنه تم تشييد الحصن في موقع حيوي على جاري عادة الصليبيين خصوصاً الداوية في بناء حصونهم على أحد الطرق المهمة^(٤). وقد أشار الفاضل إلى باشورة الحصن دون أية تفاصيل^(٥)، ووصفها باربر بالمُحيط الضخم الذي يرتبط بالحصن وتُمثل أماكن الخدمة لتشغيل الحصن^(٦). وحفر المعماريون خندقاً في الجهة الشرقية أمام الباب الرئيس^(٧)، بيد إن موقع الخندق المُستقبلي كان على بُعد عشرة أمتار تقريباً إلى الشمال والجنوب من جدران الحصن^(٨).

(١) Emoul, *Le Chronique*, p. 52.

وأيضاً: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٩٢. وأيضاً:

Barber, *Frontier Warfare*, pp. 10-11.

(٢) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 437.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٨٠.

(٤) Kennedy, *Crusader Castles*, p. 57.

(٥) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص٢٥.

(٦) Barber, *Frontier Warfare*, p. 10.

(٧) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 263.

(٨) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.



ولم يُشر إلى الشكل الهندسي للحصن سوى وليم الصوري الذي أكد أن الحصن كان رباعي الشكل وأنه شُيد من الحجر وعلى ارتفاع معقول وسُمك عجيب وأساسات عميقة^(١). بيد إن باربر رجح أن يكون الحصن سداسي الشكل بناءً على توزيع أعمال نقب الحصن على خمسة مواضع من الجدران التي لغمها المسلمون، مما يرجح توزيع أعمال النقب وفقاً لعدد جدران الحصن^(٢). بيد إن ترجيح باربر غير دقيق؛ لأنه اعتمد في فرضيته تلك على رواية المؤرخين المسلمين بتقسيم نقب الجدران على خمسة فرق مختلفة، بيد إن الرواية ذاتها أكدت مشاركة بعض الفرق الخمسة في نقب جهة واحدة من الحصن، ولم تُحدد رواية المؤرخين المسلمين سوى جهتين وهما الشمالية والجنوبية تقريباً اللتين نقبهما المسلمون^(٣)، وجاء وصف المؤرخين لتوزيع بقية جهات

(١) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 436-7.

لم تُشر المصادر إلى عمق أساس الجدران في حصن مخاضة يعقوب، وبالرغم من الحفريات الأثرية التي أجريت في موقع الحصن فلم نقف في نتائجها على مقدار عمق أساسات الجدران، ولكنها أوقفتنا على أساس جدران القصر الهلبيستي الذي عثرت بعثة التنقيب على بعض بقاياها في الموقع؛ فقدرت بعض أساسات بعض الجدران بمتر واحد وفُقدت أساسات سواها بين متر ونصف ومتريين من السطح الحديث. وقد أشار إيلينبلوم في دراسته التي اعتمد فيها على نتائج تنقياته في موقع الحصن إلى أن عتبة جدار الحصن كانت على عمق من ثلاثة إلى خمسة أمتار تقريباً. ويبدو أن المعمارين كانوا على دراية بضرورة تصريف المياه من الأساسات، لأنهم ربما تعلموا من تجاربهم أنه يجب تجنب وجود كمية كبيرة من التربة بين الجدران الداخلية والخارجية؛ لأنها ستمتص كمية كبيرة من مياه الأمطار مما يُشكل ضغطاً هيدروليكيًا على الجدران ويتسبب في انهيارها. وتبدو هذه الظاهرة أكثر حدة في منطقة البحر المتوسط، حيث تتركز معظم الأمطار في بضعة أشهر فقط من العام وهو الوقت الذي شرع فيه الصليبيون في البناء. ومن أجل تجنب هذا الخطر فقد قام المعمارون بحفر أساس الجدران على عمق كبير ونقلوا إلى موقع البناء نوعين من التربة: البنية المكونة من صخور البازلت الغنية بالسلكيتيت والفلسبار وكمية أقل من الكاولينيت، والتربة الصفراء الغنية بأنواع مختلفة من الطين، ويحتوي هذا الخليط على خصائص هندسية وهيدروستاتيكية تعمل على منع تغلغل المياه في الأساسات أو الحد من خطرهما. انظر:

Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 269-70.

(٢) Barber, *Frontier Warfare*, p. 10.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٧٩-١٨٣؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ٢٥..



جهات الحصار ونقب الجدران مُبهماً^(١)، وعلى افتراض صحة فرضية باربر بأن الحصن سداسي الشكل بناء على فرق النقب فإن تلك الفرق لم تزد عن خمسة فرق.

ورجح كيندي استئطالة شكل الحصن حينما وضع في الاعتبار أن الصليبيين كانوا يُفضلون بناء القلاع المُستطيلة *Rectangular 'castrum' plan* من نوع العلبة، وهو النموذج الذي فضله الداوية والاسبتارية في بناء قلاعهم؛ لأنها تُشبه الأديرة في قوة تحصينها، ولم يكن يُشيد بداخل هذا النموذج سوى كنيسة وقاعة للطعام وأبنية أخرى مُقبية^(٢)، وقد أكدت أعمال التنقيب أن بقايا الفرن كانت تحت سقف مُقب^(٣). وعلى ما يبدو، فإن هذه الاعتبارات الوظيفية، غير المتأثرة بالأمثلة الرومانية أو الإسلامية، هي التي دفعت الداوية والإسبتارية إلى تبني خطة بناء القلاع المُستطيلة^(٤). وقد رجحت نتائج التنقيبات التي أجراها إيلينبلوم في موقع الحصن وبخاصة بعد كشفه عن أساس جدران الحصن أنه كان مُستطيل الشكل^(٥).

وأكد إيلينبلوم أن عمال البناء والمهندسين شيّدوا الحصن على موقع بناء قديم يعود للحقبة الهلنستية^(٦)، وأن المعمارين أدخلوا بقايا أجزاء من جدران مجمع أبنية تعود إلى تلك

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٨١، ١٨٩؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ٢٦.

(٢) Kennedy, *Crusader Castles*, p. 57.

(٣) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.

(٤) Kennedy, *Crusader Castles*, p. 57.

(٥) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 263.

(٦) عثرت بعثة التنقيبات على بقايا أبنية هلنستية شيّدت في موقع الحصن، وتقع تلك المنشآت في الجزء الشمالي من حصن مخاضة يعقوب، وإلى الجنوب من الجدار الجنوبي للحصن، واقتطعت تلك الأبنية في الموقعين الشمالي والجنوبي بسبب الصدع. وقد حدثت إزاحة لبعض الجدران تصل إلى ستة أمتار تقريباً ربما بفعل زلزال ضرب الموقع في القرن الثاني الميلادي، ولا توجد هياكل عظمية تعود للعصرين الهلنستي والصليبي، وتم التعرف على القطع الأثرية على أنها شموع وأواني طهي وما سوى ذلك تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد. انظر:

Ellenblum, R., Marco, S., Agnon, A., Rockwell, T., and Boas, A., 'Crusader castle tom apart by earthquake at dawn 20 May 1202', *Geology*, v. 26, (1998), pp. 303-6.



الحقبة وربطوا بينها وبين الجدران الخارجية لحصن مخاضة يعقوب^(١). وقد وصف الفاضل في رسالته إلى الخليفة العباسي مدى ضخامة الحجارة التي استخدمت في بناء جدران الحصن، وقدر أحجار البناء بعشرين ألف حجر "...لا يستقر الحجر في مكانه، ولا يستقل في بنيانه إلا بأربعة دنانير فما فوقها..."^(٢). وتم حشو ما بين الوجهين الداخلي والخارجي للجدران بقطع الأحجار الصلبة^(٣)، وسُقيت تلك الأحجار بالكلس الذي زاد من صلابة الجدران^(٤). ويرجح الباحث وفي ضوء ضخامة تلك الأحجار أنها قُطعت من الجبال المجاورة المجاورة وأن الصليبيين ربما أجبروا الأسرى المسلمين على العمل في قطعها ونقلها إلى موقع البناء^(٥)، تمامًا مثلما أفاد الصليبيون من جنود الجيش في مساعدة المعماريين والحرفيين^(٦).

وأشار الأصفهاني إلى شدة ارتفاع جدران الحصن^(٧)، وقدر إيلينبلوم ارتفاعها بعشرة أمتار تقريبًا^(٨). وقد أشار كينيدي إلى أن عرض الجدار يُقدَّر بأربعة أمتار ونصف تقريبًا^(٩)، وفي هذا مخالفة لما أشارت إليه المصادر الإسلامية التي انفردت بتقدير عرض الجدار بتسعة أذرع نجارية^(١٠)، الذي يُساوي ذراعًا ونصفًا من مقدار

(١) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص٢٨.

(٣) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 436-7.

(٤) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص٢٨.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٨٠.

(٦) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 89.

(٧) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٨٠.

(٨) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.

(٩) Kennedy, *Crusader Castles*, pp. 106, 110.

(١٠) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٨٠؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص٢٨.

الذراع العادي^(١)، وهذا يعني أن عرض الجدران تخطى ستة أمتار ونصف تقريباً. ويرى ويرى كيندي أنه من الممكن تمييز الخطوط العريضة للجدران التي تُوجد على الربوة بجانب النهر في موقع الحصن^(٢).

وحرص المعماريون على تجنب الجدران الضغط الهيدروليكي الناتج عن سقوط الأمطار في شهري نوفمبر وديسمبر وبخاصة مع ارتفاع الجدران إلى عشرة أمتار، ولذا صمم المعماريون نظاماً بدائياً لصرف مياه الأمطار إلى خارج موقع البناء^(٣). وقد أشار كيندي إلى أن الجدار الذي شيده الصليبيون لم يكن سوى الجدار الداخلي، وأن الجدار الخارجي لم يُشيد حتى وقت سقوط الحصن، واستدل على ذلك بغياب بعض تفاصيل العمارة الحربية السائدة في العصور الوسطى وبخاصة المرتبطة بالأسوار الخارجية^(٤). وقد خلصت تقنيات إيلينبلوم ودراساته إلى وصف ذلك الجدار بأنه الجدار الداخلي أو الساتر وليس الجدار الخارجي؛ لأن الصليبيين اضطروا إلى تشييده على عجلة خوفاً من مهاجمة المسلمين لهم في أثناء البناء مما جعل من بناء هذا الجدار أمراً ضرورياً من الناحية الأمنية.

وأشار إيلينبلوم إلى أن خطة بناء الحصن تضمنت ثلاث مراحل على أن يكون أولها بناء هذا الجدار الساتر، وعادة ما يتم الانتهاء منه في غضون بضعة أشهر بما يسمح

(١) أشار بعض المؤرخين إلى أبعاد الحصن بالذراع، وأكفوا أن المقصود بالذراع المستخدم في الحصن هو الذراع النجاري الذي يساوي ضعفاً ونصف من الذراع العادية على ما أشار ابن الأثير، ويُعرف هذا بالذراع النجارية المصرية. وقد أشارت موسوعة وحدات القياس العربية إلى أن الذراع في القرن الرابع عشر كان يساوي ٧٥ سم. ومن الناحية الهندسية يُقدر الذراع المعماري بـ ٧٥ سم بينما يُقدر الذراع العادي أو البلدي بـ ٥٨ سم. وإذا أخذنا بأن الذراع يساوي ٧٥ سم على اعتبار أنه الذراع النجاري فإن عرض الحائط يساوي ٦٠.٧٥ ذراعاً تقريباً. انظر: ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٩٦-٩٧. وأيضاً: هنتز: المكابيل والأوزان الإسلامية، ص ٩٠؛ محمود فاخوري وصلاح الدين خولم: موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية وما يعادلها بالمقايير الحديثة، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م، ص ١٢٨.

(٢) Kennedy, *Crusader Castles*, p. 57.

(٣) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.

(٤) Kennedy, *Crusader Castles*, p. 117.

بتطويق موقع البناء وتوفير الحد الأدنى من الأمان للمعماريين والحرفيين. بينما تضمنت المرحلتين الثانية والثالثة تشييد الجدار الخارجي والأبنية والمرافق الداخلية بالحصن^(١). ورجح إيلينبلوم انتهاء الجدار الداخلي بطول أبريل ١١٧٩م/شوال ٥٧٤هـ، في حين خصص المعماريون الأشهر الأربعة التالية لتحسين ظروف الحياة داخل الحصن وتجهيزه لبرودة شهور الخريف والشتاء^(٢). وبدأ بناء هذه المرحلة أعمال التشييد انطلاقاً من الزاوية الجنوبية الشرقية للحصن وانتقلوا منها إلى الشمال، ولكن تعرض الحصن آنذاك للحصار والتدمير^(٣).

ورفض إيلينبلوم رواية وليم الصوري الواضحة عن انتهاء العمل في بناء الحصن في أبريل ١١٧٩م/شوال ٥٧٤هـ^(٤)، بحجة أن وليم لم يشهد بناء الحصن، وذلك لمغادرته المملكة إلى روما في أكتوبر ١١٧٨م^(٥)، ورجح في ضوء التتقيات التي أجراها توقف أعمال البناء فجأة حينما هاجم المسلمون الحصن في أغسطس ١١٧٩م/ربيع أول ٥٧٥هـ، وأن المعماريين لم يحفروا أكثر من ٧٥% من أساس الحصن^(٦). ووفقاً لإيلينبلوم فقد اضطر بلدوين الرابع إلى الرحيل عن الحصن فور اكتمال الجدار الساتر في أبريل ١١٧٩م/شوال ٥٧٤هـ؛ وذلك لأنه حشد الجيش في موقع الحصن لتأمين أعمال البناء مما كلف الصليبيين مزيداً من النفقات، وبخاصة مع امتداد المرحلة الأولى من البناء إلى ستة أشهر، وكان من الصعب على فرق الجيش البقاء حتى تكتمل الجدران الخارجية التي ميزت الحصون الصليبية منذ العقد السابع من القرن الثاني عشر^(٧).

(١) Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 264–5; Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 89–90.

(٢) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 88.

(٣) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.

(٤) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 444.

(٥) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 436, 438.

(٦) Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 264–5.

(٧) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 89.

ولذا وبمجرد بناء أول جدار ساتر للحصن، فقد تم الإعلان عن اكتمال بناء الحصن، ورحل الملك والجيش عن موقع البناء لتخفيض النفقات اليومية، وتولت الحامية المؤلفة من فرسان الداوية مسئولية تأمين المعمارين والحرفيين لإكمال المرحلة الثانية والثالثة^(١). ودعم إيلينبلوم فرضيته بأنه جرى العرف في تلك الفترة على إعلان اكتمال بناء القلاع المركزية عندما يتم الانتهاء من بناء الجدار الساتر أو الداخلي، ودلل على ذلك بقلعة صدف حينما طُوق موقع البناء بجدار ساتر كي تتمكن القلعة من الدفاع عن نفسها، وذلك على الرغم من استمرار أعمال البناء في صدف لفترة طويلة تالية قُدِّرت بعشرين سنة^(٢).

ورجح باربر وجود برج شديد الصلابة فوق الجدران الغربية للحصن^(٣)، وتبنى إيلينبلوم تلك الرؤية وأكد وجود برج على أحد جدران الحصن^(٤)، وأن المعمارين شيدوا برجًا واحدًا فقط فقط فوق الجدار الداخلي وحتى هذا البرج فقد شُيِّد بصفته منصة ثابتة^(٥). ولم يقف الباحث في المصادر المعاصرة على أية إشارة إلى وجود أبراج على أسوار الحصن، وذلك على الرغم

(١) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 89.

(٢) أشار إيلينبلوم إلى أن مفهوم كل من وليم الصوري وأبي شامة عن اكتمال بناء الحصن يختلف عن تصورنا لذلك، واستشهد برواية أسقف مارسيليا *Benoit of Marseille's* عن بناء حصن صدف في الفترة ١٢٤٠-١٢٦٠م حينما أشار إلى انتهاء بناء الحصن، ثم أُنشأ بعد عشرين سنة بالأسوار الخارجية للحصن وأكد وقتها اكتمال بناء الحصن. لذلك يعتقد إيلينبلوم أن مفهوم اكتمال بناء الحصن في العصور الوسطى يقدم تفسيرًا للتناقض الواضح بين النصوص التاريخية التي تصف هذه الحصون بصفقتها كيانًا مكتملاً يؤدي وظيفة ما وبين البقايا المادية التي تشهد على حالة الحصن غير المكتملة بالفعل. ويبدو أنه جرى الإعلان عن اكتمال بناء حصون العصور الوسطى، حينما كان يُحيط الجدار الساتر بموقع البناء، وعندها فقط يُسمح للجيش الذي حُشد للدفاع عن المعمارين بالرحيل ومنح مسؤولية تأمين الموقع لحامية الحصن. انظر:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 443-4. Cf. also: Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 264-5; Ellenblum, *Frontier activities*, p. 88.

(٣) Barber, *Frontier Warfare*, p. 10.

(٤) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.

(٥) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.

من إشارة الأصفهاني إلى الحصن أحياناً بالبرج، ولعل هذا ما دفع باربر إلى ترجيح وجود برج في الناحية الغربية من الحصن^(١)، بيد إن الأصفهاني وظف مصطلح البرج للدلالة على الحصن، ولم يمزج في وصفه ذلك بين لفظي البرج والحصن بما قد يُفسر على أنه يُشير إلى البرج بصفته جزءاً من الحصن^(٢)، وإنما وظف مصطلح "البرج" للدلالة على حصن مخاضة يعقوب كلية. ولا يعني هذا أن الحصن شيد بلا أبراج؛ لأن بناء الأبراج كان من أهم سمات العمارة الحربية في تلك الفترة^(٣)، بيد إنني التزمت بما قدمته المصادر عن تلك الإشكالية. وكان للحصن أكثر من باب على ما جاء في رواية الأصفهاني^(٤)، وأكدت أعمال التنقيب وجود خمسة أبواب على الأقل في جدران الحصن مما قلل من قدرة الحصن على حماية نفسه حينما تعرض للحصار^(٥). وبرر إيلينبلوم تعددها للربط بين الفناء الداخلي والجدار والجدار الخارجي للحصن والذي خُطِّط له أن يُشيد ضمن المرحلة الثانية أو الثالثة من مراحل بناء الحصن^(٦). وقد سهلت تلك الأبواب من حركة نقل مواد البناء والمعدات والعمال من وإلى وإلى الحصن؛ لأن بناء الجدار الداخلي في مرحلة مبكرة من عمليات البناء كان من شأنه أن يجعل من الصعب على العربات المحملة بالحجارة والأخشاب الدخول إلى موقع البناء، وأن يمنع خروج العربات الفارغة، وهذا من شأنه التسبب في زحام بالقرب من الباب الرئيس^(٧). أما شرفات الحصن، فلم أقف لدى المؤرخين المعاصرين سوى على إشارات عامة ومُبهمّة؛ نظراً لتدمير الحصن عقب استيلاء المسلمين عليه. وقد وظف رجال الحامية تلك

(١) Barber, *Frontier Warfare*, p. 10.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٥٧.

(٣) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٧٨.

(٥) Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 268-9.

(٦) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.

(٧) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 268.

الشرفات لردع الهجوم الإسلامي على الحصن^(١)، ولكن وفقاً للدراسة التي أجراها إيلينبلوم على بعض الهياكل العظمية التي عُثِرَ عليها في موقع الحصن، فإنه يُفهم من تركيز بعض الإصابات التي تعرض لها بعض المصابين من الصليبيين داخل الحصن في الكتفين والفقرات العنقية والرأس^(٢) أن حامية الحصن أفادت من تلك الشرفات في إلقاء قوارير المواد الحارقة ورمي السهام من أعلى الجدران على المسلمين في أثناء حصارهم للحصن، مثلما يُفهم ضمناً من إشارة الأصفهاني اختفاء رُماة الصليبيين في الحصن بحيث لم يجروا أحدهم على إظهار رأسه وقت استهداف رُماة المسلمين لهم^(٣).

وحرص الصليبيون على توفير مصادر المياه في الحصن من خلال حفرهم لبئر واسع، وقد أحكموا بناء جوانبه بالحجارة من أسفله إلى أعلاه طياً ورسفاً له، وقد أشار الأصفهاني إلى توسط البئر للحصن وأن الصليبيين حفروه في الوقت الذي بنوا فيه الحصن^(٤)، وقد فشل إيلينبلوم في أثناء تنقيباته بالموقع في الوقوف على موقع ذلك البئر^(٥)، وبخاصة أنها كانت فرصة كبيرة كان على إيلينبلوم الاستفادة منها للعثور على كثير من الهياكل العظمية؛ نظراً لما ورد لدى الأصفهاني من إلقاء المسلمين لجثث عدد كبير من قتلى حامية الحصن ودوابهم في ذلك البئر بعد الاستيلاء على الحصن^(٦). بينما وردت وسيلة حصول حامية الحصن على الماء لدى وليم الصوري مُبهمة؛ لأنه أشار إلى توفر مصادر المياه للحامية^(٧) ولكن دون الإشارة إلى الوسيلة التي حصلوا بها عليه سواء عن طريق أحد الينابيع أم بحفر بئر ماء على ما أشار الأصفهاني^(٨).

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٨٢.

(٢) Ellenblum, Weapon injuries, pp. 147-8.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٥٧، ١٨٢.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٨١؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ٢٦.

(٥) Mitchell, Nagar, Ellenblum, Weapon injuries, p. 146; Ellenblum, Crusader Castles, Castles, p. 273; Ellenblum, Weapon injuries, p. 146.

(٦) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٨١.

(٧) William of Tyre, History of Deeds, vol. 2, p. 437.

(٨) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٨١.

وأشار إيلينبلوم إلى عثوره على مكان القرن في الجهة الشمالية الغربية من الحصن وكان مغطى بقبو مرتفع^(١). وبديهي أن يقوم الصليبيون بتجهيز حظائر للخيل التي لن يقل عددها عن ثمانين وهو عدد حامية الحصن من فرسان الداوية، وكذا مخازن كبيرة لكميات السلاح الكثيرة التي استولى عليها المسلمون وقت دخولهم للحصن، إضافة إلى مخازن آمنة لكميات الطعام الضخمة والحيوانات المخصصة لإطعام حامية الحصن والمعماريين والحرفيين وغيرهم^(٢)، ولكن لم يقف الباحث في المصادر المعاصرة على ما يؤيد ذلك.

ثالثاً: أهم الصعوبات التي واجهت بناء الحصن:

واجه الصليبيون عدة صعوبات في أثناء بناء الحصن ويتصدرها ما ترتب على اقترب موقع بناء الحصن من دمشق مما اضطر المعماريين والحرفيين إلى العمل في بيئة حدودية متوترة وعرضهم للغارات المنكرة التي شنها المسلمون ضدهم، ولأجل ذلك كان بلدين الرابع مجبراً على البقاء بالجيش في موقع البناء لمدة ستة أشهر لتأمينه. علاوة على عدم وجود مركز صليبي قريب يمكن الاعتماد عليه في الحصول على المعماريين والحرفيين ودواب النقل والأدوات والآلات والحبوب وما إلى ذلك مما أجبر الملك على نقل تلك الاحتياجات إلى موقع البناء^(٣).

(١) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 270.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص٢٥.

(٣) اضطر الاسبتارية منذ عشرين عاماً إلى توفير قوافل في أثناء إعادة بناء بانياس. وقد هاجم نورالدين قافلة المعسكر وأجبر الاسبتارية حينها على التخلي عن بانياس وهونين، ونُظمت قافلة مماثلة لتأمين بناء قلعة صدف عام ١٢٤٠م. وتكونت من كثير من الفرسان والمشاة والرماة وغيرهم، إضافة إلى دواب لحمل الإمدادات والضروريات المادية الأخرى من غلال وأموال وما إلى ذلك. انظر: ابن القلائسي: ذيل تاريخ دمشق، نشره ووضع فهرسه وقدم له: أمدرود، لينن، ١٩٠٨م، ص٣٣٩-٣٤٣. وأيضاً:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 258-261. Cf. also: Huygens, R. B. C., 'De constructione castri Saphet', *Construction et fonctions d'un cha'teau fort franc en Terre Sainte* Amsterdam, Oxford, New York (1981), pp. 117-30. Cf. also: Ellenblum, *Frontier activities*, p. 88.

ونتج عن حشد الجيش لستة أشهر في الموقع صعوبات أخرى؛ لأن جيشاً عاطلاً عن العمل في العصور الوسطى كان أمراً خطيراً للأعداء والأصدقاء على حد سواء. ولا ريب في أن العديد من الجنود أرسلوا لمرافقة العمال في استدعاء البنائين وفي بحثهم عن مواد البناء في المناطق المُجاورة للحصن^(١). واضطر الملك خلال شهور الشتاء إلى البحث عن مهام مناسبة للجيش مثل حفظ النظام في موقع الحصن والمناطق المُجاورة، ومن أمثلة تلك المهمات شن حملة على منطقة البقاع *Buqai'a* التي تبعد مسيرة يوم ونصف عن مخاضة يعقوب لاستعادة النظام في الجليل الأعلى وتخليص المنطقة من اللصوص المحليين^(٢). وقد حصل الجيش على غنيمة كبيرة دون تعريضه لخطر مواجهة جيش إسلامي قوي^(٣).

ولم تكن تكلفة بناء الحصن هينة، وبخاصة إنها لم تقتصر على الخامات ومواد البناء التي تم نقلها بالكامل إلى حدود بعيدة في منطقة صخرية ووعرة مثل أدوات البناء والمعاول وبعض أنواع الحجارة والصخور والكلس والطين والجير والثيران والحبوب وما إلى ذلك^(٤)، وإنما يجب أن يُضاف إليها أيضاً تكلفة إعالة الجيش الذي رابط طوال ستة شهور في الموقع^(٥)، وترتب على ذلك مزيد من النفقات، ويبدو أنه كان على الملك أو البارونات

(١) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 89.

(٢) واجه الجيش الصليبي عدة صعوبات نتيجة لكثرة من أسماهم وليم الصوري بقطاع الطرق واللصوص الذين قدموا من دمشق ونواحيها، واعتادوا قطع طرق المرور، وعرضوا المعماريين والحرفيين للخطر في الموقع وخارجه، وأغلقوا الطرق أمام المسافرين. ولذا قرر الملك مهاجمتهم للحد من خطورتهم ولكنهم علموا بخطته، فهربوا إلى دمشق قبيل وصوله إليهم، ومارسوا نهج حياتهم القديم في التعدي والسرقه، وكثيراً ما كانوا يأتون موقع البناء ويهاجمون الجميع مما دفع بالأهالي إلى نصب أكنة لهم فوق بعضهم في الأسر وقتل بعضهم الآخر، وقد حدث ذلك في ٢١ من مارس ١١٧٩م/١٩ من شوال ٥٧٤هـ. انظر:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 436-8.

(٣) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 89.

(٤) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٣٩-٣٤٣. وأيضاً:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 258-61. Cf. also: Ellenblum, *Frontier activities*, p. 88.

(٥) مصعب حمادي نجم الزبيدي: موقف تنظيمي الاستبائية والدواية، ص ٨٩.

تحملها^(١). وقد سعى باربر إلى تقدير تكلفة تشييد الحصن بناء على المائة ألف دينار التي عرضها صلاح الدين على الصليبيين تعويضاً لهم عن هدمه^(٢). واعتمد كل من باربر وإيلينبلوم على ما ورد في مراسلة الفاضل إلى الخليفة في تقديرهما لتكلفة بناء الحصن بحوالي ثمانين ألف دينار بناء على استخدام ما يقرب من عشرين ألف حجر بتكلفة بناء قدرها الفاضل بأربعة دنائير للحجر الواحد^(٣)، ولكنهما أكداً أن نفقات البناء تخطت ذلك بكثير^(٤) خلافاً لما ورد برواية الفاضل.

(١) لا ريب في أن حشد جيش المملكة لمدة ستة شهور قد أضاف تكلفة أخرى إلى نفقات البناء، وأجبر الملك على تحمل نفقاتهم. وقد أقر يوحنا أبلين عام ١٢٦٥م بأنه حينما كان الأتباع مضطربين إلى القيام بمهمات خارج المملكة، فإن الملك كان مضطراً للإتفاق عليهم. وأكد جان ريشارد أن الملك كان مضطراً للإتفاق على أتباعه ليس فقط خارج المملكة وإنما في حالات تطول فيها الخدمة على حدود المملكة. واعتقد ماير أن الملك كان يتفق على أتباعه في حالات قليلة فحسب، وأن تلك الحملة على حدود المملكة الشرقية كانت تعتبر داخل حدود المملكة. ووفقاً له، فإن الفرسان كانوا يتفقون على أنفسهم في تلك الحملات. وعلى أية حال فإنه تعين على أحدهم سواء أكان الملك أم الأتباع أنفسهم أن يدفعوا لقاء الغياب الطويل للفرسان والمشاة عن بيوتهم، وبخاصة أن الملك كان عاجزاً في أثناء مهمات البناء المماتة عن عرض أي مقابل عيني سواء من الغنائم أم هبات الأراضي للإتفاق على الأتباع مقابل جهودهم ووقتهم. انظر:

John of Ibelin, *Le Livre des Assises*, (ed.) Edbury, P. W., (Brill, Leiden, 2003), pp. 595, 615.

Cf. also: Ellenblum, *Frontier activities*, p. 89; Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 266-7.

(٢) Barber, *Frontier Warfare*, p. 10.

(٣) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص٢٨.

(٤) Barber, *Frontier Warfare*, p. 10; Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 268.

قدرَ إيلينبلوم عدد الأحجار المستخدمة في بناء الجدران - وفقاً للأبعاد التي أمدتنا بها المصادر - بحوالي ١٥٠٠٠ حجراً تقريباً؛ حيث بلغ طول الجدران حوالي ٢٨٠ متراً، وبلغ سمكها حوالي ٤.٣ متراً، ولم يقل ارتفاعها عن ١٠ أمتار، ويُقدر متوسط أبعاد الحجر الواحد بحوالي ٠.٧٥ × ٠.٥٠. وأكد إيلينبلوم أن تقدير تكلفة الأحجار وحدها بثمانين ألف دينار وفقاً لحسابات الفاضل غير دقيقة؛ لأنه لم يضمن هذا المبلغ باقي نفقات حامية التأمين والكلس والأخشاب والعمال والفنيين ونفقات إعاله الجيش... إلخ ومن ثم ارتفاع تكلفة بناء الحصن عن تقدير الفاضل. بيد أن حسابات إيلينبلوم غير دقيقة؛ لأنه لم يحسب سوى طول الجدران فحسب ولم يضع الأبنية الداخلية في تقديرته، وأخطأ حينما قدر عرض الجدران بحوالي ٤.٣ متراً؛ لأنها تجاوزت ٦.٧٥ متراً تقريباً، وفضلاً عن ذلك، فإن الفاضل كان واضحاً حينما أشار إلى أن تكلفة بناء الحجر الواحد أربعة دنائير بما في ذلك تكلفة البناء من قطع وحمل وخامات ونفقات بناء بعكس ما ادعى إيلينبلوم. وقد رأى الأخير أن الفاضل كان يهدف من تلك العملية الحسائية إلى الدفاع عن صلاح الدين أمام الخليفة بسبب اضطراره إلى عرض هذا المبلغ على الصليبيين. بيد إن هذا القدر من المال لا يكاد يساوي فدية أسير صليبي وقع في أسر المسلمين بعد معركة مرج عيون، ولذا لم يكن صلاح الدين بحاجة إلى أن يبرر للخليفة عرض مثل هذا المال على الصليبيين؛ لأنه في حال الإتفاق سيتبرر صلاح الدين هذا المال بنفسه ولن تتحمل خزنة الخلافة منه ديناراً. انظر:

Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 268. Note. 29.

وحالما انتهى المعماربيون من تشييد الجدار الخارجي في ٢ من أبريل ١١٧٩م/٢٣ من شوال ٥٧٤هـ، فقد قام بلدوين الرابع بمنح الحصن إلى فرسان الداوية^(١)، وبخاصة أنهم كانوا السبب الرئيس في إقناع الملك بالتخلي عن اتفاهه مع صلاح الدين وبناء الحصن في ذلك الموقع^(٢). وتؤكد رواية الأصفهاني أنه كان وغيره من المؤرخين المسلمين علي وعي بوقوف الداوية خلف بناء الحصن وأنهم أنفقوا عليه من أموالهم الكثير^(٣)، علاوة على أنهم كانوا يملكون الكثير من الأراضي والقرى المحيطة بموقع الحصن، وقد سبق وحصلوا عليها كمنحة من الملوك على ما أشار وليم الصوري وبخاصة قلعة صفد^(٤).

وقد تحكمت صفد في شمال الجليل، ولكنها عجزت وحدها عن منع توغل الغارات الإسلامية القادمة من شرق الأردن^(٥). ويشير باربر إلى أنه بالرغم من وجود هدنة بين الطرفين بالفعل أعقبت معركة مونتجيسارد إلى الشمال الشرقي من الرملة^(٦) في نوفمبر ١١٧٨م/جمادى الأولى ٥٧٤هـ^(٧) فلم يلتزم أي من الطرفين بشروطها وذلك لأن الصليبيين هاجموا حماة في يوليو ١١٧٨م/ربيع أول ٥٧٤هـ^(٨).

(١) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 444.

(٢) Emoul, *Chronique d'Emoul*, p. 52.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٤٥.

(٤) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 444.

(٥) سبق ومنح الملك عموري للداوية حصن صفد ربما لحثهم على المشاركة في حملاته على مصر. وتعد قلعة صفد واحدة من أهم قلاع الجليل وطبرية وسيطرت على حركة المرور من خلال معابر الأردن، وسيطر الداوية من خلالها على كثير من القرى والاقطاعات المجاورة ولكن ضعف دور صفد بعد هدم حصن مخاضة يعقوب. انظر:

Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 545-6, nos. 312, 313, pp. 548-50, no. 314, p. 550, no. 315, pp. 550-3, no. 316, pp. 562-3, no. 325. Cf. also: Barber, *Frontier Warfare*, pp. 18-19; Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 87-92.

(٦) الرملة: مدينة على الساحل الشامي تتسم بالحسن والجمال ومشهورة بالتجارة الرائجة، وتعد أهم ممر يربط بين يافا يافا والقدس، وللرملة سور قوي وقلعة حصينة هدمها صلاح الدين بعد تحريرها من الفرنج. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص ٦٩-٧٠.

(٧) Barber, *Frontier Warfare*, p. 15.

(٨) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٩٢.

وقام الصليبيون قبل رحيلهم عن موقع الحصن في أبريل ١١٧٩م/شوال ٥٧٤هـ بمد الحصن بحامية من فرسان الداوية قدرتها المصادر بثمانين فارساً، وهو عدد كبير؛ نظراً للقدرة الفائقة للفارس المُجهز آنذاك، فضلاً عن ذلك، فقد شملت الحامية ١٥ مقدماً أُسندت إليهم قيادة خمسين من تابعيهم، وأُضف إلى هؤلاء كثيراً من المعمارين والحرفيين كالحدادين والنجارين والسيوفيين والصيّقلين - الذي يقومون بجلي السيوف وشحذها - وصنّاع الأسلحة، فضلاً عن مدهم بكميات وفيرة من الطعام تكفيهم فترة طويلة^(١). وقد رجحت دراسة إيلينبلوم عن جروح الأسلحة تراوح أعمار حامية الحصن ما بين العشرين والأربعين عاماً في ضوء الدراسة التي أجراها على عينة من خمسة هياكل عظمية منسوبة لحامية الحصن^(٢).

المفاوضات بين المسلمين والصليبيين على هدم الحصن وأهم تبعاتها

حينما شرع الصليبيون في بناء الحصن، فإن صلاح الدين كان مُتَشغلاً بحصار مدينة بعلبك حتى مارس ١١٧٩م/شوال ٥٧٤هـ لإجبار ابن المُقدم على تسليمها بعد أن ألح عليه أخيه توران شاه في طلبها، وقد امتنع ابن المُقدم عن التنازل عن بعلبك؛ لأنه سبق وتنازل عن دمشق مقابل الحصول عليها^(٣)، وقد استغل الصليبيون انشغال صلاح الدين بحصار بعلبك وشيدوا الحصن "... وجاء الداوية منهم بأحزابها وشرعوا في بناء حصن على مخاضة بيت الأحران، وبنلوا في إحكامه ما دخل في الإمكان، وأحكموا بنيان ذلك المكان..."^(٤). وقد أبدى الأصفهاني وعياً بخطورة امتلاك الداوية للحصن بسبب كرههم الشديد للمسلمين^(٥).

(١) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص٢٩.

(٢) Ellenblum, *Weapon injuries*, pp. 151-2.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٢.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٤٤-١٤٥.

(٥) *Itinerary of Richard I*, pp. 11, 15-16, 202, 226, 247-249; Delaville Le Roux, *Cartulaire général*, vol.1, pp. 561-588.

لم تكن ثمن ثقة بين المسلمين وكل من الداوية والاسبتارية وذلك لقسوتهم في محاربة المسلمين وقتلهم الأسرى والمندنيين المُسلمين، ولذا فضل صلاح الدين قتل مقدميهم على استرقاقهم أو فدائهم. ويرى الباحث أن تفسير قيام صلاح الدين بقتل مقدمي الداوية والاسبتارية بصفته لتقلماً أو لرفضهم دخول الإسلام فيه سناجحة وقصور؛ لأن قتل الداوية جاء بناء على كونهم يُمثلون القوة الضاربة لدى الفرنج، مما دفع صلاح الدين إلى حرمان الفرنج من تلك القوة الضاربة التي يتسم أسلوب المنتسبين إليها بالرعونة والقسوة. أما عرض الإسلام عليهم فإنه عُرف لتبعه صلاح الدين وغيره مع بعض الأسرى المُخالفين لهم في عقيدتهم بحيث كانوا

ومن ثم خطورة تحكمهم في هذا المعبر المهم^(١).

ولأجل هذا تفاوض صلاح الدين على هدم الحصن بعد إنهاء مشكلة بعلبك بقليل^(٢)، وأكد إيلينبلوم بدء تلك المفاوضات في النصف الثاني من أبريل ١١٧٩م/بداية ذي القعدة ٥٧٤هـ^(٣)، وهذا غير دقيق؛ لأن تلك المفاوضات سبقت واقعة همفري في الأول من ذي القعدة/٩ من أبريل قبيل وقوع أي اشتباك عسكري بين المسلمين والصليبيين حول الحصن، مما يرجح وقوع المفاوضات في الفترة ما بين منتصف مارس و ٩ من أبريل ١١٧٩م. وسواء استهل صلاح الدين مفاوضاته مع الجانب الصليبي قبل وصوله إلى موقع بناء الحصن أم وقت وجوده في الموقع بالفعل فإننا لم نقف على تاريخ تلك المفاوضات.

أما سبب المفاوضات فقد أكدت رواية ابن الأثير أن هدم الحصن كان أهم أهدافها تجنباً لخطورة الحصن على ممرات العبور "...وكان قد بذل للفرنج ستين ألف دينار مصرية ليهدموه بغير قتال، فلم يفعلوا، ظناً منهم أنه إذا بقي بناؤه تمكنوا به من كثير من بلاد الإسلام..."^(٤)، وأكد الأصفهاني أن صلاح الدين تفاوض على هدم الحصن لظنه أن قوته وارتفاعه ستحول دون الاستيلاء عليه^(٥). وتطرق رواية ابن أبي طي إلى الهدف ذاته من المفاوضات بإيجاز شديد بقوله: "...كانت الفرنج قد عمّرت بيت الأحران... فراسل السلطان الفرنج في هدمه، فأجابوا أنه لا

يعرضون عليهم الإسلام قبل قتلهم ولم يختص به الداوية وخدمهم. انظر: الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٥٣، ٥٥، مجهول: نيل وليم الصوري، ص ١٥٢-١٥٤. وأيضاً: Delaville Le Roux, *Cartulaire général*, vol. I, pp. 527-67. Cf. also: Gabrieli, *Arab Historians*, pp. 133-4.

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، ج ٣، ص ١٨٠.

(٢) يرى كل من ليون وجاكسون أن الأوضاع المعقدة لدى المسلمين التي ترتب عليها محاصرة صلاح الدين لمدينة بعلبك مكنت الصليبيين من بناء الحصن، وأنه في ظل ظروف مغايرة ربما تصدى لهم صلاح الدين ومنعهم من تشييد الحصن أو على الأقل حاول عرقلة عملية البناء. وإن كنت أظن أن ما حدث في بعلبك كان من الأمور المألوفة التي ظل صلاح الدين يواجهها طوال سلطنته ولم تؤثر على سياسته أو مواقفه إزاء الصليبيين، ولعل موجة الجفاف التي استمرت طوال هذا العام وليضعة أعوام تالية كانت أكثر أثراً في منع صلاح الدين من التعرض للصليبيين في أثناء بناء الحصن لنقص الموارد، ولم يتم صلاح الدين بمحاصرة الحصن بشكل جدي وفعال سوى حينما قام بتأمين المؤن. انظر:

Lyons, Jackson, *Saladin*, pp. 131-3.

(٣) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 267.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٩٦. وأيضاً: نبيلة مقامي: فرق الفرسان الرهبان، ص ٩٣.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، ج ٣، ص ١٨٠.



سبيل إلى هدمه إلا أن يعطينا ما غرنا عليه، فبذل لهم السلطان ستين ألف دينار فامتنعوا، فزادهم إلى أن بلغ مئة ألف دينار، وكان هذا الحصن للداوية...^(١).

وتؤكد رواية ابن أبي طي أن صلاح الدين لم يعرض المال على الصليبيين سوى بعد طلبهم تعويضاً عن تكلفة بناء الحصن وأكد رفضهم لكافة عروض صلاح الدين في النهاية، بما يرجح أن الصليبيين قبلوا مبدأ التفاوض على المال بهدف استهلاك الوقت لاستكمال بناء الحصن، وجاءت رواية أبي شامة مؤكدة لرواية ابن أبي طي بأن السلطان بذل لهم في هدمه ستين ألف ديناراً فلم يفعلوا فزادهم حتى بلغ مائة ألف فأبوا^(٢). وأوضح البنداري أن السلطان تفاوض على هدم الحصن لحرصه على تأمين المارة وهو مبرر كافٍ لهدم الحصن في ظل المعطيات الأخرى التي أفاد بها رجاله وقادته عن خطورة بناء الحصن^(٣).

وبالرغم من وقوف صلاح الدين على أخبار البناء فإنه لم يترك حصار بعلبك، وخاض عدة مناقشات مع مجلس مشورته لأجل ذلك، وقد أشار الأصفهاني إلى أن صلاح الدين برر عدم تحركه لهدم الحصن على الفور منذ منتصف مارس/الأول من ذي القعدة بأنه كان يفضل الانتظار ريثما ينتهي حصار بعلبك لصالحه حتى وإن اكتمل بناء الحصن "إذا أتموه وأحكموه وظنوا أنهم من الحدثنان أتموه وعصموه رحلنا إليه ونزلنا عليه، وهدمناه من الأساس وجعلناه من الرسوم الأكراس، وغنمنا أسبابهم وضرينا رقابهم، فندعهم الآن حتى يستنفدوا فيه أحوالهم وينفقوا أموالهم، ويتعبوا رجاءهم ورجالهم، فإذا قصدناهم عكسنا آمالهم وأنحسنا مآلهم..."^(٤)، وأرى أن هذه الخطة نجحت في استنفاد مجهود الصليبيين وطاقتهم النفسية والمادية؛ بسبب طول فترة الحشد وقضاء فصل الشتاء في حالة استعداد وتأهب طوال فترة بناء الحصن.

بيد إن هذا المبرر لم يكن مقنعاً لمجلس مشورة صلاح؛ لأنهم كانوا على قناعة بأن منع البناء من الأساس سيكون أكثر ملائمة... فنقول: منعهم من الابتداء أسهل من الدفع في الانتهاء، وإذا

(١) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ١٨.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ٢٦.

(٣) البنداري: سنا البرق، ص ١٧٠.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٤٤-١٤٥.

فات الفارط لا يُستدرك وهو الآن هين فلا يُترك، وإذا خرج ما في اليد فمتى يُملك...^(١)، ولكنهم أثروا التزام الصمت، وحتى رواية الأصفهاني التي تأتينا من قلب الحدث، فإنه دونها في فترة تالية وتأثرت بما حدث فيما بعد حينما استولى صلاح الدين على الحصن، وارتبطت روايته التي اتسمت بالثقة في موقف صلاح الدين بديارته بأن المسلمين أسقطوا الحصن بالفعل^(٢).

وقد أشار مصعب الزبيدي إلى حرص صلاح الدين على تقادي التضحية بجنوده مما حثّه على التفاوض على تدمير الحصن^(٣)، ويؤيد هذا الافتراض أن الصليبيين في المملكة وأنطاكية وطرابلس علاوة على كل من الداوية والاسبتارية كانوا يدعمون الملك في بناء الحصن واحتشدوا بفارسهم ورجالهم في الموقع وبخاصة في الأيام الأولى من عمليات البناء^(٤)، ناهيك عن الجذب العام والقحط الذي ساد بلاد الشام بعامة ودمشق بخاصة^(٥)، وما ترتب على ذلك من ارتفاع الأسعار وندرة الأقوات "...وكان العام مجذباً والجذب عاماً... وللأسعار أسعار وللأسرار استتعار وللأقوات أقواء وللغلات غلاء وللبلاء بلاء... وعلى العباد من ثقل المحل أعباء...^(٦)، وقد ظلت تلك الأزمة قائمة لخمس سنوات تالية، وهي أمور ليست هينة كي يتجاهلها صلاح الدين الذي اتسمت خطواته آنذاك بالواقعية ولذا كان من الصعب عليه الاشتباك ضد الصليبيين لمنعهم من بناء الحصن^(٧). ولا يمكن تجاهل

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٤٥.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٤٥-١٤٦.

(٣) مصعب الزبيدي: موقف تنظيمي الاسبتارية والداوية، ص ٩٠.

(٤) Delaville Le Roux, *Cartulaire général*, vol. 1, pp. 379-80, no. 559; Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 692-3, no. 406, pp. 697-8, no. 408; Müller, *Documenti*, pp. 17-18, no. 15; Hiestand, *Papsturkunden*, vol. 2, pp. 239-47, no. 28.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٥٣-١٥٤، ١٥٨؛ ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٩٣.

(٦) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٤٥. وأيضاً: ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٩٣.

(٧) يبدو أن أزمة الجذب كانت حادة وكان لها عدة آثار سلبية، ولذا تغيرت لهجة الأصفهاني حينما نزل المطر ونضجت المحاصيل وبخاصة مع كرم السلطان الذي طال الجميع، وكتب الأصفهاني إلى القاضي الفاضل

تجاهل مشكلة بعلبك وأثرها في غل يد صلاح الدين بعدما أظهر العداء لابن المقدم، ولم يكن باستطاعته إعلان فشله في حصار بعلبك وإلا ظهر ضعيفاً ومتربداً أمام جنوده مما يضر بخططه ومشروعاته المستقبلية.

ويمكن إضافة عامل آخر دفع بصلاح الدين إلى انتهاج التفاوض تمثل في بعض المثبتين في معسكره الذين كانوا يرون أن بلاد الشام عاجزة عن استيعاب تلك الأعداد الكثيرة من الجنود، وهو ما يؤدي إلى حدوث تلك الأزمات التي تتعرض لها البلاد "...وقيل لا قبل للشام بالعساكر الكثيرة، والكتائب الكثيفة، فإن الجموع تتوي والزروع تتوى، والضياح يطرقها طارق الضياح... ونسوا النصح المنبيء عن هدم الحصن المبني وهذه...". بيد إن صلاح الدين لم ينزعج من تلك العناصر المثبطة بقدر سعادته بحدوث انفراجة مؤقتة في أزمة الجذب والغلاء، بحيث وصف الأصفهاني للفاضل تحسن الحالة النفسية للسلطان بدليل عزمه على معالجة موضوع حصن مخاضة يعقوب عقب انفراج أزمة الجذب^(١). وأكد الأصفهاني أن قوة الحصن وارتفاعه جعلت صلاح الدين يتفاوض على هدمه^(٢)، وبخاصة، إن بناء الحصن في ذلك الموضع يخالف الاتفاق السابق بينه وبين بلدوين الرابع^(٣).

على أن عدم تعرض المسلمين للصليبيين الذين يُعيدون تشييد قلعة هونين *Hunin*^(٤) القريبة منهم في الوقت ذاته، مع إصرار المسلمين على هدم حصن مخاضة يعقوب طرح

وكان وقتها في الحج مُبشراً إياه بانفراج أزمة الجذب مؤقتاً، ولكنه سيعاود الشكوى منها عدة مرات خلال السنوات التالية. انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٤٥-١٤٧، ١٥٣-١٥٤، ١٥٨، ١٦٧-١٦٨. وأيضاً: ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٩٣.

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ٢٤٦.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٨٠.

(٣) Emoul, *Chronique d'Emoul*, p. 52.

(٤) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 444.

كثيراً من التساؤلات حول هذين الموقعين المتناقضين على ما ذهب إيلينبلوم^(١). ويُعد وليم السوري من أهم المؤرخين المعاصرين الذين أشاروا إلى إعادة بناء قلعة هونين^(٢) في روايته عن نقل الكونستابل الملكي همفري أوف تورون إليها بعد إصابته بجراح مميتة في ٩ من أبريل ١١٧٩م/الأول من ذي القعدة ٥٧٤هـ. بيد إن وليم أشار تالياً إلى نقل همفري إلى قلعته تورون ليدفن بها في ٢١ من أبريل ١١٧٩م/١٣ من ذي القعدة ٥٧٤هـ^(٣).

(^١) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 87; Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 262-3.
(^٢) أشار وليم السوري في منتصف أبريل ١١٧٩م إلى أنه بينما كان الفرنج منهمكين في بناء حصن مخاضة يعقوب فإنهم حملوا الكونستابل الملكي همفري أوف تورون جريحاً إلى القلعة الجديدة هونين أو *Castellum Novum*، ولم يسم وليم السوري القلعة الجديدة باسم مخاضة يعقوب لأن وليم السوري يُشير أحياناً إليها بكاستيلا نوقا. انظر:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 439-40. Cf. also: Ellenblum, *Frontier activities*, p. 87.

قلعة هونين *Castellum Novum* : من قلاع الصليبيين التي وصفت بالقوة والمنعة، وقد هاجمها نورالدين محمود سنة ٥٦٢هـ وحينما عجز الصليبيون عن حمايتها، فإنهم أحرقوها وتركوها، ولما وصل إليها نورالدين فإنه هدم أسوارها، ويبدو إنها ظلت على تلك الحالة حتى عصر الملك بلدوين الرابع حيث أشار وليم السوري إلى أعمال البناء التي كانت مستمرة بها وقت وفاة همفري أوف تورون، كما أشار إليها تالياً الرحالة ابن جبير حينما مر بالمنطقة سنة ١١٨٤م وأكد أنها ما زالت بأيدي الصليبيين، واستسلمت حامية القلعة للمسلمين بعد حطين في أواخر عام ١١٨٧م، ثم خضعت للصليبيين مرة أخرى عام ١٢٤٠م وظلت خاضعة لهم إلى أن طردهم منها الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٦. وقد أشار إليها ياقوت الحموي (ت: ١٢٢٩م) بأنها قرية واقعة في جبال عاملة على طرف منحدر يُشرف على الشطر الشمالي من سهل الحولة. ويُشبه موقع قلعة هونين إلى حد كبير موقع حصن مخاضة يعقوب، حيث بُنيت على جبل شديد الانحدار فوق وادي الحولة، وأشرفت على طريق التجارة عبر كل من صور وتبنين ودمشق. وكان الطريق المُحتمل الآخر *Via Maris* والذي يعبر الأردن عند مخاضة يعقوب. ومن الناحية الاستراتيجية فإن الحصنين كانا متشابهين للغاية، وشُيدا في الوقت ذاته. انظر: ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص ٢٧٣-٢٧٤؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص ٤٢٠. وأيضاً:

Ellenblum, *Frontier activities*, p. 87; Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 262-3.

(^٣) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 444.

ولكن إذا كان همفري قد أُصيب بجراح مميتة في بانياس، فهل كان من الأقرب له أن ينقل إلى حصن مخاضة يعقوب أم إلى حصن هونين؟ لا ريب في أن هونين كانت أقرب إلى موقع المعركة في بانياس من حصن مخاضة يعقوب ومن حصن تورون نفسه الذي نقل إليه همفري ليُدْفن فيه؛ لأن حصن هونين يُشرف على بانياس وبينها وبينه ثلاثة فراسخ، ودارت غالبية المعارك والاشتباكات بالقرب من هونين وليس مخاضة يعقوب طوال عام ١١٧٩م/٥٧٤-٥٧٥هـ مما يعني أن المسلمين لم يتجاهلوا أعمال البناء في هونين كما افترض إيلينبلوم، علاوة على أن تلك المنطقة خضعت لشروط بلاد المناصفات على ما أشار ابن جبير مما يمنح المسلمين مبرراً لعدم مهاجمة هونين^(١).

وقد تجاهل إيلينبلوم تلك الاعتبارات ليؤكد أن تفاوض المسلمين على هدم حصن مخاضة يعقوب بشكل خاص يعكس عدم أهمية هونين إليهم؛ لأنها ليست ضمن حدودهم، بينما كان حصن مخاضة يعقوب مُهماً للمسلمين؛ لأن الصليبيين شيده داخل الحدود الإسلامية مما استفز المسلمين وحركهم للتفاوض على هدمه^(٢). وأردف إيلينبلوم أن حماسة بلدوين الرابع لمقترح الداوية ببناء حصن مخاضة يعقوب وعدم قبول التفاوض مع المسلمين على هدمه دليل قوي على وقوع الحصن ضمن حدود المسلمين^(٣)، وأن بلدوين الرابع لم يكن مُضطراً إلى توقيع هدنة مع المسلمين لمنعه من تحصين حدود مملكته في مخاضة يعقوب بعد انتصاره في مونتجيسارد، إلا إذا كانت مخاضة يعقوب داخل حدود المسلمين^(٤). كما

(١) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص ٢٧٣-٢٧٤.

(٢) Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 87, 91-92.

(٣) Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 86-87, 91-92.

(٤) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 86.

ذهب إيلينبلوم إلى أن الثغر هو أي مكان حيوي يواجه عدو مجاور، وتسود به سياسة معينة ووضوح قانوني خاص بسبب خصوصيته عن نظيره في الحكومة المركزية، حيث تتوفر القوة الكافية لفرض الأمن والنظام بخلاف الوضع في الثغور. وهكذا فإن الثغر مساوي للتحوم *March* الأوربية، أو الليمز *Limes* الرومانية والذي يعني



ذهب إلى جانب روجي آخر جعل من حرص المسلمين على استعادة السيطرة على موقع الحصن مسألة بالغة الأهمية؛ نظرًا للمكانة الدينية للموقع بصفته مزارًا إسلاميًا مقدسًا وجب على المسلمين عدم التفريط فيه وهذا في حد ذاته يُؤكد وقوع الحصن ضمن الحدود الإسلامية وأن تردد المسلمين على هذا المزار قبل بناء الحصن وبعد تدميره يؤكد ذلك^(١).

وتمسك إيلينبلوم بهذا الطرح وعرضه في معظم دراساته عن حصن مخاضة يعقوب، وأقر بناء عليها أن مفاوضات صلاح الدين على هدم الحصن جاءت نتيجة لخوفه من هزيمة أخرى تفوق هزيمته أمام الصليبيين في مونتجيسارد ١١٧٧م/٥٧٥هـ. ويرى الباحث أن إيلينبلوم لم يكن موفقًا في غالبية افتراضاته عن تفاوض المسلمين على هدم الحصن؛ بسبب وقوعه ضمن حدودهم، وبخاصة أنه اعتمد على كل من أبي شامة وأرنول^(٢) مؤرخا القرن الثالث عشر في دعم فرضيته على الرغم من أنه لم يقف على بغيته لدى المؤرخين المعاصرين مثل الأصفهاني والفاضل وابن الأثير وابن شداد ووليم الصوري. وحينما استشهد إيلينبلوم برواية أبي شامة التي جاء فيها "...وكان هذا الحصن للداوية، وكانوا يقوون من فيه بالأموال والنفقات لقطع الطرقات على قوافل المسلمين..."^(٣) فإنه لم يتمكن من فهمها على حقيقتها؛ لأن تشييد الحصن في هذا المكان سواء داخل الحدود الإسلامية أم الصليبية سيؤدي إلى النتيجة ذاتها أي تهديد الثغر الإسلامي.

وقد وقف الباحث لدى المؤرخين المعاصرين على توصيف مقارب لما ورد في رواية أبي شامة منه قول الأصفهاني: "...ولو بقي الحصن لم يحصن البقاء، ولدنا من البلاد

منطقة ذات وضع قانوني خاص. ويشير مصطلح ثغر، مثل نظيره الأوربي، إلى واقع سياسي مُعقد أكثر من كونه خط حدودي في المفهوم المعاصر. انظر:

Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 86-7.

(١) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 85.

(٢) Emoul, *Chronique d'Emoul*, p. 52.

(٣) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص١٨.

البلاء، ولأعضل بقرب الداوية الداء...^(١)، وفي النص إشارة أكثر وضوحاً من رواية أبي شامة التي اعتمد عليها إيلينبلوم تؤكد أن اقتراب الحصن من ممرات الأرين كان كفيلاً بإزعاج المسلمين من المارة وتهديد البلدان القريبة ليس لأنه حصن صليبي فحسب، ولكن بسبب امتلاك الداوية له. وتؤكد رواية أخرى للأصفهاني مفادها "...وكننا نقول للسلطان متى أُحْكَم هذا الحصن تحكّم من الثغر الإسلامي الوهن وعلق الرهن، فإن بينه وبين دمشق مسافة يوم...^(٢) مدى انتباه الأصفهاني للخطورة الكبيرة التي سيمارسها الحصن على الثغور الإسلامية القريبة من ثغور الصليبيين التي شيّدوا بها حصنهم.

وإذا كان إيلينبلوم يرى في اقتراب الحصن من دمشق مسيرة يوم دليلاً على وقوعه ضمن حدود المسلمين، فإنه كان بين الحصن وكل من قلعتي صفد وتورون الصليبيين مسافة نصف يوم، بمعنى إنه كان أقرب للصليبيين وحدودهم من حدود المسلمين. وتؤكد رواية ابن الأثير أن الصليبيين كانوا يسعون إلى جعل الحصن شوكة في حلق المسلمين، وأنهم شيّدوه للتمكن من بلدانهم^(٣)، بمعنى أن الضرر الذي سيقع على المسلمين المارين بالمكان سيحدث سواء شيّد الحصن ضمن الحدود الإسلامية أم سواها مثله مثل بقية الحصون الصليبية الأخرى المشيدة في المنطقة خلافاً لفرضية إيلينبلوم^(٤)، وهو السبب ذاته الذي دفع بالصليبيين إلى تشييد الحصن في هذه المنطقة لإزعاج المسلمين على ما رأى بعض قادة الدين أنفسهم^(٥).

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٨٠.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٤٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٩٦.

(٤) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 87.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٤٥.

وفضلاً عن ذلك، فقد وصف ابن الأثير كافة الغارات التي انطلقت من معسكر صلاح الدين في بانياس إلى غرب نهر الأردن بأنها كانت ضد بلاد العدو^(١)، وحينما هب الصليبيون للتصدي لفرخشاه قبيل واقعة همفري ومرج عيون، فقد وصف ذلك بأنه جاء دفاعاً عن الحدود الصليبية في تلك المنطقة، وأكد وليم الصوري بأن التصدي لغارات صلاح الدين على موقع الحصن كان دفاعاً عن الحدود الصليبية بالرغم من كثرة سكانها من المسلمين^(٢)، وكان ابن جبير واضحاً في وصف المنطقة في هذا الإطار^(٣). أما اضطرار الصليبيين إلى الموافقة على الهدنة التي منعهم من تحصين هذا الموقع، فقد أشار إليها كل من أنرول^(٤) وابن الأثير^(٥)، ولكنهما لم يُحددا إذا ما كان موقع الحصن ضمن ما اتفقا عليه، بمعنى إن الاتفاق جاء مُبهماً ولا ينبغي أن يُفهم منه أن أعمال البناء في هذا الموقع - وربما في موقع هونين وأي موقع حدودي آخر - كانت داخلة في الاتفاق بين الطرفين.

وفضلاً عن ذلك، فإن الحد الطبيعي الذي يتسق مع نهر الأردن جعل من حدود المسلمين شرق الأردن أمراً طبيعياً، وقد ورد في بعض وثائق المملكة والإسبانية أن بعض قرى طبرية والناصرية التي تقع شرق الأردن كانت في حوزة المسلمين، بينما وقعت غالبية قرى غرب الأردن بحوزة الصليبيين^(٦). وربما هذا ما دفع باتفاقات بلاد المناصيات^(٧) إلى الظهور

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٩٥.

(٢) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 437-8, 468-72.

(٣) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص ٢٧٤-٢٧٥.

(٤) Emoul, *Chronique d'Emoul*, p. 52.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٩٢.

(٦) Delaville Le Roulx, *Cartulaire general*, vol. 2, pp. 897-8, no. 1; Mayer, *Die Urkunden*, vol. 1, pp. 124-5, no. 20.

(٧) بلاد المناصيات: هي مناطق تتميز بوجود إدارة مشتركة من المسلمين والصليبيين على مناطق الحدود المتنازع عليها. انظر: ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص ٢٧٣-٢٧٤. وأيضاً: عمر كمال توفيق: الدبلوماسية الإسلامية

الظهور في تلك المنطقة لتجنبيها وأهلها صراعات لا طائل منها على الجانبين^(١). وإضافة إلى ما سبق، فإن افتراض وقوع الحصن ضمن الحدود الإسلامية - والربط بينه وبين إصرار المسلمين على مهاجمته - مع حرص صلاح الدين على مهاجمة قلعة الكرك والشوبك بشكل دائم ومستمر بالرغم من عدم وقوعهما ضمن حدود المسلمين وإنما ضمن حدود الصليبيين^(٢)؛ ولأن الكرك كان خطرًا على حركة المرور في جنوب شرق المملكة من وإلى مصر، فقد خشى صلاح الدين أن يكون لحصن مخاضة يعقوب الأثر نفسه على حركة المرور عبر الممر المؤدي إلى وادي الأردن الأعلى وأحد أهم همزات الوصل بين دمشق ومصر^(٣)، ولذا باتت خطورة حصن مخاضة يعقوب لا تقل عن خطورة كل من الكرك والشوبك.

أما ادعاء خوف صلاح الدين من مواجهة الصليبيين تأثرًا بخسارته في مونتجيسارد، فمردود عليها بأن انتصاره في واقعة همفري ومرج عيون حول دفة الحوادث لصالحه^(٤)، وقد أعرض إيلينبلوم عن معالجة هذين الصدامين العسكريين في دراساته عن الحصن وكأنه لا أثر لأي منهما^(٥)؛ وذلك على الرغم من أنهما شكل عامل حاسم في تطور علاقات صلاح الدين بالصليبيين آنذاك وتاليًا، وطغى أثرهما على هزيمة مونتجيسارد وكرس لشكل جديد من

والعلاقات السلمية مع الصليبيين، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٦م، ص ٧٧-٨٧، ١٩٤-١٩٨، ٢١٤، ٢١٩-٢٢٨.

(١) Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 266-7.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ١١٠، ١٢٤، ١٢٧-١٢٨، ١٤٣-١٤٤.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج ٣، ص ١٨٠. وأيضًا:

Smail, *Crusading Warfare*, p. 207.

(٤) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 440-3.

وأيضًا: الأصفهاني: البرق الشامي، ج ٣، ص ١٤٩؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٣، ص ١٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٧٢.

(٥) Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 270-4.

المواجهات بين الطرفين، وأكد وليم الصوري مدى جسامه الخسارة التي عانى منها الصليبيون نتيجة لهاتين المعركتين^(١).

أما تبرير حماسة بلدوين الرابع لبناء الحصن وعجلته في تنفيذ ذلك بزعم أن الحدود لم تكن من أملاك الصليبيين، فمبرر غير واقعي؛ لأن بناء الحصن في تلك المنطقة الحدودية المتوترة يستدعي الحماسة لإتمام البناء قبل تدخل صلاح الدين فيفشل المشروع برمته، ومن ثم، كانت الحماسة مطلوبة مثلما كانت حماسة صلاح الدين وتسارعه من الأمور البديهية للاستيلاء على الحصن وتدميره في أغسطس ١١٧٩م/ربيع أول ٥٧٥هـ قبيل وصول التعزيزات الصليبية^(٢)، فهكذا فرص لا تتوفر كثيراً ويجب استغلالها بحماسة كبيرة.

وعلى الرغم من أن ملابس واقعة همفري ومعركة مرج عيون تُشير إلى دراية المسلمين بتلك المنطقة أكثر من دراية الصليبيين بها، فإن هذا لا يعود إلى كون المنطقة ضمن حدود المسلمين بقدر جهل الصليبيين أنفسهم بجغرافيتها، وبخاصة إن الصليبيين وقعوا في أخطاء استراتيجية كثيرة وحُوصروا أكثر من مرة في ممر جبلي ضيق وعرضوا ملكهم وفرسانهم للخطر^(٣)، بينما نجح المسلمون في الإغارة على الحصن وصفد وطبرية وتبنين وصور وحصدوا غلالها وخاضوا معاركهم فيها دون أن يفتروا أخطاءً مماثلة، وهو ما يُمكن توظيفه لدعم فرضية إيلينبلوم عن كون المنطقة كانت مطروقة للمسلمين، ويعرفونها عن ظهر قلب؛ لأنها واقعة ضمن حدودهم، ولكنها فرضية قابلة للتأويل على الجانب الآخر وبخاصة

(١) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 440-3.

(٢) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 444.

وأيضاً: الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٧٩.

(٣) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 440-3.

مع قبول افتراض باربر بأن تأخر الصليبيين في تحصين هذا الموقع نتج عن غموض هذه المنطقة بالنسبة لهم^(١).

ويدعم هذا الرأي أن الصليبيين لم يكن لهم وجود في تلك المنطقة، وبخاصة أنهم - ولحل مشكلات الحدود- ارتضوا ببلاد المناصفت التي تركت الأرض بأيدي أهلها من المسلمين مقابل ثلث عائدها، ولذا أصبح الصليبيون أقل دراية بالمكان وتضاريسه، وهو الأمر عينه الذي سمح لمجموعة من اللصوص بسكنى تلك المنطقة ومارس هؤلاء ضغطاً أمنياً على الصليبيين وقت تشييد الحصن^(٢). ولا ريب في أن تخلي صلاح الدين عن بعض رجاله وعلى رأسهم تقي الدين عمر في أوج أزماته مع الصليبيين حول الحصن، حينما أرسلهم إلى رعبان التي تقع ضمن حدوده لحمايتها من قلع أرسلان^(٣) ولم يفعل ذلك مع الصليبيين وقت بناء الحصن لخير دليل على أن موقع الحصن لم يكن ضمن الحدود الإسلامية^(٤).

الحوادث العسكرية التي سبقت حصار الحصن:

حالما أنهى صلاح الدين مشكلة بعلبك في أبريل ١١٧٩م/شوال ٥٧٤هـ، فإنه سلمها لأخيه وتوجه إلى دمشق ولم يشغل باله سوى الحصن وفقاً لرواية الأصفهاني الذي كان معه آنذاك^(٥). وقد أشار باربر إلى أن صلاح الدين ارتاح في دمشق يوماً واحداً ثم أغار على الحصن بهدف استطلاع أخباره^(٦)، بيد أن رواية الأصفهاني تؤكد أن صلاح الدين قضى وقتاً أطول في دمشق وقد انشغل خلال تلك الفترة بالحصن وكيفية تدميره، ولكنه واجه بعض الصعاب التي أجبرته على التريث في مهاجمة الحصن، وبخاصة أن الجفاف الذي حل

(١) Barber, *Frontier Warfare*, pp. 15-6.

(٢) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 436-8.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٧٣-١٧٤.

(٤) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ٢١.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٧٢.

(٦) Barber, *Frontier Warfare*, pp. 10-11.

بدمشق وما حولها قضى على موارده. وبالرغم من ذلك، فإن إقامة صلاح الدين في دمشق لم تطل، وبخاصة إن بعض المؤرخين أكدوا أنه أغار وللمرة الأولى على الحصن لاستطلاع أخباره وبرفقته مبعوث الخليفة والتي كانت بعد عدة أيام من عودته لدمشق^(١).

بيد إن الأهم من تلك الغارة أنه اضطر إلى الاشتباك ضد الصليبيين فيما يعرف لدى المؤرخين المسلمين بواقعة همفري، وذلك قبل أن يُغير على الحصن عدة مرات متتالية ويشتبك ضدهم في معركة مرج عيون. بيد إننا أمام إشكالية مهمة مفادها تجاهل بعض المؤرخين المحدثين لحوادث كل من واقعة همفري ومرج عيون التي سبقت سقوط الحصن. وتعمد إيلينبلوم هذا التجاهل بالرغم من حرصه الشديد على توظيف الأثر السلبي الذي تركته معركة مونتجيسارد على المسلمين، بحيث جعل من عدم اعتراض المسلمين على بناء الحصن في تلك المنطقة أحد نتائج مونتجيسارد، واتهم صلاح الدين بالتفاوض مع الصليبيين لهم لخوفه من مواجهة الصليبيين للأمر ذاته^(٢)، بمعنى أنه بالغ في توظيف نتائج معركة مونتجيسارد، بينما تغاضى عن معالجة حوادث واقعة همفري ومعركة مرج عيون - وما تخللها من غارات - على الرغم من أنهما مهذا وبشكل كبير لسقوط الحصن وتسببنا بعدئذ في غلبة كفة المسلمين^(٣).

وفي الوقت الذي جعل فيه وليم الصوري من واقعة همفري مجرد خطأ تكتيكي تعرض له الصليبيون، وقتل نتيجة بعض وجوه الصليبيين ومن أبرزهم الكونستابل الملكي همفري وغيره؛ بسبب اندفاع الصليبيين في مطاردة بعض الرعاة التركمان في بانياس، فقد أشار كل من الأصفهاني وأبي شامة إلى خوض المسلمين لها لمنع الصليبيين من مهاجمتهم على الحدود قرب بانياس في أعداد كبيرة، وبخاصة بعدما أنهى صلاح الدين مشكلة بعلبك وتفرغ

(١) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ١٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٧٢.

(٢) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 86-9; Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 267.

(٣) Barber, *Frontier Warfare*, p. 15.

لهم وجعل الحصن هدفاً له^(١). وأكد ابن الأثير أن مهاجمة الصليبيين لأعمال دمشق وتسببهم في خسائر مادية وبشرية اضطر صلاح الدين إلى الدفع بابن أخيه عزالدين فرخشاه بن شاهنشاه للتصدي لهم، مما يضع تلك المعركة ضمن المواجهات التي تحتم على المسلمين خوضها تمهيداً للاستيلاء على الحصن عقب فشل المفاوضات بين المسلمين والصليبيين بخصوص هدم الحصن منذ أبريل ١١٧٩م/شوال ٥٧٤هـ^(٢).

وقد وجه صلاح الدين فرخشاه على رأس فرقة استطلاعية للوقوف على أخبار الصليبيين^(٣) وأمره بعدم الاشتباك مع الصليبيين خوفاً من كثرتهم وأن يقتصر على استفزازهم كي يجبرهم على الابتعاد عم مراكز ثقلهم وحصونهم، ولكن الصليبيين ظهروا أمامه فجأة فاضطر إلى الاشتباك معهم ولم يلزم النصيحة بعدم المخاطرة^(٤). وبالرغم من إشارة وليم الصوري إلى تغلب الصليبيين في البداية على فرخشاه ورجاله ودفعهم للهرب، فإنه أكد أيضاً أن اندفاع الصليبيين وبخاصة الفرقة المرافقة للملك بغير وعي في مطاردة المسلمين قادهم إلى وادي ضيق، فاضطر المسلمون إلى الدفاع عن أنفسهم وانقلبت المعركة لصالحهم وأوشك المسلمون على قتل الملك ولم ينقذه سوى تدخل همفري وأبراهام الناصري^(٥)، وانسحب الملك إلى معسكره واستدعى فرق جيشه التي دبت فيها الفوضى^(٦).

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٤٩؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ١٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٧٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٩٣-٩٤.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٤٩.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٤٩؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ١٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٧٢.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٥٠.

(٦) William of tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 438-9.



ويرى الباحث أن انتصار المسلمين في تلك المعركة طغى على انتصار الصليبيين عليهم في مونتجيسارد؛ لأنها كسرت حاجز التردد والحذر لدى المسلمين في مواجهة الصليبيين. وإذا كان ترجيح إيلينبلوم في محله عن خوف صلاح الدين من مواجهة الصليبيين نتيجة لمونتجيسارد^(١)، فقد زال هذا العارض بدليل إقدامه على مُحاصرة الحصن والإغارة عليه بعد واقعة همفري أكثر من مرة، ناهيك عن الأثر النفسي الذي تسببت فيه هزيمة الصليبيين غير المتوقعة حيث فقدوا بعض وجوههم وعلى رأسهم همفري أوف تورون بعدما أُخِن بجراحه في دفاعه عن الملك، وقد أدرك المسلمون مكانته الكبيرة بين الصليبيين^(٢)، وقُتل في أرض المعركة كل من إبراهيم الناصري وجوديشو دي تروت^(٣)، وتواترت الأنباء على المعسكر الإسلامي بعدئذ بكثرة وفيات الصليبيين تأثرًا بجراحهم^(٤)، مما رفع من عزائم المسلمين وجعلهم يُقدمون على مُهاجمة الحصن "...الذي بنوه وشاهدناه، وكشفنا عوراته وعائناه، وأزعجنا الكفر بأقدامنا وذعرناه، وعدنا على عزم العود إليه والنزول عليه..."^(٥). وكان من نتيجة المعركة أيضًا أن صلاح الدين شن سلسلة من الغارات التخريبية على القرى والضياع الصليبية المحيطة بالحصن، وعجزت حاميته عن منع التوغل المتكرر للمسلمين إلى تلك المنطقة وغيرها^(٦)، وهدفت تلك الغارات إلى الحرق والتدمير والحصول على الغلال لحرمان الصليبيين منها، ولتوفير الغذاء للجيش الإسلامي نتيجة لحالة الجذب

(١) Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 86-9; Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 267.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٥٠-١٥١؛ ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٩٣. وأيضًا: William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 438-9.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٥١. وأيضًا: William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 438-9.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٥٠-١٥٢.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٥٢.

(٦) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٥٧.

في دمشق وما حولها^(١). وأكد بارير أن تلك الغارات كان لها نتائج خطيرة للغاية على مستقبل الحصن؛ لأنها جعلت المنطقة المحيطة به بلا جدوى اقتصادية^(٢).

وعلى الرغم من ربط وليم الصوري بين واقعة همفري وقيام صلاح الدين بمحاصرة الحصن على الفور استنمازاً للروح المعنوية لدى المسلمين بعد انتصارهم على الصليبيين^(٣)، وتأكيد وليم الصوري بأن الملك كان يعلم أن صلاح الدين سوف يهاجم الحصن تبعاً لذلك^(٤) فإن الأمر لم يكن بالصورة التي عرضها وليم، وبخاصة أن صلاح الدين انتظر ما يقرب من سبعة وثلاثين يوماً تقريباً بعد انتصاره على الصليبيين في واقعة همفري قبل أن يهاجم الحصن على الرغم من اقتراب الحصن من موقع المعركة. ولعل مما يفسر هذا التأخير إشارة الأصفهاني إلى انتظار صلاح الدين وصول التعزيزات من مصر ليبدأ في مهاجمة الحصن^(٥)، وبخاصة أنه حينما هاجمه هذه المرة قبل وصول الإمدادات والتعزيزات، فإنه رفع الحصار بعد خمسة أيام انتظاراً للتعزيزات مرة أخرى.

ولا ريب في أن الجذب الذي انتشر في هذه السنة كان له دور في تأخر صلاح الدين في محاصرة الحصن، وبخاصة أن موسم حصاد القمح الشامي يبدأ في شهر مايو ويستمر إلى يونيو، وقد حاصر صلاح الدين الحصن في ٢٣ من مايو ١١٧٩م/٨ من ذي الحجة ٥٧٤هـ. أي في وقت الحصاد، وهاجم طبرية قبل هجومه على الحصن^(٦) مما يرجح حصوله على المؤن والإمدادات من هناك، ناهيك عن تأخر رحيل مبعوث الخلافة فاضل الذي ظل في ضيافة

(١) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٣.

(٢) Barber, *Frontier Warfare*, pp. 11–12.

(٣) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 440–2.

(٤) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 440.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٦٠.

(٦) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٥٩–١٦٠.

صلاح الدين حتى ٢٣ من أبريل/منتصف ذي القعدة ثم رحل توران شاه إلى مصر بعده بقليل^(١). وثمة أسباب أخرى اضطرت صلاح الدين إلى تأجيل محاصرة الحصن، حيث أشار بعض المؤرخين المعاصرين إلى اتفاق الصليبيين على مهاجمة المسلمين في أكثر من موضع بهدف تشتيت جهودهم "...اقتضى رأي الفرنج أن يُرعبوا المسلمين في كل ناحية خوفاً من اجتماعهم على جهة واحدة..." ولذا هاجم أمير أنطاكية مدينة شيزر بينما هاجم أمير طرابلس جماعة من التركمان بالقرب من حمص^(٢). وذهب باربر إلى أن الداوية كانوا يقفون خلف تلك التحركات في سعيهم لفرض استراتيجية جديدة للدفاع عن المملكة ببناء هذا الحصن وحصون أخرى على الخط الحدودي الشرقي لتكون بديلاً للاستراتيجيات العشوائية السابقة لبعض البارونات^(٣)، ولذا أقنعوا الملك بضرورة إتمام بناء الحصن في هذا الموقع^(٤)، وذلك على الرغم من مخالفته للاتفاق السابق مع المسلمين والذي يقضي بعدم بناء حصون جديدة في تلك المنطقة^(٥)، وذلك ما دفعهم إلى مهاجمة المسلمين في أكثر من جبهة بهدف

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٥٤، ١٥٧-١٥٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٣-٩٤. وأيضاً: الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٥٥-١٥٦.

(٣) رأى باربر أن انطباع سماعيل عن عدم وجود سياسة حدودية متماسكة في المملكة ربما كان مُستمداً من ملاحظته عن السياسة الحدودية غير المتسقة لبعض أمراء الصليبيين في النصف الأول من القرن الثاني عشر، ورأى أن الفرسان الرهبان كانوا يسعون إلى تغيير تلك السياسة في السنوات السابقة على معركة حطين. انظر:

Barber, *Frontier Warfare*, pp. 13-14. Cf. also: Tibble, S., *Monarchy and Lordships in the Latin Kingdom of Jerusalem 1099-1291*, (Oxford, 1989), pp. 158-61.

(٤) Barber, *Frontier Warfare*, pp. 15-16.

(٥) Emoul, *Chronique d'Emoul*, p. 52.

سرف انتباههم وتبديد جهودهم بعيداً عن الحصن، ولذا قام أمراء كل من أنطاكية وطرابلس بمهاجمة شيزر وحماة وحمص^(١).

وقد وقعت تلك الحوادث في الفترة التي تلت نجاح صلاح الدين في الاستيلاء على بعلبك في ٢٢ من مارس ١١٧٩م/٥ من شوال ٥٧٤هـ. وباتت تحركاته آنذاك مُزعجة للصليبيين سواء في موقع بناء الحصن أم من خلال غاراته على طبرية وصفد وتبنين من خلال معسكره في بانياس^(٢)، وقد جعل ابن الأثير حوادث مهاجمة شيزر وحماة وحمص تالية لحوادث واقعة همفري في أبريل ١١٧٩م/ذي القعدة ٥٧٤هـ^(٣). وقد عالج صلاح الدين تلك الأزمة بهدوء وكلف ابن أخيه تقي الدين عمر بحماية شيزر وحماة^(٤)، وأمر ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه بالدفاع عن حمص وحمايتها^(٥)، ورجح الأصفهاني قيام قلع أرسلان بمهاجمة رعبان آنذاك بتحريض من الصليبيين ضد صلاح الدين لتشتيت جهوده وتبديد موارده وإنهاكه في أكثر من جبهة^(٦).

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٥٥؛ ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٣؛ البنداري: سنا البرق، ص١٥٥؛ أبو شامة: الروضتين، تحقيق: إبراهيم الزبيق، ج٣، ص٢٧؛ المقرئزي: السلوك، ج١، ص٦٧. وأيضاً:

Cahen, *La Syrie du Nord à L'époque des Croisades et La Principauté Franque d'Antioche*, Institut Français de Damas, Bibliothèque Orientale, I, (Paris, 1940), p. 418.

(٢) أدرك الأصفهاني دوافع الصليبيين من تلك التحركات على أكثر من جبهة حينما ربط بين قيام كل من أمراء أنطاكية وطرابلس بتلك التحركات العسكرية وبين سعي الصليبيين لتخفيف الضغط الذي مارسه صلاح الدين ضد الصليبيين في طبرية وتبنين وصفد. انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٥٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٢-٩٣.

(٤) Emoul, *Chronique d'Emoul*, p. 46.

(٥) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص١٨-١٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٧٤؛ محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي: مضمرة الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٢٥.

(٦) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٧٤-١٧٥.



ولا شك في أن تعزيز وجود الداوية في صفا بإقليم الجليل كان خطوة أخرى في الاتجاه ذاته مثلما سبق وعززوا وجودهم في غزة^(١) وفي جبال أمانوس في طرابلس^(٢). ولذا بات حصن مخاضة يعقوب بمثابة القطعة الأخيرة لفرض رقابتهم على الخط الحدودي الشرقي بأسره^(٣)، وجاء تزويدهم لحصن مخاضة يعقوب بحامية كبيرة وأسلحة وأقوات تكفيهم لفترة طويلة لتمكينهم من السيطرة على ممرات الأردن إلى الجليل وعرقلة حركة القوافل والممرور دون تعرض حاميته لأزمة معيشية^(٤). وقد اعتاد الداوية ممارسة ذلك الدور وبخاصة في الجنوب حينما هاجموا القافلة المصرية عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ^(٥). ولذا حينما رفض الصليبيون عرض صلاح الدين بهدم الحصن، فإنه واجههم في واقعة همفري وتعين عليه تأمين حدوده

(١) غزة: هي المفتاح المؤدي إلى مصر وآخر المدن القوية على الحدود المصرية من جهة سيناء، وتقع غرب عسقلان على مسافة عشرين كيلو متراً تقريباً، وقد استغلها الصليبيون في مهاجمة مصر، واستزدها صلاح الدين عام ١١٩١م، وبالرغم من استيلاء ريتشارد عليها فإنها خضعت وفق صلح الرملة للمسلمين بعد تخريبها. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص ٢٠٢-٢٠٣. وأيضاً: نبيلة مقامي: فرق الفرسان، ص ٨٦-٨٧.

(٢) Ellenblum, *Frontier activities*, pp.83-4.

(٣) يرى الباحث من فحص موقع الحصون التي شيدها الصليبيون في الماضي ويسعون إلى تشييدها - أو إعادة تشييدها - في الوقت الراهن أنها تقع على خط حدودي واحد على الجبهة الشرقية للمملكة وفوق الخط الحدودي الوهمي بين المسلمين في دمشق شرقاً ومملكة بيت المقدس غرباً، منضمناً هونين في الشمال في أعلى الأردن في الجهة المقابلة لبانياس، ومخاضة يعقوب إلى جنوب غرب بانياس، ثم كوكب الهوا أو بلفوار على الضفة الغربية للأردن وشمال شرق بيسان، ثم كل من الكرك والشوبك في جنوب شرق بيت المقدس. إن سعي الصليبيين لتفعيل قوة هذا الحد كان كفيلاً بتقليل الغارات الإسلامية على مدن المملكة في طبرية والجليل وبيسان وحابس جلدك والكرك والشوبك وبعض موانئ الساحل ومنه.

(٤) حاول باربر توضيح قوة الحامية التي أقامت بالحصن بمقارنتها بقوة الحامية المقيمة في صفا عام ١٢٤٠م، حيث تُشير الأرقام إلى وجود ٥٠ فارساً، و ٣٠ من المشاة، و ٥٠ تركيولي، و ٣٠٠ من رماة السهام crossbowmen، إضافة إلى ٨٢٠ عاملاً متنوعاً و ٤٤٠ من الأسرى. انظر:

Barber, *Frontier Warfare*, p. 20. Note. 12. Cf. also: Huygens, ed., 'De constructione castri Saphet', *Studi Medievali* ser.3, 6 (1965), p. 384.

(٥) Barber, *Frontier Warfare*, pp. 13-14. Cf. also: Tibble, *Monarchy and Lordships*, pp. 158-61.

في حماة وشيزر وحمص ورعبان، وبعث إلى مصر في استدعاء ١٥٠٠ جندي من خيرة المُقاتلين لتعزيز موقفه^(١).

ولم ينس صلاح الدين الإغارة على الحصن في تلك الأزمات المتلاحقة، وقد أشار الأصفهاني أكثر من مرة إلى إغارة صلاح الدين على الحصن، ولكن دون أن يوضح إن كانت غارة واحدة أم أكثر، بيد إن اختلاف توقيت كل منها وارتباط كل غارة بحدث معين يؤكد أنها كانت أكثر من إغارة، ومنها ما كان جدياً، ومنها ما لم يزد هدفه عن جمع المعلومات والوقوف على أخبار الحصن وتخريب المنطقة المحيطة به^(٢)، ووقعت جميعها في الفترة التي سبقت مرج عيون. وقد وقف الباحث لدى الأصفهاني على نص يرجح ذلك جاء فيه: "...وقد تمت المُواعدة على مُعاودته والمُرادة لمراودته، وانعقدت العزائم على الرجوع إليه والنزول بالجمع عليه، لهد بنيانه وهدم قاعدته..."^(٣)، وفي هذا دلالة على أن غارات صلاح الدين كثرت ضد الحصن، وأنها كانت تهدف إلى إضعاف الصليبيين وإنهاكهم^(٤).

وأول ما وقف عليه الباحث تلك الغارة التي شنّها المسلمون على الحصن عقب انتهاء مشكلة بعلبك، ويمكن تمييزها عن بقية الغارات التالية بمرافقة فاضل مبعوث الخليفة لصلاح الدين في تلك الغارة، وكانت تلك المرة الأولى التي أغار فيها صلاح الدين على الحصن، وكان الهدف منها الوقوف على الحصن وجمع المعلومات عنه^(٥)، ولكن لا نعلم إن كانت تلك الغارة قد حدثت قبل ٢ من أبريل ١١٧٩م/٢٣ من شوال ٥٧٤هـ، حينما كان الملك في

(١) Barber, *Frontier Warfare*, pp. 12-3.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٤٨، ١٥٢، ١٧٥؛ ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٥؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص١٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٧٢.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٦٠.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٤٨، ١٧٥.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٤٨؛ الابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٥.

الحصن آنذاك أم بعدئذ^(١)، ولكن ما يمكن ترجيحه باطمئنان أن هذه الغارة وقعت قبل واقعة همفري في الأول من ذي القعدة/٩ من أبريل، وأنها وقعت بعد فشل التفاوض على هدم الحصن وإلا ما هاجم صلاح الدين الحصن. واقتصرت نتائج تلك الغارة على حصول صلاح الدين على معلومات مهمة عن الحصن، إضافة إلى التسبب في بعض الخسائر المادية والبشرية من جراء مهاجمته للمنطقة المحيطة بالحصن^(٢).

وأما الغارة التالية التي وقف عليها الباحث، فقد حدثت عقب رحيل توران شاه إلى مصر في الثالث الأول من مايو ١١٧٩م/الثالث الأخير من ذي القعدة ٥٧٤هـ، وقد حرص صلاح الدين بعد تأمين رحلة أخيه على مهاجمة الحصن في أثناء عودته ربما للتأكد من الأخبار التي جمعها عن الحصن في الغارة السابقة^(٣). ولا نملك عن هذه الغارة أية تفاصيل أو حجم الخسائر التي تسبب بها المسلمون للحصن وحاميته، ولكنها بلا شك مهدت للحصار الذي فرضه المسلمون على الحصن بعدئذ بقليل. أما الغارة الثالثة التي وقف عليها الباحث، فيمكن تسميتها بالحصار الأول والحقيقي الذي شنه المسلمون على الحصن في ١٦ من مايو/٨ من ذي الحجة^(٤). وقد جاءت هذه المحاولات استثماراً للانتصار الذي حققه المسلمون على الصليبيين في ٩ من أبريل ١١٧٩م/الأول من ذي القعدة ٥٧٤هـ بحيث عدّها بعض المؤرخين دلالة على وهن وضعف واستنكافة لدى الصليبيين^(٥)، بيد إن هذا ينطبق على الغارات الثلاثة السابقة لقيام المسلمين بآثنتين منها بعد واقعة همفري.

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٧٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٥؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص١٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٧٢.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٥٤-١٥٥، ١٥٧-١٥٨.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٥٧-١٦١. وأيضاً:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 439-40.

(٥) الأصفهاني: البرق، ج٣، ص١٥٢؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص١٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٧٣.

وقد علق كل من الأصفهاني وابن الأثير على تلك الغارات بأن السلطان كان يهاجم الحصن ويلحق به الضرر ثم ينسحب وفي نيته العودة إليه لمحاصرته وهدمه بعد وصول التعزيزات^(١). وتُسِير بعض رسائل الفاضل، ولكن بغموض شديد، إلى وقائع أخرى ربما جرت في تلك الفترة بين المسلمين والصليبيين حول موقع الحصن بقوله: "...ومنها: نوبة وادي الحريق..."^(٢)، وقد جعلها الفاضل قبيل مرج عيون مباشرة ولكن لم نجد لها صدى لدى المؤرخين المعاصرين. بيد إن أخطر تلك الغارات ما وقع في ١٦ من مايو/ ٨ من ذي الحجة^(٣) والتي استمرت لخمسة أيام تالية "...قصدنا البرج ونازلناه ومازلنا نزول من عنده حتى أزلناه واحتموا بباطنه فما أخرج أحد رأسه، وسنعود إليه بعون الله ونقلع أساسه"^(٤). ولكن لا توجد إشارة واضحة إلى حجم الضرر الذي سببه صلاح الدين للحصن^(٥). والغريب في هذه الغارة أن المسلمين قاموا بها في أيام عيد الأضحى من عام ٥٧٤هـ (مايو ١١٧٩م)، بحيث دارت المعارك قبل العيد بيومين واستمرت لليوم الثالث من أيام العيد^(٦)، ويمكن

(١) الأصفهاني: البرق، ج٣، ص ١٥٧؛ ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٩٥. وأيضاً: أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ١٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٧٣.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ٢٤.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٦٠-١٦١. وأيضاً:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 439-40.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٥٧.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٦٠-١٦١. وأيضاً:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 439-40.

(٦) جرت حوادث هذا الحصار في نهاية الثلث الأول من شهر ذي الحجة، بداية بيوم التروية وهو اليوم الثامن من ذي الحجة واستمر الحصار خمسة أيام أي إلى اليوم الثاني عشر من ذي الحجة ٥٧٤هـ. وقد اختلف ولیم الصوري مع المؤرخين المسلمين في تحديد تاريخ هذه المعركة بأنها وقعت في ١٩ من ذي الحجة ٥٧٤هـ/ ٢٧ من مايو ١١٧٩م، وإن كان التاريخ الذي قدمه الأصفهاني أقرب للقبول وبخاصة أنه ربط حصار الحصن بأيام عيد الأضحى، وربط بعض التحركات العسكرية والمناوشات بأيام مناسك الحج مثل يوم التروية ويوم عرفة وأيام التشريق الثلاثة الأولى، وهذه مناسبات يصعب نسيانها، بينما جاء التاريخ الذي قدمه ولیم الصوري - والغائب عن الشرق آنذاك - متأخرًا عشرة أيام عن التاريخ الذي قدمه الأصفهاني - والذي شارك في ذلك الحصار.



تفسير تعمد حدوث تلك لتضليل الصليبيين الذين لن يتوقعوا مهاجمة المسلمين لهم في أيام عيدهم. وأما عن انسحاب المسلمين فقد برره وليم الصوري بمقتل أمير جليل الشأن بنشابة أحد الأمراء الصليبيين مما جعل المسلمين يرفعون الحصار على الفور^(١)، ولكنه تبرير بعيد عن الواقع؛ لأن المسلمين انسحبوا من أمام الحصن بسبب تفضيل صلاح الدين انتظار وصول التعزيزات من مصر^(٢)، وكانت تلك المهام اللوجستية من أهم ما اضطلع به الفاضل طوال فترة صراع صلاح الدين مع الصليبيين ولكنه سبق واستأذن السلطان في أداء فريضة الحج^(٣).

ويكمن قبول تفسير انسحاب صلاح الدين لقلقه من من مواجهة الجيش الصليبي بناء على إشارة المؤرخين المسلمين تالياً إلى سعي صلاح الدين للحصول على التعزيزات والإمدادات من خلال مهاجمة الصليبيين والغارة على ممتلكاتهم في تبنين وصور وصيدا وطبرية وصفد لجمع الحبوب في موسم حصادها^(٤)، وفي تصريحهم باضطرار المسلمين إلى الانسحاب انتظاراً للتعزيزات^(٥)، بما يعني أن صلاح الدين اختبر تقديراته السابقة عن حالة الحصن ومكامن قوته وضعفه، وأدرك أن تقديره لوضع الحصن لم يكن في محله وأن قواته

وفسر وليم الصوري انسحاب صلاح الدين بإصابة أمير جليل الشأن فاضطر صلاح الدين إلى إنهاء الحصار وهو أمر لم يأخذ به غالبية المؤرخين الأوربيين المحدثين وعللوا انسحاب صلاح الدين برغبته في انتظار التعزيزات التي أرسل في طلبها من مصر. انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٦٠-١٦١. وأيضاً: William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 439-40. Cf. also: Ellenblum, *Frontier activities*, p. 89.

(١) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 440.

(٢) الأصفهاني: البرق، ج٣، ص ١٥٧؛ ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٩٥. وأيضاً: أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ١٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٧٣.

(٣) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ١٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٧٣.

(٤) الأصفهاني: البرق، ج٣، ص ١٥٧-١٥٨؛ ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٩٥. وأيضاً: أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ١٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٧٣.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٥٧؛ ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٩٥.

وموارده الحالية لن تُسَعفه في الاستيلاء عليه، ولذا رفع حصاره وانسحب على أمل العودة قريباً ومعه ما يكفيه من التعزيزات.

وتوجه صلاح الدين إلى بانياس بعدئذ ونصب معسكره في تل القاضي في مروج الشعراء إلى الشمال الشرقي من بانياس في منتصف عام ١١٧٩م/مستهل عام ٥٧٥هـ استعداداً لمواجهة الصليبيين في مرج عيون. وشرع في جمع الحبوب والأعلاف بالإغارة على الصليبيين^(١)، وحينما قلت المراعي والعلف في تلك المنطقة، فقد اضطر إلى نقل معسكره إلى بانياس ذاتها، واستمر بها لما يقرب من عشرين يوماً تقريباً^(٢)، واستأنف الغارات على القرى والضياع الصليبية للوفاء باحتياجات الجيش وإحراق أكبر ضرر بالصليبيين في صيدا وبيروت وطبرية مُستغلاً انضمام العريان والبدو إليه، وبخاصة أن شهر يونيو كان موعد حصاد القمح في سوريا وفلسطين^(٣)، وقد شكى وليم الصوري من الغارات التي شنتها تلك العناصر على المنطقة المحيطة بالحصن^(٤).

واتفق مجلس مشورة صلاح الدين على البقاء في المعسكر تاهباً للقاء المرتقب "... وإن شرع العدو في الاحتشاد لأصرفنا عن هذا المراد، لا يكتف سرهم، ولا يخفى أمرهم، فإن جواسيسنا بالبلاد وعيوننا للأرصاد، إن نهضوا، نهضنا في مقابلتهم وحرصنا على مقاتلتهم"^(٥). وحينما حصل الجيش على ما يكفيه من المؤن والإمدادات فقد نزل صلاح الدين الدين على نصح رجاله في ضرورة الإفادة من العامل النفسي الذي بات في صالحهم وأمر

(١) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٥.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٧٤.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٦١.

(٤) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 437-8.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٥٩.

فرق الجيش بالتحرك صوب البقاع^(١) يوم السبت الموافق ٧ من يونيه ١١٧٩م/مستهل محرم ٥٧٥هـ. ووصلت العيون والجواسيس إلى صلاح الدين بأخبار تحرك الصليبيين في طبرية، فجهز فرقة من الخيالة الخفيفة وعلى رأسها فرخشاها لاستطلاع أخبارهم وحماية المسلمين الذين يجمعون أعلاف الدواب من القرى والضياع الصليبية^(٢).

وهكذا يصعب فصل حوادث معركة مرج عيون التي وقعت في الثامن من يونيه ١١٧٩م/الثاني من المحرم ٥٧٥هـ^(٣) عن مجمل الحوادث التي أفضت إلى استيلاء صلاح الدين على الحصن؛ فلم يهاجم الصليبيون كل من شيزر وحماة قبلاً سوى لتفريق المسلمين وردعهم عن مُعاودة حصار حصن مخاضة يعقوب ومنعهم من نهب غلال تبنين وصفد وطبرية^(٤)، وفي المقابل لم يدخر صلاح الدين جهداً في حشد العوام والبدو والتركمان، وأنفق فيهم الأموال الكثيرة لتجهيزهم وإعدادهم^(٥)، وحرص هؤلاء وغيرهم على شن العديد من الغارات الغارات على قرى الصليبيين وضياعهم لجمع الغلال والحبوب^(٦).

وأكد ابن الأثير أن المسلمين بيتوا النية لاستغلال هزيمة الصليبيين السابقة في مهاجمة الحصن والاستيلاء عليه "...وقوى طمعه بالهزيمة المذكورة في فتحه، وبث العساكر في بلد الفرنج للإغارة..."^(٧). وأما ما يرجح أن تلك الحشود التي جمعها صلاح الدين كانت تهدف إلى حصار حصن مخاضة يعقوب أن صلاح الدين حرص في أثناء الحشد والتعبئة على توفير الآلات ومن أهمها المناجيق، وهذه لا قيمة لها في المواجهات المباشرة إذا ما كانت تلك

(١) البقاع: وصفت باتساع أرضها وتقع بين بعلبك وحمص ودمشق، وبها كثيرًا من القرى ويشرب أهلها من عين يُقال لها عين الجر وتخرج من جبل قريب منها. انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٤٧٠.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٦٢.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٦٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٦.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٧٥-١٧٦.

(٦) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 440-1.

(٧) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٣.

نية صلاح الدين، وأما وقد بيّنت النية على مُحاصرة الحصن والاستيلاء عليه فهنا يكون لتلك الآلات أهميتها^(١). وبالتالي، فإن معركة مرج عيون التي اضطر صلاح الدين إلى خوضها ليست سوى عقبة تحتم عليه تخطيها لمحاصرة الحصن.

وقدّر المؤرخون المسلمون مثل الأصفهاني أعداد الجيش الصليبي بألف راحم، وعشرة آلاف مقاتل ما بين فارس تركبولي^(٢) وراجل سرجندي^(٣)، ووصفهم في موضع آخر بالآلاف المؤلفة^(٤)، بيد إنها تقديرات تحمل كثيراً من المبالغة وبخاصة أننا لم نقف على أثر مشاركة بعض أمراء الصليبيين في تلك المعركة وبخاصة بوهوند الثالث ورينالد سيد صيدا وغيرهما^(٥). بينما لم ترد إشارة إلى مقدار جيش صلاح الدين سوى أن كثيراً من التركمان والعرب والبدو والمُتطوعة من غير الجنود النظاميين قد انضموا للجيش النظامي في المعسكر في تل القاضي والبقاع^(٦)، وأن جانباً من الجيش غاب عن المعركة بقيادة تقي الدين عمر لاضطراره إلى التوجه إلى رَعْبَان^(٧) لمنع قلع أرسلان من الاستيلاء عليها^(٨). وأكد ابن أبي طي وصول أنباء انتصار تقي الدين إلى المسلمين يوم انتصارهم على الصليبيين في مرج عيون^(٩).

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٧٥.

(٢) التركيولية: هم عناصر من الفرق العسكرية المحلية التي انضمت إلى الجيوش الصليبية، وكانوا مثلهم مثل الخيالة البيزنطية في تسليحهم وتدريبهم الخفيف، وبعضهم من المسيحيين المحليين وبعضهم من المسلمين الذين ارتدوا عن الإسلام. انظر:

Runciman, S., *A History of the Crusades*, vol. 2, (Cambridge, 1952), pp. 292-293.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٦٧.

السرجندية هم الرجالة كاملي التسليح ممن ينحدرون من أصل صليبي ويقومون في كنف السادة الإقطاعيين الذين تجهزونيهم ويقدمونهم للملك وفق الاتفاق الذي عقد بينهم وبينه نظير الحصول على الإقطاع. وقد عرض يوحنا أبلين لحقوقهم وواجباتهم. انظر:

John of Ibelin, *Le Livre des Assises*, pp.595, 615.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٧٠.

(٥) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 443.

(٦) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٧٥-١٧٦.

(٧) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ٢١.

وقد بدأت المعركة بقيام الصليبيين بقطع الطريق على فرقة الاستطلاع التي يقودها فرخشاہ بعد توغلها بعيداً في العمق الصليبي^(٣)، مما دفع صلاح الدين إلى التحرك لمساعدتهم عقب استعانتهم به^(٤)، وبخاصة أن أكثر ما كان يخشاه صلاح الدين أن ينجح الصليبيون في الفصل بينه وبين جنوده بالجهة الأخرى من الأردن. وبالرغم من حرص فرخشاہ على تجنب الاشتباك مع الصليبيين ريثما تصله النجدة فإن الصليبيين هاجموا أثقاله ومؤنثه واستولوا عليها ضارين عرض الحائط بأوامر قادتهم بالعودة عن النهب^(٥)، وسرعان ما نشبت المعركة بين كافة فرق الجيشين وأمر صلاح الدين رماته برمي الصليبيين وبعد قليل عادت فرقة الاستطلاع بدورها إلى المعركة واشتبكت مع الصليبيين وحاصرتهم. ولم ينكر الأصفهاني شدة المقاومة التي أبدتها قادة الجيش الصليبي، وأكد أنه لو فُدر النجاح لبعض هجمات الصليبيين التي اتسمت بالهوء والتناسق لهزموا المسلمين، وأكد الأصفهاني أن المعركة كانت قوية وأن وثيرتها لم تكن ثابتة لطرف وأنه لولا فضل الله وتأييده لانهمز المسلمون^(٦).

ويمكن تفسير عوامل هزيمة الصليبيين بأنهم لم يُبادروا بمباغثة المسلمين قبل الاستعداد لخوض المعركة، ولو فعلوا ذلك لصار لهم عامل المفاجأة ولتمكنوا من قطع الصلة بين فرقة

(١) ادعى قلع أرسلان أن نورالدين محمود أخذ منه رعبان على غير موافقته، وأن الصالح إسماعيل بن نورالدين محمود قد منحها له، ولكن صلاح الدين رفض هذا الادعاء وكان لا بد من إرسال تقي الدين عمر على رأس فرقة من ألف جندي لحماية رعبان من طموح قلع أرسلان، وما أن رأوا القوة التي قادها تقي الدين عمر فإنهم انسحبوا. وقد أشار الأصفهاني إلى احتمال وجود تواصل بين قلع أرسلان والصليبيين وأنه ربما قام بهذا الهجوم بناء على تفاهم واتفاق سابق بينهما. انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٧٣-١٧٥.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ٢١-٢٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٧٩.

(٣) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 441.

وأيضاً: أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ١٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٧٦.

أشار الأصفهاني إلى أن مهاجمة الصليبيين للعلاقة من المسلمين كان له دور في تدخل الجيش لحمايتهم ونشبت المعركة تبعاً لذلك. انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٦٧.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٦٧.

(٥) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 441.

(٦) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٧٠. وأيضاً: ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٩٥.



الاستطلاع وبقيّة الجيش، ولكن غابت عنهم تلك الفكرة^(١)، علاوة على وجود المشاة في جهة والفرسان في جهة أخرى بسبب الإنهاك الذي تعرض له المشاة^(٢)، إضافة إلى انشغال بعضهم بجمع الغنائم قبل انتهاء المعركة، وقد استغل فرخشااه ذلك الوضع وأبلى بلاءً حسنًا بشهادة المؤرخين المسلمين، وأظهر شجاعة كبيرة في مهاجمة جموع متفرقة من الصليبيين^(٣). وكان لأرض المعركة الصخرية وغير المستوية وأوديتها الضيقة والمجهولة للصليبيين دور في هزيمتهم وفي وقوع عدد كبير منهم في أسر المسلمين؛ لأنهم تشتتوا في أنحاء المنطقة ودارت معارك متفرقة بينهم وبين فرقة الاستطلاع المسلحة تسليحًا خفيًا والمُدربة على هذا النوع من حروب الكر والفر^(٤).

ولم يكن لدى الصليبيين خطة انسحاب واضحة على ما ظهر من رواية وليم الصوري، حيث انسحبت بعض فرق الجيش من المشاة والفرسان بلا نظام وإلى حيث لا يعلمون الأماكن التي سيتجهون إليها^(٥). ولم يُشارك بعض الصليبيين في تلك المعركة الحاسمة وبخاصة أمير أنطاكية وبعض البارونات وهو أمرٌ مثلٌ خطرًا كبيرًا نتيجة للانطباع الذي تركوه منذ تحركاتهم الأخيرة والتي ظهر منها أنهم وحدوا جهودهم ضد المسلمين على الجبهة الشرقية^(٦)، بل إن تأخر رينالد سيد صيدا عن المعركة يُؤكد أن قرار خوض المعركة لم يتم التخطيط له على الوجه الأمثل، وأن الصليبيين دفعوا ثمنًا باهظًا نتيجة لتسرّعهم^(٧).

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٦٥.

(٢) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 442-4.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٦٤، ١٧١-١٧٢؛ ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٥-٩٦.

(٤) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 441.

(٥) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 442-4.

(٦) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٨٠.

(٧) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 442-3.



وترتب على اندفاع أودو مقدم الدواية في مطاردة المسلمين أنه عرضَ الملك للخطر، ووقع عدد كبير من كبار فرسان الصليبيين ومقدميهم ما بين قتيل وأسير^(١)، حينما اضطر هؤلاء إلى التراجع، فلم يجدوا أنفسهم سوى في وادي صخري ضيق لا مخرج لهم منه ولا منفذ، وفرسانهم ومشاتهم يتساقطون صرعى أمام المسلمين، وأما من قُدر لهم النجاة، فإنهم تفرقوا في الغابات والتلال المجاورة^(٢)، ولم ينج من المعركة سوى الملك وبعض خواصه الذين حملوه وهربوا به تحت جناح الظلام^(٣). وقد توجه بعض الجنود الفارين من المعركة إلى الشقيف أرنون *Beaufort*^(٤)، بينما توجه بعضهم الآخر إلى صيدا حتى قابلهم سيدها رينالد، وحينما علم بهزيمة الصليبيين، فإنه عاد إلى صيدا على الفور^(٥). ويرى وليم أنه لو أكمل إلى الشقيف لنجح في إنقاذ من تخفى من الصليبيين في الكهوف؛ لأن المسلمين أسروهم في الصباح في أثناء تمشيطهم للمنطقة، وحمّله وليم مسؤولية أسرهم مؤكداً أنه كان أولى به التوجه إلى الشقيف وكان سينتقى المساعدة والحماية هناك^(٦). وقد حمل الزيدي مقدم الدواية أودو أوف سانت أماند مسؤولية تلك الهزيمة الثقيلة؛ لأنه لم لم يبق في موقعه بجوار الملك وتهور بمطاردته للمسلمين فوقع في الأسر وقُتل أكثر رجاله^(٧).

(١) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 442-4.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٦٣-١٦٨.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٦٥.

(٤) الشقيف أرنون: قلعة حصينة للغاية في كهف من الجبل بالقرب من بانياس ودمشق، وتقع بينها وبين البحر المتوسط.

انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص ٣٥٩. وأيضاً: مولر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص ٨٠-٨٢.

(٥) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 442-4.

(٦) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 442.

تتضح وجهة نظر سمايل حينما ذهب إلى أن الزكون إلى الرأي القائل بأن القلاع الحدودية مهمتها الدفاع فحسب أمر غير مقبول، وبعيداً عن رؤيته المتشعبة فإنه أشار إلى أن من مهام الحصون الحدودية تلك الحالة التي لم يفد منها رينالد سيد صيدا الذي قرر عدم اللجوء لحصن الشقيف التماساً للمساعدة ولضمان السلامة والأمان لعدد كبير من الفرسان والمقاتلين الصليبيين الناجين من معركة مرج عيون. انظر:

Smail, *Crusader warfare*, pp. 208-9.

(٧) مصعب الزيدي: موقف تنظيمي الاستبارية والدواية، ص ٩١.

وكان للمعركة نتائج وخيمة على الصليبيين، حيث قُتل عدد كبير منهم وأُسر أودو مُقدم الداوية^(١) ومُقدم آخر معه، ومقدم الإسبتارية، وهيغ صاحب طبرية ابن زوجة كونت طرابلس^(٢) إضافة إلى ابن بارزان وهو من كبار الأمراء الصليبيين، وأُسر أيضاً أخو شقيق سيد جبيل وصهره سيد طبرية^(٣)، وابن سيد مرقية، وقسطلان يافا^(٤)، وسيد جنين^(٥)، ناهيك ناهيك عن عدد آخر كبير من الفرسان الرهبان والبارونات^(٦). ويلحظ الباحث مشاركة الداوية بتقلهم في تلك المعركة وقُتل بعضهم وأُسر بعضهم الآخر وعلى رأسهم مقدمهم الأكبر^(٧) بعدما حُوصروا في الوادي الضيق مما يؤكد أنهم ظلوا يحاربون حتى اللحظة الأخيرة؛ لأنهم كانوا يعلمون جيداً أن هذه المعركة سوف تحسم مصير حصن مخاضة يعقوب، وأن فشل مفاوضات صلاح الدين معهم لم تنته عن عزمه على تدمير الحصن^(٨)، ولذا لا ينبغي التقليل من أثر معركة مرج عيون في الاستيلاء على الحصن بعدئذ.

ولعل من أهم النتائج الأخرى التي ترتبت على معركة مرج عيون أن المسلمين أدركوا أنه لو كان بإمكان الصليبيين التعاون من الشمال والجنوب في مضايقة المسلمين؛ فإنه لا ينبغي للمسلمين أن يكونوا أقل منهم في ذلك، ولذا ربط الأصفهاني بين ما حدث في مرج

(١) Hiestand, *Papsturkunden*, vol. 1, pp. 307-8, nos. 120-21.

(٢) William of Tyre, *History of Deeds*, vol.2, p. 443.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٦٥.

(٤) يافا: واحدة من أشهر مدن فلسطين وتقع على البحر المتوسط إلى الجنوب من مصب نهر العوجا، وتتسم المدينة بكثرة الأشجار وبساتين الكروم. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص ٤٢٩.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٦٩.

(٦) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٦٨.

استعرض الأصفهاني جميع الأسرى ودون أسمائهم ورتبهم، وأكد أنهم بلغوا جميعاً مائتين ونيّفًا وسبعين من الفرسان المُقَمَّمين بخلاف من أسره أسره في خيمته ولم يسمح بهديته، ناهيك عن من لم يشار إليهم من الأتباع، ونقلوا إلى دمشق وبها حُبسوا. انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٦٦. وأيضاً:

Delaville Le Roux, *Cartulaire général*, vol.1, pp. 500-23; William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 443.

(٧) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٦٦. وأيضاً:

Hiestand, *Papsturkunden*, vol. 1, pp. 307-8, nos. 120-21.

(٨) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٦٩.

عيون وبين قيام الأسطول المصري بمهاجمة المدن والموانئ في يونيو ١١٧٩م/محرم ٥٧٥هـ في الوقت ذاته الذي اشتبك فيه المسلمون مع الصليبيين في مرج عيون، وظفر الأسطول المصري ببطسة كبيرة وعاد وبصحبه ألف أسير^(١). وأكد سمايل ونتيجة لمعركة مرج عيون أن صلاح الدين اعتاد طوال حملاته ضد الصليبيين على اتباع سياسة مفادها إلحاق أكبر ضرر بالصليبيين وبخاصة إتلاف المحاصيل وتدميرها^(٢)، خصوصاً في بيروت وصور وصيدا والمنطقة المحيطة بالحصن، معتمداً أسلوب الأرض المحروقة، ولعل أفضل استثمار لنتيجة تلك المعركة ارتفاع الحالة المعنوية لدى المسلمين، وتأكدهم بأنه يمكن تجاوز هزيمة مونتجيسارد والتغلب على الصليبيين والتوجه لحصار الحصن^(٣).

استيلاء المسلمين على الحصن وتدميره:

كان صلاح الدين مُصرّاً على الاستيلاء على حصن مخاضة يعقوب وبخاصة أن خطورة ذلك الحصن كانت تُشبه الخطورة التي تُمثلها قلعة الكرك^(٤) في جنوب شرق مملكة بيت المقدس^(٥). ومثلما كان أرناط -رينو دو شاتيون *Renaud de Chatillon* - حاكم

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٦١، ١٦٩-١٧٠. وأيضاً: أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ٢٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٧٧.

(٢) Smail, *Crusader warfare*, p. 153.

(٣) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ٢٤.

(٤) الكرك: تقع في جنوب الأردن على مسافة عشرة أميال تقريباً شرق الطرف الجنوبي للبحر الميت، فوق مُنحدر صخري تنحدر سفوحه من الجانبين بشدة حتى وادي الكرك الذي يتشعب إلى وادي الست ووادي الفرنجة أسفل المدينة الحصينة. وقد أُجريت عدة تحصينات إلى القلعة بهدف تعزيز مواقع الصليبيين في شرقي الأردن، ولذا صارت القلعة بمثابة مخفر صليبي مُتقدم في طريق المرور الرئيس من الشمال إلى الجنوب. انظر: مولر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص ٥٥-٥٦.

(٥) Barber, *Frontier Warfare*, pp. 15-16.



الكرك قادراً على تهديد البحر الأحمر ومدخل مصر الشمالي الشرقي وسيناء^(١) فقد كان حصن مخاضة يعقوب تحت قيادة حامية قوية من الداوية قادراً على تهديد دمشق وطرق مواصلاتها مع مصر، بخلاف خطورته المستقبلية على الجيوش الإسلامية والقوافل التجارية

أكد المؤرخون خطورة كل من الكرك والشوبك على المسلمين نتيجة للسياسات العدائية لأرناط أمير الكرك والشوبك حينما هاجم البحر الأحمر للوصول إلى الأماكن المقدسة في خريف ١١٨٢م، إضافة إلى غاراته على قوافل التجارة في نهاية عام ١١٨٦م مُنتهكاً شروط الهدنة. عن حصن الكرك ودوره المزعج في تلك الفترة انظر: الأصفهاني: الفتح القسي، ص ١١٣؛ ابن شداد: النوادر، ص ٤٣؛ ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ١٥٣، ١٥٧، ١٦٧؛ البنداري: سنا البرق، ص ١٩٥، ٣١٢، ٢٨٩؛ مجهول: ذيل وليم الصوري، ص ١٥٠-١٥١. وأيضاً:

B. Hamilton, 'The Elephant of Christ: Reynald of Châtillon', in *Studies in Church History*, 15 (1978), pp. 97-108.

^١ - عن غدر أرناط ورعونته انظر: الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٤٢-٤٣؛ ابن شداد: النوادر، ص ٥١؛ ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ١٠٥، ١١٧-١١٨، ١٤٢-١٤٤، ١٤٨؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٣، ص ٢٧٦-٢٧٧، ٢٩٥؛ مجهول: ذيل وليم الصوري، ص ٦٠. وعن حملة أرناط التي شنّها على البحر الأحمر انظر:

Mallett, A., 'A Trip down the Red Sea with Reynald of Châtillon', *Journal of the Royal Asiatic Society*, Series 3, 18 (2008), pp. 141-53; Hamilton, *The Elephant of Christ*, pp. 97-108; Gabrieli, *Arab Historians*, pp. 133-5.

وحركة المرور عبر تلك الممرات^(١). علاوة على اقتراب الحصن من دمشق مما يهشم من دورها بصفقتها القاعدة الاستراتيجية للمسلمين بعد انتقال مركز الحكم إليها^(٢). وقد أكدت أعمال البناء في هونين ومخاضة يعقوب مدى حساسية الحدود في تلك البؤرة التي سبق وهاجمها المسلمون أكثر من مرة^(٣). ولكن لم يسارع صلاح الدين بتطوير عملياته الحربية ضد الحصن، وإنما تأخر ما يقرب من شهرين ونصف تقريباً بعد انتصاره في معركة مرج عيون ليتخذ هذا القرار، وذلك على الرغم من أن تطوير الهجوم ضد الحصن فور انتصاره على الصليبيين سوف يوفر له عامل مفاجأة الحامية بخاصة والصليبيين بعامه وهم على تلك الحالة المزرية من الإتهاك البدني والنفسي. ولكن يجب أن يوضع في الاعتبار وصول بعض التعزيزات الأوربية التي قادها هنري أوف تروي إلى الشرق الصليبي على ما أشار وليم الصوري، وكان هؤلاء من ضمن حشود المملكة التي وصلت إلى طبرية لإنقاذ الحصن من الحصار الإسلامي^(٤). ولعل هذا ما جعل صلاح الدين يتريث في تطوير هجومه ضد الحصن انتظاراً للحظة المناسبة.

(١) Barber, *Frontier Warfare*, p. 17-18.

يمكن الوقوف على النتائج بعيدة المدى من سهولة وصول المسلمين إلى الجليل في ١٠ من جمادى الآخرة ٥٧٩هـ/٢٩ من سبتمبر ١١٨٣م، واضطر أهالي بيسان إلى هجرها خوفاً من المسلمين، وواصل المسلمون تقدمهم حتى وصلوا بعد عبور المخاضة إلى جنين وزرعين وكفرييلا وبيسان وهي أماكن كان من الصعب الوصول إليها قبلاً. انظر: ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ١١٠-١١١، ١٢٤-١٢٨، ١٢٧-١٢٨، ١٤٢-١٤٦. وأيضاً:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 468-70, 480-5, 489-91, 494-8.

(٢) Smail, *Crusading Warfare*, p. 207.

(٣) Smail, *Crusading Warfare*, pp. 208-9; Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 262

(٤) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 444.

وقد وصلت الحشود التي قادها صلاح الدين والمشكلة من جموع كثيرة من الخيالة والرجالة والمُنتطوعين إلى موقع الحصن يوم السبت^(١)، وخيم هؤلاء حول الحصن^(٢)، بحيث لم يُعسكر المسلمون بالناحية الشرقية وحدها كما أشار إيلينبلوم^(٣)، وإنما نصبوا خيامهم حول الحصن حتى ازدحمت بهم المروج المحيطة به^(٤). وكان في إصرار صلاح الدين على اصطحاب آلات الحصار قبيل خوض معركة مرج عيون دلالة على أنه كان يستهدف الحصن منذ البداية؛ لأن وجود تلك الآلات وبخاصة المناجيق لا معنى له في معركة مفتوحة^(٥)، بيد إن الحوادث التالية دفعت صلاح الدين إلى العول عن نصب المناجيق حول الحصن.

حقاً كان صلاح الدين مُصرّاً على حصار الحصن بالمناجيق وبخاصة أنها كانت من أكثر آلات الحصار فاعلية في حصار الحصون آنذاك، وأكد ذلك بالتحرك في اليوم التالي من نزوله على الحصن إلى ضياع صدف لجمع أشجار الكروم والأعشاب الجافة والأخشاب اللازمة لنصب المناجيق والستائر^(٦)، ولكنه وبعد نقاش طويل بينه وبين رجاله نزل على نصح جاولي الأسدي الذي أشار عليه بتأجيل نصب المناجيق مؤقتاً، وأن يسمح لبعض رجاله بمهاجمة الحصن أولاً، فإن نجحوا في الاستيلاء على الباشورة ووصلوا إلى الأسوار، فقد حققوا شوطاً كبيراً في سبيل الاستيلاء على الحصن في وقت أقل وخسائر أقل، أما إذا ما فشلوا في اقتحام الباشورة، فإن خطة نصب المناجيق ما زالت قائمة ويمكن تنفيذها بعدئذ^(٧).

(١) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص٢٥.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٧٧.

(٣) Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 90-1.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٧٦-١٧٧.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٧٧.

(٦) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٧٧، ١٨٨. وأيضاً:

Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 90-1.

(٧) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٧٧.

وقد استغل إيلينبلوم التغيير الذي طرأ على خطة صلاح الدين ليؤكد أن الأخير اضطر إلى ارتجال هذه الاستراتيجية لعلمه بأن الصليبيين لن يمهلوه الوقت الكافي لضرب الحصن بالآلات، علاوة على اتهامه صلاح الدين بأنه ما زال خائفًا من مواجهة الصليبيين منذ هزيمته في مونتجيسارد^(١)، وفي هذا إجحاف بكافة جهود صلاح الدين في مُحاربة الصليبيين وهزيمته لهم في أكثر من معركة آخرها مرج عيون. وعلاوة على ذلك فقد تجاهل إيلينبلوم الأثر الذي تركته المعركة الضارية التي خاضها المسلمون ضد الصليبيين حول الباشورة، حينما تأثر المقاتلون بالشباب الشجاع الذي ألهم الجيش بإقدامه على تسلق سور الباشورة بشجاعة أذهلت الجميع مما حثَّ بعض المقاتلين على مجاراته وحاربوا خلفه ببسالة حتى تمكنوا من الاستيلاء على الباشورة في الليلة الأولى من حصار الحصن^(٢).

ولا شك في أن نصب المناجيق كان كفيلاً بتحقيق النتيجة التي رغب فيها صلاح الدين بالوصول إلى الأسوار ونقبها مع استمرار المناجيق في ضرب الأسوار وخلخلتها وإصابة أكبر عدد من الصليبيين ومنعهم من مضايقة أعمال النقب، ولكنه حقق ذلك بالاستيلاء على الباشورة دون نصب المناجيق، ووفر وقتًا كان بأمر الحاجة إليه. ويُعزى سقوط الباشورة في أيدي المسلمين إلى عدم تحصينها بشكل صحيح، وقد أكد باربر أن تحصينها لم يزد عن عدة خنادق وبعض المتاريس الخشبية^(٣)، علاوة على شجاعة المسلمين المسلمين وإقدامهم مما اضطر حامية الحصن وعمال البناء إلى مغادرتها وانسحبوا إلى الحصن للحماية وانتظارًا لوصول التعزيزات الصليبية التي كانت تتجمع في طبرية^(٤).

وقضى الصليبيون ليلتهم في خوف شديد وأشعلوا النيران خلف أبواب الحصن خوفًا من اقتحام المسلمين له^(٥)، ولم يتوقفوا عن مهاجمة المسلمين مما دفع بالمسلمين إلى حراسة

(١) Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 90-91.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٨٢.

(٣) Barber, *Frontier Warfare*, p. 15.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٨٢.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٧٨. وأيضًا: أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ٢٥.

الباشورة طوال الليل^(١). وفضلاً عن ذلك فلم يُضيع المسلمون الوقت وشرعوا في نقب أساسات الجدران^(٢). وقد وُزعت عمليات نقب الجدران على قادة الجيش بحيث تكفل صلاح الدين بالجهة الشمالية من الحصن، وتولى ناصر الدين محمد بن شيركوه موضعاً قريباً من صلاح الدين؛ ولأن الأصفهاني لم يُحدد له جهة منفصلة فالراجح أنه نال موضعاً من الجهة الشمالية من الحصن إلى جوار صلاح الدين، بينما تكفل عزالدين فرخشاه بنقب الجهة القبليّة (الجنوبيّة) من الحصن، وتولى تقي الدين بدوره جهة أخرى ولكن لم تُحددها المصادر^(٣). وقياساً على ذلك وُزعت أعمال نقب بقية الجدران على كبار الأمراء، وكان مع كل أمير مجموعات مختلفة من الصنّاع والنقّابين والحجّارين والنّحاتين وغيرهم^(٤).

ولكن لم يُحدد الأصفهاني أو غيره من معاصريه سوى الناحيتين الشماليّة والجنوبيّة فحسب مثلما لم يُحدد عدد المجموعات التي قامت بالنقب. وقد أشار الفاضل إلى خمسة مواضع للنقب دون أن يُحدد موضع كل منها من الحصن، ولكنه أشار أيضاً إلى توزيع بعض أعمال النقب على بقية الأمراء على العموم^(٥)، مما دفعه إلى وصف أعمال النقب بأنها كانت من كل جهة^(٦). وقد أشار كيندي إلى أن النقب كان يتم في ذلك الوقت باستخدام أنفاق قصيرة من قاعدة الجدار، وقد قام صلاح الدين بحفر نفق تحت جدران الحصن طوله

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٩٦. وأيضاً: الأصفهاني: البرق الشامي، ج ٣، ص ١٧٨، ١٨٢.

(٢) يهدف تكتيك نقب الجدران إلى عمل نقوب بمقدار يُساوي عرض الجدران تقريباً، ويتم نقب الجدران في أكثر من جهة وتُحشى أو تُلغم بالأحطاب والأعشاب الجافة مع دهنها بالنفط لتسريع إشعالها، ثم تشعل النار فيها لفترة طويلة مما يؤدي إلى خلخلة الجدران وسقوطها. عن تكتيك نقب جدران الحصون في العصور الوسطى انظر: ابن منكلي (محمد بن محمود الناصري، ت: ٧٨٤هـ/١٣٨٢م): الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز، دار الكتب المصرية، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٤٠٥-٤٠٧.

(٣) يبدو أن استقرار أمور رعيان جعلت السلطان يرسل في طلب تقي الدين عمر الذي شارك الجيش في نقب الجدران. انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، ج ٣، ص ١٧٨.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، ج ٣، ص ١٧٨.

(٥) أبو شامة: الروضتين، ج ٣، ص ٢٩.

(٦) أبو شامة: الروضتين، ج ٣، ص ٣٠.

ثلاثون ذراعًا، وعرضه ثلاثة أذرع (١٥م×١.٥ متر تقريبًا)، وهذه كلها ظروف جعلت من النقب فعالًا وبخاصة إذا كانت الظروف ملائمة والحسابات دقيقة^(١). ولكي ينجح المسلمون في النقب دون مضايقة قوية من الصليبيين بالداخل فقد نصب صلاح الدين الستائر لحماية المسلمين من قذائف النار في أثناء النقب كي لا تسقط عليهم قوارير المواد الحارقة والسهام. واستخدم الصليبيون تكتيكًا مغايرًا للتصدي للمسلمين من خلال إشعال النيران خلف كل باب من أبواب الحصن، وإلقاء قوارير المواد الحارقة على المهاجمين وجمع الأخشاب والأخشاب الجافة لإشعالها بهدف منع المهاجمين من دخول الحصن إذا ما سقطت الجدران^(٢). وبالرغم من انفراد المسلمين بمحاصرة الحصن وحاميته لمدة خمسة أيام بدأت بالأحد واستمرت إلى الخميس، فإن العقبات التي صادفتهم كانت كفيلة بإخفاق المهمة؛ حيث كانت الجدران حديثة ورطبة وشديدة الصلابة، ولم يتوقف المدافعون عن الحصن عن رمي المسلمين بوابل متصل من السهام بآلة تُسمى الجروح^(٣) إضافة إلى إلقاء قوارير المواد الحارقة، مما أصاب كثيرًا من المهاجمين بجروح خطيرة^(٤). إضافة إلى مُعضلة أخرى نتجت عن خطأ في الحسابات حينما قام المسلمون بتلغيم النقب وإشعال النيران به في الليلة ذاتها وبالرغم من ذلك لم تسقط الجدران^(٥).

(١) Kennedy, *Crusader Castles*, p. 106.

وقد أشار كينيدي إلى أن حادثة استيلاء صلاح الدين على حصن مخاضة بعقوب وتميمه جعل بناء الحصون والقلاع يستجيبون بمهارة وإبداع للتهديدات المتزايدة التي باتت تشكلها أبراج الحصار المتحركة والنقب والتهديدات الأخرى التي ظهرت مع صلاح الدين، بحيث فشلت أمامه غالبية قلاع الصليبيين في الفترة ١١٨٧-١١٨٩م، وكان لابد من تعديل تصميمات قلاع القرن الثاني عشر وتحسينها بشكل كبير لمواجهة التحديت الجديدة. انظر:

Kennedy, *Crusader Castles*, p. 110.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٧٨، ١٨٢، ١٨٧؛ ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٦-٩٧؛ البنداري: سنا البرق، ص١٦٩؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص٢٥-٢٧.

(٣) البنداري: سنا البرق، ص١٦٩. والجروح: واحدة من آلات الحرب القديمة وتُستخدم في رمي السهام والنقط. انظر: نوزي: تكملة، ج٢، ص١٧٤.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٧٨، ١٨٢، ١٨٧.

(٥) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص٢٥.



ويُعزى هذا الإخفاق إلى خطأ في تقدير عرض جدران الحصن التي زادت عن تسعة أذرع نجاري^(١)، ولذا أمر صلاح الدين بإطفاء النيران صبيحة يوم الإثنين وإعادة النقب مرة أخرى. وللإسراع في تنفيذ ذلك منح دينارًا مكافأة لكل قرية ماء يحملها الجنود بهدف حثهم على إطفاء النار بصورة أسرع، وحينما حقق ذلك، فإنه أمر النقبائين بمعاودة النقب مرة أخرى، ووسعه وزاد فيه ولغمه بالأحطاب والأعشاب الجافة وأشعله مرة أخرى^(٢). وعلاوة على ذلك، فقد صار المسلمون تحت ضغوط شديدة نتيجة للأبناء التي تواترت على المعسكر عن احتشاد الصليبيين بأعداد كبيرة، وهو أمر كان من شأنه أن يؤثر على كفاءة الحصار والنقب، وكان كفيلاً بتنشيط الجنود لولا الروح العالية التي أشعلها صلاح الدين وقادته في معسكر الحصار^(٣).

وترتب على براعة صلاح الدين في استغلال الوقت المُتاح وفي رفعه لمعنويات جنوده وهمته في أعمال النقب أنه نجح في إسقاط الجدران التي أكلتها النيران من أسفلها وخلخلتها ظهيرة يوم الخميس الموافق ٢٨ من أغسطس ١١٧٩م/٢٤ من ربيع الأول ٥٧٥هـ^(٤)، وتسابق المسلمون إلى دخول الحصن^(٥). واشتعلت النيران في بعض أكوام الحطب التي وضعها الصليبيون في فناء الحصن قريبًا من موضع النقب لمنع المسلمين من دخول الحصن، ولكن الرياح نقلت النيران إلى بعض الأبنية القريبة. ورفض صلاح الدين منح

(١) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٦-٩٧.

(٢) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٧٩-١٨٣؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص٢٥. وأيضًا:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 444-5.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٧٧، ١٧٩.

(٤) حدد إيلينبلوم تاريخ سقوط الحصن بيوم ٢٩ وليس ٢٨ أغسطس، وذلك على الرغم من إشارته برواية الفاضل بصفته شاهد عيان لتلك الحوادث، وقد أشار الفاضل إلى سقوط الحصن كما أشرنا يوم ٢٨ أغسطس، والمريب في الأمر أن إيلينبلوم اتهم المؤرخين المسلمين بعدم الدقة في عرض التتابع الزمني لحوادث الحصار وهو اتهام لا أصل له بسبب الدقة التي عرض بها المؤرخون المسلمون حوادث الحصن بوجه خاص. انظر:

Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 271-3.

(٥) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٨٠.

الأمان لرجال الحامية الذين اعتصموا بأحد جوانب الحصن^(١). ولم تجد نفعاً الحشود التي جمعها الملك بلدوين الرابع في طبرية، وبخاصة أنه ووفقاً لوليم الصوري، فإنه أجلّ الزحف على الحصن يوماً واحداً، وهو اليوم الذي نجح فيه المسلمون في الاستيلاء على الحصن^(٢). ويمكن تقدير مجموع أيام الحصار التي سبقت سقوط الحصن بستة أيام، بينما تُقدر أيام الحصار والهدم بأربعة وعشرين يوماً تقريباً^(٣).

وكرّرت الغنائم التي حصل عليها المسلمون عقب استيلائهم على الحصن، وكان غالبيتها من الأسلحة والدواب^(٤)، بما في ذلك مائة ألف قطعة من أنواع الأسلحة المتعارف عليها من بينها ألف زردية^(٥)، وفي هذا دلالة على أن الصليبيين أنفقوا في بناء الحصن الكثير وزودوا حاميته بما يكفيها من الأسلحة لمدة طويلة، ناهيك عن توفير الطعام والأقوات الكثيرة والمتنوعة والتي لا تقل أهمية عن الأسلحة^(٦). ووقع في أسر المسلمين كثيراً من الصليبيين؛ إذ قُدرت حامية الحصن بثمانين فارساً من الداوية، إضافة إلى سبعمائة وخمسين من المُقدمين وأتباعهم، وحوالي مائة معماري وحرفي^(٧)، مما يعني أن من نجا من القتل منهم لم ينج من الأسر^(٨).

(١) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٨٠.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ٣٠. وأيضاً:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 444-5.

(٣) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ٢٦.

(٤) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ٣٠.

° - الزرد: جمع زرديات وهي عبارة عن درع مصنوع من حلقات حديدية متداخلة يلبسها المقاتل لتحميه. انظر: دوزي: نكلمة المعاجم العربية، ج٥، ص ٣٠١.

(٥) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ٢٥؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ٢٩.

(٦) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ٢٥، ٢٩. حينما استعرض صلاح الدين الأسرى المسلمين فإنه حرّهم جميعاً ولم يقتل سوى من علم بارتداده عن الإسلام. انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٨٠.

(٧) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٨٠؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ٣٠.

وقد اتهم كل من ميتشيل *Mitchell* وناجار *Nagar* وإيلينبلوم صلاح الدين بقتل حامية الحصن وألقى بجثثهم في بئر الحصن، وهو البئر الذي لم يُوفق إيلينبلوم في العثور عليه في أثناء تنقيبه في موقع الحصن^(١). ولكن حينما ناقش إيلينبلوم إذا ما كانت الإصابات التي تعرضت لها عينة من الهياكل البشرية من حامية الحصن التي عثر عليها في موقع الحصن ناجمة عن إصابات المعارك بالفعل أم أنها جاءت نتيجة لعمليات إعدام، فقد أقر في النهاية أنه بالرغم من قيام بعض المتطوعين في جيش صلاح الدين بقتل بعض الأسرى بعدما رفض صلاح الدين منحهم الأمان فإن الإصابات التي تعرضت لها الهياكل الخمسة ناتجة عن جروح عادية في الأنسجة الرقيقة وفي العظام نفسها مُحدثة كسراً أو شرخاً، وأكد عدم وجود حالات قطع حادة بالسيف عند منطقة الرقبة^(٢). بينما انتشر بين المسلمين وباء غامض نتج عن تحلل جثث القتلى بسبب ارتفاع درجة الحرارة مع طول مدة الإقامة في الموقع بهدف تدمير الحصن، فمرض بعض الجنود، ومات بعضهم الآخر^(٣).

وقد جرت عمليات تدمير الحصن مثلما بدأت عمليات النقب، بحيث وُزعت أجزاء الحصن على قادة الجيش بالأنزع حتى هدموه تماماً^(٤)، وكان في مقدور صلاح الدين أن يُرمّم ما تهدم من أسوار الحصن ومدّه بحامية قوية بما يسمح له بالسيطرة على حركة المرور في هذا الموقع المهم، ولكنه لم يفعل ذلك مُقوضاً افتراضاً إيلينبلوم عن كون المنطقة المحيطة بالحصن بمثابة حدود إسلامية، مع الأخذ في الاعتبار أنه ربما درس احتمال الإبقاء على الحصن مع رجاله، ولكنه نفذ رؤيته التي تبناها منذ مُفاوضاته مع الصليبيين، واكتفى بهدم الحصن ومنع الداوية من فرض رقابتهم على المنطقة. ولا شك في أنه نجح في ذلك بحيث لم

(١) Mitchell, Nagar, Ellenblum, *Weapon injuries*, p. 146.

(٢) Mitchell, Nagar, Ellenblum, *Weapon injuries*, pp. 151-3.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٨٠؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ٢٦.

(٤) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٨١، ١٨٩؛ أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص ٢٦.



يقف الباحث على أية إشارة إلى مخاضة يعقوب في وثائق المملكة سوى في الفترة التي شهدت بناء الحصن والاستيلاء عليه وهدمه^(١).

ويرى الباحث أن المسلمين كانوا يرون أن سياسة بناء الحصون في هذه المنطقة من الأمور الخطيرة نتيجة لاعتماد الصليبيين على الحصون والقلاع كجزء من استراتيجيتهم وجودهم في الشرق؛ لأن الفضاء المفتوح كان من شأنه إنهاء الصليبيين لقلة أعدادهم ووجودهم في بيئة مُعادية، ولا يتلقون الدعم سوى من خارج المنطقة بأسرها، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للمسلمين بصفتهم أصحاب الأرض وتأتيهم التعزيزات من أماكن قريبة. وقد برهنت بعض الحوادث التالية على أن المسلمين تجنبوا بناء أية حصون في هذه المنطقة على وجه الخصوص حتى بعد استرداد بيت المقدس؛ لعلمهم بأن بقاء أي حصن في تلك المنطقة تحت سلطة الصليبيين يُعتبر مركز قوة^(٢)، ولعل هذا ما جعل صلاح الدين يُصر على هدم الحصن.

(١) Delaville Le Roux, *Cartulaire general*, vol. 1, pp. 379-380, no. 559, pp. 362-3, no. 530, pp. 363-4, no. 531; Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 688-91, no. 405, pp. 697-8, no. 408, pp. 647-8, 687-8, nos. 376, 404, pp. 647, 687, nos. 375, 403, pp. 692-3, no. 406, pp. 697-8, no. 408; Müller, *Documenti*, pp. 17-18, no. 15; Hiestand, *Papsturkunden*, vol. 2, pp. 39-47.

وقد أشار وليم الصوري إلى مخاضة يعقوب بصفتها معبراً للجيش الصليبي الذي توجه لمهاجمة قرى دمشق في شرق الأردن في السنوات التالية لهمد الحصن. انظر:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 485-6.

(٢) اتضحت هذه الفرضية في ندم السلمين على عدم هدم عكا قبيل وصول الحملة الصليبية الثالثة وفي هدمهم لعسقلان وتخريبها وغيرها، كما اتضحت أيضاً في قيام العادل بهدم الحصن الذي شيده على جبل طابور حينما أدرك أن الصليبيين الذي وفدوا على الشرق في الحملة الصليبية الخامسة كانوا يستهدفون هذا الحصن ليكون شوكة لهم في حلق المسلمين في تلك المنطقة المهمة. انظر:

Delaville Le Roux, *Cartulaire general*, vol. 1, pp. 379-380, no. 559, pp. 362-3, no. 530, pp. 363-4, no. 531; Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 688-91, no. 405, pp. 697-8, no. 408, pp. 647-8, 687-8, nos. 376, 404, pp. 647, 687, nos. 375, 403, pp. 692-3, no. 406, pp. 697-8, no. 408, vol. 3. pp. 1041-52, no. 639; Müller, *Documenti*, pp. 17-18, no. 15; Hiestand, *Papsturkunden*, vol. 2, pp. 239-47; Perry, G., *John of Brienne: King of Jerusalem, Emperor of Constantinople*, c.1175-1237, pp. 198-200.

وقد سعى إيلينبلوم إلى تفسير سقوط الحصن في أيدي المسلمين؛ نتيجة لأنه شُيِّدَ بسرعة دون مُراعاة جودة البناء مما يسرَّ على المسلمين إسقاطه، واستدل على فرضيته بإشارته إلى أكوام الكلس المترامية في موقع البناء واختلاطها برؤوس السهام مُعتبرًا إياها دليلًا على توقف أعمال البناء فجأة بسبب مُحاصرة المسلمين للحصن، ليؤكد أن الحصن لم يزد عن كونه مجرد موقع بناء مُزدحم بأعمال غير مكتملة عندما حاصره المسلمون، بحيث لم تتجاوز نسبة بناء المرافق الداخلية ١٥%، وبالجملة فلم يكمل الصليبيون أكثر من ٢٥% من خطة بناء الحصن^(١). ولا ريب في أن لبعض رُؤى إيلينبلوم وجهة وبخاصة أن المُسلمين أسروا أكثر من مائة معماري وحرفيٍّ حينما اقتحموا الحصن، وهو عدد كبير يُزكي افتراض إيلينبلوم وإلا فما الحاجة إلى إبقاء مثل هذا العدد الكبير من المعماريين إلى أواخر أغسطس ١١٧٩م في حصن انتهى تشييده منذ أبريل ١١٧٩م!

بيد إن هذا لا يعني أن جدران الحصن كانت ضعيفة وأن حامية الحصن انسحبت إلى الداخل لظنهم أن جدران حصنهم لن تقوى على الصمود أمام المُسلمين^(٢)، وهي فرضية أخرى في غير محلها وإلا لتعين على حامية الحصن الهرب إلى الفضاء المفتوح. وإذا صح أن احتواء الحامية بالجدران كان مؤقتًا ريثما تصل التعزيزات الصليبية فإن مُقاومة جدران الحصن لخمس أيام من الحصار الكامل بلا مضايقة قوية من حامية الحصن بالداخل ودون تدخل من الصليبيين المُحتشدين في طبرية يؤكد أن جدران الحصن لم تكن بالضعف الذي صوره إيلينبلوم حتى وإن كانت مجرد جدران ساترة؛ لأنها شُيِّدت لحماية الموقع من هجوم المسلمين وقت البناء وأجدر بها أن تحميه الآن^(٣). وإذا ما صح افتراض إيلينبلوم عن ضعف جدران الحصن، فإنه يُلقى بمسئولية ثقيلة الوطأة على الصليبيين الذين لم ينهضوا على الفور لنجدة حصنهم وهم يعلمون جيدًا بضعفه وعجزه عن دفع الحصار الإسلامي له اتساق مع افتراض إيلينبلوم.

(١) Ellenblum, *Frontier activities*, p. 88.

(٢) Ellenblum, *Crusader Castles*, pp. 271-4.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٨٠-١٨١.



وحيثما برر إيلينبلوم تأخر الجيش في الوصول إلى الحصن في الوقت المناسب، بسبب قصر المدة التي استولى فيها المسلمون على الحصن، وأن حشد الجيش كان يحتاج وقتاً أطول، فإنه لم ينتبه إلى رواية وليم الصوري عن حشد جيش المملكة بالفعل في طبرية، ولكن الملك أمر بتأجيل الهجوم ليوم كامل، وهو اليوم الذي اقتحم فيه المسلمون الحصن، ولذا فإن تأجيل الملك لقرار الهجوم برغم استعداد جيشه للهجوم ينفي فرضية سقوط الحصن؛ بسبب ضعف جدرانه والإسراع الصليبيون إلى نجدته فور حشد الجيش في طبرية^(١). وقد سبق واستدعى بلدوين الرابع جيشه إلى المنطقة ذاتها منذ بضعة شهور في مدة لم تتجاوز ستة أيام وكان الجيش آنذاك مُنهكاً للغاية^(٢).

ويرى الباحث في عدم استهانة المسلمين بالحصن وفشلهم في اقتحامه أكثر من مرة في أبريل ومايو ١١٧٩م، يؤكد أن الجدران لم تكن بالضعف الذي صوره إيلينبلوم، وبخاصة أن عمليات البناء وقتها كانت في طورها الأول ويفترض أن تكون دفاعات الحصن أضعف، وبالرغم من ذلك فقد فشل المسلمون في الاستيلاء عليه وآثروا انتظار التعزيزات. وفوق هذا وذلك فإن إقدام صلاح الدين على التفاوض على هدم الحصن مقابل تعويض الصليبيين عن تكلفة تشييده لأكثر دليل على تأكيد صلاح الدين من أن الاستيلاء على الحصن لم يكن أمراً هيناً^(٣). وكان للحروب التي خاضها صلاح الدين ضد الغارات التي شنّها عليهم دور كبير في إنهاكهم، علاوة على قتله لكثير من الأمراء والفرسان وأسره لآخرين ممن عول عليهم الملك في مواجهة المسلمين، ولذا بدا الصليبيون مُنهكين في الحصن وقت الحصار، وأما من احتشد في طبرية، فإنهم فقدوا القدرة على التحرك في الوقت المناسب لإنقاذ الحصن^(٤).

(١) William of tyre, *History of Deeds*, vol. 2, p. 444.

وأيضاً: الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٧٩.

(٢) حدث ذلك حينما رحل الملك عن الحصن إلى بيت المقدس في الثاني من أبريل ١١٧٩م ثم اضطر للعودة لمواجهة المسلمين في واقعة همفري في ٩ من أبريل ١١٧٩م واستغرق منه الذهاب والإياب والحشد ستة أيام فحسب، وتوجه بجيشه إلى بانياس أي لمسافة أبعد عن موقع الحصن بعشرين كيلو متراً شمالاً. انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٤٩، ١٥٠-١٥١. وأيضاً:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 440.

(٣) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٦٤-١٧٥، ١٨٠-١٨١.

(٤) William of tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 464-5.

وقد نظر المؤرخون المُحدثون إلى استيلاء المسلمين على الحصن بصور مُتضاربة مزجوا فيها بين الإعجاب بالمسلمين والشفقة على الوضع الكارثي الذي آلت إليه الأمور في مملكة بيت المقدس؛ فأنتى كينيدي على ذلك الحدث، وأكد أن المسلمين أظهروا للمرة الأولى إيجابية عالية في الاستيلاء على حصن صليبي مهم ومؤثر وعده نذيراً بكافة الكوارث التي ألمت بالصليبيين في المستقبل^(١). ورأى باربر أن الحوادث التي جرت بين المسلمين والصليبيين حول الحصن مهدت لمعركة حطين عام ١١٨٧م/٥٨٣هـ؛ لأن موقف المسلمين لم يكن قوياً أمام الصليبيين بين عامي ١١٧٤ و١١٧٧م، ولكنه تحسن كثيراً بعد الضرر الجسيم الذي ألحقه المسلمون بالصليبيين في معركتي همفري ١١٧٨م/٥٧٤هـ ومرج عيون ١١٧٩م/٥٧٥هـ، ثم ظهر صلاح الدين بصورة أقوى بعد تدمير الحصن بتوغله غرباً وجنوباً في عمق المملكة بطريقة غير مسبقة^(٢).

أما إيلينبلوم، فالبرغم من تعصبه ضد المسلمين على ما ظهر في كثير من إشكالياته وفرضياته، فإنه اضطر في النهاية إلى الإقرار بأن استيلاء المسلمين على هذا الحصن المهم مثل

(١) Kennedy, *Crusader Castles*, p. 57.

(٢) Barber, *Frontier Warfare*, p. 15.

رأى باربر أنه يمكن ترجيح هذه الفرضية بمقارنة موقف صلاح الدين قبل الاستيلاء على الحصن وبعده؛ ففي سنة ١١٧٤م فشل صلاح الدين في الاستيلاء على حلب مما منعه من مُحاصرة الصليبيين بأريحية، وبالرغم من تحقيقه نجاحاً طفيفاً في مُهاجمة الصليبيين خلال السنوات التالية فإن الصليبيين تولوا زمام المبادرة وبلغت مُواجهاتهم نروتها بانتصارهم في مونتجيسارد عام ١١٧٧م وسعيهم لبناء حصن مخاضة يعقوب ١١٧٨م. ثم تغير الوضع بمقدمات استيلاء صلاح الدين على الحصن وتوج نفاقه بهدم الحصن وبالغارات التالية التي أنهكت الصليبيين لتكرارها، وبالرغم من قيام أرنأط بأكثر من غارة متهورة ضد المسلمين فقد غلب على مجمل تحركات الصليبيين في المملكة خلال سنوات ١١٨٠ و١١٨٧م السعي لسد الثغرات التي كشفتها غارات صلاح الدين وهجماته المتتالية والمنتظمة والتي توغل بها إلى شمال الجليل وبيسان ونابلس ووصل بها إلى صيدا وبيروت على الساحل، وأغار عدة مرات على الكرك في الجنوب الشرقي، وفتح جبهات جديدة من الناحية الغربية بشن هجمات بحرية غير مسبقة بما في ذلك مُهاجمة عكا في أكتوبر ١١٧٩م، ولذا كان لنجاح صلاح الدين في هدم الحصن أثر كبير في قلب موازين الصراع مع الصليبيين لصالحه. انظر:

Barber, *Frontier Warfare*, p. 15. Cf. also: Kennedy, *Crusader Castles*, p. 57; Ellenblum, *Weapon injuries*, pp. 151-3; Ellenblum, *Frontier activities*, pp. 87-90.

نقطة تحول في تاريخ الصراع بين المسلمين والصليبيين، وترتب على سقوط الحصن في أيدي المسلمين زيادة الهجمات والتوغلات التي قام بها المسلمون ضد الصليبيين، وشملت أهدافها عددًا أكبر من المراكز داخل المملكة، وقلل الصليبيون تدريجيًا من المواجهات العسكرية المباشرة ضد المسلمين، مما سيؤدي مع أمور أخرى إلى الهزيمة الكارثية للصليبيين في حطين^(١).
وأما الهدنة التي عقدت بين الطرفين في مايو ١١٨٠م/أوائل ٥٧٦هـ، فلم تمدنا المصادر المعاصرة بأية تفاصيل عن شروطها^(٢)، وبالرغم من تراث صلاح الدين في الحصول على شروط أفضل، فإنه وافق عليها في النهاية ليس خوفًا من الصليبيين، ولكن بسبب الصعوبات التي واجهها نتيجة الجفاف والجذب الذي استمر في بلاد الشام لخمس سنوات تالية^(٣). وترجع الحوادث التالية اتفاق الطرفين على عامين كالهدنة السابقة التي تلت معركة مونتهيسارد، وحرص كل طرف على ضمان حرية التجارة^(٤). وكان الصليبيون بدورهم سعداء بقبولهم الهدنة على الرغم من أنها كانت مهينة لهم، ولكنهم لم يملكوا رفاهية الرفض؛ لأن الجهد الحربي الذي بذلوه في عامي ١١٧٨-١١٧٩م/٥٧٤-٥٧٥هـ استفذ طاقتهم وبدد بناء الحصن كثيرًا من مواردهم، ولذا كانت الهدنة بمثابة فترة راحة لهم لانتقاط الأنفاس^(٥).

(١) Ellenblum, *Crusader Castles*, p. 274.

(٢) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 446-7.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٩٣-٩٤.

(٤) Gibb (H.), 'The Rise of Saladin', in *Setton*, vol. I, P. 581; Smail, *Crusading Warfare*, p. 36.

(٥) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 464-5.

كان وليم الصوري قلقًا على مصير المملكة ونقل هذا القلق باهتمام وحماسة إلى الغرب، وتأكد قلقه مع تزامن انتهاء تلك الهدنة وقيام حكومة إندرونيكوس كومنينوس في القسطنطينية في سبتمبر ١١٨٢م والذي كان معاديًا للصليبيين. وبذا فقدت المملكة الدعم الغربي الثقيل بما يعادل قوة فيليب كونت الفلاندرز وهنري أوف تروي، فضلًا عن مرض الملك بلدوين الرابع وتدهور حالته الصحية، وما تلا ذلك من فترة تعد الأخطك في تاريخ الصليبيين في الشرق خلال القرن الثاني عشر. انظر:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 466-7. Cf. also: Barber, *Frontier Warfare*, pp. 18-19;

B. Hamilton, 'Manuel I Comnenus and Baldwin IV of Jerusalem', in *Kathegetria*. Essays presented to Joan Hussey on her Eightieth Birthday, (Camberley, 1988), pp. 353-75.

وأفاد صلاح الدين من تلك الهدنة بالسعي لتحقيق طموحاته في أماكن أخرى من العالم الإسلامي ولعل أخطرهما ضم حلب إلى ممتلكاته في ١٢ من يونيو ١١٨٣م/١٩ من صفر ٥٧٩هـ^(١)، وقد أدرك الصليبيون منذ ذلك الوقت أنهم من الآن فصاعداً قد صاروا تحت حصار المسلمين تقريباً وهو أمر تخوف منه وليم الصوري في حينه^(٢). وهكذا سيطر صلاح الدين على هذا الممر المهم وفتح أمام جيوشه وتجاره والمارة من العامة من شرق الأردن إلى غربه والعكس، ولضمان تنفيذ استراتيجيته، فإنه حرص على التواجد الدائم بمنطقة الحصن حتى لا يمنح الصليبيين أي فرصة لمعاودة بناء أية حصون في هذا الموقع، ولم يكن لدى الصليبيين الذين لم يفيقوا من تبعات الغارات المتكررة للمسلمين على موقع الحصن وكذا صنف وطبرية وبيسان وصور وصيدا وبيروت وغيرها - لتجربتها مستقبلاً من أي عامل قوة^(٣) - أية فرصة للتفكير في إعادة بناء الحصن في تلك

(١) William of tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 489-91.

(٢) William of tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 489-91. Cf. also: Barber, *Frontier Warfare*, p. 15-16.

(٣) أبو شامة: الروضتين، ج٣، ص٢٦، ٣٤. وقد حاول الصليبيون اعتراض الغارات المتكررة التي شنها المسلمون بعد تدمير الحصن، ولكنهم فشلوا في ذلك، ونجح فرخشاها في الإغارة على طبرية وعكا وديورية، ثم استولى على قلعة حابس جلدك جنوب شرق بحر الجليل التي هيمنت على منطقة الغور بموازاة بيسان وطبرية، وغنم فرخشاها غنيمة ضخمة، وبحلول أواخر يوليو كان صلاح الدين نفسه يُهاجم طبرية وبيسان، وخاض معركة ضد الصليبيين في بلفوار أو كوكب الهو، وبالرغم من استعادة ريموند الثالث لحابس جلدك في ديسمبر ١١٨٢م فقد كان نجاحه طفيفاً مقارنة باستسلام حلب لصلاح الدين في ١٢ من يونيو ١١٨٣م. انظر: ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١١٠-١١١، ١٢٤-١٢٨، ١٢٧-١٢٨، ١٤٢-١٤٦. وأيضاً:

William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 468-70, 480-5, 489-91. Cf. also: Barber, *Frontier Warfare*, pp. 14-16.

المنطقة مرة أخرى^(١)، وبخاصة بعد عودة المسلمين لزيارة المشهد اليعقوبي^(٢)، وأدرك الصليبيون منذ ذلك الوقت أنهم من الآن فصاعدًا قد صاروا تحت حصار المسلمين^(٣).

(^١) Delaville Le Roux, *Cartulaire general*, vol. 1, pp. 379-380, no. 559, pp. 362-3, no. 530, pp. 363-4, no. 531; Mayer, *Die Urkunden*, vol. 2, pp. 688-91, no. 405, pp. 697-8, no. 408, pp. 647-8, 687-8, nos. 376, 404, pp. 647, 687, nos. 375, 403, pp. 692-3, no. 406, pp. 697-8, no. 408, vol. 3. pp. 1041-52, no. 639; Müller, *Documenti*, pp. 17-18, no. 15; Hiestand, *Papsturkunden*, vol. 2, pp. 239-47; Pery, *John of Brienne*, pp. 198-200.

(^٢) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص ١٨١.

(^٣) William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 489-91. Cf. also: Barber, *Frontier Warfare*, pp. 15-16.

حاول الصليبيون اعتراض الغارات المتكررة التي شنّها المسلمون بعد تدمير الحصن، ولكنهم فشلوا في ذلك، ونجح فرخشاها في الإغارة على طبرية وعكا وديورية، ثم استولى على قلعة حابس جلدك جنوب شرق بحر الجليل التي هيمنت على منطقة الغور بموازاة بيسان وطبرية، وغنم فرخشاها غنيمة ضخمة، وبحلول أواخر يوليو، كان صلاح الدين نفسه يُهاجم طبرية وبيسان، وخاض معركة ضد الصليبيين في بلغوار أو كوكب الهو، وبالرغم من استعادة ريموند الثالث لحابس جلدك في ديسمبر ١١٨٢م، فقد كان نجاحه طفيفًا مقارنةً باستسلام حلب لصلاح الدين في ١٢ من يونيو ١١٨٣م. انظر: ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ١١٠-١١١، ١٢٤-١٢٨، ١٢٧-١٢٨، وأيضًا: ١٤٦-١٤٢، ١٢٨-١٢٧.

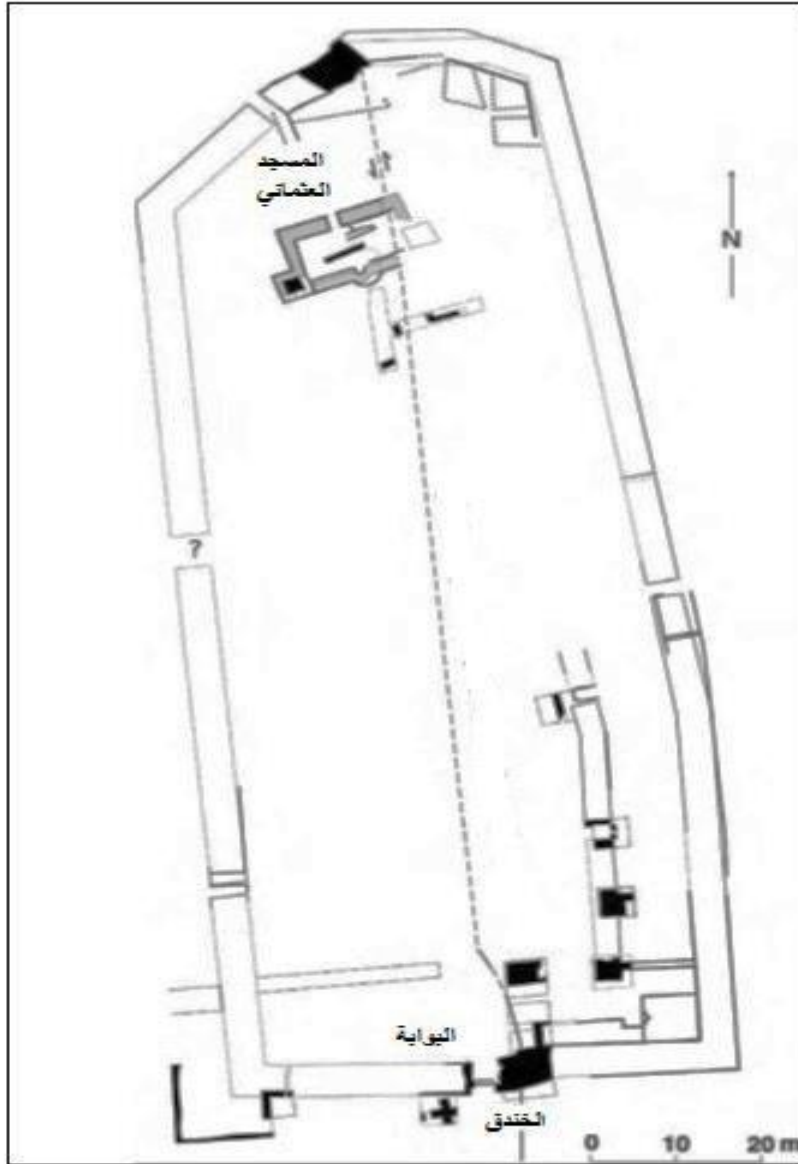
William of Tyre, *History of Deeds*, vol. 2, pp. 468-70, 480-5, 489-91. Cf. also: Barber, *Frontier Warfare*, pp. 14-16.

نتائج البحث:

- أفاد الصليبيون من انشغال صلاح الدين في حصار بعلبك، واحتشدوا جميعاً من المملكة وطرابلس وأنطاكية والبارونات والداوية والاسبتارية لبناء حصن مخاضة يعقوب في أحد أهم الممرات التي تربط بين دمشق والساحل الشامى، ودمشق والقاهرة بهدف عرقلة القوافل الإسلامية وحركة المرور فضلاً عن تحجيم قوة المسلمين في دمشق، وفرض رقابة صارمة على الحدود الشرقية مع المسلمين.
- يُعد الأصفهاني أحد أبرز المؤرخين المعاصرين الذي عالجا الحوادث المتعلقة بالحصن وويليه كل من الفاضل ووليم الصوري وابن الأثير.
- شُيِّد حصن مخاضة يعقوب وفق أبسط نماذج بناء القلاع الصليبية المعروف بالحصن العلبة الذي يقتصر على الاحتياجات الرئيسة للحامية المسؤولة عن حمايته لتمكينها من السيطرة على حركة المرور بالمنطقة المحيطة به.
- أنفق الصليبيون على بناء الحصن كثيراً من المال والجهد في البناء والتأمين، وترتب على سقوطه في أيدي المسلمين خسارتهم للمال والجهد الكبير الذي بذلوه في تشييد الحصن وتأمينه والدفاع عنه.
- تفاوض المسلمون مع الصليبيين في البداية على هدم الحصن لإدراكهم صعوبة الاستيلاء عليه، ولا يعني ذلك أن الحصن وقع ضمن الحدود الإسلامية وفق افتراض إيلينبلوم؛ لأن حرص المسلمين على هدم الحصن نبع من خطورته على حركة المرور من دمشق إلى الساحل ومصر والعكس، ويتساوى في ذلك حرص صلاح الدين على الاستيلاء على كل من الكرك والشوبك للصعوبات التي يفرضها كل منهما على حركة المرور بين مصر والشام والحجاز.
- فشلت محاولات صلاح الدين الأولية في أبريل ومايو ١١٧٩م في الاستيلاء على الحصن، ولكن كان للمعارك والغارات التي سبقت سقوط الحصن دور كبير في إنهاك

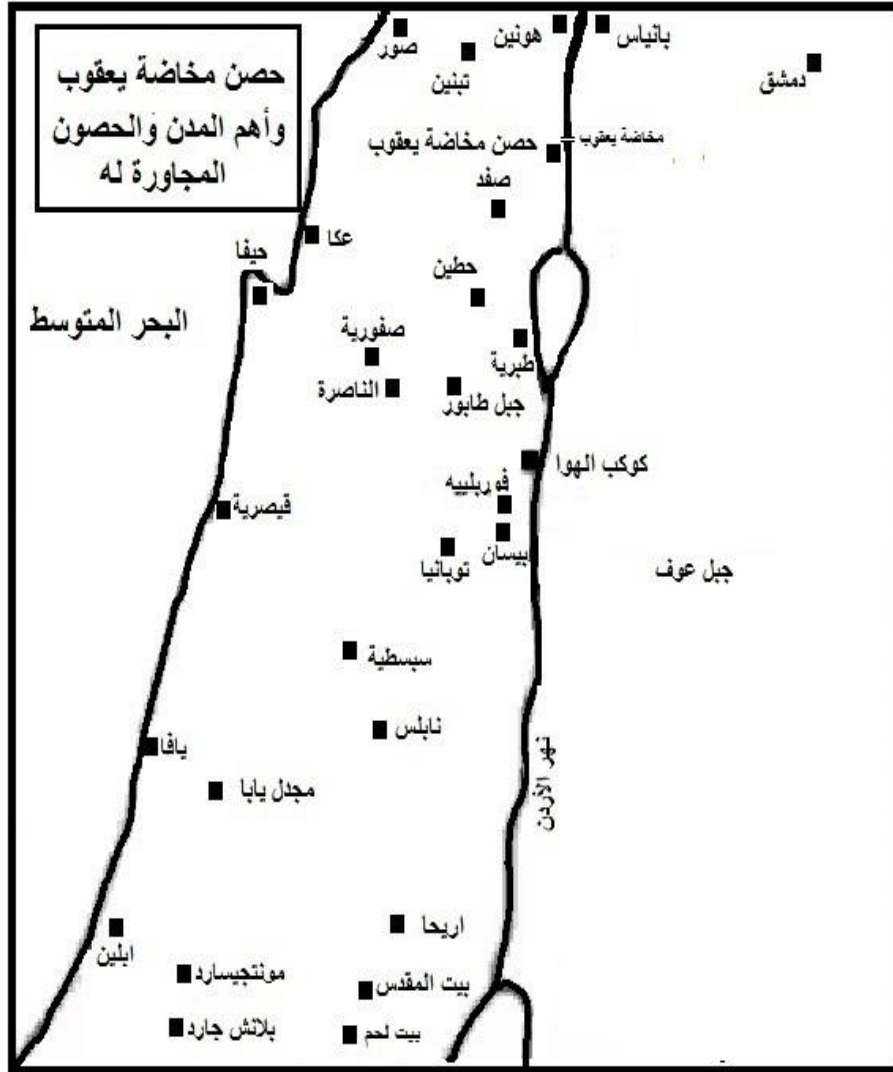
- الصليبيين واستنزاف مواردهم، وحينما حاصر المسلمون الحصن في أغسطس ١١٧٩م، فإنهم نجحوا في تحييد الصليبيين بالخارج وعزلهم عن الحصن وتقدروا به وبهاميته وحينها نجحوا في الاستيلاء عليه وتدميره في ٢٨ من أغسطس ١١٧٩م.
- نجح صلاح الدين في تحقيق استراتيجيته التي أعلنها الأصفهاني والخاصة باستنفاد موارد الصليبيين وتبديدها وإنهاكهم بدائياً ونفسياً ومادياً منذ اللحظة التي شرعوا فيها في بناء الحصن، ومروراً بإنهاكهم عبر هجماته المتكررة على الحصن وإغاراته الكثيرة على مدنها ومواقعهم وفي أثناء المعارك التي خاضها ضدهم وأخيراً بمهاجمة الحصن والاستيلاء عليه.
- فضل المسلمون حصار الحصن ونقبه على ضربه بالمناجيق بسبب عامل الوقت الذي لم يكن في صالحهم، فضلاً عن تجمع الصليبيين في طبرية بأعداد كبيرة ولذا هاجموا الباشورة ونقبوا الأسوار مباشرة وأسقطوا الحصن خلال خمسة أيام.
- ترتب على سقوط الحصن بأيدي المسلمين وتدميرهم إياه قلب موازين القوى بالتدرج لصالح المسلمين، ومهدت الغارات المتتالية التي شنها صلاح الدين ضد موانئ الساحل ومدن شمال مملكة بيت المقدس للوصول إلى تلك النتيجة، وأكد بعض المؤرخين الأوربيين أن سقوط الحصن مهّد لمعركة حطين وتوابعها.
- ترتب على سقوط الحصن في أيدي المسلمين وتدميره أن الصليبيين بعامة وفرق الفرسان الرهبان بخاصة فشلوا في فرض استراتيجيتهم الجديدة على حدودهم الشرقية مع المسلمين، وعجزوا عن منع المسلمين من الانطلاق من دمشق ومهاجمة مدن شمال مملكة بيت المقدس.
- مهد سقوط الحصن في أيدي المسلمين مع عوامل أخرى كثيرة لإضعاف الصليبيين على المدى البعيد ومن ثم هزيمتهم الكارثية في حطين ١١٨٧م/٥٨٣هـ.

مخطط حصن مخاضة يعقوب^(١)



(١) —————, p. 200.

مواقع أهم المدن والحصون الواردة في البحث^(١)



(١) الخريطة من إعداد الباحث.

خريطة لأهم المدن والحصون في بلاد الشام^(١)



(١) نقلاً عن: مولر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص ١٣٠.

خصائص الكتابة التاريخية المشتركة

عند اثنين من مؤرخي البلاط الموحدى

" ابن صاحب الصلاة المتوفى أواخر المائة ٦ هـ / ١٢ م
وابن القطان المتوفى منتصف ق ٧ هـ / ١٣ م "

د. عادل يحيى عبدالمنعم

مدرس التاريخ الاسلامى المنتب

كلية التربية - جامعة عين شمس - سابقا

ملخص البحث:

أن الحديث عن خصائص الكتابة التاريخية المشتركة - عند ابن صاحب الصلاة، وابن القطان - ما يجعل الموضوع يكتسى أهمية خاصة من حيث الكشف عن مدى تعصب هؤلاء نفر من المؤرخين الموحدين لدولتهم التى عاشوا فى كنفها وتحت سيادتها، وهو ما كان دافعا لكثير من مؤرخى دولة الموحدين فى وصف المرابطين - أسلافهم - بالجهل والتزمت، وكأنهم أجلاف بعيدين كل البعد عن الحضارة والمدنية، وفى الوقت نفسه راحوا يكيلون المدح والثناء على دولة الموحدين والدعاء لها ولحلفائها؛ وهو ما يعنى أن شهادة المؤرخ الموحدى فى المدح لا يمكن أن تؤخذ على علاتها؛ بل يجب إعمال العقل فيها، ومعرفة كافة آراء المصادر التاريخية المعاصرة فيما هو مذكور من أحداث، وليس لى هدف من هذا سوى استجلاء الحقيقة، وهى جل أهداف الدراسة التاريخية، كما أنى لا أبغى - ولا يمكن أن يكون قصدى - محاكمة هؤلاء نفر من مؤرخى العصر الموحدى، أو الحكم عليهم بمقياس العصر الذى نعيشه؛ وهو ما يعنى عدم إمكانية عزل المؤرخ عن الظروف التى يحياها، وعن البيئة التى تسهم فى بيان مواقفه.

Abstract

Talking about the characteristics of common historical writing - according to Ibn Saheb al-Salaat and Ibn al-Qattan - is what makes the topic of special importance in terms of revealing the extent of the intolerance of these group of historians who are monotheists of their state in which they lived and under its sovereignty, which was a motive for many historians of the Almohad state. In describing the Almoravids - their predecessors - of ignorance and puritanism, as if they were clumsiness, far from civilization and civilization, and at the same time they were praising and praising the Almohad state and praying for it and its allies; Which means that the testimony of the monotheistic historian in praise cannot be taken on its grounds. Rather, it is necessary to apply reason in it, and to know all the opinions of contemporary historical sources regarding the events mentioned. Almohad, or judging them according to the scale of the era in which we live; This means that the historian cannot be isolated from the circumstances in which he lives, and from the environment that contributes to stating his positions.

مقدمة :

لعل أهم ما يمكن أن أبدأ به حديثي في مقممة بحثي هذا هو ما قال به الأستاذ الجليل الفاضل أ.د. محمود إسماعيل عما يتعين على الباحث المعاصر أن يعمل العقل في روايات السلف ويخضعها للمنهج النقدي لتخليصها من أكاداس الخوارق والكرامات والمعجزات والأساطير التي علقت بها؛ مشيراً إلى ضرورة استخدام المنهج المقارن في استخلاص الحقيقة التاريخية من الروايات المتعددة والمتباينة ؛ وإن هذا لا يتم بمعزل عن الإمام الكامل بحياة المؤرخين القدامى والوقوف على اتجاهاتهم الفكرية وأوضاعهم الطبقية التي تشكل المنظور التاريخي لكل منهم، والتي تترك بصماتها فيما يكتبون^(١) .

ومن هنا فقد تولدت لدى فكرة المقارنة بين خصائص الكتابة التاريخية المشتركة بين اثنين من مؤرخي بلاط الدولة الموحدية وهما :-



ابن صاحب الصلاة المتوفي أواخر المائة السادسة من الهجرة/ القرن الثاني عشر الميلادى، وابن القطان المراكشى المتوفي في منتصف ق ١٣/٥٧م. وقد رأيت أن كلاهما يجمع بينهما جوانب فكرية مشتركة، مثل العمل بخدمة الدولة الموحدية، والمشاركة في أحداثها التاريخية، بل إن كلاهما ينطبق عليه ما يمكن تسميته بأتهما من مؤرخى البلاط الموحدى، وهى التسمية التى أكد عليها الأستاذ الدكتور/محمود على مكي فى تحقيقه لكتاب نظم الجمان لابن القطان^(٢)، وقد كان لهذا كله آثاره، فى جعل كتاباتهما التاريخية ذات خصائص مشتركة من حيث وحدة المصالح ووضوح الهدف عند كل منهما، فضلا على أنهما أصحاب أيديولوجيا واحدة إن صح القول .

وأظنى لا أبالغ فى القول بأن الحديث عن خصائص كتابة تاريخية مشتركة بين الأثمنوجين المذكورين من مؤرخى دولة الموحدين يعتمد على استنتاج النصوص الواردة فى المصادر التاريخية لكليهما؛ ومن خلال هذا الاستنتاج يمكن تحديد مجموعة من المشكلات التى اتصفت بها الكتابة التاريخية عندهما، أملا أن اتجنب الشطط فى استنتاج النصوص التاريخية، وهو ما نادى به أيضا أحد مؤرخى المغرب المحدثين^(٣) .

أمل فى نهاية مقدمتى أن ينطبق على بحثى هذا ما يمكن أن يقال بأنه خطوة على الطريق ... "من أجل كتابة علمية لتاريخ المغرب العربى" على حد قول أ.د. عبدالجليل التميمى^(٥)، سائلا المولى - عز وجل- أن يلهمنا الصدق وقول الحق فى المدح والقدح، أنه نعم المولى ونعم النصير .

التعريف بدولة الموحدين :-

تعد دولة الموحدين هي إحدى أهم الدول الكبرى التي ظهرت في بلاد المغرب والأندلس على حد سواء، وقد تركت وراءها حدوداً مترامية الأطراف ممتدة من طرابلس الغرب إلى السوس الأقصى من بلاد المصامدة وأكثر جزيرة الأندلس^(٦) .

ويعد ظهور محمد بن تومرت "مهدي الموحدين وداعيهم" إيذاناً بقيام الدولة الموحدية؛ حيث سعى ابن تومرت إلى تقويض دعائم دولة المرابطين، فعاب عليهم اللثام، ووصفهم بالكفر والتجسيم، وأخذ يدلل على ذلك بتأويل خاطئ للآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة^(٧)، مستغلاً في ذلك ما أشاعه عن نفسه أنه "الإمام المهدي المنتظر المخبر به القائم في آخر الزمان، والذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً"^(٨)، وكانت وفاة ابن تومرت سنة



"١١٢٩هـ/١٢٢٩م" ومجئ خليفته "عبدالمؤمن بن علي" البداية الحقيقية لقيام الدولة، حيث استطاع الأخير تحقيق هدف ابن تومرت، وشهد عهده قتل آخر حكام المرابطين^(٩). بيد إن ما يهم الباحث- وفي إطار التعريف بدولة الموحدين- هو بيان مدى ازدهار علم التاريخ في عصر الموحدين، وكثرة التأليف فيه وتنوعها، وهو ما سوف يتم بيانه في الجزئية التالية.

ازدهار علم التاريخ عند لموحدين: -

ليس من السهل أن يتم الحديث عن ازدهار علم التاريخ في الدولة الموحدية، دونما بيان المناخ الثقافي في البلاط المغربي قبيل دولة الموحدين؛ ومن الإنصاف القول بأن الموحدين - عند مجئ دولتهم - لم يجدوا في بلاد المغرب بلاداً قاحلة المعارف طبقاً لما قال به الأستاذ المنوني في حديثه عن حضارة الموحدين^(١٠)؛ ويعكس صحة هذا القول ما جاء به عبدالواحد المراكشي في المعجب أثناء حديثه عن أمير المسلمين "يوسف بن تاشفين" وابنه "علي بن يوسف بن تاشفين" قائلاً عنهما ... "فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله، حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار..."^(١١).

ومن المعروف - وحسبما جاء به صاحب روض القرطاس- أن مدينة مراكش كانت عاصمة لدولة المرابطين، ثم الموحدين من بعدهم، من يوم تأسيسها حتى انقراض دولة الموحدين^(١٢)؛ ولعل في حديث المراكشي السابق عن ازدهار مراكش حاضرة الدولتين المرابطية والموحدية، ما يدل على أن بلاد المغرب لم تخل من النهضة الثقافية في العصر المرابطي، وليس من شأن البحث الاستطراد في هذا الجانب إلا بالقدر الذي يخدم موضوعه، وقد أفضى إلى البحث بأن تنوع المصادر التاريخية المدونة في عصر المرابطين قد أدى إلى مزيد من الثراء والتنوع في عصر الموحدين، وهو ما أشارت إليه دراسات مغربية متخصصة^(١٣).

وثمة آراء في هذا الشأن تتحدث عن ازدهار علم التاريخ عند الموحدين؛ مشيرة إلى أن حكومة الموحدين قد أبدت تسامحاً فيما يتعلق بكتابة التاريخ، وألغت الرقابة على المؤلفات التاريخية، وسمحت بالكتابة عن تاريخ الدولة؛ بيد إنه كان لزاماً على المؤرخين أن يكتبوا بعطف عن الأسرة الموحدية، وأن خلفاء "عبدالمؤمن بن علي" قد هددوا المؤرخين بالموت إذا كتبوا عن حكومتهم أموراً لا تسر.^(١٤)



وعلى أية حال، فقد ازدهر علم التاريخ في عصر الموحدين ازدهاراً يتناسب ومقام الموحدين العلمي، وظهرت طائفة كبيرة من المؤرخين المغاربة، وهم الذين تناولوا كثيراً من فنون التاريخ، فألفوا في السير والأنساب، والتراجم، وتاريخ الملوك، وتاريخ البلدان ... إلى آخره. (١٥)

بيد إن ما يهيم البحث هنا - في إطار ازدهار علم التاريخ عند الموحدين - هم المؤرخين ممن تركوا كتابات تاريخية عن الموحدين كدولة، أو عن البلاط الموحيدي، وكانوا ممن عملوا في هذا البلاط أيضاً؛ وهو ما ينطبق على: ابن صاحب الصلاة - وابن القطان المراكشي، فكلاهما "مؤرخ بلاطي"، وهي التسمية التي تبدو فيها عبقرية أ.د. محمود مكي في اختياره لهذه اللفظة (١٦)، وسوف يتم التعريف بهما، كلا على حده - بإيجاز شديد - وصولاً إلى خصائص الكتابة التاريخية المشتركة بينهما.

التعريف بابن صاحب الصلاة - وابن القطان :-

ينبغي التنويه في إطار هذه الجزئية بأن الاستفاضة في التعريف بابن صاحب الصلاة، وابن القطان قد لا يخدم موضوع البحث كثيراً؛ فقط أقوم بالتعريف بهما تعريفاً موجزاً، وصولاً إلى حقيقة تاريخية مهمة، وهي أن كلاهما ينتمي إلى العقيدة الموحيديّة، وأن ليهما الولاء والانتماء لدولة الموحدين، وتعاليم مهيديها "محمد بن تومرت"؛ وهو ما جعل بينهما خصائص مشتركة في الكتابة التاريخية، تعتمد على كونهما من مؤرخي البلاط الموحيدي، ويبلل على ذلك نشأة كل منهما.

فابن صاحب الصلاة. هو عبدالملك بن محمد بن أحمد بن إبراهيم، يكنى : أبا مروان، وأبا محمد، استوطن إشبيلية، وأصله من مدينة باحة، توفي أواخر القرن ١٢/هـ ١٢٠٠م طبقاً لما قال به صاحب الذيل والتكملة (١٧)؛ ونقل عنه ابن الأبار في الحلة السيرة كثيراً من النقولات، واصفاً إياه أحياناً بالإشبيلي، وأحياناً أخرى بالباجي (١٨)، وتم تصنيف كتابه "المن بالإمامة..." ضمن المؤلفات الأندلسية، منسوباً إلى ابن صاحب الصلاة أبي مروان عبدالملك بن محمد بن أحمد الباجي الأندلسي المتوفي عام ١١٩٧/هـ ١١٩٧م (١٩)، وهو نفس التعريف الذي جاء به الأستاذ عبدالسلام بن سودة في دليله دونما أن يذكر تاريخاً لوفاته (٢٠).

كما أجرى الأستاذ الدكتور العبادي دراسة عن كتاب الحلل الموشية، قال فيها أن صاحبه اعتمد على كتب تاريخية أصيلة منها كتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة، ويجعل وفاته سنة "١١٨٢/هـ ١١٨٢م" (٢١). وهو ما يعني أن هناك اختلافاً في الآراء حول تاريخ وفاته؛ بيد إن



الأقرب إلى الصواب هو ما قال به الأستاذ الدكتور عبدالهادي التازي في تحقيقه لكتاب المن مشيراً إلى أن أقرب الاحتمالات إلى وفاته، هو أن توفي أواخر المائة السادسة، معتمداً في ذلك على اختفاء النقل عنه أواخر المائة السادسة من الهجرة / الثانية عشرة من الميلاد^(٢٢).

وعلى أية حال، فإن القارئ الكريم يستطيع أن يتلمس بعضاً من جوانب حياة ابن صاحب الصلاة ونشأته من خلال كتابه المن^(٢٣)؛ وقد جاء في مقدمة تحقيقه الكتاب سبب تسميته بابن صاحب الصلاة استناداً إلى أن ديار الإسلام قد عرفت خطأً عديدة من بينها صاحب الصلاة، وصاحب الخطبة ... وغيرها من الخطط^(٢٤)، كما إن في تلمس جوانب حياته في كتاب المن ما يشير إلى موحدية الرجل من منبت الرأس إلى أخصص القدم، حتى أن الخلافة الموحدية قد أغدقت عليه عند كبر سنه، وأسندت إليه الخطبة في جامع إشبيلية، منقاسماً لها مع أبي الحكم عبدالرحمن بن حجاج^(٢٥)؛ وإذا كانت الدولة الموحدية قد أغدقت على ابن صاحب الصلاة، فإنها أغدقت أيضاً على ابن القطان المراكشي ...

فمن هو ابن القطان المراكشي ؟ .

هو أبو محمد حسن بن علي بن القطان، ولد في حدود سنة "٥٨٠/١١٨٤م"، ولعل ميلاده كان في مدينة فاس التي نزل فيها والده صاحب الأصل القرطبي المتوفي سنة "٦٢٨/١٢٣٠م"، بينما امتدت الحياة بابنه مؤلف نظم الجمان حتى عاصر الخليفة المرتضى الموحدي، وكان وفاته تقريباً في منتصف القرن "٧٧/١٣م"^(٢٦).

وقد أسهب أ. د مكي - في مقدمة تحقيقه نظم الجمان - في التعريف بابن القطان الأب^(٢٧)؛ وذلك حتى يتعرف القارئ على ابن القطان الابن مؤلف نظم الجمان وارث علم أبيه، وأبرز تلاميذه، ومستودع ثقته . وقد احتذى الابن طريقة أبيه في التزلف لخلفاء الدولة الموحدية، ومظاهرتهم بالحق والباطل، وقد عاصر الأب خلفاء الدولة الموحدين بدءاً من يعقوب المنصور حتى المعتصم^(٢٨)، وكذا كان حال الابن أبي محمد بن القطان^(٢٩) في سلته بالخليفة المرتضى الموحدي، هذا الخليفة التعس الذي وافق حكمه غروب شمس الموحدين، وكان ابن القطان الابن من كتاب دولته المقربين^(٣٠).

وفي هذا ما يعني أن " ابن القطان الابن " كان امتداداً لأبيه في الحماسة الشديدة للدعوة الموحدية، والوصولية التي كان عليها الأب في الوصول إلى الجاه والسلطان، حتى إن تاريخه "نظم الجمان" يمكن أن يطلق عليه تاريخاً بلاطياً، وهو ما ذكره أ. د مكي مشيراً إلى أن كتاب



"تظم الجمان" يعد من طراز تلك الكتب التي ألفها مؤرخون منتفعون من أمثال: البيهقي وابن صاحب الصلاة^(٣١)، والأخير هو موضوع بحثي مع ابن القطان، ولعل في هذا ما يدفع إلى بيان خصائص الكتابة التاريخية المشتركة بينهما باعتبارهما من المؤرخين المنتفعين في بلاط الدولة الموحدية .

خصائص الكتابة التاريخية المشتركة:-

يمكن وضع خصائص الكتابة المشتركة بين ابن صاحب الصلاة، وابن القطان المراكشي على النحو التالي:-

أولاً : استخدام الآيات القرآنية في غير موضعها :-

يبدو هذا واضحاً عند ابن صاحب الصلاة في تأويله للآيات القرآنية الكريمة، واستخدامها في غير موضعها، حتى إن هذا الأمر يبدو من تسمية كتابه :- " كتاب تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين، بأن جعلهم الله أئمةً وجعلهم الوارثين، وظهور الإمام المهدي بالموحدين على الملثمين، وما في مساق ذلك من خلافة الإمام الخليفة أمير المؤمنين وأخير الخلفاء الراشدين^(٣٢)

وبغض النظر عما في عنوان الكتاب من إضفاء القداسة على دولة الموحدين؛ فإن هذا الأمر سوف تتم مناقشته فيما بعد؛ إلا إن عنوان الكتاب مشتق من الآية القرآنية الكريمة: **وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** { وهي الآية القرآنية الكريمة رقم (٥) من سورة القصص، ولا يمكن فهمها فهماً صحيحاً بمعزل عما سبقها، وما تلاها من آيات قرآنية . وقد رجعت في هذا الشأن إلى كتب أسباب النزول، فلم تشف لي غليلاً في بيان تفسير الآيات القرآنية وأسباب نزولها، فما كان مني إلا الرجوع إلى بعض كتب تفسير القرآن الكريم، حيث يتضح مدى استقطاع الآية من سياقها القرآني، وأن الآيات تشير إلى معاناة بني إسرائيل على يد فرعون، واستعمالهم في أخس الأعمال، وقتل أبنائهم من الذكور خاصة، واستحياء نسائهم، ولهذا كله جاء قوله سبحانه وتعالى : - **طسم (١) نَلِكُ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبِيٍّ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْتَرُونَ** { الآية^(٣٣)



ومع التسليم بأن العبرة في الآيات القرآنية الكريمة تكون - كما يقول علماء الأصول - بعموم اللفظ، وليس بخصوص السبب؛ إلا إن هذا التأويل للآيات القرآنية قد لا يعد مقبولاً في رأي البعض، وأسوأ منه تشبيهه خلفاء الموحدين بالخلفاء الراشدين - رضي الله تعالى عنهم - طبقاً لما يتضح من عنوان كتاب ابن صاحب الصلاة في كلمته... "أخير الخلفاء الراشدين" الذي يقصد به الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن "٥٥٨ - ١١٦٢/٥٥٨٠ - ١١٨٤م" (٣٤)، كما إن السياق التاريخي لدولة الموحدين يشير إلى إنهم لم يكونوا مستضعفين تجاه من قبلهم، بل كانوا هم المعتدين على دولة المرابطين. (٣٥)

ولم يكن ابن القطان المراكشي أحسن حالاً من ابن صاحب الصلاة في نفس الجزئية التي تعتمد على تأويل الآيات القرآنية، واستخدامها في غير موضعها، بل إنه كان أسوأ حالاً من سلفه، فقد جاء بطائفة من الآيات القرآنية مما استخدمها ابن تومرت "مهدي الموحدين" تجاه المرابطين أثناء قيامه وثورته عليهم، ومنها قوله سبحانه وتعالى: - {وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ} (٣٦)

وقوله سبحانه وتعالى - {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (٣٧) وقوله تعالى أيضاً: - {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ لِيُفُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} (٣٨). ويشير ابن القطان إلى أن ابن تومرت استدلت على وجوب قتال المرابطين من خلال هذه الآيات الكريمة، مُختتماً هذا كله بقوله "فكل هذه مما جاء به الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه مما يشهد بصدق ما أتى به وسعة علمه وعصمته، فكل هذه العلامات التي ناطها بالقوم الذين تولى تغيير ما أتوا به دالة على أشرار الساعة" (٣٩)

ولعل في هذا كله ما يشير إلى استخدام الآيات القرآنية في غير موضعها، بل واستخدامها لخدمة أهداف سياسية بحثه، وأن كل ما أتى به المرابطون، وسعى إلى تغييره ابن تومرت كان يعد - من وجهة نظر ابن القطان - من علامات الساعة! كما إن المتأمل



للآيات القرآنية الكريمة يدرك مدى فداحة الجرم الذي ارتكبه بن تومرت ووافق عليه ابن القطان المؤرخ، في توجيهها ضد "نولة إسلامية مفترى عليها" إن صحت العبارة^(٤٠). فهل كان المرابطون ظلمة حتى لا يركن إليهم الموحدون، وهل حادوا الله ورسوله، وهم أصحاب صفحة مشرقة من تاريخ الجهاد في الأندلس، نجحوا من خلالها في إرجاء سقوط الأندلس^(٤١)، فضلاً على جهادهم ضد قبائل "برغواطة" هراطقة المغرب الأقصى^(٤٢)، وهل كان المرابطون أيضاً ممن اتخذ من أعداء الله ورسوله أولياء لهم؟!

وليس عندي تفسير لهذه الجزئية سوى أن "ابن صاحب الصلاة - وابن القطان" يعدان في طبيعة مؤرخي البلاط الموحد، فكلاهما مؤرخ بلاطي، وإن كان الأمر يبدو أكثر سوءاً عند ابن القطان؛ إلا إن هذا لا يلغى أن "كلاهما في البرجماتية سواء" إن صح إطلاق اللفظة عليهما؛ فقط أريد أن أنبه القارئ إلى أنني لم أقصد إحصاء مواضع استخدام الآيات القرآنية في غير موضعها حسبما استخدمها ابن القطان المراكشي على لسان ابن تومرت أو على لسانه هو؛ إلا إن هذا الأمر قد وصل من ابن القطان إلى درجة من السوء لا مزيد عليها، حتى إنه يذكر عن ابن تومرت أنه الذي سيملك جميع أصناف الناس، حسبما وعد الله - سبحانه وتعالى - في محكم كتابه حيث قال: **لَوْ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** {^(٤٣)}. فهل كانت الآية الكريمة تنطبق على الموحدين فقط، أم أنها تمتد لتشمل كل من ينطبق عليه الصلاح، وهل كان الموحدون فقط هم ممن ينطبق عليهم الصلاح والبقاء دون غيرهم؟!

وأكثر من هذا يجده المرء في حديث ابن القطان عن "ابن تومرت مهدي الموحدين" بأنه الذي أَلَفَ بين جميع أصناف الناس بفضل إلهي طبقاً لما جاء في قوله سبحانه وتعالى **لَوْ أَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** {^(٤٤)}. والحق أن الباحث ليثني على ابن القطان دوره في إرجاع الفضل في التأليف بين أصناف الناس إلى الله سبحانه وتعالى! حتى الآية القرآنية التي خاطب بها الله - سبحانه وتعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم، يستخدمها ابن القطان لنصرة ابن تومرت مهدي الموحدين في غير موضعها، وفي هذا كله ما يشير إلى تطرف ابن القطان في موحديته بشكل فاق فيه ابن صاحب الصلاة.



ثانياً: استخدام بعض أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - في إظهار الولاء

للموحدين:-

تبدو هذه الجزئية قليلة الاستخدام - كسابقها - عند ابن صاحب الصلاة؛ فمن خلال استقراء أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم التي استخدمها ابن صاحب الصلاة، وأوردها في كتابه، وجدت أنه لم يستخدم سوى حديث واحد للنبي صلى الله عليه وسلم قال فيه "جبلت القول على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها" وقد أورد هذا الحديث الشريف عندما تم الإنعام عليه بظهير الولاء على يد أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن الذي يعتبره "أخيراً الخلفاء الراشدين"^(٤٥)؛ وكان ذلك أثناء دخول ابن صاحب الصلاة - هو وغيره ممن أنعم عليهم - على الخليفة أثناء مرضه، ويقول ابن صاحب الصلاة في هذا الشأن:- "وأمر رضى الله عنه لكل واحد منا بما أمله من إنعام، وخصني منهم بظهير كريم بأسهام، ومواساة معها أعانتني على الزمان النميم، وأغننتني عن اللثام ..."^(٤٦) والقول - وكما وضحه د. التازي - يشير إلى ظهور ابن صاحب الصلاة بمراكش - أوائل سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م- ليقدم التهاني بشفاء الخليفة الموحد^(٤٧)، وربما يكون لابن صاحب الصلاة عنزه في هذا الشأن؛ فالرجل يكافأ على ما قدمه من خدمات لدولة الموحدين، وربما يكون لتقدم السن به أثر في هذا الشعور الإنساني الذي يمكن أن يشعر به أى إنسان تجاه من أحسن إليه، خاصة وأن الإحسان للمرء قد يستعبد قلبه .

بيد إن الباحث يجد هذا الإحسان الموحدى قد ملك على ابن القطان قلبه وعقله، حتى

صده عن الواقع التاريخي الصحيح، فتحدث في ثنايا كتابه عن مخالفة اليهود والمشركون، وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد أمر بذلك، ثم يعطف على هذا بقوله:-

"وكنك المجسمين، هم يشبهون النساء في تغطية الوجوه والتلثم والتتقب، ويتشبه نساؤهم بالرجال في الكشف عن الوجوه بلا تلثم ولا تتقب، وقد لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء، فقد شملتهم اللعنة جميعاً ..."^(٤٨)

ولعل المتأمل في حديث ابن القطان يدرك أن الرجل يساوى بين المرابطين واليهود

والمشركين، ويصب عليهم اللعنة جميعاً، ويستخدم أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - أسوأ استغلال، وفي غير موضعها؛ ومن المعروف أن اللثام عند المرابطين يعد مظهرًا من المظاهر التي أوجبتها البيئة الجغرافية^(٤٩)، لكنه يستغل اللثام في النيل من رجال المرابطين في وصفهم بالتشبه النساء، والنيل أيضاً من نساؤهن في تشبهن بالرجال .



ويتجاوز ابن القطان هذا كله متوقفاً عند حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي يقول فيه أن "المهدي من عترتي من ولد فاطمة رضي الله تعالى عنها" (٥٠)؛ ويمضى ابن القطان في التلليل على أن "ابن تومرت، مهدي الموحدين" ينتمي إلى آل بيت النبوة، مشيراً إلى أنه قد صح أن اسم أبيه عبدالله، وأن تومرت لقب له، فضلاً على أن اسم "محمد" يوافق اسم النبي صلى الله عليه وسلم... ويستطرد ابن القطان في إيراد كافة الأدلة التي تبرهن على أن ابن تومرت - مهدي الموحدين - هو المهدي المنتظر الذي أخبر عنه النبي - صلى الله عليه وسلم - متجاوزاً في ذلك كل حدود التزلف حتى يصل في هذا الشأن إلى الهراء غير المقبول؛ فيقول عن ابن تومرت أنه "مهدي على الحقيقة، وملك على الإطلاق، وإمام أول، وأنه الذي بشر به جده محمد صلى الله عليه وسلم وملائكته الكرام عليه وسلم" (٥١) وأنه :-

"الإمام الأول الذي يستحق أن يكون ملك المعمورة الكونية" (٥٢) .. إلى غير ذلك مما لا يقبله عقل" ولا يتفق مع صحيح الدين، وتأباه الفطرة السليمة، ويرفضه الواقع التاريخي الصحيح .

ويندفع ابن القطان في تطرفه في الولاء للدعوة الموحدية؛ فيشير إلى وفاة ابن تومرت "مهدي الموحدين" سنة "٥٢٤هـ/١١٢٩م" في أعقاب واقعة البحيرة (٥٣)، وكيف اطمأن الرجل - قبل وفاته - على سلامة خليفته عبدالمؤمن بن علي، بما يفسره ابن القطان بأن الخلافة في عقبة إلى قيام الساعة مستنداً في ذلك إلى قول النبي - صلى الله عليه وسلم: "لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة" (٥٤)

ولعل في هذا كله - وربما غيره كثير مما يخرج عن القصد إحصاؤه - ما يدل على أن الولاء للدولة الموحدية قد يصيب المؤرخ بالتطرف، ويعمى عن الحقيقة، وهو ما وقع فيه ابن القطان بصورة فجة، تبدو هذه الصورة أقل وطأة بكثير جداً عند سلفه ابن صاحب الصلاة .

ثالثاً : تشويه العصر المرابطي وتوجيه الشتائم إلى المرابطين :-

تشير بعض الدراسات إلى العيوب التي وقع فيها مؤرخو البلاط الموحي من عبارات الإجلال والتعظيم للخلفاء والأمراء الموحدين، والانتقاص من المرابطين (٥٥)، وقد أشار أ.د. التازي - في مقدمة تحقيق كتاب المن - إلى أن ابن صاحب الصلاة كان يتصف بأخلاق كريمة طيبة، وأنه - في الأغلب - لا يتناول الدول التي سبقت حكم الموحدين بشتائم أو نقائص، وأن هذا كان نتيجة لتدنية وتقواه (٥٦) .



والجدير بالذكر، إن أسلوب ومنهج ابن صاحب الصلاة يشهدان له على تدينه وتقواه؛ فعندما يترجم لأبي القاسم أخيل بن إدريس يذكر أنه "كتب في فتوته آل المثلثين"^(٥٧) دون أن يقرن ذلك بسب أو قذف، أو على الأقل تجاهل؛ الذي يعد في حد ذاته تقيلاً من شأن دولة المرابطين، ومع ذلك، فقد وقع ابن صاحب الصلاة - في هذا التجاهل - عند حديثه عن بناء قنطرة إشبيلية في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن، وقوله عنه أنه حصل له : -
"من الأثر الجميل، والأجر الجزيل، على اتصال الأزمان، ومرور الحدثنان، مالم يتقدم قبله لملك من أهل الطوائف، ولا من الخلائف"^(٥٨). وفي الكلمة الأخير إشارة إلى التعريض بالمرابطين وتجاهلهم؛ إلا إنه يتجاوز هذا التعريض إلى درجة تقترب من وصفهم بما لا يليق، وذلك في ضوء ما ذكره عن الاستبشار بما من الله على الموحدين والنصر.. "وبما سنّاه الله للموحدين هناك من غزو المجسمين"^(٥٩).

والحق، إن المرابطين لم يكونوا مجسمين، وإنما كان ابن تومرت يغالط، ويصرح بأن جهادهم أوجب من جهاد الكفار، ويضيف د . التازي أن هذا من قبيل السفسة التي وقع فيها "المهدي بن تومرت" على حد قوله.^(٦٠)

وإذا كان الأمر يقتصر عند ابن صاحب الصلاة على التعريض بالمرابطين أو تجاهلهم، أو محاولة من طرف خفي لتشويههم، فإن ابن القطان المراكشي يتجاوز هذا كله إلى حد الشتائم وتشويه العصر المرابطي؛ فيصفهم بالجهلة، معلقاً على إحراق كتاب الإحياء للإمام الغزالي قائلاً :-

"وقد كان إحراق هؤلاء الجهلة لهذا الكتاب العظيم الذي ما ألف مثله سيباً لزوال ملكهم، وانتثار سلكهم، واستئصال شأفتهم..."^(٦١) وقد يكون إحراق كتاب إحياء علوم الدين - بالفعل - خطأ لا يمكن إنكاره؛ إلا إن ابن القطان يستغله مطيه لوصف المرابطين بالجهل، ويدفعه هذا إلى النقل على المرابطين؛ فيذكر ما أخذهم على الموحدين، وأنه قد نُسب إلى المرابطين وصفهم للموحدين... بالكفر والضلال والخروج من الدين، فسموا أهل التوحيد خوارج وجعلوهم مبتدعين، ونسبوهم إلى الخروج عن الدين !

والحق أنني أقف حائراً أمام هذه الجزئية التي ذكرها ابن القطان بعنوان "مآخذ المرابطين على الموحدين" والتي وصفتها بعض الدراسات بأنها من قبل الحرب النفسية والكلامية التي



اشتعلت بين الفريقين^(٦٣)؛ وقد أفضى إلى البحث بأن هذه المآخذ لا يمكن أن تؤخذ على علانها، خاصة وأنها جاءت ممن يعد مؤرخاً بلاطياً موحدياً، ومعادياً - في نفس الوقت - لكل ما هو مرابطى، وربما يكون ابن القطان قد لجأ إلى افتعال هذه المآخذ حتى يتخذها سنداً وتكئة لتكبييل الهجوم والشتائم إلى المرابطين، وهو ما حدث بالفعل.

فقد مضى ابن القطان المراكشى في ذكر أوصاف أطلقها ابن تومرت على المرابطين تهدف إلى تشويههم، وهذه الأوصاف مثل: - " الحشم، والمجسمين، والزراجنة " واللقب الأخير يفسره ابن القطان بأنهم (أى المرابطين) كانوا بيض الثياب، سود القلوب^(٦٤)؛ وهو أمر يدعو إلى العجب والدهشة، فأنى للمرء أن يحكم على الآخر بسواد قلبه، والله وحده - سبحانه وتعالى - هو العليم بذات الصدور، وبما في قلوب عباده؟!!

كما لم يرغب عن ابن القطان وصف المرابطين بالمجسمين، كما وصفهم سلفه ابن صاحب الصلاة، وأنهم يشبهون النساء في تغطية وجوههم، وهو ماسبق الإشارة إليه في الخاصية الثانية؛ فضلاً على ذلك، فهو يصف مدن المرابطين بأنها كانت " مندناً ضالة فاسقة خبيثة، نذلة في الغاية..."^(٦٥)، وهو ميل إلى التعميم، وكأن السليبيات والعيوب لم تكن إلا في العصر المرابطى فقط، والحق أن في القول الأخير إشارة لما جاء به " البيهقي " في أخبار ابن تومرت، وحديثه عن دخوله بعض مدن العصر المرابطى في محاولة من الأخير لتغيير المنكر، ومجابهة اختلاط الرجال بالنساء، واستخدام المزامر والملاهي ... إلى غير ذلك مما يفصله البيهقي^(٦٦) وهو المؤرخ المتيم بابن تومرت، والذي يلصق إليه الخوارق والمعجزات^(٦٧)، سيراً على نهج مؤرخى البلاط الموحدى، ولعل في هذا ما يعني أن ابن صاحب الصلاة كان أكثرهم تهذباً وتأدباً في حديثه عن دولة المرابطين، التي لم يتردد ابن القطان في وصفهم بأنهم أعداء الله، وأعداء الموحدين، من خلال ما قاله ابن تومرت لأصحابه، وجاء به ابن القطان، قائلاً في ذلك دون أن يفند أو يعلق أو يرفض " لا تتظروا إلى أعداء الله وأعدائكم، فيعظموها في أعينكم "^(٦٨)

والرأي عندي أنها شهوة الحكم والسلطة التي دفعت بابن تومرت بالخروج على الدولة المرابطية في عنفوان قوتها، وجهادها ضد نصارى إسبانيا، وأفرز هذا المناخ مؤرخين منتفعين، روجوا لمتل هذه الأفكار دونما أعمال للعقل فيما يكتبونه .

رابعاً: تعدد صور المغالاة في المدح، والإطراء الزائد عن الحد:-

لا أستطيع أن أدعى القدرة على إحصاء صور المغالاة في مدح ابن تومرت وخلفاء الموحدين، بيد أن أهم ما يمكن قوله أن المغالاة في مدح الموحدين والإطراء عليهم إنما يعتمد على الإيمان والولاء الكامل بالعقيدة الموحدية، وتعاليم ابن تومرت عند كل من ابن صاحب الصلاة - وابن القطان؛ وفي هذا الشأن يذكر ابن صاحب الصلاة - أثناء ترجمته لأبي الحسن الإشبيلي - أنه لقي الأخير ... بحضرة مراكش سنة "١١٦٤/٥٦٠م" وسمع عليه قراءة عقيدة التوحيد، والعقيدة المباركة المسماة بالطهارة " (٦٩). ومن هنا تتعدد صور المغالاة في مدح ابن تومرت وخلفاء الموحدين عند ابن صاحب الصلاة؛ حيث يأتي بمجموعة من الرسائل التي تظهر ولاءه للموحدين، من بينها ما قاله على لسان " السيد أبي إسحق بن الخليفة أبي يعقوب يوسف" إلى الأشياخ والحفاظ يعلمهم بخبر دخول ابن همشك "في التوحيد، وهي من إنشاء ابن مصادق، ويقول في مقدمتها :-

"أما بعد حمد الله على ما أولى وفتح، والصلاة على محمد نبيه الذي تبين به دين القيمة ووضح، والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، معيد دين الله بعد ما عفي رسمه ومصح .." (٧٠)

والرسالة هنا جاءت في كتاب لابن صاحب الصلاة، وهو ما يعني أنها يوافق عليها - انطلاقاً من إيمانه بالعقيدة الموحدية وتعاليم ابن تومرت - قلباً وقالياً، ثم إن القارئ المتأمل لوصف ابن تومرت بأنه الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، معيد دين الله بعد ما عفي رسمه... يدرك إلى أي مدى تبدو المغالاة.

ومن صور المغالاة أيضاً عند ابن صاحب الصلاة وصف فترة الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن بعهد سيدنا عثمان بن عفان - رضي الله عنه - في جوده وكرمه، حتى إنه قال في هذا الشأن:- " ونال الناس معه في إمارته وبعد ذلك في خلافته من جميع الطبقات من الكتاب والعمال والطلبة والقضاة والرعية بصلاح أحوالهم ونماء أموال ما لم يعقد مثلها في زمان حتى شبهها الطلبة وأهل التواريخ بأيام عثمان بن عفان رضي الله عنه" (٧١) ومع ما شاب عهد سيدنا عثمان بن عفان - رضي الله عنه - من أحداث عرفت باسم الفتنة



الكبرى؛ إلا إن تشبيهه عهد أحد خلفاء الموحدين بعهدة يحمل قدرًا كبيرًا من المبالغة والمغالاة في الإطراء والمدح .

ومن صور المغالاة أيضا عند ابن صاحب الصلاة نكره لا يفاد أو بعث "السيد الأسنى أبي إسحاق إبراهيم - ابن الخليفة أبي يعقوب يوسف - إلى قرطبة والياً عليها، وتشبيه هذا الحادث بما فعله سيدنا أبو بكر الصديق، حيث بعث يزيد بن أبي سفيان إلى الشام في غزو الروم^(٧٢)، وتمتد هذه المغالاة إلى وصف بيعة الخليفة أبي يعقوب يوسف بالبيعة الرضوانية، ويذكر كتابه إلى ابنه "السيد الأسنى أبي إبراهيم إسماعيل" بإشبيلية، والذي يطالبه فيه أن ... يأخذ الناس بإشبيلية وجميع الموحدين من الذين بها وببلاد الأندلس ... "العقد البيعة الرضوانية التي بها يكمل دينهم ويصدق يقينهم" ^(٧٣)

وإطلاق لفظ البيعة الرضوانية أمر غير مقبول، وتشبهًا بحادث جليل حدث في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - وعرف باسم "بيعة الرضوان"^(٧٤) هذا فضلًا على تسمية أمراء الموحدين بالسادات وإطلاق لفظ "أمير المؤمنين"^(٧٥) " على خلفاء الموحدين ... إلى غير ذلك من الجوانب المرتبطة بالمغالاة في المدح والإطراء عند ابن صاحب الصلاة، والتي نوهت في مقدمة الحديث عنها بأنه يخرج عن القصد إحصائها.

والجدير بالذكر، إن الباحث المدقق في تكييف عبارات المدح والثناء على ابن تومرت وخلفاء الموحدين ليذكر - من الوهلة الأولى - مدى ما انغمس فيه مؤرخو البلاط الموحي من أخطاء في الكتابة التاريخية، فضلًا على أن الإطراء الزائد عن الحد يخالف المنهج الإسلامي باعتبارهم مؤرخين في ديار الإسلام^(٧٦) وقد استمر هذا الأمر حتى مجئ الخليفة الموحي المأمون "٦٢٤ - ٦٢٩ هـ/١٢٢٦-١٢٣١ م" وهو الذي قام بدحض كل ماجاء به ابن تومرت^(٧٧) .

ومن هذا المنطلق، فقد تعددت صور المغالاة في المدح عند ابن القطان المراكشي، فلا يذكر اسم ابن تومرت حتى يقرنه بالدعاء له، ويصفه - كما وصفه سلفه ابن صاحب الصلاة - بالإمام المعصوم، والمهدى المعلوم رضي الله تعالى عنه^(٧٨)، ويدفعه هذا إلى ذكر كراماته ومناقبه، ومظاهر عصمته^(٧٩)، وهي من الجوانب التي ينبغي أن يأخذها الباحث بكثير من الحيطة والحذر، حتى يمكن تنقية المرويات التاريخية مما لحق لها من أكذاس الخوارق والكرامات والمعجزات .



ويمضى ابن القطان في نفس نهج ابن صاحب الصلاة، فيمتدح خلافة عبدالمؤمن بن علي، أول خلفاء الموحدين بعد ابن تومرت، فيصف دولته بعد مقدمة يقول فيها ... "فهذه المقدمة لدولته السعيدة، وخلافته الحميدة، التي شرق ضياؤها وسطع، وعلا سناؤها وارتفع، وأقرت عين الدين، وقهرت كل الملحين ..."^(٨٠). كما يمتدح عهد الخليفة المرتضي "٦٤٦ - ٦٦٥ هـ / ١٢٤٨ - ١٢٦٦ م"، فيقول عنه: "أسنى الخلائف قدراً، وأسامهم ذكراً، وأقسطهم حكماً، وأوسعهم علماً..." ويدعو له في موطن آخر قائلاً.. "والله سبحانه وتعالى يعلى مناره، ويديم بالخلافة المرتضية ضياؤه وأنواره إلى يوم الدين."^(٨١). ومع التسليم بما شهده عهد الخليفة "عبدالمؤمن بن علي" من ازدهار وقوة في دولة الموحدين، فهل كان هذا ينطبق على عهد المرتضى الموحد، أم أنه من قبيل المغالاة في المدح والإطراء الزائد عن الحد؟!

خامساً: استخدام الأسطورة * في المرويات التاريخية:-

لجأ ابن صاحب الصلاة إلى استخدام ما يشبه النسيج الخيالي المعتمد على الأسطورة في إحدى مروياته التاريخية، ويبدو هذا واضحاً عند حديثه عن وصول خير الانتصار على " ابن مردنيش " إلى مراكش وقوله أنه رأى " قطاً على سقف دار الخليفة يمشي وفي فمه فرخ حمام قد افترسه، فقلت لمن كان معي من أشياخ أهل الأندلس : الله أكبر هزم والله ابن مردنيش! فقالوا لي: بم تقول هذا ؟ فقلت لهم : هذا القط شبه الأسد، والأسد عُدوى والحمام عجمي: فقلت غلبت الموحدين العجم، وافترسوهم كافتراس هذا القط الفرخ ..."^(٨٢). وهذا النسيج الذي يعتمد على رؤية العين، ثم تفسير ما تراه العين تفسيراً خيالياً يقترب من الأسطورة بشكل أو بآخر، يضاعف المسؤولية على الباحثين المحدثين في تنقية المرويات التاريخية وتفتيحها، وإذا كان ابن صاحب الصلاة يقترب من الخيال والأسطورة، فإن ابن القطان تبدو عنده الأسطورة واضحة، من خلال حديثه عن قصة البشير تحت أحداث عام "٥١٩ هـ / ١١٢٥ م" وخروج ابن تومرت على الناس معروفاً بالبشير ذاك بأنه الونشريسي وأنه " أمي لا يقرأ ولا يكتب، وتعرفون أنه لا يثبت على آية، وقد جعله الله مبشراً لكم مطلعاً على أسراركم، وهو من آية الله تعالى في هذا الأمر!"، ويمضى ابن تومرت - فيما يرويه ابن القطان - إلى ما هو أسوأ من ذلك، فيذكر عن البشير هذا أنه مطلع على الأنفس محدث .



ثم تأتي ثلاثة الأثافي في تمييز البشير للناس من خلال قوم عن يمينه، وهم من أهل الجنة، وقوم عن يساره، وهو ممن يشك في أمر ابن تومرت وإمامته، ثم تمتد المهزلة لما هو أكثر من ذلك، حيث يرد البشير أناساً إلى فريق اليمين ويعلن توبتهم، وأنهم كانوا قبل ذلك كفاراً، فيعلن الواحد منهم - تحت وطأة خشيته من القتل - إن كل ماحدث به الإمام فهو حق، في حين يصدر أوامره بقتل من أبقاهم أهلاً لليسار .. " فيقتل الأب ابنه، والابن أباه، والأخ أخاه " (٨٣)

ويتصل بالبشير أيضاً ما قاله ابن القطان عنه، وما حدث له في أعقاب موقعه البحيرة، حيث يقول عنه " وفي البحيرة، فقد البشير ولم يجده الموحدون ولا المثلثون حياً ولا ميتاً، فيقول الغلاة في أمره أنه رفع ! " (٨٤)

وترتبط الأسطورة عند ابن القطان بذكره لمناقب ابن تومرت بشكل يفوق الخيال، وكأنه يبحث له عن سند تاريخي فيما فعله تجاه دولة المرابطين والخروج عليها؛ حيث يذكر على لسان أبي القاسم المؤمن أنه دخل رباطاً في أرض القدس يعمره رهبان الروم، وأنه وجد على السطر الأوسط السادس من رخامة بيضاء " اسم الإمام المهدي رضي الله عنه تعالى عنه وحده ؛ وعلى السطر السابع اسم الخليفة بعد الإمام المهدي رضي الله تعالى عنهما الآخذ عنه في حياته المسمى عبدالمؤمن بن علي القيسي. " (٨٥)

ومثل هذه المرويات التاريخية وأشباهاها ليست من الكرامات ولا المناقب، وإنما تضيف على الشخصية التاريخية هالة من القداسة، ولا تتفق مع الدين والعقل، كما إن الشخصية التاريخية ليست ذاتاً مقدسة ولا شبه مقدسة، وإنما لها مالها وعليها ما عليها، وربما كانت هذه المرويات تعد تكتة يستند إليها ابن تومرت في تحقيق صراعه الديني والمذهبي الذي يهدف من خلاله إلى تحقيق أهدافه السياسية البحتة، وساعده في ذلك مؤرخو البلاط الموحدية، خاصة ابن القطان وأمثاله .

ومن المرويات التاريخية التي تقترب من الأسطورة، واختلفت الآراء بشأنها وأوردها ابن القطان في كتابه ماجاء بشأن لقاء ابن تومرت بالإمام الغزالي^(٨٦)، وتعقيب الثاني على حادث إحراق كتابه الإحياء على يد المرابطين وقوله: " اللهم مزق ملكهم كما مزقوه واذهب دولتهم كما حرقوه " وقول ابن تومرت له " على يدي إن شاء الله، ثم رد عليه الغزالي قائلاً " اللهم اجعله



على يده! فقبل الله دعاءه، فخرج أبو عبدالله بن تومرت من بغداد و صار إلى المغرب، وقد علم أن دعوة الله لا ترد " (٨٧)

وليس من الإنصاف القول بأن حادث إحراق كتاب الإحياء لا يعد من أخطاء السياسة المرابطية كما سبق القول؛ إلا إن الحدث لا يمكن أن يحكم عليه بمعزل عن ظروفه، وليس بالدعاء فقط يمكن إسقاط الدول، وإنما المروية المذكورة سابقاً هي من قبيل المرويات التي تبحث لابن تومرت عن سند في صراعه ضد المرابطين، كذلك التي تبشر بفتح مصر وأوردها ابن عبدالحكم في كتابه^(٨٨)، ومثل هذا الاتجاه دفع بابن القطان إلى الحديث عن مناقب ابن تومرت، وكراماته، ومظاهر عصمته بشكل يمزج بين الحقيقة، والخيال، والأسطورة، وهو ماسبق توضيحه في الخاصية السابقة .

سادساً : استخدام ألفاظ بربرية : -

من أهم الخصائص المشتركة بين ابن صاحب الصلاة - وابن القطان أن كلا منهما قد أورد في كتابه بعضاً من الألفاظ البربرية؛ كما هو الحال في حديث ابن صاحب الصلاة عند "تكر حركة أمير المؤمنين رضي الله عنه من مراكش إلى زيارة قبر المهدي رضي الله عنه بتينملل ... " (٨٩) " وكلمة تينملل كلمة بربرية، تأتي أحياناً في كتاب ابن صاحب الصلاة مكونة من مقطعين " تين - ملل " وهي تعني ذات الحواجز .

كما يتحدث ابن صاحب الصلاة عن "وصول خبر الانتصار على ابن مردنيش لمراكش" ويذكر في هذا الشأن قوله " كنت صبيحة يوم الأحد الذي وصلت فيه هذه البشرى الفاتحة قد بكرت على العادة إلى منتقمي " وكلمة منتقمي كلمة بربرية مكونة من مقطعين " أمي ننكي " وتعني باب الدار، وهو الدار الذي كان يخرج منه الخليفة إلى سقائف أهل الجماعة (٩٠)

كما استخدم ابن صاحب الصلاة من الألفاظ البربرية أيضاً لفظة "مزوار" وقد استخدمها بصيغة الجمع عندما ذكر " أشياخ الموحدين ومزوارهم " والمعنى يشير إلى رئيس فرقة، وكان ابن تومرت قد جعل على كل عشرة من أصحابه نقيباً . (٩١)

أما ابن القطان المراكشي، فقد أورد هو الآخر بعضاً من الألفاظ البربرية، منها ما ارتبط على سبيل المثال - بابن تومرت الذي يقول عنه أثناء تلقي تعليمة في المكتب:-



"وكان رضي الله تعالى عنه يلقب وهو في المكتب أسفو، ومعنى أسفو بالبربرية الضياء لملازمته إيقاد القنديل في المسجد للقراءة والصلاة"^(٩٣)
ومن الألفاظ أيضا ما ارتبط بالدور التعليمي لابن تومرت، حيث يذكر ابن القطان عنه أنه كان يخرج إلى الشريعة من خارجها ويجلس على حجر مربع أمام محراب الشريعة، فيعظ الناس^(٩٤)
وكلمة الشريعة هنا كانت تطلق في الاستعمال المغربي على القاعة المخصصة لإلقاء الدروس والمواعظ في المساجد^(٩٥)، ومن الألفاظ البربرية التي أوردها ابن القطان ما ارتبط بقبيلة (هنتاتة) وقول ابن تومرت لهم باللسان المغربي: - "النور النور في بلاد هرغة، وأنتم في الظلمة ياهنته"^(٩٦).

وتأتي الألفاظ البربرية في كتابات الاثنيين (ابن صاحب الصلاة - وابن القطان) استناداً إلى أن العنصر البربري يعد في مقدمة عناصر السكان في دولتي المرابطين والموحدين^(٩٧)
سابعاً : عدم ذكر سلبيات العصر الموحي بصورة مباشرة : -

لعل من المفيد هنا القول بأن "ابن صاحب الصلاة - وابن القطان" يعدان في طبيعة مؤرخي البلاط الموحي، ولا ينتظر ممن يأخذ هذا اللقب أن يقوم بذكر سلبيات دولة الموحدين صراحة، ولهذا جاءت السلبيات في كتاباتهما موارية، وبشكل غير مباشر، وفي ثنايا رسائل الخلفاء الموحدين، ومقرونة أيضاً - رغم كونها عيوب وسلبيات - بالدعاء للخلفاء الموحدين، وقليل ما بيدي كلاهما برأيه في أحداث دولة الموحدين وخلفائهم وسلبيات عصرهم، ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما جاء في كتاب المن من سلبيات يمكن وضعها على النحو التالي:-

- الابتعاد عن الفكرة الدينية التي دش بها ابن تومرت دولته .
 - إشارته إلى استبداد دولة الموحدين، وإسرافهم في الدماء .
 - إشارته إلى الحجز على حرية الفكر، واستبداد نفر من الوزراء بجمع المال .^(٩٨)
- أما عن ابن القطان المراكشي "فيورد رسالة للخليفة الموحي" أمين المؤمنين عبدالؤمن بن علي" وفي ثنايا هذه الرسالة، تبدو بعض سلبيات العصر الموحي مثل : -
- الحديث عن المغارم والمكوس في العصر الموحي.
 - اشتطاط نفر من ولاة الموحدين في الغصب والتعدي على أموال الناس .

- ذكره لسلبيات طائفة الراقصين، وتعدّي بعض الولاة على أموال الدولة .^(٩٨)
وخارج عن القصد هنا مناقشة هذه السلبيات، ومن أراد التعرف عليها تفصيلاً، فعليه الرجوع إلى ما كتبه الباحث عن سلبيات العصر الموحدى في كتابات ابن صاحب الصلاة - وابن القطان ضمن دراسته الموسومة بـ " النقد الاجتماعي... "؛ ومن ثم فلا داعي لتكرار هذه الجوانب، فما يهم هنا - في إطار هذا البحث - هو الحديث عن خصائص الكتابة التاريخية، والبحث عن جوانب من هذه الخصائص لم أكتب عنها من قبل .

ثامناً: الإعلام عن بعض طقوس خاصة من حضارة الموحدين:-

وأخيراً فإن هذه الجزئية تبدو ضمن خصائص الكتابة المشتركة بين مؤرخينا "ابن صاحب الصلاة - وابن القطان". ولا أقصد هنا بالإعلام عن بعض طقوس خاصة من حضارة الموحدين ما تفردت به بعض كتابات متخصصة في الحديث عن الآداب والعلوم والفنون في عصر الموحدين، كما هو الحال عند الأستاذ المنوني وغيره كثير؛ إلا إننى أقصد هنا أن كليهما كان له فضل الإعلان عن بعض جوانب خاصة من حضارة الموحدين؛ ومن هذه الجوانب عند ابن صاحب الصلاة ما ذكره عما كان يقيم في حضرة الخلفاء الموحدين من "قرع الطبول، وإطعام الطعام، واستقبال الأجناد، والتميز، واستخدام الرايات، وما يسمى بالبركة والإنعام بالكسوة، فضلاً على استقبال العلماء والشعراء"^(٩٩)، واستدعاء العرب وتحريضهم على الجهاد؛ ويذكر ابن صاحب الصلاة في هذا الشأن الأخير ما قاله ابن طفيل يحث العرب على الجهاد ضمن قصيدة قال في مقدمتها: -

أقيموا صدور الخيل نحو المغرب لغزو الأعداء واقتناء الرغائب^(١٠٠)

ونفس هذه الجوانب يمكن أن يجد الباحث بعضاً منها في كتابات ابن القطان؛ إلا إن ابن القطان يتميز عن ابن صاحب الصلاة في ذكر طبقات الموحدين - البالغ عددهم ثلاث عشرة طبقة^(١٠١) - بشكل أكثر تفصيلاً عما ذكره ابن صاحب الصلاة .

تعقيب وتحليل ومقارنة ... وكلمة ختام:

... وبالحديث عن هذه الخاصية الأخيرة، أكون قد انتهيت من خصائص الكتابة التاريخية المشتركة عند ابن صاحب الصلاة - وابن القطان؛ لا أدعى أنني قمت بإحصاء كافة هذه الخصائص، إلا إننى أمل أن أكون قد طرقت باباً يمكن أن يسهم في فتح آفاق



جديدة للبحث التاريخي، والكتابة التاريخية وخصائصها عند كثيرين من المؤرخين سواء أكانوا في المشرق الإسلامي، أو المغرب الإسلامي.

ولا يفوت القارئ والدارس المتخصص أن هناك مؤرخين آخرين ينتمون إلى العصر الموحي من أمثال: عبدالواحد المراكشي صاحب المعجب، وأبي بكر الصنهاجي المعروف بالبيزق صاحب كتاب أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين، وابن عذارى المراكشي صاحب البيان المغرب، والذي أستمح القارئ عذراً أن يُخرج من سياق المقارنة، لكونه متأخراً عن ذكرتهم، بمن فيهم ابن صاحب الصلاة، وابن القطان؛ ولأنه يعتمد على نقولاتهم، وهذا لا يقلل من أهميته، كما إن هناك كتابات مغربية تصنفه ضمن مصادر العصر المريني الأول. (١٠٢)

ومن هنا يمكن القول - بعد مقارنة المرويات التاريخية عند المؤرخين المذكورين - أن ابن صاحب الصلاة كان أكثر مؤرخي العصر الموحي تأدباً وتحضراً وتهذباً في تعامله مع المرويات التاريخية التي تخص المرابطين، كما اتصف بأمانة علمية وتاريخية، فلم يمنعه ما قدمه الموحدون له من خدمات أن يذكر عن الخليفة "عبدالمؤمن بن علي" أنه عزل ابنه "محمد" عن ولاية العهد، ويقول في شأنه "... وذهب في جانبه الصدع من شرب الخمر وظهور السكر عليه" (١٠٣).

وقد ذكر عبدالواحد المراكشي تجاه الحادثة المذكورة، وموقف الخليفة عبدالمؤمن من ابنه محمد قائلاً .. " فأبى تمام هذا الأمر لمحمد هذا ما كان عليه من أمور لا تصلح معها الخلافة، من إيمان شرب الخمر، واختلال الرأي، وكثرة الطيش، وجبن النفس، وما يقال إنه مع هذا كان به ضرب من الجذام، فإله أعلم ... " (١٠٤)

وهذا يعني أن عبدالواحد المراكشي يعطى أسباباً متعددة للحادثة الواحدة، فضلاً على ذكره لسلبات العصر المرابطي، وسلبات العصر الموحي على حد سواء (١٠٥)؛ بما يشير إلى أن عبدالواحد المراكشي كان أكثر المؤرخين موضوعية في تعامله مع العصرين المرابطي والموحي، ولعل الذي ساعده على ذلك أنه ألف كتابه في المشرق موضعاً سبب عدم إسهابه في ذكر أخبار ملوك الأندلس قائلاً:-



"فالذي منعني عن استيفاء أخبارهم أو أخبار أكثرهم قلة ما صحبني من الكتب، واختلال معظم محفوظاتي." (١٠٦)

وفي هذا ما يدل على أن عبدالواحد المراكشي قد ألف كتابه بعيداً عن الرغبة في شيء، ودون الرهبة من شيء، إذ لا رقيب عليه ولا سلطان إلا الله سبحانه وتعالى، وهو ما دفعني إلى وصفه بالموضوعية، إن لم يكن أكثر مؤرخي الموحدين موضوعية .

أما فيما يتعلق بالبيزنق، فهو يعد أسوأ المؤرخين والكتاب تطرفاً في الدعوة الموحدية والكتابة لها، هذا إن لم يكن يُنظر إليه على أنه " كاتب خاص " بابتن تومرت، سخر قلمه وكتابه لخدمته وخدمة أهدافه، وخدمة الدعوة الموحدية، بل إنه يقدم نفسه للقارئ ضمن العشرة الأوائل الذين بايعوا ابن تومرت (١٠٧) .

وإذا كان البيزنق يعد أسوأ المؤرخين - أو الكتاب - تطرفاً في العصر الموحي، فإن ابن القطان كان أكثر المؤرخين سوءاً في تطرفه للدعوة الموحدية والفارق بين الوصفين كبير؛ إلا إن هذا السوء في التطرف لم يمنعه - في غفلة منه - من ذكر أيادي بيضاء لدولة المرابطين في إقليس (١٠٨)، إما من قبيل الأمانة وهو ما استبعده، وإما من قبيل التسليم بحقائق التاريخ في سذاجة وغير وعي وهو ما قال به ا.د. مكي - رحمه الله - في مقدمة تحقيقه لكتابه، وأوافق عليه تماماً (١٠٩)

وفي هذا ما يعني أن البحث أمام من هو أكثر تأديباً وتهذباً وتحضراً في كتابته عن المرابطين، وهو ابن صاحب الصلاة، وطبيعي أن يكون هذا نتيجة تدينه وتقواه كما يقول بذلك أ.د. التازي في مقدمة تحقيقه لكتابة (١١٠)، وهو ما يجعله أقل تطرفاً تجاه الموحدين إذا قيس بغيره .

وأمام أيضاً من هو أكثر موضوعية في كتابته عن المرابطين، وذكره لسلبيات عصر المرابطين، وعصر الموحدين على حد سواء مع بيان لسبب في ذلك حسبما تم توضيحه آنفاً، وهو عبدالواحد المراكشي في المعجب .

ولم يبق للبحث في كلمة الختام سوى وصف البيزنق بأنه أسوأ الكتاب تطرفاً في التأريخ والكتابة للدولة الموحدية، وقد ذكرت السبب في ذلك من قبل، ووصف ابن القطان بأنه أكثر المؤرخين سوءاً في التطرف للدعوة الموحدية، وإذا كان لابد للبحث من الوصول إلى نتائج من



خلال خصائص الكتابة التاريخية المشتركة عند ابن صاحب الصلاة، وابن القطان، فإن أهم النتائج هو ما اتفق فيه تمامًا مع ما قاله الأستاذ الدكتور حسين مؤنس - رحمه الله - في ذكره أن نقد ابن تومرت للمرابطين في مجموعة كان على غير حق، وأنه كان رجلًا جريئًا لا يخاف السلطة أو رجالها، وكان مغامرًا يطلب الكثير ويهون عنده الكثير في سبيل ذلك، وأنه كان يرمى إلى إثارة غضب الدولة ورجالها، فيتعرض للحبس والأذى ويزداد صيته ويكثر جمعه؛ لأن الناس في تلك العصور يستهويهم مثل هذا الشخص الذي يتحدى الحكومة سواء أكان على حق أم على باطل؛ لأن الفكرة العامة كانت أن رجال الدولة دائمًا على باطل، ومن ثم فكل ناقد لهم يكون على صواب^(١١١)؛ وهو ما يعني أن ظهور ابن تومرت كان من سوء حظ المرابطين وهم في عنفوان جهادهم في سبيل الإسلام. ^(١١٢)

كما إن هناك ملاحظة لا أستطيع إغفالها في خاتمة البحث، وهي أن قصر مدة حكم المرابطين قد جعل التأريخ لها لا يتم إلا في العصر الموحيدي، ^(١١٣) فجاءت خصائص الكتابة التاريخية تكيل المدح والثناء على ابن تومرت وخلفاء الموحدين؛ وتحاول تطبيق أحاديث المهدي المنتظر عليه، فضلًا على وصفه بالإمام، والعصمة، وتنسب إليه الخوارق والمعجزات والكرامات والعصم.

وفي الختام، أمل أن أكون قد وفقت في تخليص المرويات التاريخية عند (ابن صاحب الصلاة - وابن القطان) من أكذاس الخوارق والمعجزات والأساطير، وكل ما يخالف العقل ويحول بينه وبين الوصول إلى الحقيقة، وهي جل أهداف الدراسة التاريخية ...
وعلى الله - سبحانه وتعالى - قصد السبيل



الحواشي والتعليقات

- (١) انظر . محمود إسماعيل : قضايا في التاريخ الإسلامي، منهج وتطبيق، دار العودة، مكتبة مدبولي، بيروت - القاهرة ١٩٧٤ ص ٨، ٩ .
- (٢) انظر . مقدمة تحقيق نظم الجمان، درسه وقدم له: محمود علي مكي، ط ١، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١. ص ٣٨؛ ويشير أ.د. مكي - رحمه الله - إلى أن ابن القطان قد سبقه في الدولة الموحدية مؤرخون مهدوا له الطريق مثل :- أبي بكر الصنهاجي المعروف بالبيذق صاحب كتاب أخبار المهدي، وأبي القاسم المؤمن صاحب " فضائل المهدي" وابن الراعي، ثم ابن صاحب الصلاة موضوع بحثي مع ابن القطان .
- (٣) نادى أ . محمد زبير باستنطاق النصوص الواردة في المصادر التاريخية دون شطط، التزاماً بقانون "لا إفراط ولا تفريط" انظر . محمد زبير: حفريات عن شخصية يعقوب المنصور - العدد ٩، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المغرب ١٩٨٢ ص ٢٣٠؛ وهذا في رأيي يمثل رؤية فلسفية مهمة، ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار عند الباحثين المحدثين في كتاباتهم .
- (٤) هناك كتابات مخصصة عن دولة المرابطين لم تنكر أن الرعيل الأول من المرابطين شغلتهم الجوانب السياسية وأعمال القيادة والإدارة عن الإمام بالثقافة العربية، إلا إن هذا الأمر تغير مع بداية الجبل الثاني من المرابطين، فازدهر الشعر وتعدت الشعراء، وازداد عدد النبهاء والكتاب، وازدهرت العلوم والآداب، وقام المرابطون باستقدام العلماء والفنانين والفقهاء لحضور مجالسهم، أو لتشييد عمائرهم، أو لتأديب بينهم . انظر . حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين " صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، ط ٢ دار الفكر العربي ١٩٩٦ ص ٣٨٤ - ٣٨٩ ؛ الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ط ٣ دار الفكر العربي ١٩٨٦ . ص ١٦٢ .
- (٥) كتب أ . د عبدالجليل التميمي مقالاً بهذا العنوان، أشار فيه إلى التطور الذي دفع بعلم التاريخ إلى استيعاب عديد من الدراسات ورأيت من الأمانة إرجاع الكلمات إلى من استخدمها دون أن يكون القصد إبراز ذاتية الباحث . انظر . عبدالجليل التميمي: من أجل كتابه علمية لتاريخ المغرب العربي، المجلة التاريخية المغربية، عدد خاص عن المنهجية التاريخية ومصادر التاريخ المغربي، عدد ١٣-١٤ تونس، يناير ١٩٧٩ . ص ٦-٧ .
- (٦) انظر . عبدالواحد المراكشي: محيي الدين أبي محمد ت " ١٢٤٩/هـ / ١٢٤٩م" المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق : محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٠٠؛ مجهول: مؤلف أندلسي من أهل ق " ٨/هـ / ١٤م" كتاب الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار، عبدالقادر زمامة، ط ١ دار الرشد الحديثة، الرباط ١٩٧٩ . ص ١٥٦ ؛ حسن على حسن : الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس " عصر المرابطين والموحدين" ط ١، مكتبة الخانجي ١٩٨٠ ص ٤٦؛ وللتعريف ببلاد المغرب عامة، وعلى أي شيء تطلق الكلمة يمكن الرجوع الى محاضرات ألقاها الأستاذ الفاسي بمعهد الدراسات العربية، انظر . محمد الفاسي: التعريف بالمغرب " وهو مقدمة لتاريخ الأدب العربي بالمغرب الأقصى " محاضرات قسم الدراسات الأدبية واللغوية، معهد الدراسات العربية، جامعة الدول العربية ١٩٦١ . ص ٧-١٢؛ وانظر في التعريف الموجز لدولة الموحدين. ص ٤٤ - ٤٥ للأستاذ الفاسي.



- (٧) انظر. ابن تومرت : محمد بن عبدالله ت "١١٣٠/هـ/٥٢٤م" كتاب أعز ما يطلب، نشر : جولدسبير، الجبر ١٩٠٣ ص ٢٦٢ - ٢٦٤؛ وابن تومرت هو محمد بن عبدالله من أهل سوس، ولد بها بضيعة تعرف باسم إيجلى أن وارغن، وهو من قبيلة تسمى هرغة من قبائل المصامدة . انظر في التعريف به . البيذق : أبو بكر بن علي الصنهاجي "عاصر أوائل دولة الموحدين" - كتاب أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين، نشر: ليفي بروفنسال، بولس كتر الكنتي بباريز ١٩٢٨ . ص ٤، ١٢ من القسم الأول من كتاب البيذق فيما يتعلق برسائل ابن تومرت ؛ ص ١٨-٤٨ فيما يتعلق بالتعريف بابن تومرت وآله ونسبه وأخوته وقرابته ضمن القسم الثاني الذي يعتمد فيه البيذق على كتاب "المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب" لإبراهيم بن موسى بن محمد الهرغى، وكلاهما أسوأ من الآخر في انتماءه للموحدين؛ ولمزيد من التعريف بشخصية ابن تومرت يمكن الرجوع - على سبيل المثال - إلى . عبدالواحد المراكشي. المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٤٥؛ الزركشي: أبو عبدالله محمد ت "أواخر ق ١٥/هـ/١٥م" - تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، ط ٢ المكتبة العتيقة تونس ١٩٦٦ . ص ٣-٧؛ مجهول : كتاب الحل الموشية ص ١٠٣ - ١٠٥ .
- (٨) ابن أبي زرع: أبو الحسن علي بن عبدالله ت "١٢٢٥/هـ/٧٢٦م" الأبيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، طبعة دار المنصور، الرباط ١٩٧٢ . ص ١٧٣؛ أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٢ ص ١٠٨؛ ابتسام مرعي خلف الله: العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي (٥٢٤ - ٩٣٦/هـ/١١٣٠ - ١٥٢٩م) دار المعارف ١٩٨٥ ص ٧٨، ٧٩؛ وسوف يتم مناقشة الأحاديث النبوية الواردة في شأن المهدي المنتظر، والتي أساء ابن تومرت تأويلها واستخدامها في مكانها عند خصائص الكتابة التاريخية ؛ وأيا كان الحال فالرمي بالكفر لا يقره الإسلام؛ وفي حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إذا قال الرجل لأخيه ياكافر فقد باء به أحدهما " انظر: البخاري: الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ت " ٢٥٦/هـ/٨٧٠م" صحيح البخاري، تحقيق: طه عبدالرؤف سعد، دار الاعتصام، ص ١٢٥٤ حديث رقم ٦١٠٣ (باب من كفر أخيه بغير تأويل فهو كما قال)؛ وانظر أيضاً حديث شريف رقم ٦١٠٤ في نفس الباب .
- (٩) ليس من القصد هنا الإسهاب في بيان قيام دولة الموحدين إلا بالقادر الذي يخدم موضوع البحث، ومن المعروف - لدى الدارسين والمتخصصين - أن بدايات دولة الموحدين كانت سنة "٥٢٤/هـ/١١٢٩م" في أعقاب موقعة البحيرة التي هُزم فيها الموحدون على أيدي المرابطين، وأعقب الهزيمة وفاة ابن تومرت في نفس العام المذكور، ثم كان دخول الخليفة الموحدى "عبدالمؤمن بن علي" الى مدينة مراكش سنة "٥٤١/هـ/١١٤٦م" بداية لتحول ولاء الأندلسيين الى الموحدين، لينتهي بذلك صفحة تاريخية لدولة المرابطين الباسلة، والتي امتد قيامها بالمغرب منذ عام "٤٤٨/هـ/١٠٥٦م" أو قبلها بسنوات قلائل على اختلاف الآراء في ذلك، ثم قيامها بالأندلس في أعقاب موقعة الزلاقة سنة "٤٧٩/هـ/١٠٨٦م" وحتى سقوطها سنة "٥٣٩/هـ/١١٤٤م" فيما يعنى أنها حكمت بالمغرب مايقرب من تسعين سنة، وبالأندلس مايقرب من ستة وخمسين سنة حسبما يقول صاحب الحل في ص ١٤٠؛ وهى التى امتد ملكها "على



عهد أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين" الى مدينة إفرنجة " قاصية شرق الأندلس " والى مدينة أشبونة على البحر المحيط من غرب الأندلس، وملك بعدوة المغرب من جزائر بني مزغنة إلى طنجة، إلى آخر السوس الأقصى إلى جبال الذهب من بلاد السودان، وقد جاء هذا الموجز المختصر في تقديم الباحث لعصر المرابطين والموحدين ضمن الدراسة عن النقد الاجتماعي، في الفصل الثالث، ص ١٦١ - ١٣٤؛ والخليفة عبدالمؤمن بن علي هو أول خلفاء دولة الموحدين بعد ابن تومرت، من قبيلة كومية، كان مولده بضيعه من أعمال تلمسان تعرف بتاجرا، انظر في ترجمته واختلاف الآراء في نسبه . الليبقي: أخبار المهدي ..، ص ٢١، ٢٢، المراكشي، المعجب ص ٢٦٥؛ وجاء في العرض الموجز السابق، تلميح بقيام دولة المرابطين في طورها المغربي، واختلاف الآراء حوله، وفي هذا الشأن يمكن الرجوع على سبيل المثال الى . سعد زغلول عبدالحميد: تاريخ المغرب العربي، ج٤، ط ١ منشأة المعارف بالأسكندرية ١٩٩٥ . ص ١٦٤ - ١٦٨ .

- (١٠) انظر . محمد المنوني : حضارة الموحدين، ط ١، دار توفيق المغرب ١٩٨٩ ، ص ١٣ .
- (١١) انظر . عبدالواحد المراكشي : المعجب، ص ٢٢٧ .
- (١٢) انظر . ابن أبي زرع : الأتيس، ص ١٣٩ ؛ ومدينة مراكش تعد أكبر مدن المغرب الأقصى نكرها الإدريسي في كتابه، وقال عنها صاحب الاستبصار أنها حاضرة بلاد المغرب ودار مملكتها، وهي مدينة عظيمة في بسيط من الأرض، أسسها يوسف بنتاشفين سنة "١٠٦٦/هـ٤٥٩م" واختط سورها ولده علي سنة "١١٢٠/هـ٥١٤م" انظر عنها . الإدريسي: أبو عبدالله محمد ت "١١٦٤/هـ٥٦٠م"، وصف أفريقيا الشمالية "مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تصحيح ونشر: هنري بيريس، الجزائر "١٣٧٦هـ/١٩٥٧م. ص ٤٣-٤٥ ؛ كاتب مراكشي من كتاب ق "١٢/هـ٦١م" كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق : سعد زغلول عبدالحميد، مشروع النشر المشترك (بغداد- المغرب) ١٩٨٥ ص ٢٠٨ - ٢٠٩؛ ياقوت: شهاب الدين أبي عبدالله ت "١٢٢٨/هـ٦٢٦م" معجم البلدان، مج٤، ط٢، دار صادر بيروت ١٩٩٥ ص ٩٤ .
- (١٣) عن المصادر التاريخية المدونة في عصر المرابطين يمكن الرجوع إلى . محمد المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب " من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث " ج ١، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ١٩٨٣ . ص ٢٨-٣٧
- (١٤) انظر . يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة وتعليق : محمد عبدالله عنان، ج٢، ط ٢، مكتبة الخانجي ١٩٩٦ . ص ٢٦١ .
- (١٥) انظر . المنوني : حضارة الموحدين، ص ٤٧ ؛ وعن المصادر التاريخية المدونة لعصر الموحدين يمكن الرجوع تفصيلاً إلى ما كتبه أ . المنوني في كتابه : المصادر العربية لتاريخ المغرب، ص ٣٨ - ٦٤ ؛ وفي هذا كله مايدل على ازدهار علم التاريخ عند الموحدين .
- (١٦) انظر . مقدمة تحقيق نظم الجمان، ص ٣٨ ؛ وهو ماسبق الإشارة إليه في حاشية رقم (٢)



(١٧) انظر . ابن عبدالمك المراكشي: أبو عبدالله محمد ت " ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م " السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصله، ق ١، تحقيق : إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ص ٣٢ ترجمة رقم ٧٠ ؛

Pons Boigues (Francisco): Ensayo Bio- Bibliografico Sobre los Historiadores Y Geograpos Arabigo- Españoles., Madrid 1898 . P 245 – 246 n . 199

(١٨) انظر. ابن الآبار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله ت "١٢٦٠هـ/١٢٦٠م" كتاب الحلة السرياء، مج٢، تحقيق: حسين مؤنس، ط٢ دار المعارف ١٩٨٥. ص ١٥٤ حيث يقول "وحي أبو محمد عبدالمك بن أحمد بن صاحب الصلاة البلاجي"؛ وفي ص ٢٦٦ يذكره بقوله "أبو مروان ابن صاحب الصلاة الإشبيلي".

(١٩) انظر . المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج١، ص ٥١ .

(٢٠) انظر . عبدالسلام بن عبدالقادر ابن سودة المرى : دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج١، ط ٢ دار الكتاب، الدار البيضاء ١٩٦٠ . ص ١٣٥، ١٣٦

(٢١) انظر . أحمد مختار العبادي: دراسة حول كتاب الحل الموشية في نكر الأخبار المراكشية وأهميته في تاريخ المرابطين والموحدين، منشورات الجامعة المغربية، كلية الآداب العدد : ٥ تطوان ١٩٦٠ ص ١٤١.

(٢٢) انظر . مقدمة كتاب: المن بالإمامة، تحقيق : عبدالهادي التازي، ط٣ دار الغرب الإسلامي ١٩٨٧ . ص ١٩، ٢٠؛ وانظر في ترجمة ابن صاحب الصلاة والتعريف بكتابه أيضاً: عباس بن إبراهيم المراكشي: الإعلام بمن حل مراكش وأغامت من الأعلام، ج٨، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٧٦ ص ٣٦١ ترجمة رقم ١٢٣٤ ويسميه (عبدالمك بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي وانظر في التعريف بابن صاحب الصلاة وكتابه أيضاً. أنخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي . ترجمة : حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية تون تاريخ، ص ٢٤١، ٢٤٢ ؛ عبدالكريم كريم : دراسة في مصادر التاريخ المغربي، ج ٩، الحلقة الثانية، الثقافة المغربية ١٩٧٣ . ص ٣٤-٣٧ ؛ المنوني: حضارة الموحدين، ص ١٣٣.

(٢٣) قام أ . د . عبدالهادي التازي بتتبع كثير من مراحل حياة ابن صاحب الصلاة في كتابه المن، مشيراً إلى بداية ظهوره في قرونة من إشبيلية سنة " ١١٦١هـ/١١٦١م" عند فتحها على يد الموحدين، ثم يظهر في نفس العام في قرطبة، كما كان ضمن وفد كتاب إشبيلية الذين خرجوا لملاقات السادة الموحدين . ويظهر مرة أخرى في جبل طارق سنة " ١١٦٤هـ/١١٦٤م" ضمن الشعراء الذين هنأوا السيد أبي حفص بقطعة من شعره، وينقل من جبل طارق إلى سبتة، ومنها إلى فاس، ثم مراكش التي قام فيها ربحاً من الزمن، استفاد خلاله من بعض كبار علماء البلاط الموحي من أمثال الفقيه أبي الحسن على بن الإشبيلي الذي سمع عليه قراءة عقيدة التوحيد، والعقيدة المباركة المسماة بالطهارة، وكتاب أعز ما يطلب. ثم يعاود الظهور مرة أخرى ضمن جملة الكتاب الذين الذين صحبوا الشيخ ابي عبدالله محمد بن إبراهيم عند ولايته لإشبيلية؛ وهو الذي سبق التعرف عليه في مسجد قرونة، ويظهر في حضرة مراكش سنة " ١١٧٠هـ/١١٧٠م" لتقديم التهاني بشفاء الخليفة الموحي أبي يعقوب يوسف الذي أعذق عليه تقديراً لخدماته ووفائه لدولة الموحدين، ثم يظهر في نفس العام أيضاً في صحبة الخليفة في مدينة إشبيلية، كما يشير د. التازي إلى مرافقته للطبيب أبي بكر بن زهر،



والفليسوف ابن رشد في زيارتهم لقبر ابن تومرت، وقبر عبدالمؤمن بن علي بتينملل . وتضفي عليه الدولة الموحدية تقديرًا خاصًا عند كبر سنة عندما تعطيه الخطبة بجامع إشبيلية الأعظم مقاسمًا لها مع أبي الحكم عبدالرحمن بن حجاج، ومثل هذه التفاصيل تساعد كثيرًا في توضيح موقفه من دولة الموحدين، وتفسر خصائص الكتابة التاريخية لديه . عن تتبع مراحل حياة ابن صاحب الصلاة من خلال كتاب المن . انظر . مقممة تحقيق المن، ص ١٠-١٩ .

(٢٤) انظر . مقممة تحقيق كتاب المن . ص ٧ .

(٢٥) انظر . مقممة تحقيق كتاب المن : ص ١٨ وحاشية رقم ٢ من نفس الصفحة للتعريف بابن حجاج المذكور .

(٢٦) انظر . مقممة تحقيق نظم الجمان، ص ٧-٣٢ .

(٢٧) جاء في ترجمة الأب في بعض المصادر أنه: علي بن محمد بن عبدالمالك بن يحيى بن إبراهيم بن يحيى الكتامي الحميدي، من أهل فاس، قرطبي الأصل، أبو الحسن، يعرف بابن القطان، تعدد المصادر شيوخه ومن تعلم على يديهم ... وكان أبصر الناس بصناعة الحديث وأحفظهم لرجالهم وأشدهم عناية بالرواية مع تفنن ومعرفة ودراية، جمع برنامجاً مفيداً في شيوخه، وهو رأس طلبة العلم بمراكش ونال دينا عريضة في خدمة السلطان، وهو مالكي المذهب، له كتب في علم الحديث .. وامتنح في فترة حدثت بالمغرب أول سنة "١٢٢١هـ/١٢٢٤م" وخرج من مراكش، وعاد إليها، ثم اضطرب أمره إلى أن توفي بسجلماسة، في ربيع الأول سنة "١٢٢٨هـ/١٢٣٠م" . وقد قام د . مكى - رحمه الله - بتتبع مراحل حياة الأب بشئ من التفصيل مشيراً إلى أنه كان وثيق الصلة بخلفاء الموحدين، وكان أولهم يعقوب المنصور "٥٨٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ - ١١٩٨ م" وهو أول من قربه، ثم جاء ابنه الناصر، ثم ابنه المستنصر وهو على هذا الحال من الحظوة والمكانة، حتى كانت وفاة الخليفة المستنصر "١٢٢٣هـ/١٢٢٣م"، ونودي بتقديم عبدالله العادل بن يعقوب المنصور، في حين نادى البعض بتقليد عبدالواحد أخى المنصور، وكان ممن نادى به خليفة "ابن القطان الأب"، ورغم تولية الأخير الخلافة إلا أنه لم تمض على خلافته شهران حتى ثار عليه العادل وقتله بعد ذلك . وفي عام "١٢٢٤هـ/١٢٢٦م" قُتل العادل بعد أن ثار عليه أخوه أبو العلاء إدريس متلقباً بالمأمون، الذي دخل في صراع مع أبي زكريا يحيى الملقب بالمعتصم بن محمد الناصر بن يعقوب المنصور، وكان ابن القطان في معسكر المعتصم متولياً القضاء في مراكش، وهو ما أدى إلى نكته عند هزيمة المعتصم، ودخول المأمون إلى مراكش، فافتحمت جيوش المأمون المدينة ونهبت داره، وذهب كل ما كان قد جمعه من أموال وكتب، ثم كانت وفاته على نحو ما سبق ذكره . وكان ابن القطان الأب من أكبر دعاة الموحدين وأبرز رجال دولتهم، يُسمع الطلبة "عقيدة التوحيد" وأعز ما يطلب "وهما من كتب ابن تومرت، إلا إنه حظى بكرهة أهل مراكش بعدما أشار على المستنصر مشاطرة وجوه دولته في أموالهم، وبلغ به درجة التملق حداً لا مزيد عليه في مدحه يعقوب المنصور في وضعه لمصحف سيدنا عثمان بن عفان - رضي الله عنه - بين يديه قائلاً : -

بحجر الكريم سليل الكرام

وناهيك من صحف كُرمت



ويضاف إلى سلبياته إفراطه في الكبر حتى أنه كان يترفع أن يبدأ أحداً بالسلام، ولا يرده على من يبدأ به، دائم الغض من أهل العلم، منتبهاً لسقطاتهم، بالإضافة إلى قتله الشيخ العثماني وابنه، والاستيلاء على داره وممتلكاته، وقد أفضت في التعريف بسلبيات الأب " ابن القطان "؛ لأنها هي نفسها سلبيات ابن القطان " الابن " والتي تؤثر على خصائص الكتابة التاريخية لديه .

انظر . بعض من ترجم له وعرف به، وفي الأحداث المنكورة أيضاً. ابن الزبير: أبو جعفر أحمد بن إبراهيم ت "١٣٠٨/هـ/١٣٠٨م" كتاب صلة الصلة، القسم الرابع، تحقيق: عبدالسلام الهراس، سعيد أعراب، المملكة المغربية ١٩٩٤ ص ١٣٧-١٣٨ ترجمة رقم ٢٨٥؛ ابن القاضي: أبو العباس أحمد بن محمد الكناسي ت "١٧٩٠/هـ/١٧٩٠م" جنوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، القسم الثاني، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧٤. ص ٤٧٠ - ٤٧١ ترجمة رقم ٥١٩ ؛ التبتكتي: أبو العباس أحمد بابا ت "١٠٣٦/هـ/١٦٢٦م" نيل الابتهاج بتطريز الديباج، اشراف وتقديم : عبدالحميد عبدالله الهرامة، جزآن ١-٢، منشورات كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس . الجماهيرية الليبية ١٩٨٩ . ص ٣١٧ ترجمة رقم ٤٠٥ ؛

Pons Boigues: Ensoya Bio-Bibliografico Sobre Los Historiadores P . ؛
276 n. 233

مقدمة تحقيق نظم الجمان، ص ٧-٣٢ .

(٢٨) انظر . مقدمة تحقيق نظم الجمان، ص ٢٦، وانظر في التعريف الموجز بخلفاء الموحدين بدءاً من "يعقوب المنصور" حتى المأمون. الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص ١٥-٢٣؛ والمأمون هو الذي أطاح بالمعتصم الذي كان ابن القطان الأب موالياً له .

(٢٩) ابن القطان الابن هو مؤلف نظم الجمان، وهو أبو محمد حسن بن علي بن القطان، وقد جاء التعريف به في أكثر من مصدر، فضلاً على ما نكره د . مكى في التعريف به، وإزالة الغموض فيما بينه وبين الأب . انظر . مجهول: مؤلف قام بتأليف كتابه " ٧١٢/هـ/١٣١٢م تاريخ البربر المعروف بمفاخر البربر، تقديم وتحقيق وتعليق: محمد زينهم محمد عزب، ط ١ جهاد للنشر والتوزيع ١٩٩٨م ص ٦٧ ويسميه أبو علي حسين بن القطان الكتامي مؤلف كتاب نظم الجمان، وعرف به ابن عذارى في التعريف بالخليفة المرتضى الموحدى قائلاً عنه:- وكان محباً في مطالعة الكتب وتوليها وتصانيفها، فألف له الفقيه أبو محمد بن القطان جملة من الكتب الحفيلة الجليلة وأمدته بالذواوين العظيمة والخبرات الجليلة، فمنها: " كتاب نظم الجمان، وواضع البيان، فيما سلف من أخبار الزمان " انظر . ابن عذارى المراكشي: عاش أوائل ق " ٨/هـ/١٤م " البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زبير، عبدالقادر زمامة، ط ١ دار المغرب الإسلامي ١٩٨٥. ص ٤٤٦؛ وانظر أيضاً في التعريف بابن القطان الابن، مقدمة نظم الجمان، ص ٣٧-٣٨ .

(٣٠) انظر . مقدمة تحقيق نظم الجمان، ص ٣٦؛ والخليفة المرتضى هو أبو حفص عمر بن السيد أبي إبراهيم بن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن الخليفة عبدالمؤمن . وكانت مدة خلافته "ثمان عشرة سنة" حيث حكم من ٦٤٦هـ-٦٦٥هـ/١٢٤٨-١٢٦٦م " بما يشير إلى أنه لم يبق على سقوط نولة الموحدين إلا



- ثلاث سنوات، حيث خرج عليه إبريس الملقب بأبي نبوس، وفي عهده كانت نهاية الخلافة الموحدية "١٢٦٨هـ/١٢٦٩م" انظر في التعريف بالخليفة المرتضى . ابن عذاري: المصدر السابق، قسم الموحدين، ص ٣٨٧، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٧؛ مجهول: الحلل الموشية في نكر الأخبار المراكشية، ص ١٦٨ - ١٦٩ .
- (٣١) انظر . مقدمة تحقيق نظم الجمان، ص ٣٨؛ ومن المعروف أن عوامل الضعف والسقوط قد بدت واضحة في الدولة الموحدية منذ عهد الخليفة المستنصر أول خلفاء الموحدين الضعاف، وقد أوضح أ . د سالم هذه العوامل في عناصر متعددة . انظر . السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٢ ص ٧٤٠
- (٣٢) أورد عنوان الكتاب كاملاً د . التازي في مقدمة تحقيقه لكتاب المن . انظر . مقدمة تحقيق المن بالإمامة، ص ٢٧؛
- Melchor Antuña: Sevilla Y sus Monumentos Arabes. Escorial 1930 P. 29
- أثناء التعريف بابن صاحب الصلاة ومؤلفاته .
- (٣٣) في تفسير الآيات القرآنية الكريمة من الآيات من رقم ١-٦ من سورة القصص. انظر. ابن كثير الدمشقي: الإمام الحافظ عماد الدين، أبو الفداء إسماعيل ت "١٣٧٤هـ/١٣٧٢م" تفسير القرآن الكريم، ج٣، مكتبة دار التراث دون تاريخ ص ٣٧٩، ٣٩٠
- (٣٤) هو الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن بن علي، تولى الحكم سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م " واستمرت خلافته ما يزيد قليلاً عن إحدى وعشرين سنة، وكانت وفاته سنة " ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م "
- انظر في التعريف به . الزركشي: تاريخ الدولتين، ص ١٣-١٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٨٣، ٨٤، ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد ت "١٢٨٢هـ/١٢٨١م" وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مج ٧، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت ص ١٣٠ - ١٣٤ ترجمة رقم ٨٤٥ .
- (٣٥) هناك من الآراء ما يشير إلى أن حركة ابن تومرت وخروجه على المرابطين، كان من نتائجها أن ماتت دولة المرابطين وهي في عز شبابها . انظر . محمد عبدالهادي شعيرة: المرابطون وتاريخهم السياسي (٤٣٠ - ٥٣٩هـ) ط ١ مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٩ . ص ١٤٢؛ وفي هذا ما يعني أن الجانب الموحي كان هو المعتدي.
- (٣٦) القرآن الكريم، سورة هود، آية رقم ١١٣.
- (٣٧) القرآن الكريم، سورة المجادلة، آية رقم ٢٢؛ وقد أوردت كتب أسباب النزول أن هذه الآية الكريمة نزلت فيما حدث به ابن جريج أن أبا قحافة سب النبي - صلى الله عليه وسلم - فصحه أبو بكر صكة شديدة سقط منها، وروى عن ابن مسعود أنه قال . نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح قتل أباه عبدالله بن الجراح يوم أحد، وفي أبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز، وفي مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد، وفي عمر قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وفي علي وحمزة قتلوا عتبه وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبه يوم بدر، وفي هذا ما يعني أن الآية نزلت في الصحابة رضى الله عنهم الذين لم يترددوا قتال من حاد الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو



- عشيرتهم، فأنى هذا مما ينطبق على المرابطين وتحريض ابن تومرت على قتالهم؟! انظر. النيسابورى: الإمام أبو الحسن على بن أحمد الواحدى ت "١٠٧٥/هـ" أسباب النزول، دراسة وتحقيق: السيد الجميلي، دار الريان للتراث دون تاريخ. ص ٣٤٩؛ السيوطي: الإمام جلال الدين عبدالرحمن ت "١٥٠٥/هـ" في أسباب النزول، تحقيق: محمد محمد تامر، ط ١ دار التقوى، ١٤٢١ هـ. ص ٣٢٨ - ٣٢٩
- (٣٨) القرآن الكريم، سورة الممتحنة - آية رقم ١؛ ولهذه الآية الكريمة قصة شهيرة جاءت في كتب أسباب النزول، ونزلت في سيدنا "حاطب بن أبي بلتعة" رضي الله عنه، ولم يكن المرابطون أعداءً لله تعالى ورسوله. انظر. النيسابورى: أسباب النزول، ص ٣٥٤ - ٣٥٦؛ السيوطي: المصدر السابق، ص ٣٣٢ - ٣٣٣.
- (٣٩) ابن القطان: أبو محمد حسن بن على ت منتصف ق "١٣/هـ" نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق ودراسة: محمود على مكي، ط ١ دار الغرب الإسلامي ١٩٩٠. ص ١٠٠؛ ومثل هذا الاتجاه في الهجوم على المرابطين يبدو أكثر سوءاً عند البيهقي، وهو المؤرخ الموحدى، وأحد العشرة من أصحاب ابن تومرت، وذلك من خلال ما أورده من رسائل لابن تومرت قال فيها عن المرابطين أنهم "أشد في الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين.. وأنهم حرفوا الكلام عن مواضعه... واتبعوا خطوات الشيطان، وارتكاب الآثام والإصرار على الكبائر والفجور، وأكل الدنيا بالدين وأكل أموال الناس بالباطل، وأنهم الفئة الباغية والشردمة الطاغية الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، هم الذين استزلهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمان.. ويعتبر أكثرهم فاسقين... مبتعدين عن الحق وأن الموحدنين قادمين اليهم"... إلى غير ذلك من التشبيهات التي لا يخفي على القارئ أنها تستند إلى آيات قرآنية كريمة، أسىء استخدامها وتأويلها ضد المرابطين، وأوردها ابن تومرت نفسه في كتابه "أعز ما يطلب" مستخدماً نفس الآيات القرآنية المستخدمة في هذه الجزئية، ومنها قوله تعالى "... ولا تركنوا إلى الذين ظلموا..." الآية؛ ولعل المتأمل لكلمات ابن تومرت يدرك مدى استغلاله السيئ وتأويله للآيات القرآنية في غير موضعها طبقاً لما جاء في مقدمة سورة الفجر في قوله تعالى "... وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد" الآيات ١٠ - ١٢ انظر. البيهقي: كتاب أخبار المهدي، ص ٤، ١٢؛ ابن تومرت: كتاب أعز ما يطلب، ص ٢٦٤.
- (٤٠) لا يخفي على فطنة القارئ ما كتب تحت عنوان "الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها" استخدمت المصطلح نفسه مع دولة المرابطين.
- (٤١) لعب المرابطون دوراً مهماً في كثير من المواقع الحربية، منها موقعة إقليش التي دارت بين المسلمين والقشتاليين في الأندلس على عهد "على بن يوسف تاشفين" سنة ٥٠١/هـ ١٠٧٠م، وكذا موقعة إفراة التي حدثت سنة ٥٢٨/هـ ١١٣٣م فضلاً على موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩/هـ ١٠٨٦م. ولا يعنى البحث هنا الإسهاب في ذكر التاريخ الحربى لدولة المرابطين والمواقع التي خاضتها، فقط يعينى هنا ما ذكره أ. د. حسين مؤنس أن المؤرخين قدامى ومحدثين لم يخطئوا في الحكم على دولة إسلامية كما أخطئوا في الحكم على دولة المرابطين، مشيراً إلى دورهم التاريخي والحضاري الواضح. انظر. حسين مؤنس:



سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مج ٢، عدد ١ - ٢، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م. ص ٥٥؛ وقد أشاد أ. عنان بدور المرابطين الناجح في الصراع ضد الممالك الإسبانية النصرانية، وأنهم استطاعوا على وجه العموم حتى أواخر عهدهم الذي استنزل بالأندلس زهاء خمسين عاماً أن يحافظوا على رقعة الوطن الأندلسي، ولم يصدع من كفاحهم سوى قيام ابن تومرت والموحدين عليهم . انظر . محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، القسم الأول . عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية، ط ٢، مكتبة الخانجي ١٩٩٠ ص ٢٥-٢٧ وفي الصفحات ذكر لمواقع المرابطين الشهيرة .

(٤٢) أشادت كتابات متخصصة بدور المرابطين وجهودهم في القضاء على برغواطة، وعلى جهودهم أيضاً في القضاء على طائفة شيعية ببلاد السوس الأقصى يقال لهم البجلية نسبة إلى علي بن عبدالله البجلي الرافضي . انظر . حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص ١٨٢ - ١٨٤؛ وبرغواطة هم هراطقة المغرب الأقصى، بدأ ظهورهم في أوائل ق "٨/٥٢م" واتخذوا من إقليم تامسنا مقراً لهم، وكانت بدايتهم على يد صالح بن طريف، وهناك الكثير من الدراسات التي فندت معتقداتهم الفاسدة . انظر على سبيل المثال منها. محمود إسماعيل : مغربيات " دراسات جديدة " فاس ١٩٧٧ ص ٥٣؛ محمد الطالبي وإبراهيم العبيدي: البرغواطيون في المغرب، ط ١، تانسيفت، الدار البيضاء ١٩٩٩ ص ٦-٢٨؛ سحر سالم: من جديد حول برغواطة هراطقة المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٩٣ ص ٣-٢٥ .

(٤٣) انظر . ابن القطان : نظم الجمان، ص ١١٧؛ والآية القرآنية الكريمة من سورة الأنبياء، آية رقم ١٠٥؛ وفي تفسير الآية القرآنية المذكورة، يذكر الإمام ابن كثير - رحمه الله - عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن الله سبحانه وتعالى - أخبر - في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض - أن يورث أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - الأرض، ويدخلهم الجنة وهم الصالحون، وهو ما يعنى أن الصلاح لا يقتصر على ابن تومرت ودولة الموحدين، مع الأخذ في الاعتبار أن جميع أمة المسلمين " موحدون " . انظر . ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٢٠١ .

(٤٤) انظر ابن القطان : نظم، ص ١١٧، ١١٨؛ والآية القرآنية الكريمة من سورة الأنفال، آية رقم ٦٣؛ وفي تفسير الآية المذكورة ما يشير إلى الحروب الكثيرة في الجاهلية بين الأوس والخزرج، حتى قطع الله - سبحانه وتعالى - ذلك الشر بنور الإيمان، وأبان فضله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - المخاطب في الآية الكريمة المذكورة . انظر ابن كثير . تفسير، ج ٢، ص ٣٢٣ .

(٤٥) انظر . ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص ٣٤٠، ٣٤١؛ وقد سبق التعريف بالخليفة الموحدى أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن في حاشية رقم ٣٤؛ أما الحديث الشريف المذكور فقد ورد ذكره في شعب الإيمان للإمام البيهقي، وهو حديث خيثة عن عبدالله بن مسعود عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال " إن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها ويغض من أساء إليها " . انظر . البيهقي : الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين ت " ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م " شعب الإيمان، تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول، مج ٦، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م " ص ٤٨١ حديث رقم ٨٩٨٤ .



- (٤٦) انظر . ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص ٣٤١ .
- (٤٧) انظر . مقدمة تحقيق كتاب المن بالإمامة، ص ١٤، وقد سبق الحديث عن تتبع مراحل حياة ابن صاحب الصلاة في حاشية رقم ٢٣ بما يفيد في هذه الجزئية .
- (٤٨) انظر . ابن القطان : نظم الجمان، ص ٩٧ ؛ وفي حديث ابن القطان إشارة الى حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - ... عن عكرمة عن ابن عباس قال : لعن النبي - صلى الله عليه وسلم - المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال " . انظر . الإمام البخارى : صحيح البخارى، ص ١٢٢٤ حديث رقم ٥٨٨٥ باب : " المتشبهون بالنساء والمتشبهات بالرجال " ؛ ومثل هذه الأقوال يجدها الباحث بشكل أكثر فجاجة عند ابن تومرت نفسه، حيث يخصص ابن تومرت " مهدي الموحدين " بابا ضمن كتابه في بيان طوائف المبطلين من الملتئمين، فيذكر بعد وصف المرابطين بأنهم حفاة، عراة، رعاء الشاء والبهم، ان نساءهم يجمعن شعورهن فوق رؤوسهن، وأنهن كاسيات عاريات، مائلات لغيرهن، يغدون في سخطه ويروحون في لعنة، وقد يكون من المرجح أنها نقولات لابن القطان عن ابن تومرت وكتاب أعز ما يطلب . انظر . ابن تومرت : كتاب أعز ما يطلب، ص ٣٦٢ - ٣٦٤، ص ٢٥٨، ٢٥٩ .
- (٤٩) انظر . محمد بن عبدالسلام بن عبود : تاريخ المغرب، ج ١، ط ٢ دار الطباعة المغربية، تطوان ١٩٥٧ . ص ١٠٤ ؛ وهناك الكثير من الكتابات التاريخية من المصادر والمراجع التي أسهبت في الحديث عن اللثام عند المرابطين بما لا حاجة لحصره هنا ؛ وقد رأيت بنفسى هذه العادة في قبائل =الطوارق أثناء عملي بالمعهد العالى لإعداد المعلمين في مدينة غات في أقصى الجنوب الغربى بليبيا .
- (٥٠) انظر . ابن القطان : نظم، ص ١٠٩ ؛ وقد ورد هذا الحديث الشريف في سنن أبى داود، وسنن ابن ماجة بأكثر من صيغة، وهو حديث عن أم سلمة أنها قالت سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول " المهدي من عترتى من ولد فاطمة " ؛ وفي سنن ابن ماجة حديث عثمان بن أبى شيبة عن على أنه قال " قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " المهدي منا أهل البيت " وفي موضع آخر عن أم سلمة قال " سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : المهدي من ولد فاطمة " انظر . أبو داود الأزدي : الإمام سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ت " ٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م " سنن ابى داود، ج ٤ ؛ دار الحديث القاهرة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ص ١٠٤ حديث رقم ٤٢٨٤ ضمن كتاب المهدي ؛ ابن ماجة القزويني : الإمام أبو عبدالله محمد بن يزيد ت " ٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م " سنن ابن ماجة، ج ٢، تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر العربى ص ١٣٦٧، ١٣٦٨ حديث رقم ٤٠٨٥، ٤٠٨٦ ضمن باب خروج المهدي رقم ٣٤ .
- (٥١) انظر . ابن القطان : نظم، ص ١٠٣ ؛ وفي حديث ابن القطان إشارة الى أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - في شأن المهدي المنتظر، والتي سبق الإشارة الى بعضها في حاشية رقم (٥٠)، أما في هذه الجزئية فحديث ابن القطان يشير إلى حديث مسدد الذي أورده أبو داود في سننه والذي جاء فيه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال فيما معناه لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله رجلاً منى أو من أهل بيتى يواطئ اسمه اسمى واسم ابيه اسم أبى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً



كما ملئت ظلماً وجوراً، وهناك حديث عثمان بن أبي شيبة عن علي رضي الله تعالى عنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - " لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً "

وهناك حديث آخر أورده أبو داود أيضاً في سننه عن أبي سعيد الخدري قال " قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المهدي منى أجلي الجبهة، أفنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً... ". انظر . أبو داود : سنن أبي داود، ج٤، ص ١٠٤، ١٠٥ أحاديث رقم ٤٢٨٢، ٤٢٨٣، ٤٢٨٥ ضمن كتاب المهدي ؛ وكان من الطبيعي للباحث الإتيان بهذه الأحاديث النبوية الشريفة حتى يتبين أن مؤرخي الموحدين، وفي مقدمتهم ابن القطان قد سعى إلى إثبات نسب ابن تومرت إلى آل بيت النبوة لتأكيد ولاءه لدولة الموحدين ؛ في محاولة ابن تومرت لتقويض أركان دولة المرابطين، والجدير بالذكر هنا أن ابن خلدون في مقدمته عدّ القُدح في نسب ابن تومرت إلى أهل البيت من المقالات الفاسدة، وإنما حمل الفقهاء على تكذيبه ونسبته إلى الشعوذة والتلبيس ما كمن في نفوسهم من حسد له، وقد أوضح أ . عنان - في أثناء حديثه عن ابن تومرت - دوافع ابن خلدون التي حملته على الدفاع عن نسب ابن تومرت مهدي الموحدين مشيراً إلى =أنه لم يكن من المعقول أن يجاهر ابن خلدون بالطعن في نسب ابن تومرت ودعوته وإمامته، وهو الذي عاش رديحاً من الزمن - هو وأسرته منذ مغادرة الأندلس - في ظل الدولة الحفصية التي تعتمد على إمامة ابن تومرت ودعوته، وأهدى ابن خلدون أول نسخة من مقدمته وتاريخه للسلطان أبي العباس الحفصي سنة " ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م "، كما أن النجاح السياسي والعسكري لأي داعية أو متغلب لا يدل على صدق دعوته، هذا فضلاً على أن إنكار دعوة ابن تومرت لم يكن قاصراً على الفقهاء المرابطين فقط، والذي يرجعه ابن خلدون لحقدهم عليه وحسد لهم، بل امتد إلى كثير من المؤرخين . انظر . ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م " مقامة ابن خلدون، ط ١١ دار القلم ١٩٩٢ ص ٢٦؛ عنان : دولة الإسلام في الأندلس، ق ١، عصر المرابطين، ص ١٩٤، ١٩٥ .

٥٢) ابن القطان : نظم، ص ١٠٥ ؛ وإلحاقاً بما قيل في الحاشية السابقة ينبغي القول أن أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - الواردة في شأن المهدي المنتظر هي من قبيل الحقائق الدينية، وليست أساطير كما ذهب أ . عنان - عفي الله عنه - في كتابه، بل إن هناك من قال أن أحاديث المهدي وردت في البخاري ومسلم دون التصريح بلفظة المهدي، وليس لى شرف التخصص في علوم الحديث الشريف، بيد أن أهم ما يقال هنا أن ابن خلدون قد ناقش أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - الواردة في المهدي المنتظر، مشيراً إلى أن جماعة من الأئمة خرجوا أحاديث المهدي، وأسندوها إلى جماعة من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فيما يعنى أن " المهدي " حقيقة، لكن التاريخ هو الذي انحرف بهذه الحقيقة الدينية، فادعى ابن تومرت بأنه المهدي المنتظر، وسعى ابن القطان - كمؤرخ موحدى - لإثبات مهدويته، ونسبه إلى آل البيت بكل السبل، جاعلاً أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - تنطبق على ابن تومرت، والمؤسف أن ابن خلدون يناقض نفسه بدفاعه عن نسب ابن تومرت إلى آل البيت، وهو ماسبق توضيح بواعثه في الحاشية السابقة، في الوقت الذي يذكر أمثلة لمن ادعى أنه " المهدي المنتظر



- " بل حتى لحظة كتابه هذه الكلمات نسمع ونقرأ ممن يدعى إنه المهدي، فكيف ممن ادعى هذا في أواخر عصر المرابطين حتى وفاته سنة " ٥٢٤هـ / ١٢٩٩م"، وهو ابن تومرت مهدي الموحدين؟! وأذكر هنا قول أ. د. الحجى أن التاريخ " هو الشكل الذي تحقق فيه الإسلام، وكل انحراف عن الطريق السوى أصاب هذا التاريخ، كان نتيجة للإحراف عن تلك الشريعة " وهو ما ينطبق - في رأبي - على ابن تومرت في ادعاءه بأنه " المهدي المنتظر ؛ انظر . ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون، ص ٣١١ - ٣٣٠ بشأن أحاديث المهدي ومن ادعى أنه المهدي ؛ عنان : دولة الإسلام في الأندلس، ق ١ عصر المرابطين، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ ؛ عبدالرحمن على الحجى : نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي، ط ١ دار الإرشاد ١٩٦٩ ص ١٩ ؛ وهناك أحاديث نبوية أخرى يوردها ابن القطان في شأن المهدي على أساس أنه يسعى لتطبيقها على ابن تومرت انظر . ابن القطان : نظم، ص ١١٧، ١٨٠، ١٨١ ؛ وهي أحاديث يساء تأويلها، ولم يقل بها النبي - صلى الله عليه وسلم - على نحو ما أورده ابن القطان، كما هو في حاشية رقم (٢) من ص ١٨١ ل. د. مكي .
- ٥٣) موقعة البحيرة هي إحدى المواقع الحربية التي دارت بين المرابطين والموحدين، وهُزم فيها الموحدون . انظر عنها . ابن القطان : نظم، ص ١٦٠، ١٦١ .
- ٥٤) انظر . ابن القطان : نظم، ص ١٧٠، ١٧١، والحديث الشريف المذكور ورد في صحيح البخارى عن المغيرة من شعبة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال " لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون " ؛ وهو ما يعنى أن الحديث ورد دون أن يرد فيه كلمة " أهل الغرب " ؛ وقد جاء في تحقيق كتاب رياض النفوس ما يوضح إشكالية كتب التاريخ المغربى في إضافة لفظة لمغرب إلى مثل هذه الأحاديث الشريفة ؛ وابن القطان هنا يحاول إلحاق الشرف بطائفة الموحدين وابن تومرت، استناداً إلى استخدام أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - في إظهار الولاء لنولة الموحدين، بأن تكون هي الطائفة المقصودة في الحديث الذي أورده ابن القطان .
- انظر . تحقيق كتاب رياض النفوس للمالكى، تحقيق : بشير البكوس، مراجعة : محمد العروسى المطوى، ط ٢ دار الغرب الإسلامى ١٩٩٤ . ص ٥ حواشى التحقيق رقم (٤) ؛ وانظر ص ١٤٥٧ حديث رقم ٧٣١١ في صحيح البخارى .
- ٥٥) انظر . عبدالله علام : الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبدالمؤمن بن على، دار المعارف، بمصر ١٩٦٨ . ص ١٨ .
- ٥٦) انظر . مقدمة تحقيق المن، ص ٢٠ .
- ٥٧) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص ١٥٧ ؛ وانظر في مصادر ترجمة أخيل بن إدريس في ص ٦٧ حاشية رقم (١) من كتاب المن .
- ٥٨) ابن صاحب الصلاة : المن، ص ٣٧٢ ؛ ولأمانة فقد نبه أ. د. التازى الى هذا الخطأ في حاشية رقم (٢) من ص ٣٧٢ ؛ والقطرة المذكورة هي قنطرة نهر الوادى الكبير بإشبيلية . انظر . المنونى : حضارة الموحدين، ص ١٧٦ ؛ وعن القناطر عامة في العصر الموحدى يمكن الرجوع إلى . حسن على حسن : الحضارة الإسلامية في المغرب، ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .



٥٩) ابن صاحب الصلاة : المن، ص ٢٤٧ ؛ وقد ورد ذكر عبارة ابن صاحب الصلاة في إطار رسالة إلى الطلبة الموحدين بغرناطة، تشبيراً لهم بنصر الموحدين على ابن مردنيش في حصن له قبالة غرناطة، كان قد جمع فيه أحلافه من النصارى كما هو الحال في ص ٢٤٦ - ٢٤٧ من كتاب : المن .

٦٠) انظر . ابن صاحب الصلاة : المن، ص ٢٤٧ حاشية رقم (١) للمحقق ؛ والقضية هنا أكبر من السفسطة التي يشير إليها د . التازي، وترتبط بالمنهج الذي أعجب به ابن تومرت " مهدي الموحدين " في تعاليم الأشعرية وموافقها للمعتزلة في نفي صفات الله سبحانه وتعالى، وتأويل المتشابه من الآيات القرآنية، في حين بقي المرابطون على إقرار الصفات وعدم التأويل، ومن هنا وصفهم ابن تومرت بالمجسمين، واتخذ من ذلك وسيلة لتفويض دعائم الدولة المرابطية، ولصاحب هذه الكلمات بحث بعنوان : دور اعلام الفكر الصوفي في تدعيم وجود العقيدة الأشعرية ببلاد المغرب الأقصى، وفيه انتصار لدولة المرابطين ودهس التجسيم عنهم، بحث قيد النشر بمجلة كلية الآداب جامعة بنها عدد أكتوبر ٢٠١٥ .

٦١) انظر . ابن القطان : نظم الجمان، ص ٧١، ٧٢ ؛ والإمام الغزالي هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي المتوفي بطوس سنة " ١١١١هـ / ١١١١م " انظر في ترجمته (على سبيل المثال) ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبدالحى ت " ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م " شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٤، بيروت دون تاريخ ص ١٠-١١؛ وقد أورد عبدالواحد المراكشي في " المعجب " ما يدل على تقييح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم لمن ظهر عليه شئ منه، وأنه بدعه في الدين في عهد "على بن يوسف" أمير المسلمين؛ وهو ما يتضح في قوله: " وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقييح علم الكلام وكراهة السلف له ... " انظر . عبدالواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٣٦ ؛ وقد ورد أ . د حسين مؤنس - ضمن وثائق عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين - وثيقة إلى أهل بلنسية صادرة من ديوان الإنشاء المرابطى على أيام تاشفين بن على بن يوسف، وبالتحديد في العشر الأولى من جمادى الأولى ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م "، وينص فيها على إحراق كتب أبي حامد الغزالي، وتحذر الناس من البدع وكتبها وأصحابها " وخاصة كتب أبي حامد الغزالي "، والحق أن الباحث لا يمكن أن يتعاطف مع حوادث إحراق الكتب، وهى إحدى سلبيات العصر المرابطى حقاً، إلا أن هناك ما يشير إلى خشية المرابطين على الناس من علوم الكلام والفلسفة، أو قيام الغزالي بمهاجمة الفقهاء الذي يطلبون الدنيا من خلال مناصبهم الدينية في كتابه الإحياء، أو مناصرته للتصوف والمتصوفين الذين كانوا يأخذون موقفاً من الفقهاء وما يحققونه من مكاسب دنيوية . انظر . حسين مؤنس . نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين (١١٢٦هـ / ١١٢٦م إلى ١١٤٥هـ / ١١٤٥م) مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية في مدريد، العدد ٣، مج ١، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م. ص ١٠٦ - ١١٠؛ حسن على حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس. ص ٤٥٠ - ٤٥٢؛ ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة : السيد محمود عبدالعزيز سالم، محمد صلاح الدين حلمي، راجعة : لطفي عبدالبيح، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٩٠ . ص ٢٥٠ - ٢٥٢، وفي رأبي أن حادث إحراق كتب الغزالي - أياً



كان خطأه - لا يمكن عزله عن الظروف التي حدث فيها، وليس هذا دفاعاً عن المرابطين، بل كان هذا مدعاة لوصفهم في بعض الكتابات الأجنبية بالترمت واحتقار الثقافة، والقول بأن المدرسة المالكية سيطرت مطلقاً على المغرب والأندلس في العصر المرابطي .

Cf. Altmira ; Historia De España., t.1 Maderid. 1958 . P . 50 ؛

Huici Miranda : Historia Politica del Imprio Almohade., Tetuan 1956. P. 17 ؛

وربما كان حادث إحراق الكتب وغيره من أحداث العصر المرابطي سبباً في وصف المرابطين بالهمجية من قبل المستشرق الهولندي أ . دوزي، وهو ما ناقشه أ . ليفي بروفنسال وأبان فيه خطأ دوزي في دراسته لتاريخ المرابطين وتشويههم وتصويرهم على أنهم برابرة صحراويين متوحشين، أجلاً في متعصبين، وذكر أن دراسته كانت ناقصة لنقص المراجع بين يديه . انظر . دوزي "رينهات": المسلمون في الأندلس، ج ٣، ترجمة وتعليق وتقديم : حسن حيشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥ ص ١٦٥ - ١٦٧ ؛ ليفي بروفنسال : سلسلة محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها ترجمة . محمد عبدالهادي شعيره، مراجعة : عبدالحميد العبادي، القاهرة ١٩٥١ ص ١٦ .

(٦٢) انظر . ابن القطان : نظم الجمان، ص ٦٧، ٦٨ .

(٦٣) انظر . حسن على حسن: الحضارة الإسلامية، ص ٤٥٨ - ٤٦٠ فيما كتب بعنوان "معارك كلامية".

(٦٤) انظر . ابن القطان: نظم، ص ١٣٢؛ وتسمية الحشم ترتبط بالثنام، ويوضحه ابن القطان أيضاً في نفس الصفحة، أما المجسمين، فقد سبق توضيح التسمية في حاشية رقم ٦٠ .

(٦٥) انظر . ابن القطان : نظم، ص ١٠٣ .

(٦٦) تعرض البيهقي في كتابه لدخول ابن تومرت لعديد من المدن مثل تلمسان، فاس، ومراكش . انظر . البيهقي : كتاب أخبار المهدي، ص ٦٠- ٦٨ .

(٦٧) مثال ذلك ما قاله البيهقي عن إحدى غزوات ابن تومرت ضد المرابطين، وأنه (أي ابن تومرت) أخذ حفنة من التراب ورماها في وجوه المجسمين فانهزموا وتركوا الخيل . انظر . البيهقي : المصدر السابق، ص ٧٤ ؛ وهذا خيال وهراء، وشطط بالوصول بابن تومرت إلى ما لا يستحقه البشر !

(٦٨) ابن القطان : نظم، ص ١٣١ ؛ ومثل هذا التطرف في معاداة المرابطين يجده الباحث فيما ذكره البيهقي من رسائل ابن تومرت، والتي يقول في إحداها ... " واجتهدوا في جهاد الكفرة الملتزمين، فجهادهم أعظم من جهاد الروم وسائر الكفرة بأضعاف كثيرة لأنهم جسموا الخالق سبحانه، وأنكروا التوحيد، وعاندوا الحق " انظر . البيهقي : كتاب أخبار المهدي ..، ص ٩

(٦٩) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص ١٦١ ؛ وعقيدة التوحيد، والعقيدة المباركة المسماة بالطهارة هما ما دونهما ابن تومرت في كتابه أعز ما يطلب باللسانين العربي والبربري حتى يفهمه المصامدة، وهما عبارة عن مزيد من الأفكار والاتجاهات الدينية التي كانت معروفة من قبل، والتي وضعت بعضها إلى جانب بعض، وربما ظهرت غير متجانسة في بعض الأحيان ، بل متضاربة في أحيان أخرى . انظر . سعد زغلول عبدالحميد : محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس، جامعة بيروت



- العربية ١٩٧٣ . ص ٢١ ؛ وانظر عن عقيدة المرشدة أيضا . عبدالله كنون : عقيدة المرشدة للمهدى بن تومرت، البحث العلمي، عدد ٩، السنة ٣، سبتمبر - ديسمبر ١٩٦٦ . ص ١٧٦ .
- (٧٠) انظر . ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص ٣٠٤، وابن همشك هو صهر ابن مردنيش، وكان قد انسلخ عن صهره، وأعلن تويته، والدخول في طاعة الموحدين حسبما يستدل من الرسالة ؛ والوارد في الرسالة تلقيب ابن تومرت بالإمام والمعصوم وهو مما ذهب إليه الشيعة في الإمامة بأنها ركن الدين وقاعدة الإسلام ... وكما قال ابن خلدون فيها ... " ولا يجوز لنبي اغفاله ولا تقيضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر "، وهذا يعني أن ابن تومرت أخذ من الشيعة فكرة الإمام المعصوم، وأنه باعتماده على مبدئي العصمة والإمامة يختلف مع الأشاعرة وسائر أهل السنة، حيث يرفضون جميعاً هذا المبدأ، كما أن في أخذه بالعصمة والإمامة ما يعد جبرياً معارضاً للمعتزلة الذين نفوا القدر ورفضوا الجبر، وأثبتوا حرية الإنسان وإرادته في اختيار أفعاله، واشترطوها أساساً للتكليف بالواجبات ؛ انظر . ابن خلدون : مقامة ابن خلدون، ص ١٩٦، ١٩٧ ؛ سعد زغول محمد بن تومرت وحركة التجديد، ص ٢٤ ؛ عباس الجراري : الموحدون ثورة سياسية ومذهبية، المناهل، العدد الأول، السنة الأولى، نو القعدة ١٣٩٤، نوفمبر ١٩٧٤ . ص ١٠٣ .
- (٧١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص ١٦٨ ؛ وينكر عبدالواحد المراكشي عن " الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن " أنه " لم يكن في بني عبدالمؤمن فيمن تقدم منهم وتأخر ملك بالحقيقة غير أبي يعقوب هذا " ومع هذا لم يترك المراكشي العنان لقلمه في الإطراء غير المقبول، فكان أكثر موضوعية في كتابته التاريخية من ابن صاحب الصلاة رغم موحدية المراكشي . انظر . عبدالواحد المراكشي : المعجب، ص ٣١٦ .
- (٧٢) انظر . ابن صاحب الصلاة : المن، ص ٢٧٢ ؛ وانظر في بعوث الشام، وبعث يزيد بن أبي سفيان . ابن خلدون : عبدالرحمن ت " ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م " تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من نوى السلطان الأكبر، مج ٢، ط ١ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٢ . ص ٤٩١ - ٤٩٢ .
- (٧٣) انظر . ابن صاحب الصلاة . المن، ص ٢٥٨، ٢٥٩ .
- (٧٤) انظر في الظروف التاريخية التي أدت الى بيعة الرضوان . ابن هشام : أبو محمد عبدالملك ت " ٢١٨ هـ / ٧٣٣ م " السيرة النبوية، ج ٣، تحقيق : عادل سعد، دار الاعتصام، ص ١٩٥ - ١٩٦ .
- (٧٥) لقب السادات خاص بالخلفاء والأمراء الموحدين، كما يتضح من كتابات مؤرخي ديار الموحدين وخاصة ابن صاحب الصلاة - وابن القطان، أما لقب " أمير المسلمين فقد أوضح أ . د . التازي أن لقب أمير المسلمين كان هو الشائع في عصر المرابطين، وأن يوسف بن تاشفين لم يتسور على التلقب بلقب أمير المؤمنين، فلما جاء الموحدون رأوا أن من حقهم أن ينالوا هذا اللقب، وكان أول من فعل ذلك منهم عبدالؤمن بن علي الكومي سنة ٥٢٨ هـ / ١١٣٣ م " وتبعه على ذلك ابن أبو يعقوب يوسف سنة " ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م " انظر . حاشية رقم (١) من كتاب : المن بالإمامة، ص ٢٥٨ .



(٧٦) استند في هذا إلى حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - عن ابن عباس عن عمر رضى الله عنهما أنه قال " سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول " لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم وإنما أنا عبده، فقولوا عبدالله ورسوله " . فكيف بمن يمتدح ابن تومرت والسادة الموحدين !؟ انظر البخارى: صحيح البخارى، ص ٧٢٥ حديث رقم ٣٤٤٥ .

(٧٧) الخليفة المأمون الموحدى هو إدريس المأمون بن يعقوب المنصور بن عبدالمؤمن بن على، وكنيته أبو العلاء، ولقبه المأمون، بويع بإشيبيلية سنة " ٦٢٤ هـ / ١١٢٦ م " وتوفي سنة " ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م " فكانت خلافته خمسة وثلاثة أشهر، وهو الذي دخل مدينة مراكش وصعد المنبر بجامع المنصور، وخطب الناس ولعن ابن تومرت ... وقال " لا ندعوه بالمهدى المعصوم، وادعوه بالغوى المذموم، فإنه لا معصوم إلا الأنبياء ، ولا مهدى إلا عيسى، وأنا قد نبذنا أمره النحيس ... " انظر . ابن أبى زرع : الأئيس المطرب .. ص ٢٤٩ - ٢٥١ ؛ ابن عذارى : البيان، قسم الموحدين، ص ٢٤٧، ٢٨٦ - ٢٨٧ ؛ السلاوى : أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى ت " ١٢١٥ هـ / ١٨٩٧ م " الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ٢، تحقيق وتعليق ولدى المؤلف (جعفر الناصرى ومحمد الناصرى)، ج ٢، دار الكتاب، الدار البيضاء ١٩٥٤ ص ٢١٢ - ٢١٥ .

(٧٨) يذكر ابن القطان في هذا الشأن قوله : " وقد وقفت على نسخة صك كتبه - رضى الله عنه - لفقهي القاضى على بن أبى الحسن الجذامى أوله بعد البسملة والصلاة : أقول وأنا محمد بن عبدالله تومرت وأنا مهدى آخر الزمان " انظر . ابن القطان : نظم ص ٧٩ وانظر ما جاء في ص ٨٧ " من وصفه بـ " الإمام المعصوم المهدي المعلوم رضى الله تعالى عنه " وهو وصف يتردد كثيرا عند ذكر ابن تومرت " وقد ناقشت تفصيلا أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - الواردة في شأن " المهدي " والتي استغلها ابن تومرت لصالحه، فضلا على مسألة الإمامة والعصمة ضمن حواشى البحث المرتبطة بخصائص الكتابة التاريخية، ومما أورده ابن القطان أيضا في مدح ابن تومرت والمغالاة فيه قوله إنه كان " لا يراه أحد ولا يسمع به إلا أشرب حبه رضى الله تعالى عنه حبا وضع الله تعالى عليه وألبسه رداءه .. انظر . ابن القطان نظم، ص ٧٧ .

(٧٩) من أمثلة المناقب والكرامات والعصم المرتبطة بابن تومرت ما حدث له في أثناء رحلته من الأسكندرية الى بلاد المغرب على متن المركب الذي أقله، ونهيه عن المنكر وشرب الخمر في المركب، والتزام الصلاة وتتمر أهل المركب منه، حتى هموا بإلقاءه من المركب، وما حدث بعد ذلك حدوث ربح عاصفة كانت أن تفتك بالجميع لولا قيامهم بإرضاء ابن تومرت، وطلب الدعاء لهم، فتوضأوا جميعا وصلوا !... " وجرت السفينة بريح طيبة "، ومن مظاهر عصمته أيضا ومناقبه ما ارتبط مما حدث له في المهديّة وبجاية من تغيير للمنكر، وكسر دنان الخمر ومنع اختلاط النساء بالرجال . انظر . ابن القطان : نظم، ص ٩٢ - ٩٣ ؛ ومثل هذه المرويات التاريخية أوردها البيهقي في كتابه عن ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين، من خلال دخول ابن تومرت الى المهديّة، وبجاية، وتلمسان، وفاس، ومراكش، وربما استقى ابن القطان مادة التاريخية مما كتبه البيهقي في هذا الشأن إلا أن مثل هذه المرويات قد تبدو غير مقبولة في إضفاء هالة من القداسة على شخص ابن تومرت، وكأن تغيير المنكر لا يرتبط إلا به، وقد تبدو مقبولة بشكل نسبي، إلا أن ما لا يمكن قبوله من أمثلة تلك المرويات ما أورده البيهقي عن ابن تومرت



- عندما رمى حفنة من التراب في وجوه المرابطين فانهمزوا وتركوا الخيل وهو ماسيق بيانه في حاشية رقم ٦٧، بل إن من هذه المروييات ما ارتبط بشخص ابن تومرت، واستغلاله لسذاجة أتباعه لتحقيق أهدافه السياسي من خلال ما قام به من دفن عدد من أتباعه، وهم على قيد الحياة وجعل لكل منهم متفلسا في قبره وسؤالهم عن حالهم وقولهم أنهم وجدوا ما وعدهم ربهم حقا... وكان ابن تومرت يريد لاتباعه من المتشككين في دعوته سماع أصوات الموتى حتى يجدوا في " جهادهم " ضد المرابطين !! انظر . الليثي : كتاب أخبار المهدي بن تومرت، ص ٦٠-٦٨ ؛ السلاوي : الاستقصاء، ج٢، ص ٩٦ .
- (٨٠) انظر . ابن القطان : نظم، ٢١٢ .
- (٨١) انظر . ابن القطان . نظم، ص ٢١٤ ؛ وقد سبق التعريف بالخليفة المرتضى في حاشية رقم ٣٠ (*). لصاحب هذا البحث : بحث بعنوان الأسطورة في فتح الأندلس، وفيه تعريف موجز بالمعنى اللغوي، والاصطلاحى لكلمة " الأسطورة " . إصدار خاص، فكر وإبداع، أغسطس ٢٠١٣ .
- (٨٢) انظر . ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص ٢٠١ ؛ وابن مردنيش هو محمد بن مردنيش الناشر بشرق الأندلس، وشاركه في هذا الخروج صهره ابن هُشمك، وكان أول خروجه وثورته زمن الخليفة عبدالمؤمن بن علي كما أخبر ابن خلدون، وجاء في المن خبر الانتصار عليه وعلى نهايته، أما صهره ابن هُشمك فقد سبق بيان اتسلاخه عن ابن مردنيش ودخوله في طاعة الموحدين في حاشية رقم (٧٠) . انظر . ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، مج ٦، ص ٢٨١ ؛ ابن صاحب الصلاة : المن، ص ٢٠٠-٢٠١ ؛ وتحت أحداث سنة " ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م " ذكر ابن عذاري = في بيانه العلة التي لازمت ابن مردنيش حتى توفي. انظر . ابن عذاري : البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٢١، ١٢٢ .
- (٨٣) انظر في أحداث البشير المذكور . ابن القطان : نظم، ص ١٤٦ - ١٤٨ .
- (٨٤) ابن القطان : نظم، ص ١٦٥ ؛ ولا يفوتني التعليق على وصف الونشريسي بأنه " مطلع على الأنفس محدث "، وهو مالا يقبله عقل، ولا ينطبق على الونشريسي ولا على غيره، إلا أن يكون كما أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه البخاري عن أبي هريره . قال . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يك من أمتي أحد فإنه عمر " انظر . البخاري : صحيح البخاري، ص ٧٦٩ - ٧٧٠ حديث رقم ٣٦٨٩ باب : مناقب سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
- (٨٥) انظر . ابن القطان : نظم، ص ١٨٤ - ١٨٥ ؛ وفي هذا الشأن فهناك كتابات تاريخية تشير إلى أن ابن تومرت كان يحتفظ بكتاب يسمى الجفر، وفيه " أن أمره لا يتم إلا على يد رجل اسمه، كذا، وحليته كذا، وهو عبدالمؤمن بن علي، فأقام المهدي يتطلبه مده إلى أن لقبه بملاة " انظر . السلاوي : الاستقصاء، ج٢، ص ٩٠ ؛ وفي ص ٨٨ توضيح لأصل كلمة الجفر ؛ وهي ما بلغ أربعة أشهر من أولاد الماعز، وكان القدامى يكتبون على جلود الماعز ويسمونها جفورا، وهي من علوم أهل البيت ورواهم المستقبلية انظر . ابتسام مرعى : العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي، ص ٥٠-٥١ وحاشية رقم (١٥) من ص ٥١ ؛ ومن المرجح لى أن مثل هذه الجوانب هي مما أدخلها ابن تومرت في قلوب أتباعه ومريديه .



٨٦) اختلفت الآراء حول قصة اللقاء بين ابن تومرت، والإمام الغزالي، فيما بين مؤيد ومعارض من كتابات الباحثين المحدثين، ومن المرجح لدى انها تدخل ضمن نطاق الزعم والخيال استناداً إلى ما قاله ابن خلدون بشأن اللقاء بين الاثنين، وإن كان هذا لا يلغى تأثير ابن تومرت بالإمام الغزالي .
انظر . ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، مج ٦، ص ٢٦٧ حيث يقول عن ابن تومرت " ولقى فيما زعموا أبا حامد الغزالي " وانظر أيضاً حول اختلاف الآراء حول اللقاء . عنان : دولة الإسلام في الأندلس، القسم الأول - عصر المرابطين، ص ١٦٠-١٩٦، حيث ينفي قصة اللقاء، ولا يلغى تأثير ابن تومرت بالغزالي، وانظر حول رحلة ابن تومرت إلى الشرق الإسلامي، ابتسام مرعي : المرجع السابق، ص ٤٧ - ٥٢ .

٨٧) انظر . ابن القطان : نظم، ص ٧٢، ٧٣ ؛ وانظر حاشية المحقق رقم (٥) من ص ٧٢ والتي تحسم بأن قصة اللقاء بين ابن تومرت والغزالي موضوعة، وإن القرائن التاريخية تدل على استحالة وقوع ذلك .
٨٨) نكر ابن عبدالحكم حادث الكرة التي وقعت في كُم سيدنا عمرو بن العاص أثناء دخوله الإسكندرية، وكان يقال - حسب الأسطورة - أن من وقعت الكرة في كُمه " لا يموت حتى يملكهم " . وهنا يريد ابن تومرت أن يأخذ تفويضاً من الغزالي بإسقاط دولة المرابطين، فيتخذ من الحادثة تكتة لتحقيق مآربه، كما هو الحال في اسمه الذي وجد في أرض القدس، وفي أحاديث المهدي المنتظر الذي أراد أن يطبقها على نفسه، وادعاء الإمامة والعصمة وارتداء ثوب الدين وعباعته لتحقيق أهدافه السياسية من انهيار دولة المرابطين وإقامة دولة الموحدين، وهو من نوع الانقلاب السياسي الذي يرتدى ثوب الدين، ولست أهداف من ذلك إلى محاكمة ابن تومرت، أو من أرخ لدولته من مؤرخي البلاط الموحدي، تاركاً الحكم للقارئ .
انظر عن حادث الكرة المشار إليه في أول الحاشية . ابن عبدالحكم : أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله ت ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م " كتاب فتوح مصر وأخبارها، تحقيق : محمد الحجيري، ط ١ دار الفكر بيروت ١٩٩٦ - ص ١٢٩ ؛ والحديث عن خصائص الكتابة التاريخية هو الذي يدفع بي إلى بيان حقيقة هذه الجوانب، فإذا كان أ . عنان يشير إلى شهادة كاتب مشرقى في النصف الأول من ق " ٨ هـ / ١٤ م " - وهو الحسن بن عبدالله العباسي في كتابه " آثار الأول وترتيب الدول " المنشور على هامش كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي، القاهرة ١٣٠٥ هـ - بأن ابن تومرت من نوع الداعية المتزه المخادع الذي يبطن انتزاع الرئاسة في ثوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فإنه من باب أولى نكر ما قاله القاضي ابن عاصم الأندلسي - بعد ما يقرب من ثلاثمائة سنة على وفاة ابن تومرت - تعقيباً على حركة يوسف المدجن (مدعى الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال التمسح بالدين) في عهده قائلاً :- " وهذا النوع الذي استظهر به هذا المدجن من تغطيه قصده أولاً للثورة بالصلاح، وإبراز تصرفاته المقضية أخيراً إلى الملك، في مسلاخ الانتماء للولاية هو الذي منى به المرابطون من المتسمى بالمهدي القائم بدولة الموحدين، ولذلك كانت هذه الموحدية لا تسامح أحداً ممن يستظهر بتغيير المنكر في قالب الديانة " ؛ وهو ما يعنى أن مؤرخي البلاط الموحدي (ومنهم ابن صاحب الصلاة - وابن القطان) قد انغمسوا في عديد من اخطاء الكتابة التاريخية بدافع الولاء والانتماء والنفعية من دولة الموحدين .



- انظر . ابن عاصم: القاضى أبى يحيى بن عاصم ت " ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م " جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، مج ١، تحقيق : صلاح جرار، دار البشير ١٩٨٩ ص ١٨٩ ؛ وانظر أيضا لصاحب البحث : بحث بعنوان . في النقد الاجتماعي عند الفقيه القاضى أبى يحيى بن عاصم المتوفى بغرناطة سنة " ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م " وكتابة جنة الرضا، رؤية في السلبات الاجتماعية في عصر سيادة غرناطة. بحث قيد النشر ؛ وانظر فيما قال به أ . عنان رحمه الله . دولة الإسلام في الأندلس، القسم الأول - عصر المرابطين، ص ١٩٥، ١٦٩ .
- (٨٩) انظر . ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص ١٤٩، ٢٣١ وحاشية المحقق رقم (١) ص ١٤٩ وفيها غناء .
- (٩٠) انظر . ابن صاحب الصلاة : المن، ص ٢٠٠، ٢٠١، ٣٣٣ ؛ وحاشية المحقق رقم (١) ص ٢٠٠، ٢٠١ ؛ وانظر أيضا في التعريف بالباب الذي يخرج منه الخليفة إلى أهل الجماعة، وأهل خمسين، والطلبة . المنونى : حضارة الموحدين ص ١٦٨؛ ويوضح أ . المنونى أيضا السبب الذي حدا بالموحدين إلى الاستعانة باللسان البربرى . انظر . المنونى : المرجع السابق، ص ١٠٦ - ١٠٩، وانظر أيضا في هذا الشأن . حسن على حسن : الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ص ٤٨٩ - ٤٩٠ .
- (٩١) انظر . ابن صاحب الصلاة: المن، ص ٤٠٨ وحاشية رقم ٣ من نفس الصفحة للمحقق أ . د عبدالهادى التازى ؛ وانظر أيضا . مجهول : كتاب الحل الموشية، ص ١٠٩ .
- (٩٢) ابن القطان : نظم، ص ٨٩ - ٩٠ ؛ وقد وردت اللفظة عند ابن خلدون " أسافو " وأوردها صاحب الحل الموشية بنفس الصيغة منسوبة إلى والده تومرت انظر . ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، مج ٦، ص ٢٦٦ ؛ مجهول : كتاب الحل الموشية، ص ١٠٣، وانظر أيضا حاشية د . مكى من كتاب نظم الجمان رقم ٤ ص ٨٩، ٩٠ .
- (٩٣) انظر . ابن القطان : نظم : ص ١٣٩ . وحاشية د . مكى رقم ٢ من نفس الصفحة في التعريف بلفظ الشريعة اعتماداً على ما ذكره أ . دوزى .
- (٩٤) ذكر أ . ليفي بروفنسال أن لفظ الشريعة لم يعد اليوم مستعملاً في جميع أنحاء المغرب العربي، وإن الكلمة تعادل المصلى الريفى، أو تطلق على المصلى الريفى، وفي دراستى عن التعليم في بلاد المغرب العربى أشرت إلى تعدد مسميات الكتاب بالمغرب العربى في العصر الإسلامى نظراً لاتساع مساحته، ومن هنا فقد عرف الكتاب في بعض الجهات باسم الشريعة وهى كلمة تعنى الكتاب الريفى أو الخيمة المدرسية عند البدو ؛ انظر . ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٨٨ - ٨٩ وحاشية رقم (٢) من ص ٨٨، ٨٩ ؛ عادل يحيى : العلم والتعليم في المغرب العربى من الفتح الى نهاية دولة الموحدين، رسالة دكتوراة (غير منشورة)، جامعة عين شمس، ٢٠٠٢ م ص ١٥٤ .
- (٩٥) ابن القطان: نظم، ص ١٣٤، ١٣٥ ؛ وقبيلة هنتاتة ورد ذكرها هكذا عند ابن خلدون عند حديثه عن قبائل الموحدين من المصادمة، وأضاف صاحب القبائل أن جدهم هنتات ينتى بلسان المصادمة مشيراً إلى صحبة الشيخ أبى حفص عمر بن يحيى لـ ابن تومرت، وهو جد ملوك الدولة الحفصية، ويذكر أن اسم " هنتاتة " قد انمى اليوم، لكن بعض الأسر ما زالت تنسب إليها خصوصاً في مدينة صفاقس .



- انظر . ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، مج ٦، ص ٣١٦، ٣١٧ ؛ عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب، ج ١، المطبعة الملكية الرباط ١٩٦٨ . ص ٣٢٦، ٣٢٧ ؛ ويفهم من سياق القول أنه يقارن بين قبيلته هرغة، وقبيلة هنتاتة ؛ ولست أقصد احصاء للكلمات البربرية في كتابات ابن صاحب الصلاة - وابن القطان، أو ما تسمى باللسان الغري، كما هو في حاشية د . مكى من كتاب نظم الجمان، ص ١٣٤ حاشية رقم ٥.
- (٩٦) يذكر أ . د حسن على حسن أن عنصر البربر يشكل الغالبية العظمى من السكان، ومنهم تأسست أكبر دولتين شهدهما المغرب العربي في العصور الوسطى . انظر . حسن على حسن : الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص ٢٩٢ ؛ وقد جاء وصف البربر بإحدى الدراسات الأجنبية بأنهم سكان أفريقيا الشمالية، وأنهم تكونوا نتيجة لهجرات متلاحقة، وأن لهم ما يميزهم في اللغة والحضارة . Cf. Henri Terrasse : Histoire du Maroc., Paris 1952 P. 14
- (٩٧) انظر في النقاط المذكورة للباحث : النقد الاجتماعي عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين " من القرن الثالث الى التاسع الهجري/ التاسع الى الخامس عشر الميلادي "رسالة ماجستير، آداب الزقازيق ١٩٩٦ ص ١٧٩-١٨٥؛ والإشارة الى الابتعاد عن الفكرة الدينية مما أشار إليه أ.د. التازي في مقدمة تحقيقه، ص ٥٦.
- (٩٨) انظر . عادل يحيى : النقد الاجتماعي ...، ص ٢٦٥ - ٢٦٨ .
- (٩٩) انظر في الجوانب المذكورة . ابن صاحب الصلاة : المن، ص ١٨٦، ١٨٧، ٢١٥ ص ٢١٧، ٢١٨ ؛ ومثل هذه الجوانب أوردتها تفصيلاً أ . د التازي في مقدمة تحقيقه للكتاب من خلال حديثه عن جهاز الدولة ونظامها من خلال الكتاب فضلاً على النشاط الفكري، والازدهار الاقتصادي والمعماري، والحياة الدينية . انظر . مقدمة تحقيق المن . ص ٤١ - ٥٧.
- (١٠٠) انظر . ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص ٣٢٤، ٣٢٥ ؛ وهي قصيدة طويلة جداً استخدمت أول بيت منها، وابن طفيل هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي، من أهل برشانة من عمل المرية بالأندلس، كان طبيباً أدبياً، توفي بمراكش عام " ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م " وهو صاحب حي بن يقظان، وللتعريف به يمكن الرجوع الى رسالة الباحث في الماجستير بعنوان النقد الاجتماعي، ص ١٨٩ حاشية رقم (٢) وما فيها من إحالات للتعريف به ؛ وانظر أيضاً في الاستعانة بالقبائل العربية لحثهم على الجهاد في الأندلس
- Isidro De Las Cagigas : Andalucia Musulmana., Madrid 1950 . P 42.
- (١٠١) انظر . ابن القطان : نظم الجمان، ص ٨٢ ؛ وتأتى في طليعة هذه الطبقات : العشرة الذين قاموا بمبايعة ابن تومرت وسموا أهل الجماعة، ثم بايعه من بعدهم خمسون رجلاً فسموا أهل خمسين وهم الطبقة الثانية من أصحاب ابن تومرت، ثم بايعه من بعدهم سبعون فسموا أهل = سبعين وهم الطبقة الثالثة، ثم تأتى طبقة الطلبة ضمن الطبقة الرابعة التي تتكون من طبقة العلم ... الى آخر هذه الطبقات التي يوضحها ابن القطان تفصيلاً، ولعل أهم ما يذكر من هذه الطبقات أن خلفاء الموحدين كانوا حريصين على إعلام الطلاب بكل ما يحدث في ديار الخلافة الموحدين، كما هو الحال في الرسالة رقم (١٩) من الرسائل الموحدية . انظر . عنان : دولة الإسلام في الأندلس، ق



١. عصر المرابطين، ص ١٧٤ ؛ ليفي بروفنسال : رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤتمنية، رباط الفتح ١٩٤١. ص ٩٥ - ٩٩ رسالة رقم (١٩)؛ وهناك جوانب أخرى من الطقوس الخاصة بحضارة الموحدين مثل: موكب المصحف العثماني وأمامه مصحف ابن تومرت . وغير ذلك من جوانب أخرى أحيل فيها القارئ الكريم إلى مقدمة التحقيق في كلا من الكتابين موضوع البحث، فضلاً على الدراسات المتخصصة الأخرى، إذ ليس من قصدي هنا إحصاء كافة الجوانب الحضارية، بقدر إبراز الحديث عن إحدى خصائص الكتابة التاريخية المشتركة بين ابن صاحب الصلاة- وابن القطان. (١٠٢) انظر . محمد المنوني : المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج١، ص ٦٦، ٦٧، ولمزيد من التفاصيل عن ابن عذاري، والاختلاف حول أصله ووفاته يمكن الرجوع الى ما كتبه الباحث بعنوان. النقد الاجتماعي عند المؤرخين ...، ص ٢٦٩ وحاشية رقم (١) من نفس الصفحة وما فيها من إحالات للتعريف به .
- (١٠٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص ١٥٠.
- (١٠٤) عبدالواحد المراكشي : المعجب، ص ٣٠٦.
- (١٠٥) تناولت في دراستي للماجستير سلبيات عصرى المرابطين والموحدين من واقع كتاب المعجب لعبدالواحد المراكشي . انظر . عادل يحيى : النقد الاجتماعي ...، ص ٢٥٥ - ٢٦٥
- (١٠٦) عبدالواحد المراكشي : المعجب، ص ١٢٣
- (١٠٧) انظر . البيهقي : كتاب أخبار المهدي بن تومرت ؛ عنان : دولة الإسلام، القسم الأول -عصر المرابطين، ص ١٧٤ حاشية رقم (١)
- (١٠٨) انظر . ابن القطان : نظم الجمان، ص ٦٣ - ٦٧، ٢٤٣ - ٢٤٨ .
- (١٠٩) انظر . مقدمة تحقيق كتاب نظم الجمان، ص ٥١
- (١١٠) انظر . مقدمة تحقيق المن، ص ٢٠ .
- (١١١) انظر ما كتبه العالم الجليل أ . د حسين مؤنس ضمن كتابه تاريخ المغرب وحضارته، مجلد ٢، ج٢، ط١ العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٢ . ص ٦٦، ٦٧
- (١١٢) ذكر أ . د حسين مؤنس أن ظهور ابن تومرت " كان من سوء حظ الإسلام ، والمرابطون في عنفوان جهادهم في سبيل الإسلام " ؛ وفي رأبي أنه لو طبقت تعاليم الإسلام لما كان هناك داعي = للنتاحر بين المرابطين والموحدين، وأن ظهور ابن تومرت كان من سوء حظ المسلمين . انظر . مؤنس : المرجع السابق، مج٢، ج٢، ص ٥٨.
- (١١٣) للأمانة العلمية أشار أ . د محمد عبدالحميد عيسى - رحمه الله - إلى هذه الملاحظة في كتابه مشيراً إلى قصر عصر المرابطين قد منع المؤرخين من التأريخ لدولة المرابطين، وجاءت حركة التنوين التاريخي للعصر المرابطي في ظل حكم دولة الموحدين . انظر . محمد عبدالحميد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس، ط ١ دار الفكر العربي ١٩٨٢، ص ١٧٦.



قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الرئيسية للبحث :-

ابن صاحب الصلاة : أبو مروان عبدالملك بن محمد ت " أواخر ق ٦ هـ / ١٢ م " - المن بالإمامة " تاريخ المغرب والأندلس في عهد الموحدين " تحقيق د . عبدالهادي النازي، ط٣ دار الغرب الإسلامي ١٩٨٧ م .

ابن القطان : أبو محمد حسن بن علي الكتامي ت " منتصف ق ٧ هـ / ١٣ م " - نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق ودراسة، د.محمود علي مكّي، ط ١ دار الغرب الإسلامي ١٩٩٠ .

ثانياً : المصادر :-

ابن الأبار : أبو عبدالله محمد بن عبدالله ت " ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م " - كتاب الحلة السبيرة، ج٢، تحقيق : د . حسين مؤنس، ط٢ دار المعارف ١٩٨٥
البخاري: الإمام محمد بن إسماعيل إبراهيم ت " ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م " - صحيح البخاري، تحقيق : طه عبدالرؤف سعد، دار الاعتصام
البيهقي: أبو بكر علي الصنهاجي " عاصر أوائل دولة الموحدين " - كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، نشر : ليفي بروفنسال، بولس كتر الكتبي بباريز ١٩٢٨ .

البيهقي: الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين ت " ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م " - شعب الإيمان، مج ٦، تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول، ط٢ دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م

التنبكتي: أبو العباس أحمد بابا ت " ١٠٣٦ هـ / ١٦٢٦ م " - نيل الابتهاج بتطريز الديباج، جزءان ١-٢، إشراف وتقديم : عبدالحميد عبدالله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس، الجماهيرية الليبية ١٩٨٩

ابن تومرت : مهدي الموحدين محمد ت " ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م " - كتاب أعز ما يطلب " مشتمل على جميع تعاليم الإمام محمد بن تومرت مما أملاه أمير المؤمنين عبدالؤمن بن علي رحمهما الله تعالى " نشر : جولد تسيهر الجبر ١٩٠٣ م .

ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد ت " ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م " - مقنمة ابن خلدون، ط ١١ دار القلم ١٩٩٢
- تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج ٢، مج ٦، ط١ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢ .

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد ت " ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م " - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مج ٧، تحقيق : د . إحسان عباس، دار صادر بيروت .



- أبو داود : الإمام سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدى ت " ٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م "
- سنن أبي داود، ج٤، دار الحديث القاهرة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م
الإدريسي: أبو عبدالله محمد ت " ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م "
- وصف إفريقيا الشمالية " مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " تصحيح ونشر : هنري بيرييس،
الجزائر ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م
ابن الزبير : أبو جعفر أحمد بن إبراهيم ت " ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م "
- كتاب صلة الصلة، القسم الرابع، تحقيق د . عبدالسلام الهراس، سعيد أعراب، المملكة المغربية ١٩٩٤
ابن أبي زرع : أبو الحسن علي بن عبدالله ت " ٧٢٦ هـ / ١٢٢٥ م "
- الأئيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، طبعة دار المنصور الرباط
١٩٧٢ .
الزركشي : أبو عبدالله محمد ت " أواخر ق ٩ هـ / ١٥ م "
- تاريخ النولتين الموحدين والحفصية، تحقيق : محمد ماضور، ط ٢ المكتبة العتيقة تونس ١٩٦٦
السلوي: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ت " ١٢١٥ هـ / ١٨٩٧ م "
- الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٢ تحقيق وتعليق : ولدى المؤلف (جعفر الناصري ومحمد
الناصرى) دار الكتاب، الدار البيضاء ١٩٥٤ .
السيوطي : الإمام جلال الدين عبدالرحمن ت " ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م "
- في أسباب النزول، تحقيق : محمد محمد تامر، ط ١ داري التقوي ١٤٢١ هـ
ابن عاصم : القاضي أبي يحيى بن عاصم ت " ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م "
- جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، مج ١، تحقيق : د . صلاح جرار، دار البشير ١٩٨٩ .
ابن عبدالحكم : أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله ت " ٢٥٧ / ٨٧٠ م "
- كتاب فتوح مصر وأخبارها، تحقيق : محمد الحجيري، ط ١ دار الفكر بيروت ١٩٩٦ .
ابن عبدالملك المراكشي : أبو عبدالله محمد ت " ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م "
- السفر الخامس من كتاب النيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ق ١ ، تحقيق : إحسان عباس دار
الثقافة بيروت .
عبدالواحد المراكشي : محيي الدين أبي محمد ت " ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م "
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق : محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٦٣ .
ابن عذارى المراكشي : عاش أوائل ق " ٨ هـ / ١٤ م "
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق : محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن
تاويت، محمد زنبير، عبدالقادر زمامة، ط ١ دار الغرب الإسلامي ١٩٨٥ .
ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبدالحى ت " ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م "
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٤، بيروت دون تاريخ .



- ابن القاضي: أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي ت " ١٠٢٥ هـ / ١٧٩٠ م " -
- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، القسم الثاني، دار المنصور للطباعة والوراقة،
الرباط ١٩٧٤ .
- القرآن الكريم : طبع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤١٦ هـ
ابن كثير الدمشقي : الإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ت " ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م "
- تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ج ٣ مكتبة دار التراث، دون تاريخ .
ابن ماجة : الإمام أبو عبدالله محمد بن يزيد ت " ٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م "
- سنن ابن ماجة، ج ٢، تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر العربي بدون تاريخ .
الماكي: أبو بكر عبدالله بن محمد ت بعد سنة " ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م "
- كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساکهم وسير من أخبارهم وفضائلهم
وأوصافهم، ج ١، تحقيق: بشير البكوش، مراجعة، محمد العروسي المطوي، ط ٢ دار الغرب الإسلامي
١٩٩٤ . " استندت من حواشي التحقيق فقط في الصفحات المذكورة في متن البحث "
- مجهول : كاتب مراکشى من كتاب ق " ٦ هـ / ١٢ م "
- كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق د . سعد زغول عبدالحميد، مشروع النشر المشترك (
بغداد - المغرب) ١٩٨٥
- مجهول : مؤلف أندلسي من أهل ق " ٨ هـ / ١٤ م "
- كتاب الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق : سهيل زكار، عبدالقادر زمامة، ط ١ دار الرشاد
الحديثة، الرباط ١٩٧٩
- مجهول : مؤلف قام بتأليف كتابه سنة " ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م "
- تاريخ البربر المعروف بمفاخر البربر، تقديم وتحقيق وتعليق : محمد زينهم محمد عزب، ط ١ جهاد للنشر
والتوزيع ١٩٩٨ .
- النيسابورى : الإمام أبي الحسن على بن أحمد الواحدى ت " ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م |
- أسباب النزول، دراسة وتحقيق : السيد الجميلي، دار الريان للتراث، دون تاريخ .
ابن هشام : أبو محمد عبدالملك ت " ٢١٨ هـ / ٧٣٣ م "
- السيرة النبوية، ج ٣، تحقيق : عادل سعد دار الاعتصام دون تاريخ .
ياقوت : شهاب الدين أبي عبدالله ت " ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م "
- معجم البلدان، مج ٤، ط ٢، دار صادر بيروت ١٩٩٥ .
ثالثاً: المراجع العربية " الكتب والدوريات - والمراجع المترجمة :-
ابنسارم مرعي خلف الله " د " :
- العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي " ٥٢٤ - ٩٣٦ هـ / ١١٣٠ - ١٥٢٩ م " دار المعارف
١٩٨٥ .



أحمد مختار العيادي " د " :

- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ١٩٨٢
- دراسة حول كتاب الحلل الموشية في نكر الأخبار المراكشية وأهميته في تاريخ المرابطين والموحدين، منشورات الجامعة المغربية، كلية الآداب - العدد ٥ تطوان ١٩٦٠

أنخل جنتالث بالنثيا

- تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: د. حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، دون تاريخ
- حسن أحمد محمود " د " :
- قيام دولة المرابطين وصفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، ط ١ دار الفكر العربي ١٩٩٦

- الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ط ٣ دار الفكر العربي ١٩٨٦

حسن على حسن " د " :

- الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس " عصر المرابطين والموحدين " ط ١ مكتبة الخانجي ١٩٨٠
- دوزي " رينهارت " :

- المسلمون في الأندلس، ج٣، ترجمة وتعليق وتقديم: د. حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥ .

سحر سالم " د " :

- من جديد حول برغواطة هراطقة المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٩٣ .

سعد زغول عبدالحميد " د " :

- تاريخ المغرب العربي، ج٤، ط ١ منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٩٥
- محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس جامعة بيروت العربية ١٩٧٣
- السيد عبدالعزيز سالم " د " :

- تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٢

عادل يحيى عبدالمنعم " د " :

- النقد الاجتماعي عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين " من ق ٣ - ٩ هـ / ٩ - ١٥ م " رسالة ماجستير غير منشورة آداب الزقاق ١٩٩٦ " قيد النشر حالياً "

- العلم والتعليم في بلاد المغرب العربي من الفتح إلى نهاية دولة الموحدين، رسالة دكتوراه، كلية البنات - عين شمس ٢٠٠٢ .

- نور أعلام الفكر الصوفي في تدعيم وجود العقيدة الأشعرية ببلاد المغرب الأقصى خلال القرنين ٥، ٦ هـ / ١١، ١٢ م، بحث قيد النشر بمجلة كلية الآداب - جامعة بنها - عدد أكتوبر ٢٠١٥ .

- الأسطورة في فتح الأندلس بين عبدالملك بن حبيب المتوفي عام ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م وابن القوطية المتوفي عام (٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م فكر وإبداع، إصدار خاص أغسطس ٢٠١٣ م



- عباس إبراهيم المراكشي:
- الإعلام بمن حل مراكش وأغامت من الأعلام، ج ٨، المطبعة الملكية الرباط ١٩٧٦ .
عباس الجراري " د " :
- الموحدون ثورة سياسية ومذهبية، المناهل العدد الأول، السنة الأولى نو القعدة ١٣٤٩ هـ/ نوفمبر ١٩٧٤ .
عبدالجليل التميمي " د " :
- من أجل كتابة علمية لتاريخ المغرب العربي، المجلة التاريخية المغربية، عدد خاص عن المنهجية التاريخية
ومصادر التاريخ المغربي، عدد ١٣-١٤، تونس يناير ١٩٧٩
عبدالرحمن علي الحجي " د " :
- نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي، ط ١ دار الإرشاد ١٩٦٩
عبدالسلام بن سوادة :
- دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج ١، ط ٢ دار الكتاب، الدار البيضاء ١٩٦٠
عبدالكريم كريم " د " :
- دراسة في مصادر التاريخ المغربي، ج ٩ الحلقة الثانية الثقافة المغربية ١٩٧٣
عبدالله علام " د " :
- الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبدالمؤمن بن علي، دار المعارف بمصر ١٩٦٨
عبدالله كنون :
- عقيدة المرشدة للمهدي بن تومرت، البحث العلمي، عدد ٩، السنة ٣، سبتمبر - ديسمبر ١٩٦٦
عبد الوهاب بن منصور :
- قبائل المغرب، ج ١، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٦٨
ليفي بروفنسال :
- الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة : د . السيد محمود عبدالعزيز سالم، محمد صلاح الدين حلمي،
راجعة : لطفي عبدالنبيع، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٩٠
- سلسلة محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها، ترجمة : محمد عبدالهادي شعيرة، مراجعة : عبدالحميد
العبادي، القاهرة ١٩٥١
محمد زنيبر : " د " :
- حفريات عن شخصية يعقوب المنصور، العدد ٩، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المغرب ١٩٨٢ .
محمد عبدالحميد عيسى " د " :
- تاريخ التعليم في الأندلس، ط ١ دار الفكر العربي ١٩٨٢ .
محمد بن عبدالسلام بن عبود :
- تاريخ المغرب، ج ١، ط ٢ دار الطباعة المغربية تطوان ١٩٥٧
- محمد الطالبي " د " - وإبراهيم العبيدي " د "
- البرغواطيون في المغرب، ط ١ تانسيفت الدار البيضاء ١٩٩٩



محمد عبدالله عنان :

- دولة الإسلام في الأندلس، القسم الأول عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية، ط ٢ مكتبة الخانجي . ١٩٩٠ .

محمد الفاسي :

- التعريف بالمغرب، محاضرات على قسم الدراسات الأدبية واللغوية، معهد الدراسات العربية، جامعة الدول العربية ١٩٦٨

محمد المنوني :

- حضارة الموحدين، ط ١، دار توبقال، المغرب ١٩٨١

- المصادر العربية لتاريخ المغرب " من الفتح الإسلامي الى نهاية العصر الحديث، ج ١ منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ١٩٨٣ .

محمد عبدالهادي شعيرة " د " :

- المرابطون وتاريخهم السياسي (٤٣٠ - ٥٣٩ هـ) ط ١ مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٩ .

محمود إسماعيل " د " :

- مغربيات، دراسة جديدة فاس ١٩٧٧ .

- قضايا في التاريخ الإسلامي، منهج وتطبيق، دار العودة مكتبة مدبولي بيروت - القاهرة ١٩٧٤ .

يوسف أشباخ :

- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة وتعليق : محمد عبدالله عنان، ج ٢، ط ٢ مكتبة الخانجي ١٩٩٦ .

رابعاً : المراجع الأجنبية :-

Altmira (Rafael Y crevea) :

- Historia De España., T. 1., Maderid 1958

Huici Miranda :

- Historia Política del Imperio Almohade ., Tetuan 1956.

Las cagigas (Isidro) :

- Andalucía Musulmana., Madrid 1950 .

Melchor Antuña:

- Sevilla Y sus monumentos Arabes., Escorial 1930.

Pons Boigues (Francisco):

- Ensayo Bio- Biblio grafico sobre Lost Historiadores Geograpos Arabigo - Españoles., Madrid 1898 .

Terrase (Henri):

- Histoire du Marco., Paris 1952 .

الألقاب والكنى في العصر المملوكي
من سمات النفوذ والسلطة في مصر
(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)

أد/ نعمة علي مرسى
أستاذ وعميد كلية دار العلوم الأسبق
رئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية سابقاً

١ - مقدمة:

يلعب اللقب دوراً خطيراً في الحياة السياسية في مصر المملوكية، فالألقاب كالأوسمة على صدور أصحابها، وكالسمة على حياتهم، يعرفون بها، فاللقب في اللغة معناه: النبراس، والجمع ألقاب^(١)، واللقب اسم غير مسمى به، ويقال قد لقب بـ "كذا"، فنلقب به^(٢).
وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ صدق الله العظيم^(٣)، وفي مجمل القول فإن اللقب يستعمل في المدح والذم، وهذا لا يُعد فسوقاً ولا حراماً، ولكن في حالة استعماله للذم يقصد به التحقير^(٤)، ومن هنا نستخلص أن الألقاب التي استخدمها سلاطين المماليك، كانت ألقاباً فخرية أو نعوت تشريفية، لوصفهم بالصفات الحميدة، وجعلها علماً على فترات حكمهم في مصر.

أما الكنى وهي تعظيم الأشخاص بها في المخاطبات والمكاتبات، فهي على ثلاثة وجوه:
أولها: أن يكنى الشخص بالشيء الذي يفتخر به.
والثاني: أن يكنى باسم توقيير وتعظيم.
والثالث: أن تقوم الكنية مقام الاسم، فيعرف صاحبها بها، كما يعرف اسمه^(٥).

-
- (١) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق محمد فوزي أمين، نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية، ٢٠٠٤م، ج٥، ص٤٣٨.
(٢) ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، سلسلة نصف شهرية، ج٦٤، ص٤٠٥٦.
(٣) سورة الحجرات، آية ١١.
(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٤٣٩.
(٥) ابن منظور: لسان العرب، ج٤٤، ص٣٩٤٤.

٢- تاريخ الألقاب وتطورها في الدولة الإسلامية:

كانت الألقاب تتناسب مع بساطة الصفة وعدم الاهتمام بالمظاهر العامة، وفي صدر الإسلام لم تزد الألقاب في الغالب عما يلزم الوظائف الرسمية، فقد أطلق على الحاكم لقب: أمير المؤمنين منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث سبقه الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه باللقب: بخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٦)، أما في عصر بني أمية فلم يتلقب خلفاؤها بألقاب فخريّة معينة، حتى قيام الدولة العباسية، التي مال فيها الخلفاء إلى مظاهر الاقتباس من الحضارة الفارسية، ودخلت العديد من العادات والتقاليد الفارسية في الحياة العامة في بغداد؛ لذا كثر استخدام الألقاب، فأضيف إلى الخليفة لفظ: الجلالة، فصار خليفة الله، حيث اعتبر الخليفة العباسي مفوضاً من الله عز وجل لإقرار دينه في الأرض، فهو ظل الله على الأرض أو خليفة الله على خلقه^(٧)، وبذلك ظهرت ألقاب تضاف إلى الدولة وإلى الملة وإلى الدين، مما يعطي أصحابها خليط ممزوج من الحكم والدين، فتسود السيطرة على شعوبهم^(٨)؛ وبذلك أخذت أنظمة جديدة تدخل في الألقاب، فبلغت آخر مراحل تطورها، فكان أول من تلقب بلقب فيه اسم الدول، هو: الوزير أبو الحسن القاسم بن عبد الله، الذي تلقب: بولي الدولة، كذلك تلقب الوزير أبو علي بن مقله بلقب: عميد الدولة^(٩).

وطالما أن اللقب يطلق على سبيل التشريف، فصار يقتصر على الألقاب الفخرية الرسمية التي تصدرها الخلافة العباسية، ويصدق عليها في ديوان الإنشاء؛ لذا وضعت نظم ورسوم متبعة في الخلافة لمنح الألقاب، سواء لكبار رجال الدولة من وزراء وقادة أم حكام

(٦) هلال بن الصابي: رسوم دار الخلافة، عني بتحقيقه والتعليق عليه ونشره ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م، ص ١٢٨؛ حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ص ٥٩.

(٧) الفلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٤٥.

(8) Baswarth: The Titulature of the Early Ghay mobiclo Oriens (Leiden, 1962) , P.210.

(٩) هلال بن الصابي: رسوم دار الخلافة، ص ١٣٠.

للولايات المستقلة أو شبه المستقلة عن الخلافة، فالخليفة هو المصدر الرئيس لكل الألقاب والنعوت التشريعية^(١٠)، فكان اعتراف الخليفة أمراً ضرورياً يحرص عليه الولاة والحكام، ويبدلون الجهد والمال في سبيل هذا، فضلاً عن اعترافهم بحق الخلافة في البلاد التي تحت أيديهم، وإرسال الرسل إلى العاصمة بغداد لطلب الخلع والألوية والبنود والألقاب الفخرية^(١١). ظل الخلفاء العباسيون حريصين على عدم التفريط في حق التلقيب، وإذا حدث اغتصاب لعرش إقليم من الأقاليم، وقام هذا بإطلاق لقب على نفسه، فإن الخليفة يعد ذلك اعتداءً وأن هذا الأمر يأخذ طابع الاغتصاب، فيظل هذا فاقد الاحترام المناسب ولا يباركه الخليفة بالموافقة؛ إذ يُعد اللقب هبة من هباته، وظهر هذا بوضوح عندما اغتصب طغرل^(١٢) عرش غزنة، فلم يعترف الخليفة بحكمه ولم ينعم عليه بأية ألقاب، حتى قتل، ورفع بدلاً منه على عرش الغزنويين فرخ زاد بن مسعود^(١٣) بكتاب صادر من ديوان الخلافة له رسم خاص،

(١٠) حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ص ١، ٢.

(١١) هلال بن الصابي: رسوم دارو الخلافة، ص ١٠٩.

(١٢) طغرل: أحد حجاب القصر الغزنوي في عهد السلطان مودود بن مسعود، تزوج من أخت السلطان، وقاد الجيوش ضد الدولة السلجوقية في خراسان، ثم قام بالاستيلاء على العرش، وقتل السلطان عبد الرشيد وجميع أولاده ولقب نفسه بشمس دين الله سيف الدولة، وقيل بجمال الدولة (ميرخوندا: روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء ترجمة أحمد عبد القادر الشانلي، طبعة الدار المصرية للكتاب، ص ١٦٧؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، الطبعة الخامسة، دار الكتاب، بيروت، ١٢٠٥ هـ / ١٩٨٥ م، ج ٨، ص ٥٣).

(١٣) ميرخوندا: المصدر السابق، ص ١٦٨؛ تمتع الخليفة العباسي بكثير من الهيبة في نفوس الغزنويين، ومنح الألقاب الفخرية لسلطينهم، واهتموا هم بتلك الألقاب، لدرجة أن رسول الخليفة الذي كان يحمل الخلع والألقاب يستقبل بكل تجميل واحترام، مثلما حدث مع أبي سهيل الكرديزي، الذي استقبل، فضل وأحسن استقبال من قبل السلطان مسعود بن محمود، ومنحه الهدايا الفاخرة (الكرديزي: زين الأخبار، ترجمة عفاف السيد زيدان، القاهرة، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م، ص ٣١٩)؛ كما استقبل رسول الخليفة المسمى أبو سعيد عبد الغفار فاخر بن شريف الملقب بحميد أمير المؤمنين، أفضل استقبال، وبالغ السلطان مسعود في إكرامه وأهداه خلة فاخرة مما يخلع على الفقهاء، ومنح الوزير هدية قيمة ومنحه فوق مائة ألف دينار (البيهقي: تاريخ البيهقي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٥ م، ص ١١٤، ٣٩٣).

Basworth: The litalature of early Ghazanvicts , P.210.

فيفتح الخطاب بحمد الله على نعمه السابقة، والصلاة على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يقال: إن أمير المؤمنين بما خوله الله تعالى من نعمة يرى المن على خلصائه وإسباغ نعمه على أوليائه، لذلك رأى أن ينعك بكذا لاشتقاق هذا النعت من سماتك واستتباطه إياه من صفاتك وشرقك من ملابس بكذا، وطوقك بطوق، وقلدك بسيف من سيوفه، وعقد لك لواء من ألويته، وحملك عل بكذا، من خيله، وكذا من مراكبه^(١٤).

هذه كانت الصيغة التي يصدر بها الألقاب الممنوحة في العصر العباسي، والتي تسجل في ديوان الرسائل ببغداد، ويحتفظ بنسخة منها في ديوان الولايات، كما جرت العادة على أن تكون الكتب المرسله بالألقاب الممنوحة بأوضح خط وأفصح لفظ، وتكون السطور من أول القرطاس، ومن غير تفصيل في أحد جانبي السطر، ويكون بين سطر وسطر سعة^(١٥)، ومن هنا نستخلص أهمية الألقاب ورونقها الذي يرفع صاحبها إلى درجات عالية من الرفعة والمنزلة العالية مما يسعد المتلقب لدرجة أنه يتلقى خطاب التلقيب بكل سعادة ويجلس في استقباله في قصره ليتلقى الرسول، وقرآته علانية تارة وفوق المنابر تارة أخرى، وإقامة الأسمطة. والموائد للأمراء ورجال الدولة، وقبول منح المتلقب وهداياه وتوزيع الصدقات على فقراء الدولة^(١٦).

٣- سلاطين المماليك والخلافة العباسية في القاهرة:

وفي بداية الأمر هل لنا أن نتسأل: هل كان من حق الخليفة العباسي في القاهرة منح الألقاب للسلطان المملوكي أم لا؟ ففي الحقيقة، فإن الخلافة في بغداد قد سقطت في سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٧م على يد هولوكوخان^(١٧) المغولي، وقتل آخر الخلفاء المستعصم بالله العباسي^(١٨).

(١٤) هلال بن الصابي: رسوم، ص ١٠٤؛ حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ص ٩٤ - ٩٥.

(١٥) هلال بن الصابي: المصدر السابق والصفحة.

(١٦) النيهقي: تاريخ النيهقي، ص ٤٥ - ٤٧.

(١٧) هولوكو: هو الابن الرابع لتولوي بن جنكيز خان، وأمه سيورقوتيني بيكي، كان يدين باليونانية ولد أربعة عشر ولداً وسبع بنات (الهمداني: جامع التواريخ، أبناء هولوكو من أباقاخا إلى كيخاتو، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرون، وزارة الثقافة والإرشاد، المجلد الثاني، الجزء الأول، ص ٢١٢، ٢٢٠)؛ لقد قسم جنكيز خان الإمبراطورية في حياته على أبنائه الأربعة وعهد بالحكم لابنه الأصغر تولوي، واستبعد ابنه الأكبر جوجي،

قام السلطان الظاهر بيبرس^(١٩) بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة من جديد، بعد رفعه للسلطنة حتى يظهر بمظهر الحامي للخلافة أمام العالم الإسلامي، ويجعل من نفسه شيئاً من الزعامة والنفوذ، ويضفي على حكمه الشرعية؛ لذا راسل الأمير أبو العباس أحمد أحد أمراء بني العباس^(٢٠)، ولكن لظروف سياسية حضر إلى مصر أميراً آخر هو أبو القاسم، فتلقاه بيبرس في خارجها مجلساً عاماً في ٨ رجب ٦٥٩هـ / ١٢٦١م، وأمر بعقد مجلس عام في الديوان الكبير بالقلعة حضره جمع غفير من الناس والشيخ العز بن عبد السلام. ولإثبات نسب هذا الأمير للعباسيين، وبذلك قلد بالخلافة وتلقب بالمستنصر بالله^(٢١).

- لأنه حاول التآمر عليه أثناء قيامه برحلة صيد، فأمر جنكيز خان بقتله (الجوزجاني: طبقات نصري، ترجمة ملكة على التركي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٢م، ص ١٨١).
- (١٨) المستنصر بالله: هو أحمد بن عبد الله بن المستنصر بالله أبي جعفر بن الظاهر بأمر الله آخر الخلفاء العباسيين في بغداد، الذي قتله المغول بقيادة هولاكو في سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٧م (ابن العربي: تاريخ مختصر الدول، تحقيق أنطون صالحاني، الطبعة الثالثة، دار الشرق، بيروت- لبنان، ١٩٩٢م، ص ٢٥٤؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكر في تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة محمد عطا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ٢٠٠١م، ص ٩٤؛ ابن حجر العسقلاني: نزهة الألباب في الألقاب، تحقيق عبد العزيز بن محمد بن صالح السديري، مكتبة الرشد، الرياض، ج ٢، ص ١٧٦).
- (١٩) الظاهر بيبرس: هو ركن الدين بيبرس العلاتي البندقاري الصالحي، ولد في القفجاق، وأسر وبيع بسيولس، ثم نقل إلى حلب، فالقاهرة، وهو تركي الجنس من جملة مماليك الصالح نجم الدين أيوب ترقى في المناصب حتى وصل إلى العرش (ابن النديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، ج ٢، ص ١٠٢؛ البيهقي: نيل مرآة الزمان، الطبعة الثانية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٢م، ج ٢، ص ١).
- (٢٠) أبو العباس أحمد هو: أحمد بن محمد بن الحسن وكني بأبي القاسم بن الظاهر بالله بن الناصر بالله، وقد أثبت نسبه للعباسيين، وقتل أمام المغول (المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق مصطفى زيادة، ١٩٥٧م، ج ١، ص ٢٥، ٤٨٠؛ محمد شلتوت، الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م، ج ١، ص ٤٢٠).
- (٢١) أبو شامة: الذليل على الروضين، وضع حواشيه وعلق عليه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ٣٢٩.

ولكن لم تدم فترة الخليفة المستنصر طويلاً في مصر، فقد جهز الظاهر بيبرس الخليفة بثلاثمائة فارس وأرسله إلى بغداد لاستردادها^(٢٢)، ولم يرافق السلطان الخليفة في تلك الحملة بل سار معه حتى دمشق، وفي مدينة الأنبار التقى مع المغول، وبالتالي تم قتله مع معظم رجاله، ولم يفلت من هذه المذبحة إلا الأمير أبو العباس أحمد^(٢٣)، الذي دعاه بيبرس من جديد لإعادة إحياء الخلافة من جديد، وذلك في ٨ محرم ٦٦١ هـ/ ١٢٦١ م، واتبع النظام نفسه في إثبات نسبه للعباسيين، فدعى مجلساً عام بالديوان الكبير بالقلعة، وقرئ نسبه على الناس ولُقب بالحاكم بأمر الله، وبايعه السلطان على العمل بكتاب الله وسنة رسوله، ثم أُقبل الخليفة على السلطان وقلده أمور العباد والبلاد، ولقبه بقسيم أمير المؤمنين^(٢٤) - أي شريكان في حكم المسلمين، وهي إشارات إلى العلاقة ما بين سلاطين المماليك والخليفة العباسي في القاهرة- ويُعد هذا اللقب من أجل الألقاب التي أصبغت على الحكم والمماليك^(٢٥)، فهل يعني ذلك أن الخلفاء العباسيين في القاهرة كان لهم حق إصدار الألقاب والأنعام بها على سلاطين المماليك؟ ولا بد أن نجيب بأن الإجابة: لا، وهذه أول وآخر مرة يلقب فيها خليفة عباسي سلطاناً مملوكياً.

هذا إلى جانب أن إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، لم تكسب الخلافة إلا كسباً زائفاً، فقد اقتصرت سلطته على الأمور الدينية فقط، وتزيين حفلات السلطنة بوجودهم، وقصر إقامتهم على أحد أبراج القلعة، تحت سمع وبصر السلطان القائم بالعرش^(٢٦)، وصار السلاطين هم الذين يقومون بتلقيب أنفسهم واختيار كناهم، ومن هنا، فإنهم استفادوا من إحياء الخلافة بالقاهرة، حيث أصبح لهم مقام سامٍ عند بقية حكام العالم الإسلامي، وتمتعت

(٢٢) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧ م، ج ٤، ص ٨-٩.

(٢٣) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ١٠٧.

(٢٤) السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل، دار إحياء الكتب العلمية، القاهرة، ١٩٦٧ م، ج ٢، ص ٢٥؛ حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ص ٤٣٠.

(٢٥) المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٧٩.

(٢٦) أبو المحاسن: مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل محمد، دار الكتب المصرية، ص ١٥٠.

عاصمتهم القاهرة بشهرة دينية وعلمية واسعة، لكونها مركز الخلافة، بل وصل الأمر بالسلطان بيبرس بأن يهيمن على الخليفة الحاكم بأمر الله، بدعوة بعض أفراد العباسيين إلى القاهرة -الذين أدعوا أنهم أحق بالخلافة منه^(٢٧)، ومن ثم يصبح الخليفة مهدداً بالخلع ومبايعة غيره، كلما فكر في أن يتدخل في شؤون الدولة^(٢٨)، وبذلك أحيى المماليك الرمز الديني والروحي بالنسبة لهم، هذا بالإضافة إلى تمكن الظاهر بيبرس بسط نفوذه وسيطرته على بلاد الحجاز، التي كانت تابعة سياسياً وروحياً للخلافة الحفصية في تونس^(٢٩)، وأزال أنصار الحفصيين منها، وجعل الخطبة للخليفة العباسي، ثم له كسلطان على ممالك مصر، وأقام الأمير شمس الدين مروان مندوباً له بجوار شريف مكة^(٣٠)، فامتد نفوذ المماليك إلى الأراضي الحجازية، وضربت باسم السلطان السكة وخطب له على منابرها. وزيادة في الأمر، فقد أصبح من حق السلاطين والمماليك خلع الخلفاء العباسيين وعزلهم عن الخلافة^(٣١)، وتعيين غيرهم في منصبهم، كذلك صار الخليفة لا يختار اللقب الذي يناسبه^(٣٢)، بل يتم اختياره له من قبل السلطان أو القضاة، ولا بد أن نشير على الرغم من ذلك وتجميد دور الخليفة وضعف

(٢٧) المقرئزي: السلوك، ج ١ ق ٢، ص ٤٧٩.

(٢٨) بقي حكم المماليك غير شرعي من ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م عقب إسقاط آخر الأيوبيين في مصر توران شاه، وذلك لمدة عشر سنوات حتى ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م (أبو شامة: الذيل على الروضين، ص ٣٢٦، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج ٢، ص ٩٤).

(٢٩) الدولة الحفصية: هي الدولة التي أسسها أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني بتونس سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م، إلى ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م، زاعمين أنهم من نسب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (أبو الفداء: المختصر في أخبار، ج ٣، ص ١٨٧).

(٣٠) المقرئزي: السلوك لمعرفة، ج ١ ق ٢، ص ٥٠٢ - ٥٠٤.

(٣١) قام السلطان الناصر فرج بعزل الخليفة المتوكل على الله العباسي في سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م، وأمر بسجنه، نتيجة لحدوث خلافات بينه وبين الأمراء المماليك، ثم أعيد الخلافة مرة أخرى مع التصديق عليه (ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، ١٩٦٩م، ج ٢، ص ٣٤٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٨٤)؛ كذلك خلع السلطان المؤيد شيخ الخليفة المستعين بالله في سنة ٨١٦هـ / ١٤١٣م، وسجنه (المقرئزي: السلوك، ج ٢، ص ١٠).

(٣٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق حمدي المرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ٢٠٠٤م، ص ٣٦١؛ ابن ياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، طبعة الشعب، القاهرة، ١٩٦٠م، ج ٢، ص ٤٨٥.

منصبه - فإن كل همهم كان أن يقوم الخليفة بتقليدهم لمناصب السلطان وسط أجواء من الإجلال، وحضور القضاة الأربعة وكبار رجال الدولة^(٣٣)، مع منح الخليفة الحق في اختبار من يخلفه في منصبه^(٣٤)، أي يعطي ولاية العهد لأحد أبنائه من بعده. والخلاصة، فإن سلاطين المماليك صار لهم حق اختيار ألقابهم الفخرية التي يعرفون بها في التاريخ بأنفسهم دون أن يكون للخليفة العباسي في القاهرة أي حق في التدخل في ذلك، أو إبداء رأيهم.

٤ - المماليك وأشهر الألقاب:

اهتم سلاطين المماليك باتخاذ الألقاب الفخرية، وتلقب أنفسهم بأشهر وأقوى تلك النعوت والصفات منزلة ومكانة، فقد كانت سياستهم تقوم على التفاخر بحمل الألقاب الفخرية، وسعوا إلى الحصول عليها، طالما وصلوا إلى كرسي العرش، حتى صارت سمة من سمات النفوذ في دولتهم، وصارت تلك الألقاب أكثر عددًا أو أشد تعقيدًا ممن سبقهم من حكام مصر في العصر الأيوبي، ومن هذه الألقاب لقب: الظاهر، المنصور، الناصر، الأشرف، الصالح، العادل، وعلينا أن نشير إلى أن سلاطين المماليك انفردوا بألقاب خاصة بهما، السلطان عز الدين أيبك الجاشنكير التركماني الصالحي^(٣٥)، الذي انفرد بلقب المعز أيبك^(٣٦)،

(٣٣) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج ٢، ص ٩١؛ السيوطي: المصدر السابق، ص ٣٦١.

(٣٤) ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر بأبناء العمر، ج ٢، ص ٣٤٣.

(٣٥) ابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق سعيد عاشور، مراجعة أحمد السيد دراج، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م، ص ٢٥٦؛ عز الدين أيبك: هو الذي تزوج من السيدة شجر الدر، فخلعها وتسلطن بدلًا منها، نتيجة لاعتراض الخليفة العباسي المستعصم في بغداد على تولية سيدة حكم مصر، وأيبك كلمة تتكون من مقطعين "أي" بمعنى القمر، و"بك" بمعنى الأمير، أي الأمير القمر (أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة، تقديم وتعليق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م، ج ٧، ص ٣)؛ وقد حمل عدة ألقاب عند تولية السلطنة المملوكية مثل: التركماني؛ لأنه في الأصل كان مملوكًا لأولاد التركمان بني رسول ملوك اليمن، وانتقل بعدهم إلى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب فعرف بالصالحي (المقريزي: السلوك، ج ١ ق ٢، ص ٣٦٨)؛ كذلك حمل لقب الجاشنكير؛ لأنه كان يتنوق الطعام والشراب قبل الأمراء في الولائم؛ خوفًا من دس السم لهم (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢١)؛ قتلته زوجته شجر الدر نتيجة لمحاولته الزواج عليها من ابنة لؤلؤ الأيوبي صاحب الموصل، وتسلطن من بعده ابنه المنصور نور الدين علي، وعمره



وذلك في سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م، الذي تولى العرش وركز بالسناجق السلطانية^(٣٧)، وحملت العاشية بين يديه - وهو سرج من الأديم مخرزه بالذهب^(٣٨)، وبذلك عُرف السلطان عز الدين أيك بلقب المعز أيك، كذلك انفرد الملك محمد بركة خان بن السلطان الظاهر بيبرس بلقب السعيد بركة -نسبه إلى جده لأمه بركة خان المغولي-، والسعيد بركة تولى العرش عقب وفاة والده، وقد تسلطن حوالي سنتين، وكان أتابكة ومدير مملكته والوصي عليه الأمير: قلاوون الصالحي^(٣٩).

كذلك انفرد السلطان شيخ المحمودي بلقب المؤيد^(٤٠) -أي المؤيد من الله تعالى- وهو لقب لم ينتقب به أحد من سلاطين المماليك، والمؤيد ينتمي إلى ممالك السلطان الظاهر برقوق^(٤١)؛ لذا أطلق عليه اسم الظاهري أما قبل أن يصل إلى السلطنة، فقد كان يعرف

- خمسة عشر عامًا، وتولى أمر تدبير مملكته سيف الدين قطز (أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص١٩٩؛ أبو المحاسن: مورد اللطافة، ج٢، ص٢٨).
- (٣٦) ابن حجر العسقلاني: نزهة الألباب، ج٢، ص٢٨٥؛ أبو المحاسن: الدليل الشافي، ج١، ص١٦٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١ ق١، ص٢٨٨؛ إبراهيم عبد المنعم سلامة: جوانب من تاريخ مصر في عصر الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، ص٢٢٧.
- (٣٧) السناجق السلطانية: هي الأعلام والرايات التي تحمل خلف السلطان، والسليجدار مركب من لفظين: أحدهما فارسي وهو دار بمعنى ممسك، والثاني تركي وهو السنجق بمعنى الرمح أو اللواء أو العلم أو الراية (محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، ودار الفكر، دمشق، ١٩٩٠م، ص٩٣).
- (٣٨) ابن سباط: تاريخ ابن سباط المعروف بصدق الأخبار، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، جروس برس طرابلس، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، ج١، ص٣٥٥، ٥٥٩.
- (٣٩) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٢٣؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٤٣.
- (٤٠) العيني: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، حققه فهم محمد شلتوت، مراجعة محمد مصطفى زيادة، الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٣٠٥ - ٣٠٦؛ المؤيد: من اسم المفعول من الأيد، والمراد به المؤيد من الله تعالى، الذي يؤيده ويقويه، وأنه مؤيد من السماء يأتيه النصر من عند الله (حسن الباشا: الألقاب، ص٥٢٣).
- (٤١) الظاهر برقوق: هو أبو سعيد سيف الدين برقوق بن أنصي العثماني اليلبغاوي الجركسي اعلى العرش في وقت الظهيرة، يوم الأربعاء ٢٩ رمضان ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م (أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١، ص١٨١).

بالمحمودي نسبة إلى التاجر الذي أحضره من بلاد القفجاق، كذلك أطلق عليه الخليفة المستعين بالله لقباً آخر، بعد عزل الناصر فرج، ورفع الخليفة للسلطنة المملوكية - هو لقب: نظام الملك^(٤٢)، ولا بد أن نشير إلى أن المؤيد شيخ كان كريماً محباً للعلم والموسيقى والشعر، يجيد اللغة العربية، توفي سنة ٨٢٤هـ / ١٤٢١م^(٤٣)، وكانت كنيته التي تكتب على العملة في عهده أبو النصر^(٤٤) - هذا وقد اتخذ العديد من سلاطين المماليك كنية له باسم: أبي النصر. كما كانت ألقاب السيدة شجر الدر في الثمانين يوماً التي حكمت فيها مصر، هي السيدة المستعصمة، نسبة للخليفة المستعصم العباسي، الصالحية: نسبة إلى زوجها الصالح نجم الدين أيوب، ملكة المسلمين، والده الملك المنصور خليل - نسبة إلى ابنها الذي توفي وعمره أربعة أعوام، وصورة علامتها على المناشير والده خليل^(٤٥).

لقب المظفر:

ومن أول الألقاب التي اتخذها سلاطين المماليك في مصر لقب: المظفر، وأول من تلقب به: السلطان المظفر سيف الدين قطز؛ لانتصاره على المغول في موقعة عين جالوت^(٤٦)، والمظفر لقب يدل على النصر والظفر في المعارك؛ ولذلك عرف قطز بالمظفر سيف الدنيا والدين والدين قطز^(٤٧).

(٤٢) مؤرخ مجهول معاصر للسلطان قايتباي: تاريخ الأشراف قايتباي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م، ص ١٠٢.

(٤٣) علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م، ج ١، ص ١١٧؛ محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب باليماميز، المجلد الأول، ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م، ص ٤٧.

(٤٤) انستاسي ماري الكرمللي: النقود العربية وعلم النميات، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٩٣٩م، ص ١٣٨.

(٤٥) ابن سباط: تاريخ ابن سباط، ج ١، ص ٣٥١.

(٤٦) بييرس النودار: زبدة الفكرة، ص ٧١؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٨٤؛ الدليل الشافي، ج ٢، ص ٥٤٥؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، الطبعة الثالثة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٤م، ص ٢٨؛ إبراهيم سلامة: جوانب من تاريخ مصر، ص ٢٤٩.

(٤٧) ابن أبيك النوداري: كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق أورخ هارمان، طبعة القاهرة، ١٩٩١م، ج ٨، ص ٣٩؛

وممن تلقب من سلاطين المماليك بلقب المظفر: السلطان حاجي، الذي ألقب بالسلطان الملك المظفر زين الدين حاجي بن الناصر محمد، في جمادي الآخرة سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م^(٤٨)، وقد حضر الأمراء والخليفة العباسي والقضاة الأربعة من باب الستار بعد خلع الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد، ورفعوا أخاه حاجي، وأشهدوا الحضور على ذلك، ولقب بالملك المظفر حاجي وأركبوه بأبهة السلطنة والكل مشاة بين يديه حتى أجلسوه على سرير الملك، ونودي بسلطنته وحلف الأمراء له^(٤٩).

وقد اتخذ السلطان بيبرس الجاشنكير، لقب المظفر، فصار يطلق عليه السلطان الملك المظفر بيبرس المنصور العثماني، وذلك أثناء عزل السلطان الناصر محمد بن قلاوون وخروجه إلى الكرك، في سلطنته الثانية، ومن أهم أعمال المظفر بيبرس إنشاء الخانقاه المعروفة باسمه في القاهرة قبل توليه السلطنة، وقد عزل بعد سلطنته بعشرة شهور.

كذلك تلقب السلطان أحمد بن المؤيد شيخ بلقب: الملك المظفر، وكنى نفسه بأبي السعادات، وهو الذي لم يمكث في الحكم إلا قليلاً، حيث عزله أتابكه الأمير ططر وتولى الحكم من بعده^(٥٠).

لقب المنصور:

Aylon: Studies on the structure of the Mamluk Army Bulletin of school of orient and Africa studies (Gsoos III , 1954), P.P. 203, 228.

(٤٨) ابن دقماق: الجواهر الثمين، ص ٣٨٣؛ ابن حبيب: تنكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين وسعيد عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م، ج ١، ص ١٧-١٨؛ ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح بولس راديس، مطبعة باريس، المطبعة الجمهورية، ١٨٩٢م، ص ١١٢-١١٣؛ عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر-دراسة شاملة لنظم البلاط ورسومه، الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٢م، ج ٢، ص ٤٤.

(٤٩) ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل في نيل الدول، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١٢م، ق ١ ج ١، ص ١٣٢.

(٥٠) أبو المحاسن: الدليل الشافي، ج ١، ص ٤٩.

المنصور أي: المنصور من الله؛ لأن النصر من عند الله تعالى، أو تقاؤلاً بقوم النصر كصفة على الشخص، وهناك عدد من السلاطين المماليك الذين تلقبوا بهذا اللقب، من أولهم علي بن المعز أبيك، الذي لم يكن قد تجاوز سن الخامسة عشرة من عمره، وعين عليه الأتابك سيف الدين قطز، وذلك في ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م، وقد صار لقب علي: السلطان الملك المنصور نور الدين علي بن المعز^(٥١)؛ لأن المماليك لا يؤمنون بمبدأ وراثة العرش منذ عزله قطز، وتولى بدلاً منه في السلطنة.

ومن أشهر من تلقب بالمنصور: السلطان سيف الدنيا والدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي^(٥٢)، الذي اعتلى العرش خلفاً لأبناء الظاهر بيبرس السعيد بركة وبدر الدين سلامشي، وذلك في رجب ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م، وقد استمر في السلطنة فترة حوالي أحد عشر عاماً، حتى وفاته في ٦٨٩هـ / ١٢٨٩م، وكانت كنيته على السكة: أبو المعالي سلطان مصر^(٥٣)، وقد دقت البشائر لتوليته العرش، ونادى المنادون: بحي على الفلاح^(٥٤).

أما عن ألقاب قلاوون الأخرى التي اتخذها وعُرف بها فكان منها لقب: الألفي قبل سلطنته؛ نظراً لأنه اشترى من سوق النخاسة بمبلغ ألف دينار للملك الصالح نجم الدين أيوب، كذلك نسب إلى سيده فأطلق عليه: الصالحي؛ لهذا كان يطلق عليه لقب: السلطان الملك أبو المعالي^(٥٥) سيف الدين المنصور قلاوون الألفي الصالحي النجمي.

ومن السلاطين الذين لقبوا بالمنصور: السلطان حسام الدين لاجين، الذي اشترى الملك قلاوون ورياه ثم عتقه، وقد تسلطن بعد العادل كتبغا في ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م بعد عزل

(٥١) ابن أبيك الدوادري: كنز الدرر، ج٨، ص٣٣.

(٥٢) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص١٧٦.

(٥٣) ابن دقماق: الجواهر الثمين، ص٢٩٥؛ أبو الفداء: المختصر، ج٢، ص٣٥٦؛ أبو المحاسن: النجوم

الزاهرة، ج٧، ص٢٤٨؛ انستاسي الكرمللي: النقود العربية، ص١٣٨.

(٥٤) ابن أبيك الدوادار: كنز الدرر، ج٨، ص٣٣.

(٥٥) انستاسي ماري الكرمللي: النقود العربية، ص١٣٨.



الناصر محمد بن قلاوون - المرة الأولى^(٥٦) - وتلقب حسام الدين لاجين بلقب: المنصور، إلا إنه لم يستمر طويلاً، فقد قتل في ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م، على يد مملوكه: منكوتر - نائب السلطنة في القاهرة، وهو في قصره يلعب الشطرنج^(٥٧)، الذي شرط عليه عدة شروط، لم ينفذها؛ لذا وجب قتله^(٥٨).

كذلك يطالعنا السلطان سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد باتخاذ لقب: جده المنصور لقباً فخرياً له، وهو الذي خلف أباه الناصر محمد في ذي الحجة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م، قبل أن يتوفى بثلاثة أيام فقط؛ إذ عهد إليه بولاية العهد، ولكن فترة حكمه لم تتم أكثر من شهرين، بل لم تتعد تسعة وخمسين يوماً، وتم عزله، في صفر ٧٤٢هـ / ١٣٤١م، ولم يكن تجاوز عمره عشرون عاماً، وقد نفي إلى مدينة قوص بصعيد مصر هو وأخوته؛ بسبب تدخل الأمراء المماليك، وعلى رأسهم: الأمير قوصون الناصري^(٥٩).

وقد اتخذ أحد أحفاد قلاوون لقب: المنصور أيضاً، وهو: علاء الدين بن السلطان شعبان، الذي تسلطن في ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م، وعمره سبع سنين، والذي قلده الخليفة المتوكل على الله^(٦٠) السلطنة في قلعة الجبل، مع حضور القضاة الأربعة، وبالتبعية خلع السلطان

(٥٦) الناصر محمد بن قلاوون هو: أبو الفتوح محمد بن سيف الدين قلاوون، ولد بالقاهرة ٦٨٤هـ / ١٢٨٦م، وتولى السلطنة المملوكية ثلاث مرات، وتوفي ٧٤١هـ / ١٣٤٥م، وهي أطول فترة يحكمها سلطان مملوكي وحج ثلاث مرات إلى الأراضي الحجازية (المقريزي: الذهب المسبوك في نكر من حج من الخلفاء والسلاطين والملوك، الطبعة الأولى، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، ص ١٣٠؛ العيني: السيف المهند، ص ٢١١).

(٥٧) بيبيرس الدوادر: زيدة الفكرة، ص ٣٣٥؛ ابن أبيك الدوادي: كنز الدرر، ج ٨، ص ٢٣١؛ أبو المحاسن: الدليل الشافي، ج ٢، ص ٥٦٦.

(٥٨) ابن دقماق: الجواهر الثمين، ص ٣٢٣؛ ابن سباط: تاريخ ابن سباط، ج ١، ص ٥١٢.
(٥٩) اليوسفي: نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق أحمد حطيظ، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص ٥٧٠؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ١٣٠.

(٦٠) الخليفة المتوكل على الله: هو أبو عبد الله محمد بن المعتضد أبي بكر بن المستنفي سليمان بن الحاكم العباسي (ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج ٢، ص ٣٤٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٨٤).

المنصور علاء الدين على الخليفة خلعة فاخرة، وأنعم عليه بألف دينار، وهو ما أطلق عليه اسم: رسم المبايعة^(٦١)، التي كانت منحة للخليفة من قبل السلطان المعين.

لقب الظاهر:

ومن أهم الألقاب الفخرية التي اتخذها عدد من سلاطين المماليك، لقب الظاهر، وهي من الظهور، وقد أشار حسن الباشا^(٦٢) إلى أن هذا اللقب من الغلبة، ويُعد نعتاً خاصاً لبعض الخلفاء والملوك.

ومن أول من تلقب بالظاهر من سلاطين المماليك: السلطان بيبرس -رابع حكام مصر من المماليك- في ٦٥٨هـ / ٩٧٦م^(٦٣)، وقد قرن هذا اللقب بكنيته: أبي الفتوح، وقد كان قبل سلطنته يُلقب على اسم أستاذه الذي اشتراه من تجار النخاسة وهو: الأمير علاء الدين البندقداري؛ لذا عُرف بيبرس: بالسلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس بن عبد الله البندقداري الصالحي النجمي الأيوبي التركماني^(٦٤)، نسبة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، الذي اشتراه ورباه في قلعة الروضة، وصار لقب الصالحي ملصقاً باسمه طوال فترة حكمه، التي استمرت قرابة سبعة عشر عاماً، حتى وفاته في ٦٧٦هـ / ١٢٧٢م، بعد

(٦١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٦٢.

(٦٢) الألقاب الإسلامية، ص ٣٨٣.

(٦٣) ابن دقماق: الجواهر الثمين، ص ٢٧١؛ قيل إن بيبرس تلقب في بداية أمره بلقب القاهر، ولكن غير لقبه إلى الظاهر تشائماً منه؛ ولأن بعض مستشاريه نهاه عن ذلك؛ لأنه لم يفلح أحداً من الحكام تلقب به (أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٨٦؛ الدليل الشافي، ج ١، ص ٢٠٣).

(٦٤) المقرئ: الذهب المسبوك، ص ١١٥.

تأديته فريضة الحج^(٦٥). ولا بد أن نشير إلى أن بيبرس عند اعتقاله السلطنة ركب بشعار السلطنة على رأسه، وأظهر المهابة، وشق مدينة القاهرة، وقد زخرفت بالزينة؛ نتيجة لانتصار قطز على المغول، الذي قتل في الصالحية على يد بيبرس نفسه، كما نثر الدنانير والدرهم، وفرق الخلع على الأمراء والمقدمين والمتعممين، على تفاوت أقدارهم، وكتب إلى صاحب المغرب واليمن وملوك الشام وثور الإسلام، بما قدر الله له من علو^(٦٦).

ومن أشهر من تلقب بالظاهر من سلاطين الجراكسة، السلطان نظام الملك أبو سعيد سيف الدين برقوق^(٦٧)، الذي قيل إنه تلقب بهذا اللقب؛ لأنه تولى العرش في وقت الظهيرة، وقد ضرب برقوق العملة باسمه وعلى أحد وجهيها: السلطان الظاهر سيف الدنيا والدين عز الله أنصاره، وعلى الوجه الآخر: وما النصر إلا من عند الله، لا إله إلا الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله^(٦٨).

استمر السلطان برقوق في الحكم من ٧٨٤هـ / ١٣٨١م حتى ٨٠١هـ / ١٣٩٩م^(٦٩)، فيما عدا الفترة التي نفي فيها إلى الكرك، وكان حازماً شهماً، كثير الصدقات، خاصة في أثناء تأديته فريضة الحج، استكثر من المماليك الجراكسة^(٧٠).

كذلك تلقب السلطان ططر من مماليك الجراكسة بلقب: الظاهر، فصار اسمه: الملك سيف الدين أبو الفتح ططر الظاهري، وكانت كنيته: أبي الفتح^(٧١)، ولكونه من مماليك الظاهر برقوق؛ لذا أطلق عليه الظاهري، ويُعد رقم ثلاثون من المماليك من بداية دولتهم،

(٦٥) أبو الفداء: المختصر في أخبار، ج ٢، ص ٣١٧؛ المقرئ: المصدر السابق، ص ١١٦ - ١١٧؛ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص ١٥٠.

(٦٦) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ٨٣.

(٦٧) ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ٤ أجزاء، تحقيق حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٠م، ج ١، ص ٣٣.

(٦٨) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٩٨؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية، ج ١، ص ١٢١.

(٦٩) أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ١١، ص ١٨١.

(٧٠) أبو المحاسن: مورد اللطافة، ص ٩٨.

(٧١) أبو المحاسن: الدليل الشافي، ج ١، ص ٣٦٣.

والسادس من ملوك الجراكسة^(٧٢)، وقد تسلطن بعد خلع: المظفر أحمد بن المؤيد شيخ من العرش في ٨٢٤هـ/٤٢١م، إلا إنه لم يستقر طويلاً في السلطنة، بل مكث ثلاثة أشهر فقط، ثم توفي في العام نفسه في ذي الحجة، وتسلطن من بعده ولده: الملك الصالح محمد بن ططر^(٧٣).

ويُعد السلطان جقمق^(٧٤) من أشهر من تلقب: بالظاهر في عصر سلاطين المماليك الجراكسة؛ إذ اعتلى العرش في ٨٤٢هـ/٤٣٨م، باتفاق الأمراء والأعيان، وهو الرابع والثلاثون من ملوكهم، والعاشر من ملوك الجراكسة، وقد توفي في صفر ٨٥٧هـ/٤٤٣م^(٧٥). وقد اتخذ جقمق لقب أستاذه برقوق، فصار لقبه: السلطان الملك سيف الدين أبو سعيد محمد جقمق العلاني الظاهري، والعلاني نسبة إلى أستاذه الذي اشتراه من تجار النخاسة: العلاني على بن اينال اليوسفي، الذي أهدها إلى برقوق، فصار من جملة المماليك^(٧٦).

(٧٢) ابن لياس: بدائع الزهور، ج ١٥، ص ٣٢.

(٧٣) أبو المحاسن: الدليل الشافي، ج ١، ص ٣٦٣؛ مجهول: تاريخ الأشرف قايتباي، ص ١١٧؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج ٢، ص ٤٩٧.

(٧٤) الظاهر جقمق: جلب إلى الديار المصرية، ورياه الأمير اينال اليوسفي في منزله، ثم انتقل إلى السلطان الظاهر برقوق، وتولى عدة مناصب إدارية منها: الحجوبية، وأمير أخور، وأمير سلاح، وأمير كبير، إلى أن جعله الأشرف برسباي وصياً على ولده ومدبر مملكته، فخلعه جقمق واستدعى الخليفة العباسي القضاة الأربعة وجميع الأمراء وأعيان المملكة، وتكلم معهم في عدم أهلية الملك العزيز يوسف بن جقمق للحكم والسلطنة، فخلع وفض بدلاً منه بالسلطنة ودقت له البشائر في القاهرة لذلك (ابن الصيرفي: المصدر السابق، ج ٤، ص ١٧-١٨).

(٧٥) ابن الصيرفي: المصدر السابق والجزء، ص ١٧.

(٧٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ٣٢؛ السيوطي: نظم العقيان في أعيان الأعيان وتراجم مشاهير القرن التاسع الهجري في مصر وسوريا، تعليق فيليب حتى، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٢٧ م، ص ١٠٣.

ومن سلاطينهم في العصر الثاني السلطان خشقدم^(٧٧)، الذي تلقب بالظاهر أيضاً، الذي تسلطن في شهر رمضان سنة ٨٦٥ هـ / ١٤٦١ م، وهو السلطان الملك الظاهر أبوسعيد سيف الدين خشقدم بن عبد الله الناصري المؤيد^(٧٨)، وكذلك اتخذ من لقب الناصر لقباً له، حيث إنه كان من مماليك الناصر فرج بن برقوق، وقد استمر في الحكم حتى ربيع الأول ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م، بعد أن تسلطن ستة أشهر ونصف^(٧٩).

ولا يفوتنا أن نلفت النظر إلى اتخاذ سلطانين مملوكين خلفاً للظاهر خشقدم اللقب الفخري نفسه، وهما: السلطان الظاهر يلباي^(٨٠)، والظاهر تمرغا، اللذان توليا خلفاً لخشقدم، ولم يغيرا لقبهما؛ لذا كان لقب الظاهر على ثلاثة سلاطين متتالين.

يُعد الظاهر تمرغا من مماليك الظاهر جقمق، وهو الملك الظاهر المقر السيفي تمرغا أبو سعيد^(٨١)، تولى السلطنة لمدة ثمانية وخمسين يوماً^(٨٢)، وثار عليه مماليكه والأمراء، وخلع من السلطنة لذلك. ومن ثم، سلطن المماليك: الأمير خير بك الذي اتخذ اللقب الفخري نفسه: الملك الظاهر، والذي لم يمكث في العرش سوى ليلة واحدة^(٨٣)؛ لذا أطلق عليه:

(٧٧) الظاهر خشقدم: تولى عدة مناصب منها: السقاية، وصاحب الحجاب، ثم أمير سلاح، حتى صار أتابك العساكر في دولة المؤيد أحمد بن إينال إلى أن تسلطن ولقب بالظاهر (أبو المحاسن: الدليل الشافي، ج ١، ص ٢٨٦).

(٧٨) السيوطي: نظم العقيان، ص ١٠٩.

(٧٩) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢، ص ٤٥٥؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية، ج ١، ص ١٢٣.

(٨٠) الظاهر يلباي المؤيدي: نسبة إلى المؤيد شيخ المحمودي، تدرج يلباي في عدة وظائف إدارية حتى صل إلى أتابك العسكر في عهد خشقدم، ثم تولى السلطنة بعد وفاة سيده، ولكنه لم يكن قادراً على تدبير أمور الدولة، فاستمر فترة قصيرة وعزل وسجن في الأسكندرية، حتى وفاته بمرض الطاعون (أبو المحاسن: مورد اللطافة، ج ٢، ص ١٧٧؛ السيوطي: نظم العقيان، ص ١٧٨؛ السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن السابع، تحقيق نجوى مصطفى وليبيب إبراهيم، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٢ م، ج ١٠، ص ٢٨٨).

(٨١) مؤرخ مجهول: تاريخ الأشرف قايتباي، ص ١٨٣؛ السيوطي: المصدر السابق، ص ١٠٢.

(٨٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣، ص ٤٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٩٠.

(٨٣) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ١٨٦.

سلطان ليلة، ومن ثم، سيطر أتابك العسكر: الأمير قايتباي على السلطة والنفوذ في دولة المماليك.

ويُعد الملك أبوسعيد قانصوه بن قانصوه في سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م، آخر من تلقب بلقب الظاهر. وهو من مماليك الأشرف قايتباي، ولكنه خلع عن العرش بعد سنة واحدة من حكمه^(٨٤).

لقب الأشرف:

من الألقاب الفخرية التي اتخذها عدد من سلاطين المماليك لقب الأشرف، وقد أشار القلقشندي^(٨٥) إلى أن الأشرف أرفع من الشريف؛ لأنه فعل تفضيل؛ لذا اتخذ عدد من سلاطين دولة المماليك الأولى والثانية. وأول من تلقب بهذا اللقب: السلطان خليل بن المنصور قلاوون، الذي صار لقبه: الملك الأشرف صلاح الدنيا والدين خليل، وقد جلس على العرش في ٧ ذي القعدة ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م؛ إذ مهد له والده العهد من بعده، بالرغم من إبداء قلاوون تردده في ذلك في بادئ الأمر^(٨٦)، وقد اتصف الأشرف خليل بالشجاعة والهمة والكرم، وكان ملكاً جليلاً سمحاً جواداً قام بفتح مدينة عكا واستردها من يد الصليبيين في بلاد الشام^(٨٧)، ولكنه قتل أثناء رحلة صيد بالقرب من الإسكندرية في محرم ٦٩٣هـ / ١٢٩٤م، وخلفه أخيه الناصر محمد^(٨٨).

وممن تلقب بالأشرف من أبناء الناصر محمد: السلطان كحك، فأطلق عليه الملك الأشرف علاء الدين كحك^(٨٩)، وذلك بعد خلع الأمير: قرصون أخاه: المنصور أبا بكر في

(٨٤) ابن ياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٤٠٤؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية، ج ١، ص ١٢٩.

(٨٥) صبح الأعشى، ج ٦، ص ٨؛ حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ص ١٦١.

(٨٦) بيبرس الدودار: زبدة الفكرة، ص ٢٨٨؛ ابن أبيك الدوداري: كنز الدرر، ج ٨، ص ٣٠٣؛ المقرئ: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١٥٠؛ محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، ج ١، ص ٣٠.

(٨٧) ابن أبيك الدوداري: كنز الدرر، ج ٨، ص ٣٠٨.

(٨٨) ابن حبيب: تنكرة النبيه، ج ٢، ص ٣٢٥؛ أبو المحاسن: الدليل الشافي، ج ١، ص ٣٩٢ - ٣٩٣؛ ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ج ١، ق ١، ص ١١٦.

(٨٩) مؤرخ مجهول: تاريخ الأشرف قايتباي، ص ٦٨.

١٣٤١ هـ / ١٣٤١ م، وكان عمره حين تسلطن ثمان سنوات^(٩٠)، ولم تتجاوز فترة سلطنته خمسة شهور؛ إذ عُرِلَ بأخيه الناصر أحمد، وقد استمر الأشرف كحك مخلوعاً حتى وفاته في ١٣٤٥ هـ / ١٣٤٥ م، في عمر لا يتجاوز الاثني عشر عاماً.

ومن أفراد أسرة آل قلاوون تسلطن: الملك شعبان بن حسين، في ٧٦٤ هـ^(٩١)، بعد خلع عمه: المنصور محمد بن مظفر حاجي، واتخذ لقباً فخرياً الأشرف^(٩٢)، وكني: بأبي المفاخر ملك مصر؛ فصار يطلق عليه: الملك الأشرف أبو المفاخر زين الدين شعبان، وكان عمره حينئذ عشرة أعوام، وفي شعبان ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م، قصد بلاد الحجاز لتأدية فريضة الحج، وتحرك ركبته إلى ميناء العقبة، إلا إن الأمراء وعلى رأسهم: الأمير طاشتمر الدوادر^(٩٣)، عصوه وحاولوا قتله، ففر منهم إلى القاهرة، وقد انتهى أمره بالقتل^(٩٤)، وتسلطن من بعده ابنه: الأمير علي، الذي لُقِبَ بالملك المنصور، والذي لم يكن له من السلطنة إلا اسمها^(٩٥).

أما عن تلقب بلقب الأشرف في دولة الجراكسة من سلاطين المماليك، فيأتي في مقدمتهم: السلطان برسباي، الذي كان يكنى: بأبي النصر الدقماقي الظاهري، نسبة إلى

(٩٠) أبو الفداء: المختصر في أخبار، ج ٢، ص ٣٩؛ المقرئزي: السلوك، ج ٢ ق ٣، ص ٥٧١.

(٩١) ابن حبيب: تنكرة النبيه، ج ٣، ص ٢٦.

(٩٢) ابن حجر: أنباء الغمر، ج ١، ص ٤؛ مؤرخ مجهول: تاريخ الأشرف، ص ٧٦.

(٩٣) ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص ٤٠٩؛ الدوادر: كلمة مكونة من مقطعين "دواه" أي الدواة، و"دار" أي ممسك، ومعناها: ممسك الدواة، ويطلق على هذه الوظيفة اسم: الدوادية، ويقوم صاحبها بإبلاغ رسائل السلطان، ويقدم القصص والشكايا إليه، وتُعد وظيفة الدوادر من الوظائف الإدارية العامة في مصر، فهي في المرتبة الرابعة من الوظائف العسكرية (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٢؛ ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١١٤؛ محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص ٧٧؛ عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم، ج ٢، ص ٩؛

Dazy: Supplement aux dictionnaires Arabes (Liedes Brill, 1967), Vol , 2 , P. 469).

(٩٤) المقرئزي: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، بغداد، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م، ج ١، ص ٨٨؛ المقرئزي: الذهب المسبوك في ذكر من حج، ص ١٤٨.

(٩٥) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ج ١، ص ١٩٥؛ ابن سباط: تاريخ ابن سباط، ج ٢، ص ٧٢١.

الأمير الذي اشتراه من تجار الرقيق المسمى: الأمير دقماق المحمدي الظاهري^(٩٦)، تولى برسباي العرش بعد خلعه للملك الصالح محمد بن الظاهر ططر، ولما تسلطن الأشرف برسباي حضر الخليفة المعتضد العباسي وركب وعلى رأسه القبة والطير، ودخل القصر ونصب له تخت في القصر الكبير فجلس عليه، وتقدم الأمراء لتهنئته، وأرادوا أن يقبلوا الأرض، فمنعهم من ذلك فقبلوا يده^(٩٧). وقد ظل في السلطنة حتى وفاته في ١٣ ذي الحجة ٨٤١هـ / ١٤٣٥م، حيث تسلطن ابنه: الملك العزيز يوسف، وكان قد عهد إليه في حياته، وأوكل إلى الأمير جقمق العلاني بالأتابكية وإدارة مملكته، والذي ما لبث أن خلع وحبس في الإسكندرية حتى وفاته في ربيع الآخر ٨٦٨هـ / ١٤٦٤م^(٩٨).

كذلك تلقب السلطان إينال العلاني باللقب الفخري: الأشرف في فترة سلطنته، بعد مبايعته في ٨ ربيع الأول ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م، عقب عزل الملك المنصور عثمان بن جقمق عن العرش، وقد استمر الأشرف إينال حتى جماد الأول ٨٦٥هـ / ١٤٦١م^(٩٩)، وعُرف في سلطنته باسم: إينال الأجرود، وكان قد تنقل في عدة مناصب إدارية قبل سلطنته، منها: نيابة غزة والرها، ثم ولاية صفد، ثم أعيد مقدماً إلى القاهرة، ثم صار دوادار، وقد ولاه الظاهر جقمق الدوادارية الكبرى، ثم صار أتابكاً للعسكر^(١٠٠).

ويُعد السلطان قايتباي من أشهر سلاطين المماليك تلقباً بلقب: الملك الأشرف، وكني: بأبي النصر^(١٠١)، وهو الذي بويع بالسلطنة في رجب ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م^(١٠٢)، ولقب بالأشرف مثل: أستاذه الذي اشتراه الخواجه محمود بن رستم المحمودي؛ لذا كان يُلقب قبل

(٩٦) المقرئزي: درر العقود، ج١، ص٤٥٦.

(٩٧) ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص٦.

(٩٨) مؤرخ مجهول: تاريخ الأشرف قايتباي، ص٨١؛ أبو المحاسن: الدليل الشافي، ج١، ص١٨٦؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٨١.

(٩٩) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص٣٥.

(١٠٠) أبو المحاسن: الدليل الشافي، ج١، ص١٧٥؛ السيوطي: نظم العقيان، ص٩٣؛ ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق٦ ج٢، ص١٠٢.

(١٠١) انستاسي ماري الكرمللي: النقود العربية، ص١٣٨.

(١٠٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص٣٣٤.



سلطنته: بالمحمودي، كما كان يُلقب بالظاهري نسبة: للظاهر جقمق، الذي أعتقه وجعله خاصكياً^(١٠٣)، ثم صار داودار وارتقى إلى الشرايخانة^(١٠٤) في عهد خشقدم، ووصل إلى أتابكية العساكر في عهد الظاهر تمرغا، ومن هنا نرى أنه تنقل في عدة وظائف إدارية كبيرة قبل أن يصل إلى السلطنة المملوكية.

بويق الأشرف قايتباي بالسلطنة بحضور الخليفة المستنجد العباسي والقضاة الأربعة، ففوضوا إليه العرش، واستمر حتى وفاته في ٩٠١هـ / ١٤٩٥م، عندما عهد في حياته إلى ابنه محمد من بعده^(١٠٥).

وممن تسلطن ولقب بلقب: الأشرف، وكني: بأبي النصر أيضاً، السلطان جان بلاط، الذي يرجع أصله إلى الأمير دولات باي، نائب ملطية، والذي قدمه للأمير يشبك من مهدي^(١٠٦)،

(١٠٣) الخاصكية: هم جماعة من حاشية السلطان في أوقات فراغه وفي خلوته، يأتون في ترتيب البروتوكول المملوكي بعد الأمراء المقدمين، وكان عددهم في بداية العصر المملوكي أربعة وعشرين، ثم زادوا حتى صاروا أربعين خاصكياً، وقد تمتعوا بمكانة كبيرة في الدولة (سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٤١٨).

(١٠٤) شد الشرايخانة: البيوت التي توضع فيها الأسرية والعقاير وغيرها، ولها مهتار وعنده شرايدارية، فضلاً عن الأواني النفيسة المصنوعة من الصيني الفاخر وحفظ قوالب الثلج (ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١٤٤؛ عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ج ٢، ص ١٩).

(١٠٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٦، ص ٢٠١-٢٠٢؛ ابن سباط: تاريخ، ج ٢، ص ٩٠٩.

(١٠٦) الأمير يشبك من مهدي: يُعرف بالصغير، وهو يشبك من مهدي الظاهر جقمق، نفي إلى قوص بصعيد مصر في سلطنة الأشرف إينال، ثم أعيد و صار دودار صغير، وأرسله الظاهر خشقدم كاشفاً للوجه القبلي، ثم نائباً عنه في الصعيد، وأنعم عليه بإمرة عشرة في ٨٧١هـ / ١٤٦٦م، ولما تسلطن الأشرف قايتباي أصبح الأمير يشبك دودار كبير، وكاشف الوجه القبلي وعدة وظائف أخرى، واشترك في تجريدة عسكرية لمحاربة شاه سوار، وقد أوقف الأمير يشبك أوقافاً كثيرة على فقراء الجامع الأزهر، وعمل سبيل ومدرسة وحوضاً ومغسلاً للأموات ومكتباً لتعليم الأيتام، وحفر بئراً عميقاً، يعلوه أربع سواق وحوض كبير (ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ج ٢، ق ٦، ص ٣٩٥؛ ابن أجا: العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك من مهدي اللودار، تحقيق محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص ١٧٤؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٢٧٢-٢٧٣؛ محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر دراسة تاريخية وثائقية، دار النهضة العربية بالقاهرة، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ١٣٦).

الذي اعتقه وجعله خاصكياً، ثم دودار صغير إلى أن تزوج من ابنة السلطان إينال بما أهله لتولي السلطنة المملوكية، إلا إنه سرعان ما تأمر عليه الأمراء؛ فعزلوه عن العرش^(١٠٧).

وممن تلقب بلقب الأشرف: السلطان قانصوه الغوري، الذي تولى الدوادية الكبرى في دمشق، ثم صار سلطاناً للديار المصرية في شوال ٩٠٦هـ / ١٥٠١م، وقد تجاوز من العمر ستين عاماً، وكان كارهاً لهذا المنصب، وتم تنصيبه بحضور الخليفة المستمسك العباسي وقاضي القضاة^(١٠٨)، واستمر في السلطنة فترة طويلة، حتى قُتل في موقعة: مرج دابق ببلاد الشام أمام السلطان سليم الأول العثماني^(١٠٩).

وفي حقيقة الأمر، فإن قانصوه الغوري كان من مماليك الأشرف قايتباي، واعتقه؛ فصار من المماليك الجمدارية^(١١٠)، وتولى عدة مناصب إدارية منها: كشف الوجه القبلي، ونيابة طرسوس من ثغور الشام، ثم نيابة ملطية^(١١١).

أما عن آخر سلاطين المماليك: السلطان طومان باي، الذي تسلطن في ٩٢٢هـ / ١٥١٦م، وتلقب: بالملك الأشرف طومان باي، وكنى: بأبي النصر، فعلى الرغم من أنه حكم فترة قليلة يشوبها حصار العثمانيين إلا إن الرعية والجنود أطاعوه وساس الناس أحسن سياسة^(١١٢)، ولما وصل خبر مقتل السلطان الأشرف قانصوه الغوري في مرج دابق، رفع الأمراء نائب الغيبة طومان باي على السلطنة، إلا أن السلطان سليم الأول أنزل به الهزيمة في موقعة: الريدانية بالقاهرة، وتم شنقه على باب زويلة^(١١٣).

(١٠٧) السخاوي: المصدر السابق، ج٣، ص ١٦١.

(١٠٨) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص ٤.

(١٠٩) ابن أجا: العراك، ص ٢١١؛ ابن سباط: تاريخ ابن سباط، ج٢، ص ٩١٦.

(١١٠) الجمدارية: كلمة فارسية مركبة بمعنى من يتصدى لإلباس السلطان، وكان تحت يديه جماعة من الخاصكية، وشعاره البقجة وهي: حافظة الملابس (عبد المنعم ماجد: نظم دولة، ج٢، ص ٤٨).

(١١١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص ٤ - ٦.

(١١٢) ابن سباط: تاريخ ابن سباط، ج٢، ص ١٥؛ محمود رزق سليم: عصر سلاطين، ج١، ص ٦٢.

(١١٣) لقد تدرج طومان باي في عدة وظائف إدارية حتى وصل إلى دودار كبير في ٩١٤هـ / ١٥٠٩م، في عهد الأشرف قانصوه الغوري بدلاً من الأمير شرف الدين يونس النابلسي، ثم أضيف إليه الاستدارية ونظر دور السلطان وقصوره، وقد أنعم عليه السلطان بإمرة عشرة ثم بإمرة طبلخاناه، وجعله شاد الشرايخاناه في ٩١٣هـ /

ومما سبق يتضح أن عددًا غير قليل من سلاطين المماليك يتعدى سبعة سلاطين في دولة الجراكسة قد تلقبوا بلقب: الأشرف، وكنوا: بأبي النصر.

لقب الناصر:

اتخذ عددًا لا بأس به من سلاطين المماليك في العصرين المملوكي لقب: الناصر، وهو يقصد به الناصر لدين الله، وقد دخل لفظ ناصر في تكوين كثير من الألقاب المركبة، مثل: ناصر الإسلام، وناصر الإمام، وناصر أمير المؤمنين^(١١٤)، واستخدم لقب: ناصر الدنيا والدين، ومن أول من تلقب به: محمد بن قلاوون، الذي صار لقبه الفخري: الملك الناصر ناصر الدين أبو المعالي وأبو الفتوح وأبو السلاطين محمد بن المنصور قلاوون^(١١٥) الصالح، وكني: بأبي المعالي وأبي الفتوح وأبي السلاطين^(١١٦)، وقد ذكر بيبرس الدوادار^(١١٧) عدة ألقاب هي: الملك الناصر نجل الملوك الأكابر ووارث الأسرة والمنار ناصر الدنيا والدين، قسيم أمير المؤمنين محمد، ولد مولانا السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالح، أعز الله نصره وسقي سلفه ونور قبره، وأطال في الملك الشريف عمره".

١٥٠٧م، وولاه نيابة الغيبة عند خروجه لحرب سليم الأول العثماني (ابن إياس: بدائع الزهور، ج٥، ص١٠٢).

(١١٤) حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ص٥٢٥.

(١١٥) ابن دقماق: الجواهر الثمين، ص٣١٦.

(١١٦) ولد الناصر محمد في القاهرة، وكان أبوه قلاوون يحاصر حصن المرقب، في ٦٨٤هـ/ ١٢٩٣م، وجلس على كرسي العرش بعد قتل أخيه الملك الأشرف خليل في محرم ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م، وعمره تسع سنوات، وقد تولى حكم مصر ثلاث مرات، وعزل في المرة الأولى بالعادل كتبغا سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م، وتوجه إلى الكرك وأقام بها، ثم أعيد بعد مقتل الملك المنصور لاجين في ربيع الآخر ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م، ودام في الملك حتى تغلب عليه الأمراء سلاز وبيبرس الجاشنكير، فأظهر التوجه إلى الأراضي الحجازية، ولكنه ذهب إلى الكرك، وعزل نفسه في رمضان ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م، وبذلك تسلطن المظفر بيبرس الجاشنكير، وفي ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، بدأت سلطنته الثالثة، واستمر حتى وفاته بالسلطنة سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م (أبو المحاسن: الدليل الشافي، ج٢، ص٦٧٥).

(١١٧) زبدة الفكرة، ص٣١٥.

وكان الناصر محمد ملكاً جليلاً مهيباً نكباً عارفاً جيداً ساس الملك، وكان عالي الهمة، حسن الرأي والتبدير، مُحباً للخيل والرقيق والعمارة، وأثناء تأديته فريضة الحج في ٧١٧هـ / ٣١٣م، توجه إلى دمشق، وصلى بالجامع الأموي جمعيتين، وقرر القواعد بها، ثم عاد إلى القاهرة^(١١٨).
ومن أبناء الناصر محمد وأحفاده اتخذ بعضهم لقب: الناصر، ومنهم: الناصر ناصر الدين محمد بن الناصر محمد، الذي تولى في ٦ شوال ٧٤٢هـ / ١٣٤١م^(١١٩)، وذلك بعد خلع الأشرف علاء الدين كحك من السلطنة، وجلس بدلاً منه^(١٢٠)، وقد زينت له القاهرة عشرين يوماً، أما باقي البلاد المصرية، فقد زينت سبعة أيام، ودقت له البشائر، وسر الناس في جميع الولايات بسلطنته^(١٢١).

كما أطلق لقب الناصر على: السلطان أحمد بن الناصر محمد؛ إذ أطلق عليه: الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد، تولى في شعبان ٧٤٢هـ / ١٣٤١م، وخُلع عن العرش في ١٢ محرم ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م؛ فكانت مدة جلوسه على العرش خمسة أشهر واثنين وعشرين يوماً، وكان لقبه: الناصر، وكنيته: شهاب الدين^(١٢٢).

ومن أسرة آل قلاوون تلقب أيضاً: السلطان حسن، بلقب الناصر، وهو لقب: والده الناصر محمد، وكني: بأبي المحاسن وأبي المعالي^(١٢٣)، ويُعد الناصر حسن السابع من سلاطين المماليك من الأسرة القلاوونية، عقب أخيه المظفر حاجي، في ١٣ رمضان ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م، وله من العمر ثلاث عشرة سنة^(١٢٤)، وقد دقت البشائر بسلطنته، وقد قلده الخليفة الحاكم بأمر الله العرش، وركب من باب الأدر الشريفة والأمراء في خدمته إلى الديوان، ثم عزل في ٧٥٢هـ / ١٣٥١م؛ لاختلاف الأمراء عليه، واجتماعهم على أخيه:

(١١٨) ابن حبيب: تنكرة النبيه، ج٢، ص ٥٤٠.

(١١٩) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٤٩٥.

(١٢٠) مؤرخ مجهول: تاريخ الأشرف قايتباي، ص ٦٨؛ محمود رزق سليم: عصر المماليك، ج١، ص ٣٥.

(١٢١) ابن حبيب: تنكرة النبيه، ج٣، ص ٢٧.

(١٢٢) مؤرخ مجهول: تاريخ الأشرف قايتباي، ص ٦٩ - ٧٠.

(١٢٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص ١٤٥؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ق١، ج١، ص ١٥٥.

(١٢٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٥١٩.



الصالح صالح، والذي لم يستمر طويلاً، حيث عزل في ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م، وأعيد الناصر حسن من جديد إلى العرش^(١٢٥)، ولم يحاول تغيير لقبه بل استمر عليه، طوال تسع سنوات وعشرة شهور قضاها على العرش، حتى قتل بعد أن وثب عليه مملوكه: الأمير يلبيغا الغمري الخاصكي الناصري، وطرحه قتيلاً^(١٢٦).

أما في العصر المملوكي الثاني، فقد اتخذ اثنان من سلاطينهم لقب: الناصر، أولهما: فرج بن برقوق^(١٢٧)، وهو: الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج بن الظاهر برقوق الجاركسي الأصل المصري المنشأ، جلس على العرش بعهد من أبيه في شوال ٨٠١هـ / ١٣٩٩م، وجعل الأمير أيتمشي البجاشي مديراً لملكه، وتمت مبايعته بحضور الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة، وسائر الأمراء الكبار والصغار، وقد حلف الأمراء له بالولاء^(١٢٨)، وقد استمر الناصر فرج في عرشه حتى عزل في ربيع الأول ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م، واختفى في القاهرة، وأقام الأمراء المماليك أخاه عبد العزيز مكانه، وتلقب: بالمنصور، وقد استمر الناصر فرج مختفياً حتى جمادى الأولى من العام نفسه، ثم عاد إلى السلطنة، واستمر حتى ثار عليه الأمراء في دمشق، على رأسهم: الأمير شيخ والأمير نوروز الحافظي، وتم قتله في ١٦ صفر ٨١٥هـ / ١٤١٢م، ورفع الخليفة العباسي المستعين بالله مكانه في السلطنة، إلى أن تمكن الأمير شيخ من الصعود للعرش^(١٢٩).

أما آخر من تلقب بلقب الناصر في عصر المماليك الجراكسة، فإنه: السلطان محمد بن الأشرف قايتباي، وهو السلطان الوحيد من مماليك العصر الثاني المملوكي الذي تلقب بلقبين في فترة سلطنته، اللقب الأول هو: الملك الناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد بن أبي

(١٢٥) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣، ص١٠٢؛ ابن دقماق: الجواهر الثمين، ص٣٨٦؛ ابن سباط: تاريخ ابن سباط، ج٢، ص٧٠٢، ٧١١؛ محمود رزق سليم: عصر سلاطين، ج١، ص٣٨.

(١٢٦) المقرئزي: السلوك، ج٣ ق١، ص٦٠؛ أبو المحاسن: الدليل الشافي، ج١، ص٢٦٨.

(١٢٧) فرج بن برقوق: ولد أثناء صراع والده مع الأمير منطاش، فأطلق عليه اسم بلغان ومعناها فتنة، ولما انتصر برقوق سماه فرجاً تقاولاً بذلك النصر، وقد تولى العرش وعمره عشر سنوات (السخاوي: الضوء اللامع، ج٤، ص١٦٨).

(١٢٨) المقرئزي: درر العقود، ج٣، ص١٧؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج١، ص٤٩٤.

(١٢٩) أبو المحاسن: الدليل الشافي، ج٢، ص٥٢٠.

النصر قايتباي، وكانت كنيته: أبو السعادات، واللقب الثاني هو: لقب والده الملك الأشرف، حيث تلقب بالملك الأشرف محمد، عند مبايعته في ١٤٩٥ هـ / ١٤٩٥ م، عقب وفاة والده^(١٣٠).

لقب العادل:

ومن الألقاب الفخرية التي تلقب بها سلاطين المماليك في مصر لقب السلطان العادل، وهو من أعلى الصفات؛ لأنه بالعدل تعمر الممالك، وقد ورد هذا اللقب كصفة عامة للسلاطين على بعض نقوشهم، وكانت النسبة إليه: العادلي^(١٣١).

ويُعد السلطان: بدر الدين سلامشي بن الظاهر بيبرس أول من تلقب بهذا اللقب، فهو الملك العادل سلامشي^(١٣٢)، وذلك عقب عزل أخيه السعيد بركة، وكان الوصي عليه الأمير قلاوون الصالحي في ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م، إلا إنه لم يستمر في العرش أكثر من خمسة شهور، فقد نزع قلاوون العرش منه، ورفع نفسه بدلاً منه.

كذلك اتخذ السلطان كتبغا لقباً فخرياً هو: العادل، وذلك عقب خلع الناصر محمد، في محرم ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م، وقد كني: بزّين الدين^(١٣٣)، إلا إنه تلاثى أمره برفع المنصور لاجين؛ لذا طلب العادل كتبغا الأمان لنفسه، فأمنه في ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م، وكان ديناً خيراً شجاعاً^(١٣٤)، وقد أشار بيبرس الدوادر^(١٣٥) إلى أنه في أثناء تولية السلطنة لكتبغا خرج من دار النيابة التي كان بها مقيماً، وركب فرس النوبة، ودخل من باب القلعة راكباً، ونقش السكة باسمه. ولم يستمر العادل كتبغا -الذي كان في الأصل من العنصر المغولي ووقع أسيراً في يد المنصور قلاوون في حصار حمص-، بل عزله المنصور لاجين في ١٧ شوال ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م، وخرج طالباً الشام^(١٣٦)، وقد قيل في ذلك:

يا ظالماً لقب العادل
وناقصاً لقب بالكامل^(١٣٧)

(١٣٠) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

(١٣١) حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ص ٣٨٨.

(١٣٢) ابن دقماق: الجواهر الثمين، ص ٢٩٣.

(١٣٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١ ق ١، ص ٣٤٧.

(١٣٤) بيبرس الدوادر: زبدة الفكرة، ص ٣٢٣.

(١٣٥) أبو المحاسن: الدليل الشافي، ج ٢، ص ٥٥٤.

(١٣٦) زبدة الفكرة، ص ٣٢٢ - ٣٢٥.

وقد منحه المنصور لاجين ولاية صرخد ليعيش بها^(١٣٨).
أما عن آخر سلطان مملوكي تلقب بالعدل، فهو طومان باي - ليس آخر سلطان للمماليك -، إنما هو تسلطن في بلاد الشام في مدينة دمشق في جمادي الآخرة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م، ثم انتقل إلى القاهرة، ولقب نفسه بالملك العدل طومان باي الأشرف، ولكنه لم يستمر طويلاً في السلطنة، فقد مكث فوق العرش قرابة المائة يوم فقط^(١٣٩).
وكان العدل طومان باي قانصوه دوداراً ثانياً في عهد الأشرف قايتباي، ويصف المؤرخون هذا العدل بأنه كان أميراً جليلاً موصوفاً بالشجاعة، إلا إنه كان قليل الحظ، ليس له سعد في سلطنته^(١٤٠).
وبذلك، فإن لقب العدل لم يتلقب به أكثر من ثلاثة من سلاطين المماليك.

لقب الصالح:

وهو صفة من الصلاح والتقوى، ولأهل العلم والدين، وأما من تلقب بالصالح في دولة المماليك البحرية فهم: الملك إسماعيل بن الناصر محمد؛ إذ اتخذ لقب الملك الصالح إسماعيل لقباً له، وذلك بعد عزل أخيه الناصر أحمد، وضرب العملة باسمه ولقبه، وامتناز بحسن السيرة والعدل، وكان ملكاً جليلاً نبيلاً، لطيفاً عفيفاً، حسن المنظر، حكم من رجب ٧٥١هـ / ١٣٥٠م، حتى شوال ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م، حيث خلع من العرش، وأقام في كنف والدته^(١٤١)، وهو من الأسرة القلاوونية، كذلك أطلق السلطان صالح على نفسه لقب: الصالح صالح في ٧٥٢هـ / ١٣٥١م^(١٤٢).

(١٣٧) ابن أبيك الدوداري: كنز الدرر، ج٨، ص٣٥٧ - ٣٦٥.

(١٣٨) ابن سباط: تاريخ ابن سباط، ج١، ص٥١١ - ٥١٢.

(١٣٩) ابن أجا: العراك، ص٢١١.

(١٤٠) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٣٥٤.

(١٤١) حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ص٣٧٧.

(١٤٢) ابن حبيب: تنكرة النبيه، ج٣، ص٧٩، ١٧٥؛ ابن دقماق: الجواهر الثمين، ص٣٧٥؛ المقرئ: السلوك

لمعرفة، ج٢ ق٣، ص٦١٩.

كذلك تولى السلطان حاجي من آل قلاوون السلطنة المملوكية بعد وفاة أخيه المنصور علاء الدين، في جمادى الآخرة ٧٥٢هـ / ١٣٥١م، وقد ولد أثناء وجود والده الناصر محمد في بلاد الحجاز في حجته الثالثة؛ لذا لقبه حاجي، وقد أطلق حاجي على نفسه عند سلطنته لقب الصالح^(١٤٣)، وتسلطن في ٧٤٧هـ / ١٣٤٩م^(١٤٤).

اتخذ سلطاناً واحداً في عصر سلاطين الجراكسة لقب: الملك الصالح وهو محمد بن ططر، الذي بوبع بالسلطنة، بعد وفاة والده في سنة ٨٢٤هـ / ١٤٢١م، وكان عمره وقتها إحدى عشرة سنة، وتلقب: بالملك الصالح، ولم يقم في السلطنة إلا أربعة أشهر، وتم عزله بالأشرف برسباي^(١٤٥).

وخلاصة القول، فإن سلاطين المماليك لقبوا أنفسهم بألقاب فخرية، مع اتخاذ كني ضربوها على عملاتهم الصادرة في عهودهم، مع تركيزهم على عدة ألقاب منها: الظاهر - المنصور - الأشرف - الناصر - العادل - الصالح، ولم يكن للخلفاء العباسيين في القاهرة أي سلطة في الإنعام عليهم بهذه الألقاب، بل أطلقوا هم على أنفسهم هذه النعوت التشريفية، وهذه الصفات، مع احتفاظهم واهتمامهم بأن يقوم الخليفة العباسي بتقويضهم العرش مع وجود الأمراء ورجال الدولة والقضاة الأربعة.

٥- سمات النفوذ بالسلطنة للألقاب والكنى في العصر المملوكي:

تعد الألقاب والكنى في مصر في العصر المملوكي من سمات السلطة والنفوذ، فكان لكل سلطان من سلاطينهم أن يتحلي بالألقاب وكنى على المراسيم والمناشير^(١٤٦)، والاتفاق بينه وبين البلدان الخارجية، ويسك ألقابه وكناه على العملة الصادرة في عهده، وينقش اسمه وألقابه على المنشآت المعمارية، وكذلك عند خروجه في المواكب والاحتفالات والمناسبات ترفع

(١٤٣) مؤرخ مجهول: تاريخ الأشرف قايتباي، ص ٧٣.

(١٤٤) أبو المحاسن: الدليل الشافي، ج ١، ص ٢٥٧.

(١٤٥) محمود رزق سليم: سلاطين المماليك، المجلد الأول، ص ٤٠.

(١٤٦) المناشير: مفرداً منشور، وهو أمر سلطاني مكتوب بإقطاع من أرض أو مال أو بيان حكم في قطعة معينة من الورق تختلف باختلاف طوائف رجال الدولة (محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص ١٤٦).

الأعلام والسناجق - الرايات - خلفه علامة من علاماته وألقابه، وسوف اقتصر على ذلك بضرب مثل أو مثالين عن كل عنصر من تلك العناصر السابقة.

أما عن المراسيم وتقليد الولايات والاتفاقات بين سلاطين المماليك وحكام البلاد المجاورة، فمنها أنه كان لزاماً على سلاطين المماليك في مصر فرض سيطرتهم على بلاد الحجاز، والتدخل في النزاعات الداخلية بين أشرف المدينة المنورة ومكة المكرمة؛ لذا أصدر السلطان الظاهر بيبرس مرسوماً يحمل ألقابه وكناهه بضرب السكة باسمه، وأمر بالألا يمنع أحد من دخول الكعبة المشرفة^(١٤٧). كذلك كان يرسل تقليد بتوليته أشرف الحجاز من قِبَل سلطان مصر، يحمل الألقاب والكنى السلطانية، منها تقليد: الشريف حسن بن عجلان نيابة السلطنة المملوكية في الأقطار الحجازية من قِبَل السلطان الناصر فرج بن برقوق^(١٤٨).

هذا إلى جانب إرسال مرسوم في حالة عزله أحد الأشراف من منصبه يحمل الألقاب السلطانية، مثلما حدث في عهد السلطان المؤيد شيخ المحمودي، الذي أصدر مرسوماً بعزل شريف مكة بركات والشريف أحمد من إمارتهما، وتعيين غيرهما وهو: الشريف رميثة بن محمد بن عجلان، في ٨١٨هـ / ١٤١٥م^(١٤٩)، وقد نتج عن ذلك أن قرئ هذا المرسوم بالأقطار الحجازية، وضرب للشريف السكة إلى جانب اسم السلطان وألقابه.

وقد جاءت ألقاب السلطان المنصور قلاوون في معاهدة مع أهل جنوة - معاهدة تجارية - مع ألفونس ملك أرجوه في ٦٨٩هـ / ١٢٧٩م، حيث زيد على ألقابه أنه ملك اليمن والحجاز، وسلطان بيت مكة، البيت العالي^(١٥٠).

مما يوضح أن ألقاب السلاطين، وكناهم كانت توضع في بداية المراسيم والمعاهدات الخارجية، أما عن نقش الألقاب والكنى على السكة والعملية المضروبة في عهد سلطان ما، فإنه كان هناك داران لضربهما في الديار المصرية في عصر المماليك، إحداهما في: القاهرة

(١٤٧) الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ج١، ص١٢٤.

(١٤٨) الفاسي: المصدر السابق، ج٣، ص٣٤٧.

(١٤٩) الفاسي: المصدر السابق والجزء، ص٣٧٢.

(١٥٠) حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ص٢٧٠.

والأخرى في: الإسكندرية^(١٥١)، ومما يؤكد ذلك أن الأمير صلاح الدين بن عزلم -نائب السلطنة بثغر الإسكندرية- قام بضرب دينار في عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين في ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م، زنة الواحد منها مثقال ذهب، على أحد الوجهين: محمد رسول الله، وعلى الوجه الآخر: ضرب في الإسكندرية في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين عز نصره^(١٥٢).

ومما يدلنا على وجود دار لسك العملة في القاهرة -عاصمة المماليك- الدنانير التي ضربت بأمر الأمير يلغا السالمي استادار العالية^(١٥٣)، في عهد السلطان الناصر فرج بن برفوق، يزن الدينار مثقال وفي وسط سكوته دائرة فيها مكتوب ألقاب الناصر وكناه، وعلى أحد وجهيها: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وعلى الوجه الآخر: اسم السلطان وألقابه وكنيته، وفي الوسط: مسقط بين خطين، وقد عرف هذا الدينار بالناصري، ضرب في دار الضرب بالقاهرة^(١٥٤).

وقد ركز في ضرب العملة على ألقاب السلاطين وكناهم، مثل: كنية السلطان المنصور قلاوون سيف الدولة، ولقب وكنية: الظاهر بيبرس، على السكة بالظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي النجمي^(١٥٥).

ومن العملة التي سكت في عهد السلطان الظاهر برفوق في دار الضرب بالإسكندرية دينار ذهب على الوجهين:

الوجه	وعلى الوجه الآخر
-------	------------------

(١٥١) انستاسي ماري الكرمللي: النقود العربية، ص ١١١؛ رأفت النبلاوي: السكة الإسلامية في مصر - عصر

دولة المماليك الجراكسة، مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٣٤-٣٦.

(١٥٢) انستاسي الكرمللي: المرجع السابق والصفحة.

(١٥٣) استادار العالية: من الوظائف الإدارية في عصر سلاطين المماليك، وهو لفظ مركب من كلمتين فارسيتين

استد بكسر الهمزة وسكون السين والذال ومعناه الأخذ، ودار بمعنى متولي، أي المتولي لأخذ المال، وهو

الذي بالشرف بأمر السلطان ويحكم على علمائه وياب داره ومطبخه (القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤،

ص ٢٠؛ عبد المنعم ماجد: رسول دولة سلاطين، ج ٢، ص ١٧؛ محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ

التاريخية، ص ١٥).

(١٥٤) انستاسي الكرمللي: النقود العربية، ص ١١٢.

(١٥٥) انستاسي الكرمللي: المرجع السابق، ص ١٣٢، ١٤٩.

وما النصر إلا من عند الله لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ^(١٥٦) .	ضرب سكندرية سنة سبع السلطان الملك الظاهر سيف الدنيا والدين أبو سعيد برقوق خلد الله سلطانه.
---	--

وهناك العديد من العملات التي ضربت بدار الضرب بالقاهرة في عهد الظاهر برقوق، تحمل سنوات ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م، ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م، ٧٩١هـ / ١٣٨٨م. وقد تم ضرب دينار ذهبي في دار ضرب القاهرة وأخرى في دار ضرب الإسكندرية في عهد الناصر فرج بن برقوق^(١٥٧)، كتب عليه هذه الألقاب:

الوجه	الظهر
ضرب بالقاهرة سنة أحد السلطان الملك الناصر أبو السعادات فرج بن الشهيد الملك الظاهر برقوق وثمان مائة.	وما النصر إلا من عند الله لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ^(١٥٨) .

كذلك كتبت كنية المؤيد شيخ المحمودي على السكة المضروبة في عهده وهي: أبو النصر عز^(١٥٩)، وقد أورد رأفت النبروي^(١٦٠) عدة دنائير ذهبية من ضرب القاهرة والإسكندرية، تحمل اسمها، منها على سبيل المثال الدينار الذي ضرب في ٨٢٠هـ / ١٤١٧م:

الوجه	الظهر
السلطان الملك المؤيد سيف الدنيا والدين أبو النصر شيخ سلطان الإسلام والمسلمين خلد الله ملكه عشرين وثمانماية.	وما النصر إلا من عند الله لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

(١٥٦) رأفت النبروي: السكة الإسلامية، ص ٤٤.

(١٥٧) وقد أشار محمد أحمد دهمان إلى الدينار الناصري، الذي ضربه فرج (معجم الألفاظ، ص ١٤٩).

(١٥٨) رأفت النبروي: السكة الإسلامية، ص ٥١ - ٥٢.

(١٥٩) انستاسي الكرمللي: النقود العربية، ص ١٣٨.

(١٦٠) السكة الإسلامية، ص ٦٨ - ٧٣.

وقد تميزت السكة التي ضربت في عهد المظفر أبو السعادات أحمد بن المؤيد شيخ في الفترة القصيرة التي حكم فيها، والتي لم تتعدى سبعة أشهر وعشرين يوماً، في ٨٢٤هـ/ ٤٢١م^(١٦١) بأنها ضربت في دار ضرب القاهرة، بأن عليها ألقاب وكنيته، وهي كالتالي:

الوجه	الظهر
ضرب القاهرة سنة أربع السلطان الملك المظفر أبو السعادات أحمد بن السلطان الشهيد الاسلام والمسلمين خلد الله ملكه ونصره.	وما النصر إلا من عند الله لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وفي عهد السلطان الأشرف برسباي، نقشت على السكة كنيته وهي: أبو النصر عز نصره^(١٦٢)، ويوجد له نقود ضربت في سنوات ٨٢٩هـ/ ٤٢٦م، ونص هذا الطراز كالتالي:

الوجه	الظهر
ضرب قاهره السلطان الملك الأشرف عز نصره عام تسع وعشرين وثمانماية	وما النصر إلا من عند الله لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ^(١٦٣) .

وفي حقيقة الأمر، فإن للسلطان الظاهر جقمق عدة دنائير ذهبية، ضربه في القاهرة والإسكندرية تحمل ألقابه وكناه، في عدة سنوات متتالية مثل ٨٤٢هـ/ ٤٣٨م، ٨٤٣هـ، ٨٤٦هـ، مما يدل على نفوذ صاحبها، وهو الملقب بالظاهر سيف الدين أبو سعيد محمد جقمق العلائي الظاهري^(١٦٤)، ومن ضمنها الدينار التالي:

الوجه	الظهر
القاهرة السلطان الملك الظاهر أبو سعيد	لا إله إلا الله محمد رسول بالهدى ^(١٦٥) .

(١٦١) أبو المحاسن: الدليل الشافي، ج١، ص٤٩.

(١٦٢) انستاسي الكرمل: النقود العربية، ص١٣٨؛ الذي تولى في ربيع الآخر ٨٢٥هـ/ ٤٢٣م، وتوفي في ذي الحجة ٨٤١هـ/ ٤٣٨م (ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص٦).

(١٦٣) رأفت النبراوي: السكة الإسلامية، ص٧٨.

(١٦٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٣٢؛ السيوطي: نظم العقبان، ص١٠٣.

(١٦٥) رأفت النبراوي: السكة الإسلامية، ص٨٢.

جقمق عز نصره اثنين وأربعين ثمانمائه

وهناك عدة إشارات للعملات التي ضربت في عهد الأشرف أبو النصر إينال^(١٦٦)، والملك الظاهر أبو سعيد خشقدم، الذي تولى في ٨٦٥هـ / ١٤٦١م، وله عدة دنائير ضربت في ٨٦٥هـ / ١٤٦١م وسنة ٨٦٧هـ، كذلك السلطان الظاهر أبو سعيد تمرغا في ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م^(١٦٧).

كذلك النقود التي ضربت في عهد الأشرف قايتباي^(١٦٨)، والتي يظهر عليها ألقابه

وكنيته منها:

الوجه	الظهر
أرسله السلطان الملك الأشرف قايتباي أبو النصر عز نصره بالهدى	ضرب بالقاهرة لا إله إلا الله محمد رسول الله ٨٨٦ ^(١٦٩)

وعندما اعتلى الملك الأشرف أبي النصر قانصوه الغوري في شوال ٩٠٦هـ / ١٥٠١م، أصدر أربعة دنائير ذهبية، ضربت في دار الضرب بالقاهرة في عدة سنوات هي ٩١٣هـ / ١٥٠٧م، ٩١٤هـ / ١٥٠٨م، ٩١٨هـ / ١٥١٢م، والدينار الرابع ليس عليه تاريخ ضرب، وقد كتب عليه ألقابه وكنيته، وهي كالتالي:

الوجه	الظهر
السلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري عز نصره	القاهرة لا إله إلا الله محمد رسول الله ٩١٤ ^(١٧٠)

(١٦٦) أبو المحاسن: الدليل الشافي، ج ١، ص ١٧٥؛ ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل، ق ٦ ج ٢، ص ١٠٢.

(١٦٧) رأفت النبروي: السكة، ص ٨٨، ٩٨، ١٠٣.

(١٦٨) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٦٠٤.

(١٦٩) رأفت النبروي: السكة، ص ١٠٥.

(١٧٠) رأفت النبروي: المرجع السابق، ص ١٢٠-١٢٣.

أما عن آخر سلاطين المماليك الأشرف أبي النصر طومان باي، الذي تولى السلطنة سنة ٩٢٢هـ/ ٥١٦م^(١٧١)، فإنه قام بإصدار دينار ذهبي في دار الضرب بالقاهرة عليه لقبه وكنيته، وهو:

الوجه	الظهر
السلطان الملك الأشرف أبو النصر طومان باي عز نصره	بالقاهرة لا إله إلا الله محمد رسول الله ٩٢٢ (١٧٢)

ومما سبق يتضح أن الألقاب والكنى كانت سمة من سمات النفوذ والسلطة في عصر المماليك. ومن أهم السمات التي امتاز بها عصر سلاطين المماليك في مصر، وضع ألقابهم وكناهم على المنشآت المعمارية، التي شيدها أثناء فترة حكمهم^(١٧٣)، وقد أولى المماليك اهتمامًا كبيرًا بالعمارة، وبناء مجموعات من المساجد التي تضم كل منها مسجدًا وروضة -

(١٧١) ابن سباط: تاريخ ابن سباط، ج ٢، ص ٦٧٢؛ محمود رزق سليم: عصر سلاطين، ج ١، ص ٦٢.
(١٧٢) لقد شيد السلطان الظاهر بيبرس قناطر السباع، ونصب فيها سباعًا من الحجارة، فقيل لها قناطر السباع من أجل ذلك (المقريزي: المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، مكتبة الآداب بالقاهرة، ج ٣، ص ٢٣٨).

(١٧٣) السبيل: هو بناء لتوفير المياه الصالحة للشرب، وذلك للثواب عند شرب عابري السبيل، وهي من الأعمال الخيرية ثوابها على أصحابها بعد موتهم، ما دامت هذه الصدقة جارية ففعتها، وكانت المياه تنقل لهذه الأسبلة إما من النيل أو من الآباء بواسطة رجال متخصصين، يطلق عليهم اسم السقا (فهومي عبد العليم: العمارة الإسلامية في عصر المماليك الجراكسة - عصر السلطان المؤيد شيخ، سلسلة الثقافة الأثرية التاريخية، مشروع المائة كتاب، رقم ٣٣، وزارة الثقافة بالمجلس الأعلى للآثار، ص ٩٠).

مكان لدفن صاحبها - ومدرسة، بالإضافة إلى سبيل ليسقي منه الناس^(١٧٤)، وبيمارستان لمعالجة المرض ومجموعة من الخلاوي وهي: خانقاه للدراويش^(١٧٥).

ومن أول السلاطين الذين أسسوا مجموعات معمارية السلطان المنصور قلاوون، الذي أسس المدرسة المنصورية في ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م، وذلك داخل باب المارستان الكبير المنصوري، بخط بين القصرين بالقاهرة، وقد رتب في مدرسته دروساً على فقه المذاهب الأربعة ودرساً في الطب وتعرف مجموعته بجامع قلاوون وجامع البيمارستان، وقد أثبت السلطان قلاوون ألقابه وكنيته على مجموعته المعمارية.

كذلك شيد الملك المظفر بيبرس الجاشنكير بالقاهرة خانقاه عرفت باسمه، بدأها وهو أمير قبل سلطنته في ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م، وهي مشتملة على بناء محكم وعمارة حسنة وأماكن ومرافق، ولها أوقاف حسنة، وذكر مشهور، وكانت وظيفته التصوف في هذه الخانقاه، بعد صلاة العصر، حيث نصت بهذا وثيقة الوقف^(١٧٦).

وقد أسس الناصر حسن بن الناصر محمد مجموعة معمارية، تضم مسجداً ومدرسة ومكتب السبيل والقبّة التي تعرف باسمه، وأوقف عليها الأوقاف الجليلة^(١٧٧)، التي يشرف

(١٧٤) الخانقاه: كلمة فارسية الأصل، تطلق على البيوت التي نعم فيها المتصوفة والدراويش (عبد الرحمن زكي: موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام، الطبعة الثامنة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ٩٦)؛ وقد أنشأ السلطان الناصر محمد خانقاه سراقوس خارج القاهرة، وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفي، وبنى بجانبها مسجد تقام به صلاة الجمعة وحماماً ومطبخاً وذلك في ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م (المقريزي: الخطط المقرئية، ج ٤، ص ٢٨٤ - ٢٨٥).

(١٧٥) اليوسفي: نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، هامش ١، ص ٢٢٤.

(١٧٦) ابن حبيب: تنكرة النبيه، ج ٢، ص ٢٢؛ محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص ٢١١.

(١٧٧) ابن حبيب: المصدر السابق والجزء، ص ٣٨٥، ٤٥٧.

عليها ديوان الأحياس^(١٧٨)، وقد ضمت وثائق وقف السلطان حسن، مؤرخه بـ ١٥ ربيع الآخر ٧٦٠هـ / ١٣٥٩م، على مصالح القبة والمسجد الجامع والمدارس ومكتب السبيل بالقاهرة^(١٧٩).

وقد جاء في وثيقة الوقف ألقابه وكنيته، كالتالي:

- مولانا المقام الأعظم الشريف العالي المولوي المالكي، الملكي الناصري وناصر الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين، وسيد الملوك والسلاطين، قاتل الكفرة والمشركين.
- محيي العدل في العالمين منصف المظلومين من الظالمين أبو المحاسن حسن الواقف المسمى بأعاليه^(١٨٠).

ومن ضمن المجموعات المعمارية التي شيدها سلاطين المماليك مجموعة السلطان الناصر فرج بن برقوق، التي تشتمل على مسجد وخانقاه ومدرسة ومدفن للسلطان وسبيلين للماء، وتم الانتهاء منها في حدود ٨١٣هـ / ١٤١٠م، من أهم ما يميزها منئذنة رشيقة تُعد من أبرز نماذج المآذن المملوكية من حيث دقة البناء وجمال الزخرفة وهي تقع على باب زويلة^(١٨١).

وقد أورد Li. Lrich^(١٨٢) نص وافية الناصر فرج لهذه المجموعة المعمارية التي ضمت نصوصها ما يوضح ذكر ألقاب السلطان وكنيته، حيث يشير بقوله: "أما المسجد الكائن بظاهر القاهرة المحروسة بخط باب زويلة.. الذي أنشأه أيضًا مولانا السلطان الناصر أبو السعادات فرج، خلد الله ملكه وعمر بدوام دولته الشريفة البلاد..".

(١٧٨) ديوان الأحياس: هو الديوان الذي يشرف على جباية ريع الأوقاف والأحياس، سواء تلك من الأفراد أم من الحكام، وتوجيه إيرادات الأوقاف إلى مصارفها الصحيحة، متبعًا الشروط التي وضعها الواقف في وثيقة الوقف (القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٨؛ محمد محمد أمين: الأوقاف، ص٥٤).

(١٧٩) محمد محمد أمين: مصارف أوقاف السلطان الناصر حسن، ضمن كتاب ابن حبيب: تنكرة، ج٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٣٤١-٣٤٣.

(١٨٠) محمد محمد أحمد: المرجع السابق، ص٣٨٥-٣٨٦.

(181) U. Lrich Hearmanann: Mamluk deads as source for the history of education in the late Medieval Egypt, P. 43.

(١٨٢) المرجع السابق والصفحة.

كذلك عمرت مجموعة معمارية أخرى في عهد السلطان المؤيد شيخ، في داخل باب زويلة^(١٨٣)، ويطلق عليها اسم الجامع المؤيدي -نسبه إليه- حيث أسند السلطان إلى الأمير بهاء الدين بن زين الدين البرجي عمارتها^(١٨٤)، وقد كافأه على ذلك بأن خلع عليه خلعه سنية، لبسها ونزل بها من القلعة فرحاً وابتهاجاً^(١٨٥).

أما بالنسبة للبيمارستان المؤيدي، الذي يحمل ألقاب وكنى هذا السلطان، فهو يُعد ثاني بيمارستان يقام بمدينة القاهرة بعد بيمارستان المنصور قلاوون، وهي تجاه البطلخانة السلطاني في موقعه المدرسة الأشرفية، التي شيدها الملك الأشرف شعبان بن حسين^(١٨٦)، وقد انتهى المؤيد شيخ من إنشاء بيمارستانه في رجب ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م^(١٨٧).

وتجدر الإشارة أن السلطان الأشرف أبو النصر برسباي، عمر المدرسة الأشرفية وجامعها في القاهرة وأوقف عليها عدة أماكن، كما عمر جامعاً بمنشأ خانقاه سرياقوس^(١٨٨)، ويقع الجامع الأشرف فيما بين المدرسة السيوفية وقيسارية العنبر، كان موضعه حوانيت تعلوها رباح، ومن ورائها ساحات كانت قياسر، فهدهما السلطان وبنى عليها الجامع، التي أقيمت فيه خطبة الجمعة في ٧ جمادي الأولى ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م، وخطب فيه الشيخ الحموي الواعظ^(١٨٩)، وقد ذكرت أسماء وألقاب السلطان على جامع ومدرسته، وزيد على ضريحه لقب: صاحب المناقب العلوية الهمم الأصمعية التي ترجع إلى ٨٣٥هـ / ١٤٣١م^(١٩٠).

ومن أهم وأشهر سلاطين المماليك، الذين اهتموا بالمنشآت المعمارية السلطان الأشرف قايتباي، الذي نقش اسمه وألقابه عليها، مثل لقب: ناصر الخلافة العباسية على قبة

(١٨٣) أبو المحاسن: الدليل الشافي، ج١، ص٣٤٧.

(١٨٤) أبو المحاسن: المصدر السابق، ج٢، ص٦١٤؛ فهمي عبد العليم: العمارة الإسلامية، ص١٥-١٦.

(١٨٥) العيني: عقد الجمان، تحقيق عبد الرازق القرموط، ص٢٦٠.

(١٨٦) ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢، ص٤٩١.

(١٨٧) العيني: عقد الجمان، تحقيق القرموط، ص٣٣٣؛ فهمي عبد العليم: العمارة الإسلامية، ص٤٥-٤٦.

(١٨٨) المقرئزي: درر العقود، ج١، ص٤٥٧؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص٥.

(١٨٩) المقرئزي: الخطط المقرئزية، ج٤، ص١٤٠.

(١٩٠) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٨٨؛ حسن الباشا: الألقاب، ص٣٧٦.

الغدوية في ٨٨٦هـ / ٤٨٢م^(١٩١)، ومن الملاحظ أن هذا السلطان قام بإنشاء العديد من المنشآت المعمارية في كل مكان حل به؛ تخليداً لاسمه هناك، فقد امتدت منشأته إلى البلدان الحجازية، إلى جانب الديار المصرية.

فقد خلد الأشرف قايتباي في مكة المكرمة بإنشاء مدرسة في ٨٨٢هـ / ٤٧٧م، بإرسال التاجر ابن الزمن ومعه شاد العمائر المعروف بسنقر الجمالي لهذا الغرض، وقد ضمت هذه المدرسة اثنتين وسبعين خلوة للصوفية، ومكتباً لتعليم الأيتام، وقرر فيها أربعة مدرسين على المذاهب الفقهية الأربعة، وقد ضمت حوالي أربعين طالباً للعلم وخزانة لأشهر الكتب النادرة^(١٩٢).

أما في المدينة المنورة، فقد شيد قايتباي رباط بين باب السلام وباب الرحمة عقب الحريق الذي شب في المسجد النبوي، وقد شيد في جدار المسجد الغربي مدرسة ورباط باسمه، وعين له ناظرًا وشيخين^(١٩٣)؛ لذا ارتاده طلاب العلم والمجاورون، هذا إلى جانب تخليد اسمه بإنشاء رواقين عظيمين، بصدر القبلة يرسم الظل للحجاج، وتعمير وترميم مسجد نمرة بعرفه^(١٩٤).

وقد أشار حسن الباشا^(١٩٥) إلى وجود نقش يحمل اسم السلطان الأشرف قايتباي، يرجع إلى شهر رجب ٨٧٩هـ / ٤٧٤م.

كذلك من السمات البارزة على استخدام سلاطين المماليك لألقابهم في العصر المملوكي كسمة لنفوذهم وسلطاتهم، خروجهم في المواكب الرسمية والاحتفالات والمناسبات

(١٩١) حسن الباشا: المرجع السابق، ص ٥٢٩.

(١٩٢) ابن فهد الهاشمي: إتحاف الوري بأخبار أم القرى، تحقيق محمد ثلثوت، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٣هـ، ج ٤، ص ٦٢٨.

(١٩٣) الفاسي: العقد الثمين، ج ١، ص ٢٨٣.

(١٩٤) ابن فهد الهاشمي: إتحاف الوري، ج ٤، ص ٥٦٣.

(١٩٥) الألقاب الإسلامية، ص ٤٨٦.

بأبهة الحكم، وبين أيديهم العلامات السلطانية^(١٩٦)، إلى جانب دق الكوسات^(١٩٧)، والطبول، ففي سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م، عند تولية المنصور قلاوون السلطنة، ركب بشعار السلطنة وأبهة الملك، وسلك المجلس العالية والأمراء والمقدمين والعساكر المنصورة عن آداب الخدمة وإخلاص النية وحسن الطاعة، وأعلام ورايات السلطنة التي تحمل ألقاب وكنى السلطان مرفوعة، ثم عاد إلى قاعة الجبل المحروسة، والأيدي بالأدعية الصالحة له مرفوعة ورسم بأن تزين دمشق وتضرب البشارة في البلاد، وأن يسمعها كل حاضر وغاد، والله تعالى يجعل أوقاته التهاني منفتحة، ونشكر مساعيه التي ما زالت في كل موقف ممتدحة^(١٩٨).

هذا ما حدث عند تولية الحكم -وهناك العديد من الأمثلة التي سبق ذكرها في البحث- أما في الأيام العادية، فقد كانت أوامر السلطان ومراسيمه، تعلن على العامة في شوارع القاهرة، حيث يقوم المنادون بالطواف في الأحياء والشوارع، بذكر هذه الأوامر القرارات، مع ذكر اسم السلطان وألقابه وكنيته.

وخلاصة القول، فإن ألقاب وكنى السلاطين في العصر المملوكي، تُعد من السمات البارزة لنفوذهم وسلطانه على الدولة، خاصة لذكرها في اتفاقات المعاهدات مع البلاد الخارجية ووجودها على المراسيم والمناشير، وسكها على العملة في عهد كل سلطان، وعلى المنشآت المعمارية، وذكرها عند التولية، وعلى قرارات السلطان وأوامره.

(١٩٦) العلامات السلطانية: هي ما يكتب السلطان بخطه على صورة اصطلاحية، ولكل سلطان علامة خاصة به (محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ، ص ١١٣-١١٤).

(١٩٧) الكوسات: الطبول وفسرها بعضهم بأنها صنوج من نحاس، شبه الترس الصغير، يبق أحدهما على الآخر، ويدعى من يضرب بها الكوس (محمد أحمد دهمان: المرجع السابق، ص ١٣٢).

(١٩٨) ابن أبيك الدوادري: كنز الدرر، ج ٨، ص ٢٣٣-٢٣٤.

أسماء المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية:

- ١- ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن أبو الكرم محمد (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٥م):
"الكامل في التاريخ"، الطبعة الخامسة، دار الكتب، بيروت، ١٣٠٥هـ / ١٩٨٥م، ج ٨.
- ٢- ابن أجا، محمد بن محمود الحلبي قاضي العسكر (ت ٨٨١هـ / ١٤٧٦م):
"العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك محمد مهدي الدوادر، تحقيق محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٦م.
- ٣- ابن إياس، محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م):
"بدائع الزهور في وقائع الدهور"، ٥ أجزاء، مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٦٠م.
- ٤- ابن أبيك الدواداري، أبو بكر بن عبد الله (ت ٦٩٨هـ / ١٢٩٩م):
"كنز الدرر وجامع الغرر"، تحقيق أولخ هارمان، طبعة القاهرة، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م، ج ٨.
- ٥- بيبيرس الدوادر، ركن الدين بيبيرس الخطائي المنصوري (ت: ٧٢٥ هـ - ١٣٢٥م):
"زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة"، تحقيق زبيدة محمد عطا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٠م.
- ٦- ابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م):
"تذكرة النبيه في أيام المنصور ونيه"، ثلاثة أجزاء، تحقيق محمد أمين وسعيد عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م، ١٩٨٦م.
- ٧- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م):
"أنباء الغمر بأبناء العمر"، عني بتحقيقه حسن حبشي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة أخبار التراث الإسلامية، ١٩٦٩م، عني به محمد عبد المعيد خان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٠٦هـ / ١٩٨٦م، ج ٢.
- ٨- _____: نزهة الألباب في الألقاب، تحقيق عبد العزيز بن محمد بوصالح السديدي، مكتبة الرشد، الرياض، ج ٢.
- ٩- ابن سباط، حمزة بن أحمد بن عمر (ت ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م):
"صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط"، جزءان، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، جوس برس، طرابلس، ١٩٩٣م.

- ١٠- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م):
"الضوء اللامع لأهل القرن التاسع"، ١٠ أجزاء، دار الجيل، بيروت.
- ١١- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م):
"تاريخ الخلفاء"، تحقيق حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ٢٠٠٤م.
- ١٢- _____: "حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة"، جزءان، تحقيق محمد أبو الفضل، دار إحياء الكتب العلمية، القاهرة، ١٩٩٧م.
- ١٣- _____: "نظم العقيان في أعيان الأعيان - تراجم مشاهير القرن التاسع الهجري في مصر وسوريا وسائر العالم الإسلامي"، تعليق فيليب حتى، المكتبة العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٢٧م.
- ١٤- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م):
"الذيل على الروضتين"، وضع حواشيه وعلق عليه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م.
- ١٥- ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل (ت ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م):
"زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك"، تصحيح بولس راوس، مطبعة باريس، المطبعة الجمهورية، ١٨٩٢م.
- ١٦- ابن شاهين الظاهري، زين الدين عبد الباسط بن غرس الدين خليل (ت ٩٢٠هـ / ١٥١٢م):
"نيل الأمل في ذيل الدول"، جزءان في ٨ أقسام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.
- ١٧- ابن الصيرفي، الخطيب الجوهري علي بن داود (ت ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م):
"نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان"، أربع أجزاء، تحقيق: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٠م، ١٩٧٣م، ١٩٩٤م.
- ١٨- ابن العبري، هارون بن توما الملطي (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م):
"تاريخ مختصر الدول"، تحقيق أنطون صلحاني، الطبعة الثالثة، دار الشرق، بيروت - لبنان، ١٩٩٢م.

- ١٩- ابن العديم، عمر بن أحمد بن هبة الله (ت: ٦٦٠هـ / ١٢٦١م):
"بغية الطلب في تاريخ حلب"، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، د.ت، ج ٢.
- ٢٠- العيني، بدر الدين محمود (ت: ٨٥٥هـ / ١٤٥١م):
"السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي"، حققه فهيم محمد شلتوت، راجعه محمد مصطفى زيادة، الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ٢١- _____: "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان الخاص بعصر المماليك، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، وتحقيق عبد الرزاق الطنطاوي القرموط، القاهرة، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م، ج ١.
- ٢٢- الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م):
"العقد الثمين في تاريخ البلد الأمير"، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ج ١.
- ٢٣- أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م):
"المختصر في أخبار البشر"، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج ٣، ج ٤.
- ٢٤- ابن فهد الهاشمي، عمر بن فهد بن محمد (٨٨٥هـ / ١٤٨٠م):
"تحاف الوري بأخبار أم القرى"، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٣هـ.
- ٢٥- الفلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م):
"صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، تحقيق محمد فوزي أمين، نسخه مصورة عن دار الكتب المصرية، ٢٠٠٤م.
- ٢٦- مؤرخ مجهول معاصر للسلطان قايتباي: "تاريخ الملك الأشرف قايتباي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.
- ٢٧- أبو المحاسن، جمال الدين يوسف تغري بردي الأتابكي (ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م):
"الدليل الشافي على المنهل الصافي"، جزآن، تحقيق فهيم محمد شلتوت، الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ٢٨- _____: مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل محمد، دار الكتب المصرية، من موقع الإنترنت.

- ٢٩- _____: "النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة"، تقديم وتعليق محمد حسن شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م.
- ٣٠- المقريري، تقي الدين أبو العباس أحمد (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م):
"درر العقود الفرية في تراجم الأعيان المفيدة"، ٤ أجزاء، تحقيق محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، بغداد، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م.
- ٣١- _____: "الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك"، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م.
- ٣٢- _____: " السلوك لمعرفة دول الملوك"، ج ١ ق ١، ٢ ق ٢، ٣ ق ٣، ج ١، ق ٣، تحقيق مصطفى زيادة، طبعة منقحة، ١٩٥٧ م.
- ٣٣- _____: "المواعظ والاعتبار بذكر الخط والآثار المعروف بالخط المقريري"، مكتبة الآداب بالقاهرة، ج ٣، ٤.
- ٣٤- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ / ١٣١١ م):
"لسان العرب"، دار المعارف بالقاهرة.
- ٣٥- هلال بن الصابي (ت ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م): أبو الحسين هلال بن المحسن "رسوم دار الخلافة"، عني بتحقيقه والتعليق عليه ونشره ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م.
- ٣٦- اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى (ت ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م):
"نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر"، تحقيق أحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م.
- ٣٧- اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى (ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥ م):
"نيل مرآة الزمان"، ٤ أجزاء، الطبعة الثانية، وزارة التحقيقات الحكيمة والأمور الثقافية للحكومة الهندية، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٢ م.
- ثانياً: المصادر الفارسية المترجمة:**
- ٣٨- البيهقي، أبو الفضل محمد بن حسين (ت ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م):
"تاريخ البيهقي"، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٥ م.

- ٣٩- الجوزجاني، أبو عمر منهاج الدين عثمان (ت ٦٩٨ هـ / ١٣٠٠م):
"طبقات ناصري"، ترجمة ملكه علي التركي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٢م، ج ٢.
- ٤٠- الكريزي، أبو سعيد عبد الحي بن الضحاك محمد (ت ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠م):
"زين الأخبار"، ترجمة عفاف السيد زيدان، القاهرة، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- ٤١- ميرخوند، محمد بن خاوندشاه (ت: ٩٠٣ هـ / ١٤٩٤م):
"روضة الصفا في سيرة الأئمة والملوك والخلفاء"، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلي،
الدار المصرية للكتاب، ١٩٨٨م.
- ٤٢- الهمداني، رشيد الدين فضل الله (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م):
"جامع التواريخ- تاريخ أبناء هولاكو خان من أباخان إلى كيخاتوخان"، ترجمة محمد
صادق نشأت وموسى هنداي، وفؤاد الصياد، وزارة الثقافة والإرشاد.
- ثالثاً: المراجع الحديثة:**
- ٤٣- إبراهيم عبد المنعم سلامة: "جوانب من تاريخ مصر في عصر الأيوبيين والمماليك"، دار
المعرفة الجامعية.
- ٤٤- انستاسي ماري الكرمل: "النقود العربية وعلم النميات"، المطبعة المصرية، القاهرة،
١٩٣٩م.
- ٤٥- رأفت النبراوي: "السكة الإسلامية في مصر - عصر دولة المماليك الجراكسة"، مركز
الحضارة العربية للإعلام والنشر، القاهرة، ١٩٩٣م.
- ٤٦- سعيد عاشور: "العصر المماليكي في مصر الشام"، الطبعة الثالثة، مكتبة الأنجلو
المصرية، ١٩٩٤م.
- ٤٧- عبد الرحمن زكي: "موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام"، الطبعة الثامنة، مكتبة الأنجلو
المصرية، ١٩٨٧م.
- ٤٨- عبد المنعم ماجد: "نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر - دراسة شاملة
لنظم البلاط"، الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٢م، ج ٢.
- ٤٩- علي مبارك: "الخطط التوفيقية الجديدة لمصر ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة"، المجلد
الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٠م.

- ٥٠- فهمي عبد العليم: "العمارة الإسلامية في عصر المماليك الجراكسة- عصر السلطان المؤيد شيخ"، سلسلة الثقافة الأثرية التاريخية، مشروع المائة كتاب، رقم ٣٣، وزارة الثقافة لمجلس الأعلى للآثار.
- ٥١- محمد أحمد دهمان: "معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكية"، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٠م.
- ٥٢- محمد محمد أمين: "الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر"- دراسة تاريخية وثائقية، ٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م، دار النهضة العربية بالقاهرة، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
- ٥٣- _____: "وثائق وقف السلطان الناصر محمد بن قلاوون"، ملحق لكتاب ابن حبيب تذكرة النبيه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م، ج ٣.
- ٥٤- محمود رزق سليم: "عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي"، مكتبة الآداب بالجوامير، القاهرة، ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م، المجلد الأول.

رابعًا: المراجع الأجنبية:

- 55- Aylon: Studies on the structure of the Mamluk ov Army in Buletion of school of Orient and African Studies (Gsoos III, 1954).
- 56- Bosworth: The titulature of early Ghazmauchs Oriens, (Leiden, 1962).
- 57- Supplement aux diction aires Arabe, (Leides Brill, 1967).
- 58- Grich Hearmann: Mamluk enaunet as source for the history of education in late Medieval Egypt.



موارد المياه في إفريقية من خلال رحلة التجاني في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي

د/ عبد الحليم علي رمضان دويم

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد

كلية الآداب-جامعة المنصورة

ملخص البحث:

شكّل الرحالة المغاربة برحلاتهم مصدرًا مهمًا من مصادر التاريخ للبلدان التي زاروها ومروا بها في رحلاتهم، ومن هذه الرحلات المهمة - رحلة التجاني - التي تعد مصدرًا مهمًا للحديث عن موارد المياه في إفريقية في تلك الفترة، حيث سجل التجاني مشاهداته عن كل مكان نزل فيه أثناء الرحلة؛ فيما بين تونس وطرابلس فتناول: الاسم والموقع ومورد الماء فيه، ونبذة عن تاريخه وعاداته وتقاليده وثقافته.

ويتبين لنا من خلال قراءة رحلة التجاني، أن الهاجس الذي كان يندب حول الماء، حيث كان يكثر من التحدث عنه ووصف أماكنه ومسمياته، حتى غدا شغله الشاغل، وهذا أمر طبيعي كون المسافر في البيداء أكثر ما يفكر فيه ويخشاه هو فقد الماء، فالماء في كل الأحوال هو الحياة.

أهمية الموضوع: كان اختيار الباحث لموضوع المياه في بلاد إفريقية؛ وذلك لاهتمام التجاني بموضوع الماء في رحلته، حيث أعطى التجاني الماء اهتمامًا خاصًا؛ فيصف لنا موارد المياه في بلاد إفريقية؛ بداية من تونس وانتهاء بطرابلس، وكذا كيفية الاستفادة من تلك الموارد، وبعض القضايا المتعلقة بتوزيع المياه في بلاد إفريقية.

وقد تناولت الدراسة في بدايتها التعريف بالتجاني: صاحب الرحلة، ثم تناولت موارد المياه وصفًا وتحليلًا، كما شاهدها التجاني، فتحدثت عن مياه الأنهار والأمطار، ثم مياه الآبار والعيون، ثم موارد المياه المستحثة، ثم تناولت المنشآت الخاصة بالمياه، وكيفية توزيع المياه واستغلالها وأثر ذلك على النشاط الاقتصادي والاجتماعي في إفريقية، ثم بعض القضايا المتعلقة بتوزيع المياه ودور الدولة في ذلك.

Water resources in Africa through El Tijani's journey

.The eighth century AH / fourteenth century A.D

The trips of Moroccan constitute a significant source of history of the countries they visited and tour through these journeys. Among these significant trips Al-Tijani trip – which is an important source for information on water resources in Africa during that period– 8th century H. Al-Tijani recorded his observations about every place he visited during his trip Between Tunis and Tripoli; this includes name, locations, and water resource therein; moreover, he wrote also a summary of their history, customs, traditions and culture

Al-Tijani trip revealed that he was clearly interested in water resources, as he frequently talk about them and describe their places and names, even it turned to be his main object. This seems to be normal as any traveler in the desert would be obsessed mainly of water and fear all time of water shortage or loss, as water is life simply.

The importance of the topic: the choice of the topic of water in African countries was due to Al-Tijani's interest of the issue of water in his journey, where Al-Tijani paid special attention to water resources. He describes in details water resources in African countries, beginning by Tunisia and ending in Tripoli, as well as how to benefit from these resources and some issues related to water distribution in African countries

In the beginning, the paper dealt with the biography of Al-Tijani, the traveler and writer, and then discussed water resources, as witnessed by Al-Tijani. Moreover, it questions the economic and social activities in Ifriqiya, and some other issues related to water distribution and the state's role in this



إن دراسة موضوع موارد المياه في إفريقية جزأ لا يتجزأ من حاضر إقليم بلاد المغرب الأدنى، حيث يعتمد سكان هذا الإقليم على مياه الأمطار، ويرتبط ذلك بالتقلبات المناخية، وكيفية تعظيم الاستفادة من مصادر المياه.

شكل الرحالة المغاربة برحلاتهم مصدراً مهماً من مصادر التاريخ للبلدان التي زاروها ومروا بها في رحلاتهم، ومن هذه الرحلات المهمة - رحلة التجاني - التي تعد مصدراً مهماً للحديث عن موارد المياه في إفريقية في تلك الفترة، حيث سجل التجاني مشاهداته عن كل مكان نزل فيه أثناء الرحلة؛ فيما بين تونس وطرابلس فتناول: الاسم والموقع ومورد الماء فيه، ونبذة عن تاريخه وعاداته وتقاليده وثقافته .

ويتبين لنا من خلال قراءة رحلة التجاني، أن الهاجس الذي كان يندب حول هو الماء، حيث كان يكثر من التحدث عنه ووصف أماكنه ومسمياته، حتى غدا شغله الشاغل، وهذا أمر طبيعي كون المسافر في البيداء أكثر ما يفكر فيه وبخشاه هو فقد الماء، فالماء في كل الأحوال هو الحياة، ولكن تتجلى هذه الحقيقة أكثر في حال السفر، حيث يبتعد المرء عن مواطن المياه والتجمعات البشرية، ويصبح أسير الصحراء التي لا يعرف مصيره فيها، فالسفر قطعة من العذاب، وفقد الماء في مثل هذا الموطن يعني الموت المحتم، وتتحول مصادر المياه الطبيعية من الأمطار، والأنهار، والعيون، والبحيرات إلى طوق النجاة، والرحمة التي لا يستغني عنها العبد في مثل هذه المواطن أو غيرها، ولكنها تتجلى في حالة السفر على صورة التمام.

أهمية الموضوع: كان اختيار الباحث لموضوع المياه في بلاد إفريقية؛ وذلك لاهتمام التجاني بموضوع الماء في رحلته، حيث أعطى التجاني الماء اهتماماً خاصاً؛ فيصف لنا موارد المياه في بلاد إفريقية؛ بداية من تونس وانتهاء بطرابلس، وكذا كيفية الاستفادة من تلك الموارد، وبعض القضايا المتعلقة بتوزيع المياه في بلاد إفريقية .

وقد تناولت الدراسة في بدايتها التعريف بالتجاني: صاحب الرحلة، ثم تناولت بعد ذلك موارد المياه وصفًا وتحليلًا، كما شاهدتها التجاني، فتحدثت عن مياه الأنهار والأمطار، ثم مياه الآبار والعيون، ثم موارد المياه المستحدثة، وأثر تلك الموارد على النشاط الاقتصادي للسكان، و بعض العادات الاجتماعية في إفريقية، ثم تناولت المنشآت الخاصة بالمياه، وكيفية توزيع المياه واستغلالها.

يعد الماء هو العنصر الأساسي في قيام الحضارات وازدهارها، لذلك رأينا أهم الحضارات الإنسانية قامت حول مجاري الأنهار الكبرى، حيث إن أهمية الماء في حياة الإنسان جعلته، يؤسس كيانه الحضاري والثقافي في بعض الأحيان حول مصادر المياه ومجاريها وامتدادها^(١).

التعريف بالتجاني ورحلته: هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن أبي القاسم التجاني، نسبة إلى قبيلة تجان، التي نزحت من المغرب الأقصى إلى تونس في عهد الدولة الحفصية، حيث ولد عبدالله التجاني ما بين سنتي (٦٧٠ - ٦٧٥ هـ/١٢٧٢-١٢٧٦م)^(٢). ونشأ بتونس، وتلقى تعليمه فيها على يد أبيه، الذي كان يعمل كاتبًا عند السلطان الحفصي أبي حفص عمر بن

^(١) سراج أحمد: حول استمرار أحد مظاهر الديانات المائتة القديمة بمغرب العصر الوسيط، ضمن كتاب (الماء في تاريخ المغرب) منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم (١١)، مطبعة المعارف الجديدة-الرباط، ١٩٩٩م، ص ١٥٧.

^(٢) عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٥٧، ج ٦، ص ٣٩.



أبي زكريا (٦٨٣-٦٩٤هـ/١٢٨٤-١٢٩٤م)، سلطان الدولة الحفصية^(١)، وفي سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٤م انقسمت الدولة الحفصية إلى قسمين؛ قسم شرقي: يضم الأجزاء الشرقية من أراضيها، عاصمته تونس^(٢)، عليه السلطان أبو حفص عمر بن أبي زكريا، وقسم غربي: يضم الأجزاء الغربية من أراضي الدولة وعاصمته بجاية عليه السلطان أبو زكرياء يحيى بن أبي إسحاق^(٣).

(١) الدولة الحفصية أقامها بنو حفص، وهم أحد البطون التي تنسب إلى الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاني، نشأت دولتهم عندما أعلن أبو زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص استقلاله عن الموحيين، وكان والياً على إفريقية سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨م، ولقب بأبى المؤمنين، ويعتبر مؤسس الدولة الحفصية وقد استمرت الدولة الحفصية في حكم إفريقية حتى سنة ٩٨١هـ / ١٥٧٤م للمزيد عنها انظر: (ابن القنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية - تحقيق محمد الشانلي النيفر، وعبد المجيد التركي، تونس، ١٩٦٨م، ص ١٠٤-١٠٦؛ الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية - تحقيق محمد ماضور، تونس، ط ٢، ١٩٦٦م، ص ٢٥-٣٠؛ روبر برنشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣-١٥م - ترجمة حمادي الساطي، بيروت، ١٩٨٨م، ج١، ص ٤٢-٤٦.

(٢) تونس: ذكر القزويني أن تونس مدينة كبيرة بأرض المغرب تقع على ساحل البحر، وهي قسبة بلاد إفريقية، وهي أصلح بلادها هواء وأطيبها ماء وأكثرها خيراً وبها من الثمار والفواكه ما لا يوجد في غيرها من بلاد المغرب حسناً وطعماً القزويني، زكريا بن محمد بن محمود: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر - بيروت، (د.ت)، ص ١٧٣؛ عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي: مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، ج ١، ص ٢٨٢.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحاتة، بيروت، ٢٠٠٠م، ج ٦، ص ٧٠٠.

ثم توفي السلطان الحفصي أبو حفص عمر في سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٥م، فتولى من بعده أحد أبناء السلطان المستنصر، وهو السلطان أبو عبد الله محمد الواصل (٦٩٤-٧٠٩هـ/١٢٩٥-١٣٠٩م) ^(١) الملقب بأبي عصيدة ^(٢). وكان على الأجزاء الغربية في بجاية الأمير أبو البقاء خالد بن أبي زكريا يحيى بن أبي إسحق (٦٩٩-٧١١هـ/١٢٩٩-١٣١١م)، الذي كان قد نجح بمساعدة بعض القبائل العربية في الاستيلاء على بجاية وقسنطينة، ووقع اتفاقاً بين أبي البقاء خالد وأبو عبد الله محمد الواصل على أنه إذا توفي أحدهما قبل الآخر ورث الآخر أملاكه وأضحى سلطان الدولة الحفصية بقسميها الشرقي والغربي ^(٣) وبعد وفاة السلطان الواصل عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، توجه أبو البقاء إلى تونس حسب الاتفاق الذي كان قد عقده سلفاً مع السلطان أبي عصيدة؛ إلا إنه وجد الحفصيين في تونس قد بايعوا أميراً حفصياً آخر، وفي تلك الأجواء، وصل طرابلس أحد أمراء البيت الحفصي يدعى أبو يحيى زكريا اللحياني، الذي كان في رحلة إلى المشرق، واستغل اضطراب الأمور في السلطنة الحفصية، وأمام تقادم الأوضاع تنازل أبو البقاء خالد عن حكم الدولة الحفصية لأبي يحيى زكريا اللحياني في عام ٧١١هـ/١٣١١م ^(٤)، وقد التحق التجاني بديوان الإنشاء بالبلاط الحفصي في عهد السلطان الواصل أبي عصيدة، ومن بعده

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد الشماخ: الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم:

الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤، ص ٨٣.

(٢) يعود لقب أبي عصيدة إلى حادثة وقعت يوم ميلاد الواصل فيذكر ابن الشماخ أنه: " لما قتل السلطان

أبو زكريا يحيى الواصل بن السلطان الحفصي المستنصر، كانت إحدى جواريه حامل به، ففرت إلى

رباط الشيخ المرجاني، = وأنجبته هناك، فسماه الشيخ المرجاني عبد الله، وأطعم من فرحته به

الناس عصيدة الحنطة فأسماه الناس أبو عصيدة. انظر: ابن الشماخ: الأدلة البينة، ص ٨٣.

(٣) ابن الشماخ: الأدلة البينة، ص ٨٣؛ الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص ٦٢.

(٤) ابن الشماخ: المصدر السابق، ص ٨٣؛ الزركشي: المصدر السابق، ص ٥٨.



السلطان أبي يحيى زكريا اللحياني (٧١١-٧١٨هـ/١٣١١-١٣١٨م)، فاصطفاه لنفسه وجعله من خاصته، وأصبح كاتبه الخاص ورئيس ديوان رسائله^(١) المعروف بخطة العلامة الكبرى^(٢). وعلاوة على توليه الكتابة والإنشاء له مؤلفات نثرية منها "الدرر النظيم ونفحات النسرين في مخاطبة ابن شبرين"^(٣)، ومنها "تحفة العروس ونزهة النفوس"^(٤)، وغيرها من المؤلفات، وتعد "رحلة التجاني" من أهم مؤلفاته وأكثرها شهرة لما تحتويه من مادة جغرافية وتاريخية وأدبية.

(١) الزركشي: نفسه، ص ٦٢-٦٣ .

(٢) تعتبر وظيفة صاحب العلامة من المناصب المرموقة في الدولة الحفصية في إفريقيا، حيث كان صاحب خطة الكتابة من المقربين للسلطان الحفصي، وكان كاتب السر يقابل السلطان كل يوم، ليعرض عليه الرسائل المختلفة، ورسائل أصحاب المظالم . وقد ورد ذكر صاحب خطة الكتابة والإنشاء بصيغ مختلفة في بلاد المغرب فمنها صاحب القلم الأعلى و الفقيه الكاتب. انظر: ابن الأحمر: مستودع العلامة ، ص ٢٠؛ ومنها وظيفة شيخ الكتاب انظر: ابن مرزوق: المسند الصحيح ، ص ٢٩؛ ومنها وظيفة رئيس الكتاب انظر: ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص ٤٠، ٧٠؛ ومنها كاتب السر أو كاتب السر والإنشاء، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ج ٥، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٣) كانت هذه الكتابات عبارة عن مراسلات بين أبي محمد عبد الله التجاني وبين أبي بكر محمد بن شبرين السبتي (ت ٧٠٥هـ/١٣٠٥م) المقيم في مدينة غرناطة. انظر: أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد التجاني : رحلة التجاني، تقديم: حسن حسني عبدالوهاب، تونس، ١٩٥٨م ص ١٦٤؛ محمد النيفر: عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٢٩١ .

(٤) التجاني: المصدر السابق، ص ١٩-٤٦ .



ويثني العلامة حسن حسني عبدالوهاب محقق الرحلة على التجاني، ويضعه في مرتبة الرحالة الرواد، فيقول: "إن الرحلة من غرر المصنفات التونسية، وكأنها الوحيدة من نوعها في وصف البلاد الأفريقية في القرن الثامن الهجري"^(١).

لازم التجاني الأمير أبا زكريا اللحياني؛ باعتباره كاتب رسائله، وقد اصطحبه هذا الأمير معه عندما توجه نحو جربة لاستردادها من النصارى الأسبان^(٢)، وكان في نيته التوجه بعدها نحو المشرق لأداء فريضة الحج، وهذا ما ذكره التجاني في رحلته فيقول: "فكان خروجي من تونس صحبة الركاب العلي المخدومي أعلى الله مقامه، وأطال في العز دوامه في آخر جمادى الأولى من عام ستة وسبعمائة، وكان مراده منها والقصد الأول إنما هو التوجه لأداء فريضة الإسلام (الحج)"^(٣)، ولم يوفق الأمير في استعادة جربة بعد محاولات نحو شهرين، ثم توجه مع الأمير أبي زكريا نحو طرابلس، فمكثوا فيها ثمانية عشر شهراً، ولم يكد الركب يصل عين ودرس حتى أصيب التجاني بمرض أقعده الفراش وحال دون استطاعته امتطاء فرسه في محرم ٧٠٩هـ/يونيو ١٣٠٩م؛ مما اضطره للعودة إلى تونس^(٤). بعد عودة التجاني إلى تونس ظل يمارس خطة الكتابة بديوان الانشاء للسلطان أبي زكريا يحيى وظل بها إلى أن استولى أمير بجاية يحيى بن أبي بكر على تونس ٧١٨هـ/١٣١٨م^(٥)، واختفى أي أثر بعد ذلك للتجاني الذي لم يعرف أي شيء عن نهايته، وأشار الزركشي إلى ذلك بقوله: "إن اسم التجاني ذهب بارتحال الدولة إلى أبي بكر..."^(٦)

(١) التجاني: نفسه، مقدمة المحقق، ص ٤١.

(٢) Mas.Latre , Relations Des Chretens , Des Chiretiens Avec les Arabes De l'a Frique se Ptentrionale , Paris , 1866 , P62 .

(٣) نفسه، ص ٤ .

(٤) التجاني: رحلة التجاني، ص ٣١٦-٣١٧ .

(٥) ابن الشماخ: الأدلة البينة، ص ٨٧. الزركشي: تاريخ الدولتين، ص ٦٤ .

(٦) الزركشي: المصدر السابق، ص ٦٥ .



حالة المناخ ومصادر المياه في إفريقيا:

إن دراسة البيئة الجغرافية من موقع وتضاريس ومناخ يعد مدخلاً ضرورياً لمعرفة النشاط الاقتصادي؛ لأن العملية الاقتصادية هي تفاعل الإنسان مع بيئته ودرجة سيطرته عليها بالزراعة والصناعة واستنباط المياه، واستثمار فائضها بالتجارة، وهي التي تحدد حال اقتصاه غنياً كان أم فقيراً^(١)، ويقع إقليم إفريقيا^(٢) في الشمال الغربي لقارة أفريقيا، فيحده شمالاً البحر المتوسط، وبلاد المغرب الأوسط في الجنوب الغربي وإقليم برقة شرقاً وفزان والصحراء الكبرى في الجنوب^(٣)، وتعد الزراعة وتربية الحيوان هما الحرفتان الرئيستان لسكان إقليم إفريقيا^(٤). وعندما نتحدث عن الواحات نتطبع في الذهن صوراً لجزر خضراء متناثرة، تمتد أحياناً لمسافات طويلة وسط مجالات صحراوية وشبه صحراوية، لا تخلو من زوايا رملية^(٥)، ومن حرارة مفرطة صيفاً، وقساوة برد شتاءً، مع تساقط الأمطار بصورة شحيحة؛ ولكي يأخذ الدارس نظرة حول أهمية الماء في هذه

(١) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣، ص ٣٥.

(٢) مصطلح إقليم إفريقيا: الذي تداولته المصادر العربية في العصور الوسطى يطلق على البلاد التونسية والطرابلسية، وأكد ابن حوقل على ذلك قائلاً: "فأما طرابلس، فكانت قديماً من عمل إفريقية"، وتضم بلاد إفريقية أيضاً منطقة بجاية وقسنطينة في الجهة الغربية أو ما يطلق عليه اسم "إقليم المغرب الأدنى"، وأحياناً أخرى "بلاد البربر الشرقية" انظر: ابن حوقل: صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص ٧١؛ برنثيفك: تاريخ إفريقية، ج ١، ص ٢٩.

(٣) حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، دار الجنوب للنشر، تونس ٢٠٠١، ص ١١.

(٤) الجمل، شوقي عطا الله، وإبراهيم، عبدالله عبدالرزاق: مشاكل المياه في أفريقيا، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠١٣م، ص ١١.

(٥) الزوابع: جمع زوبعة، وهي الإعصار. انظر: مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ج ١، ص ٣٨٨.



المجالات الصحراوية؛ يكفي الاطلاع على ما هو مدون في كتب الرحلات الحبية المغربية والأندلسية، ليقف على معاناة الحجاج من قساوة البرد وندرة الماء^(١).

وقد شهدت إفريقية فتن وقلقل داخلية أثرت على الحياة الاقتصادية فيها قبل فترة الدراسة^(٢) إن كتب الرحلة تتضمن مادة مهمة يمكن أن توضح معالم الخريطة المائية في بلاد المغرب الإسلامي، من خلال وصف الرحالة للموارد المائية المختلفة وتحديد أماكن وجودها^(٣).

أولاً: مصادر المياه الطبيعية: (الأمطار - الأنهار - العيون - البحيرات والغدران).

أولاً : مياه الأمطار: وصف التجاني في رحلته المهمة كثيراً من المعالم المائية في بلاد إفريقية، ففي يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول سنة (٨٠٠هـ / ١٣٩٧م)، حل بمنزل زنزور^(٤)، ووصفها بأنها غابة متسعة الأقطار ملتفة الأشجار، وتوجد فيها مياه عذبة، وأكثر شجرها من الزيتون^(٥)، كما يوجد بها سوق يأتي إليه السكان البربر من كل مكان لبيع منتجاتهم^(٦)

(١) مزيان، أحمد: استغلال الماء في الواحات - نموذج فبيج (فكيك)، مدرج في كتاب (الماء في تاريخ المغرب)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، سلسلة نوات ومناظرات، رقم (١١)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٩م، ص ١١٧.

(٢) التجاني : الرحلة، ص ١٦، ٦٥-٦٨.

(٣) عليوش: الثروة المائية في ريف المغرب الأوسط: خريطتها، منشأتها، استغلالها - رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم التاريخ بكلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية - جامعة قسنطينة (الجزائر)، ٢٠١٣م، ص ٧.

(٤) زنزور: بلد غربي مدينة طرابلس بنحو ١٢ كم وهي بزاي مفتوحة ونون ساكنة، بعدها زاي مضمومة وولو وراء . قال صاحب الرحلة الناصرية : وعلى باب البلد قبر رجل من الصالحين يعرف بالعريفي.

(٥) التجاني: رحلة التجاني، ص ٢١٤.

(٦) التجاني: نفسه ص ٢١٥-٢١٦.



«ووصف جزيرة شريك^(١) التي تنسب إلى شريك والي مصر من قبل الوليد بن عبد الملك، فذكر أن هذه الجزيرة لم تزل معروفة بالخصب والبركة، وذكر أنها: طيبة مباركة ذات دور متصلة، وبركات وخيرات، ومياه وغللات، وفيها خصب زائد عن غيرها من الأراضي^(٢)، كما وصف التجاني شتاء تونس بالجزيرة لدرجة أنه أهلك اثني عشر ألفاً من أهل جزيرة باشو^(٣) بالقرب من تونس هلكوا بالبرد والماء^(٤)، ووصف قصور المباركة في بلاد المغرب بأنها عامرة وأن أهلها موصوفون بالبخل، وقد تأكد من ذلك حين شاهد منعهم للماء مما يصدق ما اشتهروا به من ذلك^(٥)، وتحدث عن قريتين تابعتين لزوار الكبري، وذكر أنهما قريتان متشابهتان في عذوبة الماء وخراب البنيان، وولول هي منتهي أرض زوارة^(٦).

(١) جزيرة شريك: كورة بإفريقية بين سوسة وتونس، تنسب إلى شريك العبسي، وكان عاملاً فيها، وقصبة هذه الكورة بلدة يقال لها باشو، وهي مدينة كبيرة أهلة، بها جامع وحمامات وثلاث رحاب وأسواق عامرة، وبها حصن أحمد بن عيسى القائم على ابن الأغلب وجزيرة شريك اجتمعت الروم بعد دخول عبد الله بن سعد بن أبي السرح المغرب وساروا منها إلى مدينة إقليبية وما حولها ثم ركبوا منها إلى جزيرة قوسرة ومن تونس إلى منزل باشو مرحلة، بينهما قرى كثيرة جليلة ثم من باشو إلى قرية الدواميس مرحلة، وهي قرية كبيرة أهلة كثيرة الزيتون، وبينهما قصر الزيت ومن قرية الدواميس إلى القيروان مرحلة، بينهما قرى كثيرة ويحذاء جزيرة شريك في البرّ نحو جهة الجنوب جبل زغوان. الحموي: معجم البلدان: ج ٢، ص ١٣٧.

(٢) التجاني: رحلة التجاني، ص ١١.

(٣) باشو: مدينة تعرف بمنزل باشو واسعة العمل خصيبة حصينة، ومنها إلى القيروان مرحلة. الحموي:

معجم البلدان: ج ١، ص ٣٢٤.

(٤) التجاني: المصدر السابق، ص ١٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ٨٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢١٠.

ووصف مورداً للمياه يسمى (خنافس)، وارتحل منه، فانتهي إلى مورد آخر يسمى (نبش الذئب) فلم يجد فيه ماء، ولم يحتج إليه؛ لأنه كان قد احتمل معه من الماء ما كفاه عنه، ووجد على هذا المورد ركباً صغيراً قد وصل إليه قبل وصوله بأيام يسيرة، فلم يجدوا فيه ماء فهلكوا هناك جميعاً، وهذا التذبذب في مياه الأمطار كان له آثار سيئة على الحياة الاقتصادية في المنطقة^(١).

وهذا يدل على أن المياه كانت قليلة في إفريقية، وليست متوفرة في كل الأماكن، وأن بعض موارد المياه قد تنضب وتغور المياه فيها، فتتحول إلى خراب بعد أن كانت عامرة. ويصف ابن بطوطة أمطار مدينة قابس (٢) بالغرارة حتى إنه اضطر أن يبقى فيها عشرة أيام؛ بسبب توالي هطول الأمطار بصورة مستمرة، حيث ذكر أنه وصل إلى مدينة قابس ونزل بداخلها، وأقام بها عشرة لتوالي نزول الأمطار (٣).

(١) التجاني: الرحلة، ص ٣١٩؛ برنشفيك: تاريخ إفريقية، ج ٢، ص ٢١٤.

(٢) قابس: وتقع مدينة قابس جنوب مدينة صفاقس بينها وبين طرابلس، وهي مدينة بحرية صحراوية، فإن الصحراء متصلة بها، والبحر على ثلاثة أميال منها، للمزيد عنها انظر: القطيعي: مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ج ٣، ص ١٠٥٤؛ دحروج، إلهام حسين: مدينة قابس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية (حوالي ٤٤٢-٦٦٥هـ/١٠٥١-١٢٤٧م)، رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة القاهرة - كلية الآداب، الدراسات العليا، قسم التاريخ، عام ٢٠٠٠م، ص ٣.

(٣) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ.، ج ١، ص ١٧٠. وفيه: "قال ابن جزري في ذكر قابس: يقول بعضهم:

لهفي على طيب ليال خلت بجانب البطحاء من قابس

كأن قلبي عند تذكرها جذوة نار بيد القابس".



كما أنه اضطر للتوقف والإقامة في مدينة طرابلس^(١) أكثر من المدة المقررة بسبب الخوف من البرد والمطر، مما يشير إلى: أن المطر كان يهطل بغزارة، وربما كان مصحوباً بالبرد الذي يتساقط مثل الحجارة على رؤوس الناس، وهناك آثار اقتصادية ضارة على السكان نتيجة تساقط هذا البرد منها: هلاك المحاصيل والحيوانات وغير ذلك.

وكان الناس في إقليم إفريقية يعتمدون على مياه الأمطار في الشرب؛ لأن موارد المياه الأخرى من الممكن أن تكون مالحة أو غير صالحة للشرب، وهذا ما أشار إليه التجاني عندما تحدث عن مدينة صفاقس^(٢)، حيث ذكر أن ماءها شراب لا يساغ، وإنما يعتمدون في شربهم

(١) طرابلس: مدينة في المغرب الإسلامي تعد حالياً عاصمة دولة ليبيا، ذكر الحموي في (معجم البلدان) أن أشباروس قيصر أول من بناها، وعلى مدينة طرابلس سور صخر جليل البنين، وهي على شاطئ البحر، ومبنى جامعها أحسن مبنى، وبها أسواق حافلة جامعة وبها مسجد يعرف بمسجد الشعاب مقصود وحولها أنباط، وفي بربرها من كلامه بالنبطية، وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون أعمرها وأشهرها مسجد الشعاب، ومرساها مأمون من أكثر الرياح، = وهي كثيرة الثمار والخيرات، ولها بساتين جلييلة في شرقيها وتتصل بالمدينة سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير، وأعدب آبارها بئر القبة، وكان عمرو ابن العاص نزل على مدينة طرابلس في سنة ٢٣ من الهجرة فملكها عنوة واستولى على ما فيها. الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢٥.

(٢) صفاقس أو سفاقس: مدينة من نواحي إفريقية جلّ غلاتها الزيتون، وهي على ضفة الساحل، بينها وبين المهديّة ثلاثة أيّام وبين سوسة يومان وبين قابس ثلاثة أيّام، وهي على البحر ذات سور، وبها أسواق كثيرة ومساجد وجامع، وسورها صخر وأجرّ، وفيها حمامات وفنادق وقرايا كثيرة وقصور جمّة، ورباطات على البحر ومنائر يرقى إليها في مائة وستين درجة في محرس يقال له بطرية، وهي في وسط غابة الزيتون، ومن زيتها يمتار أكثر أهل المغرب، وكان يحمل إلى مصر وصقلية والروم ويكون فيها رخيصة جداً، يقصدها التجار من الآفاق بالأموال لا بتياع الزيت، وعمل أهلها القصارة والكمادة. الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٢٢٣.



على ما يدخرونه من مياه الأمطار^(١) وذكر الفقيه أبو الربيع الملتاني^(٢): أن في طريق غانة من سجماسة إليها أشجاراً عظيمة مجوفة، يجتمع في تجاويها مياه الأمطار فتبقى كالحياض، والمطر في الشتاء بها كثير جداً، فتبقى المياه في تجاوي تلك الأشجار إلى زمان الصيف، فالسابلة يشربونها في مرورهم إلى غانة، ولولا تلك المياه لتعذر عليهم المرور إليها^(٣).

ثانياً: مياه الأنهار: كان أهل إفريقية يعمدون إلى تنظيم مياه الأنهار لأجل الانتفاع بها بشكل أفضل، وأن لديهم قوانين وأطراً قانونية لتنظيم عملية الاستفادة من هذه الأنهار؛ لأجل السقي والشرب بصورة تعكس تقدماً حضارياً على أكثر من صعيد.

ويصف التجاني في رحلته: "ماء وادي مجشر"^(٤) بأنه ينحدر من الجبال، ويذكر أن هذا الوادي أصل مائه من الجبل المتصل من المغرب إلى المشرق في جهة الجنوب، وأن مائه ينحدر، فيجتمع عند جبل صغير يعرف برأس تاجرا، على بُعد نحو خمسة عشر ميلاً منه، ثم

(١) التجاني: رحلة التجاني: ص ٦٨.

(٢) هو الشيخ أحمد بن عثمان بن عبد الجبار التونسي الملتاني، عالم فاضل متقن، رحل للمشرق ولقي فضلاء أجلة، ثم رجع فسكن بجاية وأقرأ بها، له علم بالعربية والفقه وأصول الدين، وحظ من التصوف، استدعاه الإمام أبو زكريا إلى حضرة أفريقيا، توفي سنة ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م. انظر: أحمد بابا التتكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقييم: الدكتور عبد الحميد عبدالله الهرامة، وضع هومشه وفهارسه: طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية - طرابلس (ليبيا)، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م، ص ٧٨-٧٩.

(٣) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٧.

(٤) المَجْشَرُ: قال ابن الأعرابي: المَجْشَرُ: الذي لا يرعى قرب الماء، وقال المنذري بعكسه: وهو الذي يرعى قرب الماء. انظر: الزبيدي: تاج العروس، ج ١٠، ص ٤٣٤ وقال إحسان عباس: المَجْشَرُ: المرعى. المقري التلمساني، شهاب الدين أحمد بن محمد: نفع الطيب من غصن الأتلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨، ج ١، ص ٢٦٨، وقال الدكتور كمال السيد أبو مصطفى: المَجْشَرُ: يقصد به في المصطلح المغربي والأندلسي الضيعة أو المزرعة، كذلك يتضح من نص للمقري أن المَجْشَرُ قد يعني موضع الزراعة والرعي معاً. كمال أبو مصطفى: جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي، ص ٥٠.



يفترق من تاجرا واديان ينتهيان إلى البحر، أحدهما: هذا الوادي وهو وادي مجشر، والثاني: الوادي الأعلى إلى جهة المشرق وهو المعروف بوادي الفجاء " (١).

وينكر أن وادي مجشر في بعض أماكنه المرتفعة تجف روافده من الأنهار ولا تتحرك بالماء إلا مع هطول الأمطار، وأخبر أن المنزل الذي نزل به وقتها كان من المواضع المرتفعة، فلم يكن به؛ إذ ذاك ماء، فبات به في تلك الليلة^(٢) ومن خلال هذه الرواية يتضح: أن جريان بعض الأنهار كان موسميًا، يجري في وقت الشتاء بما يشبه السيل، ثم ينقطع في الأوقات الأخرى، ويخبر التجاني أن الناس كانوا يستخدمون الأنهار لتشغيل الطواحين، لا سيما في المناطق المنخفضة منه التي لا تخلو من الماء، فقد وصل يوم الخميس إلى وادي مجشر، ويعرف هذا الموضع منه بالطواحين، وتضاف إليه فيقال: "طواحين مجشر، وأخبر أن المكان الذي نزل فيه هذه المرة كان متعالياً إلى جهة الجنوب على المرة الأولى، فجاء المنزل الأول بينه وبين البحر، وهذه الطواحين مواضع هذا الوادي المنخفضة^(٣).

وفي مكان آخر في منطقة قرب القيروان، يُخبر التجاني عن وادي (أي نهر) يظل يسقي المزارع في طريقه إلى أن يصل القيروان، واسمه وادي زرود، وأصل هذا النهر من موضع يعرف بفران، وهذا الوادي يمر في طريقه على مزارع تسقي منه وينتفع به فيها، فإذا انتهى إلى الأصنام وهو موضع في جوف القيروان، انتشر في سبخة هنالك متسعة، وضاع ماؤه فيها فلم ينتفع به^(٤) وينكر التجاني: أن في قابس وادياً يسقي بساتينها ومزارعها، ويخترق بيوتها وشوارعها^(٥)، ولوادي قابس منابع كثيرة متتالية، يبتدئ الوادي من أبعدها، ثم يمر على بقية هذه المنابع، منبعاً تلو الآخر، فنتجمع مياه وفيرة تنحدر بمجموعها نحو غابة قابس وبساتينها^(٦).

(١) التجاني: رحلة التجاني، ص ١٢٠.

(٢) التجاني: الرحلة، ص ١٢٠-١٢١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٣.

(٤) التجاني: رحلة التجاني، ص ١١٨.

(٥) التجاني: نفس، ص ٨٧-٨٨.

(٦) المرزوقي، محمد: قابس جنة الدنيا - غابتها، خليجها، مدينتها، سكانها، تاريخها، رجالها، مكتبة الخانجي - مصر، ومكتبة المتنبي - بغداد، ١٩٦٢م، ص ٢٠-٢٢.



ثالثاً: العيون: لم يغفل التجاني في رحلته الشيقة التي جاب فيها كثيراً من البلاد الأفريقية، أن يذكر لنا العيون التي مر عليها وهي: عين الأمير (بقابس)، وعين تامدنت، وعين تاورغا، وعين سلام (بقابس)، عين سلام (بقلعة بني حماد)، وعين طرة، عين فارة، وعين ودرس (تودرست)، العيون (بطرابلس)، وعيون رحال^(١)، ووصف عيناً كبريتية تسمى عندما اجتاز الحامة المعروفة بحامة الجزيرة، وذكر أن ماءها شديد السخونة، ويوصي بها الأطباء لإبراء نوي العاهات، حيث يطلبون منهم الجلوس على مائها لدوائهم، وهذه الحامة جليلة مجربة النفع، وكانت قبل هذا محجوبة عن الناس ببناء محقق بها، ثم فتحت بعد ذلك للناس للاستشفاء^(٢)، ويصف التجاني أحد المنازل التي نزل فيها أثناء رحلته، بأنه: "منزل فيه نخيلات قليلة، وعيون من الماء جارية، وفيه قصر متسع يعرف باسم بوزرف"^(٣).

وتحدث التجاني عن قابس ووصف عينها الخراب، وذكر: "أنها محاطة بسور صخر عظيم من بناء الأولين، ولها أرياض واسعة، وجل أسواقها في أرياضها، وقد دار بسورها خندق متسع يجرون الماء إليه إذا خافوا من نزول عدو عليهم، فيكون أمنع شيء لها، ولها واد يسقي بساتينها ومزارعها، ويخترق في كثير من مواضع الغابة دورها وشوارعها، وأصل هذا الوادي من عين خرابة في جبل بين القبلة والمغرب منها، وأكثر بساتينها فيما بين المدينة والبحر، وبتلك الجهة الساحة المشهورة باسم ساحة عنبر"^(٤) وقد وصفت قابس بأنها مليئة بالعيون الجارية؛ وكان لذلك

(١) التجاني: الرحلة، ص ٨٩، ٣١٢، ١٥٣، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١٤١، ١٤٢، ٢٤٦، ٣١٥، ٣١٦.

(٢) التجاني: نفسه، ص ١٠، وتعرف الآن بحمام الأنف، قرية عامرة بها قصر لملوك العائلة الحسينية كانوا يشنون به، وبها عينان حارتان تقصدان للاستشفاء.

(٣) التجاني: نفسه، ص ٨٦. وفي هذا الموضع يقول أبو عبدالله محمد بن محمد المزدوري الهنتاتي في أيام اضطرتة الحال إلى الخروج من تونس والسكنى بتلك الجهات أنشدني:

هذي عيون وذرف
دع العيون تذرف
بُدلتُ من أرضي بها
وا أسفي وا أسفي

(٤) التجاني: الرحلة، ص ٨٧ - ٨٨.



أثر كبير على ازدهار النشاط الاقتصادي في المدينة ؛ فانتشرت القصور والحدائق والمنتزهات^(١)، وذكر: " أن أكثر بساينها فيما بين المدينة والبحر، وبذلك الجهة الساحة المشهورة باسم ساحة عنبر " وهي منتزه لسكان المدينة^(٢) .

كما تحدث عن اثنتين من العيون التي يصبها الفساد والأوبئة، وذلك في معرض إشارته إلى بعض المكاره التي حفت بها بساين قابس؛ وذلك ما يصبها من الوباء، وينتاب ساكنها من الأمراض؛ وسبب ذلك بحسب اعتقاد أهلها كثرة شجرة الدفلى^(٣) بها، فيكتسب الماء منها لدى جريه سمية ومرارة تضر بأبدان ساكنيها كثيراً؛ ولذلك لا تجد وجوه كثير من أهلها إلا مصفرة؛ وذلك بسبب فساد مائها وهوائها وليس في جميع مياهها ما يسلم من ذلك إلا العين المعروفة بعين الأمير، والعين الأخرى المعروفة بعين سلام، فإن ماء هاتين يسلم من الفساد لعدم مروره على نبتة الدفلى^(٤).

وتحدث عن قرية (كتانة)^(٥)، ووصف عيناً فيها بأن ماءها عين فوارة عذبة قد اجتمعت منها بركة ماء متسعة تلاصق سور القصر^(٦) من جهته الغربية، وتخرج مذانب ومسارب مائية تخترق الغابة فتعمها بالسقي^(٧). وعند مروره إلى قرية تسمى (الزارات) أشار إلى عين سحيقة العمق، ووصفها بأنها قرية ذات نخل كثير وماء غزير ينبع من عين حمئة، وقد اجتمعت لدى

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج ١، ص ٢٧٩.

(٢) التجاني: المصدر السابق، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٣) الدفلى: نبت مر زهره كالورد الأحمر وحمله كالخروب من الفصيلة الدفلية ويتخذ للزينة. مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط: ج ١، ص ٢٩٠.

(٤) التجاني: المصدر السابق: ص ٨٩.

(٥) هي قرية صغيرة ملتفة الشجر حسنة المنظر .

(٦) هو قصر كبير لأهل قرية كتانة يأوون إليه .

(٧) التجاني: المصدر نفسه، ص ١١٩.



منبعها أيضاً بركة ماء متسعة القطر عميقة القعر^(١)، ولم يغفل التجاني عن الإشارة إلى العيون الكبريتية التي صادفها، حيث تناولها عندما تعرض للحديث عن حمة مطامطة وذكر أنها: " تعرف بحمة مطامطة تفرقة بينها وبين حمة توزر المعروفة بحمة البهاليل، وذكر أنه رأى مدينة حاضرة تحف بها غابة نخل تحمل حملة، وجميع مياه هذه البلدة شروية، وهي في غاية السخونة، ويسخونة مائها سميت الحمة، والحمة في اللغة هي العين التي بمائها سخونة"^(٢)، وتحدث عن مدينة حمة مطامطة، وذكر أن الناس بنوا حمامات تستقي ماءها من العيون، وأخبر أنه: بهذه القسبة قناة ماء يتسرب إليها من خارجها في غاية القوة والتدفق، وقد بني عليها بيت على شكل حمام جاء في نهاية الظرافة والحسن^(٣).

كما تحدث عن عيون تسمى عيون رجال، وأخبر بأنها: "قفرة تتبع بها عينان نضاختان، وإلى جوارها نخيلات قليلة"^(٤). وعندما زار بلاد نفزاوة^(٥) أشار إلى: عين بها تسمى (عين طرة)، وأخبر بأنها إحدى قاعدتي بلاد نفزاوة، وهما طرة وبشرى، وهي محفوفة بالنخيل وبها التمر

(١) التجاني: رحلة التجاني، ص ١١٩.

(٢) المصدر: نفسه، ص ١٣٤-١٣٥.

(٣) المصدر: نفسه، ص ١٣٦.

(٤) نفسه، ص ١٤١.

(٥) **نفزاوة**: مدينة من أعمال إفريقية، وتسير من القيروان إلى نفزاوة ستة أيام نحو المغرب، وبمدينة نفزاوة عين تسمى بالبريرية تاورغي، وهي عين كبيرة لا يدرك قعرها، ولمدينة نفزاوة سور صخر وطوب ولها ستة أبواب وفيها جامع وحمام وأسواق حاقلية وهي كثيرة النخل والثمار وحواليها عيون كثيرة وفي قبلتها مدينة أزلية تعرف بالمدينة عليها سور وبها جامع وسوق، وبين مدينة نفزاوة وقابس ثلاثة أيام، وبينها وبين قفصة مرحلتان، وبينها وبين قيطون ثلاث مراحل، ومن نفزاوة تسير إلى بلاد قسطليلية وبينهما أرض لا يهتدى إلى الطريق فيها إلا بخشب منصوبة وأدلاء، فإن ضلّ فيها أحد يميناً أو شمالاً غرق في أرض دهشة تشبه الصابون في الرطوبة وقد هلك فيها العساكر والجماعات ممن دخلها ولم يدر أمرها، وتصل هذه الأرض السواخة إلى غدامس، ويقال: نفزاوة من نواحي الزاب الكبير بالجريد. الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٩٦.

المفضل على جميع البلاد، وأهم مناطق إنتاجها بلاد الواحات جنوب طرابلس^(١)، وبمقربة من هذه العين قسبة البلد^(٢)، وفي قرية (بشرى)^(٣) ذكر خبر عين بقرها تسمى (عين تاورغا) أعظم اتساعاً من عين طرة وأقوى ماءً؛ إلا إن في عين طرة حسناً ليس في عين تاورغا^(٤).

وعندما تحدث عن (وادي الرمل)، ذكر أن فيه ماء عذباً ومصدر المياه عدة عيون تتبع فيه، ووصف الوادي بأنه متسع عذب الماء، لا ينقطع ماؤه في شتاء ولا في صيف، ومبدؤه من الجبل قاطعاً إلى البحر، والمتجه ناحية المشرق يجعل الجبل يمينه، أو المتجه ناحية المغرب يجعله عن يساره، وذكر أن أصل مائه من عيون تتبع في أثنائه، تبتدئ من مسافة قريبة من الجبل فتجري قليلاً ثم تنقطع ثم تبتدئ بعدها عيون أخرى، ويصب ماؤها في البحر، ولا يعم الماء جميع الوادي إلا في وقت الأمطار عند نزول السيول من الجبل^(٥).

كما أشار التجاني إلى عين تسمى (عين تامدنت)^(٦) ووصفها بأنها عين متسعة عذبة الماء، تجري في واد متسع يشتمل على غابات مشتبكة من نباتات الأبا والقصب، وإلى جانبها أحساء ماء تشبهها في عذوبة الطعم^(٧).

(١) التجاني: الرحلة، ص ٢١٤.

(٢) التجاني: نفسه، ص ١٤٢.

(٣) بشرى: ذكرها ياقوت الحموي واكتفى بالقول: "اسم قرية"، ولم يزد على ذلك. الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٢٨.

(٤) التجاني: المصدر السابق، ص ١٥٢.

(٥) التجاني: نفسه، ص ٣١٠.

(٦) تامدنت: بلد من بلاد المغرب شرقي لمطة وقيل تامدنت، بالنون: مدينة في مضيق بين جبليين في سند وعر، ولها مزارع واسعة وحنطة موصوفة من نواحي إفريقية. الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٧.

(٧) التجاني: رحلة التجاني، ص ٣١٢.

ووصف عيناً أخرى تسمى (عين فارة)، وذكر أن هذه العين أعذب من الأولى، وهي بواد حسن المنظر شارح للنفس، وقبلها عين أخرى جارية إلا إنها أضعف جرياً منها، يجري ماؤها فينتهي إلى هذه العين، وتجتمع منه بركة ماء واسعة قد نمت حولها أشجار العرعر والخروع وغيرها من الأشجار، ثم يجري الماء من تلك البركة جرياً قوياً ويصب في البحر. (١).

وتعرض التجاني لعيون مدينة توزر (٢)، ووصفها، وذكر طريقة تقسيم مياهها، حيث ذكر أن: "توزر هي قاعدة البلاد الجريدية، وليس في بلاد الجريد غابة أكبر، منها ولا أكثر مياهاً منها" (٣)، وذكر أن أصل مياهها من عيون تتبع من الرمل وتجتمع خارج البلد في واد واسع، ثم تتشعب منه جداول كثيرة، وتتفرع عن كل جدول منها مذانب يقسمونها بينهم على أملاك لهم مقررة مقاسم من المياه معروفة، ولهم على قسمها أمناء ممن يتصف الصلاح فيهم، ويقسمونها على الساعات من النهار والليل، بحساب لهم في ذلك معروف، وأمر مقرر مألوف، وعلى ذلك الماء أرحاء كثيرة منصوبة، (٤).

ومن خلال رواية التجاني؛ يتضح أنه: كانت هناك طرق معروفة لتقسيم المياه بين الناس، ونظام مائي محكم يقوم عليه أمناء، وكذلك وجود منشآت مائية على الأنهار والعيون والآبار للاستفادة من المياه بأكبر قدر ممكن وتقليل المهدر منها. كما أشار التجاني إلى اهتمام فلاحو إفريقية بالتسميد للأرض المجربة في بلاد الجريد عن طريق التزيبيل. (٥).

(١) التجاني: الرحلة، ص ٣١٦.

(٢) توزر: مدينة في أقصى إفريقية من نواحي الزاب الكبير من أعمال الجريد، معمورة، بينها وبين نفطة عشرة فراسخ، وأرضها سبخة، بها نخل كثير للمزيد عنها انظر: الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٨.

(٣) التجاني: المصدر السابق، ص ١٥٧.

(٤) التجاني: رحلة التجاني، ص ١٥٧-١٥٨.

(٥) التجاني: رحلة التجاني، ص ١٦٠.



كما ذكر أيضًا أن فيها مكانًا يدعى (بياب المنشر) يتجمع الناس فيه للنزهة والاستجمام ، وهو مكان تجمع المياه ومنه تتفرع عدة فروع صغيرة وهو من أفضل الأماكن في توزر^(١) وتحدث التجاني عن عين قرب قرية زريق، وذكر أنه بمقربة من زريق نخلات على عين ماء هنالك عذبة المذاق^(٢)، وقد عمل أهالي إفريقية على توفير مياه الري عن طريق حفر الآبار، فقد قاموا بحفر بئر في قرية أجاس بالقرب من قابس عذبة الماء منها يشربون ويسقون مزارعهم^(٣). وتوجد مجموعة أخرى من الأودية التي يمكن أن يطلق عليها أودية سهوبية بحتة، فهي ذات نظام مائي متذبذب بشدة، ولا تجري هذه الأودية إلا بعد سقوط أمطار غزيرة، ومنطقة قابس تتلقى أمطارًا كثيرة مثل باقي أودية جنوب إفريقية بصفة عامة، تلك التي تصب في خليج قابس وهذا الجريان المتذبذب لأودية السهوب بتقسيماتها المختلفة لا يعتمد عليه في الزراعة^(٤)، وقد تحدث الونشريسي عن مياه الفلوات والأودية التي تتجمع من مياه الأمطار، حيث نكر أن مياه الفلوات في الأودية لا تكون ملكاً بمجرد الانتفاع بها دون استحقاق أصلها، ونكر أنه قد ترد الماشية مياه غير أهلها فيعمد أهل الماشية أن يملكوا ذلك بورود ماشيتهم عليها ورعيها فيها، ولكن لا يكون لهم ذلك؛ لأن مجرد الانتفاع بالماء غير المملوك الأصل مدة الحيازة لا يكون سبباً في التملك^(٥) وقد وردت مسائل كثيرة من نحو ذلك في كتاب المعيار حول المياه، وطرق توزيعها وكيفية الاستفادة منها^(٦).

(١) التجاني: الرحلة، ص ص ١٥٨.

(٢) نفسه، ص ١٨٠.

(٣) نفسه، ص ١٨١.

(٤) التجاني: رحلة التجاني، ص ١١٨.

(٥) الونشريسي: المعيار المعرب، ج ٨، ص ٣٨٤.

(٦) على سبيل المثال من هذه النوازل المتعلقة بقضايا المياه انظر: الونشريسي: المعيار المعرب، ج ٨،

ص ٤٠٧، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٦، ٤١٨، ٤٢٣، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٣٤،



رابعاً: البحيرات^(١) والغدران^(٢): ومما يؤكد حضور ظاهرة البحيرات والغدران في حياة أهل إفريقية وانشغالهم بها، أنه قد أشار إليها المؤرخون والرحالة، فهذا التجاني على سبيل المثال: يشير إلى إحدى البحيرات وذلك حين توجّه إلى توزر، فقد ارتحل عن نفزاوة وشرع في أول السبخة^(٣) المعروفة بتاكمرت، فقطع يسيراً منها وبات هناك على عين ماء، فلما كان ثلث الليل الأخير ارتحل وأخذ في اجتياز هذه السبخة، فلم يزل يقطعها سيراً إلى الزوال من اليوم التالي، ووجد فيها معالم قائمة من جنوع النخل تمنع السالك من الخروج عن طريقها المسلوك يميناً وشمالاً؛ لأن ما على يمينها وشمالها من الأرض مغائص لا تثبت عليها قدم، ولا يسلكها أحد جاهل بها إلا غاص فيها، وقد هلكت فيها الجماعات والعساكر ممن دخلها ولم يعرف أمرها، وإذا غاص فيها أحد التأمّت الأرض في الحين وعادت كما كانت^(٤).

ووصف التجاني هذه السبخة قائلاً: "إنها من غرائب الدنيا التي أغفلها المؤرخون، وأهمل وصفها الإخباريون، وذكر أنها أميال في أميال سطحاً واحداً كالفضة المسبوكة، أو الرخام المصقول، يكاد ينفذ البصر لصفائه، وكأنما هو غدير ماء جمد بمائه، والناس يمشون فيها كأنهم يمشون على بساط من الكافور أو سطح من البلور"^(٥)، ويضيف التجاني في وصف هذه السبخة، بأنه شاهد: كيف يقاوم الناس النزول في الأرض، وكيف رأى بعض المخلفات الآمية، التي تنل على هلاك كثير من المارة

(١) البحيرة: مُجْتَمَع الماء تحيط به الأرض. مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط: ج ١، ص ٤٠.

(٢) الغدير: القطعة من الماء يغادرها السيل و (عند الجغرافيين) النهر الصغير. مصطفى وآخرون: المرجع السابق، ج ٢، ص ٦٤٥.

(٣) السبخة: أرض ذات نز وملح، والسبخ: المكان تسوخ فيه الأقدام، والسبخة: ما يعلو الماء من طول الترك كالطحلب ونحوه. الزبيدي: تاج العروس، ج ٧، ص ٢٦٩.

(٤) التجاني: رحلة التجاني، ص ١٥٤-١٥٥.

(٥) التجاني: نفسه، ص ١٥٥.



في هذه المنطقة، وقد رأى امرأة قد ضمت يدها على طفلتها فماتتاً معاً^(١). ويذكر من عجائب ماء هذه السبخة أنه: " لا يمكن أن يشرب بها ماء عذب، فإن الماء إذا استصحب فيها عاد بهوائها ملحاً أجاجاً على طبعها " ^(٢) .

وعن ظاهرة الأحساء^(٣) والغدران التي تظهر وقت السيول وهطول الأمطار، ثم تجف بعد ذلك يذكر التجاني ارتحاله إلى موضع يعرف بالعقلة، وهو واد متسع بجبل، يجري في وقت الأمطار ويجف في غيره، وهناك صادفه في ذلك الوقت عدم وجود ماء، إلا ماء في أحساء صغيرة، وتلك الأحساء هي المسماة بالعقلة، والعقلة عند العرب هي التي يحبس الماء فيها عن أن يسير، فبات هنالك تلك الليلة على غير ماء، وقاسى في مبيته هذا شدة كبيرة ^(٤) .

وتابع التجاني حديثه عن ماء القصار ووصف ما فيها من أحساء، حيث انتقل إلى ماء يعرف بالقصار، وهي أحساء لا يستطيع أحد لمائها شرباً، ولا يجب لليلة قربها قريباً، ثم انتقل إلى ماء يعرف بأبي لا يحمد مذاقه مختبر، ولا يصبر لتجرع صبره مصطبر، ومن هذا الماء فارق أرض المحاميد، وودع في هذا اليوم أميرهم يعقوب بن عطية، وانقلب راجعاً إلى مخيمه، وبات تلك الليلة هنالك، ثم ارتحل من الغد فنزل بماء يعرف بتانر، وهو أول أرض الجواري^(٥) .

(١) التجاني: رحلة التجاني، ص ١٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٦. يمكن القول إن ماء هذه السبخة مالح، لكن لا يمكن القبول: أن الهواء يغير طعم الماء فيها، ويجعله مالحاً هذا من باب المبالغة والتهويل .

(٣) الأحساء: السهل من الأرض يستتقع فيه الماء والرمل المتراكم تحته صلابة فإذا نزل المطر منع الرمل حر الشمس أن ينشفه ومنعته الصلابة أن يغور فإذا حفر وجه الرمل عن ذلك الماء نبع بارداً عذباً، كما يحدث في إقليم الأحساء في شرقي جزيرة العرب. ينظر: مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط: ج ١، ص ١٧٤.

(٤) التجاني: المصدر السابق، ص ١٨٣.

(٥) التجاني: الرحلة، ص ٢٠٥-٢٠٦.

ويتبين من خلال ما تم استعراضه من رحلة التجاني أن الهاجس الذي كان يدندن حوله هو الماء، حيث كان يكثر من التحدث عنه ووصف أماكنه ومسمياته، حتى غدا شغله الشاغل، وهذا أمر طبيعي كون المسافر في البيداء أكثر ما يفكر فيه ويخشاه هو فقد الماء، فالماء في كل الأحوال يساوي الحياة، ولكن تتجلى هذه الحقيقة أكثر في حال السفر، حيث يبتعد المرء عن مواطن المياه والتجمعات البشرية، ويصبح أسير الصحراء التي لا يعرف مصيره فيها، فالسفر قطعة من العذاب، وفقد الماء في مثل هذا الموطن يعني الموت المحتم، وتتحول مصادر المياه الطبيعية من الأمطار، والأنهار، والعيون، والبحيرات إلى طوق النجاة، والرحمة التي لا يستغني عنها العبد في مثل هذه المواطن أو غيرها، ولكنها تتجلى في حالة السفر على صورة التمام.

ثانياً: المصادر المائية المستحدثة : (الآبار والعيون والقنوات الخاصة) (١):

تعد الآبار وسيلة أساسية وحيوية لإنتاج المياه في إفريقية؛ وذلك لقلة مياه الأنهار فيها، وقد تختلف أهميتها باختلاف المجال الجغرافي الموجودة فيه، وأيضاً باختلاف الظروف الطبيعية بصفة عامة، وهذا الاختلاف انعكس بصفة مباشرة على الجانب الفقهي التشريعي (٢).

ويلحق بالآبار الخاصة العيون الخاصة، وهي متعلقة بعملية الاستنباط البشري، لتكون بذلك العيون المائية ملكاً لمن بذل الجهد في استنباطها، أو أن يستنبطها الرجل في ملكه، فيكون أحق بماء العيون لشرب أرضه، فإن كان قدر كفايتها فلا حق عليه إلا لشارب مضطر (٣)، كما يلحق بها القنوات الخاصة: وهي المجاري المائية المعروفة بالأنهار الآدمية، أي الأنهار التي قام الناس بحفرها، وأصبحت ملكاً مشتركاً بينهم لا يختص أحدهم بملكه، وبهذا يكون النهر أو المجرى أو المصرف المائي مملوكاً لمن قام بحفره من أصحاب الأرض لا حق فيه لغيره (٤).

(١) عليوش : الثروة المائية في ريف المغرب الأوسط ، ص ٥١.

(٢) برنشيفك: تاريخ إفريقية، ج ٢، ص ٢١٨ ؛ علوي: قضايا الماء في بلاد المغرب الأقصى ، ص ٥٢.

(٣) علوي: المرجع السابق، ص ص ٥٣-٥٤.

(٤) علوي: نفسه، ص ٥١.



وتحدث التجاني في رحلته في بلاد إفريقية عن كثير من الآبار التي مر عليها في رحلته، حيث ذكر منها: (بئر الزكرة، وبئر الشهداء، وبئر طشانة، وبئر العقلة، وبئر الكاهنة، وبئر أبي الكنود وبئر ينوت)^(١)، وألمح إلى وجود سواني يتم استخراج ماء الآبار بواسطتها، فقد خلص إلى واد يعرف بوادي الزركين، ورأى هنالك سواني^(٢) لبعض المرابطين تسقي من آبار عذبة^(٣)، وهذا يدل على وجود المياه الجوفية في هذه المناطق، وأن السكان يعملون على استنباطها واستصلاحها والاستفادة منها في الشرب وسقي المزروعات.

إن وجود مثل هذه التقنيات المائية في مدن إفريقية؛ يدل على ما وصلت إليه من تقدم ورقي حضاري وتقني، ومع عدم انتظام سقوط الأمطار في أفريقيا، اتجهت عناية سلاطين الدولة الحفصية للاستفادة من مياه الأمطار والسيول وحفظها في المواجل^(٤) والسدود والخزانات الكبيرة، وهذه التقنية موجودة في إفريقية منذ عصر الولاة حيث ذكر البكري قائلاً: ". وخارج مدينة القيروان

(١) التجاني: رحلة التجاني، ص ص ٣١٩، ١٦٢، ٣١٠، ٢٠٥، ٥٨، ٢٥٩، ٣١٧.

(٢) السواني: جمع سانية، وتطلق بعدة معان، منها: السانية: بمعنى الدولاب أو الناعورة التي يجرها البعير، وقد تطلق السانية على البعير نفسه الذي يستقى عليه من البئر، كما تطلق السانية على المرأة التي تتولى سقاية الناس. انظر: قلعي، محمد رواس، قنيبي، حامد صادق: معجم لغة الفقهاء، دار النفائس-بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٨٨م، ص ٢٣٩، وهي أصلها من (سنى) فالسين والنون والحرف المعتل أصل واحد يدل على سقي، وفيه ما يدل على العلو والارتفاع، يقال: سنت الناقة إذا سقت الأرض، والسحابة تسنو الأرض، والقوم يستنون لأنفسهم إذا استقوا. ابن فارس: مقاييس اللغة: ج ٣، ص ١٠٣؛ ويذكر برنشفيك أنها البستان المروي، تاريخ إفريقية، ج ٢، ص ٢١٦.

(٣) التجاني: المصدر السابق، ص ٣٢٠.

(٤) المواجل: مفردا (المأجل): شبه حوض واسع يؤجل فيه ماء البئر أو القناة أياماً ثم يُفجر في الزرع. ابن فارس، أحمد القزويني: مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر - بيروت، ١٩٧٩م، ج ١، ص ٦٥.



خمسة عشر ماجلاً للماء سقايات لأهلها من بنيان هشام بن عبد الملك وغيره، أعظمها شأنًا وأفخمها منصبًا ماجل أبي إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب^(١) بباب تونس، وهو مستدير متاهي الكبر في وسطه صومعة منمّنة في أعلاها قصبه لرقبة مفتحة على أربعة أبواب على أحد عشر رجلاً لا خلل بينهم كيلا يصل مخط، فإذا امتلأ الماجل كان ذلكا، وسطح هذه القصبه نحو ذراعين، كان ابن الأغلب يدخل إلى هذه القبة في مركب يسمّى بالزلاج، ويتصل بهذا الماجل في قبليّه أقباء طويلة معقودة آزاجا على آزاج، وكان زيادة الله^(٢) قد بنى على غربيّ هذا الماجل قصرًا، وجوفيّ هذا الماجل ماجل لطيف متّصل به يسمّى (الفسقية)، يقع فيه ماء الوادي، إذا جرى على جنبتين كبيرتين تتكسر فيه شدة جريان الماء، ثم يدخل منه إلى الماجل الكبير...^(٣).

أما السدود الصغيرة، فكان يقيمها السكان في المناطق المغروسة، وذلك للاستفادة من مياه الأمطار بتخزينها أمام هذه السدود، فتشكل بحيرات صغيرة للاستفادة منها في الري وزراعة المراعي، كما توجد السدود التحويلية التي تستخدم للري، حيث الأودية الجافة، وتشيد حواجز بهدف رفع مستوى المياه، ومن ثم تحويلها عبر قنوات تنتشر على ضفاف الوادي إلى الأراضي الزراعية لريها^(٤).

(١) أحمد بن محمد بن الأغلب سابع الأغلبية أصحاب تونس وإفريقية، تولى بعد وفاة عمه أبي العباس (محمد بن الأغلب) سنة ٢٤٢هـ، وكان حسن السيرة، حبًا للعرمان، رفيقًا بالرعية، بلغ ما بناه من الحصون بإفريقية نحو عشرة آلاف حصن، بالحجارة والكلس وأبواب الحديد. زاد في جامع القيروان ومسجد تونس، وبنى سور سوسة (سنة ٢٤٥)، للمزيد عنه انظر: الزركلي: الأعلام، ج ١، ص ٢٠٤.

(٢) زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب بن سالم، أبو محمد: رابع الأغلبية أصحاب إفريقية، ولي بعد وفاة أخيه عبد الله (سنة ٢٠١ هـ وجاءه التقليد من قبل المأمون العباسي، وثبت على دعائه له أيام وثوب إبراهيم بن المهدي على الخلافة، فلما خلصت للمأمون شكر له ذلك، وأول من سمي (زيادة الله) من ولادة بني الأغلب، الزركلي: الأعلام: ج ٣، ص ٥٦.

(٣) البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي: المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م، ج ٢، ص ٦٧٧.

(٤) دحروج: مدينة قابس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية، ص ١١٩.



وقد مر التجاني أثناء رحلته بمناطق أرضها قاسية وصلبة يصعب حفر الآبار فيها، وتحدث عن غمراسن وهو اسم لناحية من الجبل المتصل الذي أصله جبل درن بالمغرب، ونكر أن فيها بعض الآبار، وتحف بهذا الجبل مزارع فيها نخل كثير، لا يرى أحسن من رطبه، وفيها آبار ليست بالكثيرة يستقون منها، وأكثر مزارعهم الذرة التي يسمونها القصب، ورأى التجاني أن سبب قلة آبارهم هو ما يعانونه في حفرها من شدة الأرض وصلابتها، حتى إن الرجل ليملك في حفر البئر العام والعامين بحسب كبر البئر وصغرهما^(١).

وهذا يدل على وجود صعوبات في بعض مناطق إفريقية تواجه الإنسان هناك في حفر الآبار التي قد يستغرق حفرها سنتين؛ لذلك يتوجه السكان إلى الاعتماد على تجمعات مياه الأمطار. وأشار التجاني إلى مجموعة من الآبار الأخرى، فتحدث عن بئر العقلة وكيف أن ورود الإبل عليها جعلها تتغير، فيذكر أنه بات على غير ماء، ثم أصبح فنزل ببئر تعرف بالعقلة، وهي بئر مرة تتضمنها أرض قفرة،^(٢).

وكلامه هذا يدل على: أن البئر عندما يتم حفرها تبقى صالحة للاستعمال فترة من الزمن تطول أو تقصر، ثم تنتهي صلاحيتها أو تقل، إما بسبب نقصان كمية المياه في البئر، على اعتبار أنها من الآبار المتجددة التي يزيد ماؤها أو يقل بحسب الهطولات المطرية، فإذا كانت إحدى السنوات سنة خير وبركة وأمطار، فإن هذه الآبار تمتلئ وتتدفق بالمياه، وإذا كانت سنة شح وقحط، فإن المياه في هذه البئر وأمثالها تغور، أو يقل منسوبها، وقد يكون انتهاء صلاحية البئر بسبب تحول مائه من الماء العذب الصالح للشرب إلى الماء المالح، فيؤدي ذلك إلى هجران البئر واندثاره مع الزمن، ثم البحث عن مكان جديد لحفر بئر جديد.

(١) التجاني: رحلة التجاني، ص ١٨٦.

(٢) التجاني : نفسه ، ص ٢٠٥.



كما تحدث التجاني عن بئر أخرى تسمى (ينوت)، وهي بئر معينة عذبة بسفح^(١) جبل عال، فذكر أنه نزل بالبئر المعروفة ببئر ينوت^(٢). وأشار إلى بئر الكنود^(٣) الواقعة في مدينة طرابلس^(٤)، وذكر ما شاع بين الناس بخصوصها أن من شرب منها فقد عقله، وأنهم يعيرون الشارب منها ومن أتى منهم بما يلام عليه قيل له: لا عتب عليك فقد شربت من بئر أبي الكنود، وهذه البئر قد رآها التجاني بداخل المدينة، وعليها يورد الناس بهائمهم، وكثير من أهل البلد يشرب من مائها، ولا يتحرج من ذلك مع علمه بما يشاع عنها^(٥).

وتحدث عن الماء الذي تشرب منه قرية بتاغرمت، حيث ذكر أن شربهم من أجاب مملوكة لهم تملأها السيول المنحدرة من تلك الجبال في أوقات الأمطار^(٦)، وبهذا يتبين أن السيول هي التي تغذي هذه الآبار، ما يعني أنها من المياه الجوفية المتجددة.

(١) السَّفْح: عَرْضُ الجبل حيث يسفح فيه الماء، وهو عَرْضُهُ المضطجع؛ وقيل: السفح أصل الجبل؛ وقيل: هو الحضيض الأسفل، والجمع سفوح؛ والسفوح أَيْضًا: الصخور اللينة التزلقة. ابن منظور: لسان العرب، ج ٢، ص ٤٨٥.

(٢) التجاني: رحلة التجاني، ص ٣١٧.

(٣) بئر أبي الكنود: هي بئر في مدينة طرابلس الليبية يعيرون بها، ويحمق من شرب منها فيقال للرجل منهم إذا أتى بما يلام: لا يعتب عليك لأنك شربت من بئر أبي الكنود. الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٥.

(٤) طرابلس: مدينة في المغرب الإسلامي بها أسواق حافلة، وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون أعمارها وأشهرها مسجد الشعاب، وهي كثيرة الثمار والخيرات، ولها بساتين جليلة في شرقها وتتصل بالمدينة سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير، وأعدب آبارها بئر القبة. الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٥.

(٥) التجاني: المصدر السابق، ص ٢٥٩.

(٦) التجاني: رحلة التجاني، ص ٣١٨.



وفي قابس تتكون المياه الجوفية من: الفجارات^(١): وهي نوع من الآبار وتسمى في براري قابس بالخرانق والآبار السطحية: كانت تشكل الحل الجذري لمشكلات إمدادات المياه للشرب والري في المناطق الجافة والصحراوية لقابس .

وتوجد المياه الجوفية في كل مكان في البوادي وعند الجبال حول قابس، مما جعل حفر البئر أمراً ميسوراً لمن يريد الزراعة أو حتى البناء، وهذه المياه الجوفية قد تكون عذبة رقيقة أو تكون مياه جوفية حارة ساخنة مثل مياه الحامة (حامة قابس) التي يستفاد منها في الاستشفاء، وكذلك واحة شاشو التي تستخدم فيها العيون والآبار الجوفية في الزراعة، وعندما يحدث فيضان لأحد الأودية، فإنه يستفاد من مياهه في ري البساتين ويذهب الباقي إلى البحر، ولاتقاء شرور الفيضان؛ يقوم الفلاحون بإنشاء سدود ترابية للاستفادة من المياه دون الغرق، وتلك السدود قديمة عرفها الرومان في قابس، وهي عبارة عن حفر طولية أو أخاديد بنسب متتابعة لكي تحتجز المياه الفيضية وتمنعها من الجريان الشديد، كما تفتح أيضاً في حالة حدوث المطر الشديد، ولا ننسى عرب الفتح الإسلامي لأفريقية الذين عملوا في تنظيم الزراعة والري وحفر الآبار وتحسين تلك السدود وتدعيمها وبخاصة القديمة بحيث لا يتجاوز ارتفاعها نصف متر، وذلك تبعاً لدرجة انحدار الأرض^(٢).

ومن أهم فوائدها، إلى جانب تقليل الجريان السطحي للمياه، ترسب طبقة الغرين أو الطمي أمامها مما يؤدي إلى زيادة مساحة المزروعات، فهي ضرورية؛ إذ إنها تزيد من خصوبة التربة في بعض المواضع الصحراوية، لذلك تزيد مساحة الرقعة الزراعية إلى جانب فائدة أخرى كبيرة؛ إذ تنمو

(١) الفجارات : جمع فجارة وهي منشآت تقوم الدولة بإنشائها تتجمع فيها المياه لاستعمالها وقت الحاجة انظر: روبر برنشفيك: تاريخ إفريقية، ج ٢، ص ٢١٩-٢٢٠.

(٢) دحروج: مدينة قابس ، ص ١٢٠ .



الأعشاب حولها بكثرة مما يشجع على الري وتربية الحيوانات^(١)، ويشير ابن خلدون إلى طريقة استنباط المياه الجارية في البلاد الصحراوية، فيذكر كيفية حفر البئر عن طريق حفر " حفرة عميقة بعيدة المهوى وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة، فتتحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يرق جرمها، ثم تصعد الفعلة ويقفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقتها الرقيقة على الماء، فينبعث صاعداً، فيعم البئر ثم يجري على وجه الأرض وادياً"^(٢). وكل ذلك كان يتم يدوياً وبأدوات بسيطة، مما يدل على الجهود التي كان يبذلها الإنسان المغربي؛ حتى ينجز حفر البئر، إلا إن عمق الحفر في البئر حتى الوصول إلى الماء يختلف بحسب طبيعة الأرض والمناخ.

- طرق استنباط المياه (النواعير^(٣) والسواني و الخطارات^(٤)):

إن النواعير والسواني والخطارات كلها عبارة عن دواليب لرفع الماء، وقد وردت في كتب النوازل بكثرة؛ مما يشير لحضورها في الحياة العامة في إفريقية^(٥). ومملا شك فيه أن كثرة

(١) دحروج: مدينة قابس، ص ص ١٢٠ - ١٢١.

(٢) ابن خلدون، عبدالرحمن: تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، ج ٧، ص ص ٧٧-٧٨.

(٣) النواعير: مفردتها الناعور، وهو دولايب نو دلاء أو نحوها يدور بدفع الماء أو جر الماشية فيخرج الماء من البئر أو النهر إلى الحقل. انظر: مصطفى، إبراهيم، وآخرون: المعجم الوسيط، ٩٣٤/٢، قال الجوهري: يستقى بها، يديرها الماء، ولها صوت. الجوهري، إسماعيل بن حماد: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧م، ج ٣، ص ٣٩٦.

(٤) الخطارة: هي صنف من الدواليب علق بالتحريك، وآخره قاف، وهو لجميع آلة الاستسقاء بالبكرة على الأبيار من الخطاف والمحور والبكرة والنعامتين وحبالها كله يقال له علق، بنحمادة، سعيد: الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين ٧ و ٨هـ / ١٣ و ١٤م - إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات، دار الطليعة - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، ص ٥٩؛ وقد وصفها برنشفيك بالعجلات الرافعة، انظر: تاريخ إفريقية، ج ٢، ص ٢١٩.

(٥) الونشريسي: المعيار المعرب: ج ٨، ص ص ٣٩٢-٣٩٣.



الأدوات والوسائل المستحدثة لمعالجة المياه والتعامل معها هي إحدى علامات التقدم التقني، وأبرز معالم الحضارة، وقد تحدث ابن خلدون حول هذا الأمر ونكر: " أن كمال الصنائع إنما هو بكمال الحضارة وكثرتها بكثرة الطالب لها، فلذلك عندما تكون الدولة بدوية في أول أمرها تقتصر في أمر البناء إلى غير قطرها، وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشياء من الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن وإجراء المياه بأخذ الارتفاع وأمثال ذلك فيحتاج إلى البصر بشيء من مسائله، وكذلك في جر الأثقال بالهندام، فإن الأجرام العظيمة إذا شيدت بالحجارة الكبيرة يعجز قدر الفعلة عن رفعها إلى مكانها من الحائط، فيتحيل لذلك بمضاعفة قوة الحبل بإدخاله في المعالق من أنقاب مقدره على نسب هندسية تصير الثقل عند معاناة الرفع خفيفاً، فيتم المراد من ذلك بغير كلفة، وهذا إنما يتم بأصول هندسية معروفة متداولة بين البشر " (١).

كما أشار التجاني في رحلته إلى ظاهرة رفع الماء عن طريق السواني، وذلك عندما وصل إلى واد يعرف بوادي الزركين، حيث رأى هناك سواني لبعض المرابطين تسقي من آبار عذبة هنالك (٢). وتحدث التجاني أيضاً عن استعمال السواني في موضع يقال له: نليل، وهو حصن في رأس تل مشرف على البحر، وتحف بالقصر في سند النل دور كثيرة معمورة، وما تحت النل سواني ومزارع، وليس هناك شجرة واحدة، وإنما معتمدهم في سكناهم بذلك القصر على ما يزرعونه بتلك السواني، وبها آبار معينة إلا إن ماءها شريب، وليس العذب منها إلا ما بين النل والبحر (٣).

(١) ابن خلدون: المقدمة، ج ١، ص ٥١٣.

(٢) التجاني: رحلة التجاني: ص ٣٢٠.

(٣) التجاني: نفسه، ص ٢١١.



تعد السواقي والجداول والخطارات من التقنيات المهمة في إفريقية، كما إن اتجاه مجاريها ومقدار صبها يكشفان عن التداخل بين ملكيتها والأراضي التي تمر من خلالها؛ لأن معظم السواقي والجداول تعبر أراضي في ملك الغير، وما يفرزه ذلك من تداعيات تتعلق باستحقاق المجرى، ورقبة الساقية والنباتات التي تنمو على ضفاف الجداول، وحصص السقي والإصلاح والكنس، وتتفرع الجداول والسواقي عادة إما من المصدر المائي الواحد كالأودية، وإما من الخزانات والصهاريج المعدة لتجميع المياه وتوزيعها بالتساوي بين المستفيدين^(١).

- قوانين السقاية وتوزيع المياه :

يتبين من الواقع الاجتماعي المتعلق بالماء في بلاد إفريقية أن هناك قوانين تتعلق بالماء والسقاية مستمدة من الشريعة الإسلامية ومن الأعراف الاجتماعية، ومن خلال تلك القوانين تم تقسيم المياه على الأراضي والبساتين، وتم فض النزاعات الناشئة عليها وبسببها، وقد أشار الوثريسي إلى كثير من النزاعات التي حدثت حول المياه وكيفية توزيعها وطرق حل تلك النزاعات^(٢).

وظيفة السقاء في مجتمع إفريقية : لم أفت على أي عبارة تشير إلى وظيفة السقاء في المجتمع الحفصي في رحلة التجاني، رغم الدور المهم الذي كان للسقائين في تزويد المدن والبيوت بالماء في بلاد المغرب الإسلامي، فقد كان يتم نقل الماء على ظهور الدواب، والسقاء هو من يتعاطى نقل الماء وقت انقطاع الماء عن الدور بقربة جلدية^(٣) وذكر ابن بطوطة أن من عادة السقائين أنهم ينزلون على جوانب العين ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمال ويملأون الروايا والقرب^(٤).

(١) بنحمادة: الماء والإنسان في الأندلس، ص ٥٦-٥٧.

(٢) الوثريسي: المعيار المغربي، ج ٨، ص ٢٩، ٣٢، ٤٣، ٤٤، ٢٩٣، ٣٩٨، ٣٩٩.

(٣) معجم المهن القديمة والحديثة حتى أبواب القرن الحادي والعشرين، (د.ن)، (د.ت)، ص ١٢

(٤) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار، ج ١، ص ٣٤٧.



وأشار البكري إلى وجود ظاهرة السقائين في المجتمع التونسي، حين وصف مدينة تونس وذكر أنها تقع في سفح جبل يعرف بجبل أم عمرو، ويدور بمدينتها خندق حصين، ولها خمسة أبواب: باب الجزيرة قلبي ينسب إلى جزيرة شريك ويخرج منه إلى القيروان، ويقابله الجبل المعروف بجبل التوبة في أعلاه قصر مبني مشرف على البحر، وبشرقي هذا القصر غار منحنى الباب يسمى المعشوق، وبالغربي منه عين ماء، وبغربي هذا الجبل يعرف بجبل الصيادة فيه قرى كثيرة الزيتون والثمار والمزارع، وفي هذا الجبل سبعة مواجل للماء أقباء على غرار واحد، وبغربي هذا الجبل أيضاً أشرف ومزارع متصلة بموضع يعرف بالملعب قد غرس بجميع الثمار وأصناف الرياحين، وبشرقي مدينة تونس باب قرطاجنة نونه داخل الخندق بساتين كثيرة وآبار بسوان تعرف سواني المرح، وباب السقائين جوفي نسب إلى السقائين؛ لأنّ بئرًا تعرف ببئر أبي الققار تقابله، وهي بئر كبيرة عزيزة عذبة المائة نميرة^(١).

الخاتمة

- تعد كتب الرحلات مصدرًا مهمًا من مصادر التاريخ الإسلامي.
- تعد رحلة التجاني مصدرًا مهمًا لتاريخ المغرب الأدنى في أوائل القرن الثامن الهجري .
- اتضح من الدراسة مدى معرفة التجاني بموارد المياه في مدن إفريقية وقراها .
- تنوعت مصادر المياه في إفريقية كما ورد في رحلة التجاني .
- تعطي الرحلة صورة مهمة عن موارد المياه وكيفية الاستفادة منها .
- عرضت الرحلة لبعض موارد المياه المستحدثة .
- اتضح من الدراسة مدى العلاقة بين المدينة والماء، الذي شكل عبر التاريخ مركز الاستقرار البشري ؛ مما يثير كثير من التساؤلات حول نشأة المدن واندثارها .
- تفرد التجاني بمعلومات في غاية الأهمية عن الآبار والعيون في مدن المغرب الأدنى .

(١) البكري: المسالك والممالك: ج ٢، ص ٦٩٧.

قائمة المصادر والمراجع :

أولاً : المصادر :

- الإدريسي، محمد بن محمد (ت ٥٦٠هـ): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ابن بطوطة، محمد بن عبدالله (ت ٧٧٩هـ): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ.
- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ): المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م.
- التجاني، أبو محمد عبدالله بن محمد (ت بعد ٧١٠هـ): رحلة التجاني، تقديم: حسن حسني عبدالوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، الطبعة الثانية، ١٩٨١م.
- التنبكتي، أحمد بابا (ت ١٠٣٦هـ): نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم: الدكتور عبدالحميد عبدالله الهرامة، وضع هوامشه وفهارسه: طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية - طرابلس (ليبيا)، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧م.
- الحموي، ياقوت (ت ٦٢٦هـ): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.
- ابن حوقل، محمد البغدادي الموصلني (٣٦٧هـ): صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت - ابن خلدون، عبدالرحمن (ت ٨٠٨هـ): تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.



- الزبيدي، محمد بن محمد (ت ١٢٠٥هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية (د.ت).
- الزركشي، أبي عبدالله محمد بن إبراهيم: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق: محمد ماضور، تونس، ط٢.
- ابن الشماع، أبو عبدالله محمد بن أحمد: الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم، الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤م.
- ابن فارس، أحمد القزويني (ت ٣٩٥هـ): مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م.
- القزويني، زكريا بن محمد (ت ٦٨٢هـ): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د.ت.
- القلقشندي، أبي العباس أحمد بن علي (٨٢١هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.
- ليون الإفريقي، الحسن بن محمد الوزان الفاسي (ت ٩٥٧هـ): وصف أفريقيا، ترجمه عن الفرنسية: الدكتور محمد حجي والدكتور محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.
- المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري (ت ٣٨٠هـ): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩١م.
- المقرئ التلمساني، شهاب الدين أحمد بن محمد (المتوفى: ١٠٤١هـ): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.



- ابن منظور، محمد بن مكرم (٧١١هـ): لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.
- الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت ٩١٤هـ): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل أفريقية والأندلس والمغرب، خرجه: جماعة من الفقهاء بإشراف/ الدكتور محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، ١٩٨١م.
- **ثانياً: المراجع :**
- سراج أحمد: حول استمرار أحد مظاهر الديانات المائية القديمة بمغرب العصر الوسيط، ضمن كتاب (الماء في تاريخ المغرب) منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم (١١)، مطبعة المعارف الجديدة-الرباط، ١٩٩٩م.
- سعيد بنحمادة : الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين ٧ و٨هـ / ١٣ و١٤م - إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
- حسن حسني عبدالوهاب : خلاصة تاريخ تونس، دار الجنوب للنشر، تونس ٢٠٠١م
- الجمل، شوقي عطا الله، وإبراهيم، عبدالله عبدالرزاق: مشاكل المياه في أفريقيا، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ٢٠١٣م.
- الزركلي، خير الدين: الأعلام. دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشر، ٢٠٠٢م.
- العرجاوي، كريم، وآخرون: من المنشآت المائية بفاس المزينية، نسخة إلكترونية بصيغة PDF.
- علوي، محمد لمراني: قضايا الماء في بلاد المغرب الأقصى من خلال كتب النوازل الفقهية (المعيار للونشريسي كنموذج): مدرج في كتاب (الماء في تاريخ المغرب)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم (١١)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٩م.



- عليوش، وسيملة: الثروة المائية في ريف المغرب الأوسط: خريطتها، منشأتها، استغلالها- من القرن ١١هـ إلى نهاية القرن ١٦هـ). رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم التاريخ بكلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية - جامعة قسنطينة (الجزائر)، ٢٠١٣م.
- عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣م.
- عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧م.
- عوض الله، محمد فتحي: الماء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩م.
- كمال السيد أبو مصطفي: جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي، الإسكندرية، ١٩٩٦م .
- محمد الثيفر: عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ١٩٩٦م .
- محمد المرزوقي: قابس جنة الدنيا - غابتها، خليجها، مدينتها، سكانها، تاريخها، رجالها، مكتبة الخانجي - مصر، ومكتبة المتنبّي - بغداد، ١٩٦٢م .
- مزيان، أحمد: استغلال الماء في الواحات - نموذج فجيج (فكيك)، مدرج في كتاب (الماء في تاريخ المغرب)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم (١١)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٩م.
- مصطفى، إبراهيم، وآخرون: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، دار الدعوة، (د.ت).
- Mas.Latre , Relations Des Chretens , Des Chiretiens Avec les Arabes De l'a Frique Ptentrionale , Paris , 1866 . se

ابن سباط مؤرخاً من خلال كتابه صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط

د/ الشيماء سيد كامل محمد

أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية دار العلوم - جامعة المنيا

ملخص البحث :

ابن سباط مؤرخاً من خلال كتابه صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط تتناول هذه الورقة البحثية دراسة منهج عالم موسوعي جمع بين علوم التاريخ والجغرافيا والشعر، هو المؤرخ ابن سباط، الذي يعد من مؤرخي العصر المملوكي في الشام. وقد تناولت هذه الورقة عدة نقاط:

- ١- ترجمة المؤلف ومولده في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي ونشأته في بلده عيبة الواقعة على السطح الغربي من سلسلة جبال لبنان الغربية، وأهم المصنفات التي كتبها.
- ٢- وصف كتاب صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط. منهج ابن سباط في مصنفه..
ابن سباط شاهد عيان على اغلب الأحداث التاريخية التي نكرها.
لغة ابن سباط وأسلوبه.
- ٣- أشهر المؤرخين الذين استفاد منهم في تاريخه.
رصد العديد من المنشآت المعمارية في مصر والشام.



Abstract

Ibn Sabat, dated through his book, the true of the News known as Ibn Sabat's History

This paper examines the curriculum of a colloidal World that combines the sciences of History, geography and poetry, the historian Ibn Sabat. It is a royal historian of the age of Cham.

This paper addressad several points :

-the translation and birth of the autgor in the gth Hijri\ 15th century ad, and his creation in his country is on the western surface of the western

Lebanon Mountain range. The most important works he wrote

-the book of the true news, known as Ibn Sabat's history, was described.

Ibn Sabat's approach in his workbook.

Ibn Sabat's an eyewitness of most of the historical events he mentioned the language and style of Ibn Sabat.

-the most famous historians who have benefited from their history.

Monitorin of many architural facilities in Egypt and Al-Sham

مقدمة: تتناول هذه الورقة البحثية دراسة منهج عالم موسوعي جمع بين علوم التاريخ والجغرافيا والشعر هو المؤرخ "ابن سباط" الذي يعد من مؤرخي العصر المملوكي في "الشام"، ذلك العصر الذي يعرفه طلاب العلم في شتى أرجاء العالم الإسلامي، والذي ظهر فيه عدد كبير من مؤلفي الموسوعات العلمية، حتى سمي هذا العصر بـ"عصر الموسوعات". وقد تناولت هذا الموضوع في عدة نقاط:

أولاً: - ترجمة المؤلف.

ثانياً: - وصف كتاب ابن سباط.

ثالثاً: - منهج ابن سباط في مصنفه.

رابعاً: - لغة ابن سباط وأسلوبه.

خامساً: - أشهر المؤرخين الذين استفاد منهم في تاريخه.

سادساً: - اهتمامات ابن سباط العلمية كمؤرخ في مصنفه.

سابعاً: - أهم النتائج المستخلصة من البحث.

أولاً: ترجمة المؤلف:

هو "حمزة بن أحمد بن سباط عمر بن صالح بن أبي المواهب"^(١)، المولود في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي في بلدة "عبيه"^(٢) الواقعة على السطح الغربي من سلسلة جبال ألبان الغربية، لذا عرف موطنه بإقليم الغرب، وأطلق عليه اسم "ابن سباط الغربي"^(٣).

وقد اقتصر "ابن سباط" في دراسته على التعلم على يد أبيه؛ إذ كان أبوه معلماً تخرج على يديه كثير من التلاميذ في بلدته، إلى جانب كونه إماماً وفتياً للأمير "جمال الدين عبد الله التتوخي"^(٤)، وعمل خطيباً لجامع بلدتهم، ورئيس مؤذني المدينة، حيث تمتع بصوت شجي^(٥)، وقد أدعى الزركلي^(٦) أن مؤلفنا قد نشأ يتيمًا وتبناه "الأمير عبد الله"، لذا برع في الكتابة، واهتم بكتب التاريخ وتدوينه، وهذا الأمر غير صحيح؛ لأن الأمير توفي في حدود سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٤م، كما ورد في تاريخ ابن سباط، أما والده فقد توفي في سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٢م، أي بعد ثلاث سنوات من وفاته، فكيف تبناه الأمير بعد وفاته^(٨)، هذا وقد نظم "ابن سباط" قصائد شعرية في رثاء هذا الأمير وفي الأمير "زين الدين صالح" الذي توفي في سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م^(٨) في نحو سبعين بيتاً.

وقد أشار "ابن سباط" في تاريخه أن والده توفي في سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م بقوله: (كانت وفاة الفقيه شهاب الدين أحمد بن عمر في هذه السنة، وهو معلم غالب التلاميذ^(٩)). وكانت وفاة "ابن سباط" بعد أن انتهى من كتابة مصنفه، ويرجح أن تكون بعد سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م في بلدته "عبيه"^(١٠).

أما عن أهم مصنفاته التي كتبها غير "صدق الأخبار"، فهي متنوعة بين التاريخ والجغرافيا وقصائد الشعر، ولا بد أن نشير منذ البداية أن كتابه التاريخي "صدق الأخبار" يعد أهم وأفضل مؤلفاته، هذا إلى جانب كتابه "تزهة المشتاق في بعض جانب المعمور في الآفاق"، الذي يتحدث فيه عن جغرافية المدن والبلدان، وله كتابان آخران هما: "لطائف الإشارات"، و"المخمسة"، ويعد كتاب "المخمسة" عبارة عن حصيللة ما نظمه من قصائد شعرية في الرثاء^(١١) وبخاصة في الأمير "جمال الدين بن كرامة بن بحتر"^(١٢) صاحب إمارة الغرب في بيروت.

ثانياً: - وصف كتاب ابن سباط:

أطلق ابن سباط على مصنفه اسم "صدق الأخبار" ويعرف بـ"تاريخ ابن سباط"، ولا نعرف له اسماً غير ذلك، وهو يشتمل على جزأين في حدود ٩٤٢ صفحة، طبقاً لتحقيق عمر عبد السلام تدمري، الذي أصدره في شوال سنة ١٤١١هـ/أبريل ١٩٩١م في جروس برس طرابلس، وقد اشتمل الجزء الأول من هذا الكتاب على أحداث تاريخية من سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١م، حتى سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م، أما الجزء الثاني فيصل بأحداثه حتى سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م، أي عقب القضاء على آخر سلاطين المماليك "طومان باي"^(١٣) ودخول السلطان "سليم الأول" العثماني إلى مصر .

ومن المرجح أن معظم الجزء الأول من الكتاب فُقد، ولم يبق منه إلا من أحداث سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١م، وهذا ما يؤكد المصنف نفسه من إحالة بعض الأحداث إلى سابق هذا التاريخ، كذلك ما يؤكد المحقق^(١٤) بقوله: (إن تاريخ "تنوخ" و"الخم" و"السيرة النبوية" حتى عام

١٣٠٠هـ/١٣٠٠م أي إلى الربيع الأول من القرن السابع الهجري في عهد "عماد الدين زكي" (١٥) صاحب "المؤصل" و"حلب" مفقودة من الكتاب).

كما أهمل "ابن سباط" في الجزء الثاني من مصنفه ذكر بعض السنوات من أمثال حوادث سنة ٧٣١هـ/١٣٣٠م، فلم يشر إليها، والفترة ما بين سنتي ٧٥٩هـ/١٣٥٧م حتى سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م، ما عدا سنة ٧٦٣هـ/١٣٦١م التي أشار فيها إلى وفاة السلطان "ناصر حسن بن محمد بن قلاوون" (١٦)، وتوليه "الأشرف شعبان" (١٧)، كما أهمل ذكر حوادث سنين ٧٧٩هـ/١٣٧٧م إلى سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٥م، فلم يتحدث إلا عن أحداث سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م في موضوع القبض على الخليفة "المتوكل العباسي" (١٨).

وتعد الفترة الأخيرة من تاريخه من أهم الفترات التاريخية في حياته، وهي الفترة التي عاينها بنفسه وعاشها على أساس أنه شاهد عيان على الأحداث. ولابد أن نشير هنا إلى أن "ابن سباط" يعد أفضل مؤرخ نقل لنا تاريخ بيروت (١٩) عن أمراء العرب في الغرب من "بني تتوخ" (٢٠) من ملوك اليمن الأوائل وهو الأمر الذي يميز تاريخه عن باقي أقرانه من المؤرخين في العصر المملوكي، وقد أفرد عنهم تاريخاً متواصلاً من تأليفه في حوادث سنة ٨٧٤هـ/١٤٦٩م (٢١)، حيث تحدث عن نسبهم إلى "أبي عبد الله محمد التتوخي"، وتحدث عن "بحتر" (٢٢) و"ابن كرامة" (٢٣) وعمود نسبهم، وفرع نسبهم كل فخذ بحاله صفة أغصان الشجرة (٢٤).

ثالثاً: - منهج ابن سباط في مصنفه:

صنف "ابن سباط" كتابه وفق منهج وطريقة الحوليات التي كانت سائدة في العصر المملوكي، أي ذكر حوادث كل سنة على حده، فيبدأ بذكر تاريخ السنة التي يؤرخ لها كعنوان رئيس لموضوعاته، ثم يشير بعد ذلك إلى حوادث الشهور الهجرية بالترتيب المعروف، ويبدأ كلامه بقوله: (وفي هذه السنة .. حدثت الحرب بين السلطان مسعود^(٢٥) وعمه السلطان سنجر^(٢٦)).

وفي كثير من أحداث السنين كان يحدد الشهر الذي وقعت فيه الحادثة، بقوله: (في سلخ ربيع الأول ٥٧٠هـ/سبتمبر ١١٧٤م، ملك صلاح الدين^(٢٧) -ويكمل كلامه-... رحل السلطان عن حَلَب آخر شوال من هذه السنة^(٢٨)).

وفي بعض الأحداث يحدد اليوم والشهر والتاريخ، مثلما يقول: (في يوم السبت لخمس أيام بقين من ربيع الآخر ٥٨٣هـ/يونيو ١١٨٧م، فتح صلاح الدين الأيوبي مدينة طَبْرِيَّة^(٢٩))، هذا إلى جانب ذكر وفيات الأعيان في ثنايا أحداث كل سنة تقريباً يؤرخ لها، وذلك بقوله: (وفي هذه السنة توفي....)^(٣٠).

٢- ابن سباط شاهد عيان:

يعد "ابن سباط" شاهد عيان على جزء ليس بالقليل من كتابه، فقد كان كتابه صورة صادقة للأحداث التاريخية ومرآة انعكست عليها، بصفته شاهد عيان على الجزء الأخير من تاريخ "المماليك" في "مِصر" و"الشَّام"، فهي الفترة التي عاصرها مؤلفنا، وقد ركز "ابن سباط" في بعض أجزاء تاريخه على مشاهداته العينية، مثل عثوره على درهم عتيق باسم السلطان "الظاهر

بييرس^(٣١)، وأشار إلى ذلك في كلامه^(٣٢)، كذلك مشاهدته لقلعة "الشقيف" في "بيروت"، وقوله: (وقد شاهد في هذا التاريخ -يقصد نفسه- هذا المكان فوجده لا يوصف كغيره^(٣٣)).

كذلك أورد بعض النوار التي شاهدها وسجلها في تاريخه -مشاهدة العين- ففي حوادث سنة ٩٠٩هـ/١٥٠٣م أشار إلى: (ورود رجالاً إلى "بمشق"، على وجهه من أعلا رأسه لحم شبيه شخثور الغنم غطى وجهه إلى صدره، وتحت ذلك في وجهه عين واحدة، وعليها شعر وأنف وفم، فإذا أراد النظر إلى شيء أو الأكل رفع ذلك اللحم النازل على وجهه، فبيان منه ذلك، فكان الناس يجتمعون إليه ويتفرجون عليه^(٣٤)).

وقد أطلع "ابن سباط" على نسخة التقرير الرسمي الذي وضعه الأمير "بدر الدين بن معبد" عن "سيل بعلبك"، الذي حدث سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م، وفيه تفاصيل دقيقة للخسائر المادية والبشرية التي أصيبت بها مدينة "بعلبك"، هذا التقرير الذي أطلع عليه المؤرخ "المقريزي" ونقل جانباً منه وأودعه في كتابه "السلوك"، أما مؤرخنا "ابن سباط" فقد نقله كاملاً^(٣٥).

هذا وقد سجل "ابن سباط" ثبناً كاملاً عن ذكر القضاة التتوخييين، الذين تولوا شئون القضاء في دولته "آل تتوخ"، وتولوا شئون الحل والعقد في التخاصم بين الناس، بدء من "أبو السرايا" إلى "أبي اليقظان"^(٣٦).

رابعاً: - لغة ابن سباط وأسلوبه:

اتسمت لغة "ابن سباط" بالميل إلى العامة والسهولة مع سلاسة في اللفظ، فهو يعرض معلوماته والأحداث المتوفرة لديه بطريقة ميسرة مألوفة تميل إلى البساطة، بعيدة عن استعمال

الألفاظ الصعبة، والمحسنات البديعية والمبالغات التي لا مبرر منها. وفي الواقع، فإن لغته في الكتابة تميل إلى اللهجة العامية ويكثر فيها الأخطاء اللغوية والنحوية، رغم أنه ينقل عن المصادر والكتب بشكل مباشر؛ إذ كان يؤثر التصرف في النص الذي ينقله ويصوغه بأسلوبه ولغته^(٣٧) فكثيراً ما أورد ألفاظاً عامية في كتابة وأخطاء نحوية، وقد أوردت في البحث جدول يضم بعض ألفاظه العامية وأخطائه النحوية:

اللفظ الذي أورده	تصحيحها
نايب يَمْشِقْ	نائب يَمْشِقْ
توفا	توفى
انشا الله	إن شاء الله
قاضيها	قاضيها
حذروه	حذره
تولت	توالت
فلم ينال	فلم ينل
بما وري النهر	بما وراء النهر
وأسيوا	وسبوا
وأفكر	وفكر
انتهى	انتهى
الأمرا	الأمراء
هولاي	هولاكو
ولما تملوا من النهب وحصروها	ولما امتلأوا وحصرها ^(٣٨)

أما عن أشهر الأخطاء النحوية فمعظمها تنحصر في الأعداد وهي كالتالي:

اللفظ الذي أورده	تصحيحها
في سنة سبعة وعشرين لأن أخيه مسعود	في سنة سبع وعشرين لأن أخاه
مايه وثلاثة وخمسين	مائة وثلاثة وخمسون
وهو الثلاثين	وهو الثلاثون
عن خمسين يوم	عن خمسين يوماً
وكان أخاه	وكان أخوه
من الخلفا والفاطميون	من الخلفاء الفاطميين ^(٣٩)

أما أسلوب ابن سباط، فكان يميل في كلامه إلى الثناء والحمد، وأيضاً إلى الإحالة، وهذا ما يميز أسلوبه في "صدق الأخبار"، حيث اهتم بالحمد والثناء لله تعالى في كلامه، فقد بدأ حديثه بقوله: (بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نقتي وإليه أنيب، وهو حسبي ونعم الوكيل)^(٤٠)، مما يدلنا أننا أمام مؤرخ مسلم يميل إلى الحمد والشكر لله رب العالمين، ويميل إلى التدين واتباع المذهب السني ويثني على رسول الله صلي الله عليه وسلم، فيفتتح حديثه في سنة ١١٤٧هـ/١١٤٧م بقوله: (في بداية سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل التحية والسلام)^(٤١).

وقد جرى على لسانه الحمد والثناء على حكام وملوك المسلمين، ففي أحداث سنة ١١٥٢هـ/١١٥٢م تحدث عن الملك العادل "تور الدين محمود"^(٤٢) بقوله: (أدام الله تعالى عزه

وسلامه)، ويصفه بأنه مملوكنا وصاحبنا، هذا بالإضافة إلى ذكر علامته على مراسلاته القادمة والواردة بقوله: (وكانت علامته الحمد لله فوق البسملة)^(٤٣)، وعند إشارته إلى ديوان "الاستيفاء"^(٤٤) في بلاطه يصفه بأنه: (المحروس، حماه الله)^(٤٥).

كذلك يدعو للأمرء والحكام المتوفين بالرحمة وإضافة آيات قرآنية كريمة في كلامه إلى جوار أسمائهم، مثل السلطان الناصر "صلاح الدين بن أيوب" وقوله عنه: (ودام على ذلك إلى أن توفاه الله تعالى)^(٤٦)، وعن "تور الدين محمود" قوله: (فأتاه أمر الله الذي لا مرد له)، وقوله عنه في موضع آخر: (رحمه الله)^(٤٧)، والدعاء للملك "المعظم عيسى"^(٤٨) بقوله: (أبقاه الله)^(٤٩). أما عند حديثه عن أعداء المسلمين فإنه يدعو عليهم بالخزي ويطلق عليهم اللعنات، مثلما لعن "هولاكو"^(٥٠) ملك "التتار" الذي توفي في "المراغة"^(٥١) في ربيع الأول ٦٦٤هـ/ديسمبر ١٢٦٥م، فوضع إلى جانب اسمه جملة: (لعنه الله تعالى)^(٥٢)، ووصف "تيمورلنك" ويسميه تمرلنك - بالملعون الأعرج المخنول^(٥٣).

كذلك لعن في أحداث ٦١٧هـ/١٢٢٠م "جنكيز خان"^(٥٤)، وخروجه لمحاربة السلطان "علاء الدين محمد خوارزمشاه"^(٥٥) واستيلائه على "بُخَارَى" وبلاد "ما وراء النهر"^(٥٦)، وأختتم ذلك بقوله: (لعنه الله تعالى عليه)^(٥٧).

وفي حقيقة الأمر فإنه عندما يكون متشككاً من معلومة تاريخية، فإنه يذكرها في السنة التي وردت فيها مع إضافة عبارة (والله أعلم)، مثل كلامه عن عين ماء يسمى "عين الفتارة"، وأن مائها قيل إنه برده^(٥٨)، وعند حديثه عن القبض على السلطان "جلال الدين منكبرتي"^(٥٩) على يد أحد الأكراد ذكر عبارة (والله أعلم)^(٦٠). كما ذكر العبارة نفسها في أحداث سنة

٦٥٦هـ/١٢٥٨م أثناء الحديث عن مقتل الخليفة "المستعصم العباسي"^(٦١) آخر خلفاء بني العباس في "بغداد" بقوله: (وقيل عن قتله أنهم رموه تحت أرجل الدواب، وقيل إنهم أغرقوه في نهر دجلة، والله أعلم بحقيقة ذلك)^(٦٢).

كذلك يظهر تدينه في حديثه عن الأماكن المقدسة في "مكة المكرمة"، وذلك أثناء حديثه عن الملك "الظاهر بيبرس" وتوجهه إلى أداء فريضة الحج، بقوله: (وصل إلى مكة شرفها الله تعالى في خامس من ذي الحجة ٦٦٧هـ/٥ أغسطس ١٢٦٩م)^(٦٣).

وأثناء حديثه عن الملك "الأشرف خليل"^(٦٤) واستيلائه على "عكا" آخر معاقل الصليبيين في بلاد "الشام"، يصف حال الصليبيين بجملة: (ألقى الله تعالى الرعب في قلوب الفرنج)^(٦٥). وبضيف قوله: (لقد ظهر الفزع بسواحل الشام فله الحمد والمنه)^(٦٦)، كما يضيف أنه: (بعد استكمال فتح "عكا"، عاش فيها جماعة من المسلمين، فلما قدر الله سبحانه وتعالى بنزع "الفرنج"، استقرت الكنيسة جامعاً، فشرحها الله تعالى)^(٦٧)، وما سبق يؤكد شدة إيمانه بالله تعالى، وتمسكه بالمذهب السني، وإسهابه في الحمد والثناء والشكر لله.

كذلك اعتمد ابن سباط في أسلوبه على الإحالة، وذلك لكي يربط أطراف الحادث أو الخبر بعضها ببعض، فتارة نراه يمثل إلى الحوادث السابقة، بقوله في حوادث سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م وعن وفاة القائد "أسد الدين شركوه"^(٦٨) قوله: (وتوفى في هذه السنة كما ذكرنا)^(٦٩)، أو قوله: (وسياتي ذلك في درج التاريخ)^(٧٠) أو في أثناء حديثه عن نائب سلطنة دمشق "سبياي"^(٧١)، في أحداث سنة ٩١٢هـ/١٥٠٦م^(٧٢)، وقد تقدم ذكر ذلك عند ترجمة فتح

الأندلس في الحواشي، فأغنى عن إعادته)، ومن المرجح أن هذه الحادثة الخاصة بهذا النائب ذكرها مؤلفنا في الجزء المفقود من كتابه والخاص بفتح "الأندلس"، كذلك قوله عن الملك "الظاهر بيبرس" (أنه لما ملك مصر بنى بها برجاً على الباب كما ذكرنا)^(٧٣).

كما اتسم كلامه عن الدولة "السلجوقية" بالإحالة بين أحداث كتابه، كقوله في سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م، (وقد تقدم ابتداء ذكر دولتهم سنة ٤٣٢هـ/١٠٤٠م)، وقوله عن عهد "طغرلبيك"^(٧٤): (وقد جرى له ما ذكرناه). وقد اهتم "ابن سباط" بالمباحثات الدبلوماسية في عصر الدولة "الأيوبية" عقب وفاة "الناصر صلاح الدين"، حيث أشار في سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م إلى المكاتبات بين الملك "الأفضل بن صلاح الدين"^(٧٥) والأمير "جمال الدين صبحي بن بحتر"، بقوله: (المقدم ذكره في ترجمة....)^(٧٦).

ومن أسلوب ابن سباط إحالة الأحداث إلى مستقبل الكلام، كقوله في أحداث سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م، عن زحف "جنكيز خان" على بلدان الخلافة الشرقية و"خوارزم"^(٧٨) و"ما وراء النهر": (وسياتي ذكر ذلك في مكانه)^(٧٩). أو قوله: (على ما سنذكره لاحقاً في أحداث سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م)، أو قوله: (على ما سنذكره إن شاء الله تعالى)^(٨٠)، كذلك استخدم الإحالة في ذكر قتل "توران شاه بن الصالح أيوب" منوهاً بعبارة: (الآتي ذكره)^(٨١). وعندما تحدث عن آل "توخ" وأمراء الغرب ببيروت، وقتل "تجم الدين محمد بن حجي"^(٨٢) -العاق لأبيه- يقول: (وكان أبوه وقرايبه في السجن، وسياتي ذكرهم)^(٨٣).

ومما اتبعه ابن سباط في منهجه التاريخي أسلوب الاختصار في الحدث، كقوله في أحداث سنة ١٥٤٧هـ/١٥٢م: (وفي هذه السنة كان ابتداء ظهور الملوك الغورية^(٨٥) وأمور يطول شرحها، أعرضنا عن ذكرها خوف الإطالة)^(٨٥). أو قوله عن أحداث بلاد "خراسان"^(٨٦) من القتل والنهب في حوادث سنة ١٥٤٧هـ/١٥٢م: (أمر يتسع شرحه ها هنا)^(٨٧). أو في مجرى كلامه عن انتهاء الدولة الفاطمية وسقوطها في يد "صلاح الدين" وموت "العاضد الفاطمي" قوله: (ولم ينتطح فيها عنزان)^(٨٨)، وعند وصفه لـ"تور الدين محمود" يستخدم أسلوب الاختصار، بقوله: (ومناقبه شيء يضيق هذا الكتاب عن شرحها في إيضاح دينه ومحاسنه وشجاعته وغزواته)^(٨٩). وقوله صراحة إنه أعرض عن ذكر حوادث سنة ٦٨٦هـ/٢٨٧م الخاصة بحرب التنر أو أنه يخشى من الإطالة ويرغب في الاختصار في قوله: (اقتصرنا عن ذكر شرحه خوف الإطالة؛ لأن الغرض من ذلك الكتاب الاختصار، ولو أننا على شرح مبسوط الأخبار والمكائبات وفنون الأحاديث يخرجنا عن حد الاختصار، والعلم بالبعض أخير من السهل بالكل)^(٩٠)، وبذلك يؤكد لنا أنه كان يميل إلى الاختصار في كتاباته، وربما أعرض عن ذكر الأحداث كراهية لها، مثلما أشار في كلامه عن التنر والحروب التي اجتاحتها بها العالم الإسلامي، كقوله: (وجرى... وحروب وأعرضنا عن ذكر شرح كثير منها)^(٩١)، أو أنه يعرض عن ذكر الخبر خوف إطالة الأحداث وخاصة في حديثه عن عناصر "الخطا"^(٩٢) وحروبهم في بلاد "ما وراء النهر" سنة ٦٠٤هـ/٢٠٧م بقوله: (أعرضنا عن ذكرها خوف الإطالة)^(٩٣).

كذلك إعراضه عن ذكر بعض الأحداث في سنة ٨٠٧هـ/٤٠٤م في كلامه عن خروج الأمير "شيخ المحمودي"^(٩٤) نائب "يمشوق" في عهد السلطان "الناصر فرج بن برقوق"^(٩٥)، بقوله: (ثم جرى أمورًا وحوادث في مصرٍ أعرضنا عن ذكرها)^(٩٦). ومن هنا نتأكد بأن "ابن سباط" استخدم في منهجه أسلوب الإحالة سواء على الأحداث السابقة أو الأحداث القادمة، مع استخدامه الاختصار في كثير من مواضعه.

خامسًا: - أشهر المؤرخين الذين استفاد منهم في تاريخه:

اعتمد "ابن سباط" في تأريخ الجزء الأول من مصنفه -وهي الفترة التي لم يعايشها- على من سبقه من المؤرخين، وأشار إلى نقله من مصادر عديدة ممن عاصروا تلك الفترات من المؤرخين، فلم يعتمد على مصدر واحد دون سواه، لذا كان يقدم لنا مادة دسمة سليمة في العديد من المواضع، نابعه من نقله من المعاصرين أو القريبين للأحداث، وظهر منهجه التاريخي سليمًا يعتمد على التدقيق في نقل الوقائع التاريخية منهم بأدلاً جهده في استخلاصها مبتعد عن العشوائية في النقل، نتيجة لامتلاكه مكتبة غنية بالمصادر التاريخية والأثرية أكسبت مصنفه أهمية كبرى.

صرح "ابن سباط" بالنقل عن هؤلاء المؤرخين، وفي مقدمتهم "ابن الأثير": "الكامل في التاريخ"، بقوله: (ذكر في الكامل)^(٩٧)، و(قال ابن الأثير في كلامه عن شيركوه)، وفي مواضع أخرى يقول: (قال ابن الأثير في الكامل: رأيت كثيرًا من ابتدأ بالملك ينتقل الملك إلى غير عقبه)، أو (قال ابن الجزري)^(٩٨). وفي بعض الأحيان كان ينقل من "ابن الأثير"، ويشير إليه بقوله: (قال الشيخ عز الدين ابن الأثير مؤلف الكامل)، أو ينقل عنه أول بيت شعر بقوله:

ذكرتك والحظي بخطر بيننا وقد نهلت منخ المثقف المثمر^(٩٩)

ومن اللافت للنظر أنه صرح في حوادث سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م أنه في هذه السنة انتهى تاريخ الكامل تأليف الشيخ "عز الدين" المعروف بـ"ابن الأثير" فإنه ألفه من هبوط آدم سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م، وتوفي سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م^(١٠٠).

هذا وقد نقل "ابن سباط" من تاريخ المسلمين لـ"ابن العميد" شيئاً كثيراً عن السلطان "صلاح الدين" في أحداث سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م، ونقل موقعة "مرج عيون"^(١٠١)، جنوب "البُتَّان" شرق "صُور"، وصرح بذلك في نقله عن تلك الموقعة.

كذلك نقل عن تاريخ "محمد بن أحمد المنشي النسوي"، كاتب "جلال الدين منكبرتي" ووصف كثيراً عن مملكة بلاد "الصَّين"، واتساعها وأقسامها وخانها الأعظم الذي عاصر "خوارزمشاه"^(١٠٢).

كذلك استفاد "ابن سباط" من الأمير "عماد الدين إسماعيل" المعروف بـ"أبي الفداء" عن كتابه "المختصر في أخبار البشر" في عدة مواضع، ذاكراً أنه كان يعتمد عليه لأنه كان شاهد عيان على ما يكتب، بقوله في أحداث سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م: (وحاصر في المحرم طرَابُلُس الشام -على يد المنصور قلاوون^(١٠٣) -كنت -بقصد أبي الفداء- حاضراً مع والدي وابن عمي الملك المظفر صاحب وحماء^(١٠٤)، ولما فرغ السلطان من نهب طرَابُلُس.. أمر بها فهدمت ودكت إلى الأرض)^(١٠٥).

ويشير في موضع آخر بقوله: (قال صاحب تاريخ المختصر في أخبار البشر؛ لأني كنت إذ ذاك أمير عشرة^(١٠٦)، وكان مسيرنا في أواخر فصل الشتاء...)^(١٠٧).

هذا إلى جانب اعتماد "ابن سباط" في النقل من المختصر عن سلطان مصر "بيبرس الجاشنكير"^(١٠٨)، واجتماع الأمراء ووصول عسكر حماة، بقوله: وكان صاحب المختصر حاضرًا في غالب هذه .. والفتوحات، فاعتمدنا على تاريخه^(١٠٩)، كما أشار في حوادث سنة ١٣١٠هـ/١٣١٠م إلى تولي "أبي الفداء" نيابة حماة بتوقيع سلطاني^(١١٠)، مشيرًا إلى أنه صاحب كتاب "تقويم البلدان" أيضًا، وأنه انتهى من كتابه "المختصر" عند حوادث سنة ١٣٠٩هـ/١٣٠٩م^(١١١).

وقد أشار "ابن سباط" إلى استفادته من "تاريخ ابن شاکر الكتبي" صاحب "عيون التواريخ" في عدة مواضع منها قوله: (رأى بخط الشيخ علم الدين البرزالي .. ورقة فيها بعض أموال الأمير سلا^(١١٢)، وقت الحوطة على داره في أيام متفرقة)، كذلك ذكر خبر ولادة حيوان برأسين أحدهما ذكر والآخر أنثى وقوله: (كنت ممن ذهب ينظر إليه)^(١١٣).

لم يقتصر نقل "ابن سباط" على ما ذكرنا من مؤرخين، بل اطلع على كتاب "ابن عساكر": "تاريخ مَشَق"، الجزء الأول، ودون منه العديد من الأحداث التاريخية، ذكر منها تأسيس مدينة "مَشَق" وبنائها على يد سيدنا "توح عليه السلام"، وذكر الحديث عن أبواب "الكعبة المشرفة" وأنها كانت سبعة أبواب^(١١٤).

هذا إلى جانب استفادته من "ياقوت الحموي" صاحب "معجم البلدان" في التحقق من البلدان، كذكره عمارة مدينة "عُمان"، قائلًا نقلًا عن ياقوت الحموي: (وهذا البلد له ذكر قديم أنه مدينة دقيانوس - قلديانوس - الذي خرج منه أهل الكهف، وأن هناك مكانًا يقال له الرقيم مشهور)^(١١٥).

كذلك أشار "ابن سباط" إلى عدد من المؤرخين استفاد من مصنفاتهم دون ذكر أسمائهم في كلامه عن اقتحام "تيمورلنك" لمدينة "بمشق" ويصفه بالبأغي، ويصف مدى الأهوال والويلات التي حلت بأهلها^(١١٦)، مثل كتاب "المقريزي" "السلوك لمعرفة دول الملوك" الذي شرح هذه الواقعة بالتفصيل.

وذكر في ثانياً مصنفه أنه استعان بكتاب "عمدة الظرفا في أخبار الخلفا" دون أن يشير إلى صاحب هذا الكتاب واسمه، بل نوه عنه في أحداث ٨٢٥هـ/٤٢١م، بقوله: (وإلى هنا انتهى تاريخ المسمى عمدة الظرفا في أخبار الخلفا)^(١١٧)، بينما أشار إلى اسم مؤلف كتاب "عجائب المقدور في أخبار تيمور"، وهو "بدر الدين بن عريشاه" في أثناء حديثه عن غزو "تيمورلنك"، وتخريبه "بمشق"، ثم إعادة إعمارها على يد الأمير "أقبا الجمالي"^(١١٨)، دون أن يصرح باسم الكتاب، هذا وقد أشار في حوادث ٨٤١هـ/٤٣٧م، وفي موضع آخر أشار إلى "ابن عريشاه" بقوله: (قال بدر الدين بن عريشاه وكان ذلك مما شاهدته.. فإنه كان حاجاً في الركب مع والده الشيخ شهاب الدين بن عريشاه الحنفي)^(١١٩).

هذا وقد نقل "ابن سباط" كثيراً عن الأمير "صالح بن يحيى بن صالح بن الحسين" في "تاريخ بيروث وأمراء بني الغرب"، وذكر أمراءها، مشيراً إلى أن الأمير "عز الدين جواد"^(١٢٠) كان يكتب على حبة الأرز "آية الكرسي" بنفسه^(١٢١).

وبناء على ما سبق نؤكد على دقة "ابن سباط" وصبره وسعة اطلاعه، وشدة تنقيبه عن المعلومات، والتزامه بالإشارة إلى المصادر التي يستقي منها تاريخه، وامتلاكه مكتبة تاريخية حافلة بالعديد من المصادر، أما المصادر التي أغفل عن ذكرها وهي قليلة في كتابه، فإن ذلك

لم يكن عيباً أو خطأً جسيماً في كتابات العصر المملوكي، فهناك مؤرخون لم يفصحوا عن مصادرهم، أما "ابن سباط" فقد أغفل عن ذكر "المقريزي" في "السلوك" و"الذهبي" في "تاريخ دول الإسلام"، وبذلك نستخلص بأن ابن سباط كان يذكر مصادره في أكثر الأحيان، وإن أغفل عن بعضها أحياناً.

سادساً: مادة ابن سباط كمؤرخ في مصنفه:

اهتم "ابن سباط" في كتابه بالعديد من الأحداث التاريخية والظواهر الطبيعية التي رصدها في مصنفه في بلاد "الشَّام" مركزاً على الأمطار، لأهميتها في الزراعة واعتماد الأراضي عليها. فاهتم بسقوطها على مدينة "حَلَب" في ٦٢٤هـ/١٢٢٦م، وما صحب ذلك من هبوب رياح تحمل رمل أحمر شبيه بالبرد^(١٢٢)، وسقوط المطر على "مَارِين" في العام نفسه حاملة برد على هيئته صور حيات وعقارب وطيور وغيرها^(١٢٤).

هذا وقد اهتم برصد الزلازل في معظم كتابه، مثلما حدث من ٥٣٣هـ/١١٣٨م، وحتى ٦٠٠هـ/١٢٠٣م، عقب حدوث الزلازل على معظم بلاد "الشَّام" وبلاد "الروم"، ونتج عنه خراب أسوار مدينة "صُور"^(١٢٥).

بالإضافة إلى اهتمامه برصد كوارث الحريق وهبوب الجراد والغلاء في البلدان الإسلامية، كما تحدث عن حريق في "لِمَشْق" عند "الباب الأصفر" في ١٦ صفر ٧٥٣هـ/ ٣ أبريل ١٣٥٢م، (فحضر الأمراء والحجاب)^(١٢٦) ومتولي البلد، فألقوا ما قدروا عليه، واتصل الحريق بالباب الأصفر النحاسي، فبادر ديوان^(١٢٧) الجامع إليه، فقشطوا ما عليه من نحاس ونقلوه من يومه إلى خزانه الحاصل بعد تكسيره^(١٢٨)، كما تحدث في حوادث ٥٤٣هـ/١١٤٨م

عن الغلاء العام الذي عم بلاد "خُرَّاسَانَ" و"العِرَاق" و"الشَّام" و"بلاد المغرب"^(١٢٩)، كذلك أشار إلى هجوم الجراد على "غوطة يَمَشَّق" في سنة ١٧٠١هـ/١٣٠١م وما حل بعدها من فناء عظيم في الخيل، حتى خلت غالب الإسطبلات منها سواء الخاصة بالأمراء أو بالجنود^(١٣٠).

ولم يغفل "ابن سباط" عن ذكر الأخبار التي تواترت في ربيع الأول ٧٢٥هـ/مارس ١٣٢٥م عن فيضان نهري "بَغْدَاد"، وغرق بَغْدَاد بفيضان آخر بعده بسنوات عدة^(١٣١)، كذلك رصد الوباء في "الشَّام" في ٨٧٤هـ/١٤٦٩م، وكان مؤرخنا شاهد عيان على هذا الوباء ووصفه، قائلاً: (لقد هلك فيه خلقاً كثيراً من الأرواح يتعدى الألف)^(١٣٢).

كذلك اهتم "ابن سباط" في تاريخه بالجوانب الاقتصادية في البلاد، خاصة أسعار الخبز والشعير واهتم بارتفاع الأسعار، للمنسوجات الحريرية والصوفية، وارتفاع أسعار الحيوانات وحدد سعرها كالبغال والمعز وغيرها^(١٣٣).

هذا وقد ركز "ابن سباط" على ذكر العديد من الطرائف التي وصلت إلى مسامعه وأثبتها في مصنفه، مثل ما حدث في ٥٨٠هـ/١١٨٤م، من رهان بين رجل من بَغْدَاد على خمسة دنانير إن هو دفن نفسه في قبر مدة نصف يوم، وعندما كشف عنه التراب لإخراجه كان ميتاً بالفعل^(١٣٤)، كذلك أشار إلى طرفة وقعت في "مِصر" في ٧٢١هـ/١٣٢١م، بأن كلبة وضعت حوالي ثلاثين جرواً، واحضروها بين يد السلطان -الناصر محمد- فتعجب من ذلك، وجميع الحضور من رجال الدولة^(١٣٥).

اهتم "ابن سباط" بالأحداث التاريخية التي نقلها من المصادر السابقة والتي عاصرها وتتبع تولية وعزل الخلفاء "العباسيين" في بَغْدَاد، فبدأ من التاريخ الذي تحت أيدينا سنة

١٣٢٢هـ/١٣٢٢م، فأشار إلى الخليفة "المسترشد بالله العباسي" (١٣٦) ومقتله، حتى سقوط "بَغْدَاد" وخلافتها بيد "المغول" سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وقد أورد "ابن سباط" لنا عدداً كبيراً من خلفاء "بني العباس" في "بَغْدَاد" كالتالي:

اسم الخليفة	الفترة التي تولاهها	أهم الملاحظات في عهدهم
المسترشد بالله	من ١٣٢٢هـ/١٣٢٢م إلى ١٣٢٩هـ/١٣٢٩م	١- حوصر في المُوَصِّل لمدة ثلاثة أشهر. ٢- حارب السلطان مسعود، ونهب معسكره، وأسر الخليفة في خيمة بمفرده. ٣- قتل المسترشد يوم الأحد ١٧ ذي القعدة (١٣٧).
الراشد بالله (١٣٨)	ببيع في العاشر من ذي القعدة ٥٣٩هـ / ٤ مايو ١١٤٥م.	١- خُلع الراشد بالله من الخلافة بسبب انضمامه إلى عماد الدين زنكي (١٣٩).
المقتضي لأمر الله (١٤٠)	تولى ٥٣٠هـ/١٣٣٥م حتى ٢ ربيع الأول ٥٥٥هـ / ١٢ مارس ١١٦٠م.	١- هو عم الخليفة الراشد، أجلسه السلطان مسعود. ٢- استتجد بالسلطان سليمان شاه السلجوقي (١٤١) في ٥٥٠هـ/١١٥٥م لتغلب إخوته وعمه على بلاده.

<p>٣- وفي ١٥٥١هـ/ ١٥٦م بالخليفة بيبغداد ضد السلطان محمد بن محمود السلجوقي^(١٤٢).</p> <p>٤- خلع الخليفة في ١٥٥٢هـ/ ١٥٧م باب الكعبة المشرفة، وعمل بدلاً منه باباً مصفحاً بالفضة المذهبة، وعمل لنفسه تابوتاً من الباب الأول^(١٤٣).</p>		
<p>١- مدة خلافته إحدى عشرة سنة وأيام^(١٤٥).</p>	<p>ببيع ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م حتى وفاته في ربيع الآخر ٥٦٦هـ/ ديسمبر ١٧٠م.</p>	<p>المستجد بالله^(١٤٤)</p>
	<p>ببيع عقب وفاة المستجد وبقى في الخلافة حتى وفاته في سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م^(١٤٧)</p>	<p>المستضيء بنور الله^(١٤٦)</p>
<p>١- أرسل عساكره في سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م لمحاربة طغرليك قرب همدان، فانهزموا.</p> <p>٢- كان قبيح السيرة في رعيته ظالماً لهم^(١٤٩).</p>	<p>ببيع في جمادى الآخر ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م، حتى وفاته في ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م.</p>	<p>الناصر لدين الله^(١٤٨)</p>
<p>١- اتصف بالتواضع وقد أبطل عدة مظالم، وكان عادلاً^(١٥١).</p>	<p>ببيع سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م لمدة تسعة أشهر</p>	<p>الظاهر بالله^(١٥٠)</p>

المستنصر بالله ^(١٥٢)	بويغ في ٤ ارجب ١١/٥٦٢٣هـ / ١١ يوليو ٢٠٢٦م.	١- اتصل الخليفة بالملك الكامل الأيوبي. ٢- أقام في الخلافة سبع عشرة سنة ^(١٥٣) .
المستنصر بالله	بويغ عقب وفاة والده المستنصر	١- يصفه ابن سباط بأنه ضعيف الرأي، فأستبد كبار رجال الدولة به وعلى رأسهم الوزير ابن العلقمي، وحسنوا له مدارات التتر، وسقطت بَعْدَ في عهده بيد هولاء ^(١٥٤) .

كذلك أورد "ابن سباط" خلفاء "بني العباس" في "القاهرة" منذ عهد "الظاهر بيبرس" وعددهم ثلاثة عشر خليفة حتى حوادث سنة ٨١٥هـ/٤١٢م، وهم على النحو التالي:

اسم سلطان مصر	اسم الخليفة العباسي في القاهرة	أهم الملاحظات في عهدهم
الظاهر بيبرس	أحمد بن الإمام الظاهر بالله بن الناصر عم المستنصر ^(١٥٥)	١- لقب بالمنتصر بالله أبي القاسم. ٢- جهزه الظاهر بيبرس بالعسكر لاسترداد بَعْدَ من يد التتار، إلا إنهم غلبوه وقتلوه.
الظاهر بيبرس	الحاكم بأمر الله	١- أثبت الظاهر نسبه ولم يترك له من الحكم إلا الدعاء له في خطبة الجمعة. ٢- توفي في ١٣٠١هـ/١٣٠١م ^(١٥٦) .

الناصر محمد بن قلاوون	المستكفي بالله أبو الربيع سليمان	١- ثالث خلفاء العباسيين في القاهرة، تولى عقب وفاة والده الحاكم بأمر الله -توفى في مدينة قوص ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م ^(١٥٧) .
الناصر محمد بن قلاوون	الوائق بالله	١- بويغ في شعبان ٧٤٠هـ/فبراير ١٣٤٠م ^(١٥٨)
المنصور أبو بكر	الحاكم بأمر الله	١- تولى ٧٤٣هـ/١٣٤٢م ولبس السواد وجلس مع الملك المنصور في سرير العرش. ٢- كانت خلافته عشر سنوات، توفى ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م ^(١٥٩) .
الصالح صالح بن الناصر محمد بن قلاوون	المعتضد بالله أبو بكر بن المستكفي	١- تولى في ٧٥٣هـ/١٣٥٢م ٢- تُوفى في ٧٦٢هـ/١٣٦٠م ^(١٦٠) .
السلطان حسن بن قلاوون	أبو محمد عبد الله العباسي الحاكم بأمر الله	١- تُوفى في جمادى الأولى ٧٦٣هـ/ مارس ١٣٦٢م ^(١٦١) .
	المتوكل على الله	١- بويغ له في جمادى الأولى ٧٦٣هـ/ مارس ١٣٦٢م ٢- قبض عليه السلطان برقوق ^(١٦٢) في سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م وخلعه وحبسه.
الظاهر برقوق	أبو حفص عمر بن الوائق بالله	١- تُوفى في ٦ جمادى الآخرة ٧٨٨هـ/ يوليو ١٣٨٦م ^(١٦٣) .



الظاهر برقوق	المتوكل على الله مرة ثانية	١- عاد للخلافة سنة ٧٩٤هـ/١٣٩١م. ٢- تُوفي ٨٠٨هـ/١٤٠٥م في عهد الناصر فرج ^(١٦٤) .
الناصر فرج بن برقوق	المستعين بالله ^(١٦٥)	١- جلس على كرسي السلطنة عقب مقتل الناصر فرج في ٨١٥هـ/١٤١٢م. ٢- خلع في ٣ شعبان من نفس العام، واعتقل في الإسكندرية وتولى السلطة المؤيد شيخ.
المؤيد شيخ المحمودي	المعتضد بالله داوود ^(١٦٦)	تولى في شعبان ٨١٥هـ/ديسمبر ١٤١٢م ^(١٦٧) .

لم يشر "ابن سباط" بعد الخليفة "المعتضد بالله داود" إلى ذكر أي خليفة عباسي آخر، وإنما أنصب اهتمامه على ذكر سلاطين "المماليك" الذين عايش أكثرهم، وقيام الدولة "العثمانية".
اهتم "ابن سباط" برصد الأحداث التاريخية في مصنفه، فرصد أحداث الدولة "الصلاحية" في "مصر" و"الشام"، وأورد تاريخاً مفصلاً عن خروج "النتار" وغزو "بُخارى" و"خوارزم"^(١٦٨)، كذلك تتبع أخبار "هولاكو"، وتأسس الدولة "الأيلخانية" في "قارس"^(١٦٩)، والمحاولات التي قام بها خليفته "أباخان"^(١٧٠) ويسميه "أبغا"، كما أورد دور السلطان "المنصور قلاوون" في التصدي لحمات "غازان خان"^(١٧١) - ويسميه قازان^(١٧٢) - وهزيمته وعودته إلى تبريز^(١٧٣) عاصمته، حتى وفاته في ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، ثم تحدث عن توليه "خريند" - أولجايتو^(١٧٤) - ومبادرته لطلب الصلح من "الناصر محمد"، وعقده هدنة معه، واعتناقه الإسلام

على المذهب الشيعي، وبنائه مدينة "السلطانية"، ثم تولية ابنه "أبي سعيد" من بعده حتى وفاته ١٣٣٥/هـ ٧٣٦م^(١٧٥).

كذلك انصب اهتمام "ابن سباط" في الحديث عن الأحداث التاريخية في الفترة التي عاشها من أواخر العصر المملوكي، فتحدث عن أمراء الغرب من "تنوخ"، ووزيرة الأمير الكبير "سعد الدين خضر"^(١٧٦)، كما تحدث عن أمراء "مِشَق" مثل النائب "قانسوه الجياوي"^(١٧٧)، واحترق "الجامع الأموي" وما حوله من الأسواق في ١٤٧٩/هـ ٨٨٤م^(١٧٨).

هذا إلى جانب وصفه الدقيق لخروج الملك "الأشرف قايتباي"^(١٧٩) إلى تأدية فريضة الحج بـ"مكة المكرمة"، وبمناسبة ذكر الحج إلى الأراضي المقدسة، فقد اهتم "ابن سباط" بموسم الحج والمناسك المقدسة، وخروج الحجيج من بلاد "الشَّام" للانضمام إلى موكب الحج بـ"القاهرة"^(١٨٠)، وأشار إلى حج "شيركوه" في ٥٥٥/هـ ١١٦٠م، وإلى حج "الظاهر بيبرس"، وخروج "الناصر محمد بن قلاوون" للحج في ٧١٢/هـ ١٣١٢م^(١٨١) وغيرهم.

كذلك أوضح في مصنفه هجوم حاكم "مكة" على قافلة الحجاج وانتهابها وبسّميه "الجازاني" حيث وقع النهب والسلب في حجاج "مِصْر" و"الشَّام" و"الروم"، وأخذت أموالهم واستأسرت نساءهم، مما اضطر السلطان المملوكي "الأشرف قانسوه الغوري"^(١٨٢) إلى تجهيز العسكر تحت قيادة الأمير "قيت الرحبي" لمحاربتهم^(١٨٣). وهذه لم تكن أول مرة يتحدث فيها "ابن سباط" عن الحجاج وما يتعرضون له من هجمات على قوافلهم، فقد أشار في حوادث سنة ٥٤٥/هـ ١١٥٠م إلى مهاجمة "العريان" للحجيج بين "مكة" و"المدينة" وهلاك الكثير منهم، لدرجة لم يعد منهم إلى بلادهم إلا نفراً قليلاً^(١٨٤).

كذلك اهتم "ابن سباط" في مصنفه بأحوال أهل الذمة -يهود ونصارى- في "الشام" خاصة، وإلزام "الناصر محمد بن قلاوون" لهم بلبس الغيار، فلبس "النصارى" عمائم زرقاء و"اليهود" عمائم صفراء، وقد رسم السلطان بأن يكتب ذلك إلى جميع بلاده^(١٨٥)، وقد تجدد إلزام أهل الذمة بلبس "الغيار" في سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م في سلطنة "الصالح بن الناصر محمد"، فقرأ في جامع "يمشوق" بحضرة نائبها مرسومًا سلطانيًا بإلزامهم بالشروط العمرية^(١٨٦).

كما اهتم "ابن سباط" برصد العديد من المنشآت المعمارية في "مصر" و"الشام"، مثل المنشآت التي أقامها "الناصر صلاح الدين الأيوبي" وعمارة السور والقلعة وبناء المدرسة والمارستان، وذلك في سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م^(١٨٧)، كما أورد جميع منشآت "الظاهر بيبرس" المعمارية سواء في "مصر" أو "الشام" أو الأراضي الحجازية بالتفصيل^(١٨٨)، كذلك تحدث عن انتهاء مدرسة السلطان "الناصر حسن" في ٧٥٥هـ/١٣٥٣م في قلعة الجبل بـ"القاهرة"، والتي يصفها بأنه (لم ير مثلها في زمانه)^(١٨٩). هذا إلى جانب تركيزه على عمارة "الشام" و"يمشوق" بالذات، حيث تحدث في سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م عن إقامة صلاة الجمعة بالجامع الذي أنشأه نائب السلطنة المملوكية في "يمشوق" "الأمير جمال الدين أقوش الأخرم"^(١٩٠)، بسفح "قاسيون"، وكان قد كمل بناؤه على أحسن حال، وعمل فيه منبر من الحجر الأحمر وطعم فيه بالرخام، فجاء أحسن من تطعيم العاج والأبنوس، ولقد لفت "ابن سباط" النظر إلى عمارة جامع بظاهر "يمشوق"، وقيام السلطان "المؤيد شيخ" بإكماله في ٧١٨هـ/١٣١٨م^(١٩١).

ولا ننسى اهتمام "ابن سباط" بذكر وفاة العلماء والفقهاء والمؤرخين ورجال الدولة في "مصر" و"الشام"، وعمل ترجمات قصيرة أو طويلة لتلك الشخصيات^(١٩٢)، فيمكن أن نجزم بعدم وجود سنة من سنوات تاريخه خالية من ذكر مشاهير الوفيات.

النتائج المستخلصة من البحث :

نستطيع أن نستخلص عدة نتائج مما كتبه "ابن سباط" وصنفه في كتابه "صدق الأخبار" المعروف بتاريخ ابن سباط، منها:

- ١- ظهور شخصية "ابن سباط" كمؤرخ من خلال كتاباته؛ إذ إنه كان يشير إلى المصادر التي رجع إليها، مما يدل على أمانته العلمية.
- ٢- تضمن كتاب "صدق الأخبار" معلومات تاريخية واسعة بعضها لا يوجد إلا به مثل الحديث عن أمراء "آل تتوخ"، فقد قدم مادة اكسبت مصنفه قيمة علمية كبيرة.
- ٣- تنوع الحوادث في الكتاب ما بين سياسية واجتماعية واقتصادية.
- ٤- يؤسس هذا الكتاب لمرحلة العلاقات السياسية المتوترة بين "المماليك" و"العثمانيين"، ويعرض لحيثياتها ومجرياتها وتطوراتها سلمًا وحرًا.
- ٥- اهتم "ابن سباط" بأخبار المؤرخين السابقين وتواريخهم، واستوعبها، ثم اختصر بعضها وصاغها بأسلوبه، بحيث تتضح شخصيته من خلال كتابته، التي تصل في بعض الأحيان إلى حد العامية.
- ٦- لقد وضحت مميزات "ابن سباط" كمؤرخ من خلال استخدامه المنهج التحليلي والاهتمام بعلم الجغرافيا، وفلسفة التاريخ، وبعض الظواهر الطبيعية كالمطر والبرد.

الهوامش

- ١- ابن سباط: صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط، تحقيق عمر عبد السلام تمري، طبعة جروس برس طرابلس، ج ١، المقدمة، ص ٨؛ عمر رضا كحالة: معجم المؤرخين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٤، ص ٧٧.
- ٢- عبيه: غرب بيروت (الزركلي: الأعلام، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م، ج ٢، ص ٣٠٧).
- ٣- ابن سباط: تاريخ ابن سباط، ج ١، المقدمة، ص ٨.
- ٤- الأمير جمال الدين التتوخي: يعرف باسم السيد، توفي ٤٧٩هـ/١٤٧٩م (صالح بن الحسين: تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين، سنة ١٨٩٨م، ص ٢٦٩).
- ٥- ابن سباط: تاريخ، ج ١، المقدمة، ص ٩.
- ٦- الأعلام، ج ٢، ص ٣٠٧.
- ٧- ابن سباط: تاريخ، ج ١، المقدمة، ص ١٣.
- ٨- ابن سباط: المصدر السابق والجزء، ص ١١.
- ٩- ابن سباط: نفسه والجزء، ص ٩٠٣.
- ١٠- ابن سباط: نفسه والجزء، المقدمة، ص ١٢.
- ١١- ابن سباط: نفسه والجزء، المقدمة، ص ١٣-١٤.

١٢- جمال الدين عبد الله: أخو تقي الدين إبراهيم، المعروف بالسيد، وله ولدان، هما: سيف الدين عبد الخالق الذي تُوفي وهو صغير، فلما أنجب ولدًا آخر، دعاه باسم عبد الخالق أيضًا، وقد خضعت دولة التتوخين للسلطان سليم الأول في سنة ٩٢١هـ/١٥١٥م، فقد خضع له بنو تتوخ وكان كبيرهم الأمير شرف الدين يحيى (صالح بن الحسين: تاريخ بيزروت، ص ٢٦٩-٢٧٠).

١٣- السلطان طومان باي: تولى نيابة الغيبة في القاهرة أثناء سفر السلطان قانصوه الغوري لمحاربة سليم الأول في مرج دابق بالشام، ولما وصلت الأخبار بمقتل السلطان، اجتمع رأي الأمراء على سلطنة طومان باي الدوادر، وذلك في رمضان سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م، وقد تسلطن وله من العمر نحو ثمانية وثلاثين سنة، وتلقب بلقب الأشرف طومان باي، وقد حاول طومان باي الدفاع عن القاهرة ضد سليم الأول، فتصدى له في الريدانية في ذي الحجة من العام نفسه، إلا إن الهزيمة حلت به (ابن إياس: بدائع الزهور ووقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨م، ج ٥، ص ١٠٥، ١٤٥، ١٥٢).

١٤- ابن سباط: تاريخ ابن سباط، ج ١، المقدمة، ج ١٧.

١٥- عماد الدين زنكي: هو الأتابك عماد الدين زنكي بن أبي سعيد قسيم الدولة المعروف بالحاجب بن عبد الله، أبيه آق مملوكًا تركيًا للسلطان ملكشاه بن آلب أرسلان، استنابة تاج الدين تتشي بن أرسلان في حلب لما ملكها ٤٧٨هـ/١٠٨٥م، فعصى عليه وحاربه فقتل في سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، وتولى عماد زنكي المؤصل وأخذ الرها من الصليبيين، وقتل في

ربيع الآخر ٥٤١هـ/سبتمبر ١٤٦٦م (المقريزي: الذهب المسبوك في نكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشياك، مكتبة الثقافة الدينية، ص ٩٦).

١٦- الناصر حسن: هو الحسن بن محمد بن قلاوون الألفي الصالحي، أمه جارية تركية ماتت وهو صغير، وقد طلب المماليك إقامته في السلطنة، لذا قام الأمراء بتتصيب الحسن في يوم ١٤ رمضان ٤٠٨هـ/٣ فبراير ١٠١٨م ولقبوه بالملك الناصر أبي المعالي سيف الدين قماري (المقريزي: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق محمود الجليلي، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ج ٢، ص ٢٩، ٣٧).

١٧- الأشرف شعبان: هو الأشرف زين الدين أبو المعالي شعبان ابن الأمجد حسين بن الناصر محمد بن قلاوون، ولي السلطنة وعمره عشر سنين، بعد أن خلع الأمير بليغا المنصور، وذلك في شعبان ٧٦٤هـ/مايو ١٣٦٣م وخرج السلطان للحج إلى الأراضي المقدسة، فنزل العقبة وتجمع عليه المماليك وطلبوا عليق دوابهم، ثم هجموا عليه، فاخفى في بيت سيده اسمها أمنة، وقد تخفى في ثياب النساء، فأخرجوه وقتلوه (المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق سعيد عاشور، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠م، ج ٣، ق ١، ص ٨٣).

١٨- الخليفة المتوكل على الله العباسي: بويع له بالخلافة ٧٦٣هـ/١٣٦١م، في سلطنة الظاهر برقوق وقتل؛ وذلك بسبب وشاية من قبل الأمير محمد بن محمد بن تتكز نائب الشام الذي أخبر السلطان بتآمر الخليفة مع بعض الأمراء لخلعه إذا نزل إلى الميدان للعب الكرة، ثم بايع بدلاً منه الخليفة الواثق بالله (ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل في نيل الدول،

تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢م،
ق ٢، ج ١، ص ٢٠٤-٢٠٥).

١٩- بيروت: مدينة قديمة الشام على ساحل البحر المتوسط، وقد رأى البعض أن اسمها مأخوذ من اسم الإله عشتروت، وهي من آله الفينيقيين، وقد عرفت عند العرب بالزهرة والرومان، وقد قيل إن بيروت لفظة فينيقيين أصلها أبيروت، أخذت من لفظة أبير بمعنى الشجاع، فيكون معناها القوة، لمنعتها وحرارتها، وأبير أيضاً معناها الثور (صالح بن الحسين: تاريخ بيروت، هامش ص ٨).

٢٠- لقد قسم المؤرخ صالح بن الحسين أمراء الغرب إلى أقسام أولهم بحتر ثم ولده كرامة ثم حجي بن كرامة، ثم ابنه محمد بن حجي، وجعلهم طبقات الطبقة الأولى جمال الدين حجي بن محمد ومعاصريه، والثانية ناصر الدين الحسن بن الخضر ومعاصريه، والطبقة الثالثة: ناصر الدين الحسين بن الخضر ومعاصريه، والرابعة ولده زين الدين وبنيه، ثم بعدهم كل واحد بحسبه (المصدر السابق، ص ٣٢).

٢١- ابن سباط: تاريخ ابن سباط، ج ٢، ص ٨١٤ وما بعدها.

٢٢- الأمير بحتر: هو الأمير ناهض الدولة أبو العشائر بحتر بن شرف الدولة علي بن الحسين بن أبي إسحق بن تنوخ بن قحطان، أمه اسمها ماوية بنت عمرو (صالح بن الحسين: تاريخ بيروت، ص ٦٥).

٢٣- كرامة بن بحتر: هو زهر الدولة أبا العز كرامة، قيل إنه سكن حصن سرحمور قريبة من عرامون - بعد استيلاء نور الدين محمود على يمشق، وأخوه هو شرف الدين علي بن بحتر، ومن نريته الأمراء بعرامون . كذلك رفع السلطان الناصر صلاح الدين بن أيوب

ابنه جمال الدين حجي بن كرامه، فولاه على بيزروت بعد فتحها في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وكتب له منشورًا بذلك (صالح بن الحسن: المصدر السابق، ص ٧١، ٧٣، ٧٥).

٢٤- انظر ملحق رقم (١) الخاص بشجرة نسب آل تنوخ.

٢٥- السلطان مسعود: كان معاصرًا للسلطان سنجر السلجوقي، أقام السلطان مسعود في بغداد، وقد عين السلطان الأمير عبد الرحمن أتابكا لابنه، وأسند إليه ولاية كبخه وآران، وقد وزر له تاج الدين الوزير ثم عزله وأسندها إلى مؤيد الدين الغضرائي الذي امتاز بكمال الفضل، والعدل، وغزارة العلم (الرواندي: راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، نقله إلى اللغة العربية إبراهيم أمين الشواربي، الإدارة العامة للثقافة، القاهرة، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م، ص ٣٤١-٣٥١، ٣٤٢).

٢٦- السلطان سنجر: هو ابن السلطان ملكشاه السلجوقي، الذي تولى إمارة خراسان إلى أن تولى السلطنة السلجوقية فتصدى للقراخطاي في ٥٣٦هـ/١١٤١م في موقعة قطوان، وقتل ما يقرب من مائة ألف من عساكر المسلمين، وسقطت بلاد ما وراء النهر في أيديهم، وأسر السلطان سنجر وزوجته السيدة ترکان خاتون بنت أرسلان خان، ففدى زوجته بخمسمائة ألف دينار (الرواندي: المصدر السابق، ص ٢٦٤؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٥٤).

٢٧- صلاح الدين بن أيوب: هو صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، كان والده من بلدة دوين، وأصله من الأكراد وهذا النسل هم أشرف الأكراد، عين أيوب مستحفظًا لقلعة تكريت ثم سار والده إلى عماد الدين زنكي فأقطعته قلعة بعلبك. رجع صلاح الدين إلى وزارة العاصمة

- عقب موت عمه أسد الدين شيركوه ولقبه الملك الناصر، وتمكن من إسقاط الدولة الفاطمية وأنشأ الدولة الأيوبية (ابن الأثير: المصدر السابق والجزء، ص ٣٤١، ٣٤٤).
- ٢٨- ابن سباط: تاريخ ابن سباط، ج ١، ص ١٣٩.
- ٢٩- ابن سباط: المصدر السابق والجزء، ص ١٧٦.
- ٣٠- ابن سباط: نفسه والجزء، ص ٥٢.
- ٣١- الظاهر بيبرس: هو بيبرس البندقداري، وهو ركن الدين أبو الفتح الصالحي، ولد بأرض القفجاق وبيع مملوكًا إلى بعض التجار الذين قدموا به إلى دمشق، فاشتراه الأمير علاء الدين صاحب دمشق الملقب بالبندقداري لذا نسب إليه، ثم اشتراه الصالح نجم الدين أيوب، ولا يزال يترقى في مناصب الدولة حتى قتل السلطان سيف الدين قطز بعد موقعة عين جالوت، فرفع إلى كرسي السلطنة (الصفدي: فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت، ص ٢٢٥).
- ٣٢- ابن سباط: تاريخ، ج ١، المقدمة ص ١٩.
- ٣٣- ابن سباط: المصدر السابق والجزء، ص ٤٢٢.
- ٣٤- ابن سباط: نفسه، ج ٢، ص ٩٢٥.
- ٣٥- ابن سباط: نفسه، ج ١، المقدمة ص ١٠.
- ٣٦- ابن سباط: نفسه، ج ٢، ص ٨٦٢-٨٦٣.
- ٣٧- ابن سباط: نفسه، ج ١، المقدمة ص ١١-١٢.

٣٨- ابن سباط: نفسه، ج١، ص٦٨٨؛ ج٢، ص ٧٠-٧١، ٧٣، ٧٨، ٩٣، ٢٧١، ٣٦٧، ٦٠٨، ٦٧٥، ٧٠٦، ٧٦٢.

٣٩- ابن سباط: نفسه، ج١، ص٥٢، ٥٥، ٥٦، ٥٧-٥٨، ٦١، ٦٣، ٦٩، ١٠٠.

٤٠- ابن سباط: نفسه والجزء، ص٥١.

٤١- ابن سباط: نفسه والجزء، ص٨٣.

٤٢- نور الدين محمود: خلف أباه عماد الدين زنكي في حكم الموصِل والشَّام، وذلك في سنة ١١٤٦هـ/١١٤٦م، وتصدى للفرنج وأخذ مدينة مَشَق من صاحبها مجير الدين بن بوري. وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة، سمع الحديث، وكان عادلاً وبنى دار العدل في بلاده (ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص١٢٢، ١٩٧، ٤٠٢).

٤٣- ابن سباط: تاريخ ابن سباط، ج١، ص٨٦.

٤٤- ديوان الاستيفاء: هو ديوان الخراج، الذي يشرف على تنظيم إيرادات الدولة ومصروفاتها، ويعين على رأس هذا الديوان المستوفي وهو من موظفي الأموال، وفي بمعنى الوفاء ضد الغدر، فيقال وفي بعهد، وأوفى بمعنى الموافاة التي يكتبها كتاب دواوين الخراج في حساباتهم، فهي مأخوذة من قولك أوفيته حقه ووفيته حقه (ابن منظور: لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير، طبعة دار المعارف، ج٦، ص٤٨٨٦).

٤٥- ابن سباط: تاريخ، ج١، ص٨٦.

٤٦- ابن سباط: المصدر السابق والجزء، ص١٢٤.

٤٧- ابن سباط: نفسه والجزء، ص١٣٥-١٣٦.

٤٨- الملك المعظم عيسى: هو الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب حكم بمشقة مدة تسع سنين وشهوراً، وكان شجاعاً، ويجامل أخاه الملك الكامل ويخطب له ببلاجه ولا يذكر اسمه بعده، وكان عالماً فاضلاً في الفقه والنحو، حنفياً متعصباً توفى في ذي القعدة ٦٢٤هـ/ أكتوبر ١٢٢٧م، فتولى بعده ابنه الملك الناصر صلاح الدين داود (أبو الفداء): المختصر في أخبار البشر، تقديم حسين مؤنس، تحقيق: محمد زينهم محمد عزت، طبعة دار المعارف بالقاهرة، ١٩٩٩م، ج ٣، ص ١٧١-١٧٢).

٤٩- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ٢٦٤.

٥٠- هولكو: حفيد جنكيز خان، الذي هاجم خوارزم وبخارى في عهد علاء الدين محمد خوارزمشاه (ابن الأثير: الكامل، ج ١٢، ص ٣٩٤؛ الجوزجاني: طبقات ناصري، ترجمة ملكه علي التركي، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢م، ج ٢، ص ١٢٨، ١٣٠)؛ وذلك عندما اعتلى الإمبراطور منكوقا آن عرش قراقورم، فجهز حملة عسكرية تجاه إيران وقلاع الإسماعيلية (الهمذاني: جامع التواريخ - الإيلخانيون تاريخ أبناء هولكو، ترجمة محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطي السيد، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مجلد ٢، ج ٢، ص ٣٤٠)؛ وبذلك تمكن من إسقاط الخلافة العباسية وقتل الخليفة المستعصم العباسي في سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م (أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ٢٣٣؛ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان - عصر سلاطين المماليك، حققه محمد أمين، مطبعة دار الكتب بالقاهرة، ج ١، ص ١٦٧)؛ توفى هولكو سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م، في مدينة المراغة (الجوزجاني: طبقات ناصري، ج ٢، ص ٢٠٥؛ ابن الفوطي: الحوادث

- الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مهدي المنجم، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٢٥٣).
- ٥١- المَرَاعَة: بلدة مشهورة من أذربيجان، قيل إن مروان بن محمد عسكر فيها وهو والي على أرمينية وأذربيجان، فكانت دوابه ودواب أصحابه تتمرغ في الأرض، فأطلقوا عليها اسم المَرَاعَة (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٩٣).
- ٥٢- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ٤١١.
- ٥٣- ابن سباط: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٦٦؛ تيمورلنك: كان أول خروجه واستقلاله بالملك في ما وراء النهر، واسمه تيمورلنك بن ظرغاي بن ابغاي الجغتاي -الجغتاي- ظهر بين كش وسمرقند، كان أبوه من الفلاحين انضم إلى مجموعة من قطاع الطرق، واشتهر بمعرفته للخيل فقرره سلطان سمرقند على خيله، تزوج ابنة ملك المغول تمرخان - فتسمى بكوركان أي الصهر باللغة المغولية- قصد عدداً من البلاد واستولى عليها، مثل خوارزم وجرجان وهرة وسجستان (ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب المصرية، ١٩٧٠م، ج ١، ص ١٢٩)؛ ويعد تيمورلنك من قبيلة برلاس من القبائل التركية المغولية، أطلق عليه لقب الفارس "لانج" أو "لنك" نتيجة لإصابته في إحدى الغارات لنهب الأغنام بجرح سبب له العرج (برتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد أسعد عيسى، راجعه سهيل زكار، الطبعة الأولى، دار صان للطباعة والنشر، دمشق، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ١٢١).

٥٤- جنكيزخان: اسمه تيموجين التتاري من قبيلة كانت أكبر قبائل المغول، يتصف بالبنية القوية وضخامة الجسم، وهو في غاية الشجاعة والذكاء، وحد القبائل التتارية تحت سيطرته ونفوذه، وضع قانون لهذه القبائل يعرف بالياسا الجنكيزية كدستور لهم (الجوزجاني: طبقات ناصري، ج٢، ص١٥٨، ١١٦)؛ وقد هاجم بقواته في ٦١٧هـ/٢٢٠م ممتلكات الدولة الخوارزمية، واجتاح بلاد ما وراء النهر وكون إمبراطورية عظيمة قام بتقسيمها بين أولاده الأربعة (ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٣٨٤).

٥٥- علاء الدين محمد خوارزمشاه: هو علاء الدين محمد بن تكش الخوارزمي، الذي تطلع إلى ممتلكات الدولة القراخانية في تركستان وما وراء النهر، ثم تصدى للقراخاني، وامتلك هرة وإقليم الغور كله، ولقب نفسه بالإسكندر الثاني، وظل الله على الأرض (النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، مراجعة محمد مصطفى زياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج٢٧، ص٢٣٧).

٥٦- بخارى وبلاد ما وراء النهر: تعد بخارى من أعظم مدن بلاد ما وراء النهر وأجلها ويعبر إليها من أول الشط، بينها وبين نهر جيحون مسيرة يومين (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٤١٩).

٥٧- ابن سباط: تاريخ، ج١، ص٢٧٠.

٥٨- ابن سباط: المصدر السابق والجزء، ص٢٨٨.

٥٩- جلال الدين منكبرتي: هو ابن السلطان علاء الدين خوارزمشاه، الذي هزمه المغول بقيادة جنكيزخان، فانتقل من مكان إلى آخر حتى فر إلى إقليم مازندران ومات هناك، وقد

حاول السلطان جلال الدين منكبرتي مواصلة الجهاد ضد المغول إلا أنهم أنزلوا به الهزيمة في عَزْنَة، مما اضطره إلى عبور نهر السِنْد إلى بلاد الهِنْد، لكي يجد مكانًا يعيد فيه تنظيم قواته، وقد عاد السلطان في ٦٢٢هـ/١٢٢٥م واستولى على خلاط في سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، حتى قتل في أرض الأكراد على يد شخص منهم (النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، سنة ١٩٥٣م، ص ١٣ - ١٤، ١٦٠، ٢٩٩، ٣٨٢).

٦٠- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ٣٠٢.

٦١- الخليفة المستعصم العباسي: بويح المستعصم عقب وفاة المستعصر، وهو أبو أحمد عبد الله وكان وزيره مؤيد الدين بن العلقمي من الروافض من أهل الكَرْخ، وقد أطمع هولاء وكاتبه للهجوم على بَغْدَاد بسبب وقوف الخليفة المستعصم إلى جوار السنة في بَغْدَاد ضد الشيعة، فلما قدم هولاء خرج إليه الوزير واستوثق على أهله ونفسه، ثم أقتع الخليفة بالخروج إليه، وبذلك تم القبض على المستعصم، وذلك في سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م (ابن الساعي: تاريخ الخلفاء العباسيين، قدم له وأعد فهارسه عبد الرحيم يوسف الجمل، طبعة مكتبة الآداب بالقاهرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص ١٥٩ - ١٦٠).

٦٢- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ٣٧٥.

٦٣- ابن سباط: المصدر السابق والجزء، ص ٤٢٨.

٦٤- الملك الأشرف خليل: هو صلاح الدين خليل بن سيف الدين قلاوون، الذي تولى السلطنة في ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، والذي لم يعنه المنصور قلاوون ولياً لعهدده في حياته فقد

عين بدلاً منه ابنه الصالح علاء الدين، إلا إنه لم يلبث أن تُوفي وتشاء الظروف أن يتولى خليل السلطنة من بعده ويلقب بالملك الأشرف خليل (ابن حبيب: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، راجعه سعيد عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م، ج ١، ص ٩٥)؛ وقد منح الأشرف خليل حصن عكا واسترده من الصليبيين، ولكنه لم يبق في السلطنة إلا ثلاث سنين وشهرين، وخرج للصيد فقتل (أبو المحاسن: مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، صورة من الإنترنت، ص ٤٦).

٦٥- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ٤٩٧.

٦٦- ابن سباط: المصدر السابق والجزء والصفحة.

٦٧- ابن سباط: نفسه والجزء، ص ٥١٠.

٦٨- أسد الدين شيركوه: هو الأمير أسد الدين شيركوه بن شادي، مقدم عسكر نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، وأكبر أمراء دولته أرسله إلى مصر على رأس ثلاث حملات؛ بسبب الصراع بين الوزير شاور وزير العاضد الفاطمي وضرغام، وقد خلع عليه العاضد بمنصب الوزراء (ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ٢٩٨، ٣٣٥)؛ ولقبه بلقب الملك المنصور أمير الجيوش، وقد توفي أسد الدين شيركوه بعد شهرين من وزارته في سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م (أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ٦٠ - ٦١).

٦٩- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ١٢٢.

٧٠- ابن سباط: المصدر السابق والجزء، ص ٨٥.

٧١- الأمير سيباي نائب سلطنة بيمشق: دخل بيمشق يوم الجمعة ٢٤ محرم ٩١٢هـ/ ٦ يونيو ١٥٠٦م، وأثناء نيابته غلا سعر القمح لانقطاع الجلب من بلاد خوزان، وأصبح رطل الخبز بيمشق بنحو الثلاثة دراهم.. وفي نيابته أرسل إليه السلطان من مصر خلعة فدقت البشائر لذلك (ابن طولون: إعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بيمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد أحمد دهمان، دار الفكر بيمشق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٤م، ص ١٩٢، ١٩٤).

٧٢- ابن سباط: تاريخ، ج ٢، ص ٩٣٢.

٧٣- ابن سباط: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٢٣.

٧٤- طغرليك: أول سلاطين السلاجقة في إيران تولى الملك في سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م، وأطلق عليه لقب سلطان، وقد أسقط آل بويه ثم صرفهم من الدولة العباسية، وعندما وصل إلى بغداد بعد تأديته فريضة الحج- في عهد الخليفة القائم بأمر الله العباسي (٤٢٢- ٤٦٧هـ/١٠٣١- ١٠٧٤م) رفع الخليفة من شأنه (الرواندي: راحة الصدور، ص ١٦٩).

٧٥- عن المكاتبات بين الأفضل العزيز بن صلاح الدين والأمير جمال الدين حجي، أنظر (صالح بن الحسين: تاريخ بيزوت، ص ٧٨).

٧٦- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ٢١٤.

٧٧- خوارزم: أكثر ضياع مدنها ذات أسواق وخيرات ودكاكين، ومن النادر أن تكون قرية لا سوق فيها مع أمن شامل وطمأنينة تامة (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٩٦).

- ٧٨- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ٢٧١.
- ٧٩- ابن سباط: المصدر السابق والجزء، ص ٣٢٤، ٣٤١.
- ٨٠- ابن سباط: نفسه والجزء، ص ٣٤١.
- ٨١- توران شاه: هو ابن الملك الصالح نجم الدين، الذي تولى حكم مصر حوالي تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوماً ومات فأقيم ابنه الملك المعظم غياث الدين تورانشاه، وقتل بعد سبعين يوماً من سلطنته في ٢٩ محرم ٦٤٨هـ/ ٣ مايو ١٢٥٠م وبموته انقضت الدولة الأيوبية من ديار مصر، بعد أن مكثت إحدى وثمانين سنة وسبعة عشر يوماً (المقريزي: درر العقود الفريدة، ج ٢، ص ٣٣)؛ وكان الخلاف قد وقع بينه وبين مماليك أبيه من البحرية، الذين انتصروا على لويس التاسع، فتأمروا عليه وقتلوه (أبو الفداء: المختصر، ج ٣، ص ٢٢٠).
- ٨٢- نجم الدين محمد بن حجي: هو الأمير نجم الدين محمد، كان مكان والده حجي وعلى إقطاعاته وأملاكه، أرسل إليه الملك الصالح أيوب مرسوماً بولايته، وقتل في أربع الآخرة ٦٤٠هـ/ ٣ أكتوبر ١٢٤٢م، وله ولدان جمال الدين حجي وسعد الدين خضر (صالح بن الحسين: تاريخ بيروت، ص ٧٩-٨٠).
- ٨٣- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ٤٥٨.
- ٨٤- الدولة الغورية: أول من ملك منهم الحسين بن الحسين ملك جبال الغور وعاصمتهم مدينة فيروزكوه، وهي تقارب أعمال غزنة، وتلقب بعلاء الدين وحاصر هراة وسار إلى بلخ، وملك غزنة سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م ونهبها ثلاثة أيام، ثم تلقب بالسلطان المعظم وحمل

- الجتز على عادة السلاطين السلاجقة (ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ١٦٤، ١٦٦؛ أبو الفداء: المختصر، ج ٣، ص ٣٤-٣٥).
- ٨٥- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ٩٧.
- ٨٦- خُرَّاسَان: بلاد واسعة أول حدها فيما يلي العِرَاق أزدوار، وآخر حدودها مما يلي الهِنْد طخارستان وعَزْنَة سِجِسْتَان وكَرْمَان، ومن أهم مدنها نَيْسَابُور وهَرَاة وغيرها (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٥٠).
- ٨٧- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ٩٨.
- ٨٨- ابن سباط: المصدر السابق والجزء، ص ١٣١؛ وفاة الخليفة العاضد بالله الفاطمي: بويج بالخلافة بعد وفاة الفائز، وصار وزيره الصالح طلائع بن رزيك مذموم السيرة، وهو الذي بنى الجامع خارج باب زويلة ثم تولى شاور، وهو الذي أدخل نور الدين زنكي في شئون مِصر، ولما استوزر العاضد صلاح الدين الأيوبي عزله وقطع خطبة الجمعة من على المنابر، ودعا للخليفة المستضيء العباسي، وقد مات العاضد في ٥٦٤هـ/١١٦٨م (أبو المحاسن: مورد اللطافة، ص ٢١-٢٢).
- ٨٩- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ١٦٦.
- ٩٠- ابن سباط: المصدر السابق والجزء، ص ٤٢٥.
- ٩١- ابن سباط: نفسه والجزء، ص ٢٥٧.
- ٩٢- الخطا: ويطلق عليها الدولة القراخائية، اتخذ حكامها لقب كورخان ومعناه خان الخانات أو ملك الملوك (النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، هامش ٤ ص ٤٣).

- ٩٣- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ٢٤٤.
- ٩٤- شيخ المحمودي: هو أبو النصر شيخ بن عبد الله أحد مماليك الظاهر برقوق، أخذ وهو صغير من بلده، في بلاد الجركس، فبيع في أسواق النخاسة، وعمره لا يتعدى الاثنتي عشرة سنة، وعرض على الأمير برقوق قبل تولية السلطنة فلم يشتريه، ثم بيع إلى خوجة محمود بثلاثة آلاف درهم فضة (المقريزي: درر العقود، ج ٢، ص ١٢٥)؛ ترقى في المناصب حتى تولى نيابة طرابلس الشام في عهد الناصر فرج في ١٢٠٢هـ/١٣٩٩م، ثم تولى نيابة دمشق في حدود ١٢٠٥هـ/١٤٠٢م. ولما فتح الناصر فرج أعلن شيخ نفسه سلطاناً في ١٨ ربيع الآخر ٨١٦هـ/ ١٨ يوليو ١٤١٣م (السخاوي: الضوء اللامع، منشورات دار الحياة، بيروت- لبنان، ج ١، ص ٣٠٩).
- ٩٥- الناصر فرج بن برقوق: ولد في ربيع الأول ٧٩١هـ/مارس ١٣٨٩م، بقلعة الجبل وتسلطن في شوال ٨٠١هـ/يونيو ١٣٩٩م، وكان عمره عشر سنين وستة أشهر، وبقي في السلطنة حتى مقتله في صفر ٨١٥هـ/مايو ١٤١٢م (المقريزي: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٧-١٨).
- ٩٦- ابن سباط: تاريخ، ج ٢، ص ٧٧٠.
- ٩٧- ابن سباط: المصدر السابق، ج ١، ص ٩٥.
- ٩٨- ابن سباط: نفسه والجزء، ص ١٢١، ١٢٤-١٣٧.
- ٩٩- ابن سباط: نفسه والجزء، ص ١٤٩-١٥٠.
- ١٠٠- ابن سباط: نفسه والجزء، ص ٣٠٣.

١٠١- موقعة مرج عيون: بين صلاح الدين الأيوبي والصليبيين في سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م، حيث هزم الفرنج بعد قتال مرير، وأسر ملك نارلس بن بيرزان أخو صاحب جبيل وصاحب طَبْرِيَّة وجماعة من أعيانهم، يزيد عن مائتين وسبعين فارسًا، وحملوا إلى قلعة يَمَشُق حيث اعتقلوا بها، وقد فدى ابن بيرزان نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار، وأطلق ألف أسير من المسلمين (ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ٤٥٥-٤٥٦).

١٠٢- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ٢٧٠.

١٠٣- المنصور قلاوون: هو سيف الدين قلاوون بن عبد الله الألفي التركي الصالحي اشتراه الأمير علاء الدين آقشقر، أحد مماليك العادل الأيوبي وهو صغير بألف دينار، مما يدل على تعدد مواهبه وحسن صورته، فأطلق عليه الألفي، ارتفع شأنه في عهد الظاهر بيبرس عندما زوج ابنه السعيد بركة خان من ابنة قلاوون السيدة غازية خاتون، اتصف بالزهد في عرش السلطنة عندما عين أتابكا للسعيد بركة بن بيبرس إلا إنه عزل بدر الدين سلامش وتولى الحكم بدلًا منه في ٢٠ رجب ٦٧٨هـ/ ٢٦ ديسمبر ١٢٧٩م (أبو الفداء: المختصر، ج ٤، ص ١٥٥).

١٠٤- الملك المظفر صاحب حماة: هو الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين محمود بن شادي بن أيوب، توفي ٦٩٨هـ/١٢٩٨م، وبوفاته خرجت مملكة حماة عن البيت الأيوبي حيث تولاه الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري (أبو الفداء: المصدر السابق والجزء، ص ٤١-٤٢).

١٠٥- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ٤٩١.

- ١٠٦- أمير عشرة: مرتبة حربية يكون في خدمة صاحبها عشرة مماليك، ويكون صغار الولاية من طبقة أمراء العشراء (سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٤٠٠).
- ١٠٧- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ٤٩٥.
- ١٠٨- بيبرس الجاشنكير: تسلطن في ٧٠٨هـ/١٣٠٨م، بعد أن خرج الناصر محمد إلى الكرك وخلع نفسه من السلطنة وأراد الإقامة بالكرك، لذا اجتمع الأمراء ورفعوا ركن الدين بيبرس ولقب بالملك المظفر، وقد سار الأمراء مشاه بين يديه، وجعل الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة. وقد وصف بأنه نو دين متين، يحب الفقراء والصالحين والمشايخ، وله فيهم عقيدة جيدة حسنة (اليونيني: ذيل تاريخ الزمان، تحقيق حمزة أحمد عباس، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ٢٠٠٧م، المجلد الثاني، ص ١٢٠٩-١٢١١)؛ وكلمة الجاشنكير: كلمة فارسية تتكون من لفظين الأول جاشنا ومعناه الذوق والثاني كير ومعناه المتعاطي وكانت وظيفته الأمير جاشنكير أن يقوم بتذوق المأكول والمشروب قبل السلطان خوفاً من أن يفس عليه سم أو نحوه (القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، طبعة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م، ج ٥، ص ٤٦٠).
- ١٠٩- ابن سباط: تاريخ، ج ٢، ص ٥٩٩.
- ١١٠- توقيع سلطاني: انقسمت بلاد الشام في عصر الممالك إلى عدة أقسام، يسمى كل قسم باسم النيابة، تخضع للحكومة المركزية في القاهرة، مثل نيابة دمشق وحلب وطرابلس وغيرها، وكان السلطان المملوكي في مصر يخلع على نواب الشام الخلع السنية، وكان نائب دمشق هو أرفعهم منزلة يطلق عليه في المكاتبات الرسمية "كافل السلطنة الشريفة بالشام المحروسة" ويخرج له مرسوم بتوقيع سلطاني (القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ٤، ص ١٩٠، ١٩٢).

- ١١١- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ٦٠٤-٦٠٥.
- ١١٢- الأمير سلار: كان نائب السلطنة في ١٣٠١هـ/١٧٠١م (اليونيني: نيل تاريخ الزمان، ج ١، ص ٦٧٧)؛ في عهد الناصر محمد بن قلاوون -سلطنته الثانية- عوضاً عن الأمير سيف الدين منكوتر الحسامي، ثم ظهرت الوحشة بينه وبين السلطان في ١٣٠٧هـ/١٣٠٧م، حتى سلطنة بيبرس الجاشنكير الذي عينه نائب للسلطنة، ولكن في ١٣١٠هـ/١٣١٠م، صودر واعتقل بالقلعة إلى أن مات جوعاً (ابن حبيب: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ج ١، ص ٢٨١، ٢١٣).
- ١١٣- ابن سباط: تاريخ، ج ٢، ص ٦٠٨، ٦٧٤، ٦٧٥.
- ١١٤- ابن سباط: المصدر السابق والجزء، ص ٧٠٤-٧٠٥.
- ١١٥- ابن سباط: نفسه، ج ٢، ص ٧١٦.
- ١١٦- ابن سباط: نفسه والجزء، ص ٧٦٥-٧٦٦.
- ١١٧- ابن سباط: نفسه والجزء، ص ٧٨٠.
- ١١٨- الأمير أقبغا الجمالي: هو الأمير الكبير علاء الدين أقبغا الجمالي الأطروشي كان نائباً على حلب، ثم نقل إلى نيابة دمشق، وكان يومئذ أتاك العساكر، ونزل بعمارة يونس الدوادر -الخانقاه اليونسية- وقد اتصف الأمير أقبغا بأنه عاقلاً لبيباً ديناً (ابن طولون: أعلام الوري، ص ٥٧).
- ١١٩- ابن سباط: تاريخ، ج ٢، ص ٧٩٥.

١٢٠- الأمير عز الدين جواد: هو ثاني أولاد سعد الدين خضر، كان شجاعاً قوياً ذو سطوة وحرمة، عمّر القاعة والقبو الملاصق لها، وأراد أن يجلب الماء إليها فعمل قناة فوق القناة التي صنعها أخوه ناصر الدين ولم يتمها، وكان مولده في ١٦ ذي الحجة ٦٩٣هـ/ ٧ نوفمبر ١٢٩٤م، ووفاته في ١٩ جمادى الآخرة ٧٤٣هـ/ ١٩ نوفمبر ١٣٤٢م، قتيلا في حصار الكرك (صالح بن الحسين: تاريخ بيزوت، ص ١٧٨-١٧٩).

١٢١- ابن سباط: تاريخ، ج ٢، ص ٨٥٩.

١٢٢- ابن سباط: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٩٨.

١٢٣- ماريين: قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دنيس ودارا ونصيبين (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١).

١٢٤- ابن سباط: تاريخ، ج ٢، ص ٥٧٦.

١٢٥- ابن سباط: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٧، ٩١.

١٢٦- الحجاب: مفرداها حاجب والحجوبية وظيفة قديمة كانت تسمى القيادة، وكان الحاجب يسمى قائد الجيش، ولكن لم يحكم بل يعرض الجيش، وفي زمن المؤلف اصطلحت الترك على أنه يفصل في القضايا (السبكي: معيد النعم ومبيد النعم، تحقيق محمد علي النجار وأبو زيد شلبي ومحمد أبو العيون، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٤١هـ/ ١٩٩٣م، ص ٤٠).

١٢٧- الدواوين: يطلق مصطلح الدواوين على الكتاب أنفسهم الذين يختصون بكتابة الإلتزامات وحساب ما يعطى من الأرض لاستغلالها واستخلاص ما هو مرتب عليها،

والدواوين السلطانية مرجعها إلى الوزير، وإن كانت دواوين الأمراء مرجعهم إليهم فأمر كل ديوان إلى مخدومه، وهو الذي يختص بالرفق بالفلاحين (السبكي: المصدر السابق، ص ٢٩٥، ٣٠٠).

١٢٨- ابن سباط: تاريخ، ج ٢، ص ٧٠٣.

١٢٩- ابن سباط: المصدر السابق، ج ١، ص ٩٠.

١٣٠- ابن سباط: نفسه، ج ٢، ص ٥٧٦، ٥٨٤؛ وقد أشار المقرئ إلى كثرت الجراد بالشام حتى أثلف الزروع، فغلت الأسعار وبلغت غرارة القمح بدمشق مائة وثمانين درهماً وفشت الطواعين والأمراض الحادة في الناس بدمشق (السلوك، ج ٣، ق ١، ص ٩٢).

١٣١- غرق بغداد في عهد الجلائريين: تعرضت العراق وعاصمتها بغداد إلى الغرق في عهد السلطان حسين بن أويس، وذلك في حدود ٧٧٤هـ/٣٧٢م (البليسي: شرفنامه، ترجمة محمد علي عوني، راجعه يحيى الخشاب، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٢م، ج ٢، ص ٥٦-٥٧).

١٣٢- ابن سباط: تاريخ، ج ٢، ص ٨١٤.

١٣٣- ابن سباط: المصدر السابق والجزء، ص ٩٤٠.

١٣٤- ابن سباط: نفسه، ج ١، ص ١٦٨.

١٣٥- ابن سباط: نفسه، ج ٢، ص ٦٣٩؛ الناصر محمد بن قلاوون: رفع للسلطنة عقب مقتل أخيه الأشرف خليل، وتآمر الأمير بيدرا على قتله، وكان محمد صغيراً لا يتجاوز التاسعة من عمره وقد تم اختياره وتلقيه بلقب الناصر محمد، ولكن الأمراء سيطروا على

مقدرات الدولة، فعزل السلطان الناصر من الحكم بعد عام واحد، وهذه سلطنته الأولى (بييرس الدودار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة محمد عطا، عين للدراسات الاجتماعية والإنسانية، ج٩، ص٢٩١)؛ ومن هنا تم تعيين كتبغا ثم لاجين في السلطنة، ثم أعيد الناصر محمد مرة أخرى إلى السلطنة بعد استدعائه من الكرك (ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص٢٨٦)؛ ثم أعيد الناصر محمد للمرة الثالثة للسلطنة وهي التي استمر فيها ما يقرب من أحد وثلاثين عامًا (المقريزي: السلوك، ج٣، ص٣٤٣؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص١٢٥).

١٣٦- المسترشد بالله العباسي: لما توفي الخليفة المستظهر ببيع بالخلافة ابنه المسترشد أبو منصور فضل، ووقعت بينه وبين السلطان مسعود السلجوقي حرب، فأخذ المسترشد أسيرًا، وأفرده في خيمة، ووعده أن يطلقه، وأن يعيده إلى الخلافة فأغفلت الباطنية السلطان مسعودًا، ووثبت على الخليفة فقتلوه في ذي القعدة ٥٢٩هـ/ أغسطس ١١٣٥م، ومثلوا به فجزعوا أنفه وقطعوا أذنيه (ابن الساعي: تاريخ الخلفاء العباسيين، ص١١٨).

١٣٧- ابن سباط: تاريخ، ج١، ص٥٣، ٥٨، ٦٠.

١٣٨- الراشد بالله العباسي: لما قتل المسترشد ببيع بالخلافة ابنه الراشد بالله أبو جعفر المنصور، ثم خلع بعد مدة يسيرة، وقد خلف الراشد إحدًا وعشرين ولدًا ذكرًا (ابن الساعي: تاريخ الخلفاء، ص١١٩).

١٣٩- ابن سباط: تاريخ، ج١، ص٦١، ٦٣.

١٤٠- المقتضي لأمر الله: لما خلع الراشد، بويح المقتضي محمد بن المستظهر في ذي القعدة وهو عم الراشد، فالراشد والمسترشد إخوان، وتوفي المقتضي في ربيع الأول ٥٥٥هـ/ مارس ١١٦٠م، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر ونصف (ابن الساعي: تاريخ الخلفاء، ص ١٢٠).

١٤١- السلطان سليمان شاه السلجوقي: لقب بالسلطان معز الدين والدنيا وكني بأبي الحارث سليمان، وكانت مدة ملكه ستة أشهر وبضعة أيام، ووزر له شهاب الدين ثقة النيسابوري وحاجبه مظفر الدين ألب أرغون، وتوقيعه "أستعنت بالله" (الرواندي: راحة الصدور، ص ٣٩٢).

١٤٢- السلطان محمد بن محمود السلجوقي: لقب بغياب الدين وكني بأبي شجاع كان ذا وجه جميل، وهو قائداً مظفراً قليل الإيذاء، ووزر له جلال الدين أبو الفضل الدرگزيني وشمس الدين أبو النجيب، ومدة ملكه سبع سنوات (الرواندي: المصدر السابق، ص ٣٧١).

١٤٣- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ٦٤، ١٠١-١٠٢، ١٠٧، ١١٠.

١٤٤- المستجد بالله العباسي: لما توفي المقتضي بويح المستجد بالله بالخلافة، وكان صالحاً محباً للعلماء والأولياء، مكرماً لأهل الدين وكان المستجد موصوفاً بالعدل والرفق وأطلق من المكوس شيئاً كثيراً بحيث لم يترك بالعراق مكساً، يقال أنه ألف في كل علم كتاباً، وكان صاحب رأي وفهم وعقل سليم ودين متين، توفي سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م (ابن الساعي: تاريخ الخلفاء، ص ١٢١، ١٢٧، ١٣٦).

١٤٥- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ١٢٨.

١٤٦- المستضيء بنور الله العباسي: لما مات المستنجد بالله بُويع بالخلافة المستضيء وهو أبو محمد الحسن بن المستنجد، توفي في ذي القعدة ٥٧٥هـ/ أبريل ١٨٠م، وكانت مدة خلافته تسع سنين وتسعة أشهر (ابن الساعي: تاريخ الخلفاء، ص ١٣٦).

١٤٧- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ١٥٣.

١٤٨- الناصر لدين الله العباسي: لما توفي المستضيء بُويع ابنه الناصر بالخلافة، ولما ولي قبض على ظهير الدين أبي بكر بن العطار، وأخذ أمواله، وخنقه، وتوفي الناصر في شوال سنة ٦٢٢هـ/ أكتوبر ١٢٢٥م، وكان الناصر حسنًا جميل الشكل صاحب فكر صائب وخداع وحيل، شجاعًا في الحروب مشغولًا بشهواته (ابن الساعي: تاريخ الخلفاء، ص ١٣٦-١٣٧).

١٤٩- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ١٥٤، ١٩٠، ٢٨٤، ٢٨٦.

١٥٠- الظاهر بالله العباسي: لما توفي الناصر ولي الخلافة مكانة ابنه الظاهر أبو نصر محمد في ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م، ولما ولي أظهر العدل وأزال المكوس وأفرج عن المحبوسين، وكان من أعظم الخلفاء تمسكًا بالعدل، ومات في رجب في هذه السنة، فكانت خلافته تسعة أشهر (ابن الساعي: تاريخ الخلفاء، ص ١٥٤-١٥٥).

١٥١- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ٢٨٦، ٢٨٩.

١٥٢- المستنصر بالله العباسي: لما مات الظاهر بُويع بالخلافة ابنه المستنصر أبو جعفر المنصور، وسلك في الإحسان والعدل سيرة أبيه، وفي أيامه أخذت الأفرنج بيت المقدس، ثم ملكت دمياط، وقد توفي المستنصر في جمادى الآخر ٦٤٠هـ/ ديسمبر ١٢٤٢م، وكانت

- خلافته تسع عشرة سنة إلا شهراً، وهو الذي بنى المدرسة المستنصرية ببغداد، وأوقف عليها أوقافاً عظيمة (ابن الساعي: تاريخ الخلفاء، ص ١٥٦).
- ١٥٣- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ٢٩٠، ٣١٥، ٣٢٧.
- ١٥٤- ابن سباط: المصدر السابق والجزء، ص ٣٢٨، ٣٧٣، ٣٧٤.
- ١٥٥- أحمد بن الإمام الظاهر بالله العباسي في القاهرة: في سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله محمد بن الناصر، وأنه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها التتار، فعقد الملك الظاهر بيبرس مجلساً حضر فيه جماعة من الأكابر، وشهدوا أنه ابن الظاهر، ولقب بالمستنصر بالله أبي القاسم أحمد ويويع بالخلافة (أبو الفداء: المختصر، ج ٣، ص ٢٥٣).
- ١٥٦- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ٤٠٥؛ ج ٢، ص ٥٧٥.
- ١٥٧- ابن سباط: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٧٥، ٦٦٣.
- ١٥٨- ابن سباط: نفسه والجزء، ص ٦٦٤.
- ١٥٩- ابن سباط: نفسه والجزء، ص ٦٦٩، ٧٠٣.
- ١٦٠- ابن سباط: نفسه والجزء، ص ٧٠٣، ٧١٧.
- ١٦١- ابن سباط: نفسه والجزء، ص ٧١٨.
- ١٦٢- ابن سباط: نفسه والجزء، ص ٧٣٢؛ الظاهر برقوق: هو برقوق بن أنصي بن عبد الله الجركسي العثماني، أحضره الخواجة عثمان التاجر من بلاد الجركسي، واشتراه منه الأمير يلبغا الكبير، واتصل بخدمة السلطان الأشرف شعبان، ووصل إلى منصب الأتابكية في

- ١٧٧٩هـ/١٣٧٧م، وأعلن نفسه سلطاناً في ١٩ رمضان ٧٨٤هـ/ ٢٦ نوفمبر ١٣٨٢م، ولقب بالملك الظاهر وكني بأبي سعيد (المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٤٧٤؛ ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر بأبناء العمر، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج ٢، ص ٩٢؛ سعيد عاشور: العصر المالكي، ص ١٥٦).
- ١٦٣- ابن سباط: تاريخ، ج ٢، ص ٧٣٣.
- ١٦٤- ابن سباط: المصدر السابق والجزء، ص ٧٠٠، ٧٤٤.
- ١٦٥- المستعين بالله: هو أبو الفضل العباس بن المتوكل على الله، بويع بالخلافة في شعبان ٨٠٨هـ/١٤٠٥م، حتى أواخر ٨١٤هـ/١٤١١م، ثم اتفق الأمراء على سلطنته، فتولى السلطنة المملوكية في مصر، حتى خلعه الأمير شيخ وتولاها بدلاً منه (المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ١، ص ٢٣٠-٢٣١؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، علق عليه محمد حسن شمس الدين، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ج ١٣، ص ١٣٨-١٣٩).
- ١٦٦- المعتضد بالله داود العباسي: تولى الخلافة في القاهرة، بدأ من عهد المؤيد شيخ المحمودي في شعبان ٨١٥هـ/نوفمبر ١٤١٢م، واستمر في الخلافة طوال عهد الأشرف برسباني، حتى حكم الظاهر جقمق، وقد استجار الخليفة بالسلطان فأمنه، ولم يتعرض له بسوء. وكانت خلافته تسعاً وعشرين سنة وأياماً (ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل في نيل الدول، ق ٥، ج ٢، ص ٩٧، ١٤٤).
- ١٦٧- ابن سباط: تاريخ، ج ٢، ص ٧٧٤.

- ١٦٨- ابن سباط: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٠، ٢٥٧.
- ١٦٩- فارس: بلد عظيم مشهور معروف، وشيراز قسبة بلاد فارس وبين شيراز ونيسابور مائتان وعشرون فرسخاً (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٨٠).
- ١٧٠- أباقاخان: هو أول حكام الدولة الأيلخانية، حكم ما بين سنتي ٦٦٣هـ-٦٨٠هـ/ ١٢٦٤-١٢٨١م، وقد ساندته أمه السيدة دوقوز خاتون في تولية العرش، وأسند إلى صاحب شمس الدين محمد الجويني منصب صاحب الديوان، وقد حاول ضم بلاد الشام إلى مملكته، إلا إنه هزم، وقد توفي أباقاخان في ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م (الهمذاني: جامع التواريخ، مجلد ٢، ص ٨٣).
- ١٧١- غازان خان: هو السابع من حكام الإيلخانية تولى بعد مقتل بايدو خان، أسلم اتباعاً لنصيحة الأمير نوروز، على يد الشيخ صدر الدين حموية في ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م، وأسلم معه جميع الأمراء والجنود في دولته، وأمر بإقامة المساجد والحمامات في كل مدن الدولة وأمر بتخريب كثير من الكنائس، وحول بعضها إلى مساجد (العيني: عقد الجمان، ج ٣، ص ٢٨١)؛ لقد قام غازان بعدة إصلاحات في دولته منها تعديل نظام الضرائب وقضى على تزوير العملة، كما أصلح نظام الزراعة وتأمين التجارة الداخلية والخارجية، هذا إلى جانب إصلاح أحوال الجند، وتوفير الأموال والأسلحة لهم (الهمذاني: تاريخ غازان، ترجمة فؤاد عبد المعطي الصياد، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص ٣٣٨، ٣٩١).
- ١٧٢- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ٥١٥.

- ١٧٣- تَبْرِيْز: مَدِيْنَةٌ مِنْ أَدْرِيْجَان، وَهِيَ مَدِيْنَةٌ عَامِرَةٌ، ذَاتُ أَسْوَارٍ عَالِيَةٍ، وَفِي وَسْطِهَا عِدَّةُ أَنْهَارٍ جَارِيَةٍ وَالْبَسَاتِيْنِ مَحِيْطَةٌ بِهَا (بِأَقْوَاتِ الْحَمَوِيِّ: مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ، ج ٢، ص ١٣).
- ١٧٤- أَوْلَجَايْتُو: الْحَاكِمُ رَقْمُ ثَمَانِيَةٍ مِنْ حُكَّامِ الْإَيْلَخَانِيَّةِ الْمَغُولِ، وَمَعْنَى أَوْلَجَايْتُو فِي اللُّغَةِ الْمَغُولِيَّةِ الْمَغْفُورُ لَهُ (عَبَّاسُ إِقْبَالٍ: تَارِيخُ إِيرَانَ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، تَرْجُمَةٌ مُحَمَّدُ عَلَاءِ الدِّيْنِ مَنْصُورٍ، طَبْعَةٌ دَارِ الثَّقَافَةِ وَالنَّشْرِ بِالقَاهِرَةِ، ص ٤٧٦)؛ وَقَدْ أُطْلِقَ عَلَيْهِ الشِّيْعَةُ اسْمَ خَدْبَنْدِهِ بِمَعْنَى عَبْدِ اللَّهِ، أُمُّهُ سَيِّدَةٌ مَسِيْحِيَّةٌ الدِّيَانَةُ، وَقَدْ تَزَوَّجَ مِنْ سَيِّدَةٍ مُسْلِمَةٍ فَأَفْنَعْتَهُ بِدُخُولِ الدِّيْنِ الْإِسْلَامِيِّ، فَتَسَمَّى مُحَمَّدًا، وَأُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمَ غِيَاثِ الدِّيْنِ، بَنَى مَدِيْنَةً جَدِيْدَةً سَمَّاها السُّلْطَانِيَّةَ، جَعَلَهَا عَاصِمَةً لِدَوْلَتِهِ (العَيْنِيُّ: عَقْدُ الْجَمَانَ فِي تَارِيخِ أَهْلِ الزَّمَانِ، ج ٤، ص ٣١٩).
- ١٧٥- ابْنُ سِبَاطٍ: تَارِيخٌ، ج ٢، ص ٥٨٣، ٥٨٥، ٦٠٦، ٦٥٦.
- ١٧٦- سَعْدُ الدِّيْنِ خَضْرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حَجِيِّ: رَجُلٌ جَلِيْلٌ الْقَدْرِ زَائِدُ الْحَشْمَةِ، حَسَنُ الشَّكْلِ مَغْرَمٌ بِالْخَيْلِ وَالصَّيْدِ، قِيلَ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ لَعِبَ بِالصَّيْدِ بِالْجَوَارِحِ، وَكَانَتْ غَلْمَانَهُ مِنْ عِيْدِ الْجَيْشِ، اشْتَرَاهُمْ بِمَالِهِ، تُوفِّيَ فِي ١٢ ذِي الْقَعْدَةِ ٧١٣هـ/ ٢٨ فَبْرَايِرِ ١٣١٤م (صَالِحُ بْنُ الْحَسَنِ: تَارِيخُ بَيْرُوتَ، ص ٨٧-٨٨، ٩٠).
- ١٧٧- قَانِصُوهُ الْيَحْيَاوِيُّ: تَوَلَّى نِيَابَةَ الشَّامِ بَعْدَ مَوْتِ الْأَمِيرِ جَانِي بَكْ، وَقَرَأَ تَقْلِيدَهُ نِيَابَةً عَنْهُ قَاضِي الشَّافِعِيَّةِ يَوْمَئِذٍ قَطْبُ الدِّيْنِ الْخَضْيِرِيُّ، سَارَ إِلَى حَلَبَ فِي رَجَبِ ٨٨٦هـ/ سِبْتَمْبَرِ ١٤٨١م، مَعزُولًا عَنِ نِيَابَةِ الشَّامِ (ابْنُ طُولُونٍ: أَعْلَامُ الْوَرَى، ص ٩٢-٩٣).
- ١٧٨- ابْنُ سِبَاطٍ: تَارِيخٌ، ج ٢، ص ٨٦٩، ٩٠٢.

- ١٧٩- الأشرف قايتباي: هو الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتباي المحمودي الظاهري، كان أصله جركسي الجنس، جلبه إلى مصر الخواجه محمود في ٨٣٩هـ/ ٤٣٥م فاشتره الملك الأشرف، وقد صار أتابك العسكر في عهد الظاهر تمرغا. وقد تسلطن قايتباي في ٦ رجب ٨٧٢هـ/ ٣١ يناير ٤٦٨م. وتوفي في ٢٧ ذي القعدة ٩٠١هـ/ ٧ أغسطس ٤٩٦م (ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٣، ص ٣-٤، ٣٢٥).
- ١٨٠- أمير الركب: وظيفه دينية، يمتاز صاحبها بالصلاح والتقوى والرأي السديد والهيبة وله طاعة بين الحجاج، وعلى استعداد للإيقاع على ما يلزم ركب الحجيج من مؤن ويوفر لهم الماء اللازم للشرب (الجزري: الدرر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة، الرياض، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ج ١، ص ٢٧٤).
- ١٨١- ابن سباط: تاريخ، ج ١، ص ١١٢، ٤٢٨.
- ١٨٢- الأشرف قانصوه الغوري: كان أصله جركسي الجنس من ممالك الأشراف قايتباي، وأعتقه، وصار من جملة ممالিকে الجدارية، وفي ٨٨٦هـ/ ٤٨١م، تولى كشف الوجه القبلي، ثم قرر في نيابة طرسوس، وقرر في الحجوبية في حلب، ثم نائب ماطية، تولى السلطنة في ٩٠٦هـ/ ١٥٠١م حتى ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، وتوفي في موقعة مرج دابق أمام السلطان سليم الأول العثماني (ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٤، ص ٣٠٢).
- ١٨٣- وقد خرج الخليفة الحاكم العباسي وأولاده وجميع أمراء حاشيته للحج وأعطاه السلطان نسبة (اليونيني: ذيل تاريخ الزمان، ج ١، ص ١١٥)؛ حج السلطان الناصر محمد بن قلاوون

في ١٣١٩هـ/١٣١٩م، واصطحب معه المؤيد صاحب حماة وكسى الناصر محمد الكعبة بالحريير الأطلسي (المقريري: الذهب المسبوك في ذكر من حج، ص ١٣٠-١٣١، ١٣٣).
١٨٤- ابن سباط: تاريخ، ج ٢، ص ٩٢٤-٩٢٥؛ وقد أكد ابن الساعي حادثة أخذ العرب لحجاج بين مكة ومدينة وأخذ أموالهم ودوابهم وهلاك معظمهم من الجوع والعطش (تاريخ الخلفاء العباسيين، ص ١٢٠).

١٨٥- ابن سباط: المصدر السابق، ج ١، ص ٩٢.

١٨٦- ابن سباط: نفسه والجزء، ص ٥٢٣.

١٨٧- ابن سباط: نفسه، ج ٢، ص ٧١١.

١٨٨- ابن سباط: نفسه، ج ١، ص ١٤٨.

١٨٩- ابن سباط: نفسه والجزء، ص ٤٤٩-٤٥١.

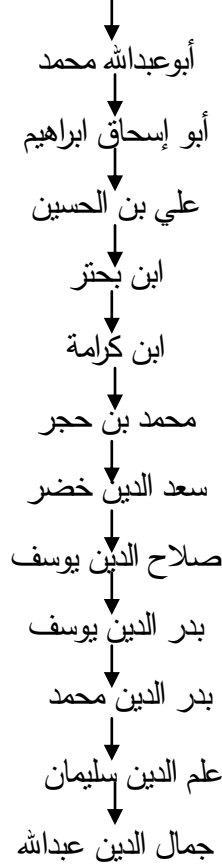
١٩٠- جمال الدين أقوش الأخرم: نائب السلطنة في دمشق، وهو يعاصر سلطنة الناصر محمد بن قلاوون، تولى خلفا للأمير قيقق، وعاصر غزو السلطان غازان الأيلخاني لبلاد الشام، حتى عودة غازان إلى عاصمته تبريز، وبالتالي عاد الأمير أقوش إلى نيابته، وبنى بها جامعاً في دمشق في حدود ٧٠٧هـ/٣٠٧م، وقد تميزت سيرته بالسيرة الحسنة (ابن طولون: أعلام الوري، ص ٣٧).

١٩١- ابن سباط: تاريخ، ج ٢، ص ٥٩٤.

١٩٢- ابن سباط: المصدر السابق والجزء، ص ٦٢٨، ٦٣٥.

ملحق رقم (١)

شجرة نسب آل تتوخ



نقلًا عن ابن سباط :

تاريخ ، ج ٢ ، ص ٨١٤ .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: - أسماء المصادر العربية:

- ١- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد بن أبو الكرم (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٨م): "الكامل في التاريخ"، ج ١١، ج ١٢، دار صادر بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ٢- ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م): "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، ج ٣، ج ٥، تحقيق محمد مصطفى، طبعة الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٨م.
- ٣- بيبرس الدوادر، ركن الدين المنصوري المصري (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م): "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة"، ج ٩، تحقيق زبيدة محمد عطا، عين للدراسات الاجتماعية والإنسانية.
- ٤- الجزيري، عبد القادر بن محمد بن عبد القادر (ت ٩٧٦هـ/١٥٦٨م): "الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة"، ج ١، دار اليمامة، الرياض، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ٥- ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ/١١٧٧م): "تنكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه"، ج ١، تحقيق محمد أمين، راجعه سعيد عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م.
- ٦- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م): "أبناء الغمر بأبناء العمر"، ج ٢، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- ٧- ابن الساعي، علي بن أنجب (ت ٦٧٤هـ/١٢٧٥م): "تاريخ الخلفاء العباسيين"، قدم له وأعد فهارسه عبد الرحيم يوسف الجمل، مكتبة الآداب، بالقاهرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- ٨- ابن سباط، حمزة بن أحمد بن عمر (ت ٩٢٦هـ/١٥٢٠م): "صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط"، جزآن، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، طبعة جروس برس، طرابلس، ١٩٩١م.

- ٩- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت ٧٧١هـ/٣٧٠م): "معبد النعم ومبيد النقم"، حققه محمد النجار وأبو زيد شلبي ومحمد أبو العيون، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، ١٣٤١هـ/١٩٩٣م.
- ١٠- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/٤٩٧م): "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع"، ج ٣، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت- لبنان.
- ١١- ابن شاهين الظاهري، زين الدين عبد الباسط بن خليل (ت ٩٢٠هـ/٥١٢م): "نيل الأمل في نيل الدول"، جزءان، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ٢٢٠٢هـ/٢٠٠٢م.
- ١٢- صالح بن الحسين، صالح بن يحيى بن صالح (عاش في ٩٩هـ/١٥م): "تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحريين من بني الغرب"، تحقيق وتعليق الأب لويس شيخو اليسوعي، إعداد حملة الشرق، بيروت في المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين، ١٨٩٨م.
- ١٣- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/٣٦٣م): "الوافي بالوفيات"، تحقيق إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت.
- ١٤- ابن الصيرفي، الخطيب الجوهري علي بن داود (ت ٩٠٠هـ/٤٩٤م): "تزهُة النفوس والأبدان"، ج ١، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب المصرية، ١٩٧٠م.
- ١٥- ابن طولون الصالحي، محمد بن طولون المَشَقِي (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م): "أعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بِمَشَقِ الشَّام الكبرى"، تحقيق محمد أحمد دهمان، الطبعة الثانية، دار الفكر بِمَشَقِ، سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- ١٦- العيني، بدر الدين محمود (ت ٨٥٥هـ/٤٥١م): "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان - عصر سلاطين المماليك"، ج ١، ج ٣، حققه محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، بالقاهرة.

- ١٧- أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م): "المختصر في أخبار البشر"، ج ٣، ج ٤، تقديم حسين مؤنس، تحقيق محمد زينهم محمد عزت، طبعة دار المعارف بالقاهرة، ١٩٩٩م.
- ١٨- ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرازق (ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣م): "الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة"، تحقيق مهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- ١٩- أفلقشندي، أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م): "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، ج ٤، طبعة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م.
- ٢٠- أبو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م): "مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة"، صورة مصورة عن موقع [www. Almarraq.com](http://www.Almarraq.com).
- ٢١- _____: "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، ج ١٣، علق عليه محمد حسين شمس الدين، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- ٢٢- المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م): "درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة"، ج ٢، ج ٣، تحقيق محمود الجبيلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- ٢٣- _____: "الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك"، تحقيق جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، الناشر مكتبة الثقافة الدينية.
- ٢٤- _____: "السلوك لمعرفة دول الملوك"، ج ٣ ق ١، تحقيق سعيد عاشور، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠م.

- ٢٥- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م): "لسان العرب"، ج ٦، تحقيق عبد الله علي الكبير، طبعة دار المعارف.
- ٢٦- النويري، شهاب الدين أحمد عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٣م): "نهاية الأرب في فنون الأدب"، ج ٢٧، تحقيق سعيد عاشور، مراجعة محمد مصطفى زيادة وفؤاد عبد المعطي الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- ٢٧- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م): "معجم البلدان"، ٥ أجزاء، دار صادر، بيروت- لبنان، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- ٢٨- اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م): "نيل مرآة الزمان"، دراسة وتحقيق حمزة أحمد عباس، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي بأبي ظبي، ٢٠٠٧م.
- ثانياً:- المصادر الفارسية:

- البديسي، شرف خان البديسي (بعد سنة ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م): "شرفنامه"، ج ٢، ترجمة محمد علي عوني، راجعه يحيى الخشاب، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٢م.
- ٢٩- الجوزجاني، أبو عمر منهاج الدين عثمان (ت ٦٩٨هـ/١٣٠٠م): "طبقات نصري"، ج ٢، ترجمة من اللغة الفارسية ملكة علي التركي، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢م.
- ٣٠- الراوندي، محمد بن علي بن سليمان (ت ٥٩٩هـ/١٠١٩م): "راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية"، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي وعبد النعيم محمد حسنين، الإدارة العامة للثقافة، القاهرة، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.
- ٣١- النسوي، محمد بن أحمد (ت في ق ٧هـ/١٣م): "سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي"، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، ١٩٥٣م.

- ٣٢- الهمذاني، رشيد الدين فضل الله بن يحيى (ت١٧١٨هـ/١٣١٨م): "تاريخ غازان"، ترجمة فؤاد عبد المعطي، الطبعة الدار الثقافية للنشر بالقاهرة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- ٣٣- _____: "جامع التواريخ- تاريخ الأيلخانيين أبناء هولاكو"، المجلد ٢، الجزء ٢، ترجمة محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطي الصياد، راجعه يحيى الخشاب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
- ثالثاً:- المراجع العربية:**
- ٣٤- خير الدين الزركلي: "الأعلام"، ج ٢، الطبعة الثالثة، دار القلم للملايين، مايو ٢٠٠٢م.
- ٣٥- سعيد عبد الفتاح عاشور: "العصر المماليكي في مصر والشام"، الطبعة الثالثة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٤م.
- ٣٦- عمر رضا كحالة: "معجم المؤلفين"، ج ٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- رابعاً:- المراجع المعربة:**
- ٣٧- برتولد شبولر: "العالم الإسلامي في العصر المغولي"، ترجمة من اللغة الإنجليزية خالد أسعد عيسى، راجعة سهيل زكار، الطبعة الأولى، دار صادر للطباعة والنشر، بمشوق، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ٣٨- عباس إقبال: "تاريخ إيران بعد الإسلام"، ترجمة من اللغة الفارسية محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة بالقاهرة.

ورقة النيل والنهضة في مصر

(المشروع البريطاني لتوطين اليهود في منابع النيل الاستوائية ١٩٠٣-١٩٠٥ نموذجاً)

أ.د. أحمد عبد الدايم محمد حسين

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الدراسات الإفريقية العليا
جامعة القاهرة

نهر النيل هو مصدرنا الرئيس والوحيد في الحصول على المياه التي تحفظ الحياة والمجتمع، وتسمح لنا بتمتية الصناعات والزراعات والثروات الحيوانية والسمكية. لذا لا يمكن لمصر أن تفكر في أي مشروع نهضوي إلا إذا كانت مطمئنة لوصول الكميات التي تأتيها من مياه النيل بوفرة، تسمح لها بهذه النهضة أو تلك التنمية. ويمكن اختبار تلك المسألة عبر التاريخ المصري عبر العصور، فلو أخذنا مشروع تحديث مصر في عهد محمد علي، أو في عهد جمال عبد الناصر، مثالين لهذا الاختبار فقط، لقلنا بأن الرجلين انتبها لتلك المسألة جيداً، وعملا على تداركها وتأمين وصول المياه قبل الشروع في أي مخطط للتحديث والتنمية. وفي هذا الإطار يمكن توظيف ورقة النيل في ضرب أي مشروع نهضوي يجرى إعداده في مصر عبر التحكم في الأحباس العليا في المنابع. حيث وظفت المنابع الإثيوبية مراراً وتكراراً عبر التاريخ، لتكون خنجرًا مصوباً لخاصرة مصر من ناحية الجنوب. وحينما جاء الاستعمار البريطاني محتلاً لغالبية دول حوض النيل في نهاية القرن ١٩، راح يبحث عن توظيف للمنابع الاستوائية لتكون ورقة ضغط جديدة مشابهة للورقة الإثيوبية. لذا تأتي دراستنا " ورقة النيل والنهضة في مصر.. المشروع البريطاني لتوطين اليهود في منابع النيل الاستوائية ١٩٠٣-١٩٠٥ نموذجاً"، لتطرح المشروع البريطاني كمستحدث جديد في توظيف ورقة النيل داخل المنطقة، ومحاصرة حدود مصر المجاورة للمنابع الاستوائية في ذلك الوقت، والضغط على إثيوبيا من ناحية أخرى للالتزام باتفاقية سنة ١٩٠٢.



على أية حال، تذهب الدراسة في شقها الأول للاهتمام بالجانب التنظيري للمسألة، وترصد علاقة النيل بالنهضة، وتوظيف ورقة المياه ضد مصر عبر العصر الحديث، وجهود مصر العملية والنظرية للحفاظ على النهر والاستفادة منه. وفي شقها الثاني تتناول المشروع البريطاني كتطبيق عملي لمحاولة توظيف ورقة النيل الاستوائية. ولهذا تعتمد على عدد من المراجع والدراسات في شقها الأول، أما في شقها الثاني فتعتمد على ٣٩ وثيقة من وثائق الخارجية البريطانية، تؤرخ للمراسلات التي تمت بين مسئولين بريطانيين وقيادات يهودية، تفصح المخطط البريطاني بإنشاء مستوطنة لليهود في منابع النيل الاستوائية. وفي هذا الإطار تنقسم الدراسة إلى ستة محاور رئيسية: أولها، سؤال النهضة وورقة النيل ضد مصر في العصر الحديث. ثانيها، النيل والنهضة في مصر قبل عام ١٩٠٣. ثالثها، علاقة اليهود بمرابع النيل الاستوائية قبل عرض المشروع البريطاني. رابعها، بداية المشروع البريطاني لتوطين اليهود في منابع النيل الاستوائية سنة ١٩٠٣. خامسها، المراسلات البريطانية اليهودية حول المشروع ١٩٠٣-١٩٠٤. سادسها، نهاية المشروع سنة ١٩٠٥.

أولاً- سؤال النهضة وورقة النيل ضد مصر في العصر الحديث:-

لفهم هذا المحور فهما جيداً، سنقوم بتقسيمه الى شقين رئيسيين: الشق الأول، يتعلق بسؤال النهضة في مصر في العصر الحديث. فإذا كانت النهضة قد بدأت في أوروبا كحركة ثقافية، إلا إنها في القاموس العربي تعني التجدد والانبعاث بعد التأخر والركود. وبالتالي ظل سؤال النهضة هو السؤال المفتوح والمتجدد في مصر منذ نهاية القرن ١٨ وحتى الآن. ولم يقتصر في طرحه على الجوانب الثقافية، بل لفت مباشرة للجوانب المادية، كونها تعد أهم ملامح النهضة ومقتضياتها. ولما كان سؤال النهضة يختلف في تفصيلاته عن سؤال التحديث، عن سؤال التنمية، فإن نهر النيل يدخل في كل الإجابات على الاستئلة السابقة، كمحدد رئيس لعملية التنمية والنهضة والتحديث. فحينما طرح الطهطاوي والأفغاني ومحمد عبده وشكيب أرسلان، وبطرس البستاني وأحمد فارس الشدياق وغيرهم، هذا السؤال الكبير، كان يهدف إيجاد سبيل للخروج من وهدة التخلف، والاستناد على أسس مادية



واقتصادية ثابتة للتقدم. لكن جاءت السيطرة الغربية لتضرب أية محاولة لإقامة مشروع وطني للتنمية، وتفرض أسساً جديدة للتبعية الاقتصادية^(١). وإذا كانت العناصر المادية واضحة في سؤال النهضة، فإن نهر النيل يشكل جزءاً رئيساً في ضمان قيامها. باعتباره يتفاعل مع التراب ومع الإنسان والحيوان، فالمياه هي أساس كل شيء في الحياة. بل إن كل المتقنين المصريين والمؤثرين في نهضتها، كتبوا عن النيل وتأثيره العظيم في مصر والمصريين. وهو الأمر الذي يظهر في خشية محمد على وأسرته من توظيف ورقة النيل في ضرب أي مشروع نهضوي يقومون بإعداده.

الشق الثاني، توظيف ورقة النيل ضد مصر في العصر الحديث. من نافلة القول أن نعرف بأن توظيف ورقة النيل ضد مصر لم يكن توظيفاً حديثاً، بل وظفت تلك الورقة طيلة العصور التاريخية السابقة على العصر الحديث. وبالطبع لا يمكننا استعراض كل التفاصيل حول هذا التوظيف عبر العصور، لكن يمكن استبيان هذا الأمر في ثلاثة ملامح رئيسة: **الملح الأول، نشأة أساطير عديدة في مصر ترتبط بنهر النيل وقدرة الملوك الأحباش على التحكم في مياهه.** حيث نمت تلك الأساطير عبر استخدام الحبشة لقضية مياه النيل كأداة ضغط في مواجهة مصر منذ القرن ١١ وحتى القرن ١٨. وأصبح هناك تراث فكري وديني وثقافي يجعل من الأحباش مصدر تهديد دائم لمصر عن طريق مياه النيل. وترسخت هذه الفكرة في أذهان الإثيوبيين والمصريين على السواء، وانعكست في سياسات كل طرف تجاه الآخر. فقد استخدم ملوك الحبشة تلك الورقة كوسيلة ضغط ضد الفاطميين وسلاطين المماليك على السواء. فأظهروا تهديداتهم الصريحة والواضحة بقطع مياه النيل وتحويل مجراه بعيداً عن مصر. وتجدد توظيف الورقة مع قدوم البرتغاليين لشرق إفريقيا. حيث سعى هؤلاء لاستخدام الحبشة في محاصرة مصر والعالم الإسلامي من ناحية الجنوب. ونفس الأمر كرره نابليون في نهاية القرن ١٨، في محاولة للسيطرة على مصر وإنهاء ثوراتها ضد الفرنسيين^(٢). وبالطبع جاء تقدم علم الجغرافيا ليهدم كل تلك الأساطير التي ابتدعها الأحباش، وبيّنت بأن نقص المياه وقلة الفيضان قد جرى بعوامل طبيعية تتعلق بالأمطار والمناخ.



الملح الثاني، التطور الجديد في التعامل المصري مع ورقة النيل في القرن ١٩. ونستطيع أن نرصد هذا التطور في أمرين: الأول، توظيف المنابع الإثيوبية ومصر على حدود الحبشة. فقد أصبحت مصر منذ ضم محمد على للسودان على حدود مباشرة مع الحبشة، فخبرت كثير من التفاصيل التي كانت مجهولة من قبل. ومن ثم تغير تعاملها مع استخدام ورقة المياه عما كان عليه في السابق جملة وتفصيلاً. فكونت علاقات مع الأحباش، حكام ومحكومين، واستطاعت أن تتعامل مع تهديدات المياه بشكل مختلف^(٣). وظل هذا الأمر قائماً حتى هزمت في حربها ضد الحبشة بما تسبب في علو يد إثيوبيا في المنطقة. فحينما سعى الخديوي إسماعيل لتأمين منابع النيل الحبشية اشتبك في علاقات عدائية مع الأحباش، كلفته مقتل ابنه الأمير حسن في إحداها، وثلاث حملات سنتي ١٨٧٥-١٨٧٦، بما تسبب في إرهاب مصر بالديون، ويميز من أسباب التدخل الأجنبي، انتهت بالاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢^(٤).

الثاني، توظيف ورقة المنابع الاستوائية. لم توظف ورقة المنابع الاستوائية طيلة التاريخ المصري، قديمة ووسيلة وحديثة؛ ربما لأن كمية التي تأتيها منه قليلة، ١٥% فقط؛ وربما لأن المنابع الاستوائية كانت خارج التاريخ، وبعيدا عن معرفة المناطق التي يصل إليها النيل شمالاً. لكن حين تمكنت مصر من الوصول إلى دائرة عرض ٢ درجة جنوب خط الاستواء، وصار لها أملاك ومديرية أسمتها المديرية لاستوائية، تم إبعادها عن تلك المنابع مؤامرة خبيثة اشترك فيها غردون باشا وأميين باشا* وفيثا حسان*. فالخلاف الذي حدث بين هؤلاء الثلاثة وبين المصري نور بك محمد، الذي كان يريد ضم كل أوغندا لمصر، ورفض هؤلاء لذلك، يتأكد من أن إخلاء المديرية الاستوائية كان مؤامرة متفق عليها بينهم، ويدرك بأن القدم المصرية في المنابع أريد لها أن تتروى. وأن التوسع المصري صوب المنابع كان كابوساً للإنجليز. لهذا كان انتزاع أميين باشا، عبر الرحالة ستانلي، تمهيداً للسيطرة الإنجليزية على أعالي النيل^(٥).



الملح الثالث، المشروع الفرنسي وتهديد الاحتلال البريطاني في مصر بقطع المياه. فمع أن الإنجليز بذلوا النفيس في أن يصبح وادي النيل بعيداً عن سيطرة القوى الغربية المنافسة لها، وأن معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٤ بين إنجلترا والكونغو حفظت لبريطانيا حقوقها في أعالي النيل، لتتصرف فيه تصرف المالك^(٦)، إلا إن البريطانيين استشعروا هذا التهديد في محاولة الفرنسيين بالسيطرة على منابعه عبر حادثة فاشودة الشهيرة في يوليو ١٨٩٨، فكان لابد من استرداد السودان لمصر مرة أخرى^(٧). ولعل المواجهه البريطانية لفرنسا في فاشودة في يوليو ١٨٩٨، ومنعها من الاستيلاء على وادي لنيل باتفاق ٢١ مارس ١٨٩٩، قد أنهى هذه الورقة طيلة الفترة الاستعمارية. فما أعقبها من اتفاق سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩٠١ مع ملوك أوغندا، واتفاق ١٩٠٢ مع إثيوبيا^(٨)، قد جعل بريطانيا تتمكن من السيطرة تماماً على النيل بكافة منابعه.

ثانياً - النيل والنهضة في مصر قبل سنة ١٩٠٣ :-

لما كان نهر النيل هو رأس مال مصر ونواة حياتها، لذا كان إنشاء القناطر الخيرية، وقناطر زفتى وديروط وأسيوط واسنا والقناطر الفرعية على الترع والرياحات، عبارة عن إجراءات تهدف للنهوض الزراعي، مما يستتبع بدوره نهوضاً في القطاع الهندسي والإنشائي للتحكم في فيضان النهر الهائج. بل وضعت نظارة الأشغال نظاماً لمناوبات الري، ووضعت جداولاً لميزانيات الترع. ولما كان ري مصر صناعياً باستمرار؛ أي لا يتم من النيل مباشر، فكان لابد من حسن الإدارة المائية وضبطها، والربط بين تطهير الترع وبناء الجسور والقناطر وشق الترع^(٩). ولتوضيح تلك المسألة سنقسم الفترة التي سبقت عام ١٩٠٣ إلى ثلاث فترات رئيسية:

الأولى، النيل والنهضة في عهد محمد علي. فالدور الذي لعبه محمد علي في الارتقاء بالري

في مصر، وإنشائه لنظارة الأشغال العمومية، واستعانته بالمهندسين الأجانب في مشروعاته، وجهوده في استكشاف نهر النيل وتأمينه، يثبت أن النهضة أساسها المياه. وأن الرجل قد اختبر تلك الحقيقة



قبل أن يوجه أنظاره ناحية منابع النيل لتأمينها. فالتطور الذي لحق بالري قد أثر بدوره على الإنتاج الزراعي والصناعي، وهما عصب الحياة الاجتماعية. فلا حياة زراعية في معظم الأراضي المصرية، وبالتالي لا إنتاج، بدون الري من مياه النيل. وربما كان تهديده لموظفي الري بعقوبة الإعدام، إذا أهملوا واجباتهم، وأنه إذا سمع غدرًا في توزيع المياه، فسيقوم بدفنتهم في الترع، يدلل على أن موضوع المياه كانت تتم مراقبته من قبل رأس النظام مباشرة^(١٠). وفي هذا الإطار، فإن خشيته على مشروعه التحديثي والنهضوي جعلته يرسل ثلاث بعثات، بقيادة سليم قبطان، لاكتشاف منابع النيل خلال الفترة من نوفمبر ١٨٣٩ - ١٨٤٢ لتأمين وصول المياه، تمكنت خلالها من اختراق منطقة السدود وكشف حقيقة أمرها^(١١). ولم ينصب جهده على النيل الأبيض فقط، بل كانت له جهود واضحة عام ١٨٤٠ في النيل الأزرق^(١٢). بل قتل أحد أبنائه، خلال كشفه لأجزاء من هذا الفرع الاثيوبي المهم^(١٣). وخلاصة القول، بأن محمد على أراد بناء دولة كبيرة تقوم على بنية اقتصادية متينة أساسها الزراعة، فكان من الطبيعي أن يولي شطره باتجاه منابع للاطمئنان على وصول المياه لدولته في سهولة ويسر.

الثانية، النيل والنهضة في عهد اسماعيل. ويمكن تقسيم علاقة النيل بالنهضة في مصر في فترة الخديو إسماعيل إلى شقين: الشق الأول، يتعلق بإتمام عملية السيطرة على كافة المصادر وإنجازها. فحينما تولى الخديو إسماعيل أمور الحكم في الفترة من ١٨٦٣ - ١٨٧٩، وطن وزراؤه أمورهم على ضرورة توحيد حوض النيل حتى منابعه في كتلة واحدة متعاونة. وهو ما جعله يحاول السيطرة على الحبشة نفسها، وعلى كل المصادر^(١٤). الأمر الذي أتاح له الاطمئنان لوصول المياه، وبالتالي إحداث زيادة في مساحة الأراضي الزراعية من ٣ مليون فدان إلى أكثر من ٤ مليون فدان^(١٥). فقد تلخصت سياسته في ضمان مياه النيل بقوله: "يجب على شعوب مناطق منابع النيل أن يكونوا من اليوم أصدقاء وحلفاء لخديوي مصر"^(١٦). ولعل قيام حملة النيل الأبيض وتكوينها



وأهدافها وسلطات قائدها، يثبت تلك الضرورة التي دعت لإلحاق أعالي النيل الأبيض بمصر^(١٧).
الثاني، جهد نظري يتعلق بالتنظير لعلاقة النيل النهضة. فإذا ما ركزنا على كتابات علي مبارك فقط عن النيل، لقلنا بأن اختياره لشغل وزارة الأشغال بالنيابة سنوات ١٨٧٩-١٨٨٤، قد جاء لكونه قد اهتم بنهر النيل بشكل مختلف عن اهتمام غيره. فقد كتب كتاباً سنة ١٨٧٨ عنوانه " نخبة الفكر في تدبير نيل مصر"، ونشره سنة ١٨٨١، اهتم فيه بالإمكانيات التي يتم عن طريقها الاستفادة من مياه النيل. مركزاً على الزراعة وعلاجها بالاقتصاد وبمختلف مجالات العلوم والمعرفة، شارحاً تكوين النيل وأنساقه وفيضانه وفروعه وتوزيع مياهه، متحدثاً عن القناطر والجسور وطرق سقي المزروعات، واستخدام الآلات، وكطريق للمواصلات والتجارة والوجود العمران ونسج العلاقات الاجتماعية، منتهياً إلى أن النهوض بالمصريين يتأتى عن طريق الاستفادة بمياه النيل^(١٨). فهذا الجهد التنظيري يثبت أن مشروع النهضة لم يرتبط بالمنقذين والمشايخ فقط، بل غاص فيه الفينيون والخبراء، ليحضوا على وجوب الاهتمام بالجوانب المادية في عملة النهضة.

الثالثة، النيل والنهضة خلال العقدين الأوليين من عهد الاحتلال البريطاني لمصر. فبعد أن احتل الإنجليز مصر سنة ١٨٨٢ تيقنوا من أنها بدون النيل تنعدم من الوجود، وتصبح جزءاً من الصحراء الكبرى. فاتجهوا إليه، واهتموا بالرى ومشروعاته، باعتباره العمود الفقري في سياستهم الزراعية وتخصيص مصر في إنتاج القطن. ولما كانت من أصعب الفترات التي مرت عليهم في مصر، هو ذلك الحجاب الذي فرضه المهدي على منطقة أعالي النيل في الفترة من ١٨٨٥-١٨٩٨^(١٩)، لذا عملوا على استرداد السودان وحكمها حكماً ثنائياً بمشاركة مصر. ولعل السياق الكولونيالي القائم في حوض لنيل باحتلال مصر سنة ١٨٨٢ والتوسعات الزراعية التي خططت لها إدارة الاحتلال، جعلها تعقد العديد من الاتفاقيات حول مياه النيل. حيث عقدت اتفاقية سنة ١٨٩١ بين بريطانيا وإيطاليا لتلزم الأخيرة بالأ نقيم أي منشآت على نهر عطبرة، من شأنها أن تؤثر على



موارده، إلا بإذنها. ثم جاء اتفاق سنة ١٩٠٢م بين بريطانيا وإثيوبيا، بالألا تقيم منشآت على النيل الأزرق أو بحيرة تانا أو نهر السوبات تؤثر على تدفق مياه النيل^(٢٠). وفي هذا الإطار كانت بريطانيا مبدعة لكل الاتفاقيات التاريخية التي نرجع لها حتى الآن في حوض النيل. وهو الأمر الذي جعلنا نندهش حينما نراها تعرض على اليهود توطينهم في منابع النيل الاستوائية. فبريطانيا التي أخرجت مصر من منابع، ومنعت الألمان والبلجيك والفرنسيين من الوصول إليها، ما الذي جعلها تعرض عليهم إقامة مستوطنة لهم على أراضي بذلت فيها جهوداً كبيرة وجبارة للاحتفاظ بها؟ أعتقد أن هذا هو السؤال الأهم الذي تحاول الورقة تقديم المشروع في سياقه.

ربما تكون رغبة بريطانيا في الاستغلال الاقتصادي لمستعمراتها النيلية، وأنه يتطلب وجود أعداد كبيرة من المستوطنين، ولا يوجد إقبال من الأوروبيين على منطقة منابع، هو الذي جعل اليهود يمثلون الحل الضرورية في مجال الاستثمار في منابع. وربما تكون مقايضة بريطانيا لمصر، بتحميلها الأعباء المالية مقابل مياه النيل، قد أوجب ضغطاً عليها من نوع جديد، فطرح المشروع على اليهود كعنصر مهدد وضغط على الإدارة المصرية للايفاء بالالتزامات والخضوع لكافة الرغبات الاستعمارية. ولعل الأطروحات المقدمة بضرورة نقل مشاريع المياة من مصر إلى مديريات السودان البعيدة^(٢١)، والتسويق لمشروع الجزيرة منذ سنة ١٨٩٩^(٢٢)، والأعباء الجديدة التي رصدتها التقارير الاستعمارية بنقصان الفيضان خلال الفترة من ١٨٩٩-١٩٠٣^(٢٣)، قد أضافت ضغوطاً جديدة لم تألفها المنطقة من قبل. ولهذا يمكن القول بأن اليهود الباحثين عن أرض ويملكون الأموال، قد تلاقت أهدافهم مع الرغبة البريطانية في توظيفهم في منابع. وذلك لتحقيق أربعة أمور: أولها، مشاركة اليهود في كل أرباحهم واقتسام خيرات المنطقة معهم دون جهد. ثانيها، ضمان الاستغلال الاقتصادي في مصر والسودان. ثالثها، ضمان عدم نكوص الأحباش عن نصوص اتفاقية سنة ١٩٠٢. رابعها، خلق ورقة جديدة في منطقة منابع يمكن توظيفها حسبما تريد.



ثالثاً - علاقة اليهود بمنابع النيل سنة ١٩٠٣ :-

في الحقيقة أن ما عرضناه في السابق يجعل العرض البريطاني لليهود بتوطينهم في منابع النيل الاستوائية مسألة شاقة على الفهم. فبريطانيا قد بذلت الغالي والنفيس للاحتفاظ بمنابع النيل لتكون في يدها. وبالتالي، فإن عرض تشيمرلين وزير المستعمرات البريطاني على هرتزل* إقامة مستعمرة لهم في محمية شرق أفريقيا، تحول اسمها لكينيا سنة ١٩٠٩، يحتاج لاجتهاد لتفسير تلك الخطوة البريطانية غير المفهومة. خاصة وأن اليهود ليس لهم علاقة بالمنابع الاستوائية، لا من قريب ولا من بعيد، اللهم إلا اشتراك شخصيتين يهوديتين، هما أمين باشا وفيتا حسان، في المشروع المصري. ولا يعقل أن تفرط بريطانيا، التي دخلت في مواجهات سلمية وعسكرية، بأعالي النيل بسهولة. صحيح، إن العديد من زعماء اليهود في القرن التاسع عشر قد تقربوا من فرنسا وبريطانيا لمساعدتهم في التوطين في مصر السفلى وفلسطين، إلا إن منابع النيل الاستوائية لم تكن في حسابان اليهود مطلقاً. ويبدو أن فشل مشروع عودة اليهود لفلسطين، قد استتبعه ظهور عدة مشروعات، كمشروع قبرص وسيناء، وطرابلس الغرب، والأرجنتين وموزمبيق. وبالتالي ظهر مشروع توطين اليهود في منابع النيل الاستوائية كأحد المشروعات المعروضة والمقدمة.

وحتى تاريخ كتابة هذه الدراسة لا يعرف عن محاولات توطين اليهود في تلك المنابع إلا محاولتين، ظهرت في نفس توقيت عرض محمية شرق أفريقيا كمستوطنة يقيمون فيها دولتهم: الأولى، برنامج أوغندا الوهمي. فهذا البرنامج لا توجد أي وثيقة تاريخية تدل على أن بريطانيا قد عرضت أوغندا كمستعمرة لتوطين اليهود. بل يقتصر الأمر على بعض الكتابات العربية التي حاولت، فهم مشروعات التوطين السابقة على وعد بلفور، فأدخلت برنامج أوغندا ضمنها. بل إن قولهم بأن الجدل حول أوغندا قد فاقم حالة القلب لدى هرتزل، وساهم في وفاته عام ١٩٠٤، في سن الـ ٤٤ سنة، وقبل وقت قصير من تصويت المؤتمر الصهيوني السابع ضد المخطط^(٢٤) هو بعيد



تماماً عن الصحة. حيث يقر أحد الكتاب اليهود بأن عرض إقليم أوغندا كانت زلة لسان من وزير المستعمرات، وأنه كان يقصد محمية شرق إفريقيا البريطانية^(٢٥). وهذا الخلط في تقديري يرجع إلى أسباب ثلاثة: أولها، فهم هرتزل المبني الخاطئ للمشروع. وربما يكون هذا الفهم قد جاء لأن المنطقة الموعودة تقع حول أراضي سكة حديد مومباسا- أوغندا، ففهم خطأً انه أوغندا^(٢٦). ثانيها، أن هرتزل يعيش قريب من ألمانيا ويتحدث لغتها، وبالتالي يعرف أوغندا وثرواتها جيداً، من خلال كتابات أمين باشا وفيما حسان عنها باللغة الألمانية، فاعتقد بأنها هي المنطقة الموعودة. ثالثها، أن الكتابات العربية، وأشهرها دراسة حسن صبرى الخولي عن سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين، قدمته تحت عنوان مشروع أوغندا. ومن يتفحص الموضوع تحت هذا العنوان، يكتشف الخطأ الذي وقع فيه المؤلف في وضع هذا العنوان تحديداً^(٢٧). وبالتالي هناك خلط واضح بين مشروع محمية شرق أفريقيا الرسمي وبرنامج أوغندا الوهمي. الثانية، مشروع الكونغو. وهو مشروع سعى له اليهود أنفسهم، ففي يوليو ١٩٠٣ أجرى هرتزل اتصالات مع فرانتز فيليبسون، وهو مستثمر يهودي بلجيكي، يمتلك احتكارات كبيرة في الكونغو، بغرض استمالته لتأييد فكرة إقامة دولة يهودية في الكونغو، باعتبارها مستعمرة بلجيكية، والتوسط لدى ملك بلجيكا لتبني المشروع. غير أن فيليبسون رفض الفكرة، رغم تأييده لها، بسبب خوفه من قدوم مستثمرين جدد منافسين، يؤثرون على مصالحه الواسعة^(٢٨).

إذاً، لا توجد أدنى علاقة لليهود بالمكان قبل العرض البريطاني، اللهم علاقات فردية تتعلق بفيثا حسان وأمين باشا، وأن مشروع الكونغو فكروا فيه في نفس عرض المشروع البريطاني عليهم. وهذا يعني أن تعاطي اليهود مع مشروع شرق أفريقيا قابله تفكيرهم في دولة الكونغو. لكن السؤال الذي يطرح نفسه، لماذا عرضت بريطانيا توطينهم في المنابع؟ ولماذا قبل اليهود العرض؟ اعتقد أن الأهداف البريطانية من توطين اليهود كانت واضحة وتتعلق بالظرف التاريخي، وتوظيفهم



كورقة جديدة في المنطقة، وللاستفادة منهم في خططها الاقتصادية، ولتخويف إثيوبيا ومصر المجاورتين لها في المنابع. ومن ناحية أخرى لم يسمح الظرف التاريخي لليهود برفض العرض، لأسباب ثلاثة: الأول، أن العرض سيعطي شرعية للحقوق الصهيونية، ويعد خطوة أولى للاعتراف السياسي بالأمة اليهودية^(٢٩). الثاني، شعورهم بأن المشروع جاء تعويضاً لهم عن مشروع العريش ومصر السفلى. ثالثها، أن المشروع لقي هوى في قلوبهم، لكونه قائم في منابع النيل، وبالتالي يمكن الابتزاز به والمساومة عليه، واستبداله بما يريدون فيما بعد.

رابعاً- بداية المشروع البريطاني لتوطين اليهود في المنابع الاستوائية سنة ١٩٠٣:-

قيل أنه في عام 1902، دعي هرتزل ليذلي بشهادته أمام اللجنة البريطانية للوافدين، بشأن مشكلة هجرة يهود اليديشية* لبريطانيا، فاقترح تحويل المهاجرين لوطن يهودي معترف به، وترك هذا أثرًا عميقًا لدى سامعيه. وحينما زار تشمبرلين أفريقيا واستقبل هرتزل مرة أخرى، عرض عليه مستعمرة شرق أفريقيا لكي تكون مستوطنة مستقلة لليهود، ووافق اللورد بلفور، الذي كان يرأس الوزارة البريطانية، على ذلك. وخلاصة الأمر، إن العرض البريطاني تم في إبريل ١٩٠٣، فرفضه هرتزل في الحال، غير أن تشمبرلين كرر الفكرة في لقاء مع الصحفي اليهودي جرينبرج^(٣٠). في حين تشير رواية أخرى، بأن المشروع تم عرضه في ٢٣ يوليو ١٩٠٣ في مقابلة تمت في لندن بين هرتزل وتشمبرلين^(٣١). بعدها عهد هرتزل للصحفي اليهودي لييولد جرينبرج* بأن يسبر غور وزير المستعمرات في مشروع تهجير اليهود لشرق أفريقيا البريطانية. فاتجه إلى جماعة من المحامين الإنجليز ليعدوا له مشروع اتفاق* يعقد بين الحكومة الإنجليزية وبنك الاستعمار اليهودي. بعدها رفع المشروع لرئيس الوزراء بلفور، فعكف على دراسته، ثم عهد لجوزيف تشمبرلين بأن يبعث بمذكرة إلى لييولد جرينبرج، يبدى فيها عطفه العميق على الحركة الصهيونية. ثم عهد للورد لانسدون وزير الخارجية ببحث مشروع توطين اليهود في شرق أفريقيا البريطانية^(٣٢). خلاصة الأمر: إن وزير المستعمرات هو الذي قدم العرض، ثم تابعه في التنفيذ وزير الخارجية لورد لانسدون واليهودي البريطاني جرينبرج.



إلى هنا، ينتهي كل حديث المراجع عن المشروع. ومن ثم تأتي قيمة الوثائق البريطانية لتقص لنا حقيقة هذا المشروع الذي تسبب في لبس كبير. فلدينا ٣٩ رسالة موزعة على سبع محافظ داخل الأرشيف البريطاني الخاص بشرق أفريقيا البريطانية. نتعرف من خلالها على ما لم يقله أحد عن هذا الموضوع من قبل، ولنصحح به المغالطات التي التبست على البعض. ففيما يختص ببداية المشروع، من المؤكد أن رسالة الدكتور جرينبرج Dr.Greenberg إلى تشمبرلين* Chamberlain، في ١٣ يوليو ١٩٠٣، تقدم لنا ستة أمور مهمة: أولها، أن الرسالة تحمل مشروع الاتفاق مع الدكتور هرتزل، وموافقة الحكومة البريطانية على عرضه، وترتيب إرسال لجنة لشرق أفريقيا البريطانية لتحديد الأراضي المناسبة لإقامة مستوطنة يهودية هناك. ثانيها، رغبة جرينبرج في أن يكون هو الواسطة بين هرتزل والمسؤولين البريطانيين، كون الأمر يحتاج إلى تفاوض. ثالثها، أن المشروع لم يبت فيه من قبل الجماعة اليهودية. حيث ترك هرتزل مسألة التعاطي معه للمؤتمر الصهيوني الذي سيعقد في بازل Basle في نهاية شهر أغسطس. رابعها، أن مشروع التوطين يحتاج لأموال غير متاحة في ذلك الوقت. خامسها، أن وكيل هرتزل، جرينبرج، يريد الاطلاع على موقف الإدارة البريطانية بصورة عاجلة، بغض النظر عن معرفتهم بموقف يهود أوروبا الشرقية. سادسها، أن القيادات اليهودية بزعامة هرتزل تدين لبريطانيا بالفضل في عرض المشروع، وهذا سيعطيها الفرصة لإقناع اليهود به^(٣٣). وبهذا يتضح أن عرضه شفويًا قد تم خلال شهر يوليو ١٩٠٣، وتم رسميًا بتاريخ ١٣ من ذات الشهر، وأن جرينبرج أصبح طرفًا أصيلًا ورئيسًا، في متابعة المشروع من بدايته، وسيستمر حتى نهايته. بل إن كثير من المراسلات التالية ستؤكد بأن شهر يوليو عام ١٩٠٣ كان هو البداية الحقيقية للمشروع.

وبالنظر لملاحق رسالة جرينبرج السابقة حول مخطط المستعمرة اليهودية، نتعرف على ما افتقدناه من معلومات وتفصيل لدى كل من تناول المشروع، والتبس عليه أمر تعلقه بأوغندا. فمن



خلال هذا الملحق نتعرف على شروط الامتياز المقترح منحه من قبل الحكومة البريطانية للانتماء الاستعماري اليهودي المحدود Limited Jewish Colonial Trust لإقامة مستوطنة يهودية في شرق أفريقيا البريطانية. حيث نتبين من خلاله بأن الانتماء، وهو عبارة عن شركة تأسست بموجب قانون الشركات البريطاني، برأس مال قدره ٢ مليون جنيه استرليني، قد أصبح منوطاً بتعزيز المخططات الاستعمارية، والكيان الرئيس لتوطين اليهود في محمية شرق أفريقيا البريطانية. فهو الذي سيتولى أمر إنشاء المستوطنة، وإقامة الأعمال والمؤسسات التجارية، وإنشاء علاقات تجارية مع المناطق المجاورة، بشرط أن تظل المستوطنة تحت السيادة البريطانية. بل نتعرف من خلاله على أن الانتماء أنيطت به أربع عشرة مسألة أخرى: أولها، أن يقوم بالبحث والتعرف على هذه الأراضي بهدف تحديد حدودها وترسيمها، تمهيداً لتحويله السلطات والحقوق والامتيازات اللازمة لممارسة هذه السلطة. وفي هذا الإطار تم الإذن له بدخول أراضي شرق إفريقيا بغرض التفتيش والنظر في ملائمتها، والتثبت من حالتها، وتأسيس مستوطنة يهودية. وتم إعطاؤه السلطة الكاملة في ملاحظة أي من الأغراض المذكورة، واستخدام كافة الطرق المشيدة هناك، وفرض رسوم الخروج والدخول لتلك الأراضي بعد تحديدها بحدود وتسميتها. على أن يتم هذا بمجرد تقديم أصحاب الامتيازات لطلب للحكومة البريطانية بالموافقة. ثانيها، أن يتحمل أصحاب الامتيازات دفع جميع التكاليف اللازمة، من الرسوم والنفقات والرحلة الاستكشافية، لمسح شرق أفريقيا البريطانية، لتحديد الأراضي التي يحتاجونها. ولا تتحمل بريطانيا أية تكاليف أو نفقات بالنسبة للمسؤولين أو الموظفين الذين يتم توظيفهم لمراقبة أصحاب الامتيازات ومساعدتهم. ثالثها، أنه فور الموافقة على الإقليم المذكور، وإخطار الملك والحكومة بمدى ملائمتها، يتم وضع التسوية. لتتولى الإدارة اليهودية السيطرة الكاملة على أراضي الإقليم المذكور، وتتصرف في عائدات البيع والتأجير، وفي جميع الإتاوات والمناجم والمعادن، حتى ٣١ ديسمبر ١٩٠٩. وفي هذا الإطار يتم إعادة النظر في تشكيل مدراء الإقليم المذكور وفقاً للدستور مخصص. رابعها، أنه بعد الموافقة المذكورة على النحو السالف



الذكر، وحتى ٣١ ديسمبر ١٩٠٩، يمسك أصحاب الامتيازات بالإقليم المذكور، وجميع الحقوق والمصالح والهيئات والقوى الملحقة بها. ويتولى الائتمان اليهودي هذا الأمر تحت رقابة الحكومة البريطانية، بغرض الحفاظ على النظام العام، وبناء الثقة وفقا للشروط المقررة سلفاً، أو تلك التي يتم تضمينها فيما بعد. خامسها، أنه منذ الموافقة على المشروع، وحتى حلول ٣١ ديسمبر ١٩٠٩، يقدم أصحاب الامتيازات طلباً للحكومة البريطانية للحصول على موافقتها على الشروط واللوائح الدستورية المحددة لنظام الحكم ولإدارة، بحيث يتوجب اتخاذ جملة تدابير، منها إنشاء شكل من أشكال الحكومة المحلية، تكون يهودية في طابعها، وتعين بريطانيا حاكمها. ومنها أن التسوية تمنح جميع الصلاحيات اللازمة للإدارة اليهودية لإصدار المراسيم واللوائح التنفيذية للإدارة الداخلية. سادسها، إن اليهود لهم حق فرض الضرائب والتقييمات، وحق تقرير أغراض الإدارة الشرطة والأشغال العامة، والتعليم، وكافة الأغراض الأخرى. ويحق لبريطانيا، عبر وزارة الخارجية، ممارسة بعض المعاملات التفضيلية في الأسواق ومعاملة الرعايا والتجارة. سابعها، أن تظل بريطانيا مسئولة عن السيادة والسياسة الخارجية مع أية دولة أجنبية، ومع رؤساء القبائل المستقلة في شرق أفريقيا البريطانية. ثامنها، أن أية شكوى أو تظلم من المستوطنة اليهودية، يجب أن يقدم للحكومة البريطانية. ويشمل أي إجراء يهودي يتم اتخاذه ضد شعوب الإقليم، يتعلق بمسائل الدين أو إقامة العدل أو خلاف ذلك. تاسعها، أن تواجه الحكومة البريطانية جميع القيود والأحكام، إذا حدثت، في الاستيراد والتصدير والضرائب، بموجب حقوق السيادة. عاشرها، يمنع فرض رسوم أو ضرائب من قبل أي دولة أجنبية، غير السلطة اليهودية المصرح لها بذلك. الحادي عشر: إنه يسمح للسلطة الاستيطانية باستبعاد أي شخص من الإقليم المذكور ومنعه من الدخول والاستيطان، إذا رأت أنه معارض لمصالح المستوطنين أو كرامة جلالة الملك، مع موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية. ويتم طرد هذا الشخص دون تعويض، كونه لا يلتزم بالمراسيم والقواعد واللوائح المفروضة من السلطة المسئولة عن الإقليم. وفيما يتعلق بتعيين القضاة والموظفين لإقامة العدل، يجب توفير محاكم العدل لإدارة القانون



المدني والجنائي في الأراضي وفقاً للقانون البريطاني. مع إدخال تعديلات تستند على الشريعة اليهودية مشروطة بموافقة وزير المستعمرات. وللحفاظ على العادات والقوانين للشعوب الأصلية في تلك الأراضي، ولحيازة الملكية والنقل والتصرف في المصالح والسلع وخلافة، وفي أمور الزواج، والطلاق، والشرعية وغيرها من حقوق الملكية والشخصية، يجب عدم التدخل من قبل المستوطنين في دين أية فئة أو قبيلة، وفي جميع أشكال العبادة الدينية القائمة في الإقليم، عدا ما يكون ضرورياً من الناحية الإنسانية ويحافظ على السلام. ويتم أيضاً تقييد المستوطنين عن ممارسة أي احتكار تجاري في تلك الأراضي، ولا يمتد مثل هذا القيد إلى تعهدات الأشغال العامة. لكن يؤذن، عبر قانون برلماني بريطاني، أن تنشأ الشركات البلدية والمصارف والسكك الحديدية والتزام والمحركات ووسائل النقل والموانئ والتلغراف والهاتف والقنوات، وأعمال الري أو التعهدات أو أعمال أخرى مماثلة، كبراءات الاختراع وحقوق الاختراعات والنشر والتأليف والنشر للأعمال الفنية أو أي حقوق أدبية وموسيقية. الثاني عشرة إنه للحصول على مستوطنين يهود يستدعى اسم " فلسطين الجديدة"، أو أي اسم آخر من حين لآخر، بموافقة الحكومة البريطانية. ولاعتماد استخدام الأراضي في أي ميزة، كرفع علم وطني مثلاً، لابد من موافقة الحكومة البريطانية. ولاقتناء الأراضي والمباني في شرق أفريقيا البريطانية وغيرها، سواء المتاخمة لها أو المتجاورة معها، يسمح بتوسيع الحدود بموافقة بريطانية. ويسمح بإضافة أي أراضٍ جديدة، ويتم تحويل اليهود الصلاحيات والامتيازات اللازمة. الثالث عشر: إن جميع المستوطنين وسكان الإقليم يخضعون لشروط الأحكام والامتياز، ويكونون تحت حماية حكومة صاحب الجلالة وسيطرتها. الرابع عشر: إن أي خلاف قد ينشأ في أي وقت بين أصحاب الامتيازات والآخرين على جزء من الامتيازات، تتولى الحكومة البريطانية عملية الفصل فيه، ويكون الحكم نهائياً وملزماً^(٣٤).

وعلى هذا يتضح مما سبق أربعة ملامح: الأول: إن المشروع تحدد بمحمية شرق أفريقيا من بداية المراسلات، وأن الوثائق كانت قاطعة ومحددة ولا لبس فيها، على أنه سيقام على محمية



شرق أفريقيا أو ما عرف باسم مستعمرة كينيا فيما بعد. الثاني: إنه غير معلوم الحدود داخل هذا المحمية، حيث ترك الأمر للاتفاق عليه لاحقاً. الثالث: إن شروط الامتياز كانت واضحة ومحددة ومصاغة بين الطرفين حتى قبل عرضه على المؤتمر الصهيوني السادس لأخذ الموافقة اليهودية عليه، وأن القيادات اليهودية كانت على علم بكافة تفاصيلها. الرابع، إن اسم اوغندا لم يرد لفظاً ولا تصريحاً ولا تلميحاً في تلك المراسلات.

وبالنظر للخطاب المرسل من المركز لانسدون Lansdowne وزير الخارجية، للسير شارل إليوت Eliot المفوض البريطاني في شرق أفريقيا في نفس موعد وصول الرسالتين السابقتين لوزارة الخارجية، في ١٣ يوليو ١٩٠٣، نجده يشير فيها لتلقيه رسالة بتاريخ ٧ يوليو الماضي، تتعلق بمشروع اتفاق اقترحته للدخول مع ديلاير، أحد كبار ملاك الاراضي البريطانيين في محمية شرق أفريقيا، لمنحه مساحة واسعة من الأرض، نجده يشير إلى صعوبات قائمة في المنطقة أدت إلى قبول المشروع اليهودي. فالتنسيق في الخطاب وتحذيره من إعطاء مساحات كبيرة لأشخاص غير جاهزين أو قادرين على تطويرها، وأن حالة اللورد ديلاير الصحية لا تجعله قادراً على دفع أي شخص للاهتمام بتطوير العقارات، ولا شراء ٥ آلاف فدان، رغم صدور قوانين حرية التملك في محمية شرق أفريقيا^(٣٥)، يجعلنا نستنتج مسألتين: الأولى، أن تشجيع البريطانيين للاستثمار في المحمية لم يدفع بذهاب مستوطنين بريطانيين إليها. الثاني، إن مشروع توطين اليهود في تلك المحمية مرتبط بهذا الظرف التاريخي. وأنه بتغير هذا الظرف يقوم مستوطنين أوروبيين فيما بعد، سيتغير الموقف من المشروع اليهودي. وبالتالي فإن قراءة الوثيقة السابقة تشرح أسباب العرض البريطاني لليهود ودوافعه، وتقدم لنا تفسيراً للظرف التاريخي المصاحب له.

ونأتى إلى الوثيقة المؤسسة للمستوطنة اليهودية، نجد أنها عبارة عن رسالة من كليمنت هيل Clement Hill المسئول بوزارة الخارجية، للوسيط اليهودي جرينبرج، في ١٤ أغسطس ١٩٠٣. ويشير فيها الى تواصله مع تشمبرلين والمركز لانسدون، بشأن الاتفاق الذي اقترح الدكتور هرتزل عقده بين الحكومة البريطانية والائتمان الاستعماري اليهودي المحدود، لإنشاء مستوطنة يهودية في



شرق أفريقيا. حيث أخذ اللورد في اعتباره التصريحات التي أدلى بها يوم ٦ أغسطس خلال مقابلة في وزارة الخارجية مع السيد بارينجتون Barrington والسيد هيرست.Hurst. حيث يشير بأنه قد درس الموضوع بالاهتمام الذي توليه دائماً حكومة صاحب الجلالة لمثل أي مشروع يستهدف تحسين الموقف من العرق اليهودي، بما يمكنه من الحديث عن تفاصيله، ومناقشة الأمر مع مفوض جلالة الملك في محمية شرق أفريقيا East Africa Protectorate. لكنه يأسف، لكونه غير قادر على النطق برأي محدد بخصوص المشروع. فهو يفهم رغبة الائتمان بإرسال بعض الأشخاص لمحمية شرق أفريقيا للتأكد من أن الأراضي شاغرة ومناسبة للغرض. وبالتالي سيكون سعيداً لمنحهم كل التسهيلات لتمكينهم من مناقشة الأمر مع مفوض صاحب الجلالة هناك. للإعراب له عن وجهات النظر التي سيديها المؤتمر الصهيوني المقبل، بشأن الشروط التي تقوم عليها المستوطنة. وإذا وجد المكان مناسباً يمكن النظر بين الائتمان والمفوض البريطاني في مسائل الهجرة والجنسية المناسبة، بحيث يستعد اللورد لانسدون لتقديم مقترحات إيجابية لإنشاء دولة يهودية أو مستعمرة، بالهيئة التي تمكن أعضاؤها من مراقبة الجمارك الوطنية. وأنه في هذا الإطار سيكون مستعداً لمناقشة تفاصيل المخطط الرئيس، إذا تم العثور على الموقع المناسب، واستمع لآراء مستشاري وزارة المستعمرات في شرق أفريقيا. بحيث يضم ميزة المساحة الكبيرة، وتعيين مسئول يهودي رئيساً للإدارة المحلية، والإذن للمستعمرة بالحرية المطلقة فيما يتعلق بالتشريعات البلدية والإدارة الدينية والمحلية، كالحكم الذاتي المحلي، بشرط ممارسة الحكومة البريطانية لرقابتها. وأنه لا توجد حاجة في ذلك الوقت للنظر في تفاصيل شروط الأراضي الممنوحة، سواء عن طريق البيع أو الإيجار، أو عدم تحمل بريطانيا لأي جزء من المصروفات الإدارية، بل في أن تكون بريطانيا قادرة على إعادة احتلال الأرض إذا ثبت أن المستعمرة اليهودية لم تثبت نجاحاً^(٣٦). وعلى هذا، فإن الوثيقة المؤسسة للمشروع قد حددته في محمية شرق أفريقيا، لكنها تركت أمر الأراضي المختارة داخلها للجنة اليهودية. بل تركت توسيع مساحتها لما بعد إثبات نجاحها. وأقرت بأنها ستكون يهودية في طباعها وطبيعتها، لكنها ستظل تحت السيادة البريطانية.



ما يعيننا هو أن نتعرف على أن الرسالة السابقة هي الوثيقة المؤسسة للمشروع كونها دعت الوسيط اليهودي جرينبرج، لأن يرسل لوزير الخارجية، المركزي لانسون، خطاباً في ١٧ أغسطس ١٩٠٣، باعتبارها خطاباً مرجعياً بجانب الاتفاق الموجه لتشمبرلين في ١٣ يوليو ١٩٠٣. بل يشير بأنه من خلال مقابلة مع السير كلiment هيل، ومع السير اريك بارينجتون والسيد هيرست، استطاع أن يفهم انه من السابق لأوانه في هذه المرحلة، وقبل موافقة المؤتمر الصهيوني، الدخول في مخطط اتفاق واضح. لكنه راح يستفسر من لانسون، ما اذا كان يقبل نيابة عن الحكومة البريطانية الموافقة على مقترح الدكتور هرتزل المبدئي، مع مراعاة التعديلات، التي يراها واجبة. ثم انطلق مطالباً بوجود خطة شاملة لإخضاع محمية شرق أفريقيا للسلطة التنفيذية الصهيونية والائتمان اليهودي، مع خضوعها في الوقت ذاته لحكومة صاحب الجلالة. مشيراً بأنه سيتم وضع المسألة برمتها أمام المؤتمر الصهيوني، مع شكه في قبوله للعرض. مرسلًا له، كمرقق، طلب ممثلي الدكتور هرتزل بالإذن لهم بفحص الإقليم ومدى مناسبته، ومناقشة ترتيبات المستوطنة المقترحة مع المفوض البريطاني. ولعل انتهاء رسالته بشكر الإدارة البريطانية على جهودها وتعاطفها مع الموقف الحالي الذي يتعرض له الشعب اليهودي، وأن تنفيذ الخطة المقترحة سيضيف للإمبراطورية البريطانية، بأن تصبح المستعمرة أكثر ازدهاراً^(٣٧)، يتضح لنا أمران: أولهما، إن المشروع كان مشروعاً بريطانياً بامتياز، وأن اليهود يعرفون بأنه لم يتح لهم إلا لكون الإدارة البريطانية تحتاج لمستوطنين. ثانيهما، إن المشروع لم يطرح حتى ذلك التاريخ على الجماعات اليهودية، وأن رفضه كان متوقعاً. وعلى هذا ظل المشروع محصوراً بين القيادات اليهودية والقيادات البريطانية.

غير إن رسالة المركزي لانسون لوزارة الداخلية في ٢١ أغسطس ١٩٠٣، تعرفنا بأن توجيهات وزير الخارجية بإحالة نسخة من خطاب جرينبرج الى أكرز دوجلاس Akers Douglas، بشأن الخطة التي قدمها الائتمان اليهودي لإنشاء مستعمرة يهودية في محمية شرق أفريقيا، هدفها



التحقيق في صحة هذا الاتفاق. بل إن ختامه بأن الوزارة ستكون سعيدة بأي اقتراحات وملاحظات يبدئها على عرض الحكم الذاتي المحلي الممنوح للمستوطنين اليهود، للمضي قدماً في تنفيذ المخطط على الشروط المشار إليها في الرسالة المرسلة لجرينبرج^(٣٨)، تدل على أن الخارجية كانت تحتاج لخبرة داخلية في تلك المسائل المتعلقة بالحكم الذاتي، ونصوص الاتفاقيات.

ويبدو إن الأمور مرت بين السلطات الرسمية البريطانية واليهود دون علم أطراف عديدة. فغالبية الجماعة اليهودية لم تدر عنه شيئاً. فضلاً عن إدارة المستعمرة ولا مستوطناتها ولا كنائسها ولا سكانها الأصليين. فقد ظلوا مغيبين عما يحدث بين الطرفين، وبطبيعة الحال سيكون لتلك العناصر موقف مضاد للمشروع، سيظهر بالتوازي مع انتشار الموضوع بينهم. فأول معرفة لأحد تلك القوى بالأمر، جاءت بعد ثلاثة أشهر من المخاطبات الرسمية، فرفضوه في الحال. نستشعر هذا في الرسالة التي بعثتها لجنة المستوطنين في نيروبي لوزير الخارجية، المركز لانسدون في ٢ سبتمبر ١٩٠٣. حيث عبرت تلك الرسالة عن احتجاج المستوطنين شديد اللهجة ضد الموقع المقترح لتوطين اليهود في وسطهم، وبأنهم على استعداد لمقاومة المشروع بكل الوسائل الممكنة^(٣٩). وهذا يعني أن هؤلاء لم يتم استطلاع رأيهم في المشروع علي أي نحو كان.

على أية حال، طرح هرتزل المشروع على المؤتمر الصهيوني السادس، في ٢٢ أغسطس ١٩٠٣، للتصويت. فتمت الموافقة عليه بأغلبية 295 صوتاً، مقابل 178 معارضاً، وامتناع 143 عن التصويت. وأحدثت تلك النتيجة بالطبع تصدعا في الحركة الصهيونية، بل استشاط الرافضون غضباً^(٤٠). فرفضه صهاينة صهيون، بزعامة مناحم أوسيشكين، رئيس اللجنة الروسية، معلنين عدم قبول أي استيطان بخلاف فلسطين^(٤١). وهو ما جعل هرتزل يتعهد بعدم البدء في عملية الاستيطان قبل الحصول على موافقة مؤتمر صهيوني آخر^(٤٢).



هذا كل ما نعرفه عن هذه التفصيلة من قبل، غير أن الوثائق تقدم تلك المرحلة بصورة مختلفة. فرسالة جرينبرج للمركز لانسدون في ٤ سبتمبر ١٩٠٣، والتي يشير فيها بأنه، وبتوجيهات من الدكتور هرتزل، ونيابة عن المؤتمر الصهيوني الذي انتهى في نهاية أغسطس، ينقل لوزارة الخارجية تحيات المؤتمر القلبية والعميقة، ويشكر لحكومة صاحب الجلالة العرض الوارد في رسالة كليمنت هيل في ١٤ أغسطس، تعرفنا على أن أول اعلام رسمي لليهود بالمشروع قد تم في المؤتمر الصهيوني في الثالث الأخير من أغسطس ١٩٠٣. وأنه وفقا لتصويت المؤتمر واللجنة التنفيذية يشكرونهم ويقبلون عرضهم الخاص بالمستوطنة اليهودية المقترحة في شرق أفريقيا البريطانية. وأنه يجري إعداد الترتيبات لإرسال لجنة لتحديد المكان ومدى ملائمته. وأنه لمناقشة هذه الترتيبات يتمنى مقابلة السير اريك بارينجتون والسيد هيرست، لشرح المسألة. فحماس اليهود للمشروع حتما سينجح المخطط في نهاية المطاف^(٤٣). وثمة نتيجتين نخلص إليهما: الأولى: إن اليهود لم يتعرفوا حتى هذا الخطاب على المكان الذي ستقام فيه مستوطنهم، اللهم إلا محمية شرق أفريقيا فقط. الثاني: إن قبول العرض لا يعني جود اتفاق يهودي وإجماع حول المشروع.

وهو الأمر الذي جعل الخارجية البريطانية على لسان وزيرها، يرسل للسير إليوت في ١١ سبتمبر ١٩٠٣، بوجوب احترام المشروع المقترح لتوطين اليهود في محمية شرق أفريقيا، ويحيل إليه عدداً من الرسائل المرجعية؛ انتظارا لإبداء رأيه في المسألة^(٤٤). وبالتالي هذا أول إبلاغ رسمي لمفوضهم في المحمية. بل إن رسالة لانسدون للسير إليوت في ١٤ سبتمبر ١٩٠٣، والتي تشير لبرقية لجنة المستوطنين الاحتجاجية على المقترح، والتي تعلن عن استعداده لمقابلة من يمثلهم^(٤٥)، تقطع أن بذرة الاحتجاج التي ظهرت في المستعمرة لم تكن في حسابان الإدارة البريطانية، ولم تكن في تقديراتها. وهو ما جعل وزير الخارجية يخاطب لجنة المستوطنين في نيروبي برسالة مستقلة في ذات التاريخ السابق، أي في ١٤ سبتمبر ١٩٠٣، برغبة الوزارة في التعرف على طبيعة احتجاجها على المستعمرة اليهودية المقترحة في المحمية^(٤٦).



ويبدو إن انتشار أمر المستوطنة اليهودية المقترحة داخل المحمية كان يتزايد، وبالتالي يوسع من جبهة المعارضة ضدها، حيث دخلت الكنيسة الإنجيلية على الخط. ورسالة مكتب المفوض البريطاني في مومباسا، السير اليوت، لوزير الخارجية لانسدون في ١٠ سبتمبر، والتي وصلت إلى لندن في ٣٠ سبتمبر ١٩٠٣ لفارق المسافة وطبيعة النقل، تشرح هذا الأمر وتؤكد. حيث يحيل له رسالة أسقف مومباسا الموجهة إليه بشأن المستوطنين اليهود، وما يشاع عنهم في المحمية. فيشرح بأنها جاءت ردًّا على التقارير العديدة التي ظهرت حول هذا الاقتراح في بريقيات رويترز. وبأنه لم يتلق أية معلومات رسمية حول هذا الموضوع، على الرغم من انه يقوم بجمع الرسائل الخاصة. وبأنه طلب من اللورد ديلاير وجمعية المستوطنين في نيروبي، التلغراف الذي وصل لوزارة الخارجية بشأن احتجاجهم ضد المشروع المقترح. ويفحص هذه الرسالة نتين ثلاثة أمور: أولها، أنه رفض إرسال أي برقية احتجاج، وأن هناك شيئاً منعهم من القيام بذلك بأنفسهم، لكن إذا تم إجراء المشروع فإنه يميل للاتفاق مع الأسقف، وأنه لا بد من إحاطته بالمشروع. ثانيها، يتوقع الاحتكاك بين اليهود والمستوطنين الأوروبيين الآخرين، رغم إن أعداد الأخيرين ليست كبيرة في الوقت الحاضر. ثالثها: إنه إذا كان الحال يتطلب إتاحة أموال كبيرة، فإن فتح مناطق كينيا أو ناندي وربطها مع الطريق الرئيس حول السكة الحديد، واستعمار الأوروبيين لها، سيدر زيادة في الدخل بشكل كبير^(٤٧). وبهذا يتضح ثلاثة أمور: الأول: إن أول تحديد للمستوطنة اليهودية جاء من داخل المحمية، وعلى لسان حاكمها البريطاني. محددًا إياها بمنطقة ناندي أو أية منطقة تفتح داخل كينيا وترتبط بالسكة الحديد، وليس على جانبية كما سيطالب اليهود فيما بعد. الثاني: إن المفوض هو المسئول عن عدم رفع الاحتجاجات ضد المشروع، حتى لا يضير بالمصالح البريطانية المرجوة من وراء هذا التوطين. الثالث: إنهم في المحمية سمعوا عن المشروع عبر بريقيات رويترز قبل إبلاغهم رسمياً. فخطاب القس نفسه أرسل في ٨ سبتمبر، في حين أرسل خطاب الإدارة البريطانية بإعلامهم بالمشروع في ١١ سبتمبر، أي بعده بثلاثة أيام.



وتأتي رسالة الأسقف جورج، رئيس المحكمة المطرانية في مومباسا، إلى السير تشارلز البيوت في ٨ سبتمبر ١٩٠٣، والتي هي ملحق للرسالة السابقة، لتعطينا تفاصيل أكثر عن المستوطنة المقترحة. ولتعرفنا أكثر على عدد من التفاصيل: أولها، أن المشروع المقترح عبارة عن ٢٠٠ كيلومتر من محمية شرق أفريقيا البريطانية، تمتد من نيروبي إلى جرف ماو Mau Escarpment، وتخصص لليهود القادمين من رومانيا Rumanian Jews. ثانيها: إنه سيطلب من لجنة جمعية التبشير الكنيسة إبداء وجهة نظرها لوزارة الخارجية، عما إذا كانت ترى ذلك جيدا للقيام به. ثالثها: إن أخبار المشروع وصلتهم في نيروبي بشكل غير رسمي مع بداية سبتمبر، ولذلك طلب منه الشخص تلو الآخر إبداء رأيه. رابعها، أنه رغم محبته للعرق اليهودي، لكنه لا يستطيع التعاطف مع المساحة الشاسعة من الأراضي الموضوعه تحت تصرفهم على طول السكة الحديد على كلا الجانبين. فهذا سيسبب أذى واضحا لمصالح المستوطنين البريطانيين وغيرهم. خامسها: إنه في حالة قوم الطبقة الدنيا من اليهود، سيكون لها تأثير سيء على القبائل الأفريقية سياسياً ومعنوياً ودينياً. سادسها، انه لا يعارض إيجاد مستوطنة كبيرة لليهود، لكن دون تعريض مستقبل المستوطنين للخطر، وإضافة صعوبات كبيرة على أتباع الكنيسة الإنجيلية وعملها. سابعها: إنه على المستوى الشخصي يؤمن بضرورة مساعدة اليهود، وأنه سيكون من أكثر السعداء لرؤية حكومته تمد يد الصداقة والعون للرجال والنساء اليهود بوضع قدم لهم في شرق أفريقيا، لكنه من غير الحكمة من الناحية السياسية والتجارية والدينية، أن يتم منحهم تأثير القائد في المنطقة الممتدة من نيروبي إلى ماو، وبحيازة الأرض التي يخرقها خط السكة حديد التابع لهم. فهذا الأمر سيسبب أزمة حالية في مجال تمتيتهم في شرق أفريقيا. ثامنها: إنه خطب يوم الأحد محدثا بضرورة التعاطف الحار مع اليهود، ومشيدا بالدعم الحكومي القوي في توطينهم في هذه المحمية، لكنه استنكر نتائج أي عمل غير حكيم من جانب السلطة. حيث دعا الناس للصلاة لإلهام الحكمة والصواب للحكام البريطانيين في شرق أفريقيا



وبريطانيا. تاسعها: إنه كان مطلوباً منه كتابة رأيه الديني في المشروع، وهو يقوم بذلك، تاركاً العديد يعبرون عن آرائهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية حول المسألة. عاشرها: إن مخاوف المستوطنين ومعاناتهم من التبعية الكاملة للمنطقة الممتدة من نيروبي إلى جرف ماو بأن تكون في حوزة يهود رومانيا. فهذا سيتسبب في ركود في التنمية، ويؤثر على الحياة الدينية المسيحية بين القبائل الأفريقية التي هم حريصون عليها. خاصة وأن اليهود لن يصيبهم القلق في حالة ابتعاد جيرانهم الوثنيين عن الحضارة المسيحية. بل سوف يستخدمون الشعب لمصلحتهم الخاصة، لكن سيتكفونهم في مستوى حياة منخفضة وفي الخرافات. وهذا سيؤثر على تفاعل الشعوب الأفريقية الإيجابي مع المسيحية، وفي قبول القواعد الأخلاقية والروحية المسيحية. فإذا جاء اليهود لشرق أفريقيا ولا يوجد دفاع عن المسيحية الإنجيلية، سيكون هناك تقدير قليل للأخلاق والعدالة؛ لأن كثرة من الرجال البيض سيثجعون حياة جيرانهم الأفريقيين ضد تمكين المسيح. علاوة على ذلك، فإن سلوك اليهود وتعاملهم مع الأفارقة قد يجعل مسار المبشر المسيحي أكثر خطورة وصعوبة مما هو عليه بالفعل في المنطقة قيد النظر. فعدم الثقة في الرجل الأبيض سوف تسود. مشيراً بأن اليهود هم اليهود، وبالتالي وارد أن يصبحوا عائقاً أمام التقدم في حرية الديانة المسيحية، ناهيك عن موقفهم ضد التبشير المسيحي، والعداء والتعصب تجاه دعوة من قام بصلب المسيح وتصعيده، وتجاه قضية ابن الله. الحادي عشر: إنه يحترم الرأي القائل بهيمنة اليهود ونفوذهم في القسم المقترح من المحمية، على حوالي ٢٠٠ ميل من البلاد على طول سكة حديد أوغندا، من نيروبي إلى ماو، لكن يجب التحقيق في المخاوف من المهاجرين اليهود وكرهيتهم للدين المسيحي. فتوطينهم سيضعف موقف المسيحيين في عيون الوثنيين، ويفسد آفاق الكنيسة الأفريقية المسيحية في كثير من مناطق شرق أفريقيا. خصوصاً في مناطق تركيزهم حول سكة حديد أوغندا. وهذا سيسبب لهم متاعب واضحة، في التقليل من حجم تأثيرهم في إدخال وثني أفريقيا للمسيحية. الثاني عشر: إنه من وجهة النظر الدينية،



لا بد أن يسمح للمستوطنين المسيحيين بالظهور في كيكويو والمرتفعات الأخرى، كأمثلة حية لأفارقة غارقين في ظلام دامس. فالحياة المسيحية الحضارية التي يعننها هو أن يكون الله رسالة إلى الرجل الأفريقي. لكن لأسباب سياسية يحدث، مع أنه لا يتفق في وجهات النظر التي أعرب عنها المستوطنين في واحدة من الأوراق المحلية، على منع وجود اليهود أو تمددهم على أي من مرتفعات المحمية. الثالث عشر: إن يقترح محاولة غير مباشرة، بأن يظهر لليهود بأن الله لم يلق شعبه بعيداً تماماً، وأن النفي عقاب لهم، والإعادة لن تكون بعيدة. بحيث يترك لهم بأن يتخذوا الموقف من الأرض والمشروع برمته بأنفسهم، وأن العرق ومقولة شعب المختار ستقوم بفعلها. الرابع عشر، إن مباركة اليهود هو ضمان لنعمتهم لإبعاد اللعنة التي جلبوها لهم عبر العصور، داعياً لوزير مستعمراتهم بالحكمة والتوجيه، فمصير شرق أفريقيا مرتبط به^(٤٨). وثمة نتائج ثلاثة نخلص إليها: الأولى: أن تحديد المستعمرة من نيروبي إلى جرف ماو لم تظهر إلا في هذا الخطاب، ومن داخل المستعمرة ومن القس. وهذا يعني أن المستعمرين قد التجأوا لرجال الدين ناقلين لهم كل الشائعات التي تدور حول المشروع. ثانيها: إن البعد الديني سيقوم بفعله لصالح المستوطنين والقساوسة على السواء. ثالثها: إن تحديد الأراضي حول السكة الحديد قد جاء من داخل المحمية ولا يوجد أي دليل عليه في مكاتبات اليهود الأولى ولا مكاتبات المسؤولين البريطانيين. وربما تم ذلك لدفع المستوطنين البيض للاحتجاج على المشروع. فالأراضي حول السكة الحديد ستجمعهم سوياً، وتدفعهم لرفض المستعمرة المقترحة ومحاربتها.

خامساً - المراسلات البريطانية اليهودية حول المشروع ١٩٠٣-١٩٠٤ :-

عرفنا مما سبق أن المشروع لم يتم تحديده من قبل المسؤولين البريطانيين في محمية شرق أفريقيا على أرض الواقع. وهذا ما أتاح الفرصة للشائعات حول المكان وحدوده لتنتشر عبر المحمية وتقوم بفعلها وتحريضها. وبعد أن سمعت كل الأطراف المستفيدة من المشروع والمضارة منه بملامح



المستوطنة، راحت تتفاعل مع الموضوع بشكل مختلف. فبدا واضحاً أن هناك صعوبات في تحديد المكان ومساحته، وبالتالي تعرض أكثر من منطقة على اليهود. فرسالة وزير الخارجية لانسدون للسير إليوت في ١٥ أكتوبر ١٩٠٣، أظهرت أن المشروع الاستيطاني يتطلب دراسة متأنية للغاية، ويحتاج لتقدير الصعوبات العملية قبل البدء في تنفيذ المخطط، وأخذ على محمل الجد من قبل لجنة الائتمان الاستعماري اليهودي. وهو الأمر الذي يتطلب الانتظار لفترة وجيزة حتى يتم إرسال مندوب للمحمية لدراسة المسألة على الفور. راجياً منه مناقشة هذه المسألة معه، وأن يبسر له كل التسهيلات التي قد يحتاجها التحقيق. مخبراً إياه بألا يفاجأ المستوطنون بالتخلي للمستعمرة اليهودية عن بعض الأجزاء الأكثر قيمة للمحمية. وأنه إذا كانت الاعتراضات على زراعة اليهود على مسافة من الخط الحديدي، فهذا أمر يمكن التغلب عليه، بتوجيههم لأجزاء نائية من البلاد. فهناك مساحات واسعة من الأراضي الخصبة في الجزء الشمالي من هضبة ناندي تسقى جيداً. كما توجد مناطق في الشمال الشرقي من بارينجو Baringo، تم اجتيازها مؤخراً بالغزو الحبشي للحدود، لكن تعقبهم السيد بتر Butter. ولهذا طالب بالتأني لتحديد موقع المستوطنة المتوقع، على أن يؤخذ في الاعتبار نقاط المشروع. وختم بأنه ينتظر تقريره والتوصيات التي تجيب على جميع النقاط قبل الوصول إلى قرار نهائي بشأن المسألة بشكل عام^(٤٩). وهذه الرسالة تبين لنا مسألتين: الأولى: إن المعارضة قد فرضت وجوب التأني في دراسة الموضوع. الثاني، قدمت المنطقة الشمالية من هضبة ناندي، والشمال الشرقي من بارينجو على الحدود الكينية الحبشية كبديلين لحل تلك المعضلة. ولتولى اليهود أمر دفع الأحباش عن المحمية.

ولعل رسالة وزارة الخارجية لوزارة الخزانة في ٤ نوفمبر ١٩٠٣، والتي تشير لعدم قدرتها على أن تمد المفوضين بمزيد من المعلومات حول الموضوع الذي لم يتعد أكثر من مرحلة المناقشة الأولية^(٥٠)، يشير إلى أن تفاعلات المحمية كانت تتطلب معلومات ترد على التساؤلات المطروحة



داخلها. وربما كانت إجابة وزارة الخزانة على خطاب الخارجية في ١١ نوفمبر ١٩٠٣، وبأنهم سيكونوا سعداء بالتواصل مع لانسدون قبل حدوث الترتيبات النهائية، إذا كان المخطط سيتم تفعيله عملياً^(٥١)، يشير إلى أن هناك اتفاقاً حكومياً حول المشروع.

ورسالة اليوت، مفوض مومباسا، للمركز لانسدون في ٤ نوفمبر ١٩٠٣ (وصلت لندن في ٢٦ نوفمبر)، والتي تتعلق بالملاحظات التي طلبتها وزارة الخارجية حول مقترح المستعمرة اليهودية لتحديد أفضل الشروط المطلوبة للمشروع، سواء التي طلبها اليهود، أو تلك التي ترغب وزارة الخارجية في فرضها في هضبة جواس نيجوشو* Gwas Ngishu مع أجزاء من المناطق المحيطة بها، تخبرنا ببعض التفاصيل الدقيقة حول المكان المقترح. فيخبره بأنه قام بزيارة هذا الجزء من المحمية في أغسطس، وأنها عبارة عن سهل معشوشب، وتسقى جيداً ومناخها معتدل. بل وجد بعض المناطق التي يعترض عليها اليهود باردة، وبالتالي: فإن اعتراضهم مشكوك في صحته؛ نظراً لأن المناخ قريب من المناخ الذي يعيش فيه يهود أوروبا الشرقية. حيث تحيط بها الغابات ذات الأخشاب الجيدة، وغير مأهولة تقريباً؛ وذلك بسبب الحروب القبلية، وليس إلى أي عيب آخر. فالوثيقة تشرح لنا مسائل تتعلق بالمكان في غاية الأهمية، نختزلها في عدة أمور: أولها، أنها تشير بأن الموقف غير كافي لتوفير الحماية لليهود من أي مظاهرات معادية للأجناس الأخرى، وإعطائهم حرية لممارسة الحكم الذاتي. ثانيها، أنها بعيدة بما فيه الكفاية عن الساحل لضمان حركة المرور عبر خط حديد أوغندا. فمن الناحية العملية سيكون الخط الحديدي على حدود المحمية. ثالثها: عدم الرغبة في إعطائهم منطقة إدارية بين تلك المنطقة وبحيرة رودولف؛ وذلك لأن تلك المنطقة سيتم تقسيمها بين بريطانيا العظمى والحبشة في المستقبل. رابعها: اقترحت مساحة حددتها على خريطة شعبة الاستخبارات الموجودة في وزارة الحرب، رقم ١٤٢٩ د، ملف أوغندا ٤، وتقع من ناحية خط الاستواء جهة الجنوب، ويحيطها جرف الجايو Elgeyo من جهة الشرق، وجرف كابراس Kabras وجبل الجن Mount Elgon من ناحية الغرب،



ومن الشمال خط مرسوم من شمال شرق جبل الجن الأقصى. خامسها: أكدت على أنه إذا ثبت أن المستوطنة قد حققت نجاحًا، فإنها قد تمتد وتتوسع جهة الشمال الشرقي. وهذا من شأنه أن يحدث احتكاكًا مع المستعمرين، وربما لتصادم مع بعض التوركانا Turkhana المعروفين بالإزعاج. وهذا سياتسبب في حدوث مشاكل خطيرة لجشوا الحديثة Modern Joshua. سادسها: إنه فيما يتعلق بإدارة المستوطنة، اعتقدت الوثيقة بأن اليهود الشرقيين لا يرغبون أكثر من البلديات اليهودية. فالحياة الوطنية لهم تعني الحياة الدينية، وأن تصبح المستعمرة عبارة عن وحدة دولية تقودها الشعائر الدينية. لهذا أوصت بالطريقة التركية في الحكم، باعتباره نظام سهل متسامح ومرضى تمامًا لغير المسلمين. بحيث تحوز الطوائف المختلفة على استقلالية كاملة في جميع المسائل المتعلقة بالدين والتعليم، ويتم تفويضها باتخاذ القرار في المسائل الدينية عن طريق الكنيسة ومحاكم الزواج والطلاق والميراث، شريطة ألا تتشارك أكثر من مؤسسة، ويخضعون للقوانين العامة والضرائب، ويتم النقاضي عن طريق المحاكم العادية للدولة. ولا يوجد اعتراض على بعض هذه الاتفاقيات، لكن إذا ما اقترن نظام البلديات بالحكم الذاتي، فهذا سيرضي طموح اليهود الشرقيين. فمن غير المرجح أن يقوم غير اليهود بمشاكل في المستوطنة اليهودية، ولهذا يجب أن تكون محفوظة بعناية الحقوق. وعندما تسمح الظروف للمضطهدين سيسعون للتغيير، ولن يكون مريحًا للمسيحيين إذا اضطروا لمراقبة عطلة السبت اليهودية. لكن إذا سكن لسنوات طويلة كما في تركيا وروسيا والمغرب، وتم التعرف على الأحياء اليهودية، فلن يكون هناك أي وزن لرأي المفوض. سابعها: إنه على الرغم من أنه يعارض المخطط بالكامل، فإنه لا يوحى له بثقة أو حماس. فرغم أنه سمع من أن اليهود مزراعين جيدين، لم ير هذا على أرض الواقع. فالمستوطنات الزراعية التي ظهرت لليهود في الأرجنتين أثبتت فشلها. وفي جنوب روسيا يعمل اليهود الغربيين بالزراعة ويتعاملون في الرهون العقارية وشراء الحبوب، ويقومون بالعمل اليدوي. فاليهود في سالونكي يعملون بحارة، وفي اليونان يعملون بالزراعة. وعلى هضبة جواس



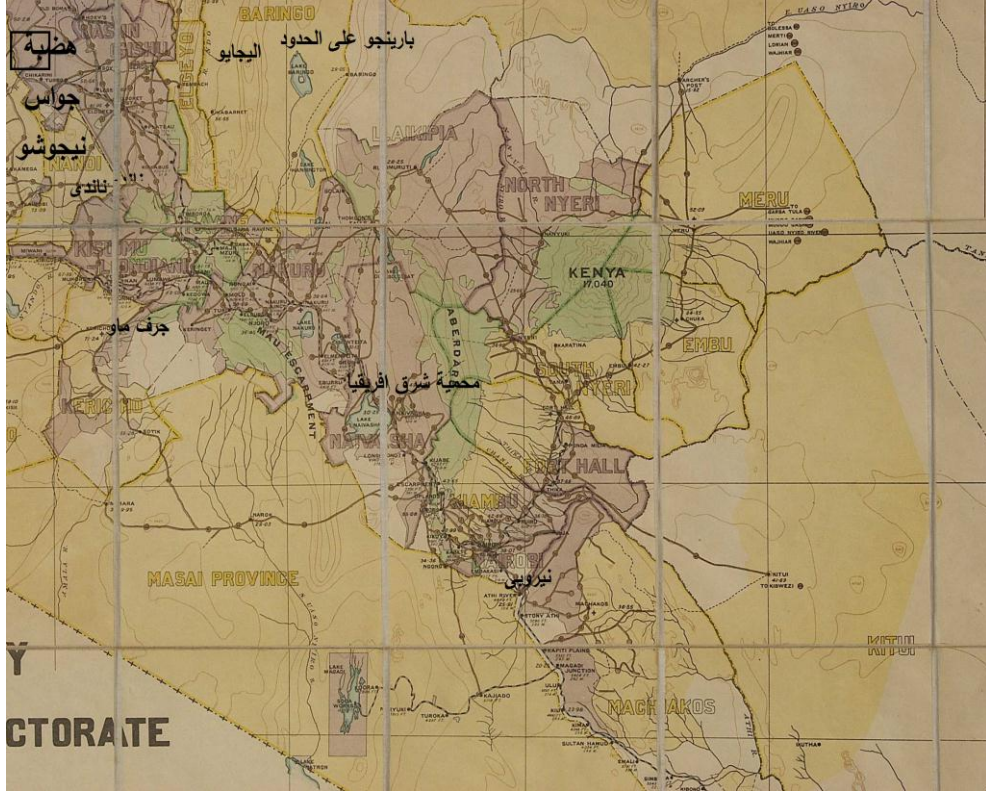
نيجوشو، يجب أن يعملوا في البداية على التنمية التجارية للمحمية، حيث يتوقع بأنهم لن يعملوا لأنفسهم في البداية، بل كوسطاء لتمويل المستوطنين البريطانيين. وعلى الرغم من اليهود الأثرياء هم أغنياء جداً، واليهود السيئون هم من الفقراء جداً، لكن المجموعات اليهودية القادمة من روسيا وبولندا تنتج انطباعاً أنهم الأكثر بؤساً. فهناك بلدات بأكملها تبدو كما لو كانت تشتري المستعمل فقط. وهذا المحيط المستقبلي سيهدد المستوطنين. وعلى هذا، فإن إنشاء مستوطنة يهودية سيطردهم المستعمرين الآخرين. ثامنها: إنه يتوقع صعوبات كثيرة وأعمال شغب ستقع في الطريق (على الرغم من أن لغة العنف استخدمت في نيروبي حول مهاجمة المهاجرين اليهود)، وبالتالي، فإن المشروع اليهودي لا يحظى بشعبية بين كافة طبقات المستوطنين الأوروبيين، وربما تنتج انطباعاً سيئاً في أماكن كجنوب أستراليا ونيوزيلندا، رغم رؤيته لمزايا المخطط. ناسعها: إن هناك رغبة في الحصول على الأموال الكبيرة التي أنفقت على تلك المحمية، ما لم تعتمد الإدارة سياسة أكثر نشاطاً وتحفيزاً للتجارة. عاشرها: إنه على الرغم من أن الإيرادات في تزايد مستمر، والخطر من فترة الاكتئاب التجاري لم ينته بعد، إلا إن التدفق البطيء للمستوطنين غير كافٍ لمواجهة نزوح المسؤولين والمقاولين والهنود coolies بعد الانتهاء من بناء السكك الحديدية، وبالتالي أنتجت الركود في لحظة مؤسفة للغاية. كما إنه من المرجح أن يرحل الشركات الصغيرة بجدية، ويقدم انطباعاً سيئاً حول الرأسماليين المشاركين في مشاريع شرق أفريقيا. ومن المرغوب فيه بوضوح بدء مشروع جديد يجنب الرجال والمال لهذه الشواطئ. الحادي عشر، ختمت بأمنياتها بأن القوة المحركة المطلوبة ستأتي من نقابة شرق أفريقيا، لكن المشروعات التابعة لها قد أظهرت أن الحسم متذبذب والقوة تنهار دون انتقاد مواز. وبالتالي فإن المفوض لا يتحمل مسئولية رفض المخطط اليهودي، لكنه يأسف بشدة؛ لأن الحكومة البريطانية لا ترى طريقها لبدء نشاط، وتضع خطة لمحمية يتجاوز فيها عدد اليهود عدد المستعمرين البريطانيين^(٥٢).



وثمة نتائج خمسة نخلص إليها: الأولى، إضافة أماكن جديدة مقترحة كهضبة جواس نيجوشو، والتصرف في المنطقة الشمالية مع الحيشة وإمكانية التنازل عنها. الثانية: المنطقة المحددة على خريطة الاستخبارات، بحيث تقع جنوب خط الاستواء، ويحيطها جرف الجايو من جهة الشرق، وجرف كابران وجبل الجن من ناحية الغرب، ومن الشمال خط مرسوم من شمال شرق جبل الجن الأقصى، أضيفت كمنطقة رئيسة مقترحة. الثالثة: إن نظام الإدارة التركي هو الذي اقترحه الحاكم البريطاني لإدارة اليهود لمستوطناتهم، وهذا يعنى شروطاً مسبقة ملزمة بوجود تسامح ديني. الرابعة: عملية الفرز التي قامت بها المحمية لليهود القاميين وكأنها لا تود قنوم هؤلاء الفقراء والسيئين منهم، وترغب في الأثرياء فقط. الخامسة: إن عدم قدرة المحمية على جذب مستوطنين جدد جعل مفوضها يعلن عن عدم قدرته على رفض المشروع. وأنه سيتم الاعتماد على نقابة شرق أفريقيا لمعالجة هذا الأمر.

ويبدو أن هذا الشد والجذب لم يرض وزارة المستعمرات، فأرسلت عبر بيرترام كوكس Bertram Cox رسالة لوزارة الخارجية في ٢٧ نوفمبر ١٩٠٣، نتعرف من خلالها على أن وزير المستعمرات الجديد لايتلتون Lyttelton قد قرأ كل أوراق المستوطنة المقترحة لليهود في محمية شرق أفريقيا تقريبا، وانتهى إلى أنه يرى أن مقترحات الخارجية وبعض تفصيلاتها، هي التي فتحت الباب للاعتراض، وهي التي جعلت المشروع لا يقبل رسمياً. ملخصاً بأنه إذا كان هناك وقت للمقترحات للمضي قدماً في تنفيذها، فالخارجية ليس لديها شك بأن لايتلتون سيبدى وجهات نظره بالتفصيل^(٥٣). وهو ما يعنى انتقادها لعنصر الوقت. وهو الأمر الذي جعل وزارة الخارجية ترد على وزارة المستعمرات في ٣ ديسمبر ١٩٠٣، بأنه ينبغي المضي قدماً في مخطط إقامة المستوطنة اليهودية، وأنه سيتم التشاور مع لايتلتون على النحو الواجب في المسألة قبل الوصول إلى أي قرار^(٥٤).

خريطة توضح المشروع في أشكاله المختلفة



ورسالة وزارة الخارجية لمكتب المستعمرة، في ١٢ يناير ١٩٠٤، والتي تحيل فيها عددًا من الرسائل السابقة، تقول لنا بمساحة جديدة باقليم في حجم يوركشاير. حيث تسرد لنا قصة جرينبرج، وكيل الدكتور هرتزل، ورئيس اللجنة المنظمة للمستوطنة، وأنه طالب في ٥ يناير الموافقة على اقتراح الصهاينة بإرساله كمثل أولى لشرق أفريقيا لمناقشة المسائل مع السير اليوت، إلا إن هذا غير مجدى بالنسبة له، ما لم يتم إعطائه بعض الضمانات المحددة سلفا من قبل الحكومة



البريطانية، عن مدى استعداد المنطقة وتقبلها لعقد الإيجار. حيث تشير بأن تشمبرلين هو أول من شجعهم على الاقتراب من وزير المستعمرات، حينما اقترح بعبارات عامة إقليم لليهود بحجم يوركشاير، وأنه سيتم اختياره بين نيروبي وجرف ماو. وأن السيد جرينبرج قد طالب من وزارة الخارجية، بأنه سيكون من الصعب تعيين منطقة كبيرة بالقرب من السكة الحديد. وأنه أوضح له بأن الأوروبيين قد بدعوا الآن في إقامة مستوطنة في محمية شرق أفريقيا، وبالتالي من الصعب حجز مساحة واسعة من الأراضي من شأنها أن تبقى متخلفة فترة من الزمن قبل احتلالها من قبل اليهود، إلا إذا تم تحديد هذا الإقليم في المناطق النائية داخل المحمية. حيث زعم جرينبرج وجود مهاجرين يهود قبل وصول الأجانب، وإن المستوطنة ستصبح مستقلة تلقائياً عن بريطانيا. لكنه أشار بأن المسألة تلقى صعوبات تقنية عملياً. وحينما سأله عن الحد الأدنى من المساحة التي ترضي الصهاينة، ذكر جرينبرج أنه يفضل من اللورد لانسدون أن يتأكد من السير إليوت كم هي مساحة الأراضي التي من الممكن التنازل عنها، ومدى قربها من خط السكة الحديد. لكن لم يتم إبلاغ السير إليوت على النحو الوارد في تقريره. فالمنطقة المقترحة من قبل السير إليوت لإقامة مستوطنة يهودية كبيرة، مساحتها التقريبية حوالي ٥,٠٠٠ كيلومتر مربع، في حين المرجع الأصلي، وهو تشامبرلين، يشير لأراضي بحجم يوركشاير مساحتها حوالي ٦,٠٠٠ ميلاً مربعاً. ومن وجهة نظره أن المساحة التي يقترحها السير إليوت وجدت قبولا. وأن هناك ميزة جديدة في الاقتراحات الأخيرة التي طرحها جرينبرج، والخاصة بعدم وجود نية لإدخال عدد كبير من المستوطنين معاً. فأوضح له بأن الخطة الحالية فيما يتعلق باكتساب الأراضي ستكون بنظام التأجير لعدة سنوات (بدفع إيجار صغير)، وبدعوة المستوطنين للانتقال بشكل فردي لبقعة جيدة على نفقتهم الخاصة، وحياسة الأرض بنظام التملك الحر في حالة نجاح المشروع. وهذا يعني تدفقاً تدريجياً للمستوطنين؛ بضمانات كافية يجري إقرارها. وهذا من شأنه عودة الأراضي بسهولة لحكومة صاحب الجلالة، فالمستوطنون لم يأتوا بحرية



كما كان متوقعاً. وأوضح لجرينبرج أيضاً، بأنه سيكون من الصعب اتخاذ الترتيبات اللازمة لإقامة أي حكم ذاتي وإدارة محلية يهودية مستقلة، ما لم يكن هناك عدد ملحوظ من المستعمرين يعيشون معاً. ومنتهاً من قصته بأن اللورد لانسدون سيكون سعيداً إذا عبر لايتلتون عن وجهات نظره بشأن المشروع عموماً. مع مراعاة حقيقة، أن قدرًا معيناً من التشجيع قد أعطى بالفعل لليهود في هذا الإطار. ومن ثم يريد تحديد اعتراضات لايتلتون على جرينبرج، لإبلاغه بأن حكومة صاحب الجلالة توافق على إجراءاته في شرق أفريقيا لمناقشة المسائل مع مفوض جلالة الملك، على أن يكون مفهوماً أنه يخضع لترتيبات مرضية لحكومة صاحب الجلالة، في كل تفاصيل مخطط المستوطنة اليهودية في محمية شرق أفريقيا، وأنهم مستعدون للموافقة على تأجير المنطقة بعد التعرف على موقف السير البيوت^(٥٥). ونخلص من ذلك إلى أن الاقليم المحدد كان بحجم يوركشاير، أي ٦٠٠٠ ميل مربع، نزل على أرض الواقع إلى ٥ آلاف ميل مربع. وأنها حول السكة الحديد. وهي رواية يقدمها وزير الخارجية على لسان الوسيط اليهودي جرينبرج. ومن ثم فإن رواية اليهود عن الموقع تختلف عن رواية المسؤولين البريطانيين.

وعلى هذا جاءت رسالة وزارة المستعمرات لوزارة الخارجية في ١٩ يناير ١٩٠٤، لتوضح بأن السيد لايتلتون يريد أن يعلم لانسدون بأنه لا توجد نية لإبخال أي عدد كبير من المستوطنين معاً، بل يتم حضور المستوطنين بشكل فردي على نفقتهم الخاصة، وهو ما يعزز الصعوبات عملياً في إقامة المشروع. فبموجب هذا الترتيب، فإن المروجين للمشروع ليس لديهم المسؤولية في إنجاحه، أبعد من دفع "الإيجارات الصغيرة"، ولا توجد مسؤولية حكومية عن أي المستوطنين سيستجاب لدعوتهم في حال ثبوت أنهم غير مناسبين أو في حال فشلهم في إثبات النجاح. فقد كان اللورد لانسدون يدرك بأن جلب أشخاص إلى منطقة نائية يجب أن يتوفر له رأس المال الكافي لزراعة الأرض الموكلة إليهم لتوفير معيشتهم. وأن لايتلتون يشاطر السير البيوت الشكوك في كون اليهود



مزارعين جيدين، مستكراً أية ترتيبات من شأنها تقليل ما يشاع حول نجاح التعهد بإزالة المستوطنين بشكل فردي في حال ثبت أنهم غير مناسبين. وأنه ما لم يكن هذا واضحاً لجرينبرج، فإنه يخشى أن يقوم لايتلتون بإبلاغ انطباعه بأن الإدارة الحكومية البريطانية عليها مهمة تفسير ذلك. وأن فترة الإيجار يجب ألا تتجاوز أربعة عشر عاماً، إذا كان النظام كله مؤقتاً حسب كلام جرينبرج، وعلى هذا وجب إصدار إطار للتأجير. وأن الأمر يقتصر على الموافقة على إعطاء ضمانات بأن المنطقة ستكون محفوظة لغرض التجربة لمدة محددة، وتخضع لشروط مناسبة. فطبقاً لتلك الاعتبارات، لا يرى السيد لايتلتون أي اعتراض على المقترح، والتواصل مع جرينبرج. فبالنظر للمشروع بشكل عام، وحتى المعلومات عن التفاصيل المتوفرة عن المقترحات، من الصعب تقديم ملاحظات؛ وأن لايتلتون قدم هذا الحكم خلال عملية المسح المبكرة للمنطقة المؤجرة، ليتم المضي قدماً في تنفيذ الخطة المحددة والمنتظمة لموقع المستوطنين؛ وذلك لتسهيل منح الاستقلالية البلدية على النحو الذي اقترحه السير إليوت. والمطلوب من قبل المروجين؛ وأيضاً لمنع أي محاولة للوقوع في مؤامرة، عزل منطقة الامتياز الخاصة بالمستوطنين. وفي حالة ثبوت فشل المشروع، فإن هذا سيكون له ضرر في جنب أي أشخاص من المستعمرات المجاورة إليها. ومع هذا الترتيب كان على المنطقة أن تبقى محفوظة للمستوطنة لمدة أربعة عشر عاماً. وبذل الجهود لاستقدام مستوطنين، ومنحهم مستوطنة ترضيهم وترضى الحكومة. فالمروجون سيقومون بشرح نظام التعليم والدين، وكذلك الطرق والأغراض العامة الأخرى، وينبغي أن تتضمن تفاصيل كاملة عن هذه النقاط. ويتفق لايتلتون مع السير إليوت على أن منح الحكم الذاتي يقتصر على الشؤون البلدية والدينية، وإن كان يعتقد أنه سيتمند لجميع المسائل الأخرى، حيث سيخضع المستوطنون والسكان الآخرون لقوانين المحمية بنفس الطريقة وعلى نفس القدر. وسيكون مستحيلاً في بلد كشرق أفريقيا البريطانية، وبالنسبة للسكان الأصليين، منح أي هيئة من المستوطنين الإعفاء من الالتزامات المالية والعسكرية



التي تتم في ظروف متشابهة، يتحملها المجتمع الأبيض. وانتهى إلى أن الأمور التي يجب أن ينص عليها أي مخطط استعماري؛ تبدو للسيد لينتون لا لزوم لها، لزيادة التوسع في الوقت الحاضر، كما يعتبر أنه من المحتمل عندما يدرك المروجون النفقات الهائلة التي ينطوي عليها زرع مستعمرة في تلك المنطقة النائية، نادرا ما سيرغبون في محاولة المضي فيها^(٥٦).

على أية حال، قدمت لنا مذكرة هيرست بشأن احترام مخطط المستعمرة اليهودية في ٢٥ يناير ١٩٠٤ معلومات وتفصيلات في غاية الأهمية. فقد أوضحت بأن جرينبرج قد رأى الدكتور هرتزل مرة أخرى، وتناقش معه عما إذا كانت الحكومة البريطانية قد أعربت عن استعدادها لجعل منطقة بحجم يوركشاير متاحة للمستوطنة، فتأكد من ذلك معتبرا إياها ملائمة. حينئذ أظهرت الخارجية لجرينبرج خريطة المنطقة التي يعتبرها السير إليوت متاحة على هضبة ناندي، وتبلغ مساحتها من ٥٥ - ٩٠ ميلا، أو حوالي ٤,٩٥٠ كيلو متر مربع، بالمقياس الإنجليزي. غير أن جرينبرج أجاب بأنه من السابق لأوانه عقد اتفاق قبل عودة اللجنة المرسلة للمنطقة ومناقشة تفاصيل المساحة المتاحة في شرق أفريقيا، وما إذا كانت الأرض المقترحة مناسبة للمستوطنين أم لا. مضيفاً بأنه يلزم اللجنة ثلاثة أو أربعة أشهر ما بين زيارة الموقع والعودة وكتابة التقرير، وبين ما إذا كان المروجون للمشروع يرغبون في المضي قدماً فيه أم لا. فكل التفاصيل سوف تناقش وتستقر في إنجلترا وليس في شرق أفريقيا. وأن مكان المستوطنة هو الذي سيستغرق بعض المناقشات، ثم تأتي بعدها مسألة الحكم الذاتي المخول للمستوطنة. حيث أوضح السيد جرينبرج أنهم كانوا راضين تماماً عن شروط خطاب وزارة الخارجية في ١٤ أغسطس ١٩٠٣؛ حيث أرادوا القدرة على تنظيم الشعائر الدينية اليهودية، والحكم الذاتي المحلي باعتبارهم يمتلكون مقاطعة كمقاطعات إنجلترا، لهم فيها سلطة على الطرق، والأشغال العامة، والشرطة، والتعليم. وحينها تكون الشروط بين حكومة صاحب الجلالة والمروجين للمشروع قد استقرت بالتأكيد. بحيث تدير المنطقة شركة برأس مال كبير تعمل على تنفيذ المخطط. لكن ما أوضحتها المذكرة من اعتراف جرينبرج بأنه من حق الحكومة البريطانية بأن تطالب بضمانات، وتأمين مالي



للمشروع، بصرف النظر عن الأرض، وأنه لن يتم تشجيع المعوزين والمعدمين ليستقروا على الأرض؛ وأنه من المطلوب تشجيع هؤلاء الذين يعملون بجد أفضل وأكثر، يعد تطوراً جيداً. غير إن هذا الاعتراف قرنه بأن تعطي الحكومة البريطانية الأرض في بعض طريق السكة الحديد، إما بالإيجار أو بالشراء، أو بحصة من المعدلات المفروضة؛ وأنه عن نفسه يفضل المشروع الأخير. وأنه إذا كان هذا النموذج المعتمد، فإن الحكومة لن تحصل على شيء ما لم تكن الخطة ناجحة. وهذا يعني أن الأماكن المعروضة في السابق غير مقبولة إلا إذا اقتربت من طريق المواصلات الرئيس داخل المحمية، وهو السكة الحديد. والأمر الجديد أيضاً في هذه المذكرة هو إشارة الخارجية على لسان هيل، بأن حماية المنطقة كان بنداً هاماً ومحدداً بـ ٤٠٠ رجل، وأنه سيكلف حوالي ٢٠ ألف جنيه سنوياً^(٥٧). وثمة نتائج أربعة نخلص إليها: أولها: إن مشكلة المكان كانت من أكثر المشاكل المطروحة في كل المناقشات. فمن ٥ آلاف ميل خفضت في هذه المذكرة إلى حوالي ٥ آلاف كم. وتحدثت في هضبة ناندي. الثانية: هو استمرار رفض اليهود لأي مكان يكون بعيداً عن الخط الحديدي، كونهم لم يتعرفوا على المنطقة بعد إلا من خلال الخرائط. الثالثة: إن اللجنة التي أعلن اليهود عن تشكيلها منذ عرض المشروع في منتصف عام ١٩٠٣ لم تبدأ بعد في أعمالها حتى تاريخ الرسالة في فبراير ١٩٠٤. الرابعة: إن تكلفة الحماية سيتحملها اليهود، وأنها محددة بأربعمئة رجل.

ولمعرفة تفاصيل أكثر عن الأشياء المستحدثة في المشروع، تطلعنا رسالة لانسدون للسير إليوت في ٨ فبراير ١٩٠٤، والذي يبلغه فيها بأن وزارة الخارجية قد دعت جرينبرج للحضور في ٢٥ يناير ١٩٠٤ لمناقشة مخطط المستوطنة الصهيونية في محمية شرق أفريقيا، على أصل السياق الذي تعرضت له المذكرة السابقة. حيث تشير بأن الوسيط اليهودي قد أوضح بأن المساحة التي عرضت على الدكتور هرتزل في البداية كانت بحجم يوركشاير، وأنها تحدثت فيما بعد على هضبة ناندي، بمساحة قدرها ٤،٩٥٠ كيلو متراً مربعاً. وأن لانسدون وافقه الرأي على تأجيل مناقشة إقرار الأرض حتى تعود اللجنة من شرق أفريقيا بعد ثلاثة أو أربعة أشهر. مع إعلامه بأن الوقت



سيستهلك في مناقشة المكان والحكم الذاتي. وأن اليهود راضون باشتراطات الخطاب المؤسسي لوزارة الخارجية في ١٤ أغسطس ١٩٠٣؛ باعتباره خطاباً مرجعياً لتنظيم المستوطنة. وأنهم يقبلون مطالب الحكومة البريطانية في ضرورة توفير ضمانات واعتمادات مالية، وقصر الهجرة إليها على الأثرياء والمستثمرين وليس الفقراء والمعوزين. مطالبين بإعطائهم جزءاً من الأرض على جانبي خط السكة الحديد بأي شكل يرضى بريطانيا. غير أن أمر الحماية، بتوفير ٤٠٠ رجل بتكلفتها قدرها ٢٠٠,٠٠٠ جنية سنوياً، طرحها مسئول الخارجية كلمنت هيل كبند رئيس وأساسي في الاتفاقية. وأن إحاطة الدكتور هرتزل واللجنة اليهودية الذاهبة لشرق أفريقيا، بما جرى في المقابلة كان أمراً ضرورياً^(٥٨). وفي هذا الإطار، راحت رسالة جرينبرج لوزارة الخارجية في ٩ فبراير ١٩٠٤، تخبرنا بأنه أرسل للدكتور هرتزل كتابة أمر المقابلة، وأنه نقل إليه الخريطة التي سلمت إياه، بشأن الأراضي التي استعدت الحكومة البريطانية للتنازل عنها للمستوطنة اليهودية في شرق أفريقيا. غير أن غياب هرتزل في فيينا عن روما جعلته يتأخر في قراءة رسالته، لكنه سمع بموافقته على أراضي المنطقة المستهدفة. وأن الرأي النهائي سيخضع بطبيعة الحال للتقرير الذي سيتسلمه من لجنة التحقيق التي تمضي قنماً في مشاهدة الأرض. فاللجنة ستوفر مقدمات ضرورية للوصول للاتفاق النهائي. وأهم ما في هذا الخطاب هو الجملة التي ختم بها وهي: " أنه بعد إرسال الخريطة للدكتور هيرتزل اتفق جرينبرج معه، بعد موافقة السير تشارلز إليوت والحكومة البريطانية، بأن تشمل الأرض منفذاً على بحيرة نيانزا (فيكتوريا)^(٥٩). وهذا يعني أنهم يريدون منفذاً على النيل. بل نخلص من ذلك بنتيجة مهمة، وهذا يعني أن اليهود اشتروا بأن تكون الأراضي في جزء منها على الخط الحديدي، وأن تتصل ببحيرة فيكتوريا. وهو الأمر الذي يوحي بأن المستوطنين اليهود باتوا على دراية بالمنطقة مكانياً، ويدركون أبعادها، ويعملون على حيازة أحسن مناطقها.



لكن من المؤكد، أن اليهود لم يكونوا على دراية بالتطورات التي حدثت، في المحمية الموعدين بمستوطنة داخلها. فرسالة إليوت، المفوض البريطاني في مومباسا، للمركز لانسدون، وزير الخارجية، في ١١ فبراير ١٩٠٤ تقطع بأن الظروف قد تغيرت تمامًا عما كانت عليه في السابق. حيث يشير بأنه لم يعد مفيدًا الآن منح مساحة واسعة من الأرض لليهود المهاجرين، في ضوء تدفق المستوطنين البيض، وفي ضوء المنح الكبيرة المقدمة لنقابة شرق أفريقيا. فنجاح المستوطنة اليهودية هو، كنجاح المستعمرين، مشكوك فيه في أحسن الأحوال. فالزيادة في عدد المستوطنين، ومعارضتهم للمستوطنة اليهودية أيضًا؛ يطرح وجوب النظر في مخطط جرينبرج؛ لأنه يؤمن الأرض التي سيحصل عليها المستعمرون البريطانيون المؤهلون خلال السنة^(١٠). ونخلص من تلك الرسالة المهمة بأن تدفق المستعمرين الأوروبيين على المحمية سيكون له دور كبير في عدم الحماس للمشروع اليهودي فيما بعد. وأن المشروع في ذاته استغل في تحريض الأوروبيين على الذهاب لمحمية شرق أفريقيا.

من هنا، تبدو رسالة جرينبرج لوزارة الخارجية في ٢٤ مارس ١٩٠٤، وكأنها غير مدركة للتغيرات التي حدثت في المحمية بالمرّة. حيث يشير فيها بأن الحكم الذاتي الممنوح للمستوطنة المقترحة، يتطلب بعض السلطات الإضافية لمجالس المقاطعة، كتلك التي تمنح لشركات تشارترد Chartered داخل أراضي السكك الحديدية. ويطلب بتعيين موظف يهودي كرئيس للإدارة المحلية، والإذن للمستعمرة بأن يكون لها يد على تشريعات البلدية وإدارة الأمور الدينية والمحلية البحتة، كالحكم الذاتي المحلي، ويجري هذا مشروطًا بحق حكومة صاحب الجلالة في ممارسة الرقابة العامة". وأن أساس الترتيب للمستوطنة هو شكل الاتفاق المقدم للورد لانسدون في ١٣ يوليو ١٩٠٣، بصيغته المعدلة في ١٤ أغسطس من نفس السنة. بأن إشارته بوجود قلق يحتاج لوضوح في التحديد والإلزام، وأنه لا توجد لديه أية سلطة للتحدث مع أمناء الإمبراطورية، وأنه لا يعرف ما



إذا كان الدكتور هرتزل سيسعى للتعاون معهم في هذا الشأن ام لا، وأنه لا بد من المساعدة في المخطط الذي يجري تنفيذه، وإزالة أي احتمال لسوء الفهم^(٢١)، يشى بوجود هواجس يهودية، وأن هناك أشياء في المشروع لم تتم إحاطتهم بها.

وتشرح لنا رسالة إليوت، مكتب مفوض مومباسا، للمركز لانسدون، وزير الخارجية، في ٢١ مارس ١٩٠٤، تلك التي وصلت لبريطانيا في ٢٥ أبريل ١٩٠٤، ببعض التفاصيل عن هذا التطور الذي جرى ويجري داخل المحمية. فتستعرض في البداية الأسباب التي دفعت لقبول المستوطنة وتحصرها في أربعة: أولها: إن هناك شروطاً معينة ومحددة كانت لا تعترض على إقامة مستوطنة يهودية في الأجزاء النائية من المحمية. ومن هذه الأسباب الأكثر أهمية، هو الرحيل السريع لمسئولي السكك الحديدية ومقاوليها من شرق أفريقيا. ثانيها: لم تكن هناك موازنة مادية تؤخذ في اعتبارها تتفق المستوطنين البيض البطى، مما هدد البلاد بركود تجاري خطير في لحظة غير مناسبة على الإطلاق. ثالثها: إن مقترحات مؤسسة شرق أفريقيا East Africa Syndicate بدت تتراجع خلال تلك الفترة، حيث كان المال قليلاً لتنظيم أي مخطط للهجرة تحت إشراف الحكومة. رابعها: بدا من الحكمة عدم إهمال أي وسيلة لجذب السكان ورأس المال إلى البلاد. ثم تلت الرسالة لتستعرض التغييرات التي حدثت في المحمية، فتشير بأن الظروف السابقة قد تغيرت الآن، ثم تجمل أسباب هذا التغيير في سبعة: أولها: إن المستوطنين بدعوا يتدفقون إليها من جنوب أفريقيا. ثانيها: إن مؤسسة شرق أفريقيا تلقت منحة قدرها ٥٠٠ كيلومتر مربع. وبالتالي لم تعد المشكلة لديهم في العثور على متقدمين للأرض، بل العثور على أرض للمتقدمين. وبالتالي لم يعد بالإمكان القبول بتوصية الخارجية بإنشاء مستعمرة يهودية في هذه المحمية، أو حتى على هضبة جواس نيجوشو. ثالثها: إنه لا توجد كراهية لليهود، لكنه يعترض على وجود جالية يهودية معزولة. فالخبرة الطويلة في أفريقيا الشرقية وفي أوروبا، أقنعت أنه ليس من السياسة السماح بمستوطنة يهودية متميزة بين المسيحيين. فمثل هذا الترتيب سيؤدي حتماً إلى صراعات عرقية، وسيكون من المؤسف تجاهل هذا التغيير وتلك الحقيقة. رابعها: أنه



سينتج عن الهجرة اليهودية إقامة مستعمرة يهودية من شأنها أن تكون على اتصال من ثلاث جهات بالأوروبيين الذين قدموا تعبيراً عن اعتراضاتهم على المخطط بالكامل. وأن وضع المستوطنة داخل المحمية، سيعنى إعادة إنتاج نفس الظروف، ودعوة نفس النتائج الموجودة في غرب روسيا. خامسها: إن الإدارة البريطانية إذا قامت بتشجيع الهجرة الأوروبية لهذه المحمية وتحفيزها، فستكون الاستجابة وافرة بشكل غير متوقع وسريع. سادسها، أن المتحفظين على المشروع يرونه غير مناسب. وإذا ظلت الإدارة ملتزمة بالوعود التي قدمتها للصهاينة، عليها أن تترك بأن الظروف الحالية لتنفيذ الترتيب المقترح ستؤدي إلى متاعب جمة لليهود أنفسهم، وأنه ليس في مصلحتهم الإصرار على ذلك. سابعها: إن المسؤولين البريطانيين عليهم واجب النظر في المسألة من وجهة المصالح البريطانية؛ والبحث عن مخرج لوجهة النظر اليهودية. وأنه لا يتصور إمكانية وجود مستعمرة صهيونية تظل تحت الحماية، تحقق آمال إسرائيل وتطلعاتها في شرق أفريقيا وليس في فلسطين. فهناك صعوبة في استيراد الدببة الصغيرة، نسبة لعدد السكان اليهود المبعثرين في أوروبا الشرقية، لإنجاح التجربة في شرق أفريقيا، فهي بالكاد ستخفف من الصعوبات الحالية^(١٢).

ويبدو إن التوظيف الديني للمسألة كانت المحمية في حاجة إليه، للتوضيح للإدارة البريطانية بأن المعارضة للمستوطنة اليهودية تأتي من شتى الجهات. وفي هذا الإطار، أرسل إليوت، مكتب المفوض بمومباسا، لوزير الخارجية لاسدون في ٢٤ مارس ١٩٠٤ (وصلت في ٢٥ أبريل)، يعيد الآراء التي طرحها أسقف مومباسا بشأن المستعمرة اليهودية في فترة سابقة، بل ويكرر آراءه هو بعدم اعتراضه على وجود مستوطنة معزولة من اليهود، وأن المشاكل ستتفقم بحكم أن العزل مستحيل عملياً. ثم راح يكرر مطالبته بإسقاط المشروع برمته، بدلا من أن يبدو كارتياً بالنسبة لليهود والمسيحيين على حد سواء. والأكثر من هذا أنه طالب بنشر رأيه في أي كتاب أزرق يتم نشره^(١٣). وعلى هذا بدا واضحاً أن الإدارة قد سمعت لآراء كثيرة ومتعددة معارضة للمشروع. ولعل قيام مفوض مومباسا بإعادة إرسال بيان أسقف مومباسا كمرفق لرسالته، والذي تعرضنا له في نهاية المحور السابق، يؤكد على أن



هناك مشاكل دينية واجتماعية واقتصادية ومكانية وتنموية سببها المشروع للمدنيين المسيحيين والمستوطنين البيض والسكان الأصليين. وأن النصيحة الرئيسية التي ختم بها وهي منع وجود اليهود أو تمددهم على أي من مرتفعات المحمية، هو الخلاصة التي يريد الحاكم البريطاني للمحمية توصيلها على لسان أسقف مومباسا^(٦٤). ونخلص من ذلك بأن اليهود كانوا منشغلين بتفاصيل المكان على الورق والخرائط وتشكيل لجنة للتعرف على هذا المكان، في حين علت أصوات الرفض والاحتجاج داخل المحمية ضدهم، وضد مستوطناتهم المقترحة في محمية شرق افريقيا.

سادساً- نهاية المشروع سنة ١٩٠٥:-

مما سبق نتعرف على أن المحمية بشتى تصنيفاتها الأوروبية، مستوطنين ورجال دين وحكام وتقابات، استطاعت أن توصل آراءها المعارضة للمسؤولين البريطانيين في لندن. فالمواقف المتباينة عبر الرسائل السابقة التي تعرضنا لها، تدلل على أن المشرع قد أصبح في طريقه للنهاية. وأن استمرار تعاطي الخارجية البريطانية مع اليهود لا يدل على استعدادها للدخول في صدام مع بني جلدتها من الأوروبيين. وربما يكون هذا التماهي معهم لاقتناعها بأن اليهود هم الذين سيسقطوا المشروع بأنفسهم، ولا يحتاجون لمن يخبرهم بأن المشروع قد سقط بالفعل. فرسالة جرينبرج لوزير الخارجية لانسدون في ٢٠ سبتمبر ١٩٠٤، والتي تشير إلى انعقاد المؤتمر الصهيوني لأول مرة بعد وفاة الدكتور هرتزل، وانعقاد اللجنة التنفيذية اليهودية في فيينا، لم نتعرف منها على شيء جديد اللهم إلا قرار المؤتمر بالإجماع بضرورة إرسال لجنة لشرق أفريقيا البريطانية، لدراسة الأراضي المقترحة لإقامة مستوطنة يهودية. وأنها ستبدأ في زيارتها شهر أكتوبر ١٩٠٤، على أن تقدم تقريرها في بداية عام ١٩٠٥. وأن الحركة الصهيونية تحتاج لبعض المعلومات من الحكومة البريطانية بشأن الأراضي وغيرها، للتواصل مع المستوطنة المقترحة، لتتعرف على أي مقترح تريد الحكومة تنفيذه^(٦٥). خلاصة الأمر: إن اليهود كانوا غائبين تمامًا عما يحدث من تفاعلات داخل المحمية، وأنهم لا يزالون في طور تشكيل اللجنة والتعرف على المكان.



وطالما أن اليهود مغيبون عن المسألة، فإننا بطبيعة الحال نستشف من رسالة وزارة الخارجية لجرينبرج، في ٣ أكتوبر ١٩٠٤، والتي تشير لتصريح إيرل بيرسي Earl Percy، بأن اللجنة المكلفة بدراسة الظروف الممكنة لإقامة مستوطنة يهودية في شرق أفريقيا، ستبدأ أعمالها من مومباسا هذا الشهر، حث تشرح لنا ظروف تأخيرها، وبأن هذا التأخير سيتم توظيفه ضد اليهود. وتشير بأن تأخر اللجنة لفترة طويلة منذ تقديم العرض لأول مرة، وتكرار الحديث على إيفاد البعثة، باعتبارها الأساس لتوفير مداوات اللجنة التنفيذية للمؤتمر الصهيوني، ومن دونها لا يمكن التوصل لترتيب مرضي، هو الذي استهلك الوقت الكبير منذ تقديم العرض وحتى الإعلان عن تشكيلها. حيث أكدت الخارجية على أن هذا التأخير قد تسبب في تنفق أعداد كبيرة من المستوطنين البيض بالفعل، فحصلوا على مساحات واسعة من الأراضي في محمية شرق أفريقيا، باعتبارها مناسبة للاستعمار الأوروبي. وأن هناك تيار من الهجرة لا يمكن التقليل منه، بما يجعل هناك صعوبة كبيرة لحجز مساحة من البلاد بحجم كاف يتناسب مع متطلبات المستوطنة اليهودية. ونفهم من هذا الخطاب بأن كل هذه المقدمات ما هي إلا استهلال لتوصيل جرينبرج للنتيجة التي يريدونها. حيث تشير بأن العرض المقدم في يوليو من العام الماضي لا يمكن أن يظل مفتوحاً إلى أجل غير مسمى. بل قطعت الحكومة بعدم وجود مقترحات تقدمها فيما يختص بجمع المعلومات المطلوبة من قبل اللجنة اليهودية الزاهية لشرق أفريقيا، بغرض تمكينها من النظر في شروط المستوطنة التي سيتم اختيارها. فيفترض عقب وصولها أن تتواصل من نفسها مع المفوض البريطاني هناك. ومع أن الرسالة تقطع بسحب بريطانيا يدها من المشروع، إلا أنها تطالب جرينبرج بتوصيل الإشارات الأولى لتكوين اللجنة لهم، وإبلاغهم بالتاريخ الفعلي لمغادرتها من إنجلترا لمومباسا^(٦٦). وفي هذا الإطار تابعت وزارة الخارجية مع جرينبرج كما حدث في ٥ يوليو ١٩٠٤، أمر اللجنة وأخبارها. واستفسرت عن وصول تقريرها للكنتور هرتزل، ومدى ملائمة منطقة جبل اليجون للمستوطنة اليهودية المقترحة^(٦٧). نفس الأمر تكرر في ١٢ أغسطس ١٩٠٤. حيث استفسرت من



جرينبرج عن الخطاب المنشور في جريدة المانشستر جارديان في ٢٧ يوليو تحت عنوان "الصهاينة وشرق أفريقيا، والذي ذكر أنه لا توجد أي لجنة رسمية قد تم إرسالها لشرق أفريقيا نيابة عن الصهاينة، على الرغم من إبحار عدد قليل من الشخصيات غير الرسمية لتلك الوجهة". في هذا الخطاب رغبت الخارجية في التعرف على سلطة ما يسمى بالشخصيات غير الرسمية، وما هو الحزب وأرقام الحركة الصهيونية التي يمثلونها^(٦٨).

وما كان من جرينبرج إلا إن يرد على تلك الاستفسارات. ففي رسالته للخارجية في ١٣ أغسطس ١٩٠٤، يخبرها بأن التقرير الوارد في جريدة المانشستر جارديان تقريراً حقيقياً. حيث ذهب عدد من شخصيات من جنوب أفريقيا للمحمية من تلقاء أنفسهم، وأوصلوا للدكتور هرتزل انطباعاتهم. وأن ما جمعه من معلومات من هرتزل بأن هؤلاء لا يمثلون الحركة الصهيونية في أي معنى. لكنه انطلق بغير تأخير اللجنة الرئيسية التي أعلنوا عن إرسالها، وأن مرض الدكتور هرتزل ووفاته هو الذي تسبب في هذا التأخير. ويشير بأنه ذاهب لفينا استعداداً لترتيب إرسال اللجنة ووضع ترتيبات محددة لها. غير أن ختامه بأنه عند عودته سيطلب الخارجية بتحديد المقترح الذي يتعين القيام به^(٦٩)، يشير بأن الخطوات اليهودية كانت بطيئة للغاية، ولا تتناسب مع التفاعلات الجارية في المحمية.

ولعل رسالة الخارجية لجرينبرج، في ١٩ أغسطس ١٩٠٤، والتي تشير فيها بأنها فهمت بأن هناك إجماعاً يهودياً حول المشروع، من خلال رسالة ١٤ أغسطس ١٩٠٤ قبل عقد المؤتمر الصهيوني في زيورخ، تشي بأن الإدارة البريطانية تشك في هذا الإجماع. بل إن ختامها بإرجاء أي بيان آخر انتظاراً للاستماع لوجهة نظره^(٧٠)، يدل على رغبتهم في استئنيان موقف اليهود. وربما كانت رسالتها لجرينبرج، في ٥ نوفمبر ١٩٠٤، ومطالبتها بإبلاغها بموعد مغادرة اللجنة الصهيونية لشرق أفريقيا وتكوينها^(٧١)، يصب في هذا الاتجاه. واستفسارها منه في ١٤ نوفمبر ١٩٠٤، عن عدم ورود أي رد على استفساراتها بشأن تشكيل اللجنة الصهيونية، وتاريخ رحيلها لشرق أفريقيا، وأن



الوزارة فهمت بأن اللجنة لم تبدأ بعد، ينقلنا للنتيجة التي تريد توصيلها. فختامها بأن ستة عشر شهرًا قد انقضت حتى الآن، منذ تولي المسألة الأولى، أي منذ يوليو ١٩٠٣، ولا تزال اللجنة تحت المناقشة، وأنه نظرًا للتأخير الذي حدث، وتغير الموقف في شرق أفريقيا، والتدفق السريع للمستوطنين، يأسف اللورد لانسدون بأنه لا يمكنه الالتزام بالوعد الذي قطعه على نفسه بمنع الاقتراب من مساحة الأراضي الواسعة التي كانت في البداية محفوظة مؤقتًا للمستوطنة اليهودية^(٧٢). هنا تحديدًا وصلنا للنقطة الفاصلة في الموضوع، بأن الإدارة البريطانية نجحت في توصيل اليهود للاقتناع بأنهم هم السبب في التخلي عن المشروع. وأنهم يضيعون الوقت سدى في تشكيل اللجنة وزيارتها. وظهر بأن بريطانيا هي التي بادرت بإعلان الموقف من المشروع. ومع ذلك استمر النقاش والمراسلات حوله. ورسالة ستوارت Stewart، مكتب المفوض بمومباسا للمركز لانسدون في ٢٩ أكتوبر ١٩٠٤ (وصلت في ٢١ نوفمبر) تقطع بأن طرفًا جديدًا قد دخل على الخط في رفض المشروع. حيث يحيل المفوض نسخة من الرسالة التي تلقاها من الأمين الفخري لجمعية المزارعين والفلاحين Planters and Farmers' Association تطالب " بأن تكون الأرض مفتوحة لعامة المستوطنين المسيحيين، وألا تكون محفوظة للجالية اليهودية " ^(٧٣). وهذا يعني رفض صريح للمستوطنين اليهود، ورغبة في الاستحواذ على تلك الأراضي التي حفظت لهم. وأن تكون محفوظة للمسيحيين فقط، وهذا نوع من العنصرية الدينية التي كشف عنها الخطاب ضد اليهود.

ومع أن اليهود في نفس توقيت تزايد المعارضة ضدهم وعدم معرفتهم بها، إلا إنهم كانوا منشغلين في أشياء أخرى تتعلق باللجنة. فرسالة جرينبرج لوزارة الخارجية في ٢١ نوفمبر ١٩٠٤، ليحيط الوزارة علما بأن لجنة دراسة الأراضي المقترحة لإقامة مستوطنة يهودية سوف تغادر يوم ٣٠ ، وستشروع مباشرة لمومباسا، ومن ثم إلى الإقليم، وأن الميجور هيل جيبونز سيكون مسؤولا عنها، وسيرافقه الدكتور كايزر Kaizer، وكان عضوًا في لجنة شفاينفورت Schweinfurth's



Comnission للحبشة، وعضوا في لجنة الدكتور شولر شرق أفريقيا، ومستشاراً علمياً لشركة شمال غرب الكاميرون، وأنه سيتم إرسال رجلين آخرين، ربما خبير طبي، وآخر سيعمل أميناً لها، وأن رئيسها يتوقع تقديم تقريرها في موعد لا يتجاوز منتصف مارس المقبل^(٧٤)، يقطع أن اليهود غير منتبهون لأصوات الاحتجاج الراضة لوجودهم. ويبدو أن وزارة الخارجية كانت تسابيرهم في هذا ألغى لترى آخر طريقهم. فرسالة الخارجية لجرينبرج، في ٢٤ نوفمبر ١٩٠٤، والتي تشير لمعرفتها بموعد بدء زيارة اللجنة الصهيونية لشرق أفريقيا، وأن تقريرها سيصدر في منتصف مارس ١٩٠٥، لم يجعلها تعترض على الوعود السابقة بأن اللجنة ستصدر تقريرها مع بداية ١٩٠٥. بل إن ختام الوزارة بأنها على استعداد لتأجيل البت في الأمر حتى انتهاء تلك الفترة، وعدم النظر في التطبيقات الأخرى للأرض المحفوظة للمستوطنة اليهودية مؤقتاً^(٧٥)، يقطع بأن الإدارة البريطانية تسابير اليهود في هذا الطريق رغم مخاطبتها إياهم من قبل بأنها في حل من وعدها بحفظ أراضي داخل المحمية مخصصة لهم.

وعلى مستوى المحمية، جذبت جمعية المزارعين والفلاحين اعتراضها على المستوطنة. فرسالة مكتب مومباسا في ٨ نوفمبر ١٩٠٤ (وصلت في ٢٩ نوفمبر)، والتي تحيل للخارجية رسالة أخرى من الجمعية، بصياغة الطول التي قررت لهم، وتطالب بتغيير مصطلح "مسيحي" إلى "الأبيض" عموماً^(٧٦)، يشير مرفقها المرسل من رئيسها جورج ويلسون في ١ نوفمبر ١٩٠٤ بأن اجتماعهم بمقر الجمعية المعقود في نفس اليوم، قد انتهى إلي أن الفكرة التي يجب أن تسود بالأ تكون الأرض محفوظة لأية هيئة خاصة، كاليهود الصهاينة، بل ينبغي أن تفتح لعامة الناس. وأن جمعيتهم تهدف لمصلحة المستوطنين البيض ككل وتطوير البلاد، وألا يكون هناك أي تمييز في العقيدة الدينية. واقتروا حذف كلمة "مسيحي" من رسالتهم السابقة، لتحل محلها كلمة "الأبيض" عموماً. فعبروا بأنهم سيكونوا سعداء إذا تغير نص الرسالة، " بأن تكون الأرض مفتوحة لعامة المستوطنين البيض، وألا تكون محفوظة للجالية اليهودية " ^(٧٧). وفي تقديري أن الخطأ في الرسالة السابقة قد كشف عن نيتهم



الحقيقية في رفض المستوطنة. أما محاولة التصحيح في هذا الرسالة لإظهار سماحتهم وعدم عنصريتهم تجاه اليهود. لكنها من ناحية تشير إلى الترحيب بهم كمستثمرين فرادى.

بطبيعة الحال، ظل اليهود على نفس طريقتهم في التعامل مع المشروع، بالاقصر على إرسال أخبار اللجنة الصهيونية لمسح الأراضي للخارجية البريطانية. ورسالة جرينبرج للخارجية في ٧ ديسمبر ١٩٠٤، وإشارته بأنه رتب مع الميجور جيبونز، المسئول عن اللجنة، إتاحة التقرير بعد التاريخ الذي ذكره سابقاً قدر الإمكان، مضيفاً اسمين جديدين لعضويتها، الدكتور ويلبوس Wilbusch، ومهندس مدني بارز، مطالباً بتقديم المساعدة لها ولأعضائها حتى تصبح المستوطنة المقترحة كائنة، خاتماً بتقديم الشكر للوزارة على الروح الرائعة التي أبدتها الحكومة البريطانية خلال العرض وبعده^(٧٨)، تدلل على أن اليهود استمروا طيلة ما يقارب السنتين يسيرون على نفس النهج دون أدنى تغيير.

وعلى نفس النهج، ظلت الإدارة البريطانية أيضاً تجاريهم. فرسالة الخارجية للسير ستوارت، مفوض نيروبي، في ١٥ ديسمبر ١٩٠٤، تقدم له الميجور هيل جيبونز، وبأنه على وشك الشروع في زيارة محمية شرق أفريقيا، وأنه المسئول عن اللجنة المسئولة عن دراسة الاقليم وتقديم تقرير عن أراضي شرق أفريقيا المقترحة لإنشاء مستوطنة يهودية، مطالباً إياه بتقديم المساعدة والتسهيلات للميجور والسادة أعضائها^(٧٩)، تقطع بأنها لم تغير من نهجها السابق قيد أنملة. ورسالتها لجرينبرج، في ١٥ ديسمبر ١٩٠٤، والتي تحيل فيها خطاب التوصية باللجنة وأعضائها للمفوض البريطاني في شؤون المحمية، وتهيبه بوجوب تقديم المساعدة والتسهيلات الممكنة لها قدر الإمكان^(٨٠)، تصب في نفس الاتجاه. ومن ناحية أخرى استمر اليهود أيضاً على طريقتهم، فرسالة جرينبرج لوزارة الخارجية في ١٦ ديسمبر ١٩٠٤، والتي يشكرها على دورها ويطالب بمذكرتها لمفوض شرق أفريقيا البريطانية، بشأن توفير التسهيلات للجنة، وبأنه سيعتني باطلاعها بانتظام على جميع الأخبار التي يحصل عليها من اللجنة^(٨١)، تثبت استمرارهم على نفس النمط. ومع أن الموضوع منتهي تقريباً في أذهان المسئولين



البريطانيين، وانسحبوا عن وعدهم مع تزايد حالات لرفض والاحتجاج ضده من مستوطني المحمية وكل فئات الأوربيين ورجال دينهم، إلا إن اليهود ظلوا منتظرين قرار اللجنة في مصير المستوطنة. وفي كل الأحوال، جاء تقرير اللجنة ليفيد بعدم صلاحية منطقة هضبة جواس نيجوشو التي عرضت كمستوطنة بأنها لا تصلح مكاناً مناسباً لحركة تهجير واسعة النطاق، وأنها تصلح للرعي أكثر منها للزراعة. وقدم التقرير إلى لجنة العمل المنبثقة عن المؤتمرات الصهيونية وطبع في لندن سنة ١٩٠٥ على أنه كتاب أزرق صهيوني باللغتين الإنجليزية والألمانية. وقد ارتاحت الحكومة البريطانية للنتيجة التي انتهي لها التقرير^(٨٢). وهو ما دعا المؤتمر الصهيوني السابع، المعقود في بازل في الفترة من ٢٧ يوليو وحتى ٢ أغسطس سنة ١٩٠٥، لأن يقرر بأغلبية ساحقة رفض مشروع الاستيطان في محمية شرق أفريقيا، ورفض كافة مشاريع توطين اليهود الأخرى، وأن تكون فلسطين هي وطن الشعب اليهودي، موجها الشكر للحكومة البريطانية على العرض^(٨٣).

وخلاصة القول: أربع نتائج مهمة: الأولى: إن المشروع قد ارتبط عرضه بظرف تاريخي معين، يتعلق ببريطانيا واليهود على السواء. فرفض المشروع اليهودي في سيناء، جعلهم يبحثون عن فرصة أخرى تقرب لهم أحلامهم، وتحفظ علاقتهم الودية مع بريطانيا. وبالنسبة لبريطانيا، فإن الأموال التي أنفقتها في مستعمرات النيل تريد أرباحاً واستثمارات ودخلاً لخزانتها. الثانية: إن الاشتراط البريطاني خلال العرض، بالألا تتصل المستوطنة اليهودية المقترحة في محمية شرق أفريقيا ببحيرة فيكتوريا أبداً، وإصرار اليهود على جود هذا الاتصال، يقطع بأنه كان مشروعاً سياسياً بريطانياً بالدرجة الأولى. فاليهود تحت قبضتهم وسيطرتهم، وبالتالي، كان توظيفهم في تلك المنطقة يصب في خدمة بريطانيا فقط، وليس في خدمة اليهود. فاليهود لم يرضوا بديلاً عن فلسطين، وكل المماطلات التي رأيناها منهم منذ ١٩٠٣ والى سنة ١٩٠٥ ما هي إلا تعبير عن حالة الانقسام حول الموضوع. الثالثة: خشية اليهود من التوظيف البريطاني لهم في مكان لم يكونوا على صلة أو



دراسة به، هو الذي يفسر هذا التردد من المشروع. بل بدا واضحاً أن مطالعتهم لكتابات بني جلدتهم، أمين باشا وفيتا حسان، لم تقدم شيئاً اللهم إلا في ربط هرتزل المشروع بأوغندا. وربما كان إرسالهم للجنة يهودية من جنوب أفريقيا لاكتشاف المنطقة، يدلل عن استمرار الوسواس تتابعهم. الرابعة: إن علاقة اليهود بمناجم النيل الاستوائية أسس لها البريطانيون، فلم تكن لهم أدنى علاقة، مؤسسية أو عقدية أو وجودية، بتلك المناجم قبل حديث البريطانيين عنها، وأن تقرب اليهود من الحدود الحبشية كان ورقة للضغط على إثيوبيا من ناحية، في حين شكل إعادهم عن حدود مباشرة معها ورقة أخرى ضمنت لبريطانيا علاقات جيدة مع النظام الإثيوبي. ومن ثم تركت المنطقة الحدودية بعيداً عن أيدي اليهود، بعد أن عرضت عليهم، من أجل مساومة إثيوبيا عليها، واقتسامها معها، كضمانة لانتهاؤ مناوشات الحدود، وحفاظاً على اشتراطات اتفاقية سنة ١٩٠٢.

الخاتمة :-

خلصت لدراسة إلى عدد من النتائج أهمها الآتي:

- أوضحت بأن التجربة التاريخية المصرية لعلاقة النيل بالنهضة، كانت تدرك أهمية نهر النيل فيها، في بعدها المادي والاقتصادي وحتى السياسي. ولهذا رتبت لتكون على مقربة من المناجم أو تسيطر عليها. وأن هذا الإدراك استبصره البريطانيون بمجرد أن وطئت أقدامهم أرض مصر واحتلوا. فولوا وجوههم شطر النيل للإفادة والاستغلال.
- قالت الدراسة بأن توظيف ورقة النيل عبر التاريخ قد اقتصر على المناجم الإثيوبية فقط، وإن الورقة الاستوائية لم يبدأ توظيفها إلا مع نهاية القرن ١٩، وأن مصر حينما كانت قريبة من المناجم ومسيطرة عليها، أصبحت كل الأوراق في يدها، لكن حينما أبعدت عنها، باتت كل الأوراق يمكن توظيفها. ومن ثم، فإن خبرتها بالمناجم جعلها تتخلص من جهلها السابق بالمنطقة، ولا تلقى بالابتكارات التهديدات التي تأتيها. وعلى هذا، فإن ما يجري الآن في الورقتين الإثيوبية والاستوائية، يجرنا للحالة



التي كنا عليها في بداية القرن ١٩. وكأننا لم نختبر تلك المنابع ولم نعرفها. فالجهل المحيط بسد النهضة في الورقة الإثيوبية، وتجهيل الناس بإمكانية جلب المياه بوفرة من نهر الكونغو ، وتسطيح الناس عبر الورقة الاستوائية، يجعلنا ندرك بان سياسة الجهل والتجهيل لا تتوافق مع ما كانت عليه مصر حتى في القرن ١٩. فقد خبرنا تلك المنابع، وعلى دراية بكل دقائقها، وبالتالي لا يعقل أن نترك الناس تصدق الجهل وتؤمن به.

● أكدت الدراسة على أن مشروع توطين اليهود في منابع النيل جاء لاستغلال تلك المنابع لجلب دخل مادي واقتصادي للإدارة البريطانية، ثم للضغط على مصر المجاورة على الحدود الاستوائية لضمان خيراتها وأقطانها، ثم للضغط على إثيوبيا للالتزام باتفاقية ١٩٠٢ بشأن الحدود والمياه. فالمشروع اليهودي كان مشروعاً وقتياً طرحته الظروف ورتبت له. وحين تغيرت تلك الظروف على أرض الواقع، تخلت الإدارة البريطانية عنه قبل تخلي اليهود أنفسهم عنه. فداخل المحمية البريطانية، تزايدت وتيرة الاحتجاج ضد المشروع من شتى الأوربيين، مطالبين بنقله لمنطقة الحدود الإثيوبية تارة، وإلى الغرب من بحيرة رولف، على الحدود الرباعية بين إثيوبيا، والسودان المصري- الإنجليزي، وأوغندا، ومحمية شرق أفريقيا، أي في قلب منطقة التوتر. في حين راح اليهود يطالبون بمنفذ لدولتهم على بحيرة فيكتوريا، وأن تكون بجانب السكة الحديد.

● أوضحت الدراسة بأن عدم وضوح العرض داخل محمية شرق أفريقيا، ثم عرضه بأن يكون داخل المنطقة الممتدة من نيروبي إلى جرف ماو تارة، وشمال هضبة ناندي تارة ثانية، ثم للمنطقة الشمالية الشرقية من بارينجو تارة ثالثة، ثم هضبة جواس نيجوشو دون إيصالهم ببحيرة رولف تارة رابعة، ثم المنطقة جنوب خط الاستواء والممتدة من جرف اليجون شرقاً وجبل اليجون وجرف كابراس غرباً تارة خامسة، كل ذلك يشير إلى عدم وضوح في الرؤية البريطانية وفي الهدف الحقيقي من وراء هذا العرض. اللهم إلا توظيفاً جديداً لورقة النيل الاستوائية في الضغط على مصر وإثيوبيا



للإقرار لبريطانيا بما تريد. وعلى هذا لخصت الدراسة نهاية المشروع بأسباب ثلاثة: أولها، تتعلق بالمحمية، وتتعلق بتزايد أعداد المستوطنين من جنوب أفريقيا، وتملك مؤسسة شرق أفريقيا لـ ٥٠٠ كم وقيامها بتحفيز الأوروبيين للمجيء للاستيطان، وبتزايد عملية الرفض والاحتجاج من قبل جمعية لمزارعين والكنائس وغيرهم ضد المشروع. ثانيها، تتعلق بوزارة الخارجية، وتخليها على لسان وزير خارجيتها لانسدون، عن الوعد الذي قطعه على نفسها بحجز مساحة من المحمية لهم. وثالثه، تتعلق باليهود انفسهم، فقد كان التأخر في إرسال لجنة لمعاينة المنطقة، والانقسام الذي حدث بين اليهود حول المشروع، وقرار مؤتمر ١٩٠٥ برفض المشروع، أسبابا رئيسة في إنهائه.



هوامش الدراسة:-

- (١) رؤوف عباس:- إشكالية التخلف الحضاري عند شكيب إرسلان، مجلة مصر الحديثة، العدد الأول، مركز تاريخ مصر المعاصر، دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ص ٣٤٣، ٣٦٠. وانظر عبدالحמיד عبدالمنعم منكور:- المشروع الحضاري لمالك بن نبي ودور العقيدة فيه، ندوة الإسلام ومشروعات النهضة الحديثة، المؤتمر الدولي للفلسفة الإسلامية:- الإسلام ومشروعات النهضة الحديثة، ١-٢ أبريل ٢٠٠١، ص ٢٩٧.
- (٢) للمزيد انظر، رجب عبد الحليم: العلاقات السياسية بين مسلمي الزنلج ونصارى الحبشة في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٩٨. وكذا جوزيف رامز أمين:- العلاقات المصرية الإثيوبية تحليل لأبعادها المختلفة، دورية آفاق أفريقية العدد ٣٥. وسعيد عبدالفتاح عاشور: الحصار الاقتصادي على مصر زمن الحروب الصليبية، في بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت العربية، الإسكندرية، ١٩٧٧، ص ص متفرقات. وانظر، عطا محمد أحمد كنتول: التواصل الحضاري بين المسلمين والمسيحيين في إثيوبيا وانعكاساته على شمال وادي النيل، مجلة دراسات أفريقية، يونيو ٢٠٠٥، العدد ٣٣، ص ص ١٣٣-١٤١.
- (٣) على سبيل المثال، بعد أن تولى تيودور الثاني حكم إثيوبيا في ٧ فبراير ١٨٥٥ رغب في تحويل مياه النيل إلى مجرى آخر، ليتم له خراب مصر وإخضاعها. لكن انتهت المشكلة بزيارة سعيد للسودان سنة ١٨٥٦، ومنها ذهب لزيارة إثيوبيا وتقابل مع تيودور في عاصمته مجدالا. بل راحت بعد هذا التهديد تعمل على تحريض الرؤوس ضد إمبراطورهم، للمزيد انظر، انتوني سوريل عبدالسيد:- العلاقات المصرية الإثيوبية ١٨٥٥-١٩٣٥، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٢٣٤، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ص ٣٠، ٤٥، ٤٩، ٨٨، ٩٨، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٩.
- (٤) يونان لبيب رزق- موقف بريطانيا من العلاقات المائية المصرية السودانية، أعمال الموسم الثقافي السابع ٢٠٠٤-٢٠٠٥، النيل في التاريخ المصري المعاصر، دار الكتب المصرية، مركز تاريخ مصر المعاصر، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ١٢٦.
- * ولد أمين باشا، ادوارد شنتنيزر، في المانيا سنة ١٨٤٠، وهو يهودي، حسب حديث الرحالة ستانلي، وابن تاجر أصبح طبيباً للحجر الجيري في تركيا، ثم عين طبيباً بالمديرية الاستوائية. عينه غردون سنة ١٨٧٨ حاكماً عاماً لمديرية خط الاستواء واتفق معه فيما بعد على اخلائها قبل مقتله في الخرطوم. ومع ان كتاب نوبار سنة ١٨٨٦ بإخلائها، إلا إنه ظل هناك حتى سنة ١٨٨٩، وعاد الرجل في خدمة الحكومة الألمانية ليوطد نفوذها



- عند منابع وبقى هناك حتى قتل سنة ١٨٩٢. للمزيد انظر، جميل عبيد :- المديرية الاستوائية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٦٨، ص ص ١٢٦، ١٢٧. وكذا انظر، محمد صبري - الامبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر، مطبعة مصر ركة مساهمة مصرية، القاهرة، ١٩٤٨، ص ص ١٨٧، ١٨، ١٩٤-١٩٨.
- * فيتا حسان ١٨٥٨-١٨٩٣، هو تونسي يهودي كان والده يعمل مترجمًا في قنصلية سردينيا بتونس، بدا تعليمه بالإسكندرية، تم تعيينه صيدليا للمديرية، حيث ظل هناك عشر سنوات. فقد وصل لادو في يناير ١٨٨١ وبقى مع الدكتور أمين باشا حتى سنة ١٨٨٩. للمزيد انظر، محمد صبري:- المرجع السابق، ص ص ٦٩، ١٧٢-١٧٧. وكذا انظر ، جميل عبيد :- المرجع السابق، ص ١٦٠.
- (٥) محمد صبري - المرجع السابق، ص ص ٦٢-٦٦، ١٧٢-١٧٧، ١٨٣، ٢٥١-٢٥٦ .
- (٦) نفسه، ص ص ٢٥١-٢٥٦ .
- (٧) انتونى سوريال عبدالسيد:- المرجع السابق، ص ص ٢٢٠، ٢٢١، ٣٧-٢٤٠ .
- (٨) عبدالعظيم محمد سعودي:- المرجع السابق، ص ص ١٢٢، ١٢٥، ١٣٦-١٣٩ .
- (٩) نفسه، ص ص ٩، ١٠، ١٧ .
- (١٠) نفسه، ص ص ٧، ٨، ١٨-٣٠ .
- (١١) جميل عبيد :- المرجع السابق ، ص ص ١٠-١٢
- (١٢) انتونى سوريال عبدالسيد:- المرجع السابق، ص ٣٠ .
- (١٣) محمد عبدالرحمن الشرنوبى:- المكتشفون المصريون لمنابع النيل في القرن التاسع عشر، أعمال الموسم الثقافي. المرجع السابق، ص ٣٦.
- (١٤) جميل عبيد :- المرجع السابق ، ص ١٣ .
- (١٥) إلهام محمد ذهني:- السانسييمونيون ومشروع القناطر الخيرية ، أعمال الموسم الثقافي السابغ ٢٠٠٤-٢٠٠٥ . المرجع السابق ، ص ٢٧ .
- (١٦) محمد صبري - المرجع السابق ، ص ٢٨ .
- (١٧) فالحاق بحيرتي إلبيرت وفيكوتوريا وتامين المنابع لإثيوبية جاء عملا بنصيحة صمويل بيكر بأهمية السيطرة على المنابع، مخوفًا إياه بأن أية دولة تسيطر على الخرطوم، يمكنها أن تحول مجرى مياه الرهد والندندر والنيل الأزرق والعبيرة لتبعثر مياهها في الصحراوت، مما يؤدي الى الهلاك المحقق. وأنه لو استولى أوروبي على



- وسط السودان الثائر، فإن أول عملية حربية سيقوم بها، هو حرمان مصر من الماء اللازم لوجودها. ولو كان هو، أي صمويل بيكر، عدوا لمصر فإنه يعرف المكان الذي يبدأ منه الهجوم القاتل من نهر العظيرة، للمزيد انظر عبدالعظيم محمد سعودي:- المرجع السابق، ص ص ٥٨، ٦٢، ١١٩، وانظر، صورة لمكاتبة من الجنب العالي الى ناظر الداخلية، دفتر ٥٧٣ معية سنية تركي، بتاريخ ٣ فر ١٢٨٦ هـ الموافق ١٦ مايو ١٨٦٩، ملاحق جميل عبيد:- المرجع السابق، ص ٢١٧.
- (١٨) لطيفة محمد سالم :- النيل بين على مبارك وأمين سامي، اعمال الموسم الثقافي السابع ٢٠٠٤-٢٠٠٥ النيل في التاريخ المصري المعاصر، دار الكتب المصرية، مركز تاريخ مصر المعاصر، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ص ٩٩-١٠٦.
- (١٩) عبدالعظيم محمد سعودي:- المرجع السابق، ص ص ١١٧-١١٩
- (٢٠) حسن على الشريف:- اتفاقيات مياه النيل من منظور مقارن ١٩٢٩-١٩٥٩، أعمال ندوة "خمسون عاما" على اتفاقية مياه النيل بين مصر والسودان ١٩٥٩-٢٠٠٩، "ندوة مركز تاريخ مصر المعاصر ١٧ ديسمبر ٢٠٠٩، دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة، ٢٠١١، ص ص ٢٣-٢٥، وانظر أيضا محمد عبدالمؤمن محمد عبدالغنى:- إثيوبيا واتفاقيات مياه النيل ١٩٠-١٩٥٩، نفس أعمال الندوة السابقة، ص ص ٧٠-٧٣.
- (٢١) يونان لبيب رزق:- السودان في عهد الحكم الثنائي الاول ١٨٩٩-١٩٢٤، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٢٧٠ وما بعدها.
- (٢٢) Allen R.W.:- Irrigation in The Sudan , Journal of African Society (Jul.1924) ,P.258. ,Vol.23,No.92.
- (٢٣) تقرير عن المالية والإدارة والحالة العمومية في مصر والسودان سنة ١٩٠٦، رفعه كرومر قنصل إنجلترا ووكيلها السياسي في مصر إلى جناب السير إدوارد جراي ناظر خارجيتها، ترجم في إدارة المقطم، مطبعة المقطم، ١٩٠٧، ص ص ١٠٨، ٢٤، ٢١٥ .
- * ولد تيودور هرتزل في بودابست عاصمة المجر عام ١٨٦٠، وأنهى دراسته الثانوية ثم انتقلت أسرته إلى فيينا، حيث التحق بكلية الحقوق، وحصل منها على درجة الدكتوراه عام ١٨٨٤. وعمل بالمحاماة لمدة عام واحد ثم تحول إلى الصحافة، حيث عمل مراسلاً لأشهر الصحف النمساوية في باريس ما يزيد عن خمس سنوات (١٨٩١ . ١٨٩٦)، ثم عاد إلى فيينا عام ١٨٩٦ ليرأس القسم الأدبي في الجريدة نفسها، انظر، حسن صبري



الخولي:- سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين، المجلد الأول، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٣، ص ص ٥٦ - ٦٧.

(٢٤) Peter Ephross:- In quest for Jewish homeland, Herzl once considered Uganda,, San Francisco Jewish Community Publications Inc., dba Jewish Bulletin of Northern California, August 29,1997.

(٢٥) حسن صبري الخولي:- المرجع السابق ، ص ٩٧.

(٢٦) عبد الكريم الحسني: الصهيونية - الغرب والمقدس والسياسة، مؤسسة شمس للنشر والإعلام ، القاهرة؛ ٢٠١٠. ص ص متفرقات.

(٢٧) حسن صبري الخولي:- المرجع السابق ، ص ص ٩٧ - ١٠٢.

(٢٨) عبد الكريم الحسني: المرجع السابق. ص ص متفرقات.

(٢٩) Peter Ephross:- Op.Cit..

* يهود اليديشية، هم يهود بولندا الذين كانوا يتحدثون اليديشية (لغة ألمانية دخلت عليها كلمات سلافية وعبرية)، ثم ضمت روسيا قطاعات منهم حين ضمت أجزاء من بولندا في أواخر القرن الثامن عشر. وقد حدث بينهم انفجار سكاني فأصبحوا أكبر جماعة يهودية في العالم. انظر، عبدالوهاب المسيري:- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية

(٣٠) Peter Ephross:- Op.Cit. ، وكذلك انظر، عبدالوهاب المسيري:- موسوعة اليهود واليهودية <http://www.elmessiri.com/encyclopedia/JEWISH/ENCYCLOPID> والصهيونية،

(٣١) حسن صبري الخولي:- المرجع السابق، ص ص ٨٧ ٨٨.

* جريج هو صحفي يهودي كان يعمل محرراً في جريدة جوبش كرونيكز اللندنية ، وكان أداة الاتصال بين هرتزل وتشميرلين ولانسدون ورئيس الوزراء بلفور. وكان متشجعا لمشروع شرق افريقيا بشكل كبير مما جعل علاقته بحاييم وايزمان غير وديه، لكون الأخير يعارض الفكرة ولا يرى بديلا لفلسطين. انظر حسن صبري الخولي :- المرجع السابق، ص ٩٧.

* اطلق عليه مشروع لويد جورج وروبرتس، والأول صار فيما بعد رئيسا للوزارة، واعطى اليهود في عهده ما سمي بتصريح بلفور سنة ١٩١٧.



(٣٢) تولى اللورد لانسدون منصب وزارة الخارجية في أكتوبر ١٩٠٠، في حين ظل جوزيف تشمبرلين وزيراً للمستعمرات حتى قدم استقالته في سبتمبر ١٩٠٣، وفي نفس الوقت دخل نفس الوزارة أوستن تشمبرلين، انظر حسن صبرى الخولى :- المرجع السابق ، ص ص ٨٦، ٨٨، ٩٧.

* تشمبرلين هو وزير المستعمرات في الفترة من سنة ١٨٩٥ إلى سبتمبر ١٩٠٣. وهو رجل يمثل الأحرار، أما وزير الخارجية في ذلك الوقت، فكان آرثر بلفور، تولى في الفترة من يوليو ١٩٠٢ الى ديسمبر ١٩٠٥. وهذا يعني أن رسالة جرينبرج ارسلت للخارجية وحولت لوزير المستعمرات تشمبرلين للبيت في الأمر كونه مسئولاً عن شرق أفريقيا. جاء بعده الفريد لايتلتون كوزير للمستعمرات في الفترة من ١١ أكتوبر ١٩٠٣ حتى ٤ ديسمبر ١٩٠٥ وهو يمثل الأحرار أيضاً. في حين كانت حكومة المحافظين بقيادة روبرت سيسل، وظلت طوال الفترة من ٢٥ يونيو ١٨٩٥ إلى ١١ يوليو ١٩٠٢. إلى إن تولت حكومة المحافظين بقيادة آرثر جيمس بلفور في الفترة من ١١ يوليو ١٩٠٣ الى ٥ ديسمبر ١٩٠٥. وهذا يعني أن المشروع في عهد حكومة المحافظين جاء عبر الوعود والمتابعات من قبل ممثلين الأحرار داخل تلك الحكومة. وكل ذلك في عهد الملك إدوارد السابع.

<http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%>

(33) F.O.403/33٢, Part LXXIV, Further Correspondence Respecting East Africa, July to September, 1903, Jewish colonization scheme. Transmits form of agreement which Dr. Herzl would desire His Majesty's Government to consent to in view of Commission being sent out to East Africa. No. 19.Dr. Greenberg to Mr. Chamberlain.—{Communicated to Foreign Office, July 13.}82, Fordwych Road, Brondesbury, London, July 13, 1903,PP.20,21.

(34) F.O.403 /33٢, Enclosure in No. 19. JEWISH COLONIZATION SCHEME. Terms and Conditions of Concessions to be granted by His Majesty's Government to the Jewish Colonial Trust (" Juedische Colonial bank"), Limited, for the establishment of a Jewish Settlement in British East Africa.,PP.21-٢٣.



(٣٥) حيث يشير لمنحه مساحة واسعة من الأرض بالشراء، وأن المخطط كان إعطاءه ١٠٠٠,٠٠٠ فدان أو ٥ ميل مربع بنظام الإيجار لمدة تسعة وتسعين عاما، بإيجار سنوي يقدر بحوالي ٢٠٠ جنية، تصرف بعد خمس سنوات للبيع الكلي أو الجزئي، بسعر ٨ annas للفدان، على ان يدفع ٥ الاف جنية في البداية. بل يتفق معه في وجوب تشجيع رأس المال والمستوطنين، وأن تؤخذ مصلحة شرق أفريقيا. وأنه على استعداد لقبول مشروع التأجير المقدم، ومنح اللورد ديلامي، وفقا لشروط مرسوم الأراضي عقد إيجار بـ ١٠٠,٠٠٠ فدان، او يبيعه ١٠,٠٠٠ فدان على شروط مماثلة لتلك الواردة في قواعد شراء الأرض بتاريخ ٢١ ديسمبر الماضي، للمزيد انظر،

F.O.403 /33٢, No. 20*.The Marquess of Lansdowne to Sir C. Eliot.(No. 328.), Foreign Office, July 13, 1903.,P.2٣.

(36) F.O.403 /33٢, Jewish Settlement scheme. Observations on letter to Mr. Chamberlain. Transmits form of agreement which Dr. Herzl proposes should be entered into No. 95.Foreign Office to Dr. Greenberg., Foreign Office, August 14, 1903.,P.١٢١.

(37)F.O.403 /33٢, Jewish Settlement scheme. Understands from No. 95 that His Majesty's Government assent in principle to Dr. Herat's form of agreement. Whole matter will be laid before Zionist CongressNo. 99.Dr. Greenberg to the Marquess of Lansdowne.—(Received August 18.)82, Fordwych Road, Brondesbury, London, August 17, 1903..P.١٢3.

(38)Jewish Settlement scheme. Transmits No. 95.";and requests observations No. 102.Foreign Office to Home Office., Foreign Office, August 21, 1903,P.١٢5.

(39) F.O.403 /33٢, Settlers' Committee . Jewish Settlement scheme. Protest against, No. 129.Settlers' Committee to the Marquess of Lansdowne.—(Rtceived September2.)(Telegraphic.)Nairobi, September 2, 1903,P.١49.

(٤٠) عبد الكريم الحسني :المرجع السابق



(٤١) عبدالوهاب المسيري:- المرجع السابق

- (42) http://www.moqatel.com/openshare/Behoth/Siasia2/Harb48/sec04.doc_cvt.htm
- (43) F.O.403 /33٢, Jewish Settlement scheme. Conveys thanks of Zionist Congress. Executive Committee accept offer. General enthusiasm, No. 136.Dr. Greenberg to the Marquess of Lansdowne.—(Received September 9.)82, Fordwych Road, Brondesbury, London, September 4, 1903.,PP.155, 156
- (44) F.O.403 /33٢, Jewish Settlement scheme. Transmits Memoranda and No. 19 respecting. Requests observations ..No. 145.The Marquess of Lansdowne to Sir C. Eliot.(No. 459.), Foreign Office, September 11, 1903,P.165.
- (45) F.O.403 /33٢, No. ٤٧ The Marquess of Lansdowne to Sir (. Eliot.(No. 460.), Foreign Office, September 14, 1٩03,P.165.
- (46) F.O.403 /33٢, Jewish Settlement scheme. Transmits No. 129. Whom way senders of telegram be taken to represent ?.. No. 14 The Marquess of Lansdowne to Sir Eliot.(No. 460.), Foreign Office, September 14, 1٩03,P.165.
- (47) F.O.403 /33٢, Jewish Settlement scheme. Transmits letter from Bishop of Mombasa respecting. Protests from Lord Delamere aim Settlers' Association at Nairobi. Urges that Settlement should be at some distance from railway. No. 180.Sir C. Eliot to the Marquess of Lunsdoune.—(Received September 30.)(So. 430.), Commissioner's Office, Mombasa, September 10, 1903,P.٢٠٦.
- (48) F.O.403 /33٢, Inclosure in No. 180. The Bishop of Mombasa to Sir Charles Eliot, Bishops Court, Mombasa, September 8, 1903,PP.٢٠٦,207.
- (49) F.O.403 /333, Part LXXV, Further Correspondence Respecting East Africa, October to December, 1903, Jewish Settlement in East Africa. No. 39.The Marquess of Lansdowne to Sir C. Eliot.(No. 505.), Foreign Office, October 15, 1903, P.31.



- (50) F.O.403-333, Jewish Settlement in the East Africa Protectorate ,No. 128.Foreign Office to Treasury. Foreign Office, November 4, 1903
- (51) F.O.403 /333, Jewish Settlement in East Africa Protectorate No. 152.Treasury to Foreign Office—(Received November 16.), Treasury Chambers, November 11, 1903, P.٢٢٠
- * تبين خريطة شرق أفريقيا. أن هضبة جوس نجيشو تغطي المنطقة (الآن في كينيا) بين جبل إيلجون وبحيرة بارينجو وميناء فلورنس Port Florenc (الآن كيسومو) وتبعد حدودها الجنوبية عن خط السكة الحديد ٥ ميل وتطل حوها الجنوبية الغربية على بحيرة فيكتوريا، انظر ، Marie Kruger:- Women's Literature in Kenya and Uganda: The Trouble with Modernity, Palgrave. New York,2014, W.O. map 1429(d)'. Signed: Major E H Gorges, Uganda وكذا انظر PP. 107-109. Rifles. Originally illustrating Appendix A to Uganda Protectorate Intelligence .Report number 4
- (52) F.O.403 /333, Jewish Settlement in East Africa Protectorate No. 182.Sir C. Eliot to the Marquess of Lansdowne.—(Received November 26.)(No. 521., Mombasa, November 4, 1903, P.٢٧٠,271.
- (53) F.O.403 /333, Jewish Settlement No. 189.Colonial Office to Foreign Office.— (Received November 28.), Downing Street, November 27, 1903., P. ٢٧5 .
- (54) F.O.403 /333, Jewish Settlement No. 196.Foreign Office to Colonial Office., Foreign Office, December 3, 1903., P. ٣٠٣.
- (55) F.O.403 /3٤٠, Part LXXVI., Further Correspondence Respecting East Africa, January and February1904, Jewish Settlement in East Africa , Transmits No. 182, Part LXXV, and informs of interview with Dr. Greenberg. Asks for views as to proposed scheme, No. ٢٦ Foreign Office to Colonial Office. , Foreign Office, January 12, 1904.PP.7٢,7٣.



- (56) F.O.403 /3٤٠, Jewish Settlement in East Africa, Views as to proposed scheme, No. 3٦ Colonial Office to foreign Office.—(Received January 20), Downing Street, January 19, 1٩04.PP.78,79.
- (57) F.O.403 /3٤٠, Jewish settlement scheme, Substance of interview with Dr. Greenberg. Commission to start for East Africa, No 41. Memorandum by Mr. Hurst respecting the Jewish Colonization Scheme in East. Africa, January 25, 1904..PP.٨٢,٨٣.
- (85) F.O.403 /3٤٠, Jewish settlement in East Africa Protectorate , Informs of interview with Dr. Green berg, No. 65.The Marquess of Lansdowne to Sir C. Eliot.(No. 74.), Foreign Office, February 8, 1904..PP.٩٩,100.
- (59) F.O.403 /3٤٠, Jewish settlement in East Africa, Thanks for offer made; territory appears suitable. Commission, of which details will be sent, will start for East Africa, No. 71.Mr. Greniberg to Foreign Office, February ٩, 1904..PP.103,104
- (60) F.O.403 /3٤٠, Jewish Settlement in East Africa, Cannot now recommend, in view of present influx of white settlers, No. 72. Sir C. Eliot to the Marquess of Lansdowne.— (Received February 11.)(No. 45.)(Telegraphic.) P. • Mombasa, February 11, 1904..P.104.
- (61) F F.O.403 /3٤١, Part LXXVII., Further Correspondence Respecting East Africa, March and April 1904, Jewish Settlement in East Africa. Does not propose to discuss special form of lease before receipt of expert's report. Refers to , No. 58, No. 72 A. Foreign Office to Mr., Greenberg., Foreign Office, April 6, 1904..P.83.
- (62) F.O.403 /3٤١, Jewish Settlement in East Africa Protectorate. Raise objections against. Urges reconsideration of question. Refers to No. 72 A, No. 123.Sir C.



- Eliot to the Marquess of Lansdowne.—(Received April 25.)(No. 178.),
Commissioner's Office, Mombasa, March 21, 1904..P.133,134.
- (63) F.O.403 /3٤١, Jewish Settlement in East Africa Protectorate. Transmits letter
from Bishop of Mombasa respecting proposal. Refers to No. 123, No. 124. Sir
C. Eliot to the Marquess of Lansdoivne.—(Received April 25.)(No. 179.),
Commissioner's Office, Mombasa, March 24, 1904..P.134.
- (64) F.O.403 /3٤١, Inclosure in No. 124.Statement by the Bishop of Mombasa, No.
124. Sir C. Eliot to the Marquess of Lansdoivne.—(Received April 25.)(No.
179.), Commissioner's Office, Mombasa, March 24, 1904..P.134, 135.
- (65) F.O.403 /3٤٤, Part LXXX., Further Correspondence Respecting East Africa,
September and October 1904, Jewish settlement in East Africa. Commission will
be sent out as soon as possible. Refers to No. 84, Part LXXIX ;No. 27.Mr.
Greenberg to the Marquess of Lansdowne.—(Received September 20.)82,
Fordwych Road, Brondesbury, N.W.,, September 20, 1904.P.40.
- (66) F.O.403 /3٤٤, Jewish settlement in East Africa. Remarks on long delay in
sending out Commission. Informs of large influx of while settlers into
'Protectorate. Refers to No. 27. No. 46.Foreign Office to Mr. Greenberg.,
Foreign Office, October 3, 1904.PP.73,75.
- (٦٧)
- (67) F.O.403 /3٤3, Part LXXIX., Further Correspondence Respecting East Africa,
July and August 1904, Jewish settlement m East Africa. Asks when report, of
Commission is expected. Refers to , No. 07, Part 1AXVII, No. 5.Foreign Office
to Mr. Greenberg., Foreign Office, July 5, 1904..P.2.
- (68) F.O.403 /3٤3, Jewish settlement in East Africa. Requests information as to
persons representing Zionists, who have left for Africa. Refers to No. 5 , No.



- 73.Foreign Office to Mr. Greenberg. Greenberg, Foreign Office, August 12, 1904..P.١١٥.
- (69) F.O.403 /3٤3 Jewish settlement in East Africa. Gives information requested in No. 78 , No. ٨4. Mr. (Greenberg to Foreign Office.—(Received August 15.)82, Fordwuch Road, Brondesbury, London,, August 13, 1904..P.١٣٢.
- (70) F.O.403 /3٤3, Jewish Colony in East Africa. Original offer was made under impression that Zionists were unanimous. Will defer further statement of views until hearing from him again. Refers to No. 84, No 97.Foreign Office to Mr. Greenberg., Foreign Office, August. 1'), 1904.P.١٤١.
- (71) F.O.403 /3٤5, Part LXXX1., Further Correspondence Respecting East Africa, November and December 1904, Jewish settlement in East Africa, Asks when Commission left and what was its composition, No. 12.Foreign Office to Mr. Greenberg., Foreign Office, November 5, 1904.P.8.
- (72) F.O.403 /3٤5, Jewish settlement in East Africa. Has received no answer to No. 12. Understands Commission has not yet started. Cannot reserve lands any longer, No. 28.Foreign Office to Mr. L. J. Greenberg., Foreign Office, November 14, 1904, 1904.P.24.
- (73) F.O.403 /3٤5,Jewish settlement in East Africa Protectorate, Transmits letter from Planters' and Farmers' Association, requesting that land may be no longer reserved, No. 41.Sir D. Stewart to the Marquess of Lansdowne.- (Received November 21.)(No. 682.), Commissioner's Office, Mombasa, October 29, 1904.P.49.

(٧٤)



- (74) F.O.403 /3٤5, Jewish settlement in East Africa Protectorate, Informs of constitution and departure of Commission , No. 45.Mr. Greenberg to Foreign Office.—(Received November 22.) 82, Fordwych Road, Brondesbury, London,, November 21, 1904.P.51, 52.
- (75) F.O.403 /3٤5, Jewish settlement in East Africa Protectorate, In view of Commission proceeding at once will still reserve land , No. 54.Foreign Office to Mr. Greenberg., Foreign Office, November 24, 1904, P.54.
- (76) F.O.403 /3٤5, Jewish settlement in East Africa Protectorate. Planters' and Farmers' Association I desire amendment of Resolution transmitted in No. 41. No. 63.Sir D. Stewart to the Marquess of Lansdoivne.—(Received November 29.)(No. 702.), Commissioner's Office, Mombasa, November 8, 1904., P.70.
- (77) F.O.403 /3٤5, Inclosure in No. 63.Mr. W. Wilson to Sir D. Stewart, Nairobi, November 1, 1904. No. 63.Sir D. Stewart to the Marquess of Lansdoivne.— (Received November 29.)(No. 702.), Commissioner's Office, Mombasa, November 8, 1904., P.70.
- (78) F.O.403 /3٤5, Jewish settlement in East Africa. Thanks for No. 54. Informs of additional members of Commission. Major Gibbous will be in charge. Asks for facilities for..., No. 82.Mr. L. J. Greenberg to Foreign Office.—(Received December 9.)82, Fordwych Road, Brondesbury, London,, December 7, 1904., P.90.
- (79) F.O.403 /3٤5, Jewish settlement in East Africa, To give Major Gibbons, who is in charge of Commission, full facilities, No. 91.Foreign Office to Sir D. Stewart., Foreign Office, December 15, 1904., P.94.

- (80) F.O.403 /3٤5, Jewish settlement in East Africa, Transmits No. 91, introducing Major Gibbons to Sir D. Stewart, No. 92. Foreign Office to Mr. L. .1 Greenberg,, Foreign Office, December 15, 1904, P.94.
- (81) F.O.403 /3٤5, Jewish settlement in East. Africa. Thanks for No. 92. Will send information as to progress of Commission, No. 95. Mr. L. J. Greenberg to Foreign Office.—[Received December 17.] 82, Fordivych Road, Brondesbury, London,, December 1G, 1904, P.100.

(٨٢) حسن صبرى الخولى المرجع السابق ، ص ١٠٠.

(٨٣) عبد الكريم الحسني:- المرجع السابق. ص ص متفرقات. وكذلك انظر ، عبدالوهاب المسيرى:- المرجع السابق.

الموقف الأمريكي من الحركة الوطنية الجزائرية

ضد الاحتلال الفرنسي (١٩٥٤-١٩٦٢)

د. هدى محمود نايل

أستاذ مساعد بالأكاديمية الحديثة

ملخص البحث:

كان الموقف الأمريكي من الحركة الوطنية الجزائرية ملفتاً من عدة نواح؛ فقد جاء الموقف في توقيت صعدت فيه واشنطن من موقفها الحاسم تجاه فرنسا وبريطانيا وسياساتهما في أفريقيا مثل العدوان الثلاثي ضد مصر ومقدماته؛ كما جاء الموقف في وقت تمكنت فيه الحركة الوطنية في الجزائر من دعم مواقفها والحصول على دعم سياسي ولوجيستي ملموس من دول عدم الانحياز، وفي ظل حراك سياسي فرنسي مهم قاد إلى تدشين ما عرفت بالجمهورية الخامسة في العام ١٩٥٨ في محاولة لإنقاذ ما تبقى من الإمبراطورية الفرنسية في أفريقيا وآسيا.

ويمكن النظر للسياسة الأمريكية في شمال أفريقيا بشكل عام وفي الجزائر بشكل خاص خلال الخمسينيات على أنها استكمال لسياسة الولايات المتحدة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية خاصة بعد تحجيم الغزو الأمريكي الذي تلا هزيمة فرنسا في الحرب على يد ألمانيا في العام ١٩٤٠ من طبيعة الاحتلال الفرنسي في شمال أفريقيا وشجع بشكل غير مباشر على نمو حركات المقاومة للاستعمار الفرنسي في دول هذه المنطقة. وتوصل الأمريكيون بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية إلى أن الحفاظ على الهيمنة الفرنسية على المنطقة هي الطريقة المثلى لضمان أمن شمال أفريقيا، لكن واشنطن ضغطت باستمرار على باريس للقيام بإصلاحات، واقترحت واشنطن في العام ١٩٤٧ وضع الدومينون لكل من المغرب وتونس. وفي واقع الحال، فإن جميع جهود الإصلاح الفرنسية في تونس والمغرب حتى العام ١٩٥٤ جاءت بضغوط أمريكية مباشرة.

Abstract

The United States of America position towards the Algerian national movement was a remarkable one in regard of several aspects. First, it was surprising to be a positive one meanwhile US was reconsidering its policies towards the old colonial powers in Africa, notably France and Britain. Second, the American position was accompanied by a successful outreach of the Algerian national movement to several regional and international supporters, notably Egypt and the Non-aligned organization's members. Third, the American position was coincided with a remarkable French decline and facing several internal challenges that led ultimately to the formation of 5th French Republic.

Generally, the American policy in North Africa during the 1950s, and in Algeria specifically, was a clear resumption of the American post-war strategy to reconstruct the western security and political system in Europe and its adjacent regions. And it was very clear that the American factor was present in the wide arrange of changes across Algeria and the rest of North Africa region towards the end of the 1950s. and the beginning of 1960s.

المقدمة:

كان الموقف الأمريكي من الحركة الوطنية الجزائرية ملفتاً من عدة نواح؛ فقد جاء الموقف في توقيت صعّدت فيه واشنطن من موقفها الحاسم تجاه فرنسا وبريطانيا وسياساتهما في أفريقيا مثل العدوان الثلاثي ضد مصر ومقدماته؛ كما جاء الموقف في وقت تمكنت فيه الحركة الوطنية في الجزائر من دعم مواقفها والحصول على دعم سياسي ولوجيستي ملموس من دول عدم الانحياز، وفي ظل حراك سياسي فرنسي مهم قاد إلى تدشين ما عرفت بالجمهورية الخامسة في العام ١٩٥٨ في محاولة لإتقاذ ما تبقى من الإمبراطورية الفرنسية في أفريقيا وآسيا.

تطور الحركة الوطنية الجزائرية في النصف الأول من القرن العشرين:

بالرغم من نشوء الحركة الوطنية في الجزائر منذ بدء الاحتلال الفرنسي لها في العام ١٨٣٠، إلا إنه لم تكن هناك حركة سياسية واضحة المعالم في الجزائر قبل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، باستثناء ما عرف بلجنة الدفاع عن مصالح المسلمين التي تأسست في العام ١٩٠٨، وناجيت بالمساواة بين الجزائريين والفرنسيين فيما يتعلق بالتمثيل النيابي وسداد الضرائب^(١).

وولجت الحركة الوطنية الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي قبل الحرب العالمية الأولى في سياق داخلي تميز أساساً بزيادة النمو السكاني للجزائريين الذين كانوا خاضعين أكثر من أي وقت مضى للهيمنة الفرنسية ويقعون تحت وطأة الفقر المدقع والجهل في بلدهم المحتل، وقد كانت شكاوى الجزائريين الدائمة تتلخص في عدم وجود مدارس ولا تدريب تقني ولا تعليم للغة العربية ولا عناية صحية لائقة^(٢).

ومع نهاية الحرب العالمية الأولى في العام ١٩١٨ تعقد وضع الجزائريين الخاضعين للاستعمار منذ نحو قرن حينذاك أثر الأزمة الاقتصادية الناجمة عن هذا

^١ فيليب ميللي: فرنسا ومشكلاتها في القرن التاسع عشر، الجزائر، ١٩١٣، ص ص ٧٣٩-٧٤٠.

^٢ مؤمن العمري: الحركة الوطنية الثورية في الجزائر من نجم شمال أفريقيا إلى جبهة التحرير الوطني، دار الطليعة للنشر والتوزيع، قسنطينة، ٢٠٠٣، ص ١٢١.



النزاع، وتميزت بانتشار الجوع في أوساط السكان المسلمين، وتم منح الأهالي المسلمين وضع "فرد فرنسي" محروم من أدنى الحقوق والحريات التي يضمنها الدستور الفرنسي للمواطنين الفرنسيين. وتجسدت هذه الوضعية من الناحية القانونية بقانون "الأهالي والخدمة العسكرية" والزامية دفع الضرائب واستحالة استفادة المسلمين من الوظائف العمومية. كما خضع الأهالي لإجراءات تقييد حرياتهم العامة مثل حرية المشاركة في الاجتماعات والتعليم وحرية الصحافة^(١).

أخذت الحركة الوطنية في التطور نحو تكوين الأحزاب ذات الاتجاهات السياسية والإصلاحية التي أخذت على عاتقها مقاومة الاستعمار الفرنسي من خلال الكفاح السياسي بعد تبين عدم جدوى المقاومة المسلحة لما يقرب من قرن من الزمان^(٢). وهكذا، فقد قامت الحركة الوطنية الجزائرية على أكتاف جماعة من الوطنيين الجزائريين الذين انقسموا في تيارين رئيسيين أولهما ما عرف "بدعاة الإصلاح"، والآخر "دعاة الاستقلال"^(٣). وكان دعاة الإصلاح ينتمون إلى مجموعة من الأعيان وأبنائهم المتعلمين والمقيمين بالمدن، ويدعون إلى إدخال إصلاحات سياسية تقوم على المساواة، لكنهم اختلفوا حول آليات الإصلاح وأدواته، حيث كان بعضهم يرى ضرورة الانتساب إلى الثقافة الفرنسية، وعرف هؤلاء بالاندماجين، وهم جماعة النخبة الجزائرية المنتسبة بالثقافة الفرنسية^(٤).

بينما كان البعض الآخر بقيادة الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر يطالبون بحق الشعب في المساواة وتقرير المصير، وعرف هؤلاء بالإصلاحيين، وكان يقود الفرع السياسي لهم حركة تعرف باسم "الشباب الجزائريين" مكونة أساساً من أعيان ومفكرين مسلمين أسسوا أولى الجمعيات الثقافية والصحف الجزائرية للممارسة نشاطاته. وتجسد الجناح الاندماجي لهذا الفرع في منظمة سياسية هي "رابطة النواب

^١ أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ١٩٠٠-١٩٣٠، ج٢، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت،

١٩٩٢، ص ص ٨٦-٨٧.

^٢ المرجع السابق، ص ٩٦.

^٣ مؤمن العمري: مرجع سابق، ص ١٢٦.

^٤ فرحات عباس: الشباب الجزائري، ترجمة أحمد منور، الجزائر، ط١، ٢٠٠٧، ص ٥.

المنتخبين" الذين عقدوا أول مؤتمر لهم سنة ١٩٢٧، وأسسوا فيما بعد فيدرالية المنتخبين التي سرعان أن اختفت في ظل غياب الإصلاحات السياسية المرجوة^(١).

أما تيار دعاة الاستقلال، فقد تبنى أصحابه الدعوة إلى استقلال المغرب العربي تحت لواء حزب نجم شمال أفريقيا الذي كان مجرد تنظيم نقابي يدافع عن حقوق العمال ثم تحول إلى حزب سياسي في العام ١٩٢٦ يضم الوطنيين المغاربة والتوانسة والجزائريين، وقد أعلن الأمير خالد رئيساً شرفياً له، وبعد فترة أصبح الحزب جزائرياً فقط بعد انسحاب المغاربة والتوانسة منه. ومنذ ذلك الحين بدأ كفاح حزب نجم شمال أفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر بزعامة مصالي الحاج الذي أصبح قائداً شعبياً بارزاً في المشهد السياسي الوطني^(٢).

وبالتوازي مع هذا التيار برزت حركات أخرى معتدلة كان منها جمعية العلماء المسلمين (أسست في العام ١٩٣١)، التي كونت من قبل عدة علماء على رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس، وكانت تدعو بالأساس إلى إصلاحات دينية وثقافية^(٣)، وكذلك الحركة الشيوعية المتمثلة في الحزب الشيوعي الجزائري الذي تأسس في العام ١٩٣٦ ومارس نشاطه في الدفاع عن الطبقة العاملة وإصلاح الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الجزائر، غير أنه كان ذا اتجاه إمامي يرغب في تجنيس الجزائريين بالجنسية الفرنسية ودمجهم في فرنسا^(٤).

وخلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)، عانت الجزائر -كغيرها من الأقطار المحتلة- من ويلات الحرب، حيث استغلت فرنسا كل إمكانيات الجزائر المادية والبشرية لإمداد الجيش الفرنسي بما تتطلبه الحرب، وقد واجهت فرنسا الكفاح الوطني الجزائري بكل عنف خلال هذه المرحلة، فقامت بحملة مكثفة من الاعتقالات اعتباراً من العام ١٩٣٩ عند بداية الحرب العالمية الثانية، كما عملت على حجب الصحف الوطنية كالصائير والأمة والشهاب، فضلاً عن إعدام كل مواطن جزائري له ميول لنول المحور ضد الحلفاء^(٥).

^١ مؤمن العمري: مرجع سابق، ص ٤٥.

^٢ أبو القاسم سعد الله: مرجع سابق، ص ٣٧٢.

^٣ المرجع السابق، ص ٢١٦.

^٤ نفس المرجع السابق، ص ص ٣٢٩-٣٣١.

^٥ فرحات عباس: دليل الاستعمار، الجزائر، ١٩٦٧، ص ص ١٣٠-١٣٢.



ورغم ذلك عجزت فرنسا عن تفويض الكفاح الوطني الجزائري، حيث أصدر الوطنيون الجزائريون في ٣١ مارس ١٩٤٣ ما عرف بـ"بيان الشعب"، أو بيان فيفري، وكان يمثل ميثاقاً وطنياً يعبر عن نمو الوعي الجزائري وإدراكه بتطورات الأوضاع الدولية وظهور الأفكار التحررية في العالم خاصة بعد صدور حق الشعوب في تقرير المصير بعد إعلان مبادئ ويلسون الأربعة عشر التي أصدرها الرئيس الأمريكي ولسون في يناير ١٩١٨^(١). وفي الثامن من مايو ١٩٤٥، انطلقت المظاهرات الجزائرية تعبر عن الوعي الشعبي وتدد بالاستعمار الفرنسي الاستيطاني. وقد واجه المستعمرون مظاهرات شعب الجزائر بدموية لا مثيل لها حيث سقط ما يقرب من ٤٥ ألف شهيد خلال المظاهرات^(٢).

ورغم ذلك القمع، وسقوط أعداد كبيرة من الشهداء الجزائريين، نجحت الحركة الوطنية الجزائرية في تجاوز الإطار المحلي إلى الوصول للمجتمع الدولي بقوة، حيث أخذت التوازنات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية تترك تأثيرها على مجريات الأمور في سائر المنطقة العربية.

محددات الموقف الأمريكي من الوجود الفرنسي في الجزائر :

بدأ المسؤولون الأمريكيون في التفكير بجدية في أمن الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية في الفترة ١٩٤٣-١٩٤٤، ونصح المخططون العسكريون بتعزيز نظام قواعد عسكرية في الخارج. وتشابكت العديد من هذه الخطط مع طبيعة التحالف خلال الحرب العالمية الثانية. وكان هدف سياسات القواعد تمكين الولايات المتحدة من استخدام القوة لمواجهة أية تهديدات أو تقادي أي عدوان محتمل على المصالح الأمريكية في المناطق المختلفة، ومن بينها الشرق الأوسط وشمال أفريقيا^(٣).

¹ P. E. Sarrasin, La crise Algerienne, Paris, 1949, pp. 176-200.

² Aron, Les origines de la guerre d'Algerie, Paris, 1962, pp. 108-109, see also: P. E. Sarrasin, op. cit. pp. 12-13.

³ Leffler, Melvyn P. The American Conception of National Security and the Beginnings of the Cold War, 1945-48, The American Historical Review, Vol. 89, No. 2 (Apr., 1984), p. 349.

ازداد التيار الاستقلالي قوة في الثلاثينيات، أمام وضع الانسداد الذي فرضه الاستعمار، الأمر الذي حمل القائمين على النظام آنذاك على قمع قاداته دون هوادة وحظر الحركات السياسية وصحفها التي أصبحت تنشط بسرية إلا إن هذا الوضع ساهم في وعي قادة مختلف الحركات بضرورة توحيد القوى. يشير المؤرخون إلى أنه في سنة ١٩٤٣ وفي خضم الحرب العالمية الثانية وافق حزب الشعب الجزائري على "بيان الشعب الجزائري" الذي حرره فرحات عباس والذي كرس مبدأ "الجزائر المستقلة" ليلتحق بذلك بباقي تيارات الحركة الوطنية: علماء وأنصار الاستقلال من أجل حركة أصدقاء البيان والحرية سنة ١٩٤٤". حينئذ، اعتبر بعض أعضاء حزب الشعب الجزائري أنه حان الوقت للانتقال إلى العمل الميداني واستغلال "ضعف فرنسا" المتورطة في النزاع العالمي^(١).

ربما كان التحالف مع الولايات المتحدة في العام ١٩٤٧ يشكل الاستمرارية الصحيحة في سياسة فرنسا الخارجية، لكن بدا أن عدداً لا بأس به من القادة الفرنسيين، بالإضافة لشريحة كبيرة من أبناء المجتمع، لم تساهم إلا بالانزعاج أو عدم تقدير دور الولايات المتحدة الأميركية. وشرح هذا الموقف ليس معقداً؛ فهذا الانزعاج الفرنسي ليس إلا لأن الدور الذي لعبته باريس في ذلك الحين كان التزامها بالموافقة والخضوع أحياناً لسياسة واشنطن الدولية، وهذا ما أكدته رسالة سرية بعث بها رئيس الجمهورية فانسان أوريول Vincent Auriol (تولى رئاسة الجمهورية في الفترة يناير ١٩٤٧ - يناير ١٩٥٤) إلى سفير فرنسا في واشنطن هنري بونسيه Henry Bonce جاء فيها: "إن الفرنسيين يتسألون إذا ما كنا حقاً في الحلف الأطلسي كي لا نتلقى الإذلال والتبعية على الساحة الدولية". في الواقع إن فرنسا في الجمهورية الرابعة (١٩٤٦-١٩٥٨)، وبرغم من أنها دولة كبرى، إلا إن

^١ الحركة الوطنية الجزائرية، موقع جبهة التحرير الوطني



اقتصادها كان مدعوماً من خلال خطة مارشال Marshall Plan الأمريكية، ومن الناحية العسكرية، اعتبرت "محمية" من قبل المظلة العسكرية الأمريكية^(١). برغم التحالف الأيديولوجي والاستراتيجي بين البلدين، فإنّ الفرنسيين في أغلب الأحيان حددوا مصالحهم في صفوف معارضة هذا الحليف، خصوصاً وأنّ المصطلحات السياسية المستعملة لديهم كانت من نوع "الهيمنة المزدوجة" و"التهديد المزدوج" والمساواة بين الهيمنة السوفياتية والهيمنة الأمريكية. هذا الانزعاج الفرنسي لاحظته واشنطن، فبدأت الدوائر السياسية والاجتماعية الأمريكية العمل على التعرّف على كل ما من شأنه أن يعيق السياسة الأمريكية التي مصدرها فرنسا، وما تسعى إلى تكوينه، والذي يسمّى اليوم الفرنكوفونية. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل التراجع الأوروبي جاء نتيجة تصاعد إرادة القوة الأمريكية؟ وتتساءل باريس بأنّ القوة الأمريكية تطمح إلى إنهاء إمبراطورية فرنسا الاستعمارية، فواشنطن بدأت تكثّر من انتقاداتها ومعارضتها لهذا الاستعمار. وليس صدفةً، في أواخر الجمهورية الرابعة وإبان أزمة قناة السويس وحرب الجزائر، أن نرى الأزمة السياسية بين البلدين قد وصلت إلى أعلى حالات التوتر، وذلك إلى درجة الكراهية في الشارع الفرنسي ضد الولايات المتحدة^(٢).

في أواخر الجمهورية الرابعة ومع بداية الجمهورية الخامسة، لم يتوقف الفرنسيون عن اتهام حلفائهم في الحلف الأطلسي بعدم تقديم المساعدة لهم رغم المعارك الشرسة التي خاضتها باريس في شبه جزيرة الهند الصينية أو في أفريقيا (فيتنام والجزائر)، حيث كان تهديد الاتحاد السوفياتي مباشراً لفرنسا. في المقابل كانت الولايات المتحدة تأسف وتشكو دائماً من غياب الدعم الأوروبي لتورطها الفيتنامي^(٣).

^١ وليد رامز عريبيد: نظرة تحليلية للعلاقات الفرنسية- الأمريكية، مجلة الدفاع الوطني، العدد ٥٤، أكتوبر ٢٠٠٥، <https://www.lebarmy.gov.lb/ar/content/>

^٢ Leffler, Melvyn P. The American Conception of National Security and the Beginnings of the Cold War, Op. Cit. p. 351

^٣ وليد رامز عريبيد: نظرة تحليلية للعلاقات الفرنسية- الأمريكية، مرجع سابق



كذلك فإنّ الزعيم الفرنسي شارل ديغول Charles de Gaulle الذي تسلّم زمام السلطة عام ١٩٥٨ رسم استراتيجية جديدة لفرنسا، فوقّع اتفاقية السلام مع الجزائريين، وأصبحت الجزائر بذلك مستقلة، كما اتجه نحو سياسة التخلّص من الفكر الاستعماري لفرنسا بإعطاء عدد من الدول الأفريقية استقلالها وربطها بالتالي بمجموعة من معاهدات التعاون والصداقة. وربط الرئيس الفرنسي، كل ذلك، بحركة ديبلوماسية مركزية مع الدول النامية في العالم الثالث، لاسيما وأنّ التضامن الأيديولوجي و التحالف مع الولايات المتحدة أخذ منحى آخر، هو حالة من الشك، ولّدته المواجهات الناجمة على أثر إنهاء الاستعمار في أفريقيا^(١).

بعد الحرب العالمية الثانية وانهزام النازية وفي الوقت الذي بدأت فيه الحركات التحريرية ترى النور عبر العالم وتتطور كان الجزائريون الذين ساهموا في تحرير فرنسا التي كانت تستعمرهم يتتبعون مجرى الأمور. لكن "الوعود" التي قطعتها فرنسا فيما يخص تحرير المستعمرات على النحو الذي انتهجه مستعمرون آخرون لم تتعد مرحلة الوعود الكاذبة. وفي ٨ مايو ١٩٤٥ خلال الاحتفال بانتصار الحلفاء على النازية نظم مسلمون جزائريون مظاهرات هتقوا خلالها بعدة شعارات تدعو إلى إطلاق سراح مصالي الحاج (١٨٩٨ - ١٩٧٤) الذي اعتقل قبلها بسنة في برازافيل، وإلى جزائر مستقلة. تمخضت عن هذه المظاهرات المجازر المأساوية في الشمال القسنطيني وسطيف و قلمة وخراطة التي خلفت عشرات الآلاف من القتلى والتي تعتبر العامل المفجر لحرب التحرير الوطني قبل الأوان. بعد مضي سنة على هذه الأحداث حاول مصالي المشاركة في تشريعات ١٩٤٦، وأنشأ حركة انتصار الحريات الديمقراطية بصفة قانونية في الوقت الذي أنشأ فيه حزب الشعب الجزائري الذي كان ينشط في السرية المنظمة الخاصة في ١٩٤٧ من أجل التحضير للكفاح المسلح^(٢).

¹ Ch-Julien, L'Afrique du Nord en marche, Paris, 1952, p. 284.

² الحركة الوطنية الجزائرية، موقع جبهة التحرير الوطني مرجع سابق.

حقق الحزب الجديد فوزا ساحقا خلال الانتخابات البلدية الأمر الذي أقلق كثيرا السلطات الاستعمارية التي قامت بحل المنظمة الخاصة في العام ١٩٥٠ في حين ساهم الانقسام في صفوف حركة انتصار الحريات الديمقراطية في العام ١٩٥٣ في تسريع مجرى الأحداث لصالح "المناضلين" المؤيدين للكفاح المسلح من أجل الاستقلال الوطني. وسرعان ما قام هؤلاء بإنشاء "مجموعة الـ ٢٢" ثم "مجموعة الأحرار الستة" التي كانت وراء تفجير ثورة الأول من نوفمبر ١٩٥٤^(١).

قيام جبهة التحرير الوطني الجزائرية ١٩٥٤ والموقف الأمريكي:

تمثل جبهة التحرير الوطني حركة سياسية نضالية تحريرية نظمت وقادت جنباً إلى جنب مع جيش التحرير الوطني الشعب الجزائري في ثورة مسلحة ضد الاستعمار الفرنسي من ١٩٥٤ إلى ١٩٦٢ من أجل تحقيق استقلال الجزائر استقلالاً كاملاً يحفظ للجزائر وحدتها الترابية والشعبية والحضارية والثقافية. ونظمت الشعب وهيكلت التراب الوطني بدقة لامتناهية منسقة مع التنظيم العسكري للثورة داخل الولايات والمناطق والنواحي والقسمات^(٢).

تعود أصول الجبهة إلى نشأة اللجنة الثورية للوحدة والعمل التي ظهرت في مارس ١٩٥٤ بهدف إيجاد قيادة ثورية موحدة تنبثق من مناضلي حركة انتصار الحريات الديمقراطية وأعضاء المنظمة الخاصة الذين يؤمنون بالكفاح المسلح وأعضاء اللجنة المركزية التي كانت تتنازع مع رئيس الحركة مصالي الحاج. وعملت اللجنة الثورية على تحقيق وحدة المناضلين، ولما فشلت اجتمع أعضاء المنظمة الخاصة في جوان ١٩٥٤ بالجزائر العاصمة وعرف اجتماعهم بمجموعة ٢٢ التي قرروا فيها تنظيم الثورة المسلحة والإسراع باندلاعها للحفاظ على وحدة الشعب الجزائري وتحقيق استقلاله الكامل. وقد انبثقت عن هذه المجموعة قيادة عرفت بـ لجنة الخمسة ثم الستة ثم التسعة أعضاء وأوكلت لها تنظيم الثورة وتقسيم التراب الوطني

^١ مؤمن العمري، مرجع سابق، ص ٦٩.

^٢ فيليب ميللي، مرجع سابق، ص ٧٥١.



إلى مناطق وتحديد موعد اندلاع الثورة، والاتصال مع باقي المناضلين الفعالين المؤمنين بالعمل الثوري كوسيلة لتحقيق الاستقلال^(١).

يعتبر بيان أول نوفمبر ١٩٥٤ أول برنامج سياسي لجبهة التحرير الوطني حددت فيه أهدافها المتمثلة على وجه الخصوص في العمل على تحقيق استقلال الجزائر التام، وذلك عن طريق إعلان الثورة المسلحة ضد الاستعمار الفرنسي والوصول إلى تحقيق هدف الثورة وهو الاستقلال الوطني وإقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية والاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادئ الإسلامية تحترم فيها جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني. ويمكن تتبع برنامج الجبهة في موثيق مؤتمر الصومال ومؤتمر طرابلس ومؤتمر الجزائر^(٢). وكان الهدف الأول لجبهة التحرير الجزائرية هو تحقيق الاستقلال الوطني واستعادة سيادة الدولة الجزائرية. أما الهدف الثاني، فهو ضمان احترام الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني. وأكدت الجبهة أنها جمهورية ويجب أن تكون صاحبة سيادة داخلياً وخارجياً وأن تكون الدولة الجزائرية ديمقراطية، وهي المبادئ التي دعت واشنطن تنظر للثورة الجزائرية على أنها ثورة "تسير على النمط الغربي" ولا تتبع المبادئ الشيوعية^(٣).

عرفت الجبهة تنظيمًا هيكلياً حققت به هيكلية التراب الوطني سياسياً وإدارياً وعسكرياً، وكان التنظيم القاعدي لجبهة التحرير يركز على لجان ثلاثية من القسمة إلى الناحية إلى المنطقة فالولاية، وقد وصلت عن طريق هذا التنظيم الدقيق إلى توزيع مختلف شرائح الشعب والمجموعات السكانية في مجموعات وفصائل وأفواج وخلايا مرتبطة في شبكة محكمة النسيج، عجزت مختلف المصالح الاستعمارية والمصالح الإدارية أن تصل إلى أسرارها في هذا التنظيم المحكم الذي لم تتمكن من

¹ Leffler, Melvyn P. Op. Cit. p. 354.

^٢ P. E. Sarrisin, Op. Cit. p. 15.

^٣ Kellou, Mohamed, Independence for Algeria, Pakistan Horizon, Vol. 14, No. 4 (Fourth Quarter, 1961), pp. 272-3.



اخترقه. وقد لعبت المرأة دوراً بارزاً في هذا الإطار. بالإضافة إلى ذلك، اعتمدت جبهة التحرير في نشر أهدافها والرد على الدعاية الاستعمارية المغرضة على وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة، وكان لسانها الناطق هو جريدة المجاهد التي أدت دوراً فعالاً وبعد انعقاد مؤتمر الصومال، انضمت إلى جبهة التحرير مختلف الشرائح الشعبية من طلبة وتجار وغيرهم، وصارت الجبهة أكثر تنظيمًا مع صدور ميثاق مؤتمر الصومال التي حددت مسؤوليات المجلس الوطني للثورة الجزائرية ولجنة التنسيق والتنفيذ ثم الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية. انعقد المجلس الوطني للثورة الجزائرية في ٢٥ مايو ١٩٦٢ بطرابلس (المملكة الليبية)، وأوصى بأن تتحول الجبهة إلى حزب جماهيري قوي، وأن يكون ذلك في مؤتمر وطني يعقد في الأراضي الجزائرية بعد استرجاع الاستقلال الوطني. خاض حزب جبهة التحرير الوطني باعتباره التنظيم السياسي الوطني الوحيد في البلاد بعد الاستقلال معركة البناء وأعطيت الأولوية لبناء الدولة الجزائرية الحديثة^(١).

وفي نهاية العام ١٩٤٧ كان التوافق الإنجليزي الأمريكي حول ألمانيا والوضع الاقتصادي المتدهور في فرنسا والحاجة الملحة لمساعدات مارشال عوامل دافعة معاً في اتجاه إعادة تقييم ج*وهية للمواقف الفرنسية تجاه تكوين دولة ألمانية غربية. لكن فرنسا لم تكن متوافقة تمام التوافق مع شركائها الغربيين وظل خيار الحياد جاذباً لعناصر اليسار الفرنسي، وكان الشعور العدائي وسط المواطنين الفرنسيين نحو الخطط الإنجليزية الأمريكية لإعادة بناء ألمانيا منتشرًا بصورة ملحوظة، وتماهى ذلك مع الرفض الديجولي منذ العام ١٩٤٧ لدور فرنسي ضئيل في التحالف الغربي كجزء من نقد شارل ديغول وأنصاره العام للنظام الجمهوري برومته (أي الجمهورية الرابعة)^(٢).

^١ أبو القاسم سعد الله: مرجع سابق، ص ٣٥٠

^٢ THOMAS, M. (2007). France's North African Crisis, 1945-1955: Cold War and Colonial Imperatives. *History*, 92(2) (306), pp. 212-213.. Retrieved from <http://www.jstor.org/stable/24429201>

تطور الموقف الأمريكي من الحركة الوطنية في الجزائر:

سعت جبهة التحرير الجزائرية، منذ بداية الثورة في العام ١٩٥٤، إلى كسب الأقلية اليهودية في الجزائر إلى جانبها، وفي وقائع مؤتمر الجبهة في العام ١٩٥٦ (أغسطس) وردت إشارة حول أمر الجالية اليهودية في الجزائر وهي أن الجزائريين من أصل يهودي لم يحددوا موقفهم بعد، وأنه من المأمول ان يتبعوا خطوات هؤلاء الذين استجابوا لنداء الوطن الأم، مؤكدين وطنيتهم الجزائرية. وتوجهت الجبهة في سبتمبر/أكتوبر ١٩٥٦ بندائها إلى حاخام الجزائر والزعماء المسؤولين عن الطائفة اليهودية في الجزائر "بإظهار الحكمة في المساهمة في خلق الجزائر الحرة المبنية على الأخوة الصادقة". وظلت الثورة الجزائرية خلال سنواتها وهي تشير إلى أن اليهود هم جزائريون من أهل البلاد جاءوا إلى الجزائر ويشتركون مع الجزائريين في صراعهم من أجل الاستقلال، وصرح فرحات عباس رئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة في ٢٠ سبتمبر ١٩٥٧ في مقابلة نشرتها L'Observateur du Moyen Orient "بأن اليهود لهم نفس الحقوق ونفس الامتيازات والالتزامات"^(١).

وفي الوقت الذي احتفظت فيه الولايات المتحدة بعلاقات طيبة مع فرنسا في فترة ما قبل شارل ديغول وما بعدها، فإن الأمريكيين وتقوا علاقاتهم مع ثوار الجزائر. وفي تونس استدعت قيادة الثورة الجزائرية هناك دور واشنطن في الأزمة ورحبت "بمساعيها الحميدة". وأخبر أحد قيادي الثورة الجزائرية وهو أحمد بومنجل مسئولاً بالسفارة الأمريكية في تونس وهو مونرو بليك Munroe W. Blake أن الوقت قد حان لأن يجبر الأمريكيون باريس على حل الأزمة الجزائرية. وكان الثوار الجزائريون متفائلون بخصوص دور واشنطن في القضية الجزائرية وتقبلوا فكرة الولايات المتحدة الأمريكية بتأجيل إعلان قيام الحكومة المؤقتة ورأوا أن فرص الوصول لتسوية سلمية سوف تتحسن كثيراً إذا توقفت الولايات المتحدة عن تسليح

^١ أحمد سميح حسن إسماعيل: دور اليهود في الجزائر ١٩١٩-١٩٦٢، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ٢٢٨.



فرنسا. وكان الثوار انفسهم يحتاجون إلى ذخائر للأسلحة امريكية الصنع التي بحوزتهم والتي استولوا عليها من الفرنسيين وكانوا يأملون بالحصول على المزيد منها عبر تونس. وهكذا أكدت جبهة التحرير الجزائرية مخاوف فرنسا من أن تسليح الولايات المتحدة الأمريكية لتونس بداية من العام ١٩٥٧ كان في واقع الحال تسليحًا للثوار الجزائريين. كما أرسلت جبهة التحرير إشارات ملتبسة تجاه شارل ديغول للولايات المتحدة الأمريكية فحواها أن ديغول "أسير اليمين المتطرف" مما يجعل صنع السلام بين فرنسا والحركة أمرًا صعبًا. وتدارك الديجوليين هذا المأزق وأخبروا السفير الأمريكي أموري هوتون Amory Houghton أنهم على اتصال سري بالقائد الجزائري فرحات عباس المتعاطف مع ديغول ومع محمد يزيد ممثل جبهة التحرير الجزائرية في نيويورك الذي أكد للمسئولين الفرنسيين ومنهم كابو لودج Cabot Lodge أن ديغول هو الأكثر قدرة على تقديم حل للصراع في الجزائر^(١).

وأكدت الجبهة في يونيو ١٩٥٨ في ردها على استفسار المجلس الأمريكي لليهود حول وضع اليهود في الجزائر في المستقبل بأن الجزائر ستكون دولة ديمقراطية اشتراكية تقضي على جميع صور التمييز العنصري والديني وتعامل الجميع ممن يودون الاشتراك في بناء الجزائر وقد تبين في مراكش وتونس بعد استقلالهما أن حقوق الأقليات مصونة وأفرادها يلعبون دورًا رئيسًا في الحكومة، وأنهم قد اندمجوا في الحياة السياسية والاجتماعية^(٢).

وأعلن محمد سعدون أحد الممثلين السياسيين للحركة الوطنية الجزائرية في مقابلة صحفية أن أي مؤتمر ستعقده الحركة مستقبلاً للنظر في مشاكل الجزائر

¹ Wall, Irwin M. The United States, Algeria, and the Fall of the Fourth French Republic, Diplomatic History, Vol. 18, No. 4 (Fall 1994), pp. 508- 509.

² أحمد سميح حسن إسماعيل: دور اليهود في الجزائر ١٩١٩-١٩٦٢، مرجع سابق، ص ص ٢٢٨-٢٢٩.



يجب أن يكون به ممثلون عن اليهود الجزائريين. وأكد على اعتبار أن اليهود جزء من الأمة الجزائرية وأن الجبهة سوف تمنحهم كل حقوق المواطنين التي تضمنها إعلان حقوق الإنسان وتفكر في دمجهم وفق الأسلوب المتبع حالياً في تونس ومراكش. ووجهت صحيفة المجاهد الجزائرية نداء إلى اليهود الجزائريين تدعوهم إلى الانضمام لقضية الثورة الجزائرية وأنهم جزء متمم للشعب الجزائري ودعتهم إلى أخذ دور أكثر فعالية في النضال مع الشعب الجزائري وفي صفوفه^(١).

ومع ذلك، فلم يكن هناك أي ضغط من جانب الجبهة على اليهود والطائفة اليهودية لكسبهم إلى جانبها، كما لم يظهر اليهود أنفسهم سياسة جماعية موحدة فيما يتعلق بموقفهم من الأحداث السياسية، واستغل المتطرفون من المستوطنين الأوروبيين والمنظمات اليهودية في الخارج بوادر القلق التي ظهرت بين اليهود في الجزائر حول الخطة التي ستتبعها الجزائر في المستقبل لدمج عناصر الأمة، كما استغلوا تأثر وضع اليهود الاقتصادي نتيجة أحداث الثورة (بسبب المقاطعة العربية لكل المؤسسات الأوروبية بما فيها اليهودية) لبدء حملة لزرع الفوضى والاضطراب^(٢).

وكان بعض المراقبين لمسرح الأحداث في الجزائر يميلون إلى الاعتقاد بأن العناصر المتطرفة من المستوطنين الأوروبيين يسعدها أن ترى تردي العلاقات العربية اليهودية وتطورها إلى حوادث دامية فشغل وكلاؤها في تنظيم حملة دعائية ومظاهرات ضد اليهود في الجزائر ووهران وغيرهما لحثهم على عدم التخلي عن الوقوف إلى جانب الجيش الفرنسي والمدنيين الفرنسيين في الجزائر؛ لأن وضع اليهود الجزائريين في الجزائر هو كوضع سائر الأوروبيين الذين يدينون بكل شيء لفرنسا، فلا يجب أن يتخلوا عنها بل أن يبقوا ويقاوموا مع غيرهم من الأوروبيين^(٣).

^١ المرجع السابق ص ص ٢٢٩-٢٣٠

^٢ Thomas, M. Op. Cit. p. 214.

^٣ أحمد سميح حسن إسماعيل: دور اليهود في الجزائر ١٩١٩-١٩٦٢، مرجع سابق، ص ٢٣٠.



وهو ما يفسر وقوف قرابة ٩٠% من يهود الجزائر في صالح بقاء الجزائر فرنسية ثم وقوف بعضهم إلى جانب منظمة الجيش السري الفرنسي التي تولت حملة من الإرهاب والفوضى والعنف ضد الجزائريين وضد استراتيجية ديجول في الجزائر من أجل إبقاء الوجود الفرنسي فيها^(١).

وكانت الولايات المتحدة تنظر للجيش الفرنسي -الذي عملت على تقويته ليكون قوة دفاع أوروبا ضد الغزو السوفيتي المحتمل- وهو يستنزف قوته في الجزائر، وبدأت الولايات المتحدة تنظر لألمانيا وقوتها العسكرية كبديل مناسب عن فرنسا بعد العام ١٩٥٢ خاصة بعد فشل فرنسا في قيادة عملية بناء جماعة الدفاع الأوروبية European Defense Community في العام ١٩٥٤. واتضح التضارب في السياسات الأمريكية والفرنسية كحليفين في العام ١٩٥٣ خلال حرب الهند الصينية والتي مولتها الولايات المتحدة بالكامل وكان هدف فرنسا من وراءها الحفاظ على إمبراطوريتها المتداعية بينما انشغل الأمريكيون بشكل أكبر بالتوسع المحتمل للقوة السوفيتية. أما في الجزائر حيث بدأ الصراع يتصاعد في نوفمبر ١٩٥٤ عقب هزيمة فرنسا المذلة في Dien Bien Phu وانسحابها من الهند الصينية. وفي غياب تهديد النفوذ الشيوعي في الجزائر فإن المواقف الأمريكية المعادية للاستعمار كانت أكثر وضوحاً، وتزايد السخط الأمريكي من تزايد عجز فرنسا عن إنهاء الحرب في الجزائر^(٢).

ولم تكن للولايات المتحدة موقفاً عدائياً تجاه جبهة التحرير الجزائرية مقارنة بما كنته لعبد الناصر نظراً لأن الأولى لم تكن لها "أطماع" تتعلق بدعم حركات التحرر الأفريقية والعربية والإسلامية، وهو الأمر الذي مكن الولايات المتحدة من إقامة علاقات جيدة مع الثوار الجزائريون حتى على حساب تهديد علاقاتهم مع فرنسا أو

¹ Thomas, M. Op. Cit. p. 214.

² Wall, Irwin M. The United States, Algeria, and the Fall of the Fourth French Republic , Op. Cit. pp. 489-90.



الناو. وكانت الجزائر حالة مثلت القبول الأمريكي بثورة كانت واشنطن مقتنعة أن مآلاتها ستكون إلى الديمقراطية وعدم الجروح للخيار الشيوعي، وهكذا واصلت سياسات أيزنهاور - دالاس محاولات استمرار حوار بناء بين لفرنسيين والجزائريين. وفي مارس ١٩٥٨ أكد دالاس لمجلس الأمن القومي أنه في الثلاث أزمات الأكثر بروزاً في العالم - وهي إندونيسيا وشمال أفريقيا والشرق الأوسط - كانت الشيوعية والاتحاد السوفيتي غائبين ولا توجد أدلة على "مؤامرات سوفيتية" فيها^(١).

وكان الخيار الأمريكي في حالة الجزائر أسهل بلا شك في ضوء حالة الفوضى المزمرة التي بدأ أنها السمة الأساسية والمستمرة للسياسة الفرنسية. ومن وجهة النظر الأمريكية فقد كان عدم استقرار التشكيل الوزاري في باريس واستمرار التغيير في هذه الوزارات دافعاً لشل السياسة الفرنسية. كما عبر عن ذلك أوضح تعبير إجماع الولايات المتحدة عن تقديم الدعم لفرنسا بتعزيزها بغارات أمريكية جوية في الهند الصينية لمساعدة باريس في رفع الحصار خلال معارك Dien Bien Phu بسبب أن الحكومة الفرنسية لم تقدم طلباً محدداً ومصداقاً عليه منها كجهة رسمية وبإجماع مكوناتها، بل إن الطلب قدم من قبل وزراء فرنسيين بشكل أحادي لإدارة دالاس، والذي أكد على هذه الحقيقة وأن الوزارة الفرنسية لم تستطع حتى أن تعقد اجتماعاً لأنها منقسمة داخلياً^(٢).

وبشكل عام، فقد كانت العلاقات بين الجزائر والولايات المتحدة معقدة نوعاً ما. ومع ذلك تحسنت العلاقات سياسياً واقتصادياً. عندما كان جون كينيدي John Kennedy لا يزال عضواً في مجلس الشيوخ، كذلك تحدث عن تأييده لاستقلال الجزائر لصحيفة نيويورك تايمز في ٢ يوليو ١٩٥٧. وخلال فترة رئاسته هنا كينيدي

¹ Ibid, pp. 490-491.

² Noutschi, A. La naissance du nationalisme Algerian (1914-1954), Paris, 1962, p. 109. .



الجزائر بعد حصولها على الاستقلال عن فرنسا عام ١٩٦٢^(١)، ويمكننا بقراءة خطاب التهنئة تلمس مدى اهتمام الولايات المتحدة ورئيسها كينيدي باستقلال الجزائر، فقد اعتبر كينيدي أن هذا الاستقلال لحظة مهمة على المستوى العالمي وقارن بين احتفال الأمريكيين بالعيد السنوي لاستقلالهم بعد معاناة كبيرة وصعوبات جمة واجهت الشعب الأمريكي للوصول لهذه اللحظة، وكفاح الشعب الجزائري. وهنا كينيدي القادة الجزائريين والفرنسيين على حكمتهم وصبرهم وعمق بصيرتهم التي أظهرها خلال المفاوضات وإفساح الطريق أمام هذا الحدث التاريخي. وأكد كينيدي على عظيم اهتمامه بمستقبل الجزائر وشعبها قبل توليه رئاسة الولايات المتحدة بسنوات، وعبر عن أمله في تقوية ومضاعفة روابط الصداقة الأمريكية مع حكومة الجزائر وشعبها. وأنه يتطلع للعمل مع الجزائر من أجل الحرية والسلام ورفاهية الإنسان^(٢). وزار الرئيس بن بلة الرئيس كينيدي في ١٥ أكتوبر ١٩٦٢، قبل يوم واحد من بدء أزمة الصواريخ الكوبية.

وقد جسدت هذه المواقف الأمريكية المتوازنة نوعاً ما في شمال أفريقيا تجاه الاستعمار الفرنسي نفسها تماماً في الحالة الجزائرية خاصة أن الأمريكيين بدعوا يفكرون في استغلال أوجه القصور في الحكومة الفرنسية لصالحهم. واعتبر مؤرخون كثر أهمهم مايكل هاريسون Michael Harrison أن الأحداث التي قادت إلى ١٣ مايو ١٩٥٨ شكلت في الواقع ثورة ضد الولايات المتحدة الأمريكية من جانب الفرنسيين الذين شعروا بالخذلان الكبير والرغبة الكبيرة في تحقيق حل وطني (في الجزائر) وليس حلاً مفروضاً من قبل القوة العظمى الغربية (الولايات المتحدة). لكن يلاحظ أيضاً أن واشنطن لعبت مع ذلك دوراً كبيراً في سقوط وزارة رئيس الوزراء

¹ "Statement on Algerian independence, 3 July 1962 – John F. Kennedy Presidential Library & Museum". <https://www.jfklibrary.org/Asset-Viewer/Archives/JFKPOF-039-013.aspx>

² Ibid.



فليكس جيلار Felix Gaillard في أبريل ١٩٥٨ وهو الأمر الذي فتح الطريق أمام وصول شارل ديغول للحكم. وخلال أزمة ١٣ مايو نفسها كانت واشنطن أكثر حكمة من أن تفرض حلاً على الفرنسيين، وكان دورها خلال الأحداث التي جاءت بديجول في حده الأدنى والملائم وحظي بتقدير الفرنسيين أنفسهم. وهو ما أدى إلى سقوط الجمهورية الرابعة بسلاسة^(١).

وكانت الجمهورية الرابعة غير المستقرة قادرة على خلق أزمة حادة في العلاقات الدبلوماسية الأمريكية- الفرنسية، إضافة إلى الخلاف حول المسألة الجزائرية، وبدت هذه العلاقات على حافة الانهيار وهددت التكامل العسكري للناطو في حدها الأدنى، بل ووصل التهديد إلى تداعي بناء السياسة الأوروبية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية وردا على الحرب الباردة. وخشي الأمريكيون في ذلك الوقت من احتمالات ترك فرنسا للناطو وتوجهها نحو الحياد. وتزايدت هذه المخاوف. لكن الجزائر أقيمت واشنطن أنه من الأفضل أن يكون هناك نظام سياسي مستقر في فرنسا حتى لو كان نظام سياسي يهدد بالتصادم مع السياسات الأمريكية بدلا من مواصلة التعامل مع وزارات متغيرة تميل للعب على "العداء لأمريكا" من أجل الحفاظ على وجودها في السلطة. وفي الوقت نفسه أقيمت الجزائر ومعضلة فرنسا فيها الفرنسيون، ولاسيما شارل ديغول، بالقيمة المحدودة للناطو في حماية المصالح الفرنسية^(٢).

ويجب النظر للسياسة الأمريكية في شمال أفريقيا بشكل عام وفي الجزائر بشكل خاص خلال الخمسينيات على أنها استكمال لسياسة الولايات المتحدة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية خاصة بعد تحجيم الغزو الأمريكي الذي تلا هزيمة فرنسا في الحرب على يد ألمانيا في العام ١٩٤٠ من طبيعة الاحتلال الفرنسي في شمال أفريقيا وشجع بشكل غير مباشر على نمو حركات المقاومة للاستعمار

¹ Wall, Irwin M. The United States, Algeria, and the Fall of the Fourth French Republic , Op. Cit. p. 491.

² Noutschi, A. La naissance du nationalisme Algerian, Op. Cit. p. 113.



الفرنسي في دول هذه المنطقة. وتوصل الأمريكيون بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية إلى أن الحفاظ على الهيمنة الفرنسية على المنطقة هي الطريقة المثلى لضمان أمن شمال أفريقيا، لكن واشنطن ضغطت باستمرار على باريس للقيام بإصلاحات، واقترحت واشنطن في العام ١٩٤٧ وضع الدومينون لكل من المغرب وتونس. وفي واقع الحال، فإن جميع جهود الإصلاح الفرنسية في تونس والمغرب حتى العام ١٩٥٤ جاءت بضغوط أمريكية مباشرة، وأثار امتناع الولايات المتحدة عن التصويت في الأمم المتحدة بشأن تونس في العام ١٩٥٢ حفيظة باريس وأسهم في أزمة جديدة في العلاقات الأمريكية الفرنسية في فترة ما بعد الحرب^(١).

واعتبرت الولايات المتحدة أن تكوين الجمهورية العربية المتحدة سيؤدي إلى تسارع الحركة نحو الوحدة العربية وتزايد حدة المشكلات التي تواجه جميع الأطراف في الشرق الأوسط وفاقمت الصراع بين القوى المؤيدة لناصر والقوى المناهضة له في المنطقة، ومؤيديهم بين القوى الكبرى، مما أدخل المنطقة في مرحلة معقدة للغاية وأكثر خطورة وألقى ظلالاً من الشك فوق تقارير وكالة الاستخبارات الأمريكية - على "حياد" عبد الناصر وضاعف العبء على مؤيدي الارتباط بالغرب في العالم العربي. وقيمت التقارير الوضع في الشرق الأوسط بأكمله - وصولاً إلى الجزائر والمغرب - في العام ١٩٥٨ على النحو المختصر التالي:

- (١) أخذ الجمهورية العربية المتحدة، بدعم من السوفيت، زمام المبادرة في حركة الوحدة العربية؛ والتي تعتبر القوة السياسية الأكثر فعالية ونشاطاً في المنطقة.
- (٢) أن الحكومات العربية المحافظة في الشرق الأوسط لا يبدو الآن على أنها قادرة على الفعل دون الدعم الخارجي لمقاومة الضغوط من قبل الجمهورية العربية المتحدة أو لدعم قوتهم.

¹ Wall, Irwin M. The United States, Algeria, and the Fall of the Fourth French Republic, Op. Cit. p. 492.



(٣) أن توسع الجمهورية العربية المتحدة لا يعوقه سوى إسرائيل ونفوذ القوى الغربية وإلى الآن بعض نظم الحكم والمجموعات المناوئة لزعامة جمال عبد الناصر^(١).

وأوضحت المذكرة تخوف باريس القوي من النفوذ الذي بدأت تحصل عليه القاهرة في ظل نظام ثورة يوليو ١٩٥٢، واضطلاح الأخيرة بور رائد في دعم وتعزيز قوة حركات التحرر الأفريقية خاصة الحركة الجزائرية التي استقطبت على وجه الخصوص قدر كبير من قدرات القاهرة ومواردها في مواجهة الاستعمار الفرنسي، ودفعت القاهرة بسبب مواقفها تلك أثمان كبيرة لعل أبرزها العدوان الثلاثي الذي شاركت فيه فرنسا، ودعم الأخيرة المطلق لإسرائيل في المنطقة.

وكان القصف الفرنسي لساقية سيدي يوسف في تونس (انطلاقاً من الأراضي الجزائرية ومثلت عملية عسكرية خطيرة لضرب أحد مراكز قوات الثورة الجزائرية في تونس) في الثامن من فبراير ١٩٥٨ قد أثار غضب الولايات المتحدة ودفعها إلى انتقاد فرنسا بعبارات لاذعة اعتبرها كثيرون الموقف الأكثر حدة في فترة بعد الحرب العالمية الثانية. واستدعى وزير الخارجية الأمريكي دالاس السفير الفرنسي في واشنطن وأخبره تخوف واشنطن من أن هذه الحادثة يمكن أن "تسبب كارثة كبيرة لنا جميعاً". فقد كان الوضع في الجزائر خارج عن السيطرة ويتجه من سيء لأسوأ ويهدد باندلاع حرب في كافة أجزاء شمال أفريقيا ويدور مصري كبير في هذه الحرب (خاصة بعد دعم الكتلة الشرقية لمصر). وكان الاعتبار الأول للانتقاد الأمريكي استخدام فرنسا لمعدات أمريكية ضد "مدنيين أبرياء" مما يورط الولايات المتحدة في الصراع الجزائري في الوقت الذي تتخذ فيه واشنطن مقاربة ودية مع حركة التحرر الجزائرية وتحاول منعها من الانزلاق نحو الراديكالية العربية بقيادة جمال عبد الناصر. غير أن السفير الفرنسي ألفاند Alphand احتج بأن هدف الغارة هو التعامل مع مصدر إطلاق

¹ Trends in the Middle East in Light of Arab Unity Developments, National Intelligence Estimate, NIE 36-58, Washington, June 5, 1958 (in: Near East Region Series, January- June 1956), p. 61.



النيران المضادة للطائرات من قبل المتمردين وحذر من أنه إذا استمرت الولايات المتحدة في الاتجاه ضد فرنسا في ملف الجزائر، فإن النتائج ستكون غير متوقعة. ثم خفف دالاس من لهجته وأكد ان الولايات المتحدة لا تقدم وصفة للحل ، لكنه كرر أن السياسات الفرنسية الجارية حينذاك ستقود إلى فقدان جميع شمال أفريقيا ووقوعها في يد الشيوعيين، وبنفس المبررت أكد ألفاند أنه في حال "تخلي" فرنسا عن الجزائر فستكون النتيجة الفوضى وانتصار الشيوعية^(١).

ثم عاد ألفاند إلى وزارة الخارجية الأمريكية ليعبر عن "دهشته" من رد الفعل الأمريكي، وحذر أنه في حال نشر الملاحظات التي أبدتها وزير الخارجية دالاس خلال اجتماعه معه فإنه ستكون هناك عواقب خطيرة للغاية على صعيد العلاقات الأمريكية الفرنسية^(٢).

وخلال أحداث مايو ١٩٥٨ في باريس بدأت السفارة الأمريكية هناك في استقبال تطمينات عن الجنرال شارل ديغول من مصادر متعددة قريبة منه. وفي ١٦ مايو أكد السياسي الديجولي إدمون ميشيل Edmond Michelet للسفارة الأمريكية أن الخيار الوحيد المتاح أمام فرنسا هو الاختيار بين شارل ديغول والجهة الشعبية التي يسيطر عليها الشيوعيون. وأن ديغول وحده هو الذي يمكنه السيطرة على الجيش بفضل تجربته العسكرية وكونه مؤيد للولايات المتحدة والناو، والأهم هنا في سياق هذه الدراسة تأكيد ميشيل أن ديغول سيتبع سياسة ليبرالية في شمال أفريقيا^(٣).

¹ Memorandum of conversation, 9 February 1958, Op. Cit.

² Ibid.

³ Wall, Irwin M. The United States, Algeria, and the Fall of the Fourth French Republic, Op. Cit. pp. 506-7.

الخاتمة :

تميز موقف الولايات المتحدة تجاه الوجود الفرنسي في الجزائر بالانتهازية السياسية والانتقال من مرحلة التجاهل إلى الاشتباك المباشر بدافع من عوامل عدة أهمها نمو حركة الوحدة العربية بقيادة الزعيم جمال عبد الناصر وخوف الولايات المتحدة من وصول موجة هذا المد العربي بقوته في المشرق إلى المغرب العربي، والسخط من السياسة الفرنسية المتمتة التي لم تعد تعي حقائق الأمور وتغير السياسات الاستعمارية القديمة والقدرة التفاوضية لباريس في مواصلة سياساتها الاستعمارية العتيقة حتى في ظل عدم انصياها لسياسات الناتو.

كما رحبت جبهة التحرير الجزائرية بالمواقف الأمريكية الضاغطة على فرنسا في ملف الجزائر بغض النظر عن أهداف السياسة الأمريكية على المدى البعيد (مثل احتواء الجزائر على وجه الخصوص وشمال أفريقيا بشكل عام ومنع النفوذ الشيوعي في المنطقة).

وكان الترحيب الأمريكي باستقلال الجزائر في العام ١٩٦٢ مبلوراً للسياسة الأمريكية تجاه الوجود الفرنسي في الجزائر ورفض الولايات المتحدة للسياسات الاستقلالية التي حاولت فرنسا اتباعها بعيداً عن مظلة حلف الناتو وتعزيزاً لفكرة "احتواء" الجزائر وبقية الشمال الأفريقي بعيداً عن التأثير المصري والنفوذ الشيوعي.

وكانت القيادة الأمريكية المتمثلة في الرئيس جون كينيدي تتبنى سياسة منفتحة على الثوار الجزائريين بفضل التكوين الليبرالي للرئيس كينيدي وتعاطفه مع القضية الجزائرية قبل توليه الرئاسة.

ويمكن القول؛ ان طبيعة المرحلة الانتقالية التي كانت تشهدها فرنسا الخارجة منهكة من الحرب العالمية الثانية وفي مسارها للسعي لتحقيق دولة قوية متماسكة عقب تبني الولايات المتحدة لمشروع مارشال لإعمار أوروبا، قد ساهمت في رضوخ فرنسا للضغط الجزائري والانسحاق وراء السياسة الأمريكية وقبول استقلال الجزائر.